

# حَضْرَةُ الْهَنْدِك

تأليف  
الدكتور غوث ساف لوبون

كتاب مصور  
يشتمل على ١٨٦ صورة وخرائط  
وفى وثائق المؤلف وتصويره الشمسى ورسمه وخطه

نقله إلى العربية  
عادل زعبي



دار العالم العربي  
DAR AL-AALAM AL-ARABI

## بيانات الفهرسة أثناء النشر

(إعداد: إدارة الشؤون الفنية بدار الكتب المصرية)

لوبيون، غوستاف

حاضرات الهند /

غوستاف لوبيون؛ نقله إلى العربية عادل زعيتر  
ط 1 - القاهرة: دار العالم العربي، 2009.

732 ص؛ 24 سم.

1. الهند، تاريخ

أ. زعيتر، عادل (مترجم)

ب. العنوان

ديوي 954

إهداء الكتاب

إلى

النائب وزير الأشغال العامة السابق ووزير المالية الحالي

مسيو سادى كارنو

اعترافاً بما شَمِلَ به بعثة المؤلف العلمية

إلى بلاد الهند من العناية





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« الهندُ زُبْدَةُ جميعِ العوالم وخلاصةُ ناطقةٍ لجميعِ أدوارِ التاريخ وصورةٌ صادقةٌ للأطوارِ المترجعةِ بينِ المهبجةِ الأولى والحضارةِ الحديثةِ » ، « ولا يتجلى الماضي للسائحِ كتجليه في بلادِ الهندِ ، ولا يُحسُّ السائحُ ما اعتورَ أجيالُ البشرِ من تطورٍ وما بينَ هذهِ الأجيالِ من فروقٍ ومن روابطٍ بأحسنِ مما في الهندِ ، فالسائحُ يعلمُ هنالكُ ، فقط ، أنِ الحاضرَ منحدِرٌ من الماضي وأنه يحملُ في أثنائه بذورَ المستقبلِ » .

والهندُ تَمَثَّلُ لخيالِ الأممِ أرضاً لكلِّ عجيبٍ ، فكانتِ عُرْضةُ المغاوى الأجنبية منذَ القديمِ ، وكانَ الأجنبيُّ إذا ما دخلها استقرَّ بها واستغلها استغلالاً محلياً ، فلم يُفكرْ في إخراجِ خيراتها منها .

ويفتحُ الإنكليزُ بلادَ الهندِ الواسعةَ الزاخرةَ بالسكانِ في القرنِ الثامنِ عشرِ بمالِ الهندِ وجندِ الهندِ فيسلكونَ في استعمارها طريقَ نفعِ إنكلترةِ دونِ الهندِ ، فيمتصُّونَ بركاتِ الهندِ ليرسلوها إلى بريطانيا ، وفي سبيلِ الهندِ يحتلُّ البريطانيُّ مصرَ فلا يتجاوزُ عنها ، وفي سبيلِ الهندِ يفصلُ البريطانيُّ السودانَ عنِ مصرَ ، وفي سبيلِ الهندِ يقطعُ البريطانيُّ في القرنِ العشرينِ جنوبَ الشامِ المعروفِ بفلسطينِ فيمعنونَ في تهويدهِ مُؤَمِّلِينَ في أهلهِ العربِ مأساةَ أندلسيةٍ ثانيةٍ ، والهندُ قطرٌ عظيمٌ يسكنه مئآتُ الملايينِ منَ الآدميينِ ، والهندُ قطرٌ عظيمٌ يملكه الإنكليزُ بألفِ موظفٍ بريطانيٍّ وبحبشٍ بريطانيٍّ لا يزيدُ عددَ جنودهِ على مئةِ ألفٍ !

وأبحاث عما وُضع في اللغة العربية عن الهند ، فلم أجد سوى مقالات قليلة هزيلة  
مبثوثة في بعض المجلات العربية ، ولم أجد سوى بضعة كتب صغيرة خاطفة لا تُسَمِّن  
ولا تغنى من جوع ، فيروعن ذلك ، فأرى أن أتمم هذا النقص بأن أنقل إلى العربية  
إحدى غُرر الكتب الميمة التي أُلِّفَت عن الهند .

وينشر العلامة الفيلسوف غوستاف لوبون سنة ١٨٨٤ كتاب « حضارة العرب »  
الجليل الخالد ، ويتخذ في وضعه منهاجاً لم يسبقه إليه أحد ، ويعرِّض فيه صورة واضحة  
لتلك الحضارة العظيمة التي رَغِبَ في بعثها ، فيبدو فريداً في بابها ، فتسير بذكرة  
الرؤكبات ، وننقل هذا السَّفر العظيم إلى العربية ونشره في سنة ١٩٤٥ ، ويتَّقبَّله  
العرب بقبول حسن .

وترسل الحكومة الفرنسية العلامة لوبون على رأس بعثة آثار إلى بلاد الهند ،  
ويجوب لوبون الهند طويلاً وعرضاً فتسفر بعثته إليها عن وضعه سيفراً جليلاً خالداً آخر ،  
فيسميه « حضارات الهند » وينشره سنة ١٨٨٧ فيمَدِّل هذا الكتاب « حضارة  
العرب » ضخامة وروعة وطرافة ويمدُّ تنوعاً له .

ويستعين العلامة لوبون في وضع كتاب « حضارات الهند » بالأصول التي  
اهتدى إليها في كتاب « حضارة العرب » على الخصوص ، فيُعَوِّل ، كما ذكر ،  
على مُحْكَم الأسانيد ، ويعرِّض تطورات النظم الدينية والاجتماعية وعوامل هذه  
التطورات ، ويبعث في الحوادث التاريخية كما يُبْعَثُ في الحادثات الطبيعية ، ويبعث  
الأجيال الغابرة بما انتهى إليه من الكتابات والنقوش والرسوم وبعرِّض صور لبعض  
آثار تلك البلاد الهائلة التي هي مَنِيَّت كثير من المذنيات والمعتقدات .

ويسير العلامة لوبون في كتاب « حضارات الهند » على طريقة التحليل العلمى ، شأنه في كتاب « حضارة العرب » ، فيوضح فيه الصلة بين الحاضر والماضى ويفلل مخلصاً فيه لستن النفس والتطور فينتهى إلى نتائج لم يصل إليها عالم قبله ، فيظهر هذا الكتاب للعالم بدعاً في درس حضارات الهند درساً شاملاً ، ويظهر هذا الكتاب خيراً كتاب عن الهند ، إن لم يكن من أحسن الكتب عنها ، وذلك في بابه وروحه ومناحيه وقوة التحليل فيه ووصول لوبون فيه إلى ما نشده من الأهداف الاجتماعية والأدبية والدينية والسياسية الخ .

ويقع نظرى على كتاب « حضارات الهند » هذا ، وأقرأه بالفرنسية غير مرة وأسأل : هل أوفق لنقله إلى العربية مؤطناً موضوعاته الطريفة ومباحثه القاسية الكثيرة الأصول والفروع التى لا عهد لنا بها ووضعها في قالب عربى خالص ، ويهون الأمر لى ، بعد تردد ، خدمة للعرب في السياسة والعلم والأدب ، فأعزم على ترجمة هذا الكتاب إلى العربية .

وترجمتنا لهذا الكتاب التاريخى الاجتماعى السياسى العظيم حرفية ، وراعينا مبدأ حرفية الترجمة من أول الكتاب إلى آخره مع الانسجام وعدم الإيهام وسهولة المثال .

والكتاب خاص بالهند ، ويشتمل على نحو ألف من أسماء الأعلام ، وتعودنا كتابة هذه الأعلام منقولة عن مؤلفات الغرب ، فنكتب في صحفنا وكتبنا ، مثلاً ، الكلمات : بوذا ، وهمالايا ، وبومباى ، ودلهى الخ . مع أنها تكتب بالحروف العربية في الهند هكذا : بدّهة ، وهمالية ، وبمبى ، ودلهى الخ . وأردنا أن نكتب أسماء الأعلام التى تشتمل عليها ترجمة هذا السفر كما في الهند ، فبدلنا جهوداً

غير قليلة للحصول على جداول خاصة من الهند وغيرها فكان ما يجده القارىء في هذه الترجمة من رسم تلك الأسماء مثل ما فى الهند .

وقضينا فى سبيل ذلك كله أوقاتاً شديدة ولاقينا مصاعب كثيرة يُقدِّرها القارىء ، ولم نر أن نضع لهذه الترجمة مقدمة مطولة ما نشرنا فى آخر الكتاب فهرساً مفصلاً الموضوعات وما رأينا قيام هذا النهرس المفصل مقام المقدمة المطولة ، وحافظنا على مظهر الكتاب كما فى الأصل على قدر الطاقة ، فلم نستثن من صورته ورسومه سوى بعض ما نشره المؤلف بقصد تزيين الكتاب ، فيقوم ما اخترناه منها ، وهو معظمها ، مقامه ، ويؤدى إلى الغاية التى وضعها المؤلف أمامه ، وفى الكتاب خريطتان من تخطيط المؤلف رأينا إبقاءهما على حالهما لاكتسابهما قيمة أثرية مع الزمن .

وإننا نطمح أن تمتاز هذه الترجمة ، التى لم نَنَجُوزَ فيها قط ، بالصحة والوضوح والدقة فلا يضيع فيها معنى ولا يضطرب فيها لفظ ، والله الموفق .

عادل زعيتر

( نابلس نسلطين )

## مُقَدِّمَةُ الْمُؤَلَّفِ

الهندُ من الأفطار التي شَمِلَتْ نظر العلماء والسيَّاح والمتفنِّين والشعراء وأثارت فيهم حبَّ الاطلاع في كل حين ، والهندُ عالمٌ يختلف عن عالمنا بجوِّه وهوائه وأرضه وسكانه ، ولا شَبَهَ بين ما تعرفه الهند وما يعرفه الغرب من الأصول الدينية والمبادئ الفلسفية والفنون والآداب والنظم والمعتقدات .

ذلك العالمُ العجيب هو زُبْدَةُ جميع العوالم وخلاصةُ ناطقة لجميع أدوار التاريخ وصورةٌ صادقة للأطوار المترجحة بين الهمجية الأولى والحضارة الحديثة . ظَلَّتْ تلك الأطوار التي جاوزها البشر دُفِينَةً تحت أعفار العصور زمنًا طويلاً ، وحديثاً بدأنا نرفع الكفن الكثيف الذي يَرَقُدُ تحته أجدادنا ، وأخذنا نبعث أسس معتقداتنا ومشاعرنا وخيالنا .

والعلم لم يستطع ، بالحقِيقَة ، أن يثبت الأطوار التي قطعها الغرب ليلبغ ما وصل إليه من المراج النفسى والنظام الاجتماعى إلا بعد أن ارتاد حَمَلَتُهُ أَقْطَاراً كثيرة ذات أُمم متفاوتة في نشوئها وارتقائها .

وفى الأرض بُقْعَةٌ واحدة تسكنها مختلف العروق الممثلة لجميع تطورات الماضى تقرِّباً ، وتلك البُقْعَة هى ذلك القطر الواسع العجيب الذى وَقَّفْنَا هذا السفر لدرسه ، ففى ذلك القطر إجمالٌ لتاريخ البشر ما اشتمل على جميع الأجيال ، وفيه تبدو جميع

الحضارات حَيَّةٌ أو ماثلة في عظيم الآثار ، وفيه نُبْهِر ما اعتور نظمنا وعاداتنا من متعاقب الصور والأحوال منذ البداءة إلى الزمن الحاضر .

ويكاد يكون مفقوداً ما اضطلع على تسميته بحوادث التاريخ التي يُظَنُّ أنها ضرورية لبعث ماضى الهند ، ولا نأسف على ذلك كثيراً ، ما أدَّت أخبار الملاحم والفتوح وأبناء الأسر الممالك التي تملأ كتب التاريخ إلى حَجَب سَيْر حياة الأمم الحقيقية وإخفاؤها ، وما ودَّ المفكرون أن يعرفوا مجرى الأخيلة والمعتقدات والمشاعر السائدة لأحد الأجيال وتأثير مختلف العوامل التي أوجبتها .

وفي كتابنا الذي جعلناه مقدمةً لتاريخ الحضارات <sup>(١)</sup> بيَّنا كثرة تلك العوامل وأن الأمم جاوزت مراحل تطوُّرٍ متاثلة مع تباين تاريخ هذه الأمم الظاهر ، وأنه إذا ما رُئِيَ أحياناً تباينٌ واضح بين أُمَمَيْنِ فلمصاحبتيهما أوجه تطوُّر مختلفة على الخصوص .

ونحن ، وإن لم يكن لدينا تاريخ للهند بالمعنى الصحيح ، نجد في الهند من الآثار الدينية والفنية والأدبية ما يَبْلُغُ قَدَمَ بعضه نحو ثلاثة آلاف سنة ، وهذه الآثار من الأهمية ما ليس لقِصص المؤرخين ، فبمثل هذه الآثار نَنقُذُ حياة الأمم ، فنقوشُ معبد هندوسى حَرَّبَ خيرٌ من توارىخ الملوك في إخبارنا عن سرائر قدماء الهندوس ، وقلُّ مثل هذا عن كتب الأدباء والقصاص والافاضيص والأساطير في الدلالة على تلك السرائر .

وفي الآثار الأدبية يجب أن يُبْحَثَ عن روح الأمم ، فالشعراء والقصاصون إذا كانوا سريعي الانفعال شديدي التأثر فإنهم يُعانون تأثير بيئتهم ، أى تأثير غير قهيم

(١) كتاب ( الإنسان والمجتمعات وصدورها وتاريخهما ) وضع في مجلدين ، سنة ١٨٨١ .

وعصرهم ، أكثر مما يعانیه العلماء والمفكرون ، ويبدون سراً صادقة بليغة لهما .  
أجل ، إن الشعراء والقاصين يشوّهون ما يصفونه ويبالغون فيما يُعبرون عنه ،  
ولكنه ينطوى تحت ذلك التشويه وتلك المبالغة معانٍ كثيرة ، فالشعراء والقاصون  
يتقمصون روح زمنهم فيألمون ويتزعمون بالآلام أبشاء قومهم ومسارهم وأمانيتهم  
و يترجون عن عواطف أممهم وعن عقائد عصرهم ومشاعره ، فلا يكون أمر أية حضارة  
مجهولاً ما استوعبت ذاكرة الناس قصائد الشعراء وأقاصيص القاصين .

بيد أن فهم معنى آثار الشعب الأدبية والفنية ، ولا سيما آثار الهندوس ، يتطلب  
دراسة هذه الآثار في أماكنها ، فبدراسة الحضارات في الأماكن التي ظهرت فيها  
وكملت نتيجتها من الاطلاع على روحها وتتحرّر من الحكم فيها بأفكارنا  
العصرية ، فلن يقدر علماء أوربة على اكتناء عبقرية أمة آسيوية ووصفها بتفصح  
ما في المكتبات من الكتب .

حقاً أن الهوة التي تفصل بين أفكار رجل غربيّ عصريّ وأفكار رجل  
شرقيّ عظيمة جداً ، فما في أفكار الغربيّ من الدقة والإحكام يختلف كثيراً عما في  
أفكار الشرقيّ من الإيهام والتّوهم ، ومن العبث أن يطمع الغربيّ في استنباط  
ثبات أفكار الشرقيين من عدم تحول عاداتهم ، وبانت أفكار الهندوسيّ ومعتقداته  
من الغموض والتذبذب ما نُقصّر معه لغائنا اللاتينية ( الفقيرة في النعوت مع ما فيها  
من ضبط ) عن الإفصاح عنها في الغالب .

\*\*\*

اقتصر علماء أوربة في مباحثهم التاريخية عن الهند على ترجمة الأسانيد

السَّنْكَرَتِيَّة مع أن السَّنْكَرَت ، لدى الهندوس ، لغةٌ مائت منذ عدة قرون ويكاد شأنها عندهم يكون ماثلاً لشأن اللغة اللاتينية في أوربة ، فتكون معرفتنا لتطور الهند من دراسة كتب الآداب القديمة وحدها متعذرة تَعْدَرُ معرفتنا لأحوال الناس في القرون الوسطى وفي عصر لويس الرابع عشر من دراسة كتب سيسرون وفيرجيل فقط .

ومن العسير أن نستعين بالكتب وحدها فنطلع على ما في الويدا من الشعر الأغر وما أُثِرَ عن قدماء الحكماء من التأملات الفلسفية ومالا يحصى من الآلهة وما يخالف الذوق من الطقوس الصارمة ، ففي الهند نفسها يجب البحث عن حضارتها الكبيرة الرفيعة وآثار عظمتها الخيرة للعقول ، فلا يتجلى مفتاح الأسرار المملوءة بها آداب الهندوس إلّا في أطلال مدنها القديمة وفيما هو ماثل بين صُرُود<sup>(١)</sup> هِمَالِيَّة المتجمدة وسهول الدكن المحرقة من أطلال المدن القديمة ونقوش الزُّون<sup>(٢)</sup> والقصور الزاهية الهائلة التي لم يَرُدْها الرُّوَاد إلّا حديثاً ، ففي هذه الكتب الحجرية التي لا تعرف الكذب تُحَفِّظُ أفكار الأمم .

ومنذ عهد قريب فقط فُطِنَ إلى أهمية ذلك الطراز في البحث ، فبينما يقضى كثير من العلماء أوقاتهم في درس كتب الأدب البرَهْمِيّ فيُسَفِّر ذلك عن وضع ضخم المؤلفات ، وبينما يملأ أولئك العلماء في العواصم الأوروبية الكبيرة مالا يُعَدُّ من الدفاتر ، تَجِدُ اتجاهًا حديثًا إلى دراسة آثار الهند ومبانيها في أماكنها .

(١) الصرود : جمع صرد ، وهو المكان المرتفع في الجبال - (٢) الرون : الوضع تجمع فيه الأصنام وتزين .



ولا مراء في أن الحكومة الإنكليزية عيّنت لجنة خاصة لبلوغ ذلك الغرض ، غير أن هذه اللجنة لم تصنع غير حلّ الكتابات وفكّ رموزها على الخصوص ، ولم تنشر سوى رسوم هندسية لقليل من الآثار بدلاً من عرض صور هذه الآثار عرضاً يَعْلَمُ الغربيّ منه وجودَ فنون تختلف عن فنونه اختلافاً تاماً .

وتزيد ضرورة معرفة تلك الآثار معرفة تامةً ما أغضى الأوروبيون الفائحون عن دُورها بفعل الزمن إن لم يُقَوِّضُوها بعمالهم ، فإذا ما أريد الحكم على ما يصلُ إليه الأمر في المستقبل بما يقع في هذه الأيام قلنا إنه لا يبقى شيء من تلك العجائب التي أُقيمت في قرون كثيرة قبل انقضاء خمسين سنة ، وإنني أذكر ما حدث في مدينة كَهْجُورَا القديمة مثلاً من بين ألوف الأمثلة الماثلة على ذلك الاستخفاف بالآثار ، فقد زال في الأربعين سنة الأخيرة نحوُ ثلث المعابد الستين التي كانت تزُيّنُ جيد هذه المدينة .

قال الجنرال الإنكليزي كِنْفَنغَهَم منذ بضع سنين : « يستحيل على الباحث أن يحوب المهندس من غير أن يأسف على ما أصيبت به بقايا مبانيها الأثرية ، ولم تصنع الحكومة في قرن بعد الفتح الإنكليزي شيئاً تقريباً لحفظها وصيانتها ، مع أنها المصدر الوحيد لمعرفة أحوال الهند الغابرة التي لم يُدَوَّنْ لها تاريخ ، ولا ريب في زوال الكثير منها إلى الأبد ما لم تُحَلَّدْ بتصويرها ووصفها وصفاً مبنياً » .

فإذا حدث ما تَوَقَّعه الجنرال كِنْفَنغَهَم ، وذلك ما نكاد نُبْصره ، أصيبت البشرية بِخُسْرٍ لا يُعوَّضُ منه ، فالبشرية إذ سلكت سبيلاً جديداً بفعل مبتكرات العلوم وأصحت بذلك قادرة على التعبير عن أفكارها بسرعة عادت لا تحتمل صَوْنَهُ هذه الأفكار في قوالب حجرية يتطلب صنعها عدة قرون ، فلن نقيم من المباني

العجيبة كالتي أقيمت في عصور الجاهلية والإيمان ، وليس لدينا ما يحفز إلى إقامة أهرام وكنائس غوطية في زمن البخار والكهرباء .

والحكومة الفرنسية إذ أدركت مآلات الهند من القيمة الفنية والتاريخية عهدت إلينا في دراسة هذه الآثار حيث هي ، فأسفرت بعثتنا عن وضع خمسة مجلدات مشتملة على أربعة صورة مَوْصَّحة ، فاقبستنا بعضها في هذا السفر .

وقد اعتمدنا على دراسة آثار الهند ، فنقيم كتاب « تاريخ حضارات الهند » هذا على أساس متين ، فقد زُرنا جميع مباني الهند المهمة ومنها ما هو قائم في البقاع التي لم يَرُدْها الباحثون إلا قليلاً ، كمنطقة نيبال التي لم يدخلها فرنسيٌ قبلاً ، فاستطعنا أن نجْهَلُوا أموراً كثيرة في تاريخ الهندوس الديني وحضارتهم ، فمن ذلك أننا أثبتنا بما قننا به من دراسة المباني أن البُدْهيّة ، التي أراد علماء أوربة أن يجعلوا منها ديانة بلا إله مسندين في ذلك إلى كتب المذاهب الفلسفية التي وُضِعَتْ بعد ظهور بُدْهَة بستة ستة ، هي أكثر الأديان قولاً بتعدد الآلهة ، وأوضحنا كيف غابت هذه الديانة عن البلد الذي نشأت فيه غياباً لم يجِدِ العلماء له حلاً قبلاً .

واستعنا في هذا الكتاب بالأصول التي اهتمدنا إليها في كتبنا السابقة ، ولا سيما كتاب « حضارة العرب » ، فعَوَّلْنَا على مُحْكَمِ الأمانيد وعرضنا تطورات النظم الدينية والاجتماعية وعوامل هذه التطورات ، وبحثنا في الحوادث التاريخية كما يُبحث في الحادثات الطبيعية ، ودرسنا المذاهب بحذر فسكّات لنا بذلك كلّ نتيج خاص .

وبتلك الأصول تَمَسَّكْنَا من الوصول إلى ما في مبادئ الهند الفلسفية والدينية

والاجتماعية المُعَدَّة من المعاني البعيدة العَوْر وإلى إظهار ما للآلهة القديمة الآفلة من الجَبَرُوت والتقدّيس .

\*\*\*

وللفرنسيين فائدةٌ عملية واضحة من الاطلاع على أحوال الهند الحاضرة فضلاً عن الفوائد التاريخية والفلسفية والفنية التي تُجَنَّبُ من دراسة ماضيها ، فمن المهم أن يُعرَف في هذا الزمن ، الذي يتحدث الناس فيه عن الاستعمار ، كيف استطاعت أمة أوربية أن تسيطر بألف موظف وستين ألف جندي على إمبراطورية مؤلفة من ٢٥٠ مليون شخص ، وقد أتيت لي بما اتفق لي من الصلات بأكبر موظفي الإنكليز في أثناء إقامتي بالهند ، أن أطلع على دقائق إدارة الهند العجيبة التي لا تعرِف أوربية عنها إلّا قليلاً .

وهنالك أسباب ، أهم من تلك على ما يحتمل ، تدعو إلى البحث في شؤون الهند الحديثة ، فقد اقتربت الساعة التي يتقابل فيها الشرق والغرب بفعل الكهرباء والبخار ، والشرق والغرب ما تعلّم من وجود هُوَي عميقة بينهما في الحياة والتفكير حتى الزمن الحالي ، ودنا الغرب وحضارته من دور الخطر في الصراع الهائل الذي سيقع في عالم الصناعة المهلك ، لا في ميادين القتال ، بين أُم متساوية في كفاءاتها المتوسطة متفاوتة في احتياجاتها تفاوتاً عظيماً ، فيتحقق الخطر فيه بالغرب ، وإن شئت فقل بالحضارة ، فما هي نتائج هذا الصراع ؟ ، وإلى أي مَدَى نداوم على منح أُم الشرق من الأسلحة المادية والثقافية ما ستصوبه إلينا ؟ نشل هذه المسائل من الأهمية ما لا يجوز أن نسكت عنه في هذا الكتاب .

فتاريخ حضارات الهند ، إذن ، ليس قصصاً لماضي أدبر إلى الأبد ، بل هو تاريخ ينطوي ، أيضاً ، على مجهولات هائلة .

ولم يَحُلْ من نقص هذا الكتاب الذى هو بدْعٌ فى درس حضارات الهند درساً شاملاً ، وسنبليغ به ، مع ذلك ، المهدف ما رَسَمْنَا صورةً ناطقةً للأطوار المتتابعة والأجيال المتعاقبة التى اعتورت المجتمع الهندوسى الذى لا تزال حضاراته القديمة فاعمةً منذ ثلاثة آلاف سنة وما يَبْنَى ما يكون لقادير هذا المجتمع من أثر كبير فى مستقبل العالم .

أَجَلْ ، لقد بعثنا تلك الأجيال الغابرة بما انتهى إلينا من الكتابات والنقوش والرسوم وبعرض صور بعض آثار تلك البلاد الهائلة التى هى مَنبِت كثير من المذنيات والمعتقدات مستعينين بالقلم والريشة ، ولكن أية ريشة أو أى قلم رصاصى يستطيع أن يُخَبِّرنا بجمال تلك البلاد القاصية التى يَشْعُرُ السائح الأوروبى عند دخولها بأنه انتقل إلى عالم جديد عجيب فى أرضه وسمائه ونباته وحيوانه ؟ وكيف يمكن وصف تلك الديار الساحرة التى أفامت الجبالُ الشاهقة الجبارة حولها نطاقاً أبدياً من الثلوج ، أو وصف تلك المدن الخامدة الواسعة سعةً عواصم أوربة التى توحى معابدها الرائعة وقصورها المهجورة البادية من خلال الخائل إلى السائح أنه أصبح فى مدن الفيلان التى لعبها من فى السماء ؟ وما هو السبيل إلى عَرَض ما تَوَثَّرَ به فى النفس تلك المعابد الخافتة بالأسرار والداخلَةُ أعماقَ الجبال والمشتعلة على ألوف الأصنام الحجرية التى تظهر للأعين على نور المشاعل فيُخَيَّل إلى الناظرين أنها عبيدٌ خُرُسٌ لربِّ الأموات ؟ يكاد قلم الرسام الماهر يَنْقُلُ إلينا جلال تلك القصور الرُخامية الهائلة المرصعة بالحجارة الكريمة والمُشْرِفة على أسوار من الفرانيت الأحمر كالدُم القانى فتبدو صاعدةً فى سماء لا يحجب زَرْقَها سحب .

ألا إن الماضي لا يتجلى للسائح كتجليه في بلاد الهند ، وإن السائح لا يحسُّ ما اعتور أجيال البشر من تطور وما بين هذه الأجيال من فروق ومن روابط بأحسن مما في الهند ، فالسائح يعلم هنالك ، فقط ، أن الحاضر مُتَحَدِّر من الماضي وأنه يحمل في أثناثه بذور المستقبل وأن خيالنا وطباعنا ومبادئنا انتقلت إلينا بالأثر من غابر الأجيال التي لا نقدر أن نُقلِّل من سلطانها وإن أمكن جهلها ، فمن خلال الأجيال القديمة نكتشف ، بالحقيقة ، أصول نُظْمنا ومعتقداتنا ونُبصر ما لها من السلطان العظيم وأنها تقود كلَّ شيء إلى مصيره الخفيِّ بسلسلة من التطورات البطيئة<sup>(١)</sup> .

(١) لا أرى أن أختم هذه المقدمة قبل أن أشكر الأشخاص الكثيرين ما جئوني به من المساعدة التي لا تقدر بثمن في أثناء سياحتي في الهند أو في إخراج هذا الكتاب ، وإن أسى لا أنسى العون الذي لقينته من حكومة الهند الإنكليزية والقرى الذي قلته من موظفيها ومن أمراء الهند الأصليين ، وإلى إذ لا أستطيع أن أعد هنا جميع من انتفعت بمخدمهم أقصر على ذكر من عاق بذهي منهم اتفاقاً ، فأذكر حكومة نائب الملك بكلمة ، ولا سيما وزارة الداخلية التي أعدت مدنياً لها مجموعة غنية من الكتب عن الهند ، وأذكر الجنرال أيليس الذي عمى بأمرى عنابة فائقة في أيام إقامتي بالهند ، وأذكر حاكم الهند الوسطى سير ليدل عريفين ، وحاكم منطقة بني سير نرغوسن ، ومفوض راجبوتانا السكولونيل براد فورت ، ومفوض الحكومة الإنكليزية بأجر مستر ساوندروس ، والليجرب كوليفورد بحبل آيو ، والجنرال مارتر باغرا ، ومدير منحرف لاهور مسركيلنج ، والوزير المقيم بأودي يور السكولونيل والتر ، والسندس برناب جوتيفي بأودي يور ، والوزير المقيم بفواليار السكولونيل «بركيلي ، والليجرب روبرت أيليس بينارس ، وجراحى السفارة الإنكليزية بنيبال الدكتور جيليت ، والفنصل الفرنسي العام بلكسيف مسيو كرنتزر ، ومسحلي الهندسات الفرنسية مسيو مونت ومسيو موكس ، والفاضي بلكسيف ستر كاري ، والفاضي بمكن ناتيه مستر بورش ، ومستر هندز المهندس ببجايور ، ومستر هيث المهندس بأغرا ، ومستر بلاك المهندس ببجاي نر ، وحاكم بوندي چري مسيو ريشو ، وجباة كنبه كونه وترى چاملي ومندورا الخ ، والسكولونيل كوكيرن بحيدر آباد ، وموصي ملكة چتربور ( بنديل كهند ) وصاحبة العظمة ملكة بهوبال ، الخ . الخ .

ولذا عدوت بضعة رسوم أعدت مدنياً بها لمرمم تاج محل والمهندس الفضال مستر هيث فلم أنفصها وجدت . نظم صور هذا الكتاب قد صمدت على طريقة التجويف الفوتوغرافي (الجليوغرافور) بحسب الصور الشمسية التي التقطناها ، أي من غير استعانة بنقاش أو رسام ، وقام مسيو بيني بهذا العمل الشاق خير قيام فلا يسعني سوى الإعراب عن رضائنا بما بذل من همه عظيمة ذاكراً أن مجوداته الفوتوغرافية (فوتوغرافور) على الدساس هي أعلى من جميع ما انتهيت إليه حتى الآن من الطرق المماثلة . وقد رأى السادة فيرمان ديدو أن يكون هذا السفر محلاً لعنايتهم كما اعتنوا بكتاب « حضارة العرب » ، فشملوه برعايتهم بومياً فلم يفصروا في الإنفاق بخفاء على طبعه وأعلن شكري العظيم لهم .



الباب الأول  
البيئات





## الْقَصْدُ الْأَوَّلُ الْأَرْضُ وَالْأَجْوَاءُ

(١) وصف بلاد الهند العام - طبيعتها الخاصة - يتألف منها عالم مستقل - عزلتها - أسباب اختلاف أجوائها ولتأجيرها - (٢) بلاد الهند - حدودها وجبالها وأنهارها - بقاع الغزو - (٣) الدكن - المنطقة الوسطى والمنطقة الساحلية - (٤) وصف أنهار الهند الكبيرة - عدم انقظام مجاريها - منحدراتها وأنهارها العظيمة : الفتح والسند ونزبدان أنهار الدكن - السواحل - فقدان الموانئ الطبيعية - (٥) أجواء بلاد الهند - اختلاف هذه الأجواء - يجمع في بلاد الهند مختلف أجواء العالم - فصولها - رياحها الموسمية - تغلب الأمطار - المجاعات - الأعاصير - الأوبئة - أثر جوها في سكانها .

### ١ - وصف بلاد الهند العام

يتألف من الهند عالم مستقل في الكون من الناحية الطبيعية ، فالطبيعة ، كما يظهر ، قسّمت على الهند بعزلة أبدية ليا أحاطتها به من جبال هائلة ، ومن بحار ذات أمواج مزّودة تناطيم سواحلها غير المقرّة<sup>(١)</sup> ، ويكفي المرء أن ينظر إلى حدودها ليشعر بنشوء حضارة ثابتة فيها تقريباً ، وبهضمها للعناصر الأجنبية التي أغارت عليها ، ولا تزال بلاد الهند الأرض المقدسة الحافلة بالأمم التي حكى عنها شعراؤها الأقدمون ، وظلّت بلاد الهند الحصن المنيع مع إغراء كنوزها للفتاحين واقتحام

(١) المقرّة : الكثيرة الضباغة .

الكثيرين منهم لها في غضون القرون ومع ما يبدو من سهولة مواصلها الحديثة التي زالت بها جميع العوائق وقرُبَتْ بها كلُّ المساوِف ، فلا تجد طريقاً مُهمّاً يمرُّ من جبال هَمَالِيَّة ، ولا تجد ميناء سهلاً على شواطئها ، فبلاد الهندى ، بالحقيقة ، أكثرُ البلاد انغلاقاً وأصعبها انفتاحاً ، ولم يَحْطُرْ ببال شعب قديم عَمَرُها أن يخرج منها بعد أن استوطنها .

وتلوحُ بلاد الهند المنعزلة أنها خلاصةُ العالم بتنوع مناظرها ، فلهند كلُّ الأجواء بسبب اتساعها وتفاوت ارتفاع بقاعها الكثيرة ، فينبأ يكون الحرُّ شديداً إلى الغاية في سواحل ملبار وكُورومندل وسهول البنجاب ترى ربيعاً ساحراً في رِدا ف الجبال وريحاً صَرَصَراً تلطمُ صُرُود<sup>(١)</sup> الشمال العالية وأَغْطِيَّة من الثلوج مشابهة لما في القطبين تسترُ شواقي هَمَالِيَّة ، ونبأ تجري السيول مسرعةً في أوائل يونيه إلى السواحل الجنوبية الغربية فتعمرُها وتملأُ جداولها ينظرُ فِلاحو أوريسه ووادي السُّند الذين أعيام الجفاف إلى سماءهم الصافية الحاقدة ضارعين باحثين في الرمال المحرقة عن أثر الأنهر الكبيرة النافدة .

وتشتمل بلاد الهند ذات المناظر الرائعة والعوارض المختلفة على سهول الفَنج الخصيبة القريبة من صَحَارَى تِهَار الغُبر الدُّشَن ، وعلى الأودية المنبثة الواقعة بين هِضاب الدَّكَن الجردية ، وعلى مالا نظير له في الدنيا من الشَّعاف الهائلة المتصدعة للمهيمنة على واحة كشمير الجميلة المكدودة دُرَّة العالم .

ويمكن تفسيرُ تلك الظواهر الطبيعية التي رُئِيَ تسميتها بِزَوَات الطبيعة في الهند بنمو اليَاس وعِظَم نَوْفه وتفاوت توزيع المياه ، فقد نجم عن ذينك السببين

(١) الصرود : جم صرد ، وهو السكان المرتفع من الجبال .

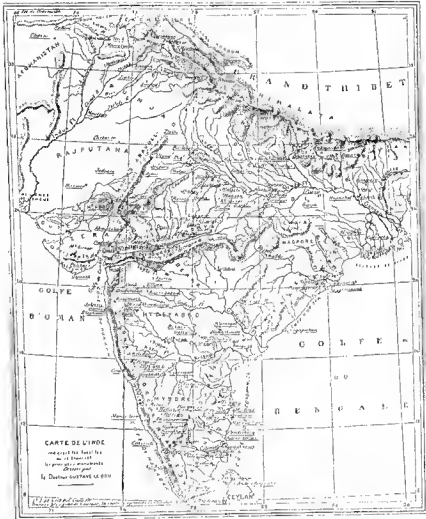
أن نشأ ألف بلد في بلد واحد وأن بُجِمت الأماكن والأجواء في مساويف غير متباعدة بما يزيد عن بضعة كيلومترات مع انفصال بعض أمثالها عن بعض بالوف القراسخ في خريطة العالم .

فلذلك نرى أن نَعْرِفَ ، قبل كل شيء ، ارتفاعات بلاد الهند واتجاه مجاريها وعدد هذه المجارى وقيمتها ، وسُنْصِفُ إلى ما نعلمه من مسايل بلاد الهند وأنهارها بحثاً في توزيع أمطارها ورياحها الموسمية ، فليسمَّاء الهند المِدرار تقويم خاص ذو نتائج لا تَقِلُّ أهمية عما يجري فوق برّها .

وبلاد الهند مربعة الأضلاع مقسومة إلى مُثَلَّثَيْنِ متقاربين ذَوَي قاعدة مشتركة ، قِمةُ المثلث الشمالى هى ذُرْوَةُ جبل نَنُغا الذى هو من أعظم جبال هِمَالِيَّة وقِمةُ المثلث الجنوبى هى ذُرْوَةُ جبل كُمارى ، والنحطُ الذى يُمَدُّ قاعدةً مشتركةً لذينك المثلثين هو الوَهْدَةُ الضيقة العميقة الممتدة من خليج كَنَبِي إلى نهر الغَنج فيجرى فيها نهر نَرَبْدَا ونهر سُون اللذان يَتَجَهَّ أحدهما إلى الغرب والآخر إلى الشمال الشرقى .

وليس مجرىا ذَيْنِكَ النهرين وحدهما ما يُعَدُّ به ذانك القسمان الطبيعيان لبلاد الهند ، بل يفصل بينهما ، أيضاً : سلسلةُ جبال ونُذْهِيَا في شمال تلك الوَهْدَةِ وسلسلةُ جبال سات پورا في جنوبها ، فمن ثَمَّ تَحُولُ ثلاثة حواجز دون غزو الأجنبى للقسم الجنوبى من بلاد الهند بَرًّا على الأقل ، وسترى أن شواطئ هذا القسم الجنوبى ليست أقلَّ صلاحاً للدفاع من تلك الحواجز الثلاثة .

ويتألف من المثلث الشمالى « الهندوستانُ الحقيقية » ، وورد ذكر هذه الكلمة ، التى تعنى « بلاد الهندوس » ، فى أقدم أقاصيص الإغريق .



- ١ - خريطة الهند ( تشمل على اتساع بعدل ٧٥٠ فرسخاً تقريباً ، وفيها ذكر للأمكنة المكتوبة على أهم المياهي ، وتعديل كل درجة عرض نحو ١١٢ كيلو متراً )  
 ( من تخطيط المؤلف )

أَجَلٌ ، يرى الغربيون أن نهر السُّنْد أعار من اسمه البلادَ الحافلةَ بالأسرار الواقعة فيها وراءه فما فَتَحُوا يَطْمَعُونَ فيها ، غير أنه لا يُسَلِّمُ بهذا على عِلَّاته ما احتمل اشتقاق اسم « الهند » من اسم الإله « إندرا » .

والأمرُ مهما يكن فإن اسم الهند قد أُطلق على كثير من البلدان ، فمن ذلك أن تَمَثَّلَتْ بلاد الهند لخِصال الأوربيين أرضاً لكلِّ عَجِيب ومنبعاً لكلِّ ثروة ، فبحسوا عن طريقها فَبَدَّوْا ضحية الأوهام في الغالب ، فظنَّ كريستوف كولومب أنه بلغها بِسُفْنِهِ حينما وصل إلى الدنيا الجديدة ، فكان ما نعلمه من تسمية الدنيا الجديدة ببلاد الهند الغربية ، ومن ذلك تسمية كثير من جُزُر آسية والاقويانوس بالاسم الذي أطلقه الإغريق على وادى السُّنْد .

وأما نحن فنقصِد بكلمة الهند في هذا الكتاب شبه الجزيرة التي تحيط بها جبال آسام وهِمَالِيَّة وكارا كورم وهِنْدُو كُش وسليمان والبحر ، ونقصِد بكلمة « الهندوستان » المثلثَ الشماليَّ من بلاد الهند ، ونقصِد بكلمة « الدَّكن » المثلثَ الجنوبيَّ منها .

## ٢ — الهندوستان

يتألف أكبر حدٍّ للهندوستان من جبال هِمَالِيَّة التي هي أعلى سلسلة في الكرة الأرضية ، والتي ينظر الهندوس إلى شِعَابِهَا المقدسة باحترام فيسمونها « سَقْف الدنيا » ، ويندو هذه الجبال العظيمة في مجموعها كَمُصَوِّرٍ صَخَمٍ مائل يزيد ارتفاعُ طرفه الأعلى عن ستة آلاف متر ويبلغ مُعَدَّلُ علوِّه المتوسط أربعة آلاف متر ، وتجد

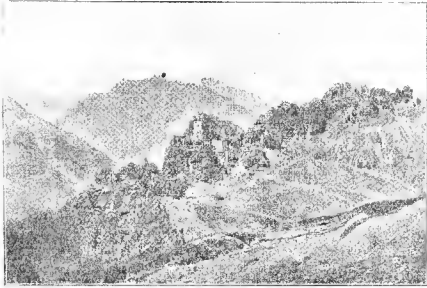
بين ذلك السد للنيع الهائل من الشواقي ما يصل ارتفاعه إلى ثمانية آلاف متر أو تسعة آلاف متر .

وأظهر ما يبدو ذلك في القسم الغربي من جبال همالية ، ويتسع عرض هذه الجبال فوق منابع الأنهر الكبرى : السند والغنج وجمّة وسنلج ، ثم تختلط هذه الجبال بهضاب التبت العالية ثم تنقذ منظرها الملتوى فتمتد من هنالك هضاب واسعة كثيفة تزيد ارتفاعاً عن أعلى ذرى جبال أوربة ، فاهى بالتابعة جغرافياً للهند ولا للتركستان ولا للتبت ، وما هي بالتي ينمو فيها نبات ، وما هي بالتي يجد الماء الذي يتجمع فيها أحياناً منفذاً أو منحدرًا ليسيل منه ، وما هي بالتي يصلح هواؤها لتنفس السائح المقدام ، فهي « بلاد الموت الكريهة » كما يدعوها به أهالي تلك الأصقاع .

لم نُسج ذرى كاراكورم المروبة المشرفة على جبال همالية في أيّ زمن ، فقد باتى زمن تخلع فيه إحداها ملك الجبال غورى شنكر الرائع الخالع لبركان أند : جيمبورازو الذي عد أعلى جبل في العالم زماناً طويلاً .

يقوم طود غورى شنكر متوجهاً إلى القسم الشرق من جبال همالية ، ويتألف من اتجاه شوامخ ديول غيري وغورى شنكر وكنججمنها خط مستند إلى ما وراء همالية يعد في مجموعه سلسلة تلك الجبال الحقيقية من غير أن يشتمل على الذرى المهمة ، على حين تمتد إلى الشمال وإلى الجنوب سلسلتان أخريان متآزيتان تسمى إحداها غنج ديسرى المشرفة على التبت ، وتسمى الأخرى همالية الدنيا التي هي أقل ضخامة من تلك قهبط بالتدرج بين روافد نهر الغنج الشمالية .

وتَشَعَلُ جبالِ هِمَالِيَّةٍ أَرْضاً تَزِيدُ مَسَاحَتَهَا عَلَى مِسَاحَةِ فِرَانِسَةِ ، وَهِيَ أَمْنَعُ مَقَرَّاسَ أَقَامَتِهِ الطَّبِيعَةِ بَيْنَ بَلَدَيْنِ أَوْ أَمْتَيْنِ ، وَمِنْ الصَّعُوبَةِ أَنْ تَجِدَ رَابِطَةً بَيْنَ أَرْضَيْ شِمَالِ الْهِنْدِ الْعَالِيَةِ وَأَوْدِيَةِ الْجَنُوبِ الْوَاسِعَةِ الْعَمِيقَةِ سِوَاءٍ فِي أَمْرِ السَّكَّانِ أَوْ فِي أَمْرِ الطَّبَائِعِ وَالْأَخْلَاقِ .



٢ - فَرِيَّةٌ دَنَكُورٌ فِي جِبَالِ هِمَالِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ

وَلَا يَرِيبُ الْهِنْدَ بِالصَّيْنِ غَيْرَ طَرِيقَيْنِ نَاقِصَيْنِ ، وَهُمَا : طَرِيقٌ شِمَالًا وَطَرِيقٌ دَارِجِيْنِ الْوَقَاتِنِ عَلَى طَرَفِي جِبَالِ هِمَالِيَّةٍ ، وَهَذَا إِلَى أَنْكَ تَصَادَفُ بَيْنَ حَيْنٍ وَآخَرٍ سَائِحًا أَوْ تَاجِرًا مُخَاطِرًا يَمُرُّ مِنَ التَّيْبَتِ إِلَى وَادِي الْغَنْجِ وَاضِعًا مَتَاعَهُ الْخَفِيفَ ، أحيانًا ، عَلَى ظَهْرِ مَغَزٍّ أَوْ مَتْنِ ضَائِنٍ لِعَجْزِ أَيْ حَيَوَانٍ آخَرَ عَنْ مَجَاوِزَةِ مَسَارِبَ وَغُرَّةٍ مَعُوجَةٍ مَخِيفَةٍ كَأَنِّي تُبْصِرُ فِي مَنَحْدَرَاتِ تِلْكَ الْجِبَالِ .

وَتَكُونُ تِلْكَ الْمَسَارِبُ عَلَى حَافَةِ نَهْرٍ فِي الْعَالِبِ ، بِيَدِ أَنْهُ لَيْسَ لِمَجَارِي الْمِيَاهِ الَّتِي

تَنْبُعُ فِي جِبَالِ هِمَالِيَّةٍ جَوَانِبِ يَسْهَلِ اجْتِيَابِهَا خُطْوَةٌ بِمَدِّ خُطْوَةٍ مَا هَوَتْ هَذِهِ  
الْمَجَارَى ، عَلَى الْعُمُومِ ، فِي مَضَائِقٍ مَظْلَمَةٍ وَمَسَائِلٍ مُمَزَّقَةٍ لِلصَّخُورِ خَارِقَةٍ لَهَا  
خَرَقًا بَلِغًا مُمَدَّةً بَيْنَ الصَّخُورِ الْقَائِمَةِ ، وَمَا أَكْثَرَ مَا يُسْمَعُ خَرِيرَهَا مِنْ أَعْمَاقِ الْهَوَىِّ  
وَالْوِهَادِ فَتُجَابُ إِذَا ذَاكَ عَلَى جُدُولٍ <sup>(١)</sup> الشَّجَرِ أَوْ بِوَاسِطَةِ جَبَلٍ ، ثُمَّ يُصْعَدُ فِي طُنْفٍ <sup>(٢)</sup>  
صَخْرَةٍ يُصَابُ بِهَا الْمَرْءُ مِنْ تَحْيَلِهِ بِالنُّوْلِ <sup>(٣)</sup> وَالِدُّوَارِ .

لَمْ تَسَلَمْ بِلَادُ الْهِنْدِ مِنْ غَزْوِ الْفَاتَحِينَ لَهَا مِنَ الشِّمَالِ مَعَ ذَلِكَ ، فَقَدْ حَلَمَ أُمَرَاءُ  
الْغَرْبِ الْمُتَقَاخِمِ ، مِنْذُ أَقْدَمَ الْقُرُونِ ، بِالْأَسْنِيَاءِ عَلَى هَذَا الْفَطْرِ الْغَنِيِّ الَّذِي جَاءَ فِي الْأَسَاطِيرِ  
أَنَّهُ يَنْدُرُ الْحَجَارَةُ الْكَرِيمَةُ وَيُخْرِجُ النِّبَاتَ الْعَجِيبَ .

وَفِي الشِّمَالِ الْغَرْبِيِّ مِنَ التَّطَاقِ الْخَفِيفِ الْمُنْبَعِ الَّذِي ضَرَبَتْهُ الطَّبِيعَةُ حَوْلَ بِلَادِ  
الْهِنْدِ ثَغْرَةً نَهَرِ كَابُلٍ ، فَمِنْ ضِيَافِ هَذَا النِّهَرِ وَلَجَّ الْإِسْكَانْدَرُ وَالْمَغُولُ وَالْأَفْغَانُ وَغَيْرُهُمْ  
فِي شِبْهِ جَزِيرَةِ الْهِنْدِ .

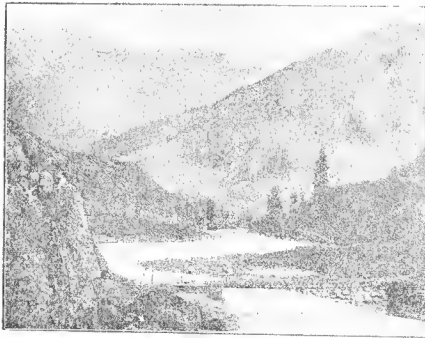
وَلَا مِرَاءَ فِي أَنْ أُولَئِكَ الْفَاتَحِينَ سَارُوا عَلَى الدَّرْبِ الَّذِي سَلَكَهُ قَدَمَاءُ الْأَرَبِينَ ،  
وَلَا بَعْدَ طَرِيقًا أُخْرَى غَيْرَ هَذَا الدَّرْبِ يَسْهَلُ عَلَى أَيِّ جَيْشٍ أَنْ يَمُرَّ مِنْهَا إِلَى أَرْضِ  
الْإِلَهِ إِنْدُرَا ، وَيَقُومُ وَرَاءَ تِلْكَ الثُّغْرَةِ حَاجِزٌ آخَرُ مِنْ جِبَالِ سَلِيمَانَ الْمُتَّصِلَةِ بِجِبَالِ  
خَيْبَرَ فَتَكُنِي لَوْ قَفَّ غَزْوُ الْأَجْنَبِيِّ مَعَ أَنَّهَا دُونَ تِلْكَ الْجِبَالِ أَهْمِيَّةٌ بِمَرَاحِلِ .

وَإِذَا مَا اسْتَنْثِيَتْ ذَلِكَ الْمُنْفَعَدَ ، الَّذِي يَدَافِعُ عَنْهُ بِمَوْقِعِ بِشَاوَرٍ وَقَلْعَةٍ أَتَتْكَ فِي  
الْوَقْتِ الْحَاضِرِ ، وَجَدْتَ جَمِيعَ حُدُودِ بِلَادِ الْهِنْدِ الْبَرِيَّةِ مَنِيعَةً يَتَعَذَّرُ اقْتِحَامُهَا نَقْرِيًّا .  
وَيُظْهِرُ فِي طَرَفِ الْمُنْعَنِ الشَّرْقِيِّ السَّكِيرِ ، الَّذِي أَكْسَبَتْهُ جِبَالُ هِمَالِيَّةٍ شَكْلَ

(١) الْجُدُولُ : جَمْعُ جَذَلٍ وَهُوَ مِنَ الشَّجَرَةِ أَصْلُهَا الْبَاقِي بِمَدِّ ذَهَابِ فُرُوعِهَا - (٢) طَنْفُ  
الصَّخْرَةِ : مَا نَأَى مِنْهَا - (٣) تَوَلَّى الرَّجُلُ يَتَوَلَّى تَوَلَّى : حَقَّقَ .



سَيْفٌ ، ثُلُمَةٌ كَبِيرَةٌ جَوَّفَهَا نَهْرُ بَرَهَا پُوتَرَا ، فَمِنْ هَذِهِ الثُّلُمَةِ اسْتَطَاعَ أَنْاسٌ مِنَ الْجَنْسِ الْأَصْفَرِ أَنْ يَدْخُلُوا بِلَادَ الْهِنْدِ فِي دُورٍ قَدِيمٍ ، وَذَلِكَ بَعْدَ جُهْدٍ عَظِيمَةٍ ، لِإِمَارَاهُ فِي كُلِّ سَنَةٍ مِنْ انْتِفَاقِ وَادِي بَرَهَا پُوتَرَا الْأَعْلَى الَّذِي لَمْ يَتَّعِ ارْتِيَادُهُ حَتَّى الْآنَ ، وَذَلِكَ بِفَعْلِ مَا يَنْجُمُ عَنْ رِيَّاحِ الْجَنُوبِ الْمَوْسِمِيَّةِ مِنَ الطُّوفَانِ ، فَمَا يَنْزِلُ عَلَى هَذِهِ الْمِنْطَقَةِ مِنَ الْأَمْطَارِ الْهَائِلَةِ يُوْدِي إِلَى طَمْسِ مَعَالِمِ كُلِّ طَرِيقٍ مَسْلُوكَةٍ وَيُحَوِّلُ الْأَنْهَارَ إِلَى سَيُولٍ وَالسَّيُولَ إِلَى مَسْتَنْقَعَاتٍ وَغُدْرَانٍ وَيُوجِبُ نُمُوَّ نَبَاتٍ يَعْبِقُ السَّيْرَ وَاتِّشَارَ أَشْجَرَةٍ وَخَيْمَةٍ قَائِلَةٍ مَفْسُدةً لِلْهَوَاءِ فِي كُلِّ حِينٍ ، فَلَا يَصَادَفُ فِي الْأَرْضِ بِلَاداً مَجْهُولَةً كَذَلِكَ الْمِنْطَقَةُ مَعَ قُرْبِهَا مِنَ الْأَمْكَنِ الْعَامِرَةِ .



٣ - منظر في وادي السند ( مملكتہ کشمیر )

وَسَكَنَتْ جِبَالِ آسَامِ ضِفَّةَ نَهْرِ بَرَهَا پُوتَرَا الْيُسْرَى وَيَنْحَنِي مَجْرَى هَذَا النَّهْرِ

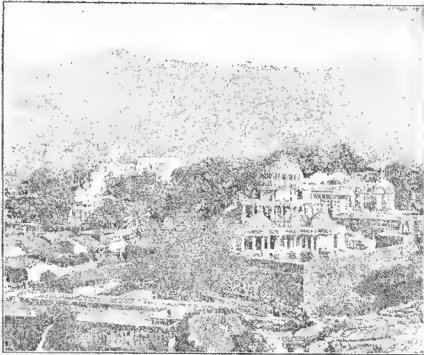
عند سفوح جبال كهكاسي وجبال غارو التي هي أخرى الحلقات المحيطة بشمال الهند .  
ويحيط ذلك النطاق بالسهل الهندي الغنحي الذي تتألف الهندوستان الحقيقية  
منه ، وينخفض هذا السهل رؤيذاً نحو خليج البنغال من جهة ونحو بحر العرب من  
جهة أخرى ، ويقسم وادي السند ووادي الغنج ذلك السهل إلى منطقتين مختلفتين  
أشد الاختلاف متباينتين منظرًا ، ويبدو هذا الانقسام بارزاً في الجنوب بجبال أراوली  
التي يرتبط فيها أعلى جبل آبو ، ويكاد هذا الانقسام يكون غير بادٍ في الشمال .

ووادي الغنج هو من أكثر بقاع الأرض سكاناً وخصباً وغنى ، ولا يقال مثل  
هذا عن وادي السند الذي يشتمل على الصحراء الهندية الكبرى الوحيدة ، ويُفسر  
نباين ذلك الواديين باتجاه ذلك النهرين اللذين يجري أحدهما موازياً لسلسلة الجبال  
التي يخرجان منها ويجرى الآخر عمودياً بالنسبة إلى هذه السلسلة ، فكلما سار نهر  
الغنج نال من جبال همالية التي يحاذيها روافد لا ينضب لها معين بما يسيل إليها  
من مياه أحواض الثلج فيروى الحقول والمزارع التي يمر منها بوفرة ، وكلما ابتعد  
نهر السند عن الجبال خفت مياهه وقلت روافده لضياع كثير منها في الرمال وعجزها  
عن شق مسالٍ لها ، فإذا كانت مقاطعة البنجاب ذات الأنهر الخمسة خصبة لم تلبث  
هذه الأنهر الخمسة أن نولت نهرًا واحدًا متوجهًا وحده إلى الجنوب الغربي تاركاً عن  
يساره أراضي واسعة خالية جديبة كثيفة .

ومن المحتمل أن كان جميع وادي السند في غابر الأزمان مغموراً بالبحر فجعل  
منه البحر خليجاً واسعاً ، ونرى أن سهول شمال الهند وطبقات الجنوب من أسفل  
همالية قد تسكنت حديثاً ما كانت الصخور البلورية والألواح الحجرية في أواسط

هيمائية وما وراءها وما كانت أقسام هيمائية المركزية وحدها مؤلفة من الصَوَان  
والجلاميد المتحولة .

ويدلُّ ما حوَّل قِمَم هيمائية من بقايا نبات البحر ومن رواسب الملح على مُسَكَّت  
مياه البحر بهضاب تلك الجبال زمنًا طويلاً .



٢ - منظر في جبل آبو ( راجيوتانا )

وتَشْمَل سلاسل الجبال الصغيرة الكثيرة ، الممتدة من جبال هيمائية إلى مِنطَقة  
الْجَنَاب العليا ، النظَر بتكوينها ومنظرها ، ونذكر منها « سلسلة الملح » التي يُشَاهَد  
فيها ، عدا رواسب الملح ومختلف المناجم ، نماذجُ لجميع الصخور المُتَرَجِّحِ تَكوِينُها  
بين الدور الجيولوجي الأول والدور الجيولوجي الثالث ، فنشأ عن لَطَم أمواج البحر

لسفوحها وشق الأمطار لشعافها منذ القدم تصدُّعُها على شكل عجيب نالت به منظر الأبراج والقلاع التي أنقن الإنسان صنعها ، وذلك إلى أنها كانت مستورة بالحصون التي لا تزال أطلالها الرائعة ماثلة على ذُرَا صخورها الناهضة فيتمثل بها المتأمل بقايا أطام القرون الوسطى المدواة بها بلاد الغرب ، وذلك إلى أن هذا الشبه واقعيًا أكثر منه عاطفيًا ما أدى إليه قيام تلك المعاقل الدفاعية في الپنجاب و بُندِيل كِهَنَد من استعمار البلاد وزيادة طغيان الأمراء الإقطاعيين كما حدث في فرنسا بعد الغزو النورمانى .

والأرضُ في جنوب وادى الغَنج ترتفع بهضاب مالوا و بُندِيل كِهَنَد ثم تهبط سلسلة جبال وِندھيا .

وأعدُّ سلسلة جبال وِندھيا « حجاب الهند الحاجر » ، فلهذه السلسلة أهمية كبيرة لتصلها بين حضارتين وجوئن وأرضين وعرقين ، فينما يسود العنصر الغازى ، أى العرق الآرى ، السهل الهندى الغَنجى يَقْطُن بهضبة الدكن الكبرى ، التي لها الوِقاية بخندق نَرَبْدَا العميق وبسلسلتين من الجبال ، العرقُ الدراويدى الفطرى الخالص الحافظ على أخلاقه وأوصافه الجئانية ومعتقداته القديمة الثابتة مع مرَّ القرون .

### ٣ - الدَّكَن

تألفت من الدَّكَن جزيرة حين كانت مياه المحيط تَعْمُر ، فى سالف العصور ، مُنْظَم السهل الهندى الغَنجى فَمُتْلِم الأمواج سفوح الجبال المحيطة به ، ثم ارتدَّت هذه الأمواج عن سواطئه الضيقة التي تهيمن عليها الهضبة القديمة من ارتفاع يَتَرَجَّح بين أربعئة متر وستئة متر .

وفي الدَّكَنْ ، لذلك ، قسمان مختلفان بمنظرَيْهِما وإنتاجَيْهِما والعروق التي تقيم بها ، فيتألف القسم الأول من الشواطئ الدنيا الواقعة على بحر العرب والمشملة على : كُونَسَكَنْ الشامى وكُونَسَكَنْ الجنوبي وملبار ومن الشواطئ : كورومَنْدِل وَسَكَهَر وأوريسَة الواقعة على خليج البنغال ، ويتألف القسم الثانى من الهَضْبَة الواسعة المائلة من الغرب إلى الشرق فتحيط بها جبال سات پورا وتوابها وسلسلة كهآت الفاصلة لها عن المنطقة الساحلية قريبا .

وتُسَمَّى سلسلتا الجبال اللتان نفصلان الدَّكَنْ عن البحر بكهآت الغربية وكهآت الشرقية ، وتَقِلُّ سلسلة كهآت الشرقية عن سلسلة كهآت الغربية ارتفاعاً ، وإليها يستند أسفل الهَضْبَة ويتخلل هاتين السلسلتين عِدَّة أنهر تصبُّ مياهها في خليج البنغال نبعاً لِميل تلك الجهة العام .

وسلسلة كهآت الغربية أكثر انقطاعاً من تلك ، وتتألف من حَلَقَات متصلة متوجهة عمودياً إلى الساحل .

وبينا تبرز كهآت الغربية الوَعْرَة من ناحية البحر شائخةً بذُرَاهَا التي صَدَعَتْهَا أمطار الرياح الموسمية العاصفة تبدو أقلَّ رَوْعَة من الهَضْبَة المُشْرِفَة عليها ، وسلسلة كهآت الغربية هذه لا ترتفع عن الشاطئ بأكثر من ١٢٠٠ متر ، وهى ليست غير جلا مبدئية قديمة محافظة على وضعها العام ، وتَعْمُرُ الأمواج هذه الجلاميد حيث يضيق الشاطئ في بعض الأماكن ، ويقطعها بين مسافة وأخرى فيجاء (١) تَصِلُ بين السهول العليا والمنطقة الساحلية ، ويمدُّ بهُور كهآت أهمها ، وهو الذى سُمِّي قديماً بِمِفْتَاح الدَّكَنْ .

(١) الفج : الطريق الواسع الواضح بين جبابين .

وتتسع سلسلة كهات الغربية في الجنوب ، فسكان لها بهذا الاتساع منظر أقل وحشة من ذلك ، وكان لقسمها المعروف بـ"نل" غبرى ( الجبال الزرق ) من سحر المنظر وحسن الجو ما دُعيت معه سويسرة الدراويديّة .

وتتفرج وراء نل غبرى ( الجبال الزرق ) فجوة<sup>(١)</sup> بال كهات التى هى أهم انخفاض فيها وتنتمى السلسلة برأس كارى .

وفجوة بال كهات أكبر طريق يصل بين الشاطئين ، ويمر من هذه الفجوة في الوقت الحاضر خط حديدى يربط مدينة مدراس بمدينة كالى كت .

وإذا ما عصفت الرياح الموسمية الشمالية الشرقية على خليج البنغال وقفت جبال كهات تلك الرياح وأمكن السفن أن تمر في بحر العرب بسلام ، ولكن السفن إذا ما أصبحت أمام فجوة بال كهات كانت في بحر مائج ، وذلك لأن الإعصار يتغور في هذه الفجوة فيمر منها التيار أمواج الشاطئ الآخر من شبه جزيرة الهند .

وعند جميع شواطئ الدكن الدنيا انتصاراً على البحر في وقت قريب من دورنا ، ثم وقف ارتفاع هذه الشواطئ ، ودلت المشاهدات الحديثة على حدوث عكس ذلك في بعض جهات الهند ، واكتشفت بقايا غابة غاطسة بالقرب من بمبئى ، ويلاحظ أن منطقة الجزر المستفدرة<sup>(٢)</sup> الناشئة حديثاً في مصب نهر الغنڄ والسماء سندرين والبقعة القائمة عليها مدينة كلكتة ستختفيان ، ذات يوم ، في هوة هائلة تجوفها

(١) التجوة : الفرجة بين الشيبين - (٢) استندرد المكان : صارت فيه غدران ، ومن جم غدير ، والعدير : قطعة من الماء يتركها السيل .

الأمواج وينساب التراب نحوها وَيَقْبِيهِ فِيهَا الْمَرْجَاسُ<sup>(١)</sup> مع سهولة تعيين حافاتِها .  
ولا يكون للنبات أنثرٌ في هَضْبَةِ الدَّكَّانِ التي سترتها حجارة البراكين في غابر  
الزَّمان ، لو لم ينشأ عن الأمطار الغزيرة التي تَغْمُرُها في كلِّ سنة حُلٌّ لهذه الحجارة  
البركانية في كثير من الأماكن وسَحَقٌ لها ثم كَسَحُها وظهورُ أوديةٍ تؤدي كثرة  
مياها وحرارة جوِّها إلى نموِّ نبات وافر عجيب فيها .

واستطاعت أصقاع الدَّكَّانِ العليا أن تقاوم سَحَلات الغزو المتتابعة وأن تظلَّ ذاتِ  
صِبْغَةٍ خاصَّة بفضل سلسلتى الجبال القائمة في شمالها وبفضل الخندق العميق الذى  
حَفَرَهُ نهر سون ونهر ترَبْدَا ، فالْحَقُّ أن فى جنوب جبال وَنْدِهِيَا بقايا قدماء سكان  
الهند والعنصر الدراويدى ومراكز الدفاع ضدَّ غزو الأجنبي .

ورأس كُمَارِي هو أقصى نقطة فى بلاد الهند ، ونقع جزيرة سيلان بجانبه .  
ومع أنه ليس من برنابجا أن نَصِفَ سكان جزيرة سيلان ولا أن ندرس  
تاريخها نرى أن نقول بضع كلمات عن جِغْرَافِيَّتِها وجِغْرَافِيَّةِ الْجَزُرِ القريبة من الهند  
فنختم بذلك بحثنا الإجمالى فى أرض الهند الذائنة التى يمكن تسميتها بهيكل الهند  
العظمى .

تتكاد جزيرة سيلان ، التى تَعْدِلُ مساحتها اثنتى عشرة مديرية فرنسية ،  
تتصل بشبه جزيرة الهند ، وإلى جزيرة سيلان تمتدُّ متوجهةً سلسلةٌ من الجُزَيْرَاتِ  
التي نَعُدُّ راميشورَمَ ومنارَ أهمَّها ، فيتركب منتصف سلسلة الجُزَيْرَاتِ هذه من  
صخور وأكثبة يغمرها الماء بضع أقدام فتُعَرَفُ بحسر راما وتنفذُ ثلاثة معابر فقط

---

(١) المرجاس : حجر أو ما يشابهه يشد فى جبل فيدل فى الماء ليعلم عمقه .

هذا السدّ الطبيعيّ ، وجُيِّلَ أحد هذه المعابر في الزمن الأخير صالحاً لسير السفن الصغيرة .

وفي شمال جسر رامنا يَفْقُرُ خليجان شواطئ الهند ، ويبدو أحد ذينك الخليجين مأمناً للسفن الفائرة من الرياح الموسمية .

وتقسم جزيرة سيلان إلى قسمين : يقع أحدهما في الشمال حيث السهول التي ينمو فيها نبات البلاد الحارة ، ويقع الآخر في الجنوب حيث الجبال ، وذُرُوءُ آدم التي يبلغ ارتفاعها ٢٢٠٠ متر هي أشهر ذُرَا سيلان وإن لم تكن أعلاها ، ففيها بَدَبَقَصْرُ الهندوسيّ الساذج أثر قدم بُدَهَّة المقدسة .

وفي الجنوب الغربيّ من الهند نوّسَيّ البحر المحيط مئات الجزُر المعروفة بجزُر لَنَك ديب وجزر مال ديب ، وجزُر مال ديب هذه هي التي استوقفت النظر فأوحت إلى العلماء كثيراً من الفرضيات ، فرأى العالم الشهير داروين أنها شتات رخ<sup>(١)</sup> جبال غابت عن الأنظار ، ونشأت هذه الجزُر عن تَجَمُّع الحيوانات ذات الشكل النباتي ، وتبدو كلُّ واحدة منها على شكل دائرة من الجلاميسد محيطة ببحيرة داخلية ، ونسكتسب تلك الجزائر المختلفة شكل دائرة أيضاً ، وتبدو في مجموعها ذات وضع عام مُتَشَبِّه .

#### ٤ - وصف أنهار الهند الكبيرة

لا تسكني المياه التي تجري فوق الهند لإخصاب جميع أراضيها مع أنها أكثر بلاد الأرض رِيّاً ، ولا تُمدُّ مجارى الهند بالماء إمداداً متائلاً في كل سنة وفصل فضلاً

(١) الشتات رخ : جمع شراخ ؛ وهو رأس الحبل .



عن تفاوت توزيعها ، فلا يلبث نهرها الذى يتسع ويَعْمَقُ في الفصل للماطر أن يَضمُرُ ويصبح صَحْضًا حَا في دور الجفاف ، وإذا كانت سُحْبُ الرياح الموسمية دون العادة زاد نَقْلُصه وقلَّ خِصْبُ الحقول التى تستقى منه ، وليس بقليل أن تُعَيِّرَ أنهار الهند مجاريها فننقل بذلك أسباب الرخاء والخير من مكان إلى آخر وتؤدى بذلك إلى جَدْبُ المِكان الذى هجرته وإقْفَارُ مَدْنِهِ وعُمران المِكان الذى هاجرت إليه وزُخُور سكانه .

والهندوس ، لىكى يتلافَوْا ما قد يطرأ على الأنهار من نقص عظيم ويتداركوا ما قد يصيبهم من خُسْرٍ كبير ، اتخذوا في كل زمن طُرُقًا للرَّيِّ مصنوعةً ، فأقاموا الأسداد التى تَمْنَعُ المِياه وتَمْلِكُهَا في المَقَوَاتِ أو في الأهوار <sup>(١)</sup> التى احتفرتها يد الإنسان وأنشأوا الحِياضَ الواسعة التى تَسْطُمُ <sup>(٢)</sup> وادياً بأسره في بعض الأحيان ، ونذكر كما صنعتها شعوب الهند في هذا المضمار سدَّ كلو برى الذى لا يزال قائماً مع أنه شيدَ منذ خمسة عشر قرناً ، وأحواضَ حيدرآباد التى يبلغ وجه أكبرها أربعة آلاف هكتار ، وبحيرات مَهَوَا الكبرى فى بُنْدِيل كَهَنَد .

ولا مَعْدِلُ لمياه الهند عن أحد الاتجاهين : خليج البنغال الذى يَتَقَبَّلُ مُغْطَاهَا ، وبحر العرب ، وإليك أهم أنهر الهند :

وادی الغَنَج . - يرى الهندوس لسكل نهر صفة إلهية لما يَحْمِلُهُ من البركات وما ينشره من الخيرات فى الأمكنة التى يمرُّ منها ، ولكنك لا تجد نهرًا قُدْسٌ مثل نهر الغَنَج ، وإن شئت فقل الغَنغا كما يسميه الأهالى ، ما عبدوه كإلهة .

(١) الأهوار : جمع هور ، وهو البحيرة تجرى إليها مياه غياض وأجام فتتسع - (٢) من سطم الباب يسطمه سطلماً : أعاقه وورده

وينبع نهر الغنّج ، كأكثر روافده ، فيما وراء همالية ، ثم يجاوز همالية قبل أن يوغل في السهل ، ويتألف نهر الغنّج من السّمينين : ألكننّدا وبهاكي رتي المتدفّقين من كُتل الجليد التي يزيد ارتفاع محالّها على أربعة آلاف متر ، ويعدُّ الهندوس من الأماكن المقدسة ذينك المصدرين والجبال التي تعاوها ويرَوْن فيهما الخطوة الأولى لتاج شيوا ، فطوبى للهندوسى الذى يستطيع أن يتسلق درجها مهما أصابه من نَصَب .

والأوربيون ، على الخصوص ، هم أول من ارتقى ذلك المعراج فوجدوا أن بهاكي رتي يتدفق من طاقه الجليدى ، فلما رأى جميع الهندوس ، الذى كانوا يَفقون دون مدخل المراتج<sup>(١)</sup> حتى أوائل هذا القرن ، ذلك الاقدام تشجّعوا على الارتقاء إلى ما هو أعلى فإلكوا حين ذهبوا لإتمام مناسكهم عند منابع ذلك النهر المقدس .

ويُدعى المكان الذى يختلط فيه السيّلان : ألكننّدا وبهاكي رتي بـ « الملقى الإلهى » ، ويقوم هنالك معبد يزوره الهندوس كثيراً ، وتجذب معابد هرّدّوار الواقعة دون ذلك ، وذلك فى شهر مارس وشهر أبريل من كل سنة ، مئات الألوف من الحجاج فيُخيم حولها هؤلاء الذين قد يبلغ عددهم مليونين أحياناً ، ولا يقصدها هؤلاء جميعهم عن تقوى مع ذلك ، بل تَجد بينهم من يؤمونها سعياً وراء الريح والغنم .

وتنبُع جَنّة ، التى هى من أكبر روافد نهر الغنّج ، من جبال همالية غير

(١) المراتج : جمع مرتج وهو الطريق الضيقة .

بعيدة من منبعه ، وتقدس سجنه كالغنج نفسه تقريباً ، وفي مجعها قامت الله آباد  
« مدينة الله » .

وأُنشئت مدينة بنارس الشهيرة على شكل مُدرَج في الضفة اليسرى من النهر  
غیر بعيدة من الله آباد ، وبنارس هذه هي المدينة المقدسة بالمعنى الصحيح ، وهي  
مركز الهند الديني وعاصمة البرهمية .

وكان من احترام الهندوس لنهر الغنج ، أو « لأمهم الغنغا » ، أن ثاروا على  
الإنكليز حينما حفروا قناة دواب الصالحة للرعى وسير السفن فحولوا المياه المقدسة إليها ،  
وهذه القناة التي تسير من هر دوار وتنتهي إلى كان بور هي أعظم قنوات العالم التي  
من نوعها إما تطلبه حفرها من كنج تراب كالذي تطلبه حفر قناة السويس .

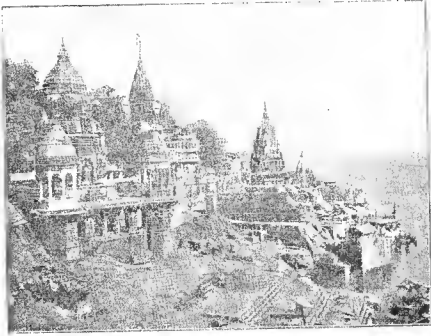
ولم يكن الإنكليز أقل خطأً من الهندوس حينما حاولوا مدّهم من إلقاء جثث  
موتاهم في نهر الغنج ، فما فتى الهندوس يمارسون هذه العادة ما تفلتوا من مراقبة  
فاهريهم ، ويقوم ذلك على ربط الميت برمث<sup>(١)</sup> صغير ذى مصباح ثم ترهكه  
للاأمواج المتقاذفة ، فإذا ما أرخى الليل سدوله رُئي من بعيد تسكع<sup>(٢)</sup> تلك الأرمات  
الساجات على وجه المياه الأسحم<sup>(٣)</sup> .

وتعظم سجنه قبل أن تنضم إلى الغنج بما تتلقاه في أثناء سيرها من الروافد  
المهمة التي نذكر منها جمبل وسندها .

ويتجه نهر الغنج إلى الجنوب الشرقي قبل أن يجتمع بسجنه ، ثم يسير إلى

(١) الرمث : خشب يصب بعضه إلى بعض ويركب في البحر ، ويجمع على أرمات - (٢) تسكع  
في سيره : لم يبتدئ وجهته - (٣) الأسحم : السود

الشرق إلى الجنوب ، فتتلقى ضِفَتَهُ اليمنى نهر سون وتتلقى ضِفَتَهُ اليسرى روافد كثيرة جارية من وراء هَمَالِيَّة ، كغوغرا وغَنَدَاك وبَهَاك متى وكوسى .



• — ضفاف الغنج ببينارس

وتجاوِز تلك الروافد منطقة تَرَأَى الشَّوْؤمة قبل أن توغل في السهول التي نرويها بمياهها فتَهَبُّ لها خِصْبًا لا مثيل له ، ويُطلق اسم تَرَأَى على الأراضي المستنقعة الواقعة في سفوح الجبال ، ولا يمكن الإنسان أن يقيم بمنطقة تَرَأَى ، ويخاطر الإنسان بنفسه إذا ما جابها .

وبدو جبال هِمَالِيَّة سَدًّا شامخًا عظيمًا فتَقِفُ سُحْبَ الرياح الموسمية الماطرة فتوجب انصباب وابها<sup>(١)</sup> في النُّجْدَرَات الجنوبية فينجم عن ذلك رطوبة شديدة

---

(١) الوابل : المطر الشديد

في البقعة الدنيا التي تلي تلك المنحدرات فَتَسْتَرِ بنباتٍ مَتَمَّصٍ وَتَصْرَى<sup>(١)</sup> فيها غُدرٌ<sup>(٢)</sup> حَمَّةٌ<sup>(٣)</sup> فيغدو هوائها وبيئاً فاتلاً ، فإذا عَدَوَتْ هذا الجزء الضيق المستطيل العاقر الغامر<sup>(٤)</sup> وَجَدَتْ وادى العَنَجِ أكثر بلاد الدنيا ثمرًا ودرًا .

وَيُذَوِّرُ نهر العَنَجِ هيئته بحسب الفصول فتطمو<sup>(٥)</sup> مياهه في فصل الفيض وَتَطْمَى فغمر مالا حدًّا له من الأراضي فيزبدُ الرُّزَّاعُ أمامها ليحرقوا الحقول البعيدة التي تَسْتَنْبَت بين الفصاين ثم يعودوا حين يعود ذلك النهر إلى مجراه تاركًا لهم أطيافًا حصية .

وَتَحْوِلُ أَضْوَاجُ<sup>(٦)</sup> العَنَجِ العظيم أوضاعها بسرعة ، فيصعب تعيين مجراه وملاقيه بدقة ، وَتَحْوِلُ بعد كلِّ فيضانٍ شعبه الكثيرة التي ينصبُّ بها في البحر ولا تحيط به هذه الشَّاب من الجزر المُسْتَعْدَّة<sup>(٧)</sup> ، وبذلك تعود المرافئ ، التي ترسو فيها السفن الكبيرة ، غير صالحة لإيواء زوارق الحديد ، ومدينة كلكتة وحدها هي التي أنفق الإسكندر عليها كثيرًا من المال وقاموا في سبيلها بعظيم الأعمال ، التي لا بد من تجديددها ، ايجعلوا منها ميناء صالحًا لاستيعاب السفن في كل وقت .

وكانت مدينة غور رأسَ دلتا العَنَجِ فيما مضى ، ولم يلبث سكان هذه المدينة التي كانت عاصمة لدولة عظيمة أن هجروها عندما هجرها ذلك النهر فعادت لا تكون اليوم سوى خرائب وأطلال ذات أدغال<sup>(٨)</sup> .

(١) صرى الماء بصري صري : طال مكانه ونعيم - (٢) الغدر والغدران : جمع الغدير وهو قطعة من الماء يتركها السيل - (٣) الحمى : الماء طافئه الحماة أى الطين الأسود - (٤) العاقر : الأرض الحراب - (٥) طامو طموأ : ارتفع وبلأ النهر - (٦) الأضواج : جمع الزوج وهو منقط الرادى - (٧) استغدر المسكن : صارت فيه غدران - (٨) الأدغال : جمع الدغل وهو الشجر الكثيف اللانف .

وينقسم نهر الغنّج إلى عدّة شعَب عندما يقرب من مصبه ، وبَدَمَا التي هي من أهم هذه الشعَب تسير لتتصل بِجَمُونَا التي هي بَرَّهْمَا بُتْرَا الحقيقية ، وبهاغِي رَتِي ، التي هي أكثر تلك الشعَب قُدْسًا ، جزءًا من بهاغِي رَتِي التي تمرُّ من كلكتة باسم هوغلي فتصلها بالبحر .

وليست مياه الغنّج أغزر ما يصبُّ في خليج البنغال ، بل يدفُق أغزر المياه في مِيغِيْنَا التي هي مصبُّ بَرَّهْمَا بُتْرَا ، وفي مِيغِيْنَا تتعذر الملاحة ، تقريبًا ، لِشِدَّة جَرَى الماء ولما تسفر عنه الأكتبة من العوائق والمراتيج<sup>(١)</sup> التي يرتفع عُبابها<sup>(٢)</sup> عدّة أمتار ثم ينال فتسمع له جَلَجَلَةٌ كقصف المدافع .

ويَتَجَمَّع حول جزائر سُنْدُرِيْن بعض الرمال التي يأتي بها نهر الغنّج فتقدَّر بعدّة مئات الألوف من الأمتار المكعبة فزيد هذه الجزائر اتساعًا .

ويظهر أن الدلتا سَهِيْطٌ بالتدرّج بدلًا من أن تتَّسع على حساب البحر ، وأن الهوَّة التي تَغْفَرُ فَاها أمام مصابِّ الغنّج ستبتلع هذه الدلتا .

وتتَّعَرَّ هُوَّةٌ ، كذلك ، أمام مصابِّ أخى الغنّج : نهر السُّند العظيم الذي يجري إلى الشاطئ الآخر من شبه جزيرة الهند حاملًا مقادير وافرة من الرمال ، ولكن هذه الرمال لا تُكْتَمُّ أن نذهب مع الجريانات الناشئة في البحر فوق تلك الهوَّة .

ويبلغ طول مجرى نهر الغنّج ٢٤٢٠ كيلو مترًا .

وادي السُّند — يقلُّ وادي السُّند عن وادي الغنّج رِيًّا وَخِصْبًا وانتظامًا وتغمر

(١) المراتيج : جمع المرتاج وهو ما يلق به الباب — (٢) العباب : معظم السيل وارتفاعه .

صحراء تبار التي تفصله عن بقية الهند أكثر من نصفه ، ويكون معزولاً عن شبه جزيرة الهند لو لم تصله بسهل الغنّج أراضي زراعية محاذية للمنطقة الجبلية .

تلك الأراضي هي البنجاب ، أو « البلد ذو الأنهر الخمسة » الذي مرّ منه جميع القامحين ، بعد أن ساروا ونهر كابل فأوغلوا في الهند ، وفي البنجاب وحدها تجد المدن الكثيرة الأهل والحقول الغنية غنى الحقول التي يسقيها نهر الغنّج .

ويكون وادي السند في الصيف جافاً لافحاً ، ولا تكون مياه روافده كافية لجلب الرّخاء أو لبقاء ما هو موجود ، وظاهرة هذه الروافد أن تضعف كلما ابتعدت عن منطقة الجبال وأن يبطؤ جريانها ويقل فيضها كلما اقتربت من البحر ، وليس بقليل أن تغور بعضها في رمال الصحراء قبل أن يبلغ اليم<sup>(١)</sup> كمرسوئي ، ولا يتم ما بقي منها سيره إلا بعد أن يجتمع بعضه إلى بعض ويصب في السند .

وأسماء الأنهر الخمسة التي تنبع من جبال همالية الغربية فتشتهر البنجاب بها هي : ست لّج وچنّاب ورياس وجهلم وراوى .

وينبع نهر السند ورافده المهم ست لّج من السلسلة المركزية العظمى التي يخرج منها نهر الغنّج ونهر جمنا أيضاً ، ولكن السند وست لّج تابعا لمنحدر ما وراء همالية الجنوبي فيطوفان بجميع سلسلة همالية فيجوفان فيها فجاءاً عميقة قبل الزئوب على السهل ، ومما يحدث أن يقف سيرهما انقراض الجلاميد فتتجمع مياههما على سوط كبيرة إلى أن تغلب على الجلاميد فتدفق من فوقها بشدة فتغمر ما تحتهما وتقضى على مدن بأسرها في بعض الأحيان .

(١) اليم : البحر .

ويجرى نهر السند من الشرق إلى الغرب مسافة غير قصيرة فيتغشَّى نَظْمًا رَبتَ ،  
ثم يخرج من المنطقة الجبلية بالقرب من هَرِي پور متوجهاً إلى الجنوب ، ثم يلتقى عن  
اليمن الرافد كابل المِهْم الذي هو باب للتجارة والغازي .

ويقوم الحصان أنك وپشاور على السند ورافده كابل لحراسة الإمبراطورية  
الإنكليزية الهندية ويقطع السند خط حديد ممتد إلى الحدود .

وسهل وادي السند مستوي ، فليس فيه من الانحدار ما تتوجه به الأنهار التي  
ترويه ، فتسلك هذه الأنهار مبدلةً مجاريها أمام أي عائق ، وتعدل الأنهر الجافة ،  
التي تحول الأراضي الواسعة إلى صحار بعد خضب ، الأنهر الجارية كثرةً ، وتبصر  
عدة قنوات فارغة لا تلبث أن تمتلئ بسرعة وقت الفيضان فتصل بين روافد نهر  
السند ، وتوَلَّف بينها شبكة معقدة متقلبة على الدوام .

وايست مصاب نهر السند أقلّ تغلباً مما تقدم ، فهي تَسْدُ بما تحمله من الرمال  
الكثيرة فتحدث منافذ أخرى ، فيؤدي ذلك إلى تعذر الملاحة فيه تقريباً كما يؤدي  
إلى استحالة ازدهار أي ميناء في مخارجه ، وأما روافده فتكون نارةً مجارى واسعة  
صالحة لاسير السفن الكبيرة وتسكون نارةً مجارى مبسوطة فيستطيع السياح أن  
يمبروها خَوْضاً .

وينحرف نهر السند بالتدريج نحو الغرب فضلاً عن تغلب أضواجه <sup>(١)</sup> ، ويُفترَض  
أن مياهه كانت توزع توزيعاً متساوياً وأنه كان يتأقَّى روافد أكثر مما يتاق الآن وأن  
الصحراء كانت أضيق مما هي عليه اليوم ، ودليلنا على ذلك تسمية كتب الهندوس القديمة  
لثلاث المنطقة ببلاد « الأنهر السبعة » ، لا بلاد « الأنهر الخمسة » كما تسمى في الوقت

(١) الأضواح : جمع الضوح وهو منطع الوادي .



الحاضر ، ومما جاء في تلك الكتب القديمة وصفُ لأنهرٍ بأنها مجارٍ واسعةٌ مع أنها غير موجودة في زماننا ، ومما نصّت عليه تلك الكتب أن سرَسَوَ كان نهراً جليلاً متدفقاً إلى أن يَصُبُّ في نهر السُّند غضبان أسفاً على فرار الإلهة ، مع أنه يَمَجِّي اليوم في رمال الصحراء ، وإلى مثل هذا المصير ينتهى كثيرٌ من المجارى وإن لم تُفَرَّ تماماً ما دَخَلَتْ في مسيل واقع تحت الأرض وما ثبت ذلك من الآبار التى تُحْفَر في اتجاهها بعيدةً بعض البعد من المكان الذى توارت فيه .

ونهرُ السُّند أطول أنهار الهند ، ويبلغ طول مجراه ٢٩٠٠ كيلو متر .

وإلى نَرَبْدَا وادى تانپى . - نَرَبْدَا وتانپى نهران يفصلان هما والجبال التى يَمُرُّان بينها المِطْلَقَتَيْنِ الكبيرَتَيْنِ : الهندوستان والدِّكَن ، وطول مجرى نَرَبْدَا ١٢٨٠ كيلو متراً ، وطول مجرى تانپى ٧٠٠ كيلو متر .

ويبلغ نهر نَرَبْدَا في جبال أَمْر كَنْتَك التى هى عُقْدَةُ جبال الهند الوسطى ، ويمجرى من الشرق إلى الغرب بسرعة نحو البحر ، وذلك في مجرى ضيقٍ عميق واقع بين سلسلة جبال سات پورا وسلسلة جبال وِندھيا ، ولا يصلحُ للإلاحة إما فيه من الشَّلالات الكثيرة ، ويبدو ذا مناظر ساحرة عند مضيق « صخور الرُخام الأبيض » غير البعيد من منبعه فنجرى المياه منه صافيةً هنالك فيكتسب معها صباحَ مساءً ألواناً عجيبية بفعل أشعة الشمس .

ويُقَدَّسُ الهندوس نهر نَرَبْدَا بعد نهر الغَنج ، ويأنون إليه من الأماكن البعيدة ليغتسلوا في مياهه وليأخذوا من ضِفافه حَصِيّاً يتخذونها تِمامً وتعاوِذَ غاليةً قادرةً ، وكان من تراحم الحبجيج على ضِفافه في كل زمن أن فُتِّحَ الدِّكَنُ للموثرات الأجنبية بمالائتُم بقوة السلاح .

ويصبُّ نهر نَرْبَدَا في خليج كَهْمِي غير بعيدٍ من مصب نهر تَابِتِي الأقل أهمية والأكثر فيضاً ، وتقوم مدينة سُورْت على مصب نهر تَابِتِي ، فتدفع عنها المياه بالأسداد المحكمة .

وتقع ثلاثة أنهر صغيرة في شمال نهر نَرْبَدَا فتجري من الجبال المحيطة بسهل كجرات فتصبُّ في خليج كَهْمِي ، وأهمُّ هذه الأنهر الثلاثة نهرُ مَاهِي الذي يبلغ مجراه ٥٣٠ كيلو متراً ، ونهر سَابَرَمَتِي الذي يمر من مدينة الله آباد الشهيرة فلا يزيد طول مجراه على ٣٠٠ كيلو متر .

أودية الدكن . - لا يصبُّ نهر مهمٌّ بين مصب نهر تَابِتِي ورأس كُمارِي من شواطئ بحر العرب ، فقد بلغت جبال كهات الغربية من القرب إلى الساحل ما لا تكون به المياه المنحدرة منها غير جداولٍ فتتحول هذه الجداول إلى سيول بفعل رياح الجنوب الغربي الموسمية .

ويستكون من ثغرةٍ بال كهات يمرُّ لنهر پوناني الصغير الذي ينبع في شرق الجبال ويحتاط هنالك مُنَحْدَرًا الدَّكْنِي الكبيران ، وينبع بعض روافد كاوِري من غرب جبال كهات .

والساحل الذي يقع في جنوب پوناني ذو عُذْرَان كثيرة محاذية لشاطئ البحر متصل بعضها ببعض ، ويتألف من هذه العُذْرَان قناةٌ صالحة للملاحة ، ويُفضَّل رِبَابِنَةُ السفن السير في مياهها المسدنة على السير في البحر المحيط ، وتسكد تجارة كوجين وترانسكور شم بها .

أودية الدَّكْنِ الشرقي : - لا أنهار كبيرة في الدَّكْنِ غير التي تجري شرقاً إلى

خليج البنغال ، ومن هذه الأنهار نهر سباريكا الذى يُرى بعد مصب نهر الغنّج  
والذى ينحدر من عاليات جوتا ناغپور فيصبُّ في البحر بعد أن يسير ٥٠٠ كيلومتراً .  
ونهر مَهَانْدِي البالغ طوله ٨٣٠ كيلومتراً هو أعمُّ الأنهر بعد ذلك ، فإذا ما اجتمع  
هذا النهر بنهر بِيَتَرَنِي البالغ طوله ٥٥٠ كيلومتراً وبرهنى البالغ طوله ٦٥٠ كيلومتراً  
تألفت بلا انقطاع في ساحل أوريسه دلتا واسعة تمتدُّ تحت البحر إلى مسافة بعيدة  
مع زيادة غرْبِهَا .

ويتفتت تراب الدَّكَّن البركاني بفعل الأمطار ومياه الفيضان ، وتحل الأنهارُ  
الرمالَ والنَّمَارَ لِتُودَعَ الساحلَ إيَّاهَا فتزيدُهَا تلك الدلتا سَمَكًا .  
وتَجَمَّعَت بالقرب من مصب مَهَانْدِي لِفَاقَةُ رمال فاشتملت على بحيرة شِلْسكا  
التي تصلها قناة بالبحر .

والجفافُ أظهر ما يُصاب به ساحل أوريسه الذى تجوُّهُ بِهِ شِعَاب مَهَانْدِي  
السَّكِينَة ، فكان ما تراه من بؤس سكانه وتوحشهم ، فإذا تَفَلَّت ساحل أوريسه  
من هذا الجفاف ، أحياناً ، فلكي يُخَرِّبُهُ الفيضان ، وساحلُ أوريسه هذا بلغ من  
الانخفاض والاستواء ما ينمرُّ به البحر في الغالب فينشأ عنه ما لا يتصوره إنسان من  
التَّاف والضَّرَر ، وساحل أوريسه هذا أصيب في سنة ١٨٦٦ بأعصار خَرَّب قراه  
وأهلك ١٢٠.٠٠٠ شخص من سكانه ، وذلك بعد قحطٍ نجم عن الجفاف فألمات  
ربعمهم .

والجفافُ آفةُ الدَّكَّن ، والهنودُ ، لَكِي يدفعوه ، يُقيمون الأسدَادَ وَيُنْشِئُونَ  
الحِيَاض الصالحة لِوَقْفِ طِفَاحِ أمطار الرياح الموسمية المؤدية إلى ضِحْمِ الأنهر في بعض

أوقات السنة ، وذلك كالحواجز التي صُنِعَتْ في مصاب مَهَانْدِي وغوداَوْرِي وكِرِشْنا لِتَحْوِيلِ المياه ، عند الفيضان ، إلى قَنَوَاتِ الرِّىِّ أو إلى البِرْكِ المصنوعة ، ويُقدَّس الهندوس تلك الأنهر ويقيمون الشعائر على ضفاف كل واحد منها .

ويقع نهر غوداَوْرِي ، الذي هو أعظم أنهر الدَّكْنِ والذي يمتد بطوله ١٤٤٠ كيلو متراً ، تحت نهر مَهَانْدِي ثم يليه نهر كِرِشْنا الذي يبلغ طوله ١٣٠٠ كيلو متر ، ثم نهر پَنار الذي يبلغ طوله ٥٧٠ كيلو متراً ، ثم نهر كاوِيرِي الذي يبلغ طوله ٧٥٥ كيلو متراً .



٦ - مضيق سغور الرخام على ضفاف نربدا بالقرب من جبل پور

ويجرى نهر كِرِشْنا في مجرى ضيقٍ فلا يصلح للدِّلاحة ، ويفقد مياهه بما يَرَوِيه من ضفافه ، ولكن أهميته تبدو ما قُطِعَ شبه جزيرة الهند من الشرق إلى الغرب ،

وما فصل منطقتين وفَرَّقَ بين حضارتين ، فَلَمَّذَهَبَ إلى المِنطقة الجنوبيسة منه مَنْ يرغب في درس طبائع الشعب الدراويدى ولغَتِهِ لِيُبَصِّرَ أَنَهَا أَقلُّ فساداً بالعناصر الغريبة مما فى أى مكان آخر .

وبلغ كثير من الفاتحين نهر كَرِشنا بمجاوزين جبال وَنُدِهيا وجبال نَرَبْدَا وجبال سات پُورَا وتوابعها الممتدة إلى مصب نهر الغَنج ، ولم يَعْبُرِ الفاتحون كَرِشنا أو لم يستطيعوا أن يَعْبُرُوهُ بكثرة فيختلطوا بالمغلوبين اختلاطاً مختلف به سَخَنَات الشعوب الدراويدية القديمة .

وأول ما عَلِمَهُ الغرب عن تلك المِنطقة المنقطعة هو ما أتى به التجار الذين قَصَدُوا سواحلها فحَلَّوْا الأَخِيَلَةَ بالأفاصبص العجيبة عنها ، ولا عَرَفُوْا ، فتلك هى بلاد الهند الحقيقية ، تلك هى البسالات التى تَجْمَعُ الشمس حرارة أشعتها فى أبازيرها وتوابلها وتجمع أنوارها الوَهَّاجة فى حباتها الكريمة .

شواطئ الهند ومراقها : — ظلَّ الوصول إلى جنوب الهند مقصوداً على البحر زمنًا طويلاً مع صعوبة ذلك ، وليس فى شواطئ شبه جزيرة الهند الممتدة من مصاب نهر السِنْد إلى مصاب نهر الغَنج مكانٌ يسهل بلوغه بحرًا أو بقعةٌ صالحة لإنشاء ميناء عليها ، ولا نذكر مرافئُ بَمْبَي ومدراس وكلكتة البحرية العظيمة ما قامت هذه المرافئُ بعزم الإنسان وعمله .

ومع اشتقاق كلمة بَمْبَي من كلمة « Bonne Baie : الفُرْضة الصالحة » ، كما قيل ، فإن نزول السِيَّاح والسَّلْع إليها لا يَتِمُّ بغير صعوبة ، فإذا كانت هذه الفُرْضة رائعةً فإنها عاطلةٌ من أرصفة ، ولا تُعدُّ مدراسٌ ملجأً للسفن ، فترسو هذه السفن فى

عُرِضَ البحر وترسل ما فيها من العُرُوض والأمتعة والركاب إلى البرِّ في قوارب أو أطواف<sup>(١)</sup> لا تسير في الأَجَج من غير خطر ، واليوم تشتمل مدراسُ على رصيف يبلغ ٣٣٥ متراً مع خرابه غير مرة فيما مضى ، ويفكرُ القوم في حفر خليج لها ، ولم يسهلُ الاقتراب من كلكتة في أيِّ زمن ، وتقوم سلامة مينائها المفتوح وسلامة فرع النّجّ الغربى هوغلى الصالح للملاحة على مُتّصل الأعمال .

وإذا عَدَوْتُ ساحل ملبار الذى يشتمل على بضعة مرافئ صغيرة صالحة لإيواء المراكب وجدت جميع شواطئ الهند خَطَرَة ، ولم تَرَ مكاناً مناسباً في خليج البنغال ، وكننغابتم ، الواقعة بين دلتا مهاندى ودلتا غودافرى ، وحدّها هي الملازمة لبعض الرّسوّ على مسافة ستمئة كيلو متر .

## ٥ — الأجواء

بلاد الهند من أشدّ بلاد الدنيا حرّاً ، واختلاف بلاد الهند في الارتفاع يجعل لكلِّ منها جواً خاصّاً ، فيستطيع السّائح أن يقطع فيها درجاتٍ متباينةً من الحرارة في بضعة أيام .

ومثلُ هذه الانتقالات يُلاحَظ في جبال همالية على الخصوص ، فبينما يُتَوَجّج الثلج والجلايد ذُرّاً تلك الجبال الرائعة تتمتع منحدراتها بجوٍّ معتدل كجوِّ فرنسا وإيطالية ، وتكاد سفوحها تُنْفَخ بحرارة دائرة الانقلاب الصيفي .

والحدُّ الذى تَتَبَّعُ الثلوج فوقه من جبال همالية عالٍ ، ويرتفع ارتفاعه بين

(١) الأطواف : جمع الطوف وهو قطع خشب نشد قصير كهيئة سطح ويركب عليها في الماء أو تعمل عليها الأتقال .

٤٠٠٠ و ٥٠٠٠ متر ، ولا يسقط الثلج تحت هذا الارتفاع إلا قليلاً ، وإذا ما سقط ذاب سريعاً ، وفي القسم الغربي من جبال هِمَالِيَّة يُمَسَّك واسع الهضاب كُتَلَ الجليد ، وفي ذلك القسم الغربي يكون لديها من الوقت ما تُسَكُون فيه ، على حين تنهال كُوم الثلج في مُنَحَدَرَات جبال هِمَالِيَّة الشرقية الواقعة .

ولا تُجِد لحقول الجليد التي تشاهد في هِمَالِيَّة الغربية وفي كارا كورَم مثيلاً في غير البقاع القطبية ، وترجع تلك الحقول بين ٢٥ و ٣٠ و ٥٠ كيلومتراً طولاً ، وهي مشهورة بما نُقِذَهُ من النُفَار في أثناء انهيارها ، وما يحدث أحياناً أن يتجمع التراب بين الجلاميد فيَنبُت فيه العشب فيحجب كُتَلَ الجليد الكثيفة غطاءً أخضر .

وتمتد في جبال هِمَالِيَّة الأمامية بقاعٌ يترجح ارتفاعها بين ١٠٠٠ و ٣٠٠٠ متر فيز كَرْنَا جَوُّها وإنتاجها بأفضل بقاع أوربة ، فإليها يجرى الإنسكاز في كل سنة باحثين عن ملاجئٍ فراراً من قَيْطِ الصيف ببلاد الهند ، فبستردون فيها ثَوَمَهُم التي أوهنها حرُّ السهل ، فنيها أقاموا « مُدُن الصحة » التي تُعَدُّ سِمَلاً ومسورى ودارجى لنفع أهمها .

وإلى سِمْلا ينتقل أكابر الموظفين في بدء فصل الحرِّ ، فتصبح مقرَّ الحكومة لبضعة أشهر ، فيعتقد المرء أنه أضحي بانسكارة عند تأملها وتأمل ما فيها من غاب البلوط والزَّيْن والأشجار المثمرة المألوفة في الغرب .

وفي الهند نواح كثيرة لها ما لتلك المنطقة من الروعة ، وأهمها جبال نِلَ غيرى التي تبدو في الجنوب ممتدة من جبال كَهَات الغربية ، في تلك الجبال أُنْشِيت أيضاً ، مدن للصحة ، وتُعدُّ أو ناكَمَنَد أعظمها شأنًا ، وتلك المدن جَوُّ أكثر اعتدالاً من جَوِّ مُنَحَدَرَات هِمَالِيَّة ما انفق لها ربيع دائم وثَمَرَات الصيف ، وما عَرَدَت الطيور

الأوربية والصيقان الشَّقر والعنادل والبلابل في أدغالها ، وإليها جلب الإنسكليز عصفائر  
دُورِيَّة فَرَّخَتْ وكَثُرَتْ حول بيوتها .

وإذا استئشيت تلك المناطق وجدتَ حرَّ بلاد الهند يترجَّح بين درجة الصفر  
والدرجة ٥٢ بمقياس سَنْتِغْرَاد .

وظاهرةُ مقاطعة الِهَنْجَاب أن تجمع أقصى درجة البرد وأقصى درجة القَيْط في  
الهند ، وأن تتقلب الأجواء فيها أكثر مما في غيرها .

وكلما سار الإنسان إلى جنوب الهند بدا له تناقص الفروق بين الصيف والشتاء ،  
فإذا بلغ أقصى الهند رأى استواء الجوِّ في مختلف الفصول .

أجلّ ، إنه يحد هناك ارتفاعاً في الحرارة بسبب درجة العَرَض ، ولكن  
نِسَام<sup>(١)</sup> البحر تَطْلَعُها ، وهي تترجَّح بين ٢٦ و ٢٨ درجة بمقياس سَنْتِغْرَاد في جميع  
أيام السنة .

ويُمَيِّز في الهند ثلاثة فصول وهي : فصل المطر ويدوم من مايو إلى أكتوبر ،  
وفصل البرد ويدوم من نوفمبر إلى آخر فبراير ، وفصل الحرّ ويدوم من أول مارس  
إلى أول يونيه ، ويختلف زمن كلِّ فصل بين منطقة وأخرى اختلافاً جزئياً ، وأصلح  
مصول الهند على العموم هو الذي يستطيع الأوربيون أن يسيحوا أو يستقروا فيه من  
غير سوء ، أي الذي يبدأ في أكتوبر وينتهي في أبريل .

ويصبح الحرُّ مضيقاً في الشهرين أبريل ومايو ، فيقاسى الأهليون في أثناءهما  
كبيرَ عناء ، فيبلغ الحرُّ في وادي السند وفي سواحل الدَّكَّ كُنْ شِدَّةً لا تَجِدُ مثلاً في  
بُقعة من الدنيا ، فيفيض الحرُّ مائة الأنهر وَيَذْوِي النبات ، فَتَشْخَصُ الأبصار إلى

(١) النسام : جمع النسيم .



السما الصافية فيحجب هذه السما في نهاية الأمر ، كبقية الطبيعة ، ضبابٌ من الغبار الدقيق الخلاق فتبدو الشمسُ من خلالها قرصاً نجساً عاطلاً من الشعاع .

هنالك ينفذ صبر الناس فينتظرون الفرج فيرتقبون ما في أفق الجنوب من الرياح الموسمية الماطرة التي تجيء صائلاً هائلة للخير حاملة .

الرياح الموسمية - لا تجد حادثاً ، كالرياح الموسمية ، متجبرة في ظاهرها نافعة في نتائجها .

يرى الإنسان سحُباً كثيفة تتكبد في السما في يوم أو يومين ، ثم تهترأ وتُقيل وثيدة<sup>(١)</sup> غاشية نصف الأفق بغطاء مائتى على حين يضيء نصف الأفق الآخر بيوت القرى البيض وضفاف الأنهر ، ثم لم يلبث الجميع أن يُعتم ، فينالك ترتعج<sup>(٢)</sup> البرق وتصف الرعود وتنزل الصواعق بما يُعزق القلب ويخلع النواد ، ثم تشمق الأضوار<sup>(٣)</sup> الطاخية<sup>(٤)</sup> كالظروف والقرب المملوءة فينهمر طوفانها على الأرض ويملاً مجارى الأنهار الجافة ويحولونها إلى سيول ، فتجزع الأرض المتكاثمة من مياهه المباركة فتبدو للناس حياة جديدة آتية من السما لتسرى في عروق العالم فيعود إليه شبابها .

ولم تُعتم تلك الزوابة الأولى أن تهدأ فتنتشع تلك الغيوم المسكفهرة عن سماها ضاحكة وعن نبات رطب يضرّج فوراً فيعود إلى الأحياء نشاطهم ويتحول كل شيء في بضعة أيام ، ولسكن رياح الجنوب الغربى الموسمية لا تنفك تجيء من فوق البحر في خمسة أشهر أو ستة أشهر حاملة الرطوبة والندى خافقة ماطرة بين حين وحين .

(١) وثيدة : على تودة - (٢) أرنعج البرق : تنابح - (٣) الأضوار : جمع الضور وهو السحابة السوداء - (٤) الطاخية : اللظلمة .

ذلك هو فصل المطر ، وذلك ما يحدث في السواحل الجنوبية الغربية ، ولا يحدث مثله في بقاع الهند الأخرى من كلِّ وجه ومن حيث الزمن والأحوال ، وإليك ما قيل في مصدر ذلك الحادث وسيره من النظريات الجديدة :

يَهْبُ ببلاد الهند ريحان مختلفتان مقسمتان لأيام السنة ، تَخْفِقُ إحداهما من الشمال الشرق فتدوم من نوفمبر إلى مايو ، وتحقق الأخرى من الجنوب الغربى فتدوم في الأشهر الستة الأخرى ، فأما الريح الأولى فتأتى من آسية الوسطى غير مارة بغير البرُور فلا تحمل فَاةً <sup>(١)</sup> ، فتدعى بالريح الموسمية الجافة ، فختلط بالرياح التى يَهْبُ بين دائرتى الانقلاب من الشرق إلى الغرب ، فلا تكون حادثة ذات طابع خاص ، وأما الريح الثانية فتجوب البحر الهندى فتحمل أبحرة يُسْفِرُ تسكاتها عن وابل هائل ، فتدعى بالريح الموسمية الماطرة ، فعلى وليدة تفاوت توزيع البرُور والبحار وقِيْط الصيف في أشهره الثلاثة .

تمت طبقات هواء الهند في آخر الفصل الحار وتنبسط شيئاً فشيئاً بفعل ارتفاع الحرارة فتتصاعد في الجو فتتحول الهند إلى أنون مستغيث فتهز حينئذ السحب التى تَعْمَى البحر الهندى وتسير لئلا ذلك الفراغ الحادث ، وتدوم على هذه الحال إلى أن يعود التوازن الذى اختل في الجو ، وإذا أصبحت سَحُب رِيَّاح الجنوب الغربى الموسمية فوق شواطئ الهند وَقَفَتْها جبال كَهاَت وحملتْها على الانصباب في جانبها الغربى ، فيؤدى هذا الوابلُ الهائل إلى قَدْع تلك الجبال ونقطيعها بروجاً ومسكَّات واكتسائها منظرًا ساحراً عجيباً خاصاً بها .

وإذا استطاعت تلك السُّحُب أن تتفد سلسلة كهات كان ذلك وهى أقلُّ قَطَرًا  
فَصَبَّتْ في جانب هذه السلسلة الشرق وفي هَضاب الدَّكَن مياهاً دون تلك مرتين  
أو ثلاث مرات ، وهى إذ تعجز عن قطع جبال كهات الشرقية تجرى إلى الشمال  
الشرقى غيرَ حاملة قَطْرَةً إلى شاطئ كورومندل .

والرياح الموسمية الشمالية الشرقية هى التى تَرَوَى ، بما لا يَكْفى ، مِنطقة كورومندل  
بعد أن تحمِلَ بعض السُّحُب من خليج البنغال .

والجفافُ بِلَيْتَةِ مِنطقة كورومندل فى الحقيقة ، وليس فى الهند مكانٌ يحتاج إلى  
الحِياض المصنوعة كهذه المِنطقة ، فأنشئ فيها من الحِياض الكثيرة ما تبلغ مساحته  
أحياناً مساحَةَ الأراضى الزراعية التى يُروىها .

وحينما تكون الرياح الموسمية الجنوبية الشرقية فوق البنغال تقطع البحرَ ثانيةً  
فتتحرف بنعل جبالِ بن مائى وآسام فتهبُّ عموديةً على شواطئ سُنْدَر بن كأنها آتية  
من الجنوب تَوًّا ، وهى إذ تكون حاملة سُّحُباً كثيفةً فى هذه المرة تُغَوِّرُ<sup>(١)</sup> فى  
وادى برهما پوترا العليا ، فهناك ، حيث جبال آسام وطرف سلسلة هِمَالِيَّة الشرق ،  
تُنزِلُ من الأمطار الهائلة ما لا مثيل له فى الدنيا ، فقدر ارتفاع ما سقط منه فى سنة  
١٨٦١ على جيرا پونجى ، الذى هو من شوامخ كهاسى ، بعشرين متراً ، فنجم عن ذلك  
أن تصدَّعت شِعَاف تلك المِنطقة كما فى جبال كهات .

وتغيَّرَ الرياح الموسمية سيرها بعد ذلك تغييراً تاماً ، فهى إذ تعجز عن مجاوزة جبال  
هِمَالِيَّة تجرى محاذيةً لهذه الجبال متوجهة إلى الشمال الغربى فتتشر الرطوبة فى طريقها

ثم تَصِلُ إلى اليمَّجَباب الذي ينتظرها لِيَسْحَ (١) فيه وِقَرُّهَا (٢) .  
ولا يكفُّهُ جَوُّ الينجَاب إلا في أواخر يوبيه ، وتَجُوب الرياح الموسمية تلك السبلَ  
بمَوَاقِع متناقضة في عِدَّة شهور ، وينال وادى السُّند وساحلُ أوريسَة أمواً حِصَّة  
من مياهها ، فإذا ماساء الحظُّ قَلَّ مقدار ما يأخذانه من الماء عادةً ، مع عدم كفايته ،  
أسفر ذلك عن مجاعة أشدَّ من الغزو والوباء ، فهلك مئات الألوف من الناس ،  
فليس من العَبَث ، إذَنْ ، أن عَبَدَ الهندوسُ الأَنْهَارَ والآلهة التي تُوزَعُ على الأرض  
مياه الخير والبركة ، جاء في المهابهارتا : « يأتينا المطر من الآلهة فيَمِبُّ لنا النبات الذي  
هو قِوَامُ نعمة الإنسان » .

ويرى الإنسان في الدَّكَّن الجنوبيِّ المناظرَ المختلفة التي هي وليدة الرى المتفاوت ،  
فالطمر ينزل عليه ، بالحقيقة ، نزولاً غير متساوٍ بسبب الموانع الجبلية وما إليها ، فهنا  
يهطل مِدْرَارٌ فيخرج نباتٌ برى جامع فتقوم غابة استوائية ، وهناك تجد حقولاً  
حُميرة تنبت فيها الخيازِر (٣) نباتاً متفرقاً ، وهناك ، حيث التراب البركاني ، تُبْصِرُ  
الجُدْب والجَنَاف .

أجل ، إن المجاعات التي تنشأ عن تفاوت نزول الأمطار هي أشدُّ ما نُبْتَلَى به  
بلاد الهند ، ولكهما ليست كلٌّ ما تصاب به ، فلتُخَفَّ إليها الأعاصير والهَيْصَة (٤)  
والْحُمَيَات .

ترفع الأعاصير فتُخَرِّبُ كلَّ شَيْءٍ يعترض لها ، ونثير أمواج البحر أحياناً  
فتَقْدِفُها إلى مسافات بعيدة ، ومنشأ الأعاصير هو ما بين رُكَّام الجِوِّ من تفاوت ،

(١) سح : سال وانصب غزيراً - (٢) الورق : السحاب المنفل بالماء . - (٣) الخيازر :  
جمع الخيزران - ٤ الهَيْصَة : السكاويرا .

وفي أواخر فصل الحرّ، على الخصوص، تهبّ الأعاصير فوق شواطئ كورومندل وسكهر وأوريسه، وما تحدنه الأعاصير من الضرر يذهب بلبّ الرشيد، ومن ذلك أن عرّقت في سنة ١٧٨٩ منطقة مدايولم القريبة من مصاب غوداوري فهلك ألوف من الناس حملت السفينة ليشيقرية مسافة فرسخ في البر، ومن ذلك أن دُمّرت في سنة ١٨٦٤ مدينة مجهلى بسّمت المتوسطة الأهمية الواقعة على ذلك الساحل، ومن ذلك الخراب الذي تعرّض له جزر سندر بين الرملية التي يتألف منها مصاب نهر الغنّج فيتعذّر دفعه .

وفي عُدران جزر سندر تلك وبين أبحرتها المنبعشة من القرب الرطيب وفي غياضها المُمَصِّية الويئة بُورَة الهَيْضَة الآسيوية الدائمة مع تقطّع تَفَشِّمِها في بقية بلاد الهند، وفي منطقة نرائى ذات المستنقعات الواقعة في سفوح جبال هَمَالِيَة مصدرُ حُمَيَّاتِ الآجام التي لا تَقِلُّ فَتَسْكَأُ عن الهَيْضَة، فَلَيَقُمُ بِتِلْكَ الْمِنْطَقَةِ أُولِيُوغُل فيها من يرغب في الموت، فالموت، وإن لم يلاقه فيها على الدوام، يُدْشِبُ أَظْفَارَهُ فِيهِ إِذَا مَا غَفَلَ عَنْهُ فَيَنْدِرُ أَنْ يَتَفَكَّكَتْ مِنْهُ .

ولا يقال، مع ذلك، إن بلاد الهند الرائعة، التي لا يَنْضُبُ لها مَعِين، وبيثة في مجموعها، فيمكن الأوربيين أن يستقرّوا بها من غير أن يخاطروا بأنفسهم ما سلكوا سبيل الرشاد فبدّلوا منازلهم فيها وعَيَّرُوا ما هم فيه من هوائها وأجوائها بحسب الفصول، وهذا لا يكون لزمان طويل مع ذلك، فقد هدتهم التجارب إلى استحالة اختيارهم لها وطنًا ثابتًا فتراهم يرسلون أولادهم إلى إنسكلترة لِيَتَشَأُوا فيها، ما تَأَلَّفَ مِنْ يَبْقَى مِنْهُمْ في الهند عرق منقطع سخيف ضعيف محكوم عليه بالأفول قريبًا، وما أحسن قول بعضهم: «يتصف جبل البيض الأول في بلاد الهند بالضفة

والسُّخْفُ ، ويتصف جيلهم الثاني فيها بالعجز والسَّكَنَ ، ولا تسمع عن جيلهم الثالث فيها خيراً » .

والهتْدُ إذا أريد وصفها وصفاً أساسياً قيل إنها بلادٌ حارةٌ يَقلُّ فيها الاحتياج إلى المساكن والملابس والمآكل وتكثر فيها الأراضي الخصيبة التي تُخرج ، بغير عمل ، ما يُضطرُّ إليه الأهليون من المحاصيل القليلة ، ففي أحوال كتلك لا يتطلب الصراعُ من أجل الحياة كبيرَ جهودٍ ، فلا ينمو فيها خلق للمبادرة والنشاط والحزم ، فكأنه كُتِبَ على العروق الخاضعة لمثل تلك الأحوال أن تكون مستعبدة ، فهي تظلُّ فريسةً للقائمين ، مستعدةٌ للعمل بأوامر الغالبين .

## الفصل الثاني وصف مناطق الهند العام

الحدود الطبيعية لمناطق الهند — الخط الفاصل بين الهندوستان والدكن —  
(١) همالية الشرقية (نيبال وسكيم وبهوتان) — عزلة نيپال — وصفه الخاص —  
اختلاط المؤثرات الهندية والتبتية — الممالك الصغيرة في منطقة جبال همالية  
الشرقية — (٢) البنغال — خصبه — طبيعة سكانه — (٣) أوديه — اختلاف  
سكانه عن البنغال — (٤) همالية الغربية — جوكشمير — وادي كشمير —  
(٥) الهند الإسلامية (البنجاب وراجپوتانا والسند الح .) — أوصافها —  
البنجاب وكاتهيوار والسكجرات الخ — (٦) ولايات الهند الوسطى وساحل  
أوريصة — المنطقة الوسطى المعروفة بموندوانا — منطقة أوريصة — (٧) الدكن —  
الظاهرة البركانية لقسم من الدكن — مملكة حيدر آباد ومملكة ميسور الخ .

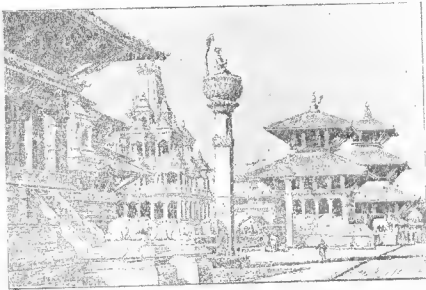
لمناطق الهند حدود طبيعية على العموم ، كأن يفصل نهر أو سلسلة جبال بين  
منطقتين منها مختلفتين عرقاً وحكومةً وحضارةً ، والضرورات السياسية تؤدي ، في  
الغالب ، إلى تذليل تلك الحواجز وتبديل غيرها بها ، ولم ينجم عن الفتح أو الحلف ،  
مع ذلك ، تقريب مستمر لنصف شبه جزيرة الهند ( الهندوستان والدكن ) اللذين  
تفصل بينهما جبال ونديهما ما بقيت هذه الجبال حجاباً حاجزاً ، فكان ما تراه من  
اختلافهما في الأجواء والخصائص والشعوب والطبائع والعادات .

وأهل الشمال الذين تَمَوَّدُوا الانتقال بين القِيْظِ والقرِّ أعظمُ بَنِيَّةً وأكثرُ  
نشاطاً وأشدُّ بأساً من أهل الجنوب ، والمرآتها الذين يسكنون المناطق الجنوبية

يقاسون وحدهم بأولئك ، وسكانُ الدِّكَن الذين يقطنون بقطر شديد الحرارة غير متقلب فلا ينمون جسماً وأخلاقاً يبدون قِصاراً أخلياء كُسَالَى ، وتختلف جلودهم عن جلود أهل الشمال لوناً ، ويتدرّج لون البشر من الجنوب إلى الشمال على العموم فتراه أسوداً في الجنوب ، نحاسياً فأبيضَ في الشمال كما عند الراجيوت .  
وسنبدأ بالشمال فنصِف سَحَنَات سكان كلِّ مِنطَقة وخواصّها ومُحصولاتها المحلية وصفاً إجمالياً .

### ١- هِمَالِيَّةُ الشَّرْقِيَّة ( نِيپَال وَسِيكَم وَبِهوتَان )

نُشْمَل هِمَالِيَّةُ الشَّرْقِيَّة على دولتين مستقلتين على الرغم من الإسكايِز ، وهما :  
نِيپَال وَبِهوتَان .



٧ - منظر في بِن ( نِيپَال ) ( النقطَةُ المُوَافِقَةُ هَذَا الْمَطَرِ مِنْ طَرَفِ الشَّارِعِ الْمُهَمِّ بِن ) ، وَتَجِدُ تَصَوُّراً  
لِلْعَمِيدِ الْكَبِيرِ ، الَّذِي تَحْبِجُ الْقُبْلَةُ قَاعِدَتَهُ ، فِي هَذِهِ الصُّورَةِ ، وَتَصَوُّراً لِخَنَائِفِ مَبَانِي هَذِهِ  
الْمَدِينَةِ فِي مَكَانٍ آخَرَ مِنْ هَذَا السَّفَرِ )



ونيبال هي واد طويل واقع بين سلسلتى الجبال المتوازيتين : هِمَالِيَّة وما تحت هِمَالِيَّة .

وليست سلسلة ما تحت هِمَالِيَّة هي الحاجز الوحيد الذى يفصل نيبال من الهند ، فإليها نُضِيف مِنطَقَةُ تَرَايِ المَرهُوبَةِ التى تحاذيها جنوباً فينشأ عن أُورِثَتِهَا القاتلة حَدُّ طَبِيعِيٌّ ثَانٍ .

ولننبال المنعزلة على ذلك الوجه طابع خاص ، وبلغ أهل نيبال من العَصِيَرَةِ على استقلالهم ما رَضُوا به وجود سفير إنكليزى لدى بلاطهم بعد حربين طاحنتين ، على أن يكون هذا السفيرُ الأوربى الوحيد الذى يُسَمَّح له بدخول نيبال ، ولم يُؤْذَن لى فى زيارة هذا الصُّنْعِ العجيب ، الذى لم يَسْطِيع الرحالة جاكسون أن يدخله مع ما أناه من جهود عظيمة ، إلا بعد مفاوضات رسمية طويلة ، فسكنتُ أولَ فَرَسَمَى طاف فيه (١) .

و يبدو فى نيبال جلال جبال هِمَالِيَّة وَوَحْشَتُهَا ، وتُناطِح شِعَافُهَا السماء ، فيهيمن على وادى نيبال الطويل جبلُ دِبولِ غِيرى من الغرب وجبلُ كَنْجَنْجَنْكها أو « جبل السكتل الجليدية اللامعة الخس » من الشرق ، وجبلُ غورى شَنْكر أو « مَلِكِ الجبال » فى الوسط ، فتكتسب نيبال بذلك مناظر رائعة لا ترى مثلاً فى مِنطَقَةِ أُخْرَى ، وتشاهد من السهل ذُرّاً تلك الجبال المنيعَة ذواتُ السُلُوج ، فإذا خاطر المرءُ بنفسه فَتَسَلَّقَ مساربها ارتعد من التباين بين الوُوى السود النافذة فى بطن الأرض وجُدُرِ الصَّوَّانِ الشاهقة وَفَقْرِ التلج التى تتدرج إلى السماوات . وأشهرُ السَّعَابِ ذواتُ المِهَالِكِ التى أَصِلَ الهند بالتبت هو شُعْبُ نِيَالو الذى

(١) سطت رحلتى إلى نيبال فى الصحفة : « سباحة حول العالم » ( أُبْرِيل سنة ١٨٨٦ )

يؤدى إلى بحيرة مانسرور الواقعة فى أسفل جبل كيلاس ، فى مجاهل هذا الجبل  
تسكن ، كما يعتقد الهندوس ، حيوانات خفية قاذفة من أفواها المزبدة أنهر الهند  
الأربعة : سانغ بو (مجرى برها بوترا الأعلى على ما يحتمل) والسند وستلج  
والغنغا .

وروافد نهر المنج الآنية من نبال كثيرة ، وتقطع هذه الروافد حدود نبال  
الطبيعية قطعاً عمودياً ، وينبع بعضها من سفح هائلة الشالى فيجوب نبال ، ولا  
تصلح الملاحه ما صدعت الجبال فجرت بسرعة من نبال نفسها فأضحت بذلك غير  
نافعة اسوى نقل الحطب وأعمال الرى .

ونقسم تلك الأنهر منطقة نبال إلى عدة أصقاع يختلف سكان بعضها عن سكان  
بعض ، ويؤدى تفاوت ارتفاع هذه الأصقاع إلى اختلاف سكانها أيضاً .  
ويتجلى أثر التبت فى قسم نبال الجبل على الخصوص ، وتغير هذا الأثر ،  
مع ذلك ، تغيراً محسوساً بما تم من الاختلاط بالعناصر الآرية التى نتكلم عنها فى فصل  
العروق ، فنيبال هى منطقة الانتقال بين الهند ومملكة ابن السماء عروفاً وعمارةً  
وطبائع وعادات .

وتقع بين نبال وهوتان دولة سيكم الصغيرة التى يملكها أحد الراجوات ،  
ولا تعدو عاصمتها ثمانغ قرية ، ولا يزيد سكان هذه الدولة على ستين ألفاً ،  
وهى ذات طابع تبتى خالص .

وسيكم جبلية رطبية جداً ، وتضعب الإقامة بها فى أكثر أيام السنة ، ومن  
دولة سيكم القديمة سلخ الإنكليز أخصب بقعة ، فجمعوا منها مديرية وجمعوا من

مقرّها دارجى لنغ مَصْعًا وَمَصِيفًا مهمًا فى فصل القيظ ، فَمُدَّ نِدًّا لِسَمَلَا الواقعة فى هِمَالِيَّة الغريبة وإن كان دونها لرطوبة جَوِّه ، وتبدو مدينة دارجى لنغ سوقًا عظيمة يقصدها الهندوس وأهل التبت للمقايسة والمعاوضة .

وتشابه مِنطَقَة بهُونان مِنطَقَة سِيكَم الفاصلة لها عن نيبال ، وتقع على منحدرات الجنوب من مِنطَقَة هِمَالِيَّة الشرقية ، وتقسّم إلى ثلاث مناطق زراعية : المِنطَقَة السهلية التى يَنبُت فيها نبات البلاد الحارة ، ومِنطَقَة المنحدرات التى يَنبُت فيها نبات البلاد المعتدلة ومِنطَقَة غابات الصنوبر المرتفعة الجليدية ، وتُرَوِّى الرياح الموسمية سفوحها الجنوبية إرواء تامًّا ، ولا يَقْطُن بها غير الجليدين ، وتقوم مدينتاها المهمتان على أما كنّ مرتفعة ، وتحاذيها مِنطَقَة تَرَائى .

## ٢ - البنغال

يَلِي سهلُ البنغال الواسعُ شواهِقَ سِيكَم وبهُونان من الجنوب ، ويرى الناظر إلى هذا السهل من جبال هِمَالِيَّة بساطًا أخضرَ من النبات الرِّيان<sup>(١)</sup> الزاخر حيث تجرى أنهار رائئة وروافدُ وجداول مُشَبَّكة ، ويرى فى أثناء الفيضان من الماء ما يَعْدِلُ اليَبَسَ ، ويرى فى أثناء الطوفان الذى تُسْفِر عنه الرياح الموسمية الجنوبية رطوبةً شديدة .

ومن ينعم النظر فى البنغال يقطع بأنها نائمة للبحر أكثر من اتباعها لليابسة ، ما كانت مجارى المياه التى على سطحها لا تزيد عن البُحيرات والأمهار الواقعة تحتها ،

(١) الريان : ضد العطشان .

وليس بقليل أن يجِدَ فَلَاحِهَا الَّذِي يَتَقَابُ الْأَرْضَ بِمِزْقَةٍ<sup>(١)</sup> سِمَاطًا سَانِلًا عَلَى عَمَقِ قَدَمٍ أَوْ قَدَمَيْنِ .

وما هو أَهْلٌ مَعْبُورٌ مِنَ الْبَنْغَالِ يَتَنَازَعُهُ الْمَاءُ الْغَامِرُ وَشُعَاعُ الشَّمْسِ الْحَارُّ ، وَلَوْلَا هَذَا الشُّعَاعُ مَا سَيَّأَتْ فِي الْبَنْغَالِ أَرْضٌ مِنَ الْفَرَقِّ ، وَيَنْجُمُ عَنْ تَسَاوُبِ الْحَرِّ وَالْبَلَالِ لِلْبَنْغَالِ قُوَّةٌ إِنْبَاتٌ لَا تُدْمَتُ وَأَبْخِرَةٌ وَخِيمةٌ لَا تُحْدَثُ وَجَوَائِعُ<sup>(٢)</sup> لَا يَحْصِيهَا عَدٌّ ، فَمِنْ الْبَنْغَالِ تَدْبُ الْهَيْمَصَةُ<sup>(٣)</sup> عَلَى الْعَالَمِ ، وَعَلَى الْبَنْغَالِ تَسِيطِرُ الْهَيْفَصَةُ وَالْحَمَى فِي كُلِّ زَمَنٍ .

وَالْبَنْغَالُ ، مَعَ مَا فِيهَا مِنَ الْآفَاتِ وَالضَّوَارِي وَأَنْمَرِ الْأَجَامِ وَتَمَاسِيحِ الْأَنْهَارِ ، نُمَدُّ مِنْ أَكْثَرِ الْبُلْدَانِ سَكَانًا وَأَصْلَحَهَا أَطْيَانًا ، فَأَرْضُهَا تُؤْتِي أَكْثَرَهَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي السَّنَةِ مِنْ غَيْرِ عَنَاءٍ كَبِيرٍ ، وَهِيَ ، لِأَنَّهَا ذَاتُ شَوَاطِيْ ، تَجِدُ إِلَى الْبَحْرِ مِنَ الْمَنَافِدِ مَا تَصْدُرُ مِنْهُ حَاصِلَاتُهَا ، وَيَعْشَى الْأَرْضَ سَهُولُهَا الرِّطَابَةُ الْمَطْمِنَةُ ، وَيَعْشَى الشَّعْبَرُ وَالْبَرُّ<sup>(٤)</sup> وَالْدُّخْنُ<sup>(٥)</sup> الْحُحْ ، حَقُولُهَا الْمُرْتَفَعَةُ ، وَيَنْبِتُ فِيهَا الْقَطَنُ وَقَصَبُ السَّكَّرِ وَالتَّبَعِيقُ وَالْقَنْبُ وَالْحَشِيشُ خَاشِ<sup>(٦)</sup> وَالْعُظْلِمُ<sup>(٧)</sup> وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ النَّبَاتِ الْغِذَائِيِّ الصَّنَاعِيِّ بِسَهْوَةٍ عَجِيبَةٍ .

وَنَقُومُ مَدَنَ كَثِيرَةً عَامِرَةً زَاهِرَةً عَلَى ضِفَافِ الْأَنْهَارِ الَّتِي تَشُقُّ الْبَنْغَالَ ، وَيُظَلُّ زَهْوُ هَذِهِ الْمَدَنِ مَا ظَلَّتْ عَلَى هَذِهِ الضُّفَافِ ، فَإِذَا حَوَّلَ النِّهْرُ مَجْرَاهُ خَرِبَتْ كَمَا حَدَثَ

(١) المِزْقُ : الْمَفْرَاةُ ، الْأَلَّةُ مِنْ حَدِيدٍ وَنَحْوِهِ مَا يَخْفَرُ بِهِ — (٢) الْجَوَائِعُ : جَمْعُ الْجَائِعَةِ وَهِيَ الْبَابَةُ وَالتَّهْلُكَةُ وَالدَّاهِيَةُ الْعَظِيمَةُ — (٣) الْهَيْمَصَةُ : السَّكُولِيَا — (٤) الْبَرُّ : الْقَمَحُ (٥) الدُّخْنُ : نَبَاتٌ حَبِيصٌ صَغِيرٌ أَمْلَسُ — (٦) الْحَشِيشُ خَاشِ : نَبَاتٌ يَحْمَلُ كُرَازًا يَبْضُ وَهُوَ مِنْوَمٌ مَحْدَرٌ — (٧) الْعُظْلِمُ : نَبَاتٌ يَبْصِغُ بِهِ .

لمدينة غور، وأهم مدن البنغال مدينة كلكتة التي هي عاصمة الإمبراطورية الإنكليزية الهندية والتي هي أعظم مرفأ في شبه جزيرة الهند .

وأهل البنغال مزيجٌ أناسٍ مختلفين، والمثالي الهندوس في هذا القطر كرية خَلْقًا وَخُلُقًا ، و يراه الأوربيون خلاصة جميع العروق التي تسكن شبه جزيرة الهند، ويرجع ذلك إلى أن أكثر سبياح الغرب لم يُهضموا غيره ، ويتصف البنغالي بالقصر والهزال والاسمرار والتسكُّرُش ، ويهضم البنغالي ما يُلَقِّنُهُ ، ويبدو البنغالي من الناحية الخلقية خنثيًا جبانًا نَذْلًا مُرائيًا .

### ٣ - أَوْدَهَة

نقع ولاية أَوْدَهَة ، التي هي من أرغد بقاع الأرض ، في شمال البنغال الغربي ، بين وادي الغَنج وجبال هَمَالِيَة ، وتتمتع بحو أطيب من جو البنغال ، ويختلف سكانها عن سكان البنغال اختلافًا كثيرًا ، ويَقْرُبُ عرقهم الجبل البهي القوي من العروق الأوربية قُرْبًا كبيرًا ، ويتصف بالطول وانتظام الوجه وانسجام اللون ، ولا إفراط في رطوبة أَوْدَهَة ، وتكفي لانبثات أراضيها نباتًا عجيبًا ، ولا مراء في قبْط صيفها ، ولكن قُرَّ شتائها يُطَرِّى الجو فيَتَقَوَّى أهلوها ويتجدد نشاطهم .

وفي أَوْدَهَة غابات ساترة لما يلي الجبال من الأراضي غنية بالقناص ، كَمَّةُ الأشجار الصالحة لاستخراج العطور الفاخرة ، وفي أَوْدَهَة سهول هابطة بالتدريج إلى نهر الغَنج ذات غَلَّات سنوية نورث وفرشها العجب ، وليس بضائر أن يشتمل تَرَأَى على قطعة مهمة من أَوْدَهَة ما تغلب الإنسان بقوة إرادته ومضاء عزيمته على الطبيعة فاستطاع أن يُخَيِّبَ أجزاء كثيرة من تلك القطعة الخطيرة ويجعلها طيبة هنية .

وفي أساطير الهندوس ذِكْرُ لُجَالِ أَوْدَهَة وخِصْبِهَا ، وفي قصائد الشعراء تَرَنُّمٌ  
بهذه الملكة التي كانت تسمى كُوسَلَة وبِعاصمتها القديمة أَجُودَهيا الخَرِبة في الوقت  
الحاضر ، جاء في ديوان الرماثينا .

« هنالك قطرٌ واسع اسمه كُوسَلَة واقعٌ على شاطئِ سَرَّاجو زاهرٍ عظيمٍ الخيرات  
كثيرٍ القِطاعِ وافرٍ الغلَّاتِ ، وهنالك مدينةٌ شهيرةٌ في العالمِ بأسره أنشأها سيد البشر  
منو فدُعيت بأجُودَهيا » .

وأُضحت تلك المدينة الآلهة أَوْدَهَة الحديثة مؤخرًا ، وبهذا الاسم يسمى البلد  
الذي كانت تلك المدينة عاصمةً له فسكانت واقعة على شواطئ غوغرا .

وغيَّرَ بلد أَوْدَهَة ، كبقية بلاد الهند ، عاصمته غير مرة ، فأضحت مدينة لَكهنؤُ  
عاصمة له بعد أن كانت فيض آباد ، ومدينة لَكهنؤُ تلك نالت أهمية كبيرة منذ  
صارت مِنطقة أَوْدَهَة التي هي « فردوس الهند » مُلكَ إنكلترة ، وهي تجتذب فريقًا  
كبيرًا من الأوربيين بسبب موقعها الساحر ، وهي مركز الأناقة ، وهي ذات مبانٍ  
مؤثرة من بعيد وإن عدناها نموذَجًا لانهطاط الفنِّ الهندوسيِّ في العهد الأوربي .

#### ٤ — هِمَالِيَة الغربية ( كشمير )

وادي كشمير أفضلُ من قطر أَوْدَهَة وأشهرُ منه في أفاصيص الهند وأساطير العالم ،  
ولا يعلِّله سوى مِنطقة نيبال حسنَ جَوِّ وروعة منظرٍ ، ويقع بين فروع جبال هِمَالِيَة  
الغربية الأخيرة وشواهِق كارا كورَم الأولى ، وتهبمن عليه الذرَّات الثلوج وتحيط  
به أسوار من جلاميد تتحدَّى أقدام الناس بمنحدراتها الوعرَة الصعبة السكامة ،

وتحتوى سهوله النَّصْرَةِ الأَرَجَةِ<sup>(١)</sup> على بحيرات وأهوار<sup>(٢)</sup> بِلَوْرِيَّة هادئة وقرى ذات مساكن رائعة ومعابد وقصور ذوات حياطين<sup>(٣)</sup> بيض .

والمرء حين يسير وَضِمَّة نهر ذلك الوادى الوحيد جهيل<sup>(٤)</sup> (الذى يدعوه الآريون بـيْتاستا ويسميه الإغريق بهيداميس) فيرفع ناظره يرى دُراً نَافِعاً تَرَبَّت الهائلة التى يتألف منها حدُّ إمبراطوية الهند المُتَرَنَّ و يرى دُراً دَبْسُغ الذى هو جبل الدنيا الثانى البالغ ارتفاعه ٨٦٦٠ متراً ، والمرء حين يَخْفِض ناظره يرى منظرًا دون ذلك جلالاً وأكثر من ذلك سحراً وسناء ، أى يرى مباني رائعة تَبْلُلُ أسفلها الرخامى بحيرات زُرْق هادئة بهيجة محاطة بنبات فائق ذى اخضرار وأزهار .

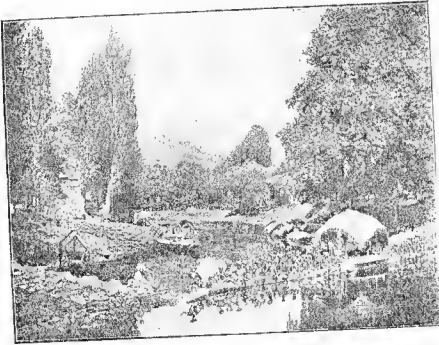
ونقع مدينة شري نَغَر ، التى هى أكبر مدينة فى ذلك القسم من هَمَالِيَّة ، فى وسط وادى كشمير وعلى ضِفْتَيْ نهر جِهِيلَم ، ودعيت هذه المدينة بـ « بندقية الهند » إما يَسْمُهَا من القنوات .

وَتُعْطَى سُفُف بيوت مدينة شري نَغَر طبقة تراب رقيقة ، حيث يَدْبُتُ الخُصَر والزهر فتبدو هذه المدينة حديقة واسعة مَعَلَّقة ، وتُشَاهَدُ حدائق فوق أطواف<sup>(٥)</sup> عاتمة فى البحيرات فيزرع أهالى شري نَغَر الماهرون فيها القَمْاء والبَطِيخ فلا تَقِلُّ غرابة عن تلك .

ويلائم جمال الإنسان فى ذلك « الوادى المبارك » جمال الطبيعة فيبدو رجال

(١) الأدرج : ذو الرائحة الطيبة - (٢) الأهوار : جمع الهور وهو البحيرة تجري إليها مياه غياض وآجام فتفسح - (٣) الحياطين : جمع الحائط - (٤) الأملواف : جمع الطواف وهو قطع خشب يشد بعضها إلى بعض فتصير كمكبشة سطح ويركب عليها فى الماء أو تحمل عليها الأنفسال .

كشمير أكثر رجال الهند تناسباً وبياضاً ، وتبدو تقاطيع نساءها الجميلة مشهورة في أسواق نخاسة الشرق .



٨ - نهر جهيلم يغطاه قارب مهاراجة كشمير

وظلت صناعة الشالات الكشميرية منبع ثروة لذلك البلد زمناً طويلاً ، ثم نقصت أهميتها لتقلب الأزياء في أوربة ، ولكن أهالى ذلك البلد وجدوا في صناعة عطور الورد وصناعة الأدوات المعدنية المرصعة وما إليها ما يشغلهم .

ويتألف من وادى كشمير بقعة ذات طابع خاص في مجموعة الولايات الكشميرية ، وتشتمل هذه الولايات ، التى اتخذت مجرى الواقعة على نهر جنب عاصمة لها ، على أودية نهر السند العليا وعلى روافده وعلى جميع الهضاب المجاورة للنبت ، وتعدّ لداخ وبالنسبة من أجزائها سياسياً .



ويستوقف تكوين وادي كشمير النظائر كثيراً ، فبدلُ البحث العلمي على أن هذا الوادي كان بحيرة في سالف العصور وأن انقلاباً حدث فأدفر عن انفتاح سلاسل جبال الدنيا وجريان مياه تلك البحيرة ، وأساطير الهند مملوءة بأخبار ذلك الأمر العجيب الذي حدث قبل ظهور الإنسان في الدنيا .

## ٥ - الهند الإسلامية (البنجاب وراجپوتانا والسند : الخ)

يشتمل وادي السند على البنجاب وراجپوتانا والكجرات والسُّند ، ويسمى هذا الوادي بالهند الإسلامية لسيطرة الفاتحين المسلمين عليه ولما احتواه من المباني التي أسفرت عنها الحضارة الإسلامية .

وتضاف إلى ذلك القطر منطقة وادي الغنّج الأعلى التي يسميها الإنسكيز بالولايات الشمالية الغربية ، وأخذ نهر جَمَنَة الذي هو رافد ضفة نهر الغنّج اليمنى حداً رسمياً بين البنجاب وتلك الولايات الشمالية الغربية .

وتبدو منطقة البنجاب الآهلة العامرة المستطيلة في أسفل هِمَالِيَة أنها تمطُّ سهلَ الغنّج الخصب إلى ماوراء نهر السند فتكون أداة وصل بين وادي الشمال العظيمين اللذين يظلان منفصلين غيرها .

وفي منطقة البنجاب حقولٌ حسنة الرّى جيدة الخصب ، وسكانٌ كثيرون ، ومدنٌ زاهرة شهيرة كالمدن : لاهور وأمرت سير ودھلي الخ .

ولكن الإنسان إذا سار إلى الجنوب شاهد انبساط الصَّحارى الواسعة الكثبية واتجاهها إلى بحر العرب وشاهد بيوتاً تتباعد أو تغيب ، وتتعذر الزراعة في تلك الصَّحارى فلا تحتوي على غير مراعي ضعيفة هزيلة .

ويتصف جوُّ ذلك القطر باختلاف حرارته بين فصل وآخر ، وتزيد تقلبات هذه الحرارة على خمسين درجة ، ولا يشاهد هذا في صحراء تنهار وحدها ، بل يشاهد في مدن الشال أيضاً ، فمن هذه المدن أغرا التي تكون من أشدَّ البلاد قَيْظاً فلا يندُر أن تصبح ذات قُرٍّ في الصباح والمساء من أيام الشتاء .

وفي فصل الجفاف تهبُّ في الصحراء رياحٌ لوانحٍ كأنها خارجة من الجحيم ، فلا تضع الحيوانات أرجلها على رمالها المحرقة من غير أن تألم ، فيستفيد من ذلك أناس راكبون خيلاً أو جمالاً فيتصيدون ذئاباً امجرها عن الحرِّب في ذلك السعير .

وتعدُّ بقعة غريبةٌ مستوية من جنوب صحراء تنهار وتسمَّى رَن كَجَّة ، ويترجع عرضها بين ٦٠ و ١٠٠ كيلومتر فتكون في الصيف قاسيةً متماسكةً كالمرآة ، فإذا حلَّ الشتاء غرستها طبقة ماء عمقها متر واحد ، فلا يفصلها عن البحر نفقياً سوى جزيرة كَجَّة البارزة قليلاً والحاوية بضع قُرَى ونباتاً ضعيفاً ، فيتموج فوق رَن كَجَّة تلك سرابٌ لَوَّ سراب بفعل أشعة الشمس فيمسُّ السائح لُغُوبٌ<sup>(١)</sup> ، فيهمم فيتعذر ، لهذا التهميم وانعكاس النور على الرمل أو على البرك ، اجتياح رَن كَجَّة تلك نهاراً لا بعد غياب الشمس .

ويقع في جنوب كَجَّة الشرق وغديرها<sup>(٢)</sup> شبه جزيرة كاتهيوار التي هي جزء من ولاية الكجرات سياسياً .

والكجرات من أمكن بلاد الهند ، ومدينة أحمد آباد ، التي هي قاعدتها ، زاهرة ذات جدِّ وعمل وتجارة رابحة ، وليست مرافق كاتهيوار بمجبهة لى لدى سفن

(١) لغب يانب العوبا : تمب وأعبا أشد الإعياء — (٢) المدير : قطعة من الماء يتركها السبل

العالم ، ويصبُّ في خليج كَنِي الذي يُملِّل شواطئها نهرُ نَرَبْدَا ونهر تايي .  
وترفع جبال أراولي وطوود آيو المنفصلُ منهما في شمال الكجرات وشرق صحراء  
تِهَار، وطوود آيو هذا صِيْتُ بعيد في جميع بلاد الهند حيث يُقدَّسه الناس ، فأُنشأت  
في جوانبه معابدُ جَيَدِيَّة أظهر متفننو الهندوس فيها ما لديهم من الخِدْق في النحت  
العظيم الرائع الساحر .

ويسكن الراجبوت الذين هم من أقدم عروق الهند جبال أراولي والبُقعة الوعرة  
التي تهيم عليها هذه الجبال ، وظلَّ الراجبوت مستقلين تقريباً مع غزوات الأجنبيِّ  
بفضل طبيعة بلدٍهم ذى الآطام<sup>(١)</sup> والمعازل الطبيعية ، أى بفضل بلدٍهم ذى الصخور  
التي يُخَيِّل إلى الناظر من بعيد أنها حصون وأبراج ، فإذا أُقيمت فوقها قلعةٌ صَعُب  
تمييز ما صنعه الإنسان فيها مما شادته يد الطبيعة .

ونقع ولاية بُنْدِيل كَهَنَد وولاية بها كِيل كَهَنَد في شرق راجپوتانا ، وتحتوى  
تألك الولايتان الجبليةتان على مناجم حديد وفحم حجرى ، وكانت مدينة كَهَجُورا  
قاعدة بُنْدِيل كَهَنَد فأضحت مهجورة مع اشتغالها على معابد معدودة أعجب ما في  
الهند .

وأهل هَضْبَة مَالَوَا وجبال وَنْدِهِيَا ذلك القسم الهندوستاني بولايات الهند  
الوسطى العالية .

## ٦ - ولايات الهند الوسطى وساحل أوريسه

يُعرفُ بغوندوانا قسمُ الهند الذى يسميه الإنكليز بالولايات الوسطى ،

(١) الآطام : جمع الأطم وهو الحصن .

ويتوسط هذا القسم الهندوستان والدكن بحيوانه ونباته وموقعه الجغرافى ، وبدا هذا القسم مستوراً بأجام موبوءة مهلكة لا تنفذ ، وظل إلى القرن الثامن عشر حاجزاً لم يقدر الغزاة على مجاوزته إلا بالدؤور حوله ، وبقي إلى ما قبل ثلاثين سنة مجهولاً كإفريقية الوسطى .

وتتألف غوندوانا من سلسلة هضاب يترجج ارتفاعها بين ٣٠٠ و ١١٠٠ متر ، وتخللها أودية وفجاج عميقة ، وتظهر هضبة أمركن تلك ، التى هى أعلى تلك الهضاب ، عقدة جبلية مهمة ينبع منها ستة أنهار كبيرة نذكر منها سون ومهاندى ونربدا .

ويقطن فى قسم من غوندوانا وحوش الغوند الذين سندرس أسمرهم فى فصل آخر .

ويقع ساحل أوريسه فى شرق غوندوانا ، وهو بقعة فقيرة فقراً معروفة للجذب والفيضان والجوع فى الوقت الحاضر ، بعد أن كانت موطناً لدولة قوية سنية فى غابر الأزمان ، كما يشهد بذلك ما تركته تلك الدولة من المعابد الهية ، وتعد معابد بهو ونيشور وجسكن نأتها من أشهر معابد الهند ، لألوف الحبيج الذين يقصدون هذه الأخيرة من جميع أنحاء الهند .

ويمتد ساحل أوريسه إلى الجنوب من شاطئ سكهر ، ويرى تحت بحيرة چلسا ممر ضيق يعرف بترموپيل سكهر ، فيمر بين الجبال والبحر بعد أن يقطع مدينة برهاپوترا الهامة ، فمن هذا الممر اضطر الفاتحون أن يسيروا ليدخلوا الدكن من هذه الناحية ، فهذا هو الحد بين اللغات الآرية وال دراويدية ، فيتكلم الناس بالأورىة فى الشمال ويتكلمون بالتيلغو فى الجنوب .

## ٧ - الدكن

كان اسم الدكن يطلق على قسم الهند الجنوبي المقابل للقسم الشمالى المعروف بالهندوستان ، واليوم يُطلق على منطقة الهضاب عدا الولايات الوسطى والسواحل .  
وذلك الهضاب ذاتُ التراب البركاني غيرُ خصبة وقليلة السكان على العموم ،  
ويستثنى من ذلك ضفافُ الأنهار والأودية ذوات الأطيان السود والجزء الغربى  
الذى تحمل الرياح الموسمية الجنوبية إليه سيولاً مباركة في كل سنة .

ويقطن فى الشمال الغربى من ذلك القطر المراتها الذين كانت لهم دولة قوية  
محاربة مرهوبة فى الهند بأسرها فيما مضى .

قهر المراتها سكان تلك الجهات الأصليين البهيل واستقروا بعرضى جبال  
كها وبالهضاب العالية وبمهل كونسكن الغنية ، وثار المراتها على الإنكليز غير  
مرة ، ولاقى هؤلاء الأمرين فى ردّ جماهم ، وإذا عدّوت المراتها وجدت أهالى  
الدكن من الدراويد ، أو من الذين تغلب عليهم العنصر الدرايذى على الرغم من  
كل توالد .

ولم يبق سوى دولة ميسور ودولة حيدرآباد من الدول الكبيرة التى استولت  
على جنوب الهند فاتخذت غولكندا وبيجاپور وبيجانر عواصم لها فكان لها فى  
أخيلة الأوربيين أعجب الذكريات .

وتقع مملكة ميسور على الجانب الشرقى من جبال كهات الغربية ، ويستند  
جنوبها إلى جبال نل غبرى ، وتفيض سحاب الرياح الموسمية عليها بعد أن تصب  
بصولة فى ساحل ملبار ، ويستتر بعض مملكة ميسور ، لذلك ، نبات قوى ، وتشتمل

على غابٍ عجيبَةٍ يكثر فيها شجر الصندل الطيبُ الشَّدَا الذي يُتَمَقَّنُ الهنود نقره وترصيعه ، وأُصْدِرَ القطنَ والحبوب والأبازير إلى الخارج ، وتظهر عاصمتُها التي تسمى ميسور أيضاً مدينةً صحيحة هيفاء ، وإن كان الأوربيون يفضلون عليها أو تاكاسند الواقعة في جبال نيل غیری والمعدودة مدينةً الصحة في جنوب الهند .

وفي ميسور ، في جنوب نهر ركشنا ، على الجانب الغربي من جبال كهات ، ينبع نهر كلويري الذي هو أهمُّ أنهار جنوب الهند ، فيترك مِنطَقة المصّاب فوراً من شلال يزيد ارتفاعه على مئة متر ، فيبدو في زمن الفيضان من أروع شلالات الدنيا ، فيتألف في آخره دلتا واسعة تسمى ضلعها العريضة كولرُون فيقْدَس كما فيقْدَس أكثر أنهار الهند ، فأقيمت في الأماكن التي يجري منها ( أي في نانجوروترى جبالاً وكُنْبه كُونَم ومدورا ) معابدُ مشهورة تختلف عن معابد الهند الأخرى بأبوابها الهرمية الكبرى المغطاة بألوف التماثيل ذات الأثر الرائع في مجموعها .

وتتكوّن من أقصى الهند الواقع في جنوب نهر كلويري مِنطَقة جبلية وحشية ذات غابات كثيرة مملوءة بالضواير والأفاعي وذات أودية غير صحيّة ، وتبدّل جهود طيّبة في الارتفاع بترابها ، ويقام مدنٌ أهو في منحدرات جبالها حيث تُلطّف الحرارة وتحيى نسائم<sup>(١)</sup> ليّنة ملائمة للصحة .

وتشتمل دولة نظام الكبيرة ، التي هي أوسع دول الهند نسبته المستقلة ، على جميع القسم الأعلى من الدّكن ، وعاصمتُها حيدر آباد الإسلامية من أكثر مدن الهند وقفاً للنظر ، فهي تصلح مثلاً لما كانت عليه عواصم الشرق ، كـبغداد ، أيام سلطان العرب .

(١) النّعام : جمع نسيم .

وتقع مدينة غول كوندا ، التي غَدَتْ قَرْبَةً حَقِيرَةً ، بالقرب من حيدرآباد ،  
وَيُسَمَّى اسمها في الخيال صَوْرَ القصور الرائعة الخرافية ذاتِ الشُّفُوفِ والريَّاشِ الزاهية  
والحجارة الكريمة المتألقة ، وتسودها القلعة ذات الألفاظ التي هي مِفْتَاحُ تلكِ المنطقة ،  
فلم يُوَفَّقْ لزيارتها قبلنا غيرُ فئة قليلة من الأوروبيين .

ولم تكن عاصمة الدَّكَّنِ السابقة غول كوندا وحدها هي التي آلت إلى الخراب ،  
فليس قليلاً خَرِبَ العواصم السابقة في الهند ، فأكثرُ هذه العواصم الخَرِبَةُ وَقَفًا للنظر  
هو بيجانُغَرُ وبيجانُغَرُ اللتان تَجِدُ صوراً لكثير من مبانيهما في هذا الكتاب ،  
وبيجانُغَرُ هذه أصبحت رُكائماً من المعابد والقصور على مِسَاحَةِ تَمَدُّلِ باريس فصار  
لا يطأها إنسان وعاد لا يأوى إليها سوى الضواري ، فعلى المرء أن يطوف على نور  
القمر في تلك المعابد المهجورة وفي مسالك تلك المدينة الميتة المصفوفة على جوانبها  
مُتَشَبِّهُ العِباد والأروقة ليدرك ما في الأشياء الصامتة من بيان بليغ في بعض الأحيان ،  
فيمثل هذه المناظر الماثلة استطاعتنا أن نُخْرِجَ من أعفار القرون طَبَقَ حضارة بائدة .

## الفصل الثالث

# النباتات والحيوانات والمعادن

(١) النباتات - تنوعها في الهند - ثروة الهند الزراعية - حاصلاتها :  
الحبوب والقطان والشاي ، الخ. (٢) الحيوانات - تنوعها في الهند - قلة المواشى  
(٣) المعادن - صعب الإنتاج المعدني - ماجم الفحم الحجري - الانتشار إلى الفحم  
الحجري - الخلاصة .

## ١ - النباتات

تشتمل الهند على أنواع النبات والحيوان اشتغالها على مختلف الأجواء ، ولا تمتاز  
الهند بنوع خاص من الحيوان والنبات .

فبينما ترى منحدرات جبال الهند مكسوة أزهاراً وأثماراً كالتي تشاهد في  
أوربة ، تدرك سهولها بسهولة فارس والصين ، وتدرك بقاعها الجافة المخرقة  
بافريقية الوسطى ، ويدرك نبات ترآني وسندربن القوى الأشعث بنبات  
جزائر الملايو .

وبلاد الهند في مجموعها غنية خصبة كافية لتكوين سكانها وإطعامهم عن سعة ،  
وينشأ مجاعاتها المائلة التي تُحرَّب بعض بقاعها أحياناً عن افتقارها ، في الغالب ، إلى  
طرق منتظمة صالحة لنقل ما يزيد على احتياج بعض مناطقها إلى مناطقها التي  
تنقص حاصلاتها .



وتنشأ تلك المجاعات ، كذلك ، عن فقر طبقاتها الدنيا المذمق الذى لا يجد أفرادها معه ما يشترتون به قليلاً من الأرز أو البُرِّ فيملكون جماعات على حين توتق فى السفن مقادير عظيمة من حبوب الهند إلتباع فى الأسواق الأجنبية .

وأعدّ الحبوب فى الهند أهمّ ما تُنتِجُهُ الأرض ، فيزرع فيها القمح والأرز والذرة والدخن بكثرة ، فيكون للأهالى الذين حرّم عليهم أكل اللحم طعامٌ بذلك ، فما فى الهند من حرارة جوٍّ وقلة مواشٍ وحظير تحريم يحول الهندوسى على العيش بما تُخرج الأرض من قوت .

ومارس سكان الهند الزراعة بمقدق ونشاط فى كل حين ، فلما حاول الأوربيون أن يحسنوها بما أدخلوه إليها من الأساليب الحديثة اعترف ، فى غير حالة ، بأن المناهج القديمة خير من جديدها وبأن من أصالة الرأى أن يرجع إليها ، وذلك إلى ضرورة توسيع رِفاع الأراضى الزراعية ما كانت هذه الرِّفاع لا تعدل غير ثلث مساحة الهند فى الوقت الحاضر .

ووادى الغنّج أخصبُ بقاع العالم ، لا الهند وحدها على ما يحتمل ، فنسقره حقولٌ عجيبة لا حدّ لها ، فسكّلت عينا القاتح المغولى بآبر وارندت عن تأمل امتدادها إلى ما وراء الأفق امتداداً مطّرداً ، وليس بنادر أن يُنتج هذا الوادى ثلاث مرات فى السنة الواحدة ، والأرز ، على الخصوص ، هو ما يزرع فى ضفاف الغنّج بعد الفيضان ، وتكثر أيضاً زراعة البرّ والقطن والتبغ والقنب والخشخاش فى واديه المنقطع النظير بحضبه الذى لا ينفد .

وفى الهند حيث تروى الأراضى جيداً تبدو هذه الأراضى خصبةً سخيةً ، وفى الهند حيث تقطع الولايات شبكة من مجارى المياه أو تفيض عليها رياح الجنوب

الموسمية تُنتج هذه الولايات إنتاج البنغال ، وفي الحقول المطمئنة حيث تزيد الرطوبة يُزرع بكثرة أنواع الأرز ، وفي الحقول المرتفعة حيث تقل الرطوبة يُزرع البُرّ. والأفيون أهم ما تُصدّره الهند بعد الحبوب التي تمتلئ بها السفن كل يوم فتنقلها إلى بلاد الغرب ، ويُزرع الأفيون ، على الخصوص ، في سهل الغنّج والبنّجاب وراجبوتانا ، وتستأثر الحكومة الإنكليزية باحتكاره ، وما تستنفده بلاد الصين من مقادير الأفيون العظيمة هو ما تستورده من الإنكليز بعد أن يزرعوه في أترية الهند ، وليست بمجهولة أنباء حنق الإنكليز وغيظهم من ولاة الأمور في مملكة ابن السماء حيناً أرادوا وقاية رعاياهم من هذا السمّ القاتل ، فأسفر ذلك عن شهر الإنكليز لتلك الحرب المروّفة « بحرب الأفيون » فأكره الإنكليز الغالبون فيها بلاد الصين على إدخال أفيون الهند إليها كما في الماضي فيموت في كل سنة عدة ألوف من الآدميين بسبب استعماله .

وزراعة القطن في الهند تلي زراعة الأفيون أهمية ، ويصالح بعض الأصقاع من أراضى الدّكن العليا لزراعة القطن كثيراً ، والقطن الهنديّ دون القطن الأمريكيّ حظوة وإن أدت حرب الانفصال إلى إقبال الناس عليه لبضع سنين فزادت زراعته وتجارته زيادة غير منتظرة ، ولا يزال القطن الهنديّ عامل إصدار مهم بعد عزله أو تحويله إلى نسج ، وكان لنسائج الهند القطنية شهرة فنازعها الغرب إياها بآلاته ، فصار الغرب يرسل إلى الهند مثل ما ترسله الهند إليه .

وفي الهند يُزرع القنب ثم تُصدّره بوفرة ، والحبوب الزيتية مما تُنتجه الهند فتبيعه من الخارج .

ولا يتباع الأوروبيون التبغ الهنديّ لسوء تعبئته فيستنفده أهل الهند ، وأشهر مدينة ترى جنائلي الواقعة في الجنوب بسيفاراتها مع ذلك .  
وتجىء الهند بعد الصين في زراعة الشاي ، وأسفرت زراعة الشاي في منطقة آسام عن أطيب النتائج ، وتتقدم زراعة القهوة منذ أواسط هذا القرن في ربي الجنوب ولا سيما في مملكة ويناد الصغيرة الواقعة في جنوب مملكة ميسور .

والعظيم<sup>(١)</sup> والتَّجْمُل<sup>(٢)</sup> والكيثا ونوت القزّ مما تكثر زراعته في بلاد الهند . وكانت الهند تشتمل على غابات عجبية ، ومن المؤسف أن نقصت هذه الغابات بما قطعه الأهليون وغزاة الإسكليز من شجرها قبل أن تدبّر الحكومة أمرها ، والمهندوس<sup>٣</sup> في الولايات الوسطى ، لا يزالون يتخذون أسلوب إحياء للأراضي محزناً حقاً ، فهم يُبيدون قديمَ الشجر في قطع من الغاب فيحرقونه ويبدؤون الحب بين رماده ، فيحصّدون زرع سنتين أو ثلاث سنوات ، فإذا ما استنفد خضب الأرض الموقت الذي نشأ عن الرماد أبادوا شجر قطع أخرى ، وهكذا .

ونجم عن جشع الإسكليز وغفلتهم استمرارهم على ما بدأ به الأهليون من إبادة شجر الغاب ، ولم يروا فائدة الإبقاء على الغاب ووقف تلك الإبادة إلا في الأيام الأخيرة .

ويعدّ السال والتيك ملكي غاب الهند ، والسال يُخرج القطرات والرائينج<sup>(٤)</sup> ، والتيك يُتخذ خشباً للبناء ونحوّل أغصانه إلى فحم جيد ، ويتطلب

---

(١) العظيم : نبت يصنع به - (٢) التَّجْمُل : نبت من الهند يضع ورقه - (٣) الراتينج : صمغ .

شجر السال والتيك واسع الأراضي ولا يَنْبُت بمضه بجانب بعض ، ويستر شجر السال منحدرات هِمَالِيَّة السُفلى الجنوبية ، ويوجد في الولايات الوسطى ، ويَقِف عند حدِّ هِضَاب الدِّكْن ذوات الحجارة البركانية حيث يَنْبُت شجر التيك .

وتَدَّرُّ أعالى جبال الهند ، كما في كل مكان ، برداء داجن من شجر الصَّوْبِر والشُّوَح<sup>(١)</sup> ، وتَجِد تحت هذا النطاق البارد الذى يصلح اهلاك الأشجار منحدرات ذات جَوِّ معتدل اعتدال جوٍّ أوربة فيَنْبُت فيها ما تَعْرِفه غابات الغرب من شجر البلوط والزَّيْن<sup>(٢)</sup> والحوَر ، ويَنْبُت بجانب هذا الشجر ما يعرفه الغرب أيضاً من الأشجار المثمرة ، فترى بين أدغال الكَشْمِش<sup>(٣)</sup> شجر التفاح والكَمْثَرى والحوخ والإجاص ، وترى بينها الكَرْمَة في بعض الأحيان .

وإذا نَزَلْت من تلك الارتفاعات إلى السهول شاهدت أشجاراً ذوات أثمار يانعة وحُشْبَانٍ نافعة وأوراق راتعة ، ومن هذه الأشجار نذكر شجر البانيان والمهُوِّوَا ذا الزهر النافع في زمن الجماعات والخَيْرُزَّان والصَّنْدَل ذا الرائحة الذكية ، ونذكر ، على الخصوص ، النخل التى يَمُدُّ أهل الهند ألف وجهٍ ووجهٍ للارتفاع يَحْدُوها ولينها وسَعَفها وعصيرها وثمرها ، والولايات الجنوبية أكثر ولايات الهند غرساً للنخيل .

ونمو نباتات البلاد الحارّة نموّاً عظيماً في مناطق الهند الجيدة الرِّىِّ والشديدة القَيْظ ، وتُنْجِم هذه النباتات في مِنطَقَة آسام ، على الخصوص ، بما يُزْرِى بهجود

(١) الشوَح : شجرة تسكون أغصانها على هيئة مخروطية وهى واحدة (الشوَح) .

(٢) الزن : شجر كانوا يملونه الرماح — (٣) الكشمش : نبات ثمره يشبه العنب لاجرم له .

الإنسان ، فنبلع نباتات غابها من الكثافة ما لا بدّ معه من حرقها في فصل الجفاف لتنظيف ترابها ، وقد يصل علو شجرها ستين متراً فتصل الممرّشات بين هذا الشجر فيتعذر نفوذها ، فيتفتّح أسفلها عن غريب الأزهار ، وفي جبال كهاتى وحدّها عدّ ٢٥٠ نباتاً من الفصيلة السحلبية ، ولن تجد في الأرض بقعة ذات نبات فخم أشعث كما تراه هنالك .

## ٢ - الحيوانات

لا تجد في الهند نوع حيوان خاصّ بها ، وتختلف حيواناتها اختلاف نباتاتها وحيواناتها ، وتذكرنا حيوانات الهند ، على حسب البقاع ، بحيوانات الصين وإفريقية والملايو وأوربة .

وتكثر في أجزاء جبال همالية التي تلي الدّرا المسكوة ثلجاً ما يرى في التبت من الوعل والثيوس والدّببة والضّراء<sup>(١)</sup> والدّئاب ، وتكثر في بقاع ترأى وآسام الحارّة ذوات الأجام الفاسرة ما يأوى إليها من الضواري التي يتعقبها الناس في بقاع الهند الأخرى فيتوالد فيها أميناً ، وفي تلك البقاع تجد ، أيضاً ، الفيل تعيش جماعاتٍ وتسير حرّة ، والفيل في الهند تكاد تبيد ما لم يعلن الإنكليز حمايتهم لها ويحرّموا صيدها ويفرضوا امتلاكهم لجميع ما في الهند منها ، وفي الهند يصطادون في كلّ سنة نحو مئة فيل بالكُمون والفخاخ ، ثم يضيفونها إلى الفيلة المدجّنة فتقتبس منها خلق الطاعة والعبودية ، وفي الهند يستخدمون الأفيال في أعمال

(١) الضراء : جمع الضرو وهو الضاري من الكلاب .



٩ - بلان يستخدمان في حمل الأنفال

كثيرة وفي تصيد النمر وفي مواكب  
المالك ، في كل مواكب سبي تبصر  
فيؤلا تتقدم منرجة بسروج أرجوانية  
ذهبية حاملة راجوات أو من يراد  
تكريمهم من مشاهير الضيوف .

ونكاد الأساد نزول من بلاد  
الهند ، فلا نجد منها في غير جزيرة  
كاتهاوار بالقرب نقريرا حيث تبدو  
قصيرة عاطلة من اللبد .

والنمر هو الحيوان المفترس الذي نجده في جميع أجزاء الهند ، ولا سيما بين  
أدغال الغاب حيث بأوى مطمئنا ، والنمر إذا وجد بكثرة في الهند فلأن الناس  
لا يطاردونه فيها على الدوام ، ولأن الناس يحترمون في بعض البقاع التي تخربها  
الرتة<sup>(١)</sup> فتفترسها النمر ، وهذا إلى أن النمر يتصيد عادة ما في الغاب من الحيوانات  
البرية كالظباء والثيوس والخنازير ، وهذا إلى أن النمر لا يهجم على بيوت الناس  
ليتصيد بعض أعمهم إلا إذا عاضه الجوع ، ومن النادر أن يفترس النمر إنسانا ، فإذا  
ما حدث ذلك وتذوق طعم لحمه لم يعدل عنه إلى فرائس أخرى فيغدو خطرا إلى  
الغاية ، فيعلن الحرب على الإنسان فيظهر من الختال<sup>(٢)</sup> والمحال<sup>(٣)</sup> ما يكف

(١) الرتة : جمع الرت وهو الخنزير البري - (٢) ختال الصباد : منى قلبا قليلا لئلا يحس  
الصيده به - (٣) محاله : كايده وما كره .

الإنسان معه عن الكفاح أحياناً فيمجر المسكان الذى يأوى إليه النّير بعد أن يكون قد أكل نضع مئات من التعماء المساكين ، فيُعَدُّ النّير ، إذ ذاك ، حيواناً جديداً ، فيسمّى « أ كَال الرجال » ، ومما ذكره هنتير أن أ كَال رجال افترس ١٠٨ من الناس فى ثلاث سنوات وأن أ كَال رجال ثانياً افترس ٨٠ شخصاً فى سنة واحدة ، وأن أ كَال رجال ثالثاً أوجب هجر الناس لثلاث عشرة قرية فحوّل ٦٥٠ كيلومتراً منها من الأراضي إلى صحراء ، وأن أ كَال رجال رابعاً قتل ١٢٧ شخصاً فى سنة ١٨٦٩ فقطع طريقاً عظيمةً لِعِدَّة أساييع .

وتمنح الحكومة الإنكليزية جوائز سنوية لمن يبيدون تلك الضواري ، ولكن الأهالى لا يجرؤون على ذلك ، تقريباً ، لِمَا تُلقِيه هذه الضواري من الرعب فى قلوبهم ، ولِمَا يَعُدُّ به الهندوسُ أ كَال الرجال ضَرَباً من الآلهة إذا ما افترس بعض الناس .

والهندوس يحترمون الصِّل<sup>(١)</sup> ، المعروف بالقبرا والذى هو أشدُّ فتكاً من النّير ، أكثر من احترامهم للنّير ، ولا بلد فى الدنيا ذا حَيَاتٍ سَامَّةٍ متنوعة كالهند ، ومن الحيات ما يَخْرُج من الأرض ومنها ما يَخْرُج من الماء ، وما فى ساحل ملبار من الحيات التى تعيش فى الماء الملح فذوسمّ وما يعيش منها فى الماء العذب فغير سامّ ، ويُعَدُّ الصِّلُّ من أشد الأفاعى التى تَخْرُج من الأرض خطراً لِمَا تسفر عنه جروحه من الموت الزّوأم على الدوام ، ومن التعمذر دفاع الإنسان عن نفسه تجاه الأفاعى ما دَبَّت بين الكلاً وخرجت من شقوق الأرض وتسَلَّقت المساكن وتكاثرت بسرعة ، مع أن من الممكن تَصَيِّدُ النّير وإتقاذ الهند منه ذات يوم .

(١) الصل : الحبة الحبيثة جداً .

والصِّلَ حيوان مقدس لدى الهندوس لما يورثهم إياه من الخوف ، وهو من صفات وشو الذانية فَنَقُشَ في مختلف المعابد ، وهو يَأْمُ مطاويبه و يفتش متوعداً حديد البصر .

وَيَقْدَرُ العارفون ضحايا التَّمَار والأفاعى من الهنود عشرين ألفاً في كل سنة ، والتَّمَار والأفاعى ليست كلَّ ما في الهند من الحيوانات المرهوبة ، ففي الهند القتران وأرجال<sup>(١)</sup> الجراد وأنواع الحشرات والهاوِمُ العظيمة الأضرار .

ونسكتر أنواع الذئاب في الهند ، وبالفهود وبنات آوى والضباع والكَرَكَدَن والتماسيح نَحْمُ جدول ضواري الهند ، ويرى السكرَكَدَن في مِنطَقة سُندَرِين على الخصوص ، وتسكتر التماسيح في الغُدُران والأنهر وتخرَّب مجارى المياه .

والهند بلادٌ فقيرة في المراعى ومن ثمَّ في المواشى ، وتسكون جمالها وخيلها وبقرها وجواميسها أهلية ، وتنصف أفراسها بالقَصْر ولا تُزْبَى الضأن فيها إلا من أجل لحومها وألبانها ، ويكره الهندوس الخنزير ، وفي الهند مافى أوربة من الدواجن ، وفي أنهارها أسماكٌ صالحة للأكل ، وفي أحواض نلغيرى أنواعٌ سمكٌ جديدةٌ أُدْخِلَتْ إليها لتسكتر فيها .

وتسكتر القِرَدَة في الهند فتُعَدُّ نكبة على الفلاحين لإتلافها مزروعاتهم ولدخلها بيوتهم بوقاحة وصلبها ما يطيب لها من أموالهم ، وما يُسَكِنُهُ الهندوس من الاحترام للقرود هنومان يحُول دون دفاعهم ضدَّ القِرَدَة الثقيلة ، والقِرَدَة جعلت بعض مدن الهند ، كمترا مثلاً ، غيرَ صالحة لسكْنى الأوربيين ، وبلغت القِرَدَة في بنارس

(١) الأرجال : جمع الرجل وهو القطعة العظيمة من الجراد خاصة .



من مضايقة السكان وقلة الحياء في السنوات الأخيرة ما نُفِيت معه إلى الضَّعة الأخذى من نهر العَنَج .

وتشتهر طيور الهند بجمال ريشها ، وتقلُّ المغردة منها ، ويحترمها زراع الهند لإبادتها الحشرات ، ويراعى سكان المدن الهندية النُسورَ والعُقبانَ لإزالتها الموادَّ الحيوانية العَفِنة وإصلاحها الطرقَ والشوارع بذلك ، وتتصف بَبْغَاوَات الهند بالحسن والكثرة .

### ٣ - المعادن

صُوِّرَت الهند في أقاصيص السياح المبالغ فيها ، وتمثلت خيالات الغربيين الملتئمة معدناً لا ينفَد من الحجارة الثمينة فلاحت الهند الواسعة مشتملةً على مثل ما يتدحرج في مجارى جزيرة سيلان وما يُرَصَّع فِدْرَهَا<sup>(١)</sup> البلورية من الياقوت واللآزورد والزُّمُرُّد والعقيق ، فيجب حذف كثير من هذه المبالغات بوضع الأمور في نصابها .

أَجَلْ ، احتوت الهند على مناجم غنية بالألماس ، ولكن هذه المناجم نَفِدت منذ زمن طويل تقريباً ، وكانت مناجم سَنَبلِ بور الواقعة في وادى مهَا نَدَى ووادى كَرَنُول بالجنوب تُسْتَفَلُّ إلى أوائل هذا القرن ، وتُخْرِج مناجم غولكوندا مالا قيمة له من الحجارة مع إثارة اسمها في ذهن صور ما يُعْشَى الأبصار من أنوار الحجارة الكريمة ومع ما كان يُزْهَى الأمراء به .

(١) الفدر : جمع الفدرة وهي القطعة من الجبل .

وفي جبال أراولى الجَمَسْت<sup>(١)</sup> ، وفي ميوار اللهو<sup>(٢)</sup> ، وفي وادي نَرَبْدَا  
الْبَلُورُ ، وفي ساحل الكجرات اليَصْب<sup>(٣)</sup> والعميق ، وفي بعض الأماكن اليَشْم<sup>(٤)</sup>  
وما إليه .

وظلَّ استخراج اللؤلؤ مصدر ثروة للهند ، فاللؤلؤ يُستخرج من مفاوص كَهْرِي  
ومَدُورَا وتراونكور وسيلان .

ويؤخذ الرُخَام من مقالع راجپوتانا ، ويؤخذ حجر السَّيْن من مُبْدِيل كَهْنَد  
ووادى چمبل قَبْرَيْن به المبانى الفخمة .

وفي الهند مناجم فحم حجرى واسعة واقعة بين العَنَج وغوداڤرى مُقَسَّمة إلى  
أربع شُعَب ، ولا يستحقُّ بعضها أن يُسْمَع ، والفحم الذى يُستخرج من بعضها  
الآخر هو دون ما تخرجه مناجم أوربَة جَوَدَة ، فما يتركه من الثُّفُل بعد حَرْقِه أكثر  
مما يتركه الفحم الأوربى ، وما يقوم به من العمل هو نصف ما يقوم به الفحم  
الإنكليزى .

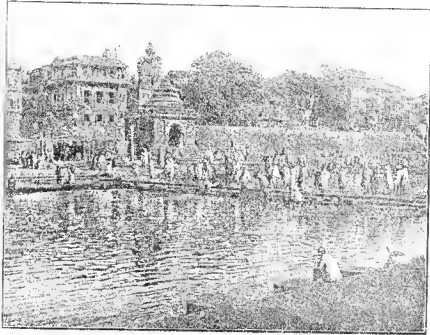
وتسكون الهند ، لافتقارها إلى الفحم الحجرى ، زراعية أكثر من أن تسكون  
صناعية ، فكأن الطبيعة قد أرادت أن تظلَّ الهند بلاداً تُعِدُّ الأم الأخرى  
بالأقْوَآت ، ولم تلبث صناعات الهند أن أخذت تتوارى عندما أصبحت مصانع  
الغرب تتنافسها بعد فتح قناة السويس .

والحديد كثير فى الهند ، وأهمُّ مناجمه فى سِيْلَم من أعمال ولاية مَدْرَاس ،

---

(١) الجَمَسْت : نوع من الحجارة السكرية - (٢) اللهو : نوع من البلور - (٣) اليَصْب : حجر قريب من الزبرجد لسكرته أصفى منه - (٤) اليَشْم : نوع من اليَصْب .

والأهالى قد استخرجوه وصنعوا الأدوات منه منذ القديم، وتُشابه الآلات الحديدية التي اكتشفت في آثار الهند الناقصة الشكل آثار السَّات الحجرية ، وتعدُّ أقدم بقايا ما صنعه الإنسان في الهند .



١٠ - مطر في ناسك على صفاة البحيرة الهندية

والهنود كانوا يستخرجون الحديد ، إلى وقت قريب ، بأكيار<sup>(١)</sup> وقودها الحطب ، ثم تركزت هذه الصناعة ، ولا يمكن أن يُرجع إليها بأن يستعمل الفحم الحجري في نفى<sup>(٢)</sup> الحديد ما كان غم الهند الحجري ناقصاً وما دَّخر الحديد الإنكليزي حديد الهند من الأسواق .

---

(١) الأكيار : جمع الكبير وهو وزن ينفخ فيه الحديد - (٢) نفى الحديد : من نفى الصبر في الدرام : أثارها وترها للانتقاد .

وفي الهند مقادير قليلة من النحاس والذهب ، فلا طائل في استخراجهما ، والملح هو أكثر ما يحتويه ، فَظَلَّت تُصَدِّرُهُ إِلَى الْعَالَمِ بِأَسْرِهِ عِدَّةَ قُرُونٍ ، ففِيهَا تِلَالٌ مُكُونَةٌ مِنْ أَكْدَاسِ الْمَلْحِ ، كَسَلْسَلَةِ الْمَلْحِ الْوَاقِعَةِ فِي الْبَنْجَابِ عَلَى ضِفَافِ نَهْرِ السُّنْدِ الْأَعْلَى .  
وَالْيَوْمَ تَحْتَكِرُ الْحُكُومَةُ الْإِنْكَلِيزِيَّةُ مَلْحَ الْهِنْدِ .

تَمَّ وَصَفْنَا الْإِجْمَالُ لِلْهِنْدِ ، وَلَا مَعْدِلَ لَنَا عَنْ ذَلِكَ مَا أَرَدْنَا الْبَحْثَ فِي مَعَايِشِ سُكَّانِهَا وَنَقْلِهِمْ وَمَعْتَقَدَاتِهِمْ وَطِبَائِعِهِمْ وَعَادَاتِهِمْ ، وَلَمْ نَأْتِ فِيمَا تَقْدِمُ بِغَيْرِ بَيَانٍ مُوجِزٍ عَنْ طَبِيعَةِ تِلْكَ الْبِقَاعِ السَّخِيَّةِ الصَّائِلَةِ مَعًا ، فَلَا تَجِدُ فِي الْأَرْضِ ، كَالْهِنْدِ بِلَادًا تَجَلَّتْ فِيهَا نَلْكُ الْقُوَى الْقَاهِرَةِ النَّافِعَةِ أَوْ الضَّارَّةِ الَّتِي هِيَ أُمُّ الْضُرُورَاتِ الْمُسْكُونَةِ لِلرِّجَالِ وَالْمُسْبِرَةِ إِيَّاهُمْ وَالْمُوجِبَةِ الْأُولَى لِمَا يُدَوِّنُ التَّارِيخَ سِيرَهُ مِنَ الْخُضَارَاتِ .

البَابُ الثَّانِي  
العُرُوق



## الفصل الأول

### مِنْشَأُ عُرُوقِ الْهِنْدِ وَتَقْسِيمُهَا

(١) كيف تنشأ العروق وكيف تتحول — الفرق بين العروق والأمم — صفات العروق الفارقة — الصفات الموروثة والصفات المكتسبة — كيف يمكن أمة أن تؤلف عرقاً — تأثير التوالد والوراثة — تأثير نوبة اختلاط الأمم — تأثير البعث البطيء — نبات الصفات الموروثة — ما أدى إليه توالد الهندوس والأوربيين من النتائج السيئة — (٢) مبادئ تقسيم العروق — قبة المقايسة بين الصفات التشريعية والحلقة والمقايسة في ذلك التقسيم — عدم كفاية الصفات التشريعية في تقسيم العروق البشرية — أهمية الصفات الحقلية والعقلية — هذه الصفات هي تراث العروق وهي تهبن تطور الأمم والدور الذي تحمله في التاريخ — كيف يرجع الأشخاص الذين أسفر عنهم الانتخاب إلى المثال المتوسط — الصفات الحقلية والعقلية المتحركة في المثال المتوسط — (٣) تكوين عروق الهند — تقسيماتها الأساسية — العروق المقايمة بين أهالي الهند — تقسيمهم إلى أربعة عروق كبيرة : الأبيض والأصفر والبنجالي والآري — لا قبة لسكامة هندوس من الناحية الإثنولوجية — لون أهالي الهند الأقدمين — الأسود — الشعوب التي استولت على الهند — الغزو التوراني والغزو الآري — نتائج اختلاط الشعوب المختلفة .

### ١ — كيف تنشأ العروق وكيف تتحول

أرى قبل أن أصِفَ عروق الهند أن أُخَصِّصَ بضعَ صفحاتٍ لتعريف العروق وبيان ظهورها وتحويلها وذكر الصفات التي تُقسَّم بها .  
لم أفتأ أشرح في مؤلفاتي الأخيرة ما يقوله العلم وما أراه في تلك الأمور المهمة ، فيمكنني أن أخلص هنا ما فصلته في تلك المؤلفات .

تُقسَّم الجماعات البشرية المنتشرة في مختلف أقطار الأرض إلى عروق ، ويجب أن تُعدَّ كلمة « العرق » بالنسبة إلى الإنسان معادلةً لكلمة « الجنس » بالنسبة إلى الحيوان ، وتفتقر العروق البشرية في أخلاقها افتراقَ أنواع الحيوان المتقاربة ، ومن خواصِّ هذه الأخلاق الأساسية أنها تنتقل بالوراثة انتقالاً منتظماً ثابتاً .

وإذا كانت كلمة « العرق » مرادفة لكلمة « الجنس » فإنها لا تعدل كلمة « الأمة » أبداً ، فالأمة ، في الغالب ، عروقٌ كثيرة جمعت بينها السياسة أو الجغرافية أو غيرها من الأسباب في حكومة واحدة ، فالكلمة : الهندوسُ أو الفرنسيون أو النسيون الخ. تدلُّ على جماعات منسوبة إلى عروق مختلفة أشدَّ الاختلاف مع أنها تعطن في قطر واحد وذات أنظمة سياسية واحدة وذات مصالح مشتركة .

ويشاهد في جميع العروق البشرية ، كما يشاهد في مختلف أنواع الحيوان ، نوعان من الأخلاق ذوا أهمية متفاوتة ، أحدهما هو الأخلاق التي انتقلت عن الأجداد بالوراثة ، والنوعُ الثاني هو الأخلاق التي يكتسبها الإنسان في أثناء حياته القصيرة بفعل البيئة والتربية وما إليهما من مختلف العوامل ، فنوعُ الأخلاق الأول هو نراث العرق الواحد بأسره ، أي خلاصةُ ماضٍ طويل ، فالإنسان يأتي به حين ولادته ، ولا يستطيع أن يُضيف إليه غير القليل في حياته ، ولن نقدر الصفات الجديدة التي تُنال في كلِّ جيل أن تقاوم عبءَ الماضى الثقيلِ الهائل إلا إذا تراكت مع القرون في اتجاه واحد ، وبهذا التراكم المتعاقب الذي هو وليد الانتخاب الطبيعي تتطور الأنواع تطوراً بطيئاً بعيدَ العَوَر .

وبيَّنت في مؤلفاتي التي أشرت إليها آنفاً أنه يمكن العروق التي تتألف أمةٌ منها بفعل الأحوال السياسية أن تُظهر في عرق واحد مع الزمن ، وذكرتُ أن تلك



العروق تندخى إلى عرق واحد عندما تؤدى البيئة والتوالد والوراثة في عُضُون القرون إلى اكتسابها صفاتٍ جُمُيَا نِيَّةً وأَخْلَاقِيَّةً وعَقْلِيَّةً واحدة .

وفى تلك المؤلفات أُثبِتُ أن ذلك الثبات لا يتم إلا بشرطين أساسيين :  
الأول أن يكون التحول بطيئاً وراثياً ، والثانى ألا يكون نفاوِتٌ فى نِسَب العروق المتوالدة .

والشرط الثانى على جانب عظيم من الأهمية ، فلا تلبث جماعاتٌ صغيرة من البيض أن تزول إذا توالدت هى وفريقٌ كبير من الزوج ، فعلى هذا الوجه غاب الفاتحون من غير استثناء عندما اختلطوا بأُمم أكثر منهم عدداً ، كالعرب فى مصر ، فالمصرىُّ المعاصر ، وإن كان عربياً بلغته ودينه ونُظْمه ، هو ، بالحقيقة ، من ذُرِّيَّة مصرى العصر الفرعونى كما تدلُّ على ذلك مشابهته لِمَا فى المعابد والمقار المصرية القديمة من الصور المنقوشة .

وما عَزَى إلى البيئات من التأثير فى تحول العروق هو ، بالحقيقة ، ضعيفٌ إلى الغاية ، ولم يَبْدُ إِلَّا بَرَأكم القرون ، وإن شئت فقل قبل التاريخ ، واليوم بلغ تأثير البيئات من الضعف فى تبديل الأخلاق التى ثبت أمرها بالوراثة ما تراه ، مثلاً ، فى بنى إسرائيل الذين حافظوا على مشالهم الثابت مع وجود أناس منهم فى كل بلد .

والأخلاقُ التى ثَبَتَ أمرها بالوراثة هى من الرسوخ ما يَهْتَلِك به العرق القديم إذا ما انتقل إلى بيئة تَفْرِضُ عليه أن يتحول تحولاً أساسياً ، فالتَّبَوُّهُ وَهْمٌ باطل ، ومن هذا أن الإنسكليزى لم يَقْدِرْ على تَبَوُّهِ الهند مع مراعاته جميع قواعد الصحة ، فتراه يربى أولاده فى أوربة ، فلولاً ذلك ما رأيت فى الهند أوربياً بعد الجيل الثالث ، فلا يَفْلُ الوراثية إلا الوراثية ، وإن تَجَدَّ للبيئات مثل هذا السلطان .

وأثرُ البيئات في العرق ، مهما يكن ضعيفاً ، موجودٌ على كل حال ، والوراثة هي التي تمنُّ عليه بالقوة ، فإذا كانت العناصر المتقابلة غير متفاوته ، على حسب الشرط الثاني المذكور آنفاً ، تفاوتاً مانعاً من امتزاج عرقين انحلت مؤثرات الماضي الثقيلة بفعل المؤثرات الوراثية المعاكسة المساوية لتلك فلم تتجد البيئات ، إذ ذاك ، ما تكافحه فسارت طليقة وأنت بعملها حرة .

استهينا إلى النتيجة الأولى القائلة إن جديد العروق يتكوّن بتوالد مختلف العروق ، لا بفعل البيئة وحدها ، والآن ترانا أمام مسألة ذات أهمية عملية لما يتوقف على حلها من تعيين مصير إحدى الأمم وهي : ماذا تكون قيمة عرق جديد تتكوّن على هذا الوجه ؟ لا ريب في خيره إذا كان مساوياً لأرقى العرقين المتوالدين أو أعلى منه ، ولا ريب في صيره لأرقى ذينك العرقين على الأقل عند العكس .

درسنا هذه المسألة الأساسية في مباحثنا السابقة ، ولا نذكر هنا غير النتائج ، ونحن حين استندنا إلى درس ما شأ عن التوالد من النتائج في مختلف أقطار الأرض أثبتنا أنه يكون نافعاً أو ضاراً بحسب الأحوال ، فهو يكون نافعاً عندما يكون بعض العناصر المتقابلة مُتمِّماً لبعض بدلاً من أن تنعكس ، وذلك كما اتفق للعناصر التي تألف الإنسكيز من توالدها ، وهو يكون ضاراً عندما تكون العناصر المتوالدة مختلفة حضارةً وماضياً وأخلاقاً ، وذلك كما أسفر عنه توالد الأسود والأبيض وتوالد الهندوسى والأوربي .

وسنعود إلى مسألة توالد الهندوس والأوربيين في الفصل الذى خصصناه للبحث في طوائف الهند وفيما نتجَم عن ذلك التوالد من النتائج السيئة ، فسندرى أن مثل هذه النتائج السيئة ، التى نشأت عن توالد متباين الشعوب ، مما عرّفه فاتمحو الهند القدماء

فوضعوا، على الأرجح، نظام الطوائف الذى هو أساس نُظْمُ الهند الاجتماعية .  
وفى كتاب آخر درسنا أمور التوالد وبحثنا فيما تُوْدَى إليه من النتائج السياسية والاجتماعية بحسب الأحوال فأثبتنا أنها أهمُّ العوامل فى انحطاط العروق والدول ،  
وذكرنا ما تُسْمِعُ عنه مصافحة عِرِّ قَيْنَ عَبْدَ أَحَدُهَا الآخر ، وألغنا إلى السبب فى سهولة  
احتمال السيطرة الأجنبية عند قليل من التباين بين شعبين كما اتَّفَقَ للمسلمين فى الهند  
حيث اعتنق خمسون مليونَ هندوسى دينَ النبىِّ ، وأشرنا إلى السبب فى صعوبة  
احتمال تلك السيطرة عند شدة التباين بين شعبين كما يحدث للإنكليز الذين  
مَضَى على فتحهم لبلاد الهند قرن فلم يستطيعوا حمل رعاياهم على انتحال ديانتهم ولغتهم،  
والديانة واللغة هما الماملان اللذان يبدأ بهما ادغام احدى الأمم .  
ولا أَسْهَبَ هنا فى بيان القواعد العامة التى تُطَبَّقُ على جميع الأمم، فقد فَصَّلْتُهَا،  
بدرجة الكفاية ، فى كتابى<sup>(١)</sup> الذى وضعته ليسكون مقدمة لتاريخ الحضارات ،  
فلندعُ ، إذن ، ما هو خاص بتسكوين العروق ، ولنقتصر على بيان الأخلاق التى  
تَتَمَيَّزُ بها العروق بإيجاز .

## ٢ — مبادئ تقسيم العروق - قيمة المقايسة بين

الصفات التشريحية والخلقية والعقلية فى ذلك التقسيم

يظهر ، أولَ وَهَلَةٍ ، أن أهمَّ الصفات التى تَتَمَيَّزُ بها العروق البشرية هى  
الصفات التشريحية ، كلون الجلد ، ولون الشعر ، وشكل الجمجمة مثلاً ، وذلك لأن

---

(١) كتاب « الإنسان والجنوعات ومصدرها وناريخهما » وهو يقع فى مجلدين .

الصفات التشريحية هي التي تُرى حالاً ، ولكن الباحث إذا ما أنعم النظر في قيمتها اعترف بأنها لا تفلح لغير التقسيمات الثقيلة ، فبلون الجلد والشعر يمكن تقسيم سكان الأرض إلى أربع جماعات أو خمس جماعات على الأكثر ، وبشكل الجحمة يمكن تقسيم كل واحدة من هذه الجماعات إلى زمريتين أو ثلاث زمر ، ثم نقف عند هذا الحد ، فإذا قسمنا البيض ، أى جميع شعوب أوربة ، مثلاً ، إلى شعوب عريضة الجاهم وشعوب مستطيلة الجاهم ، وشعوب سُقر وشعوب سُمر فإننا لا نصِل إلى نتائج تُذكر ما اشتملت هذه التقسيمات على أم مختلفة كالفرنسيين والإنكليز والروس والألمان ، الخ .

فالصفات التشريحية ، إذن ، غير كافية لتمييز العروق البشرية ، وما قلناه عن اختلاف العروق التي تتألف منها أمة ، في الغالب ، يُثبت أن اللغة والديانة والجماعات السياسية ليست أصلح من تلك في تقسيم العروق .

وما عجزت عنه اللغات والأديان والجموع السياسية والصفات التشريحية تستطيه الصفات الخلقية والعقلية ، وهذه الصفات التي هي عنوان مزاج الأمة النفسى ذى العلاقة بتركيب الدماغ الخاص هي من الدقة ما لا تقدر على تقديرها بما لدينا من الوسائل والأدوات .

وليس من المهم ، مع ذلك ، أن ننفذ ، فيما ننشده من التقسيم ، إلى سر ذلك التركيب ما استطعنا أن نقدر ما هو عنوانه من الكفاءات الخلقية والعقلية .

وتميّز الصفات الخلقية والعقلية تطور الأمة والدور الذى تمثله في التاريخ ، فهى ، لذلك ، على جانب عظيم من الأهمية ، فليُعَوَّل على دراستها من يرغب في معرفة إحدى الأمم أكثر من أن يُعَوَّل على صفاتها التشريحية .

ولن نستطيع أن نُميزَ الراجيوتى الشجاع من البنغالى الجبان بشكل جَهْمَتِيهما ، بل نَقْدِرُ على ذلك بالبحث فى مشاعرهما ، فنرى ، إذ ذاك ، عمقَ الهُوَّةِ التى فصلَ بينهما ، ويمكننا أن نقايسَ بين جهاجم الإنكليز وجهاجم الهندوس من غير أن نكتشف بذلك سببَ استخذاء ٢٥٠ مليوناً من هؤلاء لبضعة آلاف من أولئك مع أن دراسة صفات تينك الأمتين الخلقية والعقلية يكشف لنا ذلك السبب ، وذلك باطلاعنا على شِدَّةِ نموِّ خلق الثبات والعزم فى إحداها وضعفه فى الأخرى .

والكَمَآتُ العقلية والخلقية هى تراث العرق ، وهى بواعث السَّيْرِ الأساسية ، وهى ما سَمَّيْنَاهَا فى كتاب آخرَ بصوت الأموات ، فالنُظُمُ هى وليدة تلك البواعث ، ولا عكس ، وتلك الكَمَآتُ ، وإن كانت مختلفة فى أفراد العرق الواحد اختلافَ صُورِهِمْ ، يَتَّصِفُ أكثر هؤلاء الأفراد بما يشتركون فيه منها اشتراكاً ثابتاً ثابتاً الصفات النشورية الخاصة بالجنس .

ويدلُّ علم التشريح الحديث على أن أجسام ذوات الحياة مركبةٌ من ملايين الخَلِيَّاتِ التى يتصف كلُّ واحدة منها بحياةٍ مستقلة متجددة بلا انقطاع وأن مدة هذه الحياة أقلُّ من مدة حياة الجسم الذى يتركب منها ، ويمكن أن يُمَدَّ أمرُ العرق مثل ذلك فيقال إنه مؤلف من ألوف أفراد الذين يَتَجَدَّدُونَ ، فكلُّ من هؤلاء الأفراد حياةٌ خاصة كحياة خَلِيَّةِ الجسم الواحد ، وللعرق المشتل عليهم حياةٌ جامعة وأخلاق عامة ، فإلى تلك الحياة والأخلاق يجب أن يَنْظُرَ الباحث فى التاريخ .

وحينما يتمُّ وضع علم نفس الأمم المقارن غير الموجود الآن ، يمكن الناقد البصير أن يستخلص من الأخلاق الخاصة الأخلاق العامة الصالحة لتصوير المثال الخيالى

التوسط الذى هو عنوان الأمة فيقترب جميع أفرادها منه أو يتعدون عنه إلى حد ما<sup>(١)</sup> ، فالإنسان ليس ابن أبويه وحدهما ، بل هو وارث عرقه أيضاً .

وتتألف مثال الأمة المتوسطة من اجتماع الأخلاق المشتركة بين أكبر عدد من أفرادها ، وتكون الأخلاق المشتركة بين أفراد الأمة كثيرة بنسبة تناسب العناصر التى تتألف منها هذه الأمة ، فإذا كانت هذه العناصر متباينة أو قليلة التمازج بدت تلك الأخلاق المشتركة أقل عدداً ، وإذا كنا نستعير مقايستنا من التاريخ الطبيعى فإننا نقول إن الجماعات التى تتألف منها الأمة المتجانسة تُقاسُ بأنواع الجنس الواحد المتماثلة وإن الجماعات التى تتألف منها الأمة القليلة التمازج تُقاسُ بأنواع الجنس الواحد المختلفة .

(١) يفترض شئ هذا المثال المتوسط سريعاً بفعل الانتخاب الطبيعى الذى يلقى به خيار الناس فى كل جبل مختلف صفات هؤلاء الخبار إلى ذواتهم ، ولكن بل الأفراد إلى التفاوت فيما بينهم بالتدرج ، تدبج لتقديم الحضارة ، كما بدأ ذلك فى مكان آخر ، بعضى بمكافحة سنن الوراثة المؤدية إلى أقول جميع من يتجاوزون مستوى الطبقة الدنيا السكونية العدد المتوسط ، أو يرجعونهم إلى المثال المتوسط على الأقل ، ومن أكثر الأمور التى أسفرت عنها المباحث الحديثة شمولاً للظفر وإبلاها هو أن أرق طبقات المجتمع فى الذكاء والعقل تجعل وتبقى بسرعة إعطائها من الذرارى أو لرجوعها الفقير وتحويلها إلى بله وأغبياء كما يشاهد فى كثير من كبير الأسر ، وقد يفسر هذا بأن ما ينال من الأمصاية فى ناحية يكون فى مقابل ما يقع من نكد فى ناحية أخرى ، فاختلال توازن كهذا لم يثبت أن يشتد فى الذرارى فيوجب نواريتها لاحالة .

وبدلاً التارخ على أن المجتمعات تنافى حكم هذه الصفة الفائلة بالألتماوز المجتمعات مستوى معيناً فى قوة طوبلة وبأن تخضع هذه المجتمعات لما تخضع له جميع الموجودات : ولادة فنو مناعطاط فوت .

حفا أن اختلال التوازن يرفع الأفراد ، ولكنه يؤدى عند اشتداده إلى خفض المجتمعات وانهارها بسرعة ، وحفا أن انحلال تلك الأسر يقضى بظهور غيرها ، ولكن اختلال التوازن يقي عم لأسباب خفية أو ابتوالد أناس كثيرى التماثل أو كثيرى التباين أو لأسباب أخرى حانت ساعة الاعطاط كما نرى دمو بعض الأمم الأوربية منها .

ومن ذلك أنك تجد ، مثلاً ، اختلافاً كبيراً بين ألف فرنسي وألف إنكليزي في آن واحد ، مع أنهم ذوو أخلاق مشتركة يتألف منها مثال فرنسي إنكليزي مشابه للمثال الذي يجده العالم الطبيعي عند وصفه لجنس الكلب أو الفرس ، فوصف العالم الطبيعي إذا كان ينطبق على جميع السكلاب والأفراس من حيث أوجه الشبه بينها فإنه لا يشتمل على أوجه الخلاف بينها البتة .

ونحن حين نضع تلك المبادئ الأساسية نصف مختلف عروق الهند ، فنقسم في هذا الوصف الوضع الجغرافي لكل واحد من هذه العروق ، ونحن بعد أن نصف سكان أقطار الهند نخصص فصلاً خاصاً للبحث فيما أسفر عنه التوالد وتشابه البيئات والنظم والمعتقدات من الأخلاق المشتركة بين شعوب الهند المختلفة .

### ٣ — تكوين عروق الهند - تقسيماتها الأساسية

لم يمض سوى وقت قصير على الزمن الذي كانت الهند تُعد في بلد واحد ذا صفات عامة واحدة وعرق واحد وديانة واحدة وحضارة واحدة وفنون واحدة ثابتة غير متقلبة منذ قرون .

فرأى فاسد مثل هذا لا يقبل في هذه الأيام ، فقد أوضحنا في فصل « البيئات » أن الهند ذات مناظر متنوعة وأجواء متباينة ومعايش مختلفة ، فالناس في الهند متباينون أجnasاً ومبادئ وطبائع وأخلاقاً وتمتدنا تغير البيئات التي تكتنفهم فإذا قلنا إن الهند ، بتخالفها ، خلاصة الدنيا ، فإننا نقول ، أيضاً ، إن سكان الهند خلاصة آدمي أدوار التاريخ المتعاقبة لما نرى فيهم من تفاوت .

يبدو البشر في الهند ذوي أمثلة متباينة ، ففي الهند تجد شعباً بيضاً بياض

الأوربيين بجانب المتوحشين السود ، وفي الهند تستطيع أن تدرس صفحات تطور العالم سائرًا من طور المهبية الأولى البادية في بعض مناطق الهند الوسطى الجبلية إلى طور الحصار الزاهرة البادية في المدن الزاهية الراقية القائمة على ضفاف النّج فإلى دقائق الزمن الحديث التي أدخلها إليها آخرُ الفاتحين .

يمكن تقسيم الـ ٢٥٠ مليون الشخص الذين ندعوهم في أوربة بالهندوس إلى أربعة عروق مختلفة وهى : العرق الأسود والعرق الأصفر والعرق التوراني والعرق الآري ، ويجم عن تولد هذه العروق الأربعة الكبرى على نسب متفاوتة مع تفاوت البينات ظهور عروق ثانوية في الهند أكثر عددًا وأشدّ اختلافًا من العروق التي تسكن أوربة جميعها مثلاً .

إذن ، ليس لكلمة « هندوسى » أى معنى من الناحية الإثنولوجية ، وهذه الكلمة تُطلق ، في الهند نفسها ، على كل شخص ليس مسلمًا ولا نصرانيًا ولا يهوديًا ولا مجوسيًا ، أى أنها تُطلق على أتباع إحدى الطوائف التي أوجدتها الديانة البرهمية فاعترف بها البُدّهيون فعلاً إن لم يكن مبدأً ، وكانت هذه الطوائف ، التي لا يُخصى عددها الآن ، أربعة وهى : طائفة البراهمة ( الكهنة ) وطائفة الأكشترية ( المُقاتلة ) وطائفة الويشية ( التجار ) ، وطائفة الشودرا ( الرّاع ) ، ولاتلك هذه الطوائف على أقسام عرق ، بل تشير إلى أصلها إشارة مفيدة كما نبيّن ذلك ، فسرى أن طبقة البراهمة آرية ، وأن طبقة الأكشترية راجيوتية ، وأن طبقة الويشية تورانية ، وأن طبقة الشودرا ممزوجة من التورانيين وسكان البلاد الأصليين .

والشود هم أقدم سكان الهند ، وي لوح أنهم مقسومون إلى فرعين منذ أقدم



العصور وما : الذي يرتو ذوو القامات القصيرة والشعور الصَّوْفَ<sup>(١)</sup> والتقاطيع المعصورة  
القاطنون في المناطق الشرقية والمناطق الوسطى ، والزئوج ذوو الشمال الأوسترالى  
القاطنون في المناطق الجنوبية والمناطق الغربية والذين هم أطول من أولئك وأذكى  
منهم وأملسُ شعراً من شعْرهم ، وترى من أولئك أناساً في بعض أصقاع غوندوا  
البائرة الجبلية ، وترى من هؤلاء أناساً في أودية نلْ غبرى ، وكان ذاك الفرعان  
الفِطْرَيَّانِ المتوحشان ، اللذان لا تجد فيهما بصيصَ رقى ، يسكنون غابات الهند  
وشواطئها قبل التاريخ فذُحِرُوا يوماً بعد يوم مع تقدم الحضارة فطَفَّقُوا بقرضون  
بالتدريج .

والهند ، كما ذكرنا في فصل سابق ، بلدٌ مُعْتَق عسيرٌ دحوله ، ففصلها جبال  
همالية والبحار عن بقية العالم ، ويتعذر الاقتراب من شواطئ خليج البنغال بسبب  
ارتداد أمواجه إلى وراء ، ومن المحتمل أن دفعت الرياح الموسمية زوارق أناسٍ من  
أفأقى إفريقيا إلى سواحل بحر العرب فوقفت راكميها جبالُ كهات الغربية التي  
كان يحتمى بها أهالى الهضاب المُزَل ، فكان يمكنهم أن يقاوموهم من  
غير خطر .

والهند ، إذ لم يُفَسِّكْ في غزوها من البحر لذلك السبب ، لم يدخلها الفاتحون  
إلا من جبال همالية العظيمة الواقعة للهند على طول واسع والتي تَوَطَّوْهُ في طرفيها  
فيتسع وادى برهاوترا في شرقها وادى كابل في غربها طائفتين بها .

من ذينك الواديين انقضَّ غُرَاةُ آسية على سهول الهندوستان الخصيبة في  
غضون القرون ، وأكثر هؤلاء الغزاة وأرهبهم جاموا من الغرب لسهولة سلوك وادى

(١) الصوف : الكثير الصوف .

كابل أكثر من وادى برها بوترا الذى يمرُّ من يقاع بجوهلة الأمر قاسية مانعة من سير الإنسان بنباتها الأشعث وجوها الموهن .

ومع ما تراه من اختلاف ذيفك الوادين سمّاها الإنكليز باسمين غير صحيحين دالّين على أهميتهما الجغرافية والأهلية فدعّوا العربى منهما بالباب الآرى ودعّوا الآخر بالباب التورانى .

لم يكن الباب التورانى ( وادى برها بوترا ) ممرّاً للتورانيين بالمعنى الحرفى ، بل بالمعنى العام ، فاسمُ « التورانيين » ، الذى يدل على شعوب التركستان أو توران ومن إليهم ، أطلق على العرق الأصفر بأسره فى بعض الأحيان ، فكان أول من دخلوا باب الهند التورانى قبل التاريخ ، فبدّوا أولَ عنصرٍ أجنبى فى الهند ، أناسٌ صُفُّوا جُرْدُ زُرْد<sup>(١)</sup> ، ولم يَغْزُ طوفان التورانيين الحقيقين ذوى الشعر الأملس واللعنى الكثرة والعيون الأفضية سهول الهند إلّا بعد ذلك بزمان طويل ، وذلك من الباب الآرى .

وقبل أن تتكلم عن أولئك التورانيين ، نرى أن نبهت فيما آل إليه العرق الأصفر فى الهند وما تركه فيها من أثر .

ابتعد غزاة الهند الأوّلون عن وادى برها بوترا ، متوجهين إلى الجنوب فوجدوا أنفسهم أمام منطقة الجبال الوسطى الشاهقة المعروفة اليوم بيجال غوندوانا ، فكانت هذه المنطقة ملجأً للأهالى السود الذين لم يستطيعوا لأولئك الغزاة ردّاً ، والذين هم مدينون فيما نالوه من الوفاية للهجو الخطر القاتل للأجنبى أكثر ممّا لطبيعة الأرض القفر الكثيرة المصاعب .

(١) الزور : جمع أزور وهو الناظر بمؤخرة عينيه .

وانقلب الغزو الأصفر إلى اتجاهين بعد أن وقف على ذلك الوجه : أحدهما نحو وادى الفنتج والآخر نحو الجنوب سائراً مع شواطئ خليج البنغال .

وأول ما أسفر عنه توالد غزاة آسية وشود الهند ظهور قدماء الدراويد الذين يُعدّون سكان الهند الأصليين لتغلب العنصر الفطري ، ثم جاء غزاة آخرون فدَحروا هؤلاء إلى الجبال فانتشروا في جنوب شبه جزيرة الهند ثم توالدوا هم وقدماء الدراويد ، لا هم والزوج رأساً ، فأسفر هذا التوالد عن ظهور الدراويد أو التمول الذين يبتعدون عن المثال الأصلي أكثر مما تقدم .

وإذا نظرنا إلى أثر الغزو الأصفر في عروق الهند رأيتُ يتجلى في الشمال حيث وادى برهماپوترا الذي أرّدهم عليه في قرون كثيرة ما خرج من آسية الشرقية من الجوع لاريب ، وينتسب إلى العرق الأصفر الخالص مليوناً النفس اللذان يسكنان ولاية آسام ، ومنطقة البنغال ، وإن كان يسكنها مزيجٌ من الآديين نجد فيها أثر الغزوات الأولى التي اجتاحت بغیر عائق سهوآها الخصبية ، وكلما ندرجت إلى الجنوب سائراً على سواحل البنغال وجددت العرق الأصفر يفرق في طبقات السود القديمة ، ويمكن تبيين العرق الأصفر في الشمال ، حيث يسكن السانتال مثلاً ، أحسن من تبيينه في المناطق الجبلية الوسطى حيث ظل الكوند والمليز والغوند قريبين من المثال الأول وحيث تجد ، على ما يحتمل ، حفدة قدماء النيفريتو الأصليين .

ثم تبايع جنوب الهند الممتد من غوداوري إلى رأس كمارى فترى الشعوب الدراويدية التي يُعدّ التمول والتيلغو أهمّها والتي هي نتيجة توالد الأمم الفتر والأم السود وما امتزج بها بعد زمن طويل من شتى العناصر ، ولا سيما العنصر التوراني .

ونحن قبل أن نتكلم عن المغازى التورانية التي جاءت من غرب الهند ، ولِنَبْتَهِى إلى العروق الصُفْرُ ، نذكر أن سكان هِيَضَابِ هِمَالِيَةِ العليا والأودية الواقعة بين هذه الجبال وكارا كورَم ، خلا وادى كشمير ، هم من أهل التبت القريبين من جيرانهم سكان الصين الغربية ، ولِسَكُنْنا لَا نُعْفَى هنا كثيراً بما أسفر عنه غزوٌ عنيفٌ مفاجئٌ من التتاشُج ، وإنما نقول إن هذه الأودية والهِيَضَابِ جزءٌ من التبت أكثر من أن تكون جزءاً من الهند من الناحية الجغرافية ، وإن الشعوب التي تقطن فيها هي من أرومة التبت وامتتق الدين الذي يمتنقه أهل التبت وتتصف بما يتصف به أهل التبت من الطباع والأخلاق وإنه يسكن لَدَآخِ ودارستان وبالتى وِبُهُوتان وجزءاً من نيپال تَبَتِيَّوْنَ ذُوو وَجَنَاتِ نائِثَةِ وَأَجْفَانِ مَرْمُومَةٍ .

ومع أنه يتعذر تعيين الزمن الذي فَكَّدَتْ فيه المغازى من الباب التوراني إلى الهند ، ومع أننا لم نَرْ غَزْوَةً تَمَّتْ من هذه الطريق منذ بدء الأزمنة التاريخية نَعْرِفُ منفصلاً تاريخاً كثيراً من الغزوات التي جاءت من آسية الغربية مُجَاوِزَةً الباب الآرى ، وهذا إلى أن أقدم هذه الغزوات ظل مجهولاً في مجاهل الزمن ولم يُعْرِفْ إلا من نتائجهِ الإثنولوجية كما عُرِفَتْ نتائج مغازى الشعوب الصُفْرُ .

والتورانيون أشدُّ الغُرَاةِ تحويلاً لعروق الهند من الناحية الجُمَانِيَةِ ، والآريون هم الذين تركوا أقوى الأثر في عروق الهند من الناحية المدنية ، فن التورانيين أخذ سكان الهند نِسَبَ أجسامهم وتقاطيع وجوههم ، وعن الآريين أخذ سكان الهند لغتهم ودينهم وسَجِيَّتَهُمْ وطبائعهم ، وفي الهند تُبْصِرُ ١٧٠٠٠٠٠٠٠ هندوسى يتكلمون باللغات الآرية مع أنك لا تجد من هذه الملايين غير فريق قليل يتصل بالعرق الأبيض الخالص اتصال دم .

والتورانيون أول من قَصَدُوا الهند ، فأقاموا في البداءة بجميع وادى السَّند  
وبقسم من وادى الغنَّج ، وكانوا كلما زاد عددهم بمن ينضمُّ إليهم من العُصَب الجديدة  
أوغلوا في داخل الهند فدخلوا الدَّكَن في آخر الأمر ، فاندحر أمامهم الأهليون ، كما  
اندحروا أمام الشعوب الصُّر فيما مضى ، فاضطُرَّ هؤلاء الأهليون الذين عَجَزُوا عن  
الدفاع إلى الاعتصام بمناطق الدَّكَن الوسطى الجبلية ذوات الغاب والأجام .

ففي تلك الجبال الوسطى يجب ، كما قلنا ، البحث عن حَقْدَة قدماء السكان ، أى  
قدماء الدراويد أو الزنوج المُخلَّص ، وأكثر هؤلاء الشعوب القديمة عدداً وأعظمهم  
أهمية هم الذين يُعرفون بالسكول ، ويقطن السكول في جُهوَناناغپور الواقعة في وادى  
مَهَانَدِي الأعلى و يُقَسِّمون إلى عِدَّة أقوام تَهَنَدُوا ، مع بقاء نحو مليون شخص  
منهم غير مقتبسين شيئاً من عادات الدراويد ، الذين يسكنون الأودية والسهول ،  
ومعتقداتهم .

ومن لفظ « السكول » الدال على أهم الشعوب الأصلية اشتقَّ التعبيران « الجماعة  
السكولية واللغة السكولية » الدالان على أكثر سكان المنطقة الجبلية القاطعة شبه  
جزيرة الهند من خليج كَمْبِي إلى نهر الغنَّج وعلى لهجاتهم ، وفي اتجاه الشرق من  
هذه المنطقة ، على الخصوص ، نبدو بكثرة الشعوب الفطرية التي لم تتوالدهى  
والشعوب الأخرى ، و يعيش في اتجاه منابع بَرَهْمَنِي الواقعة في شمال وادى مَهَانَدِي  
« أصحاب الأَجَمَة » الذين يُعرفون بالدُّوانغ فيقولون إنهم أقدم البشر فيبدون وحوشاً  
من كلِّ وجه .

ونحن ، إذ نُشير إلى اللغة السكولية ، نقول إن اللغات في الهند لا تُعَيِّن العروق ،  
فالشعب الذى يتكلم باللغة السكولية الخالصة يُسَمَّى بسانتها لم يكن من سكان الهند

الأصليين ما أُشيع من العنصر الأصفر ، ولا يُبحث في الجنوب ، حيث تسود اللغات الدراويدية ، عن حَقْدَةِ العرق الآسيويِّ الشرقيِّ الذي أدخل هذه اللغات إلى الهند ، ولا يخرج عن هذا المعنى قولنا إن الشعوب الهندية التي يمكنها أن تَمْتَزَّ بِانتسابها إلى أجداد آريين هي أقلُّ الهنود عدداً مع شيوع اللغات الآرية أكثر من سواها في الهند .

وحينما دخل العرق الأبيض ، الذي نسميه بالعرق الآري ، الهند اضطرَّ إلى مقاومة الدول المنظمة القوية التي أقامها التورانيون ، لا الشعوب المتوحشة العُزُل الهَبَّاءة ، فقهر ما هو قائمٌ منها في وادي السِنْد فاستقرَّ بهذا الوادي زمناً طويلاً قبل أن يُوغِل في غرب الهند وجنوبها .

وما كان الآريون ليجاوزوا المنطقة التي تحميها جبال وِنْدِهيا قبل الميلاد بخمسة عشر قرناً ، وكان استعباد تُوْرَابِيَّ الشمالِ أولَ ما صنعوه فجعلوا منهم طبقة الويشية (التجار) التي تجميء بعد طبقة البراهمة (السكينة) وطبقة الأكشترية (المُقاتلة) ، ولم يجعلوا بعدهم سوى طبقة السودرا (الزُّراع) المولدة من سكان الهند الأصليين .

حَلَّ القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، فقام الآريون بغزوهم الأكبر الذي اتخذ موضوعاً للراماينا (إلياذة الهندوس) ، فأوغلوا في الدَّكَّان بقيادة زعيمهم رامافوسَتلوا ، بعد ألف مَفْخَرَةٍ ، إلى نهاية شبه جزيرة الهند فجعلوا الناس ، ومنهم أهل سيلان ، على استحالة شرائعهم .

وما جاء في أساطير الراماينا أن الآريين حاربوا الغيلان فاستعانوا بالقرَدَةِ فقلبوا عروش عبَدَةِ الأفاعي ملوك النَّاغا الأقوياء الأشداء رأساً على عَقِب ، فترى أن أولئك

الناغا هم الناقحون التورانيون الأولون الذين شادوا في جنوب الهند دُولاً زاهرة فَعَبَدُوا ، هم ورعاياهم قداماء الدراويد ، الأفاعي ، وأن أولئك القِرَدَة الذين أعانوا راما هم أهل البلاد السود .

وكان ذلك الغزو الآري لجنوب الهند حملةً عسكرية أكثر من أن يكون استيلاءً ما ظَلَّ عاطلاً من أثر في البلاد المُحتلة .

ثم حلَّ القرن الرابع قبل الميلاد ، فكانت الهند عُرْصَة لغزو جديد قام به الراجبوت الذين هم آريون على الأرجح ، فهؤلاء الراجبوت ، ( أو أبناء الملوك كما يدل عليه اسمهم ) ، الذين هم قوم جُسُرُ محاربون أكفاء متماثلون ، عُرِفوا بالأكثرية ( المُقاتلة ) فأقاموا بالمنطقة الممتدة من شرق نهر السند إلى ما وراء آراو لي الذي لا يزال يُسمَّى راجپوتانا .

رأينا آنفاً أن الغزوات التي جاءت من الباب التوراني الواقع في شمال الهند الشرق أسفرت عن سيطرة العرق الأصفر الذي توالدهم والزواج فأكره هذا العرق بعد زمن طويل على الاحتكاك بالتورانيين في وادي الغنَج وجنوب الدَّكَّان ، فبمثل هذا نُحَصِّصُ نتائج المغازي التي أتت من الباب الآري فنقول : إنها أدَّت إلى استيلاء العروق التورانية على غرب الهند وعلى شمال الهند الغربي ، وإن هذه العروق التورانية لم تلبث أن خضعت لصفوة من الآريين فنَجَّمت عن ذلك نتائجُ خلقية تختلف عن النتائج الجِئانية والمادية اختلافاً تاماً كما بينا ذلك .

وإذا سیرنا من الشمال إلى المنطقة الغربية ، كما صنعنا ذلك بشأن المنطقة الشرقية ، فكلنا في الپنجاب وجدنا الجات والغوجر والسك ، الذين هم من الشعوب التورانية على ما يظهر ، يؤلفون ثلاثة أخماس الأهالي وأن بقية هؤلاء يقتربون بلون جلودهم من

الآريين ، وإذا نزلنا إلى ما تحت ذلك رأينا الراجوت الذين ينسبون إلى الفصيلة الآرية ، وإن لم يكونوا من خُصصها ، ورأينا أن أهل الكجرات مزيجٌ من مختلف العروق وإن كان العرق التوراني هو الغالب في هذا المزيج ، ثم رأينا أن العنصر الآري يَقف عند الهضاب التي يشتمل عليها وادى الغنّج في الجنوب وعند جبال ونديها التي تصل إليها ، ثم لا نجد للعنصر الآري أثرًا تحت هذه المنطقة مع هيمنة نُظم الآريين ومعتقداتهم في الغالب ، ونجد فيما وراء بَمبي ، وعلى جانبي جبال كهات ، بضعة ملايين من الشجيمان المتناهلين الذين هم من أصل توراني فيبلغون عدة ملايين يُسمّون بالمرآتيا ، وكما أقبلنا إلى الوسط أو نزلنا إلى الجنوب وجَدنا الحضارة الآرية والسحنة التورانية تذوب في الشعب الدراويدي ، ونشأ عن امتزاج تلك العناصر على نسب مختلفة ظهورُ الهيل الذين دحرم الراجوت إلى الجبال فغدّوا عِنوان قدماء الدراويد الذين أثار التورانيون فيهم قليلًا ، فكانت منهم قبائل محافظة على تقاطيعها الأولى ، فأقاموا بونديها الغربية فبلغ عددهم نحو ثلاثة ملايين - وظهورُ المهار المتصلين بالجات التورانيين فسكنوا سلسلة جبال آراولي الشمالية فبلغ عددهم ٦٠٠٠٠٠ شخص - وظهورُ الميما المقيمين بمملكة جيبور في وادى الغنّج الأعلى فبلغ عددهم نحو ٣٠٠٠٠٠ شخص - وظهورُ الراموسى والدهانغ المقيمين بسفوح جبالى كهات الغربية فتُبصر فيهم أثر العنصر الدراويدي كما تشهد بذلك جلودهم الدُّكن وأنوفهم الفُطس ووَجَناتهم الناتئة .

وبدأت غزوات الشعوب الإسلامية للهند في القرن الحادى عشر من الميلاد ، فهذه الشعوب إذ كانت منسوبة إلى أصول شديدة الاختلاف من عرب وفرس وأفغان ومغول زاد اختلاطُ العروق السائدة لشمال الهند تمقيدًا ، ونجم عن سلطان المسلمين



تغيير عظيم في الطباع والعادات والمعتقدات والحضارة بوادى السُّند ووادى الغنج ، وإن لم يؤد ذلك إلى ظهور عرق جديد من الناحية الإثنوغرافية لعدم تمازج المسلمين وقدماء السكان تمازجاً وافراً كافياً .

ونحن ، بعد أن أثبتنا بتلك الخلاصة الخاطفة فقسماً مكان الهند إلى أربع جماعات كبيرة : « الكولية والدراويدية والتورانية الآرية والتبتية » ، بحث في العروق الثأرية ذوات السحنات المختلفة ثم نفصل مظاهرها وأصولها وعاداتها ودياناتها والأدوار التي ممثلتها في مختلف القرون ، فإذا ما أتممنا ذلك أمكننا أن ندرس ما يشمل أكرية الشعب الهندوسى من العادات والطباع والأخلاق والنظم والحضارات .

---

## الفصل الثاني

### عُرُوقُ الهِنْدِ الشِّمَالِيَّةِ

#### أَوِ الهِنْدُوسْتَانِ

(١) سكان همالية - أصل سكان أودية همالية هوردسنان وكشمير ونيبال الخ  
(٢) سكان آسام - قبائلها المَنُوحَةُ : النَافَا والسَكهاسِيَا الخ . - (٣) سكان وادي المَج - ندرجهم إلى التجانس - نفوق العنصر الأصفر في البُعمال ونفوق العنصر الآري في وادي السِنج - قبائل وادي الفَنجِ الأُدِي المَنُوحَةُ : السامِتَال والمَلابَر ، الخ - (٤) سكان الينجَاب - نفوق العنصر الآرية والنورانية والإسلامية - وصف العناصر الأجنبية - الأصل النوراني - أهمية الحات - (٥) سكان السند وراجيوتانا - نفوق الراجيوت - الراجيوت أقل العناصر الهندية تأثيراً بالانازي الأجنبية - شبه الوحوش من سكان راجيوتانا : البهبل ، الخ . - (٦) سكان السكجرات وشبه جزيرة كاتم. اوار - اختلاط الروع في هذه المناطق .

#### ١ - سكان هِمَالِيَّة

تُعَدُّ هَضاب هِمَالِيَّة الغريبة العليا وأكثر الأودية التي تهيمن عليها من التبت ، لا من الهند من الناحية الجغرافية ، وتُعَدُّ من أجزاء الهند من الناحية الإثنولوجية . وتجمعت الشعوب الصغيرة التي تسكن تلك المناطق المنيعه ، وبعضها قديم جداً ، على شكل جماعات ، وجاءت تلك الشعوب من التبت في الغالب ومن الهند في بعض الأحيان ، واسكن لا كفاتحة ما كان من طبيعة تلك البلاد الجبلية أن تجعل كل

غزو مسلحاً أسراً مستحيلاً ، فضلت أهل تلك البلاد من نير الأجانب حتى الآن وحافظوا على استقلالهم على العموم

ويتوارى المثلث التبتى شيئاً فشيئاً في أودية هِمَالَيَّة الجنوبية حيث يتصل سكان الجبال بسكان السهول فتنمذد الديانة والطابع ويمارس السيادة طبقة أريستوقراطية راجهوتية يصدر عنها الراجوات .

هِمَالَيَّة الغربية ( لَدَاخ ، بالتي ، دردستان ) . - يسكن البقاع الجبلية التي يجري فيها سَلْج والسُنْدُ وشَيُوك من الشرق إلى الغرب ، وذلك قبل الانتهاء إلى مَنفَذ في سلسلة هِمَالَيَّة الغربية ، شعوبٌ تبتية صغيرة ذواتُ وجوه واسعة وعيون زُرَّة<sup>(١)</sup> وشعور سود سَندرية<sup>(٢)</sup> ولَحَى زَعِرَة<sup>(٣)</sup> وأخلاق لينة حسنة شبيطة مَرِحَة ، ولا تدين هذه الشعوب بديانة واحدة ، فبينما ترى سكان لَدَاخ أو التبت الأوسط بُدْهَيَّين مطيعين لكنهم ترى سكان بالتي أو التبت الأصغر مسلمين مطيعين لأنتمهم .

ويقول أهل لَدَاخ بَعْدُ الأزواج من الذكور ، وينشأ انتحالم لهذه العادة عن فقرهم ، ففي لَدَاخ يجتمع خمسة إحوه أو ستة إخوة ، في الغالب ، ليعولوا امرأة ويؤلفوا أسرة ، وأما البالتيون ، وإن لم يكونوا أغنياء ، فلم يتخذوا هذه العادة لتحريم الإسلام إياها ، ويَنَزَّح أناس كثيرون منهم ، عن بؤس ، إلى سهل القَنْج فيكونون عُمَّالاً مأجورين لدى الإنكليز ، فإذا ما جمعوا مالاً قليلاً عادوا إلى جبالهم ومساقط رؤوسهم ليقضوا فيها بقية أعمارهم ، وإذا ما أثروا تزوج الواحد منهم غير زوجة .

والمنطقة التي يبدأ نهر السند بالجرى من شمالها إلى جنوبها مُجَوَّلاً حول شوامخ

(١) مزورة : منحرفة - (٢) سندرية : سدودة - (٣) الزعر : القبل الشعر والمنغرفة .

نَفْعًا بِرَبِّ تُعْرِفُ بِدَرْدِسْتَان ، وَيَسْكُنُ هَذِهِ الْمِنْطَقَةَ أَنْاسٌ يَخْتَلِفُونَ عَنْ أَوْلَئِكَ ، فَما يَتَصَفُّونَ بِهِ مِنَ الْقَامَاتِ الْعَالِيَةِ وَالْجُوهِ الْبَيْضِيَةِ النَّاصِرَةِ يَدُلُّ عَلَى أَصْلِهِمُ الْآرِي ، وَهُمْ ، مَعَ إِسْلَامِهِمْ يَقُولُونَ بِنِظَامِ الطَّوَائِفِ ، وَمِنْ أَكْثَرِ الطَّوَائِفِ احْتِرَامًا عِنْدَهُمْ طَائِفَةُ الصِّينِ الَّتِي وَرَدَ ذِكْرُهَا فِي شُرَائِعِ مَنْوُوفِي الْمَاهَبَهَارْتَا فَظَنَّ بَعْضُ عُلَمَاءِ أَوْرَبَةِ ، عَلَى غَيْرِ حَقٍّ ، أَنَّهَا دَلُّ عَلَى نَسَبٍ بَيْنَ أَهْلِ دَرْدِسْتَانِ وَأَهْلِ الصِّينِ ، وَمِنْ الدَّرْدِيِّينَ يَتَأَنَّفُ أَشْرَافُ دَرْدِسْتَانِ الَّذِينَ يَسْتَعْبِدُونَ سُكَّانَ الْبِلَادِ الْفَطْرِيِّينَ أَوْ الدُّوْمِ الْقَاطِنِينَ فِي الْأَصْقَاعِ الْمُمْتَدَّةِ إِلَى الْيَمْنَجَابِ وَالْقِسْمِ الشَّمَالِيِّ مِنْ رَاجِپُوتَانَا وَالْمُتَصَفِّينَ بِأَسْوَدَادِ جَلُودِهِمْ كَجَلُودِ هَمَجِ الْهِنْدِ الْوَسْطَى وَالْمَعْدُودِينَ أَنْجَاسًا عِنْدَ الْبَرَاهِمَةِ وَالْمَسَالِينِ ، وَمَعِنْدَ الدَّرْدِيِّينَ مِنْ عَادَاتٍ وَثَنِيَّةٍ شَاهِدٌ عَلَى قِدَمِهِمْ ، وَفِي بِلَادِهِمْ أَنْصَابٌ كَثِيرَةٌ تُشَابِهُ أَنْصَابَ بَرِيتَانِي ، وَيَنْصَفُ الدَّرْدِيُّونَ وَسَادَتُهُمْ بِالْأَطْلَاقِ الْحَرَّ وَحَبَّ الْفَخْرِ ، وَلَمْ يَتِمَّ قَطًّا اخْتِصَاعُ يَافِغِسْتَانِ الَّتِي نَقِمَ بِهَا إِحْدَى قَبَائِلِهِمْ فَيَسْمِيهَا الْإِنْسَكِلِيزِ « الْبِلَدُ الْمُقَوَّرَد » .

وَبَرَى بَيْنَ أَمْجَاجَاتِ دَرْدِسْتَانِ وَتَمَاتِ الْأَفْغَانِ وَجْهٌ قَرَابَةٌ ..

وَادِي كَشْمِير — جَمِيعُ الْبِلَادِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا مِنْ أَعْمَالِ رَاجَةِ كَشْمِير ، فَإِذَا تَرَكْنَا إِلَى مِئْطَةِ كَشْمِيرِ الْأَصْلِيَّةِ ، أَيْ إِلَى الْوَادِي الْبَالِغِ طُولُهُ ثَلَاثِينَ فَرَسَخًا وَالبَالِغِ عَرْضُهُ عَشْرَةً فَرَسَخًا وَالمَشْهُورِ فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ بِجَمَالِ مَنَاطِرِهِ وَوَفَرَةِ بَنَانِهِ وَجَدْنَا عَرَفًا يَخْتَلِفُ عَنْ عَرُوقِ الْمَنَاطِقِ الْحَاطِيَةِ بِهِ ، فَيَجِبُ أَنْ يُطَاقَى اسْمُ السَّكْشَامِرَةِ عَلَى سُكَّانِ هَذَا الْوَادِي ، لَا عَلَى مُخْتَلَفِ الْقَبَائِلِ الْحَاوِرَةِ لَهُ .

وَيَشْتَهَرُ السَّكْشَامِرَةُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ بَيْنَ أَهْمِ سُكَّانِ الْهِنْدِ وَأَكْثَرِ النَّاسِ بِيَاضًا ، وَنَشْتَهَرُ بِسُوءِهِمْ بِالْجَمَالِ .

فلكشامرة جلود ناعمة مُكوّنة قليلاً وأنوف قُدُوْ وَلُحَى وشعور كَثَّة وقامات  
مر بوعة وأجسام ضليعة .

وندل سيام على الاعتداء أكثر من أن تدلّ على الشجاعة ، وهم على جانب  
عظيم من الاستعداد الفنى ، فهم الذين يصنعون الشالات المشهورة فى العالم بأسره  
والآنية النحاسية المزينة بالميناء فلم تُوفَّق أوربة لتقليدها حتى الآن .



١١ - زعيم ناغى (من جبال آسام)

ويمكن عنده سكان وادى كشمير ،  
أو طوائفهم العليا على الأقل ، وذلك من  
الناحية الإثنوغرافية ، حفدة لآريين  
كانت تجرى فى عروقهم دماء تبتية قليلة .  
ويدين الكشامرة بالإسلام منذ  
الفتح الإسلامى مع محافظتهم على نظام  
الطبقات ، ويتكلمون بلغة ممزوجة من  
الفارسية والسانسكرتية .

قبائل أقطار هِمَالْيَة الدنيا - لِنَدَعْ  
مناطق هِمَالْيَة العاليا المُعَلَّمة جانباً ولنمرّ

من الفلّوج<sup>(١)</sup> الضيقة المؤدية إلى سهول الپنجاب الواسعة لنرى زُمرّاً صغيرة كثيرة  
تندرج بها من التبتى القاطن فى الهضاب البائرة إلى الهندوسى المقيم بالپنجاب الخصبية ،  
أى من البُدْهى إلى المسلم أو عابد وشنو .

(١) الفلّوج : جمع فلاج وهو النقى .

وليس من المفيد ذكر قبائل تلك المنطقة مفصلاً ما اختلطت جميع العروق والعبادات في الشيباليين والبهاريين والغاديين والكولو والغوجر ، و بينا يتوارى العنصر الأصفر من هؤلاء نكتشف فيهم أثر العنصر الأسود أحياناً ، وتتألف طبقتهم الأريستوقراطية من الراجبوت على العموم .

وأكثر تلك الشعوب الصغيرة من الرعاة ، و بعض تلك الشعوب من البدوين ، و يقول بعضها بعدد الأزواج من الذكور ، ودين الكثير منها مزيج من الإسلام والبرهمية ، ولا يزال بعضها يعبد الأصنام القديمة ويعبد الأفاعى .

و ينصف جو هذه المنطقة وعروقها ولهجاتها بطابع التحول ، وفيها تمتد سلسلة سيوالك ، وهى تقع بين منحدرات هيمالية المهمة الجليدية فى الغالب وسهول وادى السند المحرقة .

نيبال . — تشابه المنطقة المسماة « نيبال » منطقة كشمير باشتقاق اسمها من وادٍ ضيق صغير ، و بأنها مركز للقوة والحضارة فى البلاد ، ويحيط الوادى بعاصمتها كومات ماندو القائمة فى القسم الشرقى منها ، و يبلغ طول مملكة نيبال ٧٠٠ كيلو متر و يبلغ عرضها ١٢٥ كيلو متراً ، وتقع مملكة نيبال بين سلسلة هيمالية الأساسية وطلائع الجبال المسيطرة على سهل الغنّج والى تبدو منطقة ترأى على حَرّها .

و يسكن منطقة نيبال قبائل مختلفة فى أصولها ولهجاتها ، فبعض هذه القبائل من أصل تبتى و بعضها نتيجة توالد أناس من التبت أو من السكان الأصليين وأناس أتوا من جميع أجزاء الهندوستان ، ومن هؤلاء المهاجرين أناس من الراجبوت ، أى من أشرف شعوب الهند ، وأناس متوحشون مشابهُون لسكول جهوتا ناغبور وولاية

أوريسه ، والأهالى الذين يُعرّفون بالغوركها هم وليدو الامتزاجات الأولى ، والأهالى الذين هم وليدو الامتزاجات الأخرى هم من قبائل نيبال المجاورة لِسِكم .

وتنقسم أ كثرية الأهالى الذين يقيمون بوادى نيبال ، أى بالمنطقة الضيقة التى تحيط بها الجبال وتشتمل على كُبرىات مدن مملكة نيبال ، إلى فرعين مختلفين : فرع النيبوار الذى هو وليد العرق الأقدم ، والذى ظلّ سيد نيبال إلى نهاية القرن الأخير ، وفرع الغوركها الذى استولى على نيبال فى نهاية القرن الأخير .

وبقى الغوركها من قبائل نيبال المحاربة قبل أن يصبحوا سادة وادى نيبال ، ويزعمون أنهم من حفدة الراجپوت الذين هاجروا إلى نيبال فراراً من التمتع الإسلامى ، وهم ، مع كونهم من أصل هندوسى ، لم أر إلا الأقلين منهم لم يحولوا أثراً ظاهراً من الدم التبتى ، على أن اسم « غوركها » لا يدلّ على عرق معين ، بل يدلّ فى نيبال على أناس من كل طبقة وأصل غادروا ولاية غوركها النيبالية ليفتحوها بقية نيبال .

ويُقسّم الغوركها إلى عدّة طوائف ، وأسمى هذه الطوائف هى طائفة الأكشترية التى هى وليدة تزوج الراجپوت بنساء القبيلة العظمية المعروفة بكهوس .

ويُعدّ الغوركها نواة أهالى نيبال الحاربيين ، ثم انضمّ إلى هذه النواة قبائل محاربة أخرى نذكر منها المَعَرّ والمُورَنغ ، الخ . الذين يتجلى للمسال المغولى فيهم أكثر مما يتجلى فى الغوركها .

ومهاجر الكثيرون من قبائل نيبال المحاربة لِيُسْتَخْدَمُوا فى الجيوش الإنكليزية فيُسَمُّون فيها باسم الغوركها العام مع عدم صواب هذه التسمية .

وإلى غُرَاة الغوركها يعود الفضل في خضوع نيبال لسيد واحد كما ذكرنا آنفاً ،  
والغوركها قوم عسكريون ، وليس الغوركها أهلاً لعير ما يَبْتُ إلى الأمور العسكرية  
بصفة ، فتراهم يزدهرون الصنّاعة والزراعة والتجارة ، ولا تَجِدُ فيهم أتراً للذوق الفني ،  
وهم نقيضُ النيوار في القابليات .

والبرهيمية هي ديانة الغوركها ، ولغةُ الغوركها المعروفة بالبربتية هي لهجة  
سنسكريتية ممزوجة بكلمات برتية ، وتُسَكَّب لغة الغوركها بالحروف السنسكريتية .  
ويتألف من النيوار الذين خضعوا للغوركها جمهورُ الوادي ، والراجوات الذين هم  
من عرقهم هم الذين ملكوهم عدّة قرون فامتلاّت مدن نيبال في عهدهم بالمباني  
المعجبة .

والنيوار . وإن كانوا كالغوركها نتيجة توالد الهندوس والتبتيين ، بدأ أثر أهل  
التبت أظهر من أثر الهندوس فيهم ، فلذا أُتِمِح لي أن أدخل وادي نيبال كان بين  
حاشيتي خادم رافقي في زيارتي لمتنلف أقطار الهند من غير أن أعلم شيئاً عنها ،  
فسألتني ، حينما وَطَلت أقدامنا أولَ قرية نيبالية واقعة على الحدود ، عن وصولنا إلى  
بلاد الصين ظانّاً أن نيبال من الصين إما رآه من مشابهة سكانها للصينيين الذين  
شاهدتهم معي في بَمِجِي .

ويتسكلم النيوار باللغة النيبوارية المختلفة عن البربتية التي هي لغة الغوركها ،  
وإن كانت ممزوجة مثلها من السنسكريتية والتبتية ، واللغة النيبوارية وحدها هي  
لغة نيبال التي لها آداب .

والنيوار عاطلون مما اتَّصَف به الغوركها من الروح العسكرية ، وتَجِدُ عندهم ،  
مع ذلك ، ما ليس عند هؤلاء من الأهليات الزراعية والصناعية والفنية العظيمة ،



وبفضلهم أُقيم ما يملأ الوادى من المعابد الطريفة المُرَبَّعة بالنقوش العجيبة قدسنا لها عِدَّة صورٍ في هذا الكتاب ، وبلغوا من إنقان حفر الخشب درجة لم تَعْقَهُم معها أوربة كما أرى ، ومن دواعى الأسف أنهم لم يلاقوا من الغوركها ، الذين هم سادتهم فى الوقت الحاضر ، ما يُشجِّعهم ، فترى متغنينهم يزولون بالتدريج فلا تجد منهم اليوم أكثر من اثني عشر رجلاً قادراً على حفر الخشب أو الحجر بمهارة ، فالحقُّ أن فنَّ البناء فى نيبال دخلَ دور الانحطاط ، وما تشاهده فيها من الآثار المهمة صُنِعَ قبل الفتح الغوركهاى .

وتجدُ ثلث النيوار من أتباع شيوا وتجدُ ثلثتهم من البُدْهيَّين ، وتجدُ هؤلاء وأولئك من القائلين بنظام الطوائف .

بهوتان وسيكم . — نقع دُوَيْلتا بهوتان وسيكم المستقلتان فى شرق نيبال ، أى فى منطقة جبالية ، ويُعدُّ سكانهما من فضيلة الأكاديمين الذين يقطنون فى الهضاب العليا ، ويُعدُّون ، كذلك ، من التبتيين فيشتق اسم « بهوتان » من كلمة « بود » التى تعدل كلمة « التبتى » .

وبرى الإنكليز أن أهل سيكم أرقى من سكان بهوتان بمرَّح أخلاقهم ، ولا تُبغض فى الهند شعباً أنيساً مثل أهل سيكم ، ويمارس هؤلاء الذين هم من شِبَاه البرابرة بعض فنون اللهو والتسلية ويَزْمُرُونَ بما يأخذ بمجامع القلوب ، ومن محاسن لغتهم عطاؤها من تعاير القدح والشم فدلَّ ذلك على لطفهم ودمايتهم .

وأهل سيكم من القائلين بتعدد الأزواج من الذكور على العموم ، ويدينون بالبُدْهيَّة وتكثر فى سفوح جبالهم أديار الكهنة ، وتبنى هذه الأديار فى مواقع رائعة وتسيطر على مناظرٍ ساحرة .

وسكان بهوتان أقلُّ مرحاً من جيرانهم أهل سيكيم ، ونجم ذلك عن البؤس الشديد الذى ألقتهم فيه حكومتهم المستبدة المرهقة ، فالذى يودُّ منهم أن يملك نتيجة عمله بترك بلده ليخدم الإنكليز ، ويشابه دينهم ولهجاتهم دين أهل سيكيم ولهجاتهم ، ويقولون مثل هؤلاء بتعدد الأزواج من الذكور ، ويمسكهم السكاهن الأكبر وقائهم مقام دون السكاهن سلطاناً وإن كان يدعى بالملك .

ولا تتجلى فى أهل سيكيم وأهل بهوتان سَخَنَاتُ أهل التبت الخالصة إلا فى الأودية العليا ، فإذا ما نَزَلَتْ إلى السهل أبصرت اختلاطهم بأهل البنغال اختلاطاً وتزل معه الملامح والعادات الأولى .

## ٢ — سكان آسام

آسام ، كما نعلم ، جزء من وادى برهاپوترا نابعٌ لإمبراطورية الهند الإنكليزية خلا شبكة مَصَبِّه المعقدة التابعة للبنغال والى تختلط فيها مياه هذا النهر بمياه الفَنُجج . ويتوارى مجرى برهاپوترا الأعلى فى البِقَاعِ غيرِ المَرُودَةِ<sup>(١)</sup> التى يحجزها عن الحضارة جَوْهُانل فِظَاتِ الملجأ الأخير للهمجية فى ذلك القسم من العالم ، ومما ذكرناه ، فى الفصل الذى وصفنا فيه أقطار الهند ، أنه لا ينزل فى أى قسم من العالم القديم مطرٌ نَجَّاجٌ<sup>(٢)</sup> كالذى تُنْزِلُهُ رياح الجنوب الموسمية إلى آسام ، فما ينشأ عن هذا المطر من الرطوبة الموهوبة الموجبة للنبات الأشعث والعفونة القاتلة يَحْمِيهِ استقلال سكان آسام العليا المتوحشين ، بيد أن صَوَلَاتِ الطبيعة هذه مشؤومةٌ على هؤلاء ،

(١) راد الأرض برودها رودا وريادا: تنفذ ما فيها من الراعى والمياه ليرى هل تصلح لانزول فيها  
(٢) مطر شجاج : مطر سيال شديد الانساب .

فهم إذ كانوا يتقهقرون يوماً فيوماً إلى أشدّ أراضيمهم وباء وأقلّها صلاحاً للزراعة  
يَنْقُصُ عددهم بلا انقطاع فيزولون أمام حضارة تمنعهم جيلاً منهم الدنيا من ملأ متبها  
على الدوام .



١٢ - جماعة من السكول (عابدة) ( وادي ياس الأعلى )

وجميع تلك القبائل ( الآبور والمشمي والسنغفور ) المقيمة بضفاف برها بوترا  
والقبائلي ( النابغا والغارو والكهاسيا ) المقيمة بالجبال الواقعة على الضفة اليسرى من  
ذلك النهر ذاتُ مثال واحد تقريباً وهي فروع لعرق واحد .

ويصعب تعيين هذا العرق ، ويلوح لنا ، مع ذلك ، أنه أقرب إلى الفصيلة المغولية  
منه إلى الفصيلة الملايوية ، فما تراه فيه من ملامح الوجوه وانخفاض الأنوف وغِلَظ

الشَّغَاءُ وازرار<sup>(١)</sup> الميون واسوداد الشعور السندرية<sup>(٢)</sup> واللَّحَى الْمُعَرَّ<sup>(٣)</sup> يدل على قرباه من العرق الأصفر ، وما تراه فيه من الجلود السُّود يذكّرنا بالعرق الملايوى .

والحقُّ أن العنصر التبتى المغولى هو الغالب فيه ، ومن الطبيعى أن تجدّه بادياً فى جوار الثَّغَرَة الشماليّة الشرقيّة التى فاضت منها طوفانات العرق الأصفر إلى تلك البقاع فى عدة قرون ، وهذا إلى أنك تجدّ فى الأقسام الجبلية أناساً يشابهون مثال الشان فى بن ماني ، أى مثال الآسيويين الشرقيين المُخلَّص كالذين يسكنون سيام والهند الصينية فاحتمل أن يكون أولئك قد أتوا منهما .

ولجاعة السكّه آسيا الصغيرة المقيمة بمجانب جبال كهاسى ظاهرةٌ عجيبةٌ تجدّ منها فى الباسك الساكنين جبال البهيرة الأوربية ، وذلك أنهم يتكلمون بلغة لا يمكن ربطها بأية فصيلة من اللغات المعروفة ، فهذه اللغة ذات المقطع الواحد تبدو مُطَوَّقةً غريبة بين مختلف اللغات الهندية التى يسهل تصنيفها .

وأشدُّ الشعوب التى ذكرناها توحشاً هم الآبور والغارو ، فأما الآبور فإنهم يعيشون عُزَافَةً ، ولا يمنعمهم هذا من أن يُجَبِّوا الحِلْيَ وَيَزَيَّنُوا نساءهم بنطق وأطواق تَمِيلُ<sup>(٤)</sup> لأقلِّ حركةٍ ، ولا يعرف الآبور الزراعة ويأكلون القواكه واللحم ، وليس عندهم من السلاح غيرُ النِّبَالِ والرِّمَاحِ والسيوف ، ويدننون بأغلظ ضروب الوثنية ، ويُعَدُّون عنوان الأجيال الفطرية الأولى ، وأما الغارو ، وهم قومٌ جبليون ، فلا يزالون يُضَحُّون بالقرابين البشرية ، وتجدّ هؤلاء الوحوش ، مع ذلك ، بعض المزايا كالصدق مع الأصدقاء والأعداء والوفاء بالوعود وازدراء ما يَرَوْنَهُ فى البنغاليين ، المقيمين بالسهول

(١) ازرار : انحراف — (٢) السندرية : المشدودة — (٣) المعر : جمع أمر وهو التابل الشعر — (٤) سل المي : صوت .

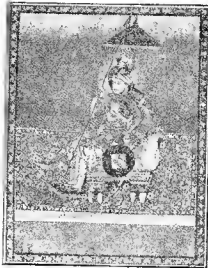
الواقعة تحتمهم ، من العَدْرُ وَالْخُتْرُ<sup>(١)</sup> وَالْخَنْثُ<sup>(٢)</sup> وَالْخَبْتُ ، وليس بعيداً الزمنُ الذى كانوا ينزلون فيه إلى تلك السهول ليقبضوا على بعض البنغاليين فيذبحهم حول ما يُكْرِمُونَهُ من جُثث الموتى ، واحترام الغارو للموتى يستوقف النظر كثيراً ، فالغارو ، إِذ يَرَوْنَ أَن حرق الجُثث هو ما يُكْرِمُ به الموتى وأن هذا الحرق يتعذر فى فصل الأمطار ، يحفظون جُثث موتاهم فى العسل فى أثناء ذلك الفصل إلى أن يحلَّ فصل الجفاف فيخْرِقوها فيه .

والناغا ، الذين يدلُّ اسمهم على « الأفاعى » ، يذكروننا بسادة الهند الجنوبية الأقدمين الوارد ذكرهم فى الزامينا بأنهم عُبَادُ الْأَفَاعَى ، ومن المحتمل أن كانت بينهم وبين قدماء الدراويد قُرْبَى ما بدَّوْا سُوداً ، ويبدون قوماً محاربين متمتعين بالاستقلال السكامل .

والسكهاسيا هم الشعب المتوحش الوحيد الذى يتَّصلُ بصلَة التجارة بالبلاد المجاورة ويزرع أراضيه الجبلية ويبلغ درجةً ضعيفة من الحضارة ، وقيم السكهاسيا بقرى كبيرة ويبدون ملاحاً صُلَاحاً ذوى أفراس وأنعامٍ مُحَكِّمة عند الشرقيين ، ويعملُ السكهاسيا عُشْبَةً تُحَمَّرُ أسنانهم ويعتذرون عن ذلك بـ « أن البنغاليين والسكلاب ذوو أسنان بيض » ، ومن أغرب عاداتهم أن يرموا ببيضاتٍ لئلا يكون لهم من انتشار صفارها الفسأل أو الطَّيْرَةُ<sup>(٣)</sup> ، وترى طرق قراهم مملوءة بقشور البيض ، ولا يأكل السكهاسيا ما ينتجه دجاجهم من البيض لما فى البيض من مصادره ثمينه لمعرفة الغيب .

(١) الختر : أبيض العدر - (٢) خنت الرجل يخنت خنتا : كان فيه لين وتكسر وتنف فسكان على صورة الرجال وأحوال النساء - (٣) الطيرة : ما يتشاءم به .

وتدين بالوثنية جميع القبائل الوحشية التي ذكرنا طبائعها وعاداتها ذكراً خاطفاً ،  
والنكاح عند هذه القبائل من أقل النظم حرمة ، والنساء حق السيطرة على  
الأمر وحق نقل الأموال وتحويلها وحق الاعتراف ببنوة الأبناء ولهن شأن كبير  
في الحكومة أحياناً .



١٣- نيمور لك ( كما جاء في مخطوط هدى قديم )  
( مكتبة فيرمان ديديو )

ولا يزال الغارو محافظين على بعض  
العادات القديمة التي سنفصلها حين  
البحث في بعض شعوب الهند ، ويقسم  
الغارو إلى قبائل صغيرة تدعى بالمهار  
أو الأمومات ، وكانت تمارس السلطة  
في كل واحدة من الأمومات امرأة  
فيما مضى فيمارسها اليوم رئيس  
( أشكر ) منتخب من بين أكثر  
من يملكون عبيداً ، على أن توافق  
النساء على نصبه ويستشيرهن في غير

مسألة ، والفتاة هي التي تختطب الفتى في المهار تبعاً للعادات القديمة ، وفي الغالب  
يعقّب رجال المهار الخطيب غضباً مصنوعاً ما كانت الزوجة القادمة مُلك المهار ،  
ولا يرث الابن في المهار إلا بعد عمته وأبناء عمته ، ويكثر الطلاق في المهار فيظل  
الأولاد فيها مُلصقين بأبهم ، ولا يعرف الأولاد أباهم في الغالب ، أو يعيشون قريبين  
منه مع عدّهم إياه أجنبيّاً .

ونلك العادات المنحطة ، التي ستزول بزوال العروق الطريفة الضعيفة التي تمارسها

والتي لا تزال باديةً في جبال آسام ، تتوارى وتَمُجى عند النزول إلى السهل حيث يكون القوم هندوسيين مختلفين ، مثلاً ولساناً وديناً وأخلاقاً ، عن البنغاليين الذين يمتزجون بهم شيئاً فشيئاً .

ونحن حين نربط أهالى بقاع آسام الدنيا بأهالى وادى الغنج نصف هؤلاء الأهالى فندخل الهند الحقيقية بهم .

### ٣ - سكان وادى الغنج

لا تجد في الخلاصة التى ذكرنا فيها مختلف عروق هِمَالِيَّة وآسام العليا ذكراً خاطفاً ما يمكن تسميته بالهندوسى ولو بوجه عام أو مبهم .



ونحن حين ندخل وادى الغنج نجد أنفسنا في صميم بلاد الهندوس أى بلاد الشعوب البرهمية التى يجرى فى عروقها دماء قدماء الدراويد ودماء تورانية ودماء آرية على نسب متفاوتة غير منتظمة .

والسهل الواسع الذى يَشُقُّه نهر الغنج وروافده هو من أكثر بقاع العالم خصباً وسكاناً، ففي هذا السهل تجد ١٤٠٠٠٠٠٠ شخص يُخْرِجون من ترابه بسهولة منابع أنعمهم ومعايشهم ، وليس في تضاعف هؤلاء الآدميين وتكاثرهم بما قد لا تراه

١٤ - الملك المنول أكبر (كاليا فى مخطوطات هندى قديم)  
( مكتبة فيرمان ديدو )

في بقعة من الدنيا ما يحمل تلك الأراضى العجيبة غير كافية لاحتياجاتهم .

والفائحون الذين تراحوا على الهند من شمال غربها ومن شمال شرقها انتشروا في تلك المنطقة المدهشة ، فُنُصِرَ في وادي الغَنج مختلف العناصر التي تَجِدُها في تركيب عروق شبه جزيرة الهند الكثيرة ، فنشاهد اختلاط هذه العناصر في وادي الغَنج أَسَدًا مما في آية بُقَّةٍ أخرى ، وهذه العناصر إذا كان من شأنها أن تُسَفِرَ عن مثال واحد أو قومية واحدة فإنك قد تجد هذا المثال في أرياف ضِفاف الغَنج ، ويتجلى هذا المثال في فَالَاح (شودري) بهار أو أَوْدَهة الذي انتقل إليه من أجداده قدماء الدراويد اسمرار جلده والذي انتقل إليه من غُزاة توران الأولين جَرَدٌ<sup>(١)</sup> وجهه العريض وأكثر ملاحظة ودقة أعضائه ، والذي انتقل إليه من الآريين زَهُوهُ وفخره ونَوْقُ ذهنه وخياله الديني والاجتماعي .

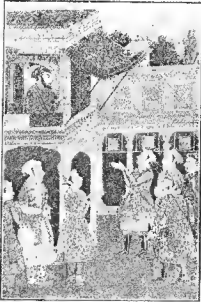
والحق أن العرق القاطن في وادي الغَنج مؤلف من ثلاثة عناصر أساسية ، والذي يمنع هذا العرق من أن يكون خالصاً هو اختلاط هذه العناصر فيه اختلاطاً غير مُدَسَّقٍ<sup>(٢)</sup> ، فإذا كان العنصر الآري سائداً للغرب في أَوْدَهة فإن العنصر الأصفر هو السائد للشرق في البنغال ، ونقع بين هاتين الولايتين ولاية بهار التي تختلف عنهما وضعاً ومنظراً وسكاناً ، وكلما صعدت من مصب الغَنج إلى منبعه وجسدت المثال الهندوسي يَشْرُفُ خَلْقاً وَخُلُقاً .

وأسوأ ما تتجلى تلك الاختلاطات في البنغالي ، فيبدو البنغالي صغيراً هزيلاً أَسَمَ الجلد قصير الأنف واسع الفم أسود الشعر أَمْعَرُ<sup>(٣)</sup> اللحية ، ويتصف بذلك كافٍ لخصم ما يُعَلِّمُهُ ، ويشتهر بالمداهنة والمداجاة والقثور والندالة .

(١) الجرد - نصر الشعر - (٢) غير مدسق : غير منتظم - (٣) الأعر : القليل الشعر .



وجلود أهل بهار سُمرُ ، ويقترَبون من المثل الأوربيّ بملاصحتهم ، ولا أثر فيهم مما في البنغاليين من الخلداع والدناءة .  
ويظهر أهل أودَهة شعباً راقياً ويحد المرء فيهم المثل الآريّ شائعاً ، إما يراه فيهم من استدارة الوجه المنير وانسجام الملامح وارتفاع القوام والاعتزاز بالنسب .



١٥ - الملك الفول شاعجهان يستقبل ( كما جاء في مخطوط همدى قديم ) ( مكتبة فيرمان ديدو )

الصعلوك السائل في أرباض<sup>(١)</sup> بنسارس يترفع عن الأكل من مائدة البرهمن في كل سكتة ، وترى هذا البرهمن يمدُّ من الأحلام أن يتزوج ابنته فلاح غليظ من ضفاف غوغرا .

ويتجلى تأثير الإسلام في وادي الغنّج على عكس التأثير الآريّ ، فهو يزيد

(١) الأرباض : جمع ربهض وهو ما حول المدينة من بيوت ومساكن .

من الغرب إلى الشرق ومن منبع هذا النهر إلى مصبه ، ويتألف من المسلمين عَشْرَ أهل أودَته وسُبع أهل بهار وثلث أهل البنغال ، بيد أن الهندوس الذين اعتنقوا الإسلام لم ينفصلوا عن إخوانهم من البراهمة بسبب إسلامهم ، فهم يفترون مثل هؤلاء إلى طوائف ، وتَجَمُّع أهمُّ الشعائر الدينية بين أتباع تينسك الديانتين في الغالب .

ونُبصر ، مما تقدم ، عناصرَ مقاربةٍ في وادي الفَنجج يُرَجَى صهر كلِّ منها في شعب متجانس يوماً ما ، إما بين أقصى مُثلها من حلقات متصل بعضها ببعض اتصالاً يكاد يكون غير محسوس ، فينما تَجِدُ في أقسام الهند الأخرى شعوباً مختلفة أشدَّ الاختلاف مع تجاورها تَرَى في وادي الفَنجج عناصرَ كثيرةً منسبكة تقريباً ، فترى البنغاليين يَمُدُّون أنفسهم فيه من جنس واحد ، وترى مثال طبقاته العليا واحداً مشابهاً لمثال الطبقات العليا في الهند الصينية ، وترى طبقاته الدنيا تبتعد عن العرق الأصفر وترتبط في العروق القطرية الأولى وفي قدماء الدراويد والكول .

قبائلُ وادي الفَنجج الأدنى للتوحشة : السانتال والمليخ الخ . — يوجد بين الشعب المتجانس الذي وصفناه آنفاً جماعاتٌ متفرقة من شِباه الوحوش ، ولا يَمُدُّ أكثر هؤلاء من سكان وادي الفَنجج تماماً من الناحية الإثنوغرافية والناحية الجغرافية ، وسندرس أمرهم حينما نبحث في شؤون إخوانهم من سكان الولايات الوسطى ، وما نقوله هنا هو في أمر بعض تلك الجماعات التي لا يجوز الإغضاء عنها الآن ما ظَلَّت من سكان وادي الفَنجج وما تكلمنا في هذا المطلب عن هؤلاء السكان .

والمجبأ الأخير للمعج الذين أقاموا بشبه جزيرة الهند فيما مضى هو ، كما ذكرنا ، جبالُ الهند الوسطى الواقعة في جنوبنهر ترَبدا ونهر سون والفاصلةُ بين الهند الشمالية

والدَّكَّن ، فأمام فَرَّ هذه المنطقة وقسوة منظرها وخطر جَوَّها تعهر النساءُ ،  
وتَهِيْطُ مُنْجَدِّراتِها الأولى العاصية غيرُ المَرْوَدَةِ<sup>(١)</sup> إلى ضفاف الفَنَج حيث ينحني  
هذا النهر العظيم لِيَتَوَجَّهَ إلى الجنوب ، وتُعَيِّنُ الضَّلعُ التي تُحَدِّدُ مجرى هذا النهر  
شواهُقُ راج محل المشرفة على الجبال الوسطى ، فهناك ، في وسط الهند المتمدنة بين  
بهار والبنغال ، نجد في حالٍ شِبْهٍ وحشية وشِبْهٍ طليقة المليير والسانتهال ، وهنالك ، نحو  
الجنوب ، في جوانب جهوتاناغور ، نجد في حالٍ شِبْهٍ وحشية وشبه طليقة الأوراون  
والمُنْذَا والسكول ، أى أكثر شعوب آسية فطرةً على ما يحتمل .

فلنُدع الآن جانباً أمر هذه القبائل العنصرية الثلاث الأخيرة التي سنتكلم عنها  
بعد قليل ولنذكر شيئاً عن السانتهال والمليير كما يأتي :

يقطن المليير أقسام جبال راج محل العليا ، ويُعرفون بالبهاريين أو الجبليين ،  
ويمكن عدُّهم من نَجْمٍ من سُود الدراويد ومن الأهالي الصُّفَر ، ولم يتسألوا بالآريين  
قط ، ويجهلون معنى الطائفة ، ويشابهون دراويد جنوب الهند كثيراً ويتصفون  
بأنسهم ودمائهم وصدقهم الذى هو مضرب الأمثال ، فن أقوالهم المفضلة : «البَيْنُ»<sup>(٢)</sup>  
ولا المَيْنُ<sup>(٣)</sup> .

ويسكن المليير أكواخاً كبيرة مصنوعة من سيقان الخيزُران المزينة بأقناب  
ومُوَثَّمة بمتاع ذى أفنان ، ويعبد المليير النجوم وقوى الطبيعة والملائكة الذين يقطنون ،  
على زعمهم ، في الأجواء ، ويبْنِي المليير بيتاً كبيراً عاملاً لشباب كل قرية حيث  
يمارسون ضروب الرياضة والبأس ويقومون في بعض الأحيان ، فلجأ الإنسكلز إلى

(١) راد الأرض برودة روداً ورياداً : تفقد ما فيها من المراعى والمياه ليرى هل تصلح للزول فيها

(٢) البين : الفرقة والعداوة والبغضاء ، وهو هنا بمعنى الموت - (٣) البين : الكذب .

الحيلة لقهر الملير أكثر مما إلى القوة فوجدوا أن النقود والوعود خير من السلاح في إخضاع الملير .

والساتهال أكثر من الملير عدداً وأعظم أهمية ، ويسكن الساتهال مُنَحَدَرَات الجبال والسفوح التي يقطن الملير في أعالي جبالها ، ولغة الساتهال طابع خاص ما بدت أم جميع اللغات السكوية ، والساتهال أشد الفطرين تأثراً بالعنصر الأصفر ، والساتهال نتيجة اختلاط الصُفْر بالسُود .

والساتهال خِفافِ لُطَافٍ مُكْرِمُونَ للأضياف ، فترى أمام أكواعهم الهيف « صُفَّة الغريب » حيث يجتهد المسافر حُسن القِرَى .

والأسرة الساتهالية متينة التركيب ، ويختار الأزواج عند الساتهال بعضهم بعضاً طَوْعاً على أن يكون الزوجان من عشرين مختلفتين ، ويقول الساتهال بمبدأ تعدد الزوجات في حالة عقم المرأة فقط ، ويندر الطلاق بينهم .

والساتهال يُسَكِّنُونَ احتراماً كبيراً لنسائهم فيَحْلُوْنَهُنَّ<sup>(١)</sup> ويُظَاهِرُونَ ما يروُقُهُنَّ ويتملقونهنَّ بالعناية بأنفسهم وتزيين أشخاصهم ، وديانة الساتهال وشعائهم بسيطة إلى الغاية ، فهم يعبدون الشمس والأجداد ، ورب الأسرة الساتهالية كاهنها ، ورب الأسرة هذا إذا ما احتَضِرَ عِلْمُ ابنه البكر ، وهو على فراش الموت ، الأدعية التي تَبْلِيَن بها الآلهة والطقوس التي تَجْلِبُ البركات من السماء .

والساتهال يُعْزِرُونَ موتاهم ، والساتهال يُحْفَظُونَ ، مع ذلك ، عِظاماً من موتاهم ليرموها في مياه نهر دَاوُدَر المقدسة ، والساتهال يُحَافِظُونَ على شرفهم

(١) حل المرأة : ألبسها أو اتخذ لها الحل .

وأعراضهم كثيراً ، فبعد ارتكاب المنكر أعظم جرم عندهم ، فن يقتطفه يعاقب هو وعشيرته بالطرد من حظيرة القوم .

والساتهال زراعٌ ماهرون ، وللساتيهال أذواق البدويين ، فإذا ما استنفدوا خِصْبَ أرضٍ تركوها وأخْبَوْا غيرها ، ولكن المدى الذى يقدرّون على التّيهان فيه يقلُّ شيئاً فشيئاً بسبب تكانثهم السريع وأطاول الإنكليز ، وما أصاب الساتيهال من زيادة بُؤسِ حياتهم ، منذ بضع سنين ، على المثل بين يدى حكومة كلكتة ظانّين أنها تتدبر أمرهم ، فلما وصلوا إلى مكان مناسب أطلق الرصاص عليهم إطلاقاً مُنظّماً ، واليوم يهجر ساتيهال كثيرون جبالهم ليبجّحوا عن عمل لهم فى السهل ، واليوم يَنزَحُ بعضهم من وطنهم إلى ما هو أبعد من السهل .

ومن الفطريين نرى الساتيهال والمليز وحدهم يعيشون أمةً فى وادى الفَنّج ، وفى وادى الفَنّج تحدُّ أهالى منشورين هنا وهناك يُعرفون بالـ ( قُلي ) فيُستخدَمون أجراً وعمالاً وموظفين صفاراً فى دواوين الحكومة .

ونذكر ، قبل أن نترك وادى الفَنّج ، أن جميع مدنه المهمة ، خلا كلكتة ، قائمة فى النصف الغربى منه ، وأن قسمه الشرقى المشتمل على البنغال هو أرض حرث وزرع وأن سكان هذا القسم مبعثرون فى أكواخ ظريفة مُحَجَّبة بالأشجار غير متجمعة فى مراكز كبيرة كالتى تُرى على ضفاف الفَنّج العليا .

#### ٤ — سكان البنجاب

يحتوى وادى السُّند ، الذى سندرس أمر سكانه ، على ثلاثة أقسام : البنجاب

في الشمال والسُّنْد في الجنوب وراجپوتانا في الشرق ، ويقطن في هذه الأقسام الثلاثة أم مختلفة .

والپنجاب الذي كان الطريقَ الكبيرَ لجميع ما عُرِّصَتْ له الهند من المغازي ذو سكان مختلطين غير مصهورين بدرجة انصهار سكان وادي الغنّج ، فتبدو فيه العناصر الآرية والتورانية والمسامة متخالفة ، ولا تجد فيه أثرًا للعنصر الدراويدي أو العنصر الأصلي ، والإسلام هو الدين الذي يسود پنجاب ، وللإسلام أثرٌ بليغٌ في براهما هندوس پنجاب الذين يظهرّون بإيمانهم الفاتر سبّةً لدى إخوانهم في بقية الهند .

وأصل سكان پنجاب تورانيّ ، وهو مؤلف من الجات على الخصوص ، فعلى هذا الأصل الواسع تَفَضَّلَتْ طبقةٌ آريةٌ تَعَدِّلُ نصفَه وأقليةٌ مسلمةٌ ضعيفةٌ .

ومن المحتمل أن كان الجات سادة البلاد حين الغزو الآريّ مع أن الجنرال كنتنهم يرى ، في كتابه « تخطيط آثار الهند » الذي يعد حُجّةً في الموضوع ، أن الجات من العنصر الهندي الشثي وأنهم أتوا الهند بعد الفتح الإسكندري ، فالذي لا ريب فيه أن هؤلاء التورانيين القطريين أو الهندو الشيشيين امتزجوا قليلاً بمن دحروهم إلى الجبال من الدراويد ومن خضعوا لهم مؤخراً من الآريين ، فنجم عن المصاهرات القليلة التي تَمَّتْ بين تلك العروق أمثلةٌ مختلفة بين الجات فترى فيهم أناساً شديدي الاسمرار وترى بينهم أناساً منيرين كالراجپوت .

ولنتقل ، قبل البحث في أمر الجات ذوى الشأن المهم في الهند ، بضعَ كلمات عن آريي پنجاب الذين كان لهم نفوذٌ بالغ وفوز لغوي واضح مع قلة عددهم .

من الطبيعي أن يكون المثال الآرى الخالص في شمال البنجاب الغربى حيث المنفذ لسمى بالباب الهندى الآرى ، ويتجلى هذا المثال فى الأفغان الايرانيين الذين يُعرفون باسم البتھان ، فيشابهون كثيراً أهل درستان وأهل كافرستان ، ويظهرون ذوى صلة بسكان وادى كشمير ، فهم ذوو لون صافٍ وأنوفٍ قُنُوٍ ووجوهٍ بَيَضِيَّةٍ وشعورٍ شُقرٍ أو حَمْرِيَّةٍ<sup>(١)</sup> وعيونٍ بُلُجٍ<sup>(٢)</sup> وما إلى ذلك من الأوصاف النادر وجودها مجتمعةً فى أناس من أهل الهند حيث الشعورُ السود والعيونُ الدُّكُنُ<sup>(٣)</sup> .

ويستقرّ بجانب جبال هِمَالِيَّةِ الأوان والفِسكر الذين أريدَ نَسَبُهُم إلى الإغريق ، فعلى ما فى هذا من شكٍ فإن الذى لا مرأى فيه هو أن أولئك من العرق الآرى الخالص ، وينتسب الدُّغرا وبعضُ القبائل الأخرى إلى العرق الفاتح أيضاً ، فإذا ما نَزَلَتْ إلى الجنوب وجدتْ أناساً كثيراً من الراجپوت ، ويقم معظم الراجپوت بالمنطقة المستطيلة المسماة بمنطقة الراجپوت ، وسنصف أمر الراجپوت فى مطلب آخر ، فلنَدْعُهُم الآن جانباً .

ويقطن فى قسم هِمَالِيَّةِ المُشرف على البنجاب وفى الأودية المنحدرة إلى البنجاب جماعاتٌ من التبت وصفناها فيما تقدم فنكتفى بالإلماع إليها هنا ، والآن نَصل إلى الجات الذين هم أهم شعوب البنجاب ووادى السُّند .

فعلى ما فى الجات من بعض المُثل المتباعدة التى هى وليدة امتزاجات نادرة نرى الجات يتصفون بالطول وتناسب الأعضاء وذكاء المنظر والاسمرار واتساع الأنوف

(١) الخرى : الأسود الضارب إلى الحمرة - (٢) بلج : جمع أبلج وهو المشرق الوسمى -

(٣) الدكن : جمع أدكن وهو المائل إلى السواد .

وارتفاع طرفها وَقَمَّاهَا<sup>(١)</sup> أحياناً وصَغَرَ العيون وأَفْقَيْسَتْها وتَوَّءَ الوَجَنَاتِ واسودادِ  
الشعور وكثافتِها ودَقَّةَ اللَّحْيِ وشُعُوثُها ، ونَرَى نِسْوَةَ الجاتِ يتصَفَّنَ بطولِ القدود  
مع حسنِ المنظرِ وبالْبَحْثَةِ مع الاِثْرَانِ الناشئِ عن ثَقَلِ الخلاخلِ ، وَيَلْبَسُ هؤلاءِ  
النسوةِ سراويلَ ذواتِ ثَنِيٍّ وَيَذَرْنَ بِدَثْرٍ أُنَيْقَةٍ تَشْتَمِلُ على رؤوسهن وأكتافهن  
وتحجب أحياناً وجوههن .

وَيُقَسِّمُ الجاتِ إلى ثلاثِ جماعاتٍ دينيةٍ : المسلمين المسيطرين على القسمِ الأدنى  
من وادى السَّنَدِ والسَّكِّ أو أنبأعِ نَأَنِكَ المقيمين بالپنجابِ وأنبأعِ البرهمية المستقرين  
بمِنطَقَةِ راجپوتانا والنسبيين إلى طائفة الويشية .

وبينما كان الجاتِ يملكون جميع الهند الغربية أغارت عليهم قبائل الآريين  
الحاربة فبادر الجاتِ إلى الخضوع ، على ما يحتمل ، فعاملهم الآريون الغالبون بِالْحَسَنَى  
فأحدثوا لهم طائفة جديدة عُرِفَتْ بطائفة الويشية التي لا تزال مشتملة ، بوجه عام ،  
على أبناء الطبقة الوسطى ولا سيما التجار مع حصر قدماء الأهلِ في طائفة الشودرا  
المنقرضة .

ولا ريب في أن ذلك كان نتيجة اتفاقٍ أو تراضٍ فاضٍ يجعل سلطان الآريين  
موقِ نوراني غرب الهند ، ولا تزال نَجِدُ لهذا الاتفاقِ أثرًا في بعض حَمَلَاتِ التَّوْجِيعِ  
حيث ينسَلِمُ الأمير الراجپوتى الصَّوَلْجَانِ من رعاياه الجاتِ .

وحدث في أواخر القرن الخامس عشر نوعٌ من الإصلاحِ الدينى فظهر مذهب  
السَّكِّ الذين عَدَّوا شعباً بعد أن كانوا جماعةً من الأشياع والمريردين ، وبيان الأمر :

(١) قَبَى الأنف بقى هنا : ارتفع وسط قمحه .



أَنْ تَبَيِّهَهُمْ نَأْنَكْ حَاولُ أَنْ يَجْمَعِ الْإِسْلَامُ وَالْهِنْدُوسِيَّةُ فِي دِينٍ وَاحِدٍ وَأَنْ  
يَصْهَرِ الْعُرُوقُ بِإِزَالَةِ مَا بَيْنَ الطُّوُافِ مِنَ الْفُرُوقِ وَبِإِعْلَانِهِ الْمَسَاوَاةَ بَيْنَ النَّاسِ ، فَصَارَ  
جَمِيعُ الَّذِينَ اعْتَنَقُوا تَعَالِيمَهُ مِنَ السَّكِّ أَوْ مِنْ «الْمُرِيدِينَ» ، وَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ كَانُوا مِنَ الْجَاتِ  
نَقْرِيًّا ، فَانْضَمَّ الْآرِيُّونَ إِلَيْهِمْ فَرَفَعُوا بِذَلِكَ مَسْتَوَى الْجَاتِ ، ثُمَّ أَضْحَى السَّكُّ شَعْبًا  
حَرِيًّا فَنَمَتَ أَجْسَامُهُمْ بِفَضْلِ تَمَارِينِهِمِ الْعَسْكَرِيَّةِ فَلَمْ يَلْبِثُوا أَنْ تَأَلَّفَ مِنْهُمْ عِرْقٌ  
بَاهِرٌ يَتَّصِفُ مِثَالَهُ بِالْبَاسِ وَالسَّكِّسِ وَنُبْلِ الْمَلَامِحِ وَقُوَّةِ الْبَيَانِ وَانْسِجَامِ الْقَامَةِ ،  
فَالْحَارِبُ السَّكِّيُّ هُوَ مِنْ أَمْثَلَةِ جَمَالِ النُّوعِ الْإِنْسَانِيِّ حَقًّا .

وَزَعِيمُهُمُ الثَّانِي غَوِندَسِنِغْ هُوَ الَّذِي حَبَّبَ إِلَيْهِمُ النِّظَامَ الْعَسْكَرِيَّ ، فَإِذَا كَانَ  
نَأْنَكْ قَدْ هَدَاهُمْ إِلَى مَعْتَقِدِ رُوحِيٍّ عَالٍ قَائِلٍ بِإِلَهٍ وَاحِدٍ فَإِنْ غَوِندَسِنِغْ مَنَّ عَلَيْهِمْ  
بِالْفُولَادِ رَمَزًا مَادِيًّا ، مَا صُنِّعَ مِنْ هَذَا الْمَعْدَنِ دُرُوعٌ مُسَرَّدَةٌ وَسِيُوفٌ مُهَنَّدَةٌ ، فَعَلَى  
السَّكِّيِّ الْحَارِبِ أَنْ يَحْمِلَ تِمِيمَةً مِنْ فُولَادٍ وَلَوْ نَزَعَ مِنْهُ سِلَاحَهُ .

وَكَانَ السَّكُّ يُعْطِيهِمْ زَعِيًّا مُنْتَخَبًا مِنْهُمْ ، وَكَانُوا يَجْتَمِعُونَ فِي مَجَالِسٍ شُعْبِيَّةٍ  
لِلتَّشَاوُرِ فِي الشُّؤْنِ الْمَهْمَةِ ، وَلَمْ يَلْبِثِ السَّكُّ أَنْ بَدَّوْا قَوْمًا أَوَّلَى بِأَسِّ شَدِيدٍ فَاضْطُرُّوا  
مُلُوكَ الْمَغُولِ وَالْإِنْكَلِيزِ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَى مِرَاعَاةِ جَوَانِبِهِمْ ، فَلَمَّا كَانَتْ أَوَائِلُ هَذَا الْقَرْنِ  
أَقَامَ السَّكُّ فِي الْبَنْجَابِ دَوْلَةً مَرْهُوبَةً فَعَامِلُ الْإِنْكَلِيزِ زَعِيَهُمْ مَلِكٌ لَاهُورَ الْمُسَمَّى  
رَنْجِيْتُ سِنِغْ مَعَامَلَةً لِّلْهِنْدِ ، وَأَجْلَسَ زَعِيَهُمْ هَذَا عَلَى عَرْشِ الْأَفْغَانِ مُلْكًا اخْتَارَهُ  
بِنَفْسِهِ ، وَالْيَوْمَ عَادَ السَّكُّ يَكُونُونَ ، كَمَا فِي الْمَاضِي ، طَائِفَةً دِينِيَّةً عَاصِمَتِهَا الرُّوحِيَّةُ  
مَدِينَةُ أَمْرِتْسَرِ الْمَهْمَةِ .

وَحُبُّ التَّعْلِيمِ نَامَ عِنْدَ السَّكِّ ، فَلَهُمْ جَمِيعَاتٌ عِلْمِيَّةٌ مَهْمَةٌ نَذَكَرَ مِنْهَا جَمْعِيَّةُ لَاهُورِ

الشملة على علماء فطاحل ، وما في السك من الروح العسكرية التي لم تَنبُ<sup>(١)</sup> أوارها<sup>(٢)</sup> جعل منهم ومن الغوركها أحسن الجنود في الجيش الإنكليزي ، ومن وَتَقُوا أنفسهم منهم على أمور الزراعة فأكثر الهنود صبراً وعملاً ، وتقع جميع أراضي وادى السند الصالحة للزراعة بأيديهم ، وفيهم يتجلى أرق زُمر الهند الزراعية .

ومن الجات أناسٌ كثيرون حَبَسُوا أنفسهم على التجارة فيأرسونها ببراعة ، ويُعرف هؤلاء التجار بالمُلتانيين ، نسبةً إلى مدينة مُلتان التجارية الواقعة بين البنجاب والسند ، وليس هؤلاء بمعروفين في الهند وحدها ، بل اشتهروا في جميع مدن آسية الوسطى حيث يسيحون للتجارة على مقياس واسع ولإذاعة أهم الأخبار وإشاعة أنباء الحرب .

وفي الهند ، في البنجاب كما في ضفاف الفُنج وفي الدَّكَن ، ترى الصَّيَاكِرة والمرابين والمالين من المارواريين ، أى من جات ماروار الواقعة في جنوب البنجاب والتي هي جزء من راجبوتانا ، وكلمة « الماروارى » في الهند مترادفةٌ هي وكلمة « اليهودى » في البلدان الأخرى ، فهؤلاء المرابون الذين يُدينون لآجال مختلفة يفتنون على حساب فقراء الهندوس المرهقين بضروب الضرائب ، فترى الناس يَحْشَوْنَ أولئك ويمقدون عليهم في كل مكان ، ولا أجِد ، لوصفهم ، أحسنَ من أن اقتطف بضع مجل من كتاب طريف دَبَّجَهُ حديثاً يَرَاغُ أحد هندوسى برودة السيد لمبارى عن أهالى كجرات ، ففى كجرات كما فى جميع أقسام الهند يظهر الماروارى بمظهر صاحب الأمر والنهى ، فإذا ما أُتْرِى تَزَوَّج وعاد إلى مسقط رأسه ليقضى فيه بقية حياته ، قال السيد لمبارى :

(١) خبا يخو خبوا : خد وسكن وطنى . - (٢) الأوار : الحر .

« لا يقوم الماروارى بعمل لا يُدرُّ عليه ربحاً مئة في المئة ، و يُحبُّ الماروارى الإذانة لآجال بعيدة ، والماروارى يُدين ويدين إلى أن يصبح المدين قبضته ، فإذا ما افلس هذا المدين حمّله على السرقة ، فبذلك يحطُّ الماروارى ضحاياه كما يُخرَّب بيوتهم ، وليس نصف عواهر بمبى إلا من أخوات هؤلاء الضحايا وأزواجهم اللاتي عرّفن الماروارى فاشترين منه بضعة أرطال من السكر لآجال فأسفر ذلك عن سقوطهنّ خلْقاً وخلْقاً ، والماروارى ، مع كونه من أتباع وشنو ، لا يحترم آلهته ، ويُفضّل ديناراً حاملاً صورة الملكة على أكثر هذه الآلهة حرمةً » .

ولا يتعاطى جميع الجسات الزراعة والتجارة والربابة ، فبعضُ الجسات ظلّ من شبه البرابرة البدويين ، ومن الممكن أن يُلصقَ بالجسات زُرّاع البنّجَاب وتجارهم المعروفون بينجار الهند الذين هم إخوان النور بأوربة كما يظهر ، ويزاول أولئك ما يزاوّل نورُ أوربة من المِهْن ، ويتصفّون مثلهم بالجمال الفطريّ ، ويتجولون من بلد إلى بلد ومن كوخ إلى كوخ وينزلون ، إذا ما حلّوا بمكان ، في عرّياتهم ، ويعرّضون للبيع صغير المتاع وبقنّون ويرقصون ويقصون الأفاصيص .

## ٥ — سكان الهند وراجپوتانا

إذا ما نزل المرء من البنجاب إلى مجرى السند بلّغ السند حيث يكثرُ الجسات والمسلمون والسكّ والجيئيّون ، ويتألف عنصر السكان الآخر الأساسى من البلوچيين الذين هم شعب جبلىّ مشابه للشعب المقيم ببلوچستان المجاورة للسند ، فالبلوچيون هؤلاء من المسلمين السنيين ومُقسّمون إلى عدّة قبائل ، فأحدى هذه القبائل تدعى بأنّها من العرب ويتجلى فيها المثال السامى ، وقبيلة أخرى منها لا يندُر وجود ذوى

شعور سُقُر فيها ، وقبيلةٌ ثالثةٌ منها تُعدُّ نتيجةَ تولّد أناس من البلوجيين والجات .  
وتتكلم الشعوب التي تسكن وادى السند ، على العموم ، بلغات من أصل سنسكريتي ، وأهمُّ هذه اللغات هي : البنجابية والسندية والماروارية ، فلا نجد فروقاً كبيرةً بينها .

وراجبوتانا هي القطر الواسع الممتد من السند إلى مداخل أغرا ومن جنوب البنجاب إلى ممالك مراتها الممتدة من برودة إلى غواليار ، وتشتمل صحراء نهار الكبرى على النصف الغربي من راجبوتانا حيث تفسد وتروح قبائلُ من شبهة الوحوش ، ويشقُّ النصف الشرقي من راجبوتانا عدّةُ مجار تنبسط بين أوديتها هضاب وتقوم عليها جبال ، وسلسلةُ آراولي هي أهمُّ هذه الجبال ، ومن جنوب سلسلة آراولي هذه ينفصل إلى الجنوب الغربي شاهقُ أبو الجليل .

وما في راجبوتانا من شذوذ أرض ، كالذي ذكرنا ، حال دون امتزاج عروقها مثلما وقع في وادى الغنّج ووادى السند المبسوطين ، فقد ظلت هذه العروق مختلفةً اختلاف الأودية والهضاب والجبال ، ففي ضفاف الأنهر تتجمّع أكواخ الجات التورانين والزراّع ، وعلى الهضاب تقوم صيّا<sup>(١)</sup> الراجبوت الآريين الحاربين ، وعلى المنحدرات العالية وفي الغابات الوعرة يدافع البهيل عن العادات القديمة والحريات الوحشية .

وأطلق اسم الراجبوت على القطر الذي كانوا سادته ، والراجبوت لا يزالون يَبْدُون فيه شعباً مهماً من الناحية العرقية ، والراجبوت منتشرون ، مع ذلك ، في شمال الهند خلصاً أو متوالدين هم وسواهم .

(١) الصيّا : جمع صيصة وهي الحصن وكل ما امتنع به .

والراجبوت وإن كان التاريخ غير مُصدَّق لما جاء في أساطيرهم حول قِدَم أصلهم، هم عنوان أجمل عروق الهند وأصنافها، فالراجبوت ذوو قدود هيفٍ عالية وجلود سُمرَ نَيَّرَة وعيون نُجَلٍ<sup>(١)</sup> شَهْل<sup>(٢)</sup> وأنوف قُنُو ومناشِق لطيفة ذات رَجٍ وشعور سود كثَّة متجمدة وإحى طويلة جثيلة<sup>(٣)</sup>، والراجبوت يُطلقون في الغالب شعورَ الوجنتين والعارضين بإفراط ثم يجمعونها في أعلى الرأس ليعقدوها هي وبقية الشعور، وتتصف نِسوة الراجبوت بالحسن الرائع على العموم.

وبين الراجبوت تجد أقدم طبقة للأشراف في العالم، فراجا أودى پور وحده هو الأمير الذى يمكنه أن يفتخر بأنه سليلُ أجدادٍ يملكون منذ أكثر من ألف سنة.

ونجهل تاريخ قداماء الراجبوت جهلنا لتاريخ ممالك الهند القديمة الأخرى، بيد أن ما ورد في أساطير الهندوس من مفاخر أبطالهم وفتاخم المراهوب للمسلمين وما عانَوْه من حصار محيف ولا سيما حصار جتور الذى حرق النساء في أنثائه أنفسهن بالألوف حَدَرَ الأسر والذى فَضَلَ الحِمَاة في أنثائه أن يُقْتَلُوا جميعهم على التسليم، يثبت قيمتهم الثالثة<sup>(٤)</sup>، وللراجبوت أن يَزْهُوا بشجاعتهم إزاء جموع الهندوس ذوى الجبن على العموم.

والمسلمون حينما استولوا على الهند وجدوا الراجبوت مقيمين بجميع مدن الشمال و بسهل الفَنَج إلى منطقة البنغال الحاضرة، فكان الراجبوت يملكون لاهور ودلى وقَنُوج وأجودها الخ. وكانت المنطقة التى يملكونها ممتدة في الشمال من نهر السَند

(١) النجل : جم أنجل وهو الواسع - (٢) شهل : جم أشهل وهو من يشوب سواد عينه زرقه - (٣) جنل الشعر يحنل جثالة فهو جثيل : كثُر ولثنت واسود - (٤) التاله : التديم وعكسه الطارف

ونهر ستّ لج إلى نهر جمّة بالقرب من أغرا وفي الجنوب إلى جبال وندھيا ، أى كانت  
شاملةً لجميع شمال الهند الغربى .



فلما دُحر الراجپوت من البقاع  
التخيمية التجأوا إلى منطقة راجپوتانا  
الحاضرة التى هى أمنع من تلك وأسهل  
منها دفاعاً .

وتقسم أملاكهم إلى تسع عشرة  
دولة يملك الراجپوت منها ستّ عشرة ،  
و يقوم بشؤونها رؤساؤهم ، ودُوَيْلَةُ  
أودى بدهى أمهاتها .

والراجپوت حاربوا المسلمين بنجاح ١٦ - مسلم من دلهى بصنع وشاحا

إلى القرن الرابع عشر ، وهم لم يصبحوا مهدّدين بحدّ إلا بعد أن خيبروا عاصمتهم جتور ،  
وهم لم يندجوا ، مع ذلك ، فى الدولة المغولية إلا فى عهد الملك أكبر ، ولم يكن هذا  
الاندماج ، مع ذلك ، إلا صورة ، لا حقيقة ، ما حافظوا على استقلالهم الناقص ،  
فالملك أكبر ترك لهم ، بالحقيقة ، نُظُمَهُم منمعاً على زعمائهم بمراتب عالية فى جيوشه  
متزوجاً ببنات منهم ، ثم سار خلفاؤه على سنّته فى ذلك .

ودستور دويلات الراجپوت القديم وحدّه هو الذى كسّيب له البقاء مع تقلبات  
السياسة فى غضون القرون ، وعادات الراجپوت وحدّها هى التى لم تتحول بالمؤثرات  
الأجنبية ، فنحن ، إذ نبحث فى هذا الدستور وهذه العادات فى فصل آخر ، نرسم

حضارة قسم كبير من الهند حوالى القرن العاشر من الميلاد ، فن العبت ، إذن ، أن نُفَصِّل هنا أمور ذلك الشعب الشامل للنظر .

وتشتمل منطقة راجپوتانا ، خلا أولئك الراجپوت والجات الذين تكلمنا عنهم آنفاً ، على شعوب من شباه الوحوش جديرة بالدرس كما يأتى :

شباه الوحوش من سكان راجپوتانا : البهيل والمينا ، الخ . - يُعَدُّ البهيل الذين يقيمون براجپوتانا وبالبنقا المجاورة لها من أقدم عروق الهند ، ومن البهيل نزع الثورانيون شمال غرب الهند فاقنسم هذان الشعبان وادى السند زمناً طويلاً ، ولم يكن دحر البهيل إلى الجبال إلا نتيجة الغزو الراجپوتى الآرى الذى وقع فى القرون الأولى من الميلاد ، كما يرى بعض المؤرخين ، ولم يُعْهَر البهيل إلا فى القرون الأخيرة من غير مقاومة مع ذلك ، والبهيلُ أَلْقَوْا الرعبَ ، عِدَّةَ قرون ، فى قلوب الراجپوت بانقضاضهم عليهم من ملاجئهم العالية ، ولا يزال ملوك الراجپوت يحافظون منذ القديم على مظاهر التولية من بهيلٍ كرمز احترام للبهيل الذين كانوا سادة البلاد الأقدمين ، وذلك بأن يَجْرَحَ البهيلُ الممجى إبهامه وأن يُكَلِّحَ بما يسيل من دمه جبينَ الأمير الجديد .

وعلى ما يدلُّ عليه هذا الرمز من اتفاق ذينك الشعبين يمتت البهيل الهندوس ، والبهيلُ يفتنهمون ، على الدوام ، فرصة محاربة الإنسكايز للراجپوت فيؤجَّهون إلى هؤلاء سلاحهم ، والبهيلُ عَرَضُوا فى سنة ١٨٥٧ ، حين اشتعلت ثورة السباهى ، خِدمتهم على الحكومة البريطانية .

وليس البهيل عرقاً خالصاً ، فن البهيل الذين يَتَرَجَّحُ عددهم بين مليونين وثلاثة ملايين لا تجد سوى مليون واحد ظلَّ صافياً تقريباً ، وترى البهيل يفتخرون

بصفاء عرقهم مع أن العكس هو الأجدر ما بدا البهيل الذين تجرى في شرايينهم دماء  
تورانية أنبل من خلصهم ، وهنا نلصق بالبهيل شعبين مقيمين براجبوتانا ، وهما :  
المينا والمهاير ، فنقول : إذا كان المنصر الأصلي غالباً في البهيل فإن المنصر التوراني  
مسارٍ للمنصر البهيلي في المهاير غالبٌ في المينا .

والمنطقة التي استقر بها البهيل بعد أن طُرد بعضهم من راجبوتانا هي منطقة  
جبلية كثيرة الغاب ممتدة من شمال جبال كهات الغربية إلى جنوب جبال آراولي  
ومن خليج كجي إلى الجزء الأوسط من وادي نرّبدا ووادي تايّتي ، وفي جبال وندهيا  
وسات پورا ، على الخصوص ، مأواهم ، وفي هذا المأوى بدّوا مستقلين إلى الآن ،  
وعديدٌ منهم كثيرٌ في جبال كجرات وفي وادي ماهي النهر الصغير الذي يسيل إلى  
خليج كجي .

والبهيل سُودٌ قَبَاحُ شُوءٍ فَطُسُ ذُوو عِيُون صَنِيرة زُؤُر<sup>(١)</sup> ووجنات نانئة قليلاً  
وقاماتٍ مَرِوعةٍ مع خفة وقوة ، والبهيلُ عُرَاةٌ وَلَا يَضَعُونَ سَوِي فُوطٍ حَوْل السِكَلِي  
وَمَرَسٍ حَوْل شعورهم السُّود المُنْسِ الطَّوِيلَةِ ، ويتألف سلاحهم الابتدائي البسيط من  
حِرَابٍ ومزاريقٍ ورماحٍ وأقواسٍ وسهامٍ يرمونها بمهارة فيقابلون بها حتى الأتمار ،  
ويعيشون من صيد البر والبحر وَيَسْمُونُ مجارى المياه بِرُبِّ الْيَتُوعِ فَيَدُوحُ السمك  
بذلك فيسهل إمساكه .

ويعرف البهيل النظام القبلي السياسي الفطري كما يعرفه الراجبوت وتقوم  
القبيلة من الوجهة النظرية على وجود جدٍّ واحد لجميع أفرادها ، ويندرُ ، حتى عند

(١) الزور : جمع أزور وهو المائل ، الناظر بمؤخر عينيه .



الآرين ، دخولُ بيضة<sup>(١)</sup> القبيلة ، ما لم تقض ضرورة الجوار أو ضرورة الدفاع بأن يدخل القبيلة غرباء بطريق الولاء ، وكلما سَهِّلَ أمر الولاء غدا النظامُ القبليَّ مَرَّةً متحولاً إلى النظام الشعبيُّ ، وأبواب القبيلة مفتوحةٌ عند البهيل بعض الفتح ، فإذا ما أتى تورانيٌّ أو راجيوتيٌّ من أهل السهل مُنْكَرًا فَأُطِّلَ<sup>(٢)</sup> دمه التجأ إلى البهيل في الجبال فتقبلوه بقبول حسن ، ما كان معنى كلمة البهيل « الأُطْلَّة »<sup>(٣)</sup> .

والزواج بين أفراد القبيلة الواحدة مُحَرَّمٌ عند البهيل ، وعلى الغريب الذي يؤدِّ الزواج أن يتبناه إحدى القبائل ، فإذا تَمَّ له ذلك سَهِّلَ عليه أن يتزوج فتاة من قبيلة أخرى ، والفتاة إذا ما سُبِتَ<sup>(٤)</sup> لم يُفْكَرَ المُسْتَبُون في تزويجها بأحدهم قبل أن تُعَدَّ واحدة من إحدى القبائل التي لا يجوز لها أن تتزوج بواحد منها ، فتلُ هذا اليسر المزوج باليسر ثبت في وقت واحد ميل البهيل إلى تكوين أنفسهم ، مثل جيرانهم الأكثر منهم تمدناً ، ودرجة عروقهم<sup>(٥)</sup> في البداوة الفطرية .

ونكاحُ البهيل يتم ببساطة ، فالعروسان يتواريان بضعة أيام في الغاب ثم يعودان فيمربان عن اقترانهما ، ويندرُ وقوع الطلاق عند البهيل .

ويُعرَفُ البهيل الذين يسكنون قرى محصنةً بالبال ، ويُعرَفُ ساكنو هذه القرى بالبالاري عند أهل السهل ، والبالاري ، فضلاً عن البهيل والمهاير والمينا ، ليسوا من الأنجاس عند الهندوس مع أنهم لا ينتسبون إلى طائفة .

ودينُ البهيل فِطْرِيٌّ فطرة أخلاقهم وعاداتهم ، فالبهيل يعبدون الشجر ويضعون في أسفله ألواحاً صغيرة لتكون هياكل تُخَضَّبُ بالدم أو بِمَقْرَةٍ<sup>(٦)</sup> رمزاً إلى الحياة ،

(١) بيضة القبيلة : ساحتها - (٢) أُطِّلَ دمه : أهدره - (٣) الأُطْلَّة : جمع طليل وهو الدم المهدور - (٤) سبي العدو يسبيهِ سبياً واستباه : أسر - (٥) عرق في الأرض برق عروقاً : ذهب فيها - (٦) المقرة : الطين الأحمر يصنع به

وَيُكِنُّ البَهِيلَ احْتِرَامًا عَظِيمًا لِلإِلَهِ القَرْدِ هَنُومَان ، وَهَذَا مَا يَسْتَوْفُفُ النَظَرَ مَا كَانَ ذَلِكَ القَرْدُ الوَهْمِيُّ رَافِقَ البَطَلِ الآرِيِّ رَامَا فَأَعَانَهُ عَلَى فَتْحِ الهِنْدِ وَنَزَعِيهَا مِنْ أَهْلِهَا الْأَصْلِيِّينَ .



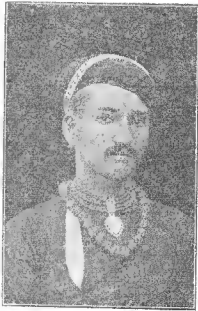
١٧ - جنود من الراجپوت

وَنَعُدُّ مِنْ سَكَاتِ رَاجِپُوتَانَا شِبَاهَ الْوَحُوشِ الْمَهَائِرِ وَالْمِينَا الَّذِينَ تَكَلَّمْنَا عَنْهُمْ آتَفًا ، فَهُؤُلَاءِ هُمُ الْخَلْقَتَانِ اللَّتَانِ يَتَّصِلُ بِهِمَا الْبَهِيلُ الْمُتَوْحِشُونَ بِالْجِلَاتِ الْمُتَمَدِّنِينَ ، وَيَقِيمُ الْمَهَائِرِ وَالْمِينَا بِجِبَالِ آرَاوَلِي الْوَاقِعَةِ فِي رَاجِپُوتَانَا ، وَيَبْلُغُ عَدَدُهُمْ مِثْلَ الْأُلُوفِ ، وَيُنْشِئُونَ ، كَالْبَهِيلِ ، قَرْىَ مُنِيعَةٍ ، وَيَحَافِظُ أَكْثَرَهُمْ عَلَى عَادَاتِهِمْ فِي النَّهْبِ وَالسَّابِ مَعَ خُتَالَةِ الْجِلَاتِ وَالرَّاجِپُوتِ فَيُؤَدِّي هَذَا الْاِخْتِلَاطُ إِلَى تَحْسِينِ مِثَالِهِمُ الَّذِي يَقْتَرِبُ عِنْدَ الْمِينَا مِنْ مِثَالِ الْجِلَاتِ .

وَيَسِيرُ الْمَهَائِرُ وَالْمِينَا إِلَى الْحَضَارَةِ قُدُمًا ، فَقَدْ أَخَذُوا يَحْرُثُونَ الْأَرْضَ وَيَعْتَنِقُونَ الْبَرَهْمِيَّةَ ، وَلَسْكَهُمْ لَا يَمَارِسُونَ شَعَائِرَ هَذِهِ الدِّيَانَةِ إِلَّا بِاعْتِدَالٍ ، قَرَامِهِمْ يُقَدِّسُونَ الشَّجَرَ وَالْهَيْكَلَ الْحَجَرِيَّ وَالْحَدِيدَ كَأَخْوَانِهِمُ الْبَهِيلِ ، وَهُمْ يَتَكَلَّمُونَ بِلُغَةِ هِنْدِيَّةٍ مَعَ أَنَّ بَهِيلَ الْوَسْطِ يَتَكَلَّمُونَ بِلُغَةٍ مُشَابِهَةٍ لِلْغُونْدِ .

## ٦ - سكان الكجرات وشبه جزيرة كاتهاوار

تمتد الكجرات إلى جنوب راجهوتانا وتشتمل على قسم من اليااسة غنى خصب  
حافل بالمدن الزاهرة كالمدن : برودة وسورت وأحمد آباد ، وعلى قسم ساحلى  
جبلى وعلى شبه جزيرة كاتهاوار التى يفصلها خليج كڤي عن ذلك القسم .



ويسكن الكجرات ، التى يُبَلِّغُها  
البحر ويقصدها التجار من جميع أنحاء  
الدنيا ، خليط من الآدميين ، ففى الكجرات  
تجد زمرًا من البراهمة المراتها والراجبوت  
والجات ، وتجد فيها الجڤينيين ، وتجد فيها  
أسامن السفينيين والشيعه والڤجوس والدرويد  
والكول .

ولا تزال الجبال الواقعة فى شبه جزيرة  
كاتهاوار ملجأ لشعوب متوحشة ، على  
حين ترى هندوسامن أتباع المذهب الجڤينى  
يسكنون مدنها وشواطئها ، وهذا المذهب

١٨ - بندا هندوسى من أودى پور  
المشابه للبدهيّة هو أكثر مذاهب الهند حبًا لإقامة المعابد للآلهة ، فتبصر شبه الجزيرة  
تلك حافلة ببناءج رائعة لقن البناء الهندوسى ، فتشاهد فوق جبل شتر ونڤيا الواقع  
فى القسم الجنوبى الشرقى مدينة مؤلفة من معابد للعبادة لا من منازل للإقامة ، فإذا  
قضى المؤمنون مناسكهم تحت قيادها الجبلية وبين أعمدتها المزينة بأنواع النقوش  
اللطيفة نزّلوا إلى مدينة پالى تانا الواقعة فى سفح ذلك الجبل المقدس .

وأكثرُ الناس في الكجرات من أتباع طريقة وشنوية ذات طقوس عجبية ، فتقوم هذه الطريقة على تقديس هؤلاء المؤمنين لثلاثين كاهناً كبيراً يُدْعَوْنَ بالمهاراجوات تقديساً مطلقاً مع قيامهم بأمور معاشهم ، فعلى الكاتب الهندوسى وناشر صحيفة « الإيندين سبكتر » السيد ملبارى أجيل القارى ليعلم طراز حياة هؤلاء الكهنة وسذاجة مريدتهم ، قال السيد ملبارى :

« إن المهاراجه هو الكاهن الذى يؤله ، أى الذى يتجسد فيه وشوكرشنا فيقف عليه كلُّ شنوى تقى جسمه وروحه ومملكه وأهله وتوابه .



١٩ - أناس من الينا ( قبيلة شبه متوحشة في راجبونانا )

« .. وإليك بعض ما يتجنيه المهاراجه من عبادة الأتقياء : خمس روبيات ( نحو عشرة فرنكات ) للتشرف برؤيته ، و ٢٠ روية لأمسه ، و ٣٥ روية لنسل

رجليته ، و ٦٠ روبية للجلوس بجانبه ، و ٥٠ — ٥٠٠ روبية للشواء بغرفته ، و ١٣ روبية ليتفضل فيضربه بسوطه ، ١٩ روبية لشربه من غُسلته أو غُسلته ثيابه القَدِرة و ١٠٠ — ٢٠٠ روبية من النساء اللاتي يَقْضِينَ معه روحَ اللذة .

وأبدى ذلك الكاتب الهندي حول « قضاء روح اللذة » تعجبه من إغضاء رجالٍ غِيَارَى ونساء مُحْصَنَاتٍ العيونَ عن أعزِّ المشاعر ، وأرى ، مع ذلك ، أنه ليس في الأمر ما لا يمكن إيضاحه مع وَقْفِهِ للنظر ، فقد ظلَّ الإيمان الديني أقوى العوامل في توجيه النفوس على الدوام ، فهذا الإيمان يُعَلِّمُ الإنسان أن يحتمل كلَّ شيء وأن يفتح كلَّ شيء ، وبالإيمان استقبل الشهداء ضاحكين لهب النار وبالإيمان أقام الفاتحون أعظم الدول .

---

## الفصل الثالث

### عُروق الهند الوسطى والهند الجنوبية

- (١) الرانها - أهمية الرانها في الهند - نظام بلديات الرانها السياسي -  
 (٢) صفات العروق الدراويدية العامة - انفصالهم عن عروق الهند الأخرى -  
 أهمية جماعة التول - (٣) سكان كوكن - (٤) سكان شواطي . لبار :  
 النابر الخ . - أهمية البحث في النابر لتمثيل بعض تطورات الأسر الأولى -  
 تعدد الأزواج وتعدد الزوجات - الأمومة عند النابر - شأن رب الأسرة  
 الضعيف - قدم تعدد الأزواج من الهند كورفي الهند - (٥) سكان تلغري -  
 هؤلاء عنوان مصاحل البشر الأولى - النودا والبداغا الخ . - (٦) سكان جنوب  
 الهندالوحوش - (٧) سكان الولايات الوسطى أوغوندوانا - عزلة غوندوانا  
 منذ القديم - غوندوانا منطقة ظلت منيعة في وجهه الفاتحين على الدوام -  
 الغوند - طبائعهم وعاداتهم ومعتقداتهم وقرايتهم البصرية - التنبؤ بالبلایا  
 والآفات - عبادة النمر والأنس - نظام الأسرة والنظام السياسي عند الغوند -  
 (٨) سكان أمرکن تلك وجهونا ناغيور وأوريسه الخ . - السكوندوالسكول  
 الخ . - عادات السكول - الخلاصة - تنوع عروق الهند وما بين هذه  
 العروق من عظيم الفروق .

لقد سیرنا في وصف العروق مع التقسيمات الجغرافية التي أوضحنأمرها في فصل  
 « البيئات » ، فذكرنا صفات شعوب الهندوستان الأساسية فاتهمنا إلى شعوب  
 اللآكن الواسع الشامل للمنطقة الممتدة من نهر نرّبدا ونهر سون إلى رأس  
 كمتارى .

وفي الدّكن سندرس قبل كلّ شيء أمر المراتها الذين نستطيع أن نصلهم  
وحدّهم بالغرّة رأساً ، ثم نبحت في العروق الدراويدية القديمة التي تختلف عن  
السكان الذين وصفناهم آنفاً ، ثم نختم الفصل بدرس أحوال الوحوش المقيمين بالجبال  
الوسطى والذين يُعرف أكثرهم بالكل ، فدرجة هؤلاء هي الدنيا بين عروق  
الهند ، وهم أقدم ممثلي الجنس البشري في تلك الديار .

## ١ - المراتها

يشقّ اسم المراتها من كلمة مهاراشترا التي تعني « المملكة الكبرى » ، فهذا  
الاسم والعرق الذي يدل عليه قديمان في الهند إلى الغاية ، فلا نستطيع أن نعيّن  
بالضبط حدود مهاراشترا القديمة ولا أصل الشعب الذي كان يسكنها ، ففي القرن  
السابع عشر فقط ظهر المراتها على مسرح التاريخ فمّلّوا دوراً مهماً ففتحو قمماً  
كبيراً من الهند فأقاموا دولة أهلية .

واليوم يتّجّع المراتها ، وعددهم نحو عشرة ملايين ، في شمال الدّكن الغربيّ  
بين جبال كّهات الغربية وجبال سات پورا وقيمون بالمنطقة الجبلية المحتوية على  
منايع نهر غوداؤري ونهر كرشنا وبحارهما العليا ، ويمتدّون منذ القديم الدّيانة  
البرهمية فيقسّمون إلى طوائف ، وهذه الطوائف دون سمّيّاتها في الشعوب الأخرى  
مرتبةً ، ولا يعدّ الهندوس المراتها في مجموعهم إلا من طائفة الشودرا ، وفي هذا دليل  
على أن المراتها أبناء عرقٍ غلب في غابر القرون وأذلّ ، ومثال المراتها تورانيّ من  
بعض الوجوه ، شأن الشعوب المتوالدة ، فالمراتها وسيطو القامات صُغر الجلود بارزو

الوَجَنَات قَلِيلًا صَغِيرُو الْعِيُون مرتفعو طرف الأنوف واسعو المناشِق ، وتتصف نسوتهم بالتماع جلودهنَّ وشعورهنَّ السود الطويلة السَكَنَّة .

ويؤلف المراتها جامعةً بلدياتٍ مستقلةٍ يدير شؤون كلِّ واحدةٍ منها رئيسٌ منتخبٌ يدعى بُتِيل ، ويتألف من نواب البلديات مجلسٌ وطنيٌّ يُسمَّى بُنْجَايَت ، وبلغ المراتها من الارتباط في نُظُمهم القديمة ما تحلَّ مَلِكُهم لقبَ بُتِيل بعد أن أقاموا مملكةً وما ظَلَّت السُلْطَةُ العُليا قبضةً ذلك المجلس الوطني .

ونذكر بجانب مراتها كَهَاتِ الغربية أولئك ممالكَ صراتها الهند الوسطى ، فلا يُقيم بهذه الممالك أناس من عرق أولئك في الحقيقة ، بل تملكهم ، فقط ، أَسْرٌ من أولئك لا تزال محافظةً على نفوذٍ قدام الفاتحين وسلطانهم ، وملككُ غواليبار هي أهمُّ هذه الممالك الممتدة مئات الكيلومترات بين نهر بُجَنَّة وجبال وندھيا في راجبوتانا وبُندِيل كَهَنْد وكجرات ، وينسب مَهَارَاجَة غواليبار إلى أَسْرَة سِنْدهيا الشهيرة التي استطاعت أن تقيم دولة زاهرة على أنقاض الدولة المغولية وأن تقاوم الغزو الإنكليزي يسالة وأن تحافظ على عرشها حين تَدَّاعَى العروش الأخرى في كل ناحية .

وأُسْرَة سِنْدهيا من أصلٍ وضع ، فهي سليلة رانا جى سِنْدهيا الذى كان سنة ١٧٢٥ يقوم في قصر يشوابونا بحمل الخِطَف فعظم أمره بالحيلة والدهاء ، ثم أضحى ولداً مادھوجى ودولت راو بَطَلَى استقلال الهند ، فقاما بمجهود جَبَّارَ لجمع كلمة أهل البلاد ضدَّ غَزَاة الإنكليز .

والأَفَاقُ شِواجى هو الذى أسَّس دولة المراتها وجعل من تلك البلديات الزراعية الصغيرة الجُهولة الأُسْرَة مَحَارِبَة مرهوبة في القرن السابع عشر ، والأَفَاقُ شِواجى



هذا هو الذى أَلَفَ عِصَابَاتِ ذَوَاتِ بِأَسٍ شَدِيدٍ فَسَارَتْ هَذِهِ الْعِصَابَاتُ مِنَ الدَّكَّانِ  
وَأَلَقَتْ الرُّغْبَ حَتَّى فِي الْمَدَنِ الْوَاقِعَةِ عَلَى مَصْبِ الْقَنْجِ وَهَدَمَتِ الدَّوْلَةَ الْغَوَلِيَّةَ ، وَلَا  
تَجِدُ الْيَوْمَ شَبَهَا بِهَا وَبَيْنَ حَفَدَتِهَا خِلَافَ رَاجَوَاتِ غَوَالِيَارٍ وَإِنْدُورِ الْمَحَافِظِينَ عَلَى بَعْضِ  
مَا كَانَ لِأَجْدَادِهِمْ مِنْ نَفُوذٍ .

## ٢ - صفات العروق الدراويدية العامة

يَبْدُو الدَّرَاوِيدُ ، الَّذِينَ نَبَحَثُ فِي أُمُورِهِمُ الْآنَ ، نَتِيجَةَ تَوَالِدِ سُكَّانِ الْهِنْدِ  
الْفَطْرِيِّينَ الْأَصْلِيِّينَ وَالْعِرَاقَةَ الصُّفْرَ الَّذِينَ أَتَوْا مِنْ شِمَالِ وَادِي بَرَهَاطُوتِ الشَّرْقِ ،  
ثُمَّ مِنْ تَوَالِدِ جَمِيعِ هَؤُلَاءِ وَالْعِرَاقَةَ التُّورَانِيِّينَ الَّذِينَ جَاءُوا مِنَ الشَّمَالِ الْغَرْبِيِّ ، وَتَقَسَّمَ  
الدَّرَاوِيدُ ، بِحَسَبِ النِّسْبَةِ الَّتِي تَغَلَّبَ بِهَا عُنْصُرُهُمُ الْأَسَاسِيُّ ، إِلَى فِرْعَيْنِ : الدَّرَاوِيدِ  
الْأَصْلِيِّينَ الَّذِينَ هُمْ نَتِيجَةُ التَّوَالِدِ الْأَوَّلِ وَالدَّرَاوِيدِ الْمُؤَلَّدِينَ الَّذِينَ هُمْ نَتِيجَةُ تَوَالِدِ  
أَوَّلِيكَ وَالتُّورَانِيِّينَ .

وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى الْقَطْرِ الْهِنْدِيِّ الْوَاقِعِ جَنُوبَ غُودَاوَرِي وَجَدْتَهُ دَرَاوِيدِيَّ الطَّابِعِ ،  
وَلَا يَزَالُ حَفَدَةُ الدَّرَاوِيدِ الْأَصْلِيِّينَ يُرَوَّنُ فِي الْمَنَاطِقِ الْجَبَلِيَّةِ الَّتِي التَّجَأَ إِلَيْهَا أَجْدَادُهُمْ  
بِالتَّدْرِيجِ فِرَاراً مِنْ تَأْثِيرِ الْمَغَازِي الْأَجْنَبِيَّةِ .

وَعَلَى مَا بَيْنَ الدَّرَاوِيدِ الْأَصْلِيِّينَ وَالدَّرَاوِيدِ الْمُؤَلَّدِينَ مِنْ تَفَافُوتٍ تُبْهِرُ فِيهِمْ  
كُلُّهُمْ صِفَاتٍ عَامَةٍ كَالسَّمَرِ جُلُودِهِمْ وَضَعْفُ شَعُورِهِمْ وَاسْوَدَادُهَا وَمَلَأْسَتُهَا وَضَخَامَةُ  
أَنْفِهِمْ وَاتِّسَاعُ مَنْشَقِهِمْ وَسُفُولُ قَامَتِهِمْ وَشَكْلُ جَوَاهِرِهِمُ الَّتِي هِيَ دُونَ الْمُسْتَطِيلَةِ ،  
وَتُبْهِيرُ فِيهِمْ عِبَادَاتٍ فُطْرِيَّةٍ وَاعْتِقَادَاتٍ خُرَافِيَّةٍ وَطَبَقَاتٍ طَائِفِيَّةٍ وَمَا إِلَى هَذِهِ مِنْ  
الْأُمُورِ الَّتِي عَرَفْنَاهَا قَبْلَ غَزْوِ الْآرِيِّينَ لِبِلَادِ الْهِنْدِ عَلَى مَا يَحْتَمَلُ ، وَلَمَّا قَاتَلْنَاهُمُ الْآرِيُّونَ

كان عندهم قليلٌ من التذن كما دلت عليه أقاصيص الرامينا ، فكانوا على علم بصناعة المعادن والخزف وإنشاء السفن وحَبْك النُجُج وفن الكتابة .

ولا علاقة للغاتهم بالسنسكريت ، وقد درسها علماء أوربة قبل اكتشاف السنسكريت ، ولتلك اللغات عدةٌ لهجات ، وتُقسَّم إلى أربعة فروع أساسية لكل واحدٍ منها نحو خاص وأدب خاصة ، وهذه الفروع الأربعة هي : فرع الكَنَرِي ويتكلمون به بالغرب في جبال كهات الغربية وكوكن وملبار ، وفرع المَلِيَّالَم ويتكلمون به في ساحل ملبار على الخصوص ، وفرع التيلغو ويتكلمون به بالشرق في وادي غوداؤري ووادي كَرِشنا ، وفرع التمول ويتكلمون به بالجنوب في ساحل كوروميندل ورأس كُمَارِي وقسم من جزيرة سيلان .

وتَجِد بين الدراويد الذين يقطنون في جنوب الهند من وادي غوداؤري إلى رأس كُمَارِي أناساً من المصنح مقيمين ، على العموم ، بالمناطق الوعرة التي دَحَرَتْهم المغازي المتتابة إليها ، فهؤلاء هم عنوان السكان الأصليين المُخلَّص أو الذين توالدوا هم والصُغُرُ قِليلاً .

فإذا طرحت هؤلاء جانباً رأيتَ في هَضْبَةِ الدَّكَرَن الواقعة في جنوب نهر غوداؤري طبقاتٍ كثيفةً من العرق الدراويدى يبلغ عدد أفرادها خمسين مليوناً . ولا يُقسَّم أولئك الدراويد إلا من ناحية اللغة مع بُعْدٍ من التجانس المطلق ، وجميعُ الدراويد يسايرون نقدم الحضارة منذ زمن طويل ويدينون بدين البراهمة ويَبْدُونَ من طائفة السودا ، والهمج ، على العكس ، بَعْدُهم الهندوس نُفَايَةَ البشر ومنبوذى الطوائف وطريدى العدل وأُطْلَلَةَ الدم .

والتمول المقيمون بشرق الهند الدراويدية وبوسطها أُمْدَنُ الدراويد ، وبين

التمول تقوم المدينتان مدراس و بون دى چيرى ، وفى مدراس تُطبع كتبُ التمول بلا انقطاع ، وما فى لغة التمول من الكلمات الكثيرة والتراكيب الوافرة يجعلها ذات آداب ، ويتكلم بهذه اللغة ١٥٠٠٠٠٠ شخص ، ويتمُّ لها الغلب على السكّانى والتيلغو الدراويدتين ، وللتمول كتبٌ وضعت منذ ألف سنة .



٢٠- ساجان هندو-بان فى جوار مدراس

وأمة التمول ذات نَجْدَة وشهامة وإقدام واستعداد للتقدم ، وعليها يتوقف مصير الهند الجنوبية على ما يحتمل .

ويعيش التيلغو فى ساحل كوروميندل سائرين إلى الجنوب ، والتيلغو دون التمول مدينةٌ ولهم ما لهؤلاء من العدد .

والماليم ، ويتكلمون بأحدى اللّهجات الدراويدية الأربع المذكورة آنفاً ، يسكنون ساحل ملبار ، والهندوسُ

الذين هم فريقٌ منهم هم ، على عكس التمول ، هاربون من التمدن ومتمسكون بعاداتهم القديمة .

وتقع كَرَ-ناتك أو «الأرض السوداء» فى وسط الدُكْن ، وتشتمل على مملكة ميسور وعلى جزء من مملكة نظام ، فى تلك المنطقة يتكلم الناس بلغة السكّانى التى هى ثلاثة اللغات الدراويدية الأدبية ، والوسط هو «البلد الأسود» الحقيقى حيث يتجمّع التراب الأسود المتفتت من الحجارة البركانية ، بفعل سيول الرياح الموسمية وفيضانات الأنهر ، والصالح لزراعة القطن .

ونحن ، بعد أن درسنا صفات شعوب الدراويد ، نبحت في الجماعات المتفرقة التي هي بقية الأهالي العطريين المخلّص كما قلنا .

### ٣- سكان كوكن

يُقصد بكلمة كوكن جميع الساحل الممتد من خليج كمبي إلى جنوب غوا حيث يبدأ ساحل ملبار ، ويُطلق اسم كوكن أحياناً على منطقتين : شمالية وجنوبية ، وإلى ذلك البلد المتوجّه إلى بحار الغرب وصل منذ زمن طويل تجار وأفاقون من أوروپة وآسية وإفريقية ، فكان ما نرى من اختلاط سكانه ، ولا تجد فيه جماعة ذات مثال جُمائي خاص يستحق الذكر ، وهذا إلى أنك تشاهد في جوانب جبال كهات بعض القبائل الوحشية التي تسكن الغاب فيتصف أفرادها بحقّة يَمْتَأُون<sup>(١)</sup> بها في الشجر كالقردة ، فينتفعون بها في استغلال النخل التي هي هناك مصدر ثروة فيكون لهم بها ما يأكلون وما يلبسون وما يسكنون بما يعصرون منها وما يمتطون وما يجثون<sup>(٢)</sup> وما يغزّون وما يخصّفون ، وإلى أصحاب الألبك<sup>(٣)</sup> أولئك حاول تيبو صاحب أن يدخل عادة لبس الثياب ذات يوم ، فوزّع عليهم بُرُوزاً<sup>(٤)</sup> فتأملوها مذعورين من غير أن يروا استعمالها ، فخرّ أحد زعمائهم باكياً ساجداً على قدمي ذلك السلطان وهو يقول : « مولاي ! دعنا نقتدي بآبائنا كما تقتدي بآبائك » .

ونساء التير يستترن ما تحمت الشرر ، ومن السبّة عندهن أن يخفين صدورهن ، فلم تستطع حواضن الإنسكيز اللاتي يتخذنهن مراضع أن يخمننهن على ترك العري كما عجز تيبو صاحب من قبلهن عن لباس أولئك الهمج من زراع النخيل ثياباً .

(١) نخل ينزل في الشجر علواً : صعد - (٢) اجنبي الثمر : تناوله من شجرته - (٣) الألبك : الشجر الكثير المنف ، الواحدة ألبكة - (٤) البروز : جمع بز وهو الثياب .

#### ٤ - سكان شواطئ ملبار (الناير، الخ .)

لشعوب الهند المختلفة نظمٌ وعاداتٌ تَنَمَّثلُ بها ما جاوزته الأمم المتعدنة من المراحل والأطوار قبل أن تصل إلى حالها الحاضرة ، فنحن ، حين نَجُوبُ شِبْهَ جزيرة الهند ، نُبْصِرُ جميع أدوار الحياة التي مرَّ أجدادنا منها .

والناير القاطنون في ساحل ملبار يزاولون بعض تلك النظم الفطرية التي عاد العرب لا يعرفها في غير الكتب ، فالْيَوْمَ يستطيع الباحث أن يبحث عند الناير في نظام الأُمومة كما كان في فجر التاريخ .

دأت المباحث الحديثة التي عرَّضناها في كتابنا « الإنسان والمجتمعات ومصدرها وتاريخهما » على أن نظام الأُمومة أولُ نظام ظهر بعد الدور الذي كانت تُعَدُّ فيه جميع نساء القبيلة وجميع أولادهن ملكَ جميع رجال القبيلة ، فنظام الأُمومة ذلك هو أصل الأسرة ، وما كانت الأسرة لتنشأ بغيره ، ونظام الأسرة ذلك يجعل الأمَ زعيمة أولادها ويمنحهم حقَّ وِراثة اسمها وأموالها فتحلَّت المصالح الفردية القوية بذلك محلَّ المصالح القبليَّة الضعيفة .

وفي أوائل القرن السابع عشر من الميلاد زار فرنسوا بيرار ساحل ملبار فوصف الناير بما يَقْرُب من حالهم في أيامنا فذكر أنهم قوم محاربون متقدم ذوو عادات تُذكِّرُ الإنسان بفرسان الدور الإقطاعي الأوربي في القرون الوسطى لِمَا وجدته فيهم من حُبِّ الفخر وشدة البأس والحرص على الاستقلال وخلق الكرم وحفظ الكرامة واحترام النساء .

وكان الناير في القرن السادس عشر من الميلاد أناساً أغنياء أقوياء يملكون مدناً مهمةً ، فقال ذلك السائح « يبدو زامورن (تمولى) في كالى كت من أعظم أمراء

الهند وأغناهم ، فهو يقدر أن يُجهز ١٥٠٠٠٠ جندي من النايير . ويُعدّ جميع ملوك النايير المقيمون بذلك الساحل من أتباعه فيطيمنونه خلا ملك كوجين .  
والناير من الفاحية الجُمانية عرق ذو مسحة من الجبال ، فهم ذوو قامات ناهضة وهيئات مليحة وأطراف لطيفة وجلود سُمر لامعة .

وتعني كلمة النايير « السادة » ، ولا عجب ، فالناير تتألف منهم طائفة أريستوقراطية مهيمنة على ساحل الملبار ، والناير ، وإن خضعوا ذات حين للبراهمة ، لم يلبثوا أن رفعوا نير هؤلاء عنهم ، ولم يتركوا لهم غير نفوذ روحى ، والبراهمة هؤلاء ليسوا من أصل آرى ، فلم يُعدّوا مساوين لبراهمة شمال الهند الآريين ، والناير أنفسهم ، وإن كانوا يزعمون أنهم من طبقة الأكشترية ، لا يراهم الهندوس إلا من طبقة الشودرا ، والناير يتسكّبون على الأهلين الذين يحيطون بهم ويتعاطفون على التير الخاضعين لهم مع أن جلود هؤلاء أصفى من جلودهم ، والناير يعتكئون للموبلا الذين هم عرب مسلمون مُحضّرمون ، والموبلا هؤلاء على جانب عظيم من الشجاعة مع ذلك ، فتراهم لا ينفكون ، فى الغالب ، عن مقاتلة سادتهم قتالاً لا هوادة فيه ولا رحمة .

وأكثر الأقوام الذين بلغوا شأواً فى التقدم جاوزوا نظام الأمومة الذى نراه فى النايير ، فلا تجد هذا النظام عند غير القليل من الأهلين كالكهاسيا القاطنين فى ولاية آسام فتكلمنا عنهم فى فصل آخر ، وكالناير الذين تتكلم عنهم فى هذا المطلب .

ولا تجد فى القبائل العريقة فى الفطرة أثراً للنسكاح ، فنسوة إحدى هذه القبائل ملكٌ جميع رجالها ، فإذا تطورت هذه القبيلة قليلاً أخذت بنظام

الامومة ، شأن النابر ، فَعَدَّتْ النسوة مُلْكَ قَليْلِ من الرجال وعُهِدَ إليهنَّ في إدارة الأسرة .

والزواج عند النابر قائم على مبدأ تعدد الأزواج من الذكور ، ومن المحتمل ألا يكون بدء المظاهر التي تسمِّيه أقدم من الزمن الذي صارت السيادة فيه إلى البراهمة .

أَجَلْ ، إن الزواج عند النابر قائم على مبدأ الاقتصاد على زوجة واحدة ، ولكن أَمَدَ هذا الزواج قصير فلا يزيد على بضعة أيام ، فالخطيب يجعل في عُقِّ الفتاة قِلَادَةً على ألا تنزعها منه ، ويدوم زواجها به ما قِيلَتْ هذه القِلَادَةُ وحافظت عليها ، فإذا مضت أيام سُرَّح مع جائزة فاسحاً في المجال لأزواج آخرين كثيرين .

وان تصبح الفتاة النابرية مُلْكَ القبيلة بأسرها كما هو أمر القبائل العريقة في الفطرة ، بل مُلْكَ عدد من أفرادها ، ولن يزيد عدد أزواج الفتاة عند النابر عن أحد عشر رجلاً ، والفتاة النابرية هي التي تختار أزواجها ليعملوا على دوام الأسرة ، والفتاة النابرية ، وهي تقيم مع إخوتها ، تَقْبِلُ أزواجها الكثيرين بالنَّوَبة على أثر اقترانها بخطيبها الأول ، والأزواج هؤلاء يَفْرَزُونَ خناجرهم في باب الزوجة ليُعْلَمَ حضورهم وليُذَكَّر ما لهم من حقوق المُتَمَّة ما ظَلَّوْا ذوى حُطْوَةٍ .

ومن الطبيعي ألا يُنسَب الأولاد الذين هم نتيجة تلك الاقترانات الموقته إلا إلى أمهاتهم وأن يُسمَّوْا بأسمائهن ما جُهِلَ آبائهم على العموم .

فالمرأة النابرية هي رَبَّة الأسرة الحقيقية ، وتمارس سلطان هذه الأسرة بمعونة ابنتها البكر ، ولا يعيش معها من الذكور إلا إخوتها وأولادها ، فما يُكِنُّهُ الأولاد

الذين تَفَشَّطَهُمْ أمهم وأخوالهم لأخوالهم هؤلاء من الحب يَمُدُّ الذي يُسَكِّنُهُ الأولاد لأبيهم في الأم الأخرى ، والأبناء إذ كانوا لا يتركون أخواتهم تقريباً ، فإنهم يَحْمِلُونَ لَهْنٌ من الوُدِّ ما لا يَحْمِلُونَ لزوجاتهم ما كان زواجهم بهؤلاء لا يدوم أكثر من أيام .

ويسهل إدراك المرء في تمثيل المرأة ، التي تُرَبِّي أولادها على ذلك الوجه فيريثونها ، دوراً أساسياً في الأسرة ، وفي تلك الأسرة يَلِي الأولادُ درجةً الخال والإخوة الذين يعيشون معها منذ عهد الطفولة ، ولا يكون للزوج غيرُ شأنٍ ضعيف ما فام عمله على السَّكَنِ الموقت مع الزوجة وصولاً إلى دوام الأسرة ، وليس المرأة من همٍّ سوى اختيار أقوى الرجال وأجملهم لنفسها ، والمرأة حتى مطلق في الاقتران بمن يروقونها ، على ألا يكونوا من طائفة أدنى من طائفتها حَذَر العار والفضيحة .

ومما لامرأة فيه أن يكون بين أولئك المَوْلَدِينَ أناس من البراهمة لما لهم من التقديس وقديم النفوذ ، فالبراهمة هؤلاء يَنْتَقِلُونَ من بيت إلى بيت حاملين بذوراً من الدم الغالي ما يرتفع به مستوى العرق الذي يقتنون به .

والرجال مثل حرية النساء عند النازي ، فلنا أن نقول إن النازي يمارسون نظام تعدد الزوجات ونظام تعدد الأزواج معاً ، وفقراؤهم ، فقط ، هم الذين يَحْمِلُونَ بنظام تعدد الأزواج من الذكور ، فترى كثيراً من الإخوة أو غيرهم يَتَفَقَّحُونَ على التمتع بالمرأة الواحدة ، وذلك إلى أن نظام تعدد الأزواج من الذكور شائع في عِدَّة مناطق من الهند ، ولا سيما في مناطق أقصى الشمال القريبة من التبت وفي أقصى الجنوب حيث



القبائل القريبة المجاورة لمدورا ، وكان لِلْمَلِكَةِ بِكَالِي كَت ، في غابر الأزمان ، عشرة أزواج مختارون من البراهمة خلا زوجها الْمَلِك .

ويظهر أن نظام تعدد الأزواج من الذكور ذلك ، وهو مما لا يلائم مبادئنا المصرية ، عريق في الْقِدَم ، فقد وَرَدَ في كتاب مهابرتنا أن الإخوة الخمسة المعروفين ياندوا تَزَوَّجُوا دروبدى الحسناء « ذات العينين اللتين هما كَالْسُدْر » .

وإذا مات أحد النابر وَرَثَهُ أولاد أخته الكبرى ، لا أولاده ، وينتقل إرث الأم من بنت إلى بنت ، كما كان حال السلطة الْمَلِكِيَّة في تراون كور ، والإخوة يستغلون أملاك الأم من غير أن يملكوا منها شيئاً .

ويلائم نظام الأمومة عند النابر مزاجهم النفسى وطرق معاشهم محافظوا عليه منذ قرون مع اتصالهم بالمسلمين والنصارى المقيمين بساحل ملبار منذ زمن طويل ، ولم يَسْطِعْ الفتح البرهمى أن يقضى عليه .

## ٥ — سكان نيل غيرى

يسكن طَوْد<sup>(١)</sup> نيل غيرى أقوام متوحشون مختلف بعضهم عن بعض بِسَخَنَاتِهِمْ ، وتتوصل بالبحث في طبائعهم وعاداتهم إلى تمثُل الحال في القرون الخالية ، ويُقَسَّم هؤلاء الأقوام إلى خمس قبائل مختلفة : التودا والبداغا والكوتا والكورومبا والإيرولا .

ويسكن التودا قِمَّة الطَّوْد ، وهم أسنى من جميع أولئك ، وهم معدودون من الرُّعَاة ويتكلمون بلغة كَرِّيَّة ، ويُفْتَرَضُ أن يكونوا قد جاءوا من كَنَرًا منذ ثمانية قرون ، ولا يزيد عددهم على ألف .

(١) الطَّوْد : الجبل العظيم ، الهضبة .

والبدانغاهم مهاجرون أتوا من ميسور حوالى القرن السادس عشر ، ولا يختلفون عن سكان السهل إلا بأنهم دون هؤلاء حضارة ، وهم أكثر سكان ذلك الطَّوْد عدداً فيبلغ عددهم نحو ٢٥٠٠٠ ، وهم قَوْمٌ زُرَّاعٌ ، ويتكلمون مثل أولئك بالكَنَرِيَّة . وتَجِدُ تحت ذينك القبيلين المعروفين الأصل الكوتا والكورومبا والإيرولا الذين لا يزيد عددهم على ٣٠٠٠ ، فهؤلاء هم ، لاريب ، من بقايا الأهالي الأصليين ، وإلى أجدادهم يُعزى صُنع الأنصاب المشابهة لأنصابنا القديمة ، ويتكلمون بِلَهْجَات دراويدية قريبة من لهجات سكان السهل المتصلين بهم ، والكوتا عنوان العنصر الصناعى فى الطَّوْد ، ويُمَثِّل الإيرولا الذين يقيمون بالغاب فى أسفل الطَّوْد أدنى مُثُل النوع البشرى .



٢١-تودى (نل غيرى) (استميرت هذه الصورة والصورتان التاليتان من مجموعة بركس)

والآن نبحث فى سَحَنَات هؤلاء الأقوام الذين أشرنا إلى أصولهم وفى طبائعهم وعاداتهم .

التودا . - التوداهم ، كما ذكرنا ، أَسَنَى سكان نِل غيرى ، وهم يتصفون بطول قاماتهم وكثافة شعورهم السُّود وكثانة إِيحاهم الجَمْدَة وغلظ شفاههم ، واستقامة أنوفهم على العموم ، وقنأها فى الغالب ، ورشاقة حُطَاهم ، ولا نستطيع أن نلصقهم بالهَمِج لدَعَمهم وطلافة وجوههم ومرَحهم ولطفهم وسلامة سرائرهم وعاداتهم السلمية

وحسن الذوق في ملابسهم وصفاء سَخَنَاتِهِمْ ، وتَعُدُّهُمْ عنوان المَهْجَى المَثَالِي ، وإن شئت فقل عنوان إنسان الطبيعة الذي رَاقَ وصفُهُ روسو ومن على مذهبه في القرن الثامن عشر .

وتجى كلمة تودا بمعنى الرُّعَاة ، ولا يُعْنَى التودا بغير رعاية مواشيهم ، وما في نيل غيرى من المراعى الصالحة يُقَيِّت أطيب القِطَاع ، والألبانُ أَهَمُّ ما يتغذى به التودا ، وبلغ احترام التودا للأُنعَام درجة العبادة ، والبقرة عند التودا هى الحيوان المقدس كما هو أمر البداغا ، والزَّرِيَّة هى كنيسة التودا ، ويُدْعَى كاهنهم بِاللَّيْلَال أو اللَّيَّان الأكبر ، ويرى التودا أن حِلَّاب البقر وصُنْع الزُّبْد والجُبْن من أقدس الأعمال الدالَّة على جلال خُلُق من يتعاطاها ، ويعتقد التودا أن الإلهة العليا هى بقرة مشهورة النَّسَب ، والحَبْرُ الأعظم لدى التودا هو أقدَر الرُّعَاة فى فنِّ تربية الحيوانات والعناية بها .

والبقرة ، وهى حيوان التودا المقدس ، تشترك فى جميع طقوسهم وترأس جميع حوادثهم المهمة ، فإذا وُلِدَ تودى جُول فى حِرْزِ القِطَاع ، وإذا مات تودى غُرِض أمام جُشَّتِهِ بقر عشيرته وذُبِحَت اثنتان منها لَتَقْدِيَمَاه فى ملكوت الأرواح ، ويحمل عجلُ اسمه بِسَاوَا خَطَايَا التودا فى بعض أيام السنة فيُطْرَد بالعِصَى إلى الغاب فيكون لهؤلاء القوم بذلك تَرْكِيةٌ وتطهير ، وفى هذه العادة من المشابهة لأمر تَيْسِ العبريين ما لا يخفى على المتأمل .

ويعبد التودا أرواح الأموات ، خلا عبادتهم للبقر ، شأن الشعوب الفطرية ، فإذا قُصِّص<sup>(١)</sup> أحدهم خِيلَ إليهم أن روحه تعود عَطَشَى الانتقام حائمة حول ما قُتِلَ به من

---

(١) قصه : قتله مكانه ، أجهز عليه .

السلاح فيكون هذا السلاح المضرّج محلّ احترام لديهم فيحفظونه بين ذخائرهم ومساخيرهم وآنية زُبدهم وقوالب جُبُهم .

ومن خرافات أهل نلِ غبرى الطريفة أن يَرَوْا بين الكورومبا ، أصحاب الأدغال الغلاظ التعمودين الأبخرة الويشة والمالكين فى الأمكنة العذبة<sup>(١)</sup> ، سَحَرَةَ ذوى قُوَّةٍ لاحدّ لها ، فإذا أصابت مصيبة أسرة تودية أو إذا اجتاحت وباء سواثم بداعا استدعوا ، على عجل ، كورومباوياً وابتهلوا إليه أن يَقيف الشرّ الذى أحْدثه ، فَلَبي ضَرَاعَتهم وأخذ يُكْثِرُ من الحركات والالتواء ، ثم ارتقى على الأرض زاعقاً صارخاً .

ويتقرم النودا الشجر ، أيضاً ، احتراماً دينياً ، وبيان الأمر : أن نكاحهم ، وهو فطرى ، لا يكون شرعياً إلّا إذا بلغ حَمْلُ الفتاة ، من غير عائق ، الشهر السابع للمرة الأولى ، فيذهب الزوجان ، إذ ذاك ، إلى الغابة كي يَقبِضَا ليلةً تحت شجرة جميلة من أشجارها جاعلين إياها حامية للطفل القادم ، فإذا وُلِدَ هذا الطفل أخذ أبوه وَزَقاً منها وثكاه على شكل قَدَحٍ وصبّ فيه ماء قليلاً ثم بَلَمَّتْ شِفَاهُ الأبوين والطفل به فتمّ بهذا تأليف الأسرة حقاً .

وتَسْبِقُ بعض المظاهر النكاح مع ذلك ، فعند ما يختار الفتى فتاة من عشيرته يُؤَدَّى إلى حَيِّهِ القادم نقوداً ، فيضع حَمُوهُ هذا رجله على رأسه ويَعُدُّهُ ابناً له ، ثم يُؤْتَى بالخطيبة إلى بيتها الجديد لابسةً ثياباً فاخرة على صوت الأغاني ، فتسجد أمام زوجها فيضع هو والأقارب أرجلهم على رأسها ، ثم تُرْسَلُ لتبحث عن جَرَّةٍ ماء فإذا فعلت هذا الأمر اليسير قامت بشؤون المنزل خادمةً .

(١) عذا السكان يمدو غدواً : طاب ، كان بعيداً من الماء والوخم .

والنكاح الذى يقع على ذلك الوجه يَدْخُلُ دور التجربة ، ولا يُعترف به إلا فى الشهر السابع من الحَبَلِ الأول حين تَمِيسُ<sup>(١)</sup> الفتاة فى وليمة فاخرة عارضةً أمام الجميع تَغْيِيرُ قَدِّهَا فَيُزِي بِطِ زَوْجِهَا بِعَنْقِهَا شَرِيطاً يُدْعَى بِتَالِي النَايِرِ .



٢٢ - كوناوى ( نل غبرى )

والتودا من القائلين بتعدد الزوجات وتعدد الأزواج معاً ، وذلك بأن يتزوج رَهْطٌ من الإخوة رَهْطاً من الأخوات ، فيكون لكل زوجة أزواج إخوة ويكون لكل زوج زوجات أخوات ، فالقوى يكون بذلك قد تَزَوَّجَ مع زوجته أخوات زوجته كلما بَلَغْنَ مَكْتَفِياً بما تعهد بدفعه إلى كُبراهن من المال ، ويكون لإخوته حق مشاركته فى زوجته

الأخوات على أن يدفعوا نصيباً مما اتفق على تأديته .

والانتحار بسبب الحب ليس من النادر ، على ما يظهر ، عند أولئك الأقوام الفطريين ، ولا سيما عند البداغا ، مع ما فى نكاحهم وطلاقهم من يُسْرِ ، أقولُ هذا وأنا أرى ضرورة وضعه على مَحَكِّ النقد .

والأولاد يُوزَّعون بحسب العمر على أزواج أمهم ، فأكبرهم يكون من نصيب

(١) ماس يميس ميساً : مسمى وهو يتمايل ويتختر .

الزوج الرسمي ، ويكون الولد الثاني من نصيب عمه الأكبر ، ويكون الولد الثالث من نصيب عمه الثاني ، وهكذا .

وتنزع هذه العادات القبطية إلى الأفول عند التودا ، فالنقى منهم يشتري نفسه زوجة ، فأضحى أمر تعدد الأزواج من الذكور مقصوراً على طبقاتهم الدنيا .

والأولاد عند وفاة والدهم يقتسمون تركته بالتساوى مع احتفاظ أصغرهم ببيت أبيه على أن يسكن فيه نساء الأسرة ويعملهن .



ولا يعرف التودا من مبدأ التملك غير ما يحتفظ به المرء لنفسه من بيت ومتاع ، فالأراضي عندهم مشاعة ، وهم لا يزرعونها ، بل تكون سراعى لمواشيهم ما عارض التودى عن الفلاحة . ولا يعرف التودا من أمور الصيد شيئاً ، ولا يحملون سلاحاً لذلك ، ولا يفسكون في الهجوم ولا في الدفاع ، ويكتفون بصنع أبواب كواخهم واطنة جداً درءاً لما قد يمرضون له من الغزو .

٢٣ - رعب من الإيرولا ( نل غبرى )

والتودا ، كالبدانا ، يسكنون القرى ، مع أن الكوتا والكورومبا يقيمون بخصاص<sup>(١)</sup> حقيرة ، ويقطن الإيرولا في الكنس<sup>(٢)</sup> والأججار<sup>(٣)</sup> وتحت الأشجار كالأيائل والظباء .

(١) الخصاص : جمع الحص وهو البيت من قصب أو ما إليه - (٢) الكنس : جمع الكناس وهو بيت الظبي - (٣) الأججار : جمع الجعر وهو المسكان الذى تحفره السباع والهوماء لأنفسها

البداغا . - لا تَجِدُ في البداغا ما تَجِدُه في التودا من حسن المنظر والأخلاق والسياسة والثبيل ، فالبداغا أقصرُ قامةً من التودا وأشدُّ سوادَ جلودٍ منهم ، والبداغا ذوو شعور قليلة ولحى مِعْرَة<sup>(١)</sup> وأنوف مُمْلَطَحَة<sup>(٢)</sup> وشفاة غليظة ، ويتصف البداغا بالمرَاوغة والقسوة والشحّ وتعاطى الأفيون ، ويبدون أكثر الشعوب الخمسة التي تسكن نل غبرى عدداً ، ويقومون بزراعة تلك المنطقة الغنية من غير أن يمنهم ذلك من أن يكونوا رُعاةً ، وللبداغا عقائدُ مشابهة لعقائد التودا ، ويرتبطون في مجموع عباداتهم في دين البراهمة مع ذلك ، ويُقدّس البداغا لنفاً ويعبدون شيوا في صورة ثور ، وفي نكاح البداغا ما في نكاح التودا من يُسرِ العمد وفيه ما في نكاح هؤلاء من التعقيد في عدد الزوجات والأزواج ، ويتماثل ذاك الشعبان في الطقوس تقريباً ، ويختلفان ، مع ذلك ، فيما يُدْخِلان إليها ، في الغالب ، من مظاهر السرور والألم ، ويُسَوَّبُ بهاتئهما شقيقٌ وزفير ويتخلل رقصهما نِياحةٌ وتَحْيٍ ، ويقومون بمجنازهم مع سُكْرٍ وعَرَبْدَة .

الكورومبا والكوتا والإيرولا . - تختلف هذه القبائل الثلاث عن القبائل المذكورة آنفاً من الناحية الإثنولوجية ، وتمثل بها قدماء السكان الأصليين ، وتنصف بالضعف وبسواد الجلود وازٍ بَرَار<sup>(٣)</sup> اللّحى وخشونتها وصَوَفِ الشعور وِزْمِها وِغَلْظِ الشّفاة واستواء الصدر وطول الذُرْعان وقصر السِّيقان ، ووَجَدَ بعض السياح شَبَهاً عظيماً بين هذه القبائل وسكان أستراليا الأصليين .

ويسكن الكورومبا أكواخاً كبيرة في سفح الطّود ، حيث يجتمع عدّة أُسر ، ويخاف البداغا والتودا من الكورومبا المساكين ويزدرونهم في وقت واحد ، وقد

(١) اللحى : القابل الشعر - (٢) قاطع اللّحى : بسطه وعرضه - (٣) ازبَار : انتفش .

يُغْمَى على نسوة البداغا والتودا دُغراً عند ما يُبَاغِتُهُنَّ أناس من الكورومبا ، ويُعَدُّ الكورومبا من السَّحَرَةِ لِمَا فِي جِيرَانِهِمْ من السِّدَاجَةِ وسرعة التصديق فيوسَعُونَ ضَرْباً أَكْثَرَ من أن يَنَالُوا نَسَباً<sup>(١)</sup> .

ويزاول الكورومبا مِهْناً كَثِيرةً قَلِيلَةً الإنتاج كالعرفافة والسَّحَر والغناء مع الطَّوَّاف ، وَيَمْدَح أهل السهل الكورومبا أَجْراء ، ويعرف الكورومبا شيئاً من الفِلاحة وَيُثِيرُونَ الأرض بِعَصَى مُدْرَبَةٍ<sup>(٢)</sup> .

وليس الكوتا بأرقى من الكورومبا كثيراً ، ويعيشون مثلهم عيشَ بُؤْس ، ويعرفون عِدَّةً مِهَن ، وتتألف منهم طبقة العمال بين أهالي الجبل ، ولا يفتنى الكوتا بسبب اتِّسَاع حِرْفِهِمْ ، وَيَتَصَوَّرُونَ جوعاً على الدوام ، فلا يشبعون إلّا في رأس كلِّ سنة فيخاطبون ما استطاعوا جمعه من القُوت فيلتممون في ثمانٍ وأربعين ساعة ما تحتمله مَعَدَمُ مَتْن .

ويجئ الأيرولا في أدنى تلك الدرجات ، ويعيشون في آجام نلٍ غيرى ويتصفون بحلودهم السُّود وأذرعهم الطويلة وسُوْقِهِم النحيلة وشعورهم الخشنة المُنْتَمِشَة وظهورهم الخلدية ، وَيَتَنَفَّسُونَ من هواءِ مَنطَقَةِ تَرَانِي الوخيم النَّحِيس الذي مَرَنُوهُ<sup>(٣)</sup> فأصبح ضرورياً طليباً لديهم ، فإذا ما غادروا ملاجئهم العَفْنَةَ حيناً وتَنَشَّقُوا نِسَامَ<sup>(٤)</sup> النلال والسهول الصافية وهَنُوا ومانوا .

والمتموَحِّشُونَ الحيطون بالايرولا يزدرونهم زاعمين أنهم يعيشون مع الأنمار وأن أولادهم يَشْبُون في حَيْضَ بَيْضَ بين صغار السباع .

(١) النَسَبُ : المال — (٢) مَذْرَبَةٌ : ذات حد — (٣) مَرَنَ الشَّيْءُ : اعتاده ودأومه —

(٤) نِسَامٌ : جَم نَسِم .



وللايرولا فضيلة واحدة ، وهى سلامة الطَّوَيَّة ، فمن المحتمل أنهم لم يبلغوا من  
الذكاء ما يقدرّون به على الكذب ، فما يقولونه من كلام مجرد أصدق مما يقوله  
البراهمة مع التّمين المؤكدة .



٢٤ - أمثلة من أهل السجرات

وصناعة الخيزران هى كل ما يعرفه الايرولا من المهن ، ويتألف غذاؤهم ،  
على الخصوص ، من الجذور والفواكه والحبوب البرية .

## ٦ - سكان جنوب الهند الحوش

تشتمل جبال أنامالا القائمة في جنوب جبال نل غیری على قبائل وحشية مماثلة لتلك مع استثناء التودا كما ذكرنا آنفاً .

والكادرهم سكان جبال أنامالا الذين يمارسون الصيد ، ويزعم الكادر أنهم أسراء الجبال ، ويزعمون من السببة أن يزرعوا الأراضي ، وترك أمر الزراعة إلى المسار ، ويقوم الباليار بالرعي والتجارة ، ويزعم الباليار هؤلاء شعورهم السكتينة النافرة فتصل إلى كلام فيكتسبون بذلك منظرًا وحشيًا ، ويرى علماء وصف الإنسان إلصاق هذه العروق بزئوج جزائر الملايو .

ولا تزال توجد جماعات وحشية من سلالة قدماء الدراويد في جنوب الهند ، فهي تشابه الشعوب التي وصفناها فيما تقدم بمنظرها وعاداتها وأعمالها وديانتها الوثنية وعبادة الأرواح ، وإليك قولاً موجزاً عن هذه الجماعات .

الچنار ، ويقومون بأقصى جنوب الهند ويجنوب تراون كور ورأس كماري ، ويبلغ عددهم ٥٠٠٠٠٠ ، ويدين من هؤلاء مئة ألف فقط بالنصرانية ، ويبعد الباقون أرواح الأموات ، ويرى الناظر إلى مداخل قرام أهراماً صغيرة يصمون عليها ندوراً من فواكه وحبوب وأزهار لتجلب إليهم حماية الملائكة ، ويتعاطى الجنار زراعة النخيل وحدها ، وتقوم النخيل بجميع احتياجاتهم على ما في استغلالها من عسري وأنصب ، ويتكلم الجنار بلغة التمول كجيرانهم الايلاوا الذين لا يختلفون عنهم في شيء .

الكانيكهار، ويسكنون أعالي جبال أليغرى التى تمتد إلى الجنوب طَوْدَ  
أناتولا، ويُدْسُون مساكينهم الخفيفة بين أغصان الأشجار حفظاً لهم من الضواري،  
ويجهلون نظام التملك، وأموالهم مُشَاعَة، وقد انتقلوا، مع ذلك، من نظام تعدد  
الأزواج من الذكور إلى نظام الاقتصاد على زوجة واحدة الذى لا يَحِدُه عند هَمَج  
الهند إلا قليلاً .

النياديش، ويسكن بعضهم حول كالى كت، ويقيم بعضهم الآخر بمحاور بحيرة  
پولى كت، ويَبْدُون أشدَّ وحوش جنوب الهند بُؤْسًا، ولم يزلوا، إلى وقت قريب  
جداً، يُوقِدُون النار بذلك غصنين يابسين أحدهما بالآخر .

السكر، ويسكنون مناطق كورم بتور ومدورا الجبلية، ولم يقلعوا عن العادات  
المُضَرَّجَة إلا منذ زمن قصير، فكان الواحد منهم، إذا أراد أن يَجْلِب النَّحْس  
والتَّعْس إلى عدوه يذهب بأحد أولاده ليذبحه على عَتَبَتِهِ .

## ٧ - سكان الولايات الوسطى أوغورندوانا

فَرَعْنَا من وصفنا المختصر لعروق جنوب الهند، فنرى أن نَصَدَّ في شمال الدِّكَن  
وننظر إلى جبال غوندوانا الواقعة في وسط الهند والى لم تُرْتَدَّ حتى اليوم، فتشتمل  
على حَمْدَة قدماء السكان حافظة لهم من مغازى الأجنبي بهِضابها المنيعَة وفِجَاجِها  
العميقة .

وَيَصَدَّ بغوندوانا المنطقَة الجبلية التى هى أعلى مناطق الهند، وتفصل غوندوانا  
منطقة الهند الغَنَجِيَّة أو الهندوستان عن الهند الجنوبية أى الدِّكَن، وتبدو غوندوانا  
مُتَسَكَّةً، بِجَوَّها وحيواتها ونباتها، ذينك القطرين المعترضة بينهما، وعُسد سفوح

غوندوانا وَقَّتَ المغازى المتواليّة فلم تَسْتَطِعْ اجتياها بغير الدَّورِ حولها، ومن شِعاف<sup>(١)</sup> غوندوانا نَقَصَّبَ إلى جميع الجهات : إلى القَنَجِ وإلى خليج البنغال وإلى بحر مَحْمَنَ ، أنهاراً وروافدَ تَخْلُطُ منابِعها في أعاليها الحافلة بالأسرار .

ولا تنطبق كلمة « المنيعه » تلك على الأمر الواقع منذ عشرين سنة ، ولكنّ مدّة قصيرة كهذه وما تَمَّ في أثنائها من المعجزات بفعل مبتكرات العلم الحديث ليس مما يُحَسَّبَ عندما نبحث في عروق الهند وفي الحال التي انتهت إليها تبعاً لسنة النشوء وتأثير مختلف البيئات .

حقاً أن عادة القرايين البشرية ، مثلاً ، غابت من غير ناحية بأمر الإنكليز ، وحقاً أن احتياجات الشرطيّ الإنكليزيّ أَحَلَّتْ نسيجَ مانچستر الفطنية محلّ الأضفان<sup>(٢)</sup> التي ظَلَّتْ لِباسَ فريق من الأهالي منذ قرون ، وحقاً أن الخطّ الحديديّ الذي يَصِلُ بِمَجْمُوعِ بكلكته يسير موازياً للنهر نَرَبْدَا الذي يَحُدُّ الولايات الوسطى في الشمال ، وحقاً أن خطّاً حديديّاً آخر يَمُرُّ من ناغپور ويقطع مِنطَقَةَ الغوند ، وحقاً أن من المحتمل ألا يبقى بعدَ نصف قرن شيء من الطبايع والعادات والمعتقدات التي دامت في وسط الهند ألوف السنين ، بَيِّدَ أن ساعة زوال هذه الأمور ، التي دنا وقت إبطلها ، لم تَدَقْ بَعْدُ ، فيمكن ، والحالة هذه ، درس أحوال أهل غوندوانا القطرية كما هي اليوم في البقاع الكثيرة الغاب الوبيلة ، مادام أهل السهول والهضاب يَتَهَنَّدُونَ بِسُرْعَةٍ .

وببلغ الغوند ، الذين اشتقَّ اسم غوندوانا من اسمهم ، عدّة ملايين ، غير أنه لم يبق منهم سوى مليون ونصف مليون في طور الوحشية المطلقة .

(١) الشعاف : جمع الشفة وهي رأس الجبل - (٢) أضفان : جمع ضفت وهو قبضة من قضبان صغار أو حشيش بعضه في بعض .

ولا تَحِد من مِنطَقة غوندوانا التي غَزَمَها الحضارة أَرَأَى للهِجِية في غير قسمها الجنوبي الشرقي المُنْتَجِه إلى منابع رافِدَي غوداوري : برنيتا وإنْدراكوتِي ، وفي غير قسمها المُنْتَجِه إلى الشمال الشرقي حيث جبال أَمْرَكَن تك والجبال التي بجانب مجرى نهر نَرَبْدَا الأعلى .

تسمع عن تلك الأصقاع التي لم تَرُدْ<sup>(١)</sup> حتى الآن ما نَحِدُه في كتب الآريين من الأساطير حول جبال الهند الوسطى ، فيصفها هندوس السهول بأنها غابات مملوءة بالدَّوْح<sup>(٢)</sup> المَظْلَّة لِأَبْخِرَةٍ وبنَّة قاتلة وبأنه يسكنها حيوانات مفترسة ذوات قامات عظيمة وقُرُودٌ كرهية محاكية للإنسان ، فبمثل هذا تَصَوَّر قدماء غُرَاة الهند الهضاب الواسعة التي دحروا إليها سكان البلاد الأصليين المغلوبين من غير أن يَجْرُؤُوا على دخولها .

والمراتب هم أول من اقتحموا غوندوانا ، وكان ذلك في القرن الثامن عشر ، فبسطوا سلطانهم غير الفَعَّال عليها ، وفي زماننا أسفرت جهود الإنكليز عن فتح أبوابها وعن تَعَمُّب الهمجية الفطرية في ملاحجتها الخفيفة .

وَيُرَدُّ الآدميون ، الذين التجأوا إلى غوندوانا والذين يُدَحَّرُون إليها بين حين وآخر ، إلى ثلاث جماعات أساسية : البهيل والسكرول والغوند ، وهؤلاء الغوند هم الأكثر عَدَدًا والأقدم إقامةً ، فأطلقوا اسمهم على ذلك القطر .

والبهيل ، وهم من الدراويد ، قد درسنا أمرهم في فصل آخر ، ولا يسكن

---

(١) راد الأرض يرودها روداً ورياداً : تفقد ما فيها من الزاوى والمياه ابيري هل تصالح لتزول فيها — (٢) الدوح : جمع الدوحة وهي الشجرة العظيمة المتسعة .

غوندوانا غير ٢٠٠٠٠ شخص منهم مع ذلك ، ومقرّ البهيل الدراويد الحقيقية هُو في الشمال والغرب مع ذلك .

والسكول ، وقد عادوا لا يكونون من الدراويد ، لا يسكن غوندوانا منهم غير ٤٠٠٠٠ تقريباً ، ويَنْتَشرون ، على الخصوص ، في جهوتاناغپور وفي ساحل أوريسه وفي البنغال حيث لاقيناهم ، ومن قبائلهم القاطنة في غوندوانا السكوركو المقيمون بأودية مهاديو والسكوند الذين لا يحوز خلطهم بالغوند .

ونحن ، إذ نُخَصِّصُ مطلباً آخر للبحث في أمر السكول المقيمين بجهوتاناغپور وفي أمر سكانها الآخرين ، ندرس الآن حال الغوند الذين هم أساس سكان غوندوانا والذين هم أهم سكان الهند الأصليين أوصافاً وعدداً

إذا لم يكن الغوند عرقاً أصلياً من عروق الهند فإنهم يُصَفُّون ، على الأقل ، بين قدماء الدراويد الذين هم أقرب الناس إلى المثال الزَنْجِيّ الفطري ، والغوند أدنى درجة في سُلَّم العروق لشعهم وقصرهم وسوادهم ، وللغوند ، مع ذلك ، أعضاء عضلة قوية ، والغوند يُختلفون بهذا عن بعض وحوش نل غیری ذوی المظهر الناقص الضعيف وعن الهندوسيّ ذی المنظر القَصِيف<sup>(١)</sup> ، ووجوه الغوند مستوية ، وأوفهم قصيرة ، وشفاهم غليظة ، وعيونهم صغيرة أَفْقِيَّة ، وشعورهم سُود حَسَنَة لامعة مُسَدَّلة خُصَّلاً وصفائِر على جوانب وجوههم ، وتتألف ثيابهم من رُبَط يجعلونها حول كَلاهم ومن رُبَط أخرى يجعلونها حول رؤوسهم ، وتتألف ثياب نسائهم من نُسُج سائرة لأوزا كِهَن صاعِدة إلى عواتقهن شاملة لأنصافهن النوقانية ، ولا يزال يُرى أناس من زُمَر غوندية متفرقة يقتصرون على نُطْق من ورق الشجر

(١) قُصِف الرجل بقُصِف : نحف ودق .

كما في غابر الأزمان ، وفي الغالب تهبُّ ريح الشمال الشرقي على تلك الهضاب بشدة فلا تكفي ثياب الغوند لردِّ عادية هواء المساء والصباح فيوقدون نيراناً عظيمة ليتدفَّأوا حولها ، وما يستحى الغوند منه أن يضيفوا شيئاً إلى تلك الثياب التقليدية ، فالغوند على النقيض منا في النظر إلى عوامل الأدب والحشمة .

وأسلحة الغوند بسيطة جداً ، ولا يعرف الكثيرون منهم القوس ولا السهم ، وبالقوس التي يحملونها على الدوام يضمنون<sup>(١)</sup> الصيد ، ويصرعون العدو ويقطعون النبات المعرَّش الذي يعوق سيرهم في الغاب ، ويمجدلون ما يطاردونه من الأنمر في عرائنها .

وإذا كان الغوند يزدرون التسربل والتسلح فإنهم يزيّنون أجسامهم ووجوههم بالحلي الثقيلة وبضروب الوشم الفني ، وتُحِبُّ تساوهم الأساور والخُرَّصان<sup>(٢)</sup> المصنوعة من الحديد فيثقلن بها ذراعائهن وسيقانتهن ، ويَزُوْنَ خدودهن وأفخاذهن بنقوش وتصاوير ، وهن دون رجالهن قبُبح منظر ويكنن على قليل من المألحة في بعض الأحيان .

ويعرف الغوند فلَنَح الأرض ، ولكن بغير إتقان ، شأنهم في كل صناعة ، فإذا ما اختار الغوند أرضاً صالحة قطعوا أشجارها الساترة لها ، وأشجارُ الغاب (السال والمهوا والبانيان) في منطقة الغوند تَطْعَى وتنتشر في كل مكان بالقوة التي تنمو بها أشجار البلاد الحارة ، ثم حرقوها في محالها ثم بدَّروا الحبوب فيها ، وفي الغالب يَصَّع الغوند الحبوب أكداً أو كداساً في مكان مرتفع من الحقل تاركين للريح والمطر

(١) أصمى الصيد : رماه فقتله مكانه وهو يراه - (٢) الخرسان : جمع الحرص وهو حلقة الذهب أو الفضة وغيرها .

أمر نثرها عليه ، ثم يُقيم الفوند بعُرش منتظرين وقت الحصاد .  
والفوند يَسْتَقِلُّونَ الأرضَ مرتين أو ثلاث مرات ، فإذا فَتَدَّتْ خِطْبُهَا يَحْثُوا عن  
أرضٍ أخرى لِيُحْثِيوها ويزرعوها ناقلين إليها مساكنهم مُبْدِلِينَ أما كن إقامة مرة  
في كل سنتين أو ثلاث سنين .

ولو اقتضت معاش الفوند على ما تلتجأ أراضيهم لَوَقَعُوا في بؤسٍ شديد  
مادامت آلائهم الزراعية ناقصةً وفنونُ فِلاحتهم ضعيفةً ، ولكن منطلقهم الفنية  
تَمُنُّ عليهم من مصادر العيش الشيء الوافر ، فما أكثر ما يُنْقِذُوا من الحاجة بفضل  
ما عندهم من أثمار أشجار المنفعة والسال والبانيان والغُتَاب وأزهار المَهْوُوا ، ومن هذه  
الأزهار النافعة يَسْتَخْرِجُ الفوند عصيراً متخمرًا يسكرون منه في الأعياد فضلاً عن  
استفادتهم من موادها الغذائية ، ويغتذى الفوند أيضاً بما في غابهم من الطرائد التي  
تُفَرِّخُ بكثرةٍ وبالأسمالك التي توجد في مجاريهم بوفرة .

والفوند ليسوا بمحاربين مع أنهم غيرُ جُبُنَاء ، والفوند ، على ما ليس فيهم ما في  
البهيل من غرائز الشرِّ والاعتداء والتخريب ، هم ، مثل هؤلاء ، لصوص ، ومُنْ  
أُتِيحَ لهم من الفوند أن يعيشوا في السهل حيث الحضارة لم يَرَوْا أن من غير الطبيعي  
أن يسرقوا ما يقع تحت أيديهم من أموال الهندوس أو الإنكليز النازلين بين  
ظَهَرِ آبائهم ، ويمتد الفوند الكذب مع ذلك ، ويمتازون بهذا الخلق ، كما يمتاز  
جميع وحوش الهند ، من الهندوس الذين أضحي زورهم مَضْرِبَ الأمثال .

والفوند في منازلهم مُحِبُّونَ للقرى ذود دَعَةٍ ، والفوند ليسوا قُصَاةً ما لم تُنْزَ  
حَمِيمَتهم الدينية أو ما لم يُهَيِّجُوا بعد أن يسكروا ، فهم يَنْقُضُونَ إذ ذاك على قربانهم  
لِيَمَزَّ قُوهُ بأَسنانهم وأظفارهم إِرْبًا إِرْبًا ، وقلما يكون مثل هذا القربان من البشر في



أيامنا الحاضرة ، ومن المحتمل أن يبقى أثرُ للقرابين البشرية في بلاد الغوند ما تَفَافَتْ  
أجسامُ منيعة وهِضاب وعِرَّةٌ وأوديةٌ وبيئةٌ من رَقابة الشرطيِّ الإنكليزيِّ ،  
ولا تغيب الطقوسُ المُضَرَّجَةُ إلا حيث يَتَصَلُّ الغوندُ بالأوربيين .

وفي الزمن الحالى استُبدِلت مجاديرُ<sup>(١)</sup> الصَّصاف أو دُمى التراب أو الأزهار  
أو الأثمار بالمُجُول أو اللَّعْز أو الفَراريج كقرابين إلى الآلهة ، وعادت المذابح القائمة في  
إطار من حجر في أسفل الأشجار المقدسة لا تُحَمَّرُ بغير طلاء رمواً إلى ما كان يُراق  
فيها من الدم .

وإلى المفاريت والأرواح الشريرة ، على الخصوص ، يُقَدِّمُ الغوند النذور  
الرمزية أو القرابين ، فالإيمان بالأرواح الشريرة أمرٌ عام بين سكان بلاد الهند  
الأصليين ، وما يعتقد هؤلاء السكان أن الجنَّ يطوفون في الليل حول القرى بقصد  
الإضرار ، فيجب أن يجدوا في المذبح ماءً لِيُطْفِئُوا غليلهم ، وفواكهً لِيَقْتُلُوا جوعهم ،  
وإذا لِيَشْفُوا حُرْقَتهم أو لوناً أحمر مشووماً لِيَتَمَّ بهِ خِداعهم ، وأوناداً مغروزة في الأرض  
لِيَضَمُّوا عابها أقدامهم الخفيفة ما حُفِرَ عابهم من الأرض وما طافوا مغاضيين  
بغير ذلك .

والأرواح التي تخافها شعوب الهند القطرية فتَتَعَبَّدُها هي أرواح المَوْتَى ، ولا سيما  
التي نَزَعَتْ من الأجسام بخاتمة فاجمة ، فإذا مات واحد منها قَمَصاً<sup>(٢)</sup> ، ولو طَوْعاً ،  
افترس أن روحه التي نُسَكِّلُ بها تعود لتطوف في الأماكن التي حَرَجَتْ فيها وعُزِي

(١) المجادير : جمع المجادر وهو ما ينصب في الزرع لطراد الطير والوحش - (٢) قمصه يقمصه  
قمصاً : قتله مكانه ، أجهز عليه .

إليها من فعل الشرِّ ما يجب دفعه بالتعزيم<sup>(١)</sup> وتقريب القرابين ، وأرواح النِّسوة اللاتي يُتَوَقَّعن في النفاس أصعب الأرواح مراساً<sup>(٢)</sup> .

وإذا مات غريب بين الغوند أقاموا له عِبادَةً خاصة كما يُقيمون للغريب ، ومن هذا أن قائد المئة بول مات مُتُخَنّاً بالجراح في قتال قام به لِيَصِلَ إلى مدراس بِجُوبْ غوندوانا ، فبال ذلك السكان الذين خَرَّ بينهم قتيلاً لاعتقادهم أن روحه الغاضبة الساخطة ستختلف إلى منازلهم ، فأقاموا له هياكل وقَدَّموا ما يستميلونه به من الأدعية والقرابين .

وليست أرواح الموتى وحدها هي ما يَعْبُدُهُ الغوند ، فكلُّ شيء إلهٌ عندهم ، فقوى الطبيعة وآفاتُها ، مثلاً ، مما يَعْبُدُونُهُ ، فهم يَرَوْنَ أن على رأس كلِّ آفةٍ عِفْريتٌ لا بدَّ من إجادته عبادته إذا أريد درء ما يَحْمِلُهُ من الشرور ، وهم يَرَوْنَ تقديس الهَيْضَةِ<sup>(٣)</sup> والجُدْرِيَّ وَحُمَى الآجام والضرع إليها بُغْيَةً دفع عواديها .

والإله الذي يحتلُّ ، مع الشمس النافعة أو الضارة والأرض الخصيبة أو الجديبة ، أسمى مقام بين آلهة الهند الوسطى هو الإله القادر على كلِّ شيء الذي تَصَفَّرُ الوجوه حين يُدْكر ، وتَجِفُّ<sup>(٤)</sup> القلوب حين يُزْمَجِر ، أَكَّال البشر ، الإله النَّمِر .

والنَّمِر عند ما يَتَدَوَّق لحم الإنسان فيبرقه فَيُلْقِي الرِّغْبَ في إحدى البقاع ، تُفْصَبُ له الهياكل ، ثم يختلط العِفريت الذي يُفْرِيه وَيُخَرِّضه بأرواح ضحاياه فتشتدُّ عزيمته بعددها فيكون لها من الحاسة مثل ما له ما أضيف غضبها إلى غضبه ، فيصبح أمر تسكينها ضَرْبَةً لازب ، فيُجْتَلَب في الغالب كاهن ذو شهرة من قبيلة

(١) عزم يعزم تعزيمًا : قرأ العزائم — (٢) المراس : الشدة والقوة — (٣) الهَيْضَةُ : انطلاق البطن وهو المروف بالسكولابا — (٤) وجف القلب يحف وجفا : خفق .

البائس على العموم ، فيقرأ هذا السكان العزائم داعياً إليه تلك الأرواح المتقصصة للتمر والدافعة له على الصولة والشرة فيصيب السكان نوع من الذهول والوله بفعل الرقية والدروشة فيخيل إليه أن صراوة النمر قد انتقلت إليه فينقض على جدي حتى يقدم إليه فيخنقه بأسنانه ويمزق لحمه ويدس رأسه في جوفه الداخن ثم يرفه فيرى القوم وجهه المفرج بالدم فيرفعون أصولهم مستبشرين مسرورين .

وتؤله شعوب الهند الفطرية ، ولا سيما الغوند ، الأفاعى ( القبرا على الخصوص ) مثلما تؤله تلك الآفات ، فيدعها كثير من أبناء هذه الشعوب النساء تلدغهم من غير أن يقتلوا ، وعبادة الدراويد للأفاعى أسفرت عن تسمية الآيين لهم بالنغا .

وفي الهند ، حيث يقوم بعض الأديان بجانب بعض من غير اصطراع وحيث يقتبس بعضها من بعض عقائد ورموزاً وطقوساً ، لا يقتصر اعتقاد الأرواح وتقديس الأفاعى والأفاعى على الأقوام الفطريين ، بل سرت عدوى بعض ذلك إلى البراهمة وقليل من ذلك إلى المسلمين ، فأضحى الصل<sup>(١)</sup> من خصائص عظيم الأرباب عند الهندوس ، فتتخذ مطاويه الرامة أداة زينة في المباني وينتصب رأسه ذو الحدقتين الشاختين متوعداً بجانب رأس وشنو .

ولا عهد للغوند بنظام الطوائف ، ويُقسمون إلى قبائل متزاوجة ، فن سِفاح ذوى القرابة أن يقرن رجل بامرأة من قبيلته ، ويؤدى قران مثل هذا إلى القتل أحياناً ، وعادة خطف الخاطب للفتاة خطفاً صورياً أو حقيقياً شائعةً شيوعاً منظمًا عند أولئك القوم ، وفي الغالب يدافع عن الزوجة من يرافقها مع ضحك تجاه أصحاب الزوج ، فيتم الغلب لهؤلاء الأصحاب بحكم الطبيعة فيسيرون بالأسيرة حاملين إياها

(١) الصل : الحبة الحبيطة جداً .

على أكتافهم فأكبهن ، وما يحدث عند سكان الهند الوسطى الفطريين ، أحياناً ، أن يتكرر الخطف بعد الزواج ، وذلك وقتاً تُعَادِرُ الفتاة بيت زوجها إلى بيت أبيها بعد يومين أو ثلاثة أيام من ذلك باكيةً بكاءً مصنوعاً مُعْرِبةً عن عزمها على عدم تركه .

والغوندى ، على العموم ، يشتري لابنه امرأة قبل أن يبلغ سن الزواج بها ، فيختارها قويةً ضليعةً ليتخذها ، في الغالب ، خادمةً وخليلةً ، إلى أن يُلحِقَ الزوجُ الحقيقى فى طلبها ، فإذا عَدَوَتْ هذه العادة وجدت الغوندى من المقتصرين على زوجة واحدة ، والزوجة عند الغوند ، إذ تكون ، على الدوام ، أكبر من بعلمها سنّاً فإنها تتمتع بشموذ عظيم فى أمور المنزل .



ونظام الغوند السياسى بسيطٌ جداً ، فيدير شؤون كل عشيرة منهم رئيسٌ خاضع ، على العموم ، إما بقضى به شيوخها المجتمعون ، ولكل رجلٍ غوندى صوتٌ فى الحكومة ، ويكون الرئيس فى الغالب سليل الراجپوت ، ويُسَرَّحُ بعض ممثلى الراجپوت عند كل حرب بين الغوند الذين لا يَسْتَبِوْنَ أن ينالوا عندهم شيئاً من النفوذ .

## ٨ - سكان أَمْرَكن تك وجْهوتاناغپور وأوريسَة ، النخ

يقوم فى شمال جبال الهند الوسطى الشرقى طَوْدُ أَمْرَكن تك ، فهذا الطَوْدُ هو أعلى تلك الجبال ، وإمْدُ عُنْدَة ، تلك المِنطقة الجبلية ، وهو أَقلُّها رَوْدًا<sup>(١)</sup> ، وغابُه أَشدّ من غابها امتناعاً ، وآجامه أَكْثَر من آجامها ضواری ، ومُحمّيات أوديته أعظم من مُحمّيات أوديتها خطراً ، وسكانُه أظهر من سكانها همجيةً واقتراباً من الحيوان واحتمالاً للجور القاتل والطعام الجشيب<sup>(٢)</sup> .



٢٦ - ثلاثة وحوش من چهوتا ناغپور

ويَقِف كل وصف عند الحدّ الذى وَقَف عنده الفُرَاة المتصدّون ، فما قيل عن معاش أهل تلك المِنطقة الوحشية ليس إلّا قَرَصِيَّات ، فهندوس السهل يُشَبِّهونهم بالقرود ويخشونهم كأَنهم من الجنّ الأشرار ، ومن الأساطير ما هو خاصٌّ بغاب تلك المِنطقة البعيدة الغور وفِجاجها الكثيبة التى لا تخلو من حَفْدَة أقدم عروق الهند البائسين .

ويتألف من چهوتا ناغپور مِنطقة متوسطةٌ بين هَضْبَة الولايات الوسطى والسهول المجاورة لمصبّ نهر الغَنج ، وتشتمل تلك المِنطقة ، المائلة إلى الجنوب الشرقى والمتوجهة

(١) راد الأرض يرودها رودا : نفقد ما فيها من المراعى والمياه ليرى هل تصلح للزئول فيها -

(٢) الجشيب من الطامام : الملبظ الحشن .

إلى خليج البنغال ، على وادى مَهَانْدَى ووادى برهْمَنَى الأعْلَيْنِ ، وتجرى من منحدراتها الشالية الغربية روافد سون ، ويُعدُّ معظمها من ولاية البنغال .

وجيوتاناغپور مِنطقه انتقال من الناحية الإثنولوجية والناحية الجغرافية ، فالمره إذا ما نَزَل من أعاليها وتوجَّه إلى أَوْدَهه ، حيث يعيش أجمل العروق الآرية بالهند كما ذكرنا ، وَجَدَ بالتتابع أمثلةً جميع ما فى الهند من العروق المترجمة بين قِيَاح وثنى الزوج وَشَخَّج البراهمة .

ويسكن جيوتاناغپور قبائلُ من سكان البلاد الأصليين على الخصوص ، فهذه القبائل ، وإن ظَلَّت وحشيةً فى الجبال ، تَتَهَنَّد فى السهول بالتسدرج ، وهنا نُذَبَّه القارىء إلى أن ما نَصِفها به ينطبق على حالها الفطرية الأولى التى قد تشاهد اليوم فى أقاصى تلك المِنطقة وفى أراضيها المنبعة قياساً على ما فعلناه فى أمر الغوند .

ونحن ، حين نُضيف إلى جيوتاناغپور سلسلة جبالٍ وَندِها ومِعْظَمُ شبه جزيرة الكجرات تبدو لنا بلادٌ ممتدة من بحر إلى بحر قاطعةً لوسط الهند ، فهذه البلاد المستطيلة هى مقرُّ العروق الكولية التى تُمَدُّ ثلاثة الجماعات الهندية فتأتى بعد الجماعة التورانية الآرية ، أو الهندوس البراهمة ، التى هى الأولى منها والجماعة الدراويدة التى هى ثانیئها .

واختلافُ اللغات بين تلك العروق ، ولا سيما بين الدراويد والسكرول ، هو سبب ذلك التقسيم الثلاثى ما كان الدراويدُ والسكرول من الشعوب الفطرية التى توالدت هى والغزاةُ بعضُ التوالد وما تماثل الدراويد والسكرول طَبَائِعَ وَصُوراً ، وبشابه السكرول البهیل الذين يقطنون معهم فى الأراضى التى تَغْشَى جبالَ وَندِها ، بيد أن السكرول المقيمين بجهوتا ناغپور يفترون من البهیل ذوى المُشال المغولُ مع أن دم الراجپوت

يجرى في شرايين الكول المقيمين بالكجرات ، وقد تكلمنا في فصل سابق عن هؤلاء الكول القاطنين في المنطقة الغربية والذين يَعمُّهم البراهمة من الشودرا فيُستخدَمون في المدن للقيام بأشقِّ الأعمال ، فأطلق اسم الواحد منهم (الْقَلِي) في المستعمرات الإنكليزية وأمريكة على العمال والعُمَّالَة والمُسكَّارِين .

ويُعمَّدُ الكول الشريون من زمرة المنبوذين لا من طبقة الشودرا ، ولم يخرج أكثرهم من دور الهمجية الأولى ، وعن هؤلاء قلنا إنهم يُدَّكَروننا بالمثل المغولِيّ ، فهم ، بالحقيقة ، ذوو وجوه مثلثة الأضلاع ولَحْيٌ مِعْرَةٌ<sup>(١)</sup> وعيون صغيرة مزمومة أفضية وشفاه غليظة وَوَجَبَات ناتئة وأنوف قصيرة وألوان مُتَرَجِّجَةٌ بين الصُّفْرَةِ والسواد وقامات قصيرة مربعة ضليعة ، ويتكلمون بلهجات مُعَرَّعة من اللغة الكولية التي يتميزون بها من شعوب الهند القطرية الأخرى ، ويجاوز الكول مِنْطَقَتَهُم المستطيلة إلى وادي الفَنَاج حيث لاقيناهم .

ويسكن الساتَهالُ والمليِرُ الجبال الواقعة بين بهار والبنغال ، فيُعَدُّون من الأرومة الكولية بالحقيقة ، ومما قلناه إن لغة الساتَهال تُعَمِّلُ دور اللغة الأم بين اللَهَجات الكولية كما هو شأن السنسكرت في اللغات الهندية الأوربية .

وكان الكولُ جميعهم يُسمَّونُ باسم سوارا العام الذي ورد ذكره في كتب الهندوس غير مرة ، ورأى بعض العلماء أن هذا الاسم مشتقٌّ من الكلمة الشيشية « سغاري » التي تعني « الفأس » ، والواقع يُؤيِّد هذا الرأي ما كانت الفأسُ سلاحَ الكول والغوند المُفَضَّلَ وما ظَلَّتْ ، في بعض الأحيان ، عُدَّتْهم الوحيدة ، فالحقُّ أنك لا ترى شخصاً من أهل جهوتاناغپور أو أهل غوندوانا الأصليين لا يحِمل بيده

فأَسَأَ إذا ما ابتعد قليلاً عن منزله ، ولا غَرْوُ ، فلا غُفْيَةَ له عن هذه الآلة في فتح طريق له وسط الآجام وفي المحجوم على الأنمار .

و بعضُ القبائل الكثيرة التي تسكن جهوتاناغور وساحل أوريسه في الشرق ما هو كولى خالص وبعضها ما هو ممزوج بالعنصر الدراويدي الحديث والقديم ، وبين هذه القبائل فروقٌ غير واضحة تماماً لعدم وجود أمثلة بَيِّنَةٍ لها على الدوام ، وتُدعى تلك الجماعتان بالأوراون والمُنْدَا ، فأما المُنْدَا فيشابهون المغول كثيراً ، وأما الأوراون فمن الزوج الذين يبدو مثالمُ أقرب إلى القروء منه إلى البشر .

ومن أهم الأهالى الذين يسكنون وادى برهمنى ووادى مهاندى الأدنى قسمين وقسمين من ساحل أوريسه نذكر السكوند الذين يجب التفريق بينهم وبين الغوند المقيمين بغوندوانا ، وعلى ما بين تلك الشعوب من صلة كما بين جميع القطريين يتألف منها جماعتان مختلفتان .

وتلك الشعوب ، إذ كانت ذوات عادات مماثلة يَدُون بها من إخوانهم سكان الولايات الوسطى الذين وصفناهم آنفاً ، نوجز أمرها بما يأتى :

تقوم دِيانتها ، كما تقوم دِيانة الغوند ، على عبادة الشمس والأرض وقوى الطبيعة والخوف من أرواح الموتى وتقديس الضواري والآفات التي يُعرَّضون لها ، على الدوام ، نقديساً ممزوجاً بالهَوَل ، وترى في الأعاصير والجماعات والأوبئة والجفاف مظاهر لِقُوى هائلة يجب التوسل إليها بقراءة العزائم وتسكينها واستعطافها بالقرايين ، فُدَّت الديموعُ ودماء الضحايا البشرية طويلاً زمنٍ نَدَى سحرياً لا بدءاً للأرض منه لى بَتَّسع صدرها فتصيحُ خصيبة ، واليوم يزول هذا الاعتقاد بالتدرج ، وصارت الأنعام ، أيضاً ، لا تُذبح ، فتُسْتبدل بها في المذابح صورُ خرافية وفواكه وأزهار ويستبدل



بدمائها دهنٌ أحمرٌ تُرشُّ به الحجارَةُ المصفوفة على شكل دائرة أو الأهرامُ الصغيرة التي تعلوها أو الأوتادُ المُثبتة في الأرض .

ولما حاول الإنكليز أن يحمِلوا ، بالاقناع والتهديد ، الكولَ الشذج على نَبذ عادة تقريب القرايين البشرية رَضَى هؤلاء بذلك على أن يَحتمِل الأوربيون تِمَمَةَ هذ الإلحادِ تجاه الآلهة ، ولا شيء أفضح من القيام بمثل هذه الشعائر ، فكان الجمهور يقطع الضحية إرباً إرباً عند ذبح الكاهن المُقَرَّب لها اتِّباعاً للاعتقاد القائل إن كلَّ قطعة من اللحم الخافق تِمَمَةٌ قادرة ، فن يأخذها فيدفنُها في ناحية من حقله وهي داميةٌ سخينة يَنَلُّ البركات من السماء لِأَمَدٍ بعيد ، فهذا الثمن يزول غضب الإلهة تارِى أى الأرضِ الساخطة .

وكان يُتَخَطَّف صِبيَّة من الغرباء والأيتام ويُوَفَّى بهم إلى الكول لِئَرَبُوا فيكونوا ضحايا المستقبل ، وكان يقوم بذلك الاصطياد قَهَّارمة<sup>(١)</sup> فيبيعون مايتصيدون بثمان عال ، فإذا لم يَجِد هؤلاء القهَّارمة ما يصطادونه اشترَوْا صِبيَّة من آبائهم الفقراء أو الطمَّعاء ليشُرُّوهم بريح فيُثَرُون بذلك لعدم المَكْس ، فكما كانت الضحية غالية كانت مقبولة لدى الأرض والشمس والجن الذين يثيرون أمواج البحر فيُثاقمونها في الحقول زواجع وعواصف .

ويدير شؤون كلِّ قبيلة من الكول رئيس خاضع ، على الدوام ، للألهة المجتمعين ، وتُسَفِّر هذه الاجتماعات ، في الغالب ، عن دعوة مِنطقة بأسرها ، لا قرية واحدة ، إلى العمل بأحد الأمور ، وتشعر الشعوب الكولية بأنها أمة واحدة ، ويذكر الكول أنهم كانوا سادة الأرض ، وفي أساطيرهم ، كما في الشواهد الغربية ، ما يدل

(١) قهَّارمة : جم قهرمان وهو الوكيل .

على أنهم كانوا أمة ذات حكومة مُنظَّمة ، ومن قبائلهم قبيلةُ اليهومية التي يعنى اسمها « أبناء الأرض » ، أو أهل البلاد الأصليين ، ويعلم الكول أنهم حَفْدَة أمة قديمة إلى الغاية ، وليس الكول من البأس ما يقدرُون به على القتال فتراهم لا يبالون بالحيل وصولاً إلى الإثراء على حساب من يَسْرِقونهم ، فالكولُ جميعهم لصوص أَجْرَنَاءُ<sup>(١)</sup> فُخْرٌ بما يقترفون من اللصِّ ، فيقولون : « لافعل غير استرداد ما نَمْلِكُه فسرَق منا فيما سلف » ، ومن التناقض العجيب أن يصبح هؤلاء السُّرَّاق ، حيناً يحملهم الفقر على الخدمة عند سادة الهند في الزمن الحالى ، من أحسن موظفى الشرطة وأحزمهم ومن أيقظ النُّظْرَاء وأقدرهم على خفر المزارع ، وما يحدث أن يجمع هؤلاء بين حَرَس الحقول والمواشى في النهار وسرقتها في الليل بجِدٍّ وحَذَرٍ ولباقة ، فإذا ما اكْتَشَف الأمر لم يبق لإقامة البينة وسماع الشهود ضدَّهم ضرورةٌ ، فهم يعرفون بما اجتروه من قُوَرهم حين الاستنطاق فيُستذنبون .

والكولُ شديدو القِرَى ، فيبذلون أرواحهم دون الضيف إذا حاق به خطر ، والكولُ كثيرو الفُخْر ذوو مزاج حُرٌّ ، والكولُ ، إذ يُحْمَلون على دفع الضرائب إلى الإنكليز ، يحملونها إليهم بانتظام حيث يكونون عند حدودهم ، وذلك حَذَرٌ تدنيس الحِلابة إحرمة منازلهم في غابهم .

ويُحِبُّ الكولُ الحربَ لهواً ونقرباً إلى الآلهة ، فهم يَفْتَتِلُونَ<sup>(٢)</sup> قبل أن يوقدوا نارها ، فإذا رأوا أن السماء تأمر بالحرب وسفك الدم أرسلوا رُسُلًا إلى القبيلة المجاورة لدعوته إلى القتال في أحد الميادين ، والقتال يدوم طويلاً ما لم يَفْتَتِلُوا ثانية فَيَرَوْا

(١) أَجْرَنَاءُ : جمع جرى - (٢) افتال : ضد نكاح .

وَقَفَّ الحرب، ولا يشوب المتحاربين حِقْدٌ وَلَا وَغْرٌ<sup>(١)</sup> فينامون في الغالب معاً يأكلون معاً في الهدن التي تتخلل القتال، ويشهد النساء الطمأن قِيَمَتَيْنِ عند إصابة الأهداف وَيُصَقُّنَ عند باهر الأعمال وَيَجْمَعْنَ الجرحى وَيَضْمِدْنَ جُروحهم ويكفين القتل وَيَنْظُرْنَ، كما كانت نساء سابن تنظر في القرون القديمة، آباءهن وإخوتهن في أحد المسكرين وأزواجهن في المسكر الآخر، فالأنكحة عند السكول لا تكون إِلَّا بين مختلف العشاير.

والفَقَى من أولئك القوم يشتري له أبواه المرأة التي يرغب في الزواج بها، وهو، إذ كان لا يملك لنفسه شيئاً، لا يقدر على تأليف أسرة مستقلة عن أبويه فيبقى تحت وصايتها زمناً طويلاً، والمرأة من أولئك القوم حقُّ الطلاق، فتتزوج، في بعض الأحيان، أربعة أزواج أو خمسة أزواج بالتتابع، فيجب على كل زوج لاحق من هؤلاء أن يَرُدَّ إلى الزوج السابق ما دفعه، فيسمى الزوج اللاحق إلى التخلص مما عليه.

إذن، يمارس أولئك القوم مبدأ تعدد الأزواج من الذكور ممارسةً مُقَنَّةً، وتنشأ هذه العادة عن الفقر وعن ارتفاع المهور، وقتل الأولاد عند أولئك القوم أمر شائع، فالأسرة الواحدة منهم لا تحتفظ، في الغالب، بغير ابنة أو ابنتين، وأما البنات الأخرى فيوضعن، حين ولادتهن، في آنية من فخار ويدفنن، فيفسر ذلك عن زيادة مهور النساء قللة عددهن.

ومعاش سكان جهوتانا غيور صنك، فأراضيها فقيرة وفلاحتها رديئة، وأسوأ منها أراضي أوريسة، حيث يَغْتَمِرُ الطوفانُ غلاتها المزيلة في بعض الأحيان فيعقب

الطاعون ذلك ، ثم يُستمر الجذب الذى يحىء بعد ذلك عن موت الألف من السكان جوعاً ، وليس للإنسان فى بلد بئس كهذا البلد أن يختار نوع الطعام ، فترى الكول يأكلون من كل لحم مع مقت براهما الهندوس لذلك .

ولم يكن ساحل أوريسة منطقةً بالسة فى كل زمن كما هو اليوم ، فقد كان يقوم فيه دولة زاهرة أيام هرون الرشيد وشارلمان ، وفى أساطير الهندوس ما يؤيد ذلك ، وما اشتعل عليه من المعابد العجيبة الخربة ، كمعابد بهو ونيشور ، يثبت ، بأقوى من ذلك ، أن هذا الساحل غير المقرأ<sup>(١)</sup> كان مقر الحضارة قوية ، ومما لا ريب فيه أن الكوند الوحوش لم يكونوا المبدعين لذلك الفن المعمارى الرائع التالد .

وتغشى ساحل أوريسة معابد أكثر من أن تغشاها مدن ، وساحل أوريسة هذا ، الذى يتساوى البراهمة والمهج فى تقديسه ، إذ يقع بين الهند الآرية والهند الدراويدية ، شاهد على اختلاط كثير من العروق والأديان فيه وعلى نظر المؤمنين إليه نظر إجلال واحترام وعلى حجبهم له من كل صوب وحدب مهما كان نوع الإله الذى يعبدونه . ذلك ما يهترهمجى الذى لم يستجد لغير أوثنان فيدعو كالى ووشنو وشيوة فينتقل ما يدور فى خلد من المواجس إلى بنى قومه فيتساقون هم والآخرون فى بعض المعابد حيناً فيغدو المنبؤ أحياناً لأشهر البراهمة ، فلا ترى فرقاً بين الأبيض والأسود وبين الآرى والدراويدى وبين المهمجى والمتمدن فيتحيل إليك امتزاج مختلف العناصر التى يتألف منها سكان شبه جزيرة الهند لوقت قصير .

بحسبنا فى تلك العناصر بحثاً خاطفاً ، فنختم دراستنا بذكر شعب الأوريا المهم القاطن فى المنطقة الساحلية الممتدة من شاطئ أوريسة إلى مصب نهر الغنڄ ، فهذا

(١) المقرأ : الذى يقرى الضيف ، الكثير الضيافة .

الشعب المتوسط ، الذى هو شعبٌ شبه هجى ذو لغة خاصة وغير ذى مثال واضح ، أخذ نصيباً من العروق الكثيرة التى يعيش بينها .



٢٧ - امرأة هندوسية من جنوب الهند  
تهرس الأرض

نطمح أن يكون القارئ قد اطلع ،  
بالخلاصة الحاطفة غير الكاملة التى سردناها  
فيما تقدم ، على ما بين عروق الهند من  
الفروق التى لا حدة لها وعلى ما بين هذه  
الفروق من المساويف العظيمة ، ونحن بعد  
أن بيّنا اختلاف أوصاف تلك العروق  
وأخلاقها وعاداتها ومعتقداتها وبعد أن  
ذكرنا أن أمثلة البشر ودرجات الحضارة  
التي جاوزها منذ فجر تاريخه إلى يومنا هذا  
لا تزال قائمةً بادية في الهند نرى أن نُركب

بعد أن حللنا فنبحث فيما بين هذه العروق من الأخلاق المشتركة وفى ميل هذه العروق  
إلى الوحدة التى قد يصلون إليها شيئاً فشيئاً بالتوالد والخضوع لبعض النظم الكبيرة  
العامية ، ونحن بعد أن درسنا ما يفصل بعض عروق الهند عن بعض ندرس ما تتقارب به  
هذه العروق وما تلتقى فيه من النقاط .

## الفصل الرابع

### الصفات الخلقية والعقلية المشتركة

بين عروق الهند المختلفة

(١) مائشاً عن أحوال البيئة والحياة في الهند من تماثل بين شعوب الهندوس - ما بين فريقي كبير من شعوب الهندوس من الصفات المشتركة - المؤنرات الجمانية والعقلية التي أدت إلى هذه الأخلاق المشتركة - نظام الطوائف والنظام السياسي والمعتقدات الدينية الخ - (٢) الصفات الخلقية والعقلية المشتركة بين أكثر الهندوس - الدعانة والصبر والنسليم والمداجاة وعدم النشاط وعدم الزهر وقندان المبدل الوطني - نتائج عدم النشاط في مصير الهندوس - الصفات الخلقية أفضل من الصفات العقلية في تقرير مصير الأمم - مستوى الهندوس العقلي - مقابلة بين الهندوس والأوربيين - طبقات الهندوس الوسطى - طبقات الأوربيين الوسطى - طبقات الهندوس العليا هي دون طبقات الأوربيين العليا - قدرة الهندس على الإدغام - ضعف رأيهم وبرهانهم - عدم الثقة في تفكيرهم - الفروق بين العروق العليا وغيرها - تطبيق هذه الفروق على الهندوس - نتائج مزاج الهندوس النفسي - تفصيلهم في العلوم وفي التاريخ - الخلاصة .

#### ١ - ما نشأ عن أحوال البيئة والحياة في الهند

من تماثل بين شعوب الهندوس .

ظهر من الفصول التي خصصناها للبحث في عروق الهند اتساع الفروق بين تلك العروق ، فالحق أن شبه جزيرة الهند الواسعة فسيفساء عظيمة مؤلفة من

شعوب مختلفة إلى الغاية ، ففي الهند تجد الوحش القطريّ والرجل المتمدن وما بينهما من آدميٍّ مختلف الدرجات .

وقد رأينا أن المثلّ الجئانية لهذه العروق متباينة جداً وأن كلمة الهندوس تشتمل على أناس مختلفي الألوان مُترَجِّحين بين الزَّنجيِّ الأسود والرجل الأبيض وأن تلك المثلّ تترَجِّجُ بين الجمال الباهر وأقصى البشاعة .

وما لهذه العروق من الصفات الخلقية والعقلية ليس بأقلّ من تلك الفروق الجئانية اختلافاً ، فترى هُوّة عميقة بين الراجبونيّ المشهور بشجاعته النادرة والبنغاليّ المعروف بجبانته الفاضحة ، وترى مثل تلك الهُوّة بين جبليّ راج محل الذين لا يعرفون الكذب وبعض الهندوس الذين يكذبون على الدوام .

ومن الصواب ، إذن ، أن نستنتج ، أولَ وهلةٍ ، فقدان أيّ صفةٍ مشتركة بين عروق ذلك مدى تباينها ، بيد أننا سنرى عما قليل أن هذا زعم خاطئ ، فقد نجم عن البيئات المادية والأدبية الواحدة أخلاق عامة تجمع بين تلك العروق في أسرة واحدة كما يجمع العالم الطبيعيّ مخلوقات متباينةً أشدّ التباين ، كالقيل والغار ، في فصيلة واحدة .

فلنَدعِ الفروق التي عرضناها بدرجة الكفاية ولنبحث في الصفات المشتركة بين عروق الهند المختلفة ، فنرى ، إذ ذاك ، أن الهندوسيّ ينال بهذه الصفات معنىً معيناً ، ولا يظنّ القارئ . مع ذلك ، أنه يكون لهذا المدلول من القيمة المقررة ما لكلمة « الفرنسي أو الإنكليزي أو الألماني » ، فلم يقع تمازج مختلف العناصر بدرجة الكفاية ، ونحن ، لكي نوضح رأينا بأحسن من ذلك ، نتممّل أمر فرنسة في العصر الكارلوثينجيّ وقيمة كلمة « الفرنسي » الدالة فيه على خليط من القوط

والفرّنج والغوليين والرومان بدأ يمتزج فيكتسب بعض الصفات المشتركة .  
ونرى ، قبل أن ندرس الصفات المشتركة لأكثرية الهندوس فنشير إلى  
الأسباب التي أوجدتها ، أن تأتي بتقسيمات قليلة أساسية للعروق الكثيرة التي  
وصفناها فيما تقدم على انفراد ، فبعد أن نصنع هذا على طريقة التحليل نبدأ بالدرس  
على طريقة التركيب .

يُؤدَّى البحث الخاطف إلى إمكان تَكْتِيل جميع تلك العروق في ثلاثة تقسيمات  
أساسية كبيرة ، فأما التقسيم الأول فيشتمل على العروق التي لم تَقَلْ بصيصاً من أية  
حضارة فَتَجَلَّت فيها آثار سكان الهند القطريين الأصليين ، فليس هؤلاء السكان  
القطريون القاطنون في الجبال أو في المناطق المنعزلة إلا أقلية ضعيفة ، وهم من شِدَّة  
الاختلاف عن بقية سكان شِبْه جزيرة الهند ما لا يحتمشدون بها معهم ، فلهاذا لا  
نُفَكِّر في أمرهم هنا .

وأما التقسيم الثاني فيشتمل على الهندوس الحقيقيين الذين هم ، كما علم ، نتيجة  
توالد عروق بيض أو صُفْر مع السكان السُود الأصليين ، فهؤلاء الهندوس إذ كانوا  
على شيء من التمازج في غضون القرون فإنهم مجموع من الزُمَر المتباينة بنسبة العناصر  
التي تتركب كل واحدة منها ، وهذا مع القول إن البِئَنَات المادية والأدبية الواحدة  
التي خضعت تلك الزمر لأحكامها منذ زمن طويل والمعتقدات الواحدة التي اعتنقتها  
قد وَصَمَتْها بعدد من الصفات المشتركة ، وإنه على تلك الزُمَر التي تتألف منها أكثرية  
الهند الساحقة تنطبق هذه الصفات المشتركة التي نرى أن نبحث فيها .

وأما التقسيم الثالث فيشتمل على السكان المسلمين الذين هم نتيجة توالد العرب



والأنفان والفرس والتركمان والغول وغيرهم من الذين غزوا الهند في مختلف الأدوار فانتشروا إلى فتحها ، وكان يصعب خلط هؤلاء المسلمين بزمر التقسيم المذكور آنفاً لوظائفهم خلصاً بعيدين من كل توالد ، بيد أنك لا تجد بين الملايين المسلمين الذين يدينون بالإسلام في الهند سوى أناس قليلين لا تجرى في شرايينهم دماء هندوسية ، هؤلاء المسلمون ، وإن كانوا يختلفون عن زمر ذلك التقسيم الثاني في غير ناحية ، أكثر تأثراً بهذه الزمر من تأثيرهم فيها ، فإذا كان جميع الصفات العامة التي نذكرها فيما يأتي لا ينطبق على المسلمين فإن كثيراً من هذه الصفات مشترك بينهم وبين تلك الزمر مع ذلك .

إن المؤثرات التي أسفرت عن صفات مشتركة هي مادية وأدبية معاً . ويمكن تلخيص المؤثرات المادية في بضع كلمات : فمن هذه المؤثرات نذكر الجوَّ الحارَّ الذي لا يبعد الإنسان إلى الأعمال القاسية ، بل يُسهِّل عليه أمر زراعة الأرض الذي وقَّفت أكثر السكان به نفوسهم عليه من جهة ويؤدي إلى اعتمادهم على النظام النباتي في أمر الغذاء من جهة أخرى ، فالهندوسى يكاد لا يَغْتَطِي ، ويقتصر في طعامه على قليل من النبات ويرتوى بماء صاف ، ويعيش عن سعة ببضعة دوايق مياومة ، فارنفاع درجة الحرارة في بلد الهندوسى ، إذ يؤدي إلى زهد الهندوسى في الطعام واللباس ، لا نجد الهندوسى به الحافز الحاجى الذى يُرْبِل به كسله العليبيى .

ونشأ عن تأثير البيئات المادية المتماثلة وتكرَّر الأعمال الواحدة طرق المعاش متشابهة بحكم الضرورة ، ثم تَبَتَّ أمر هذه المعاش المتشابهة بمؤثرات أدبية واحدة أهمُّها نظام الطوائف والنظام السياسى والمعتقدات الدينية .

ونظام الطوائف هو حجر الزاوية لجميع نُظُم الهند الاجتماعية منذ أُنْى سنة ،  
وبلغ نظام الطوائف من الأهمية ما وَقَفْنَا به مطلباً خاصاً من هذا الكتاب على البحث  
فيه ، فسرى في هذا المطلب ما هى الأسباب الإثنولوجية التى أوجبت فى غابر الأزمان  
وما هى الأسباب التى حَلَّت محلَّ تلك بالتدرج فدام بها مع تتابع القرون ، وسرى  
كيف أسفر ذلك النظام عن تقسيم الهند إلى ألوف من الجمهوريات الصغيرة غيرِ مبالٍ  
بعضها بشؤون بعض ، أو مُعَادٍ بعضاً لبعض ، ومنفصلٍ بعضها عن بعض فى المشاعر  
انفصلاً يتعذر معه أن تكون ذواتِ مآربٍ مشتركة ، وسرى كيف أن طائفة الهندوسى ،  
لا الهند ، هى وطن الهندوسى الحقيقى ، وكيف أن طائفة الهندوسى قد أحاطته  
بشبكة من التقاليد والعادات إحاطةً ثبت أمرها بالوراثة فأضحى خروجه منها صعباً  
إلى الغاية .

وأدَّى النظام السياسى ، الذى هو ثانى المؤثرات المذكورة آنفاً ، وذلك فى غضون  
القرون ، إلى مثل ما أدَّى إليه نظام الطوائف فى تكوين روح الهندوسى ، ويمكن  
تعريف نظام الهند السياسى السائد منذ زمن طويل بأنه يتألف من جماعات صغيرة  
تُعْرَف بالطوائف ، وأن هذه الطوائف متجمعة على شكل جمهوريات صغيرة تُعْرَف  
بالقرى الخاضعة لسيد واحد ذى سلطان مطلق ، وعلى ما اعتور اسم السيد من تبدُّل  
لم يتغير ذلك النظام الذى بلغ من الديومة ما وَهَتْ به روح المقاومة فى الهندوسى  
فتكوّن الهندوسى مع القرون أن يطيع سلطة سيدٍ إطاعةً تامة ، سائراً وفق المعتقدات  
الدينية .

ونذكر التعاليم الدينية ، التى هى ثالثة المؤثرات ، مما أوجب اتصاف الهندوس  
بأخلاق متماثلة ، ولا يستطيع الأوربى أن يدرك تأثير الدين العظيم فى الهندوس إلا

إذا حَقَّقَهُ بنفسه ، فأكثر الأوربيين تدينًا مُفَرِّقَ بين المقدس والمندس تفريقًا لا يفهمه الهندوسى الذى يعتقد أن الآلهة تنظر فى أدق شؤونه وأن تعاليم الدين تهيم على جميع أعماله ، فالدين ، بالحقيقة ، كلُّ حياته إن لم يكن جزءاً منها ، فما السعى والأكل والنوم عند الهندوسى إلا أعمال دينية ، وكلُّ شئ ما خلا أوامر الدين باطلٌ لديه ، والدينُ هو الذى يُوجِّهه ، ولم يرض بِلِقَاحِ الجَدْرِى ، مثلاً ، إلا بعد أن اكتسب شكلاً دينياً ، ونحن ، حين البحث فى تكوين أديان الهند ، نُثَبِّت مقدار الفراغ الذى تملأه الأديان فى حياة الهندوس ومقدارَ عَدِّ الهندوس لكلِّ سلطة عنوانَ قدرةٍ إلهية ، وهنا ، كما فى أمورٍ كثيرةٍ أخرى ، نَتَمَثَّلُ الهُوَّةَ العظيمة التى تفصل الشرق عن الغرب فى كلِّ أمرٍ والتى لم تَفْتَأْ تزيد اتساعاً .

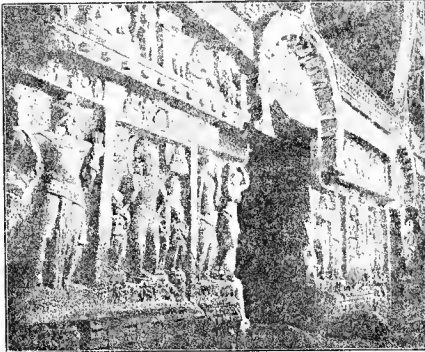
والباحث وقتما يُدَقِّق فى تسليم الهندوسى وإذعانه المطلق لأوامر الآلهة فيعلم أن هذه الأوامر سيطرت عليه قرونًا كثيرة وأن تعاليم مَنُو الدينية هى صاحبة السلطان فى الهند منذ ألفى سنة يدرك درجة انسكاب أذهان الهندوس التى احتملت نيراً واحداً تلك المدة فى قَالَبٍ واحد .

ولنَبْحَثْ ، بعد أن أوضحنا تأثير تلك العوامل الكبيرة ، فى الأخلاق العامة التى نشأت عنها .

## ٢ - الصفات الخلقية والعقلية المشتركة بين أكثر الهندوس

لا تَجِدُ فى أمة خضعت منذ عِدَّة قرونٍ لمعاشٍ وأحوالٍ مادية وأدبية ، كالتى ذكرناها آنفاً ، ما تَجِدُهُ فى الأحرار من شِدَّة البأس ومتانة الخلق ، فلو كان عند الهندوس مثل ذلك ، أو أقلُّ من ذلك ، لخلعوا نيرَ الأجنبي عنهم منذ زمن طويل ،

فلا عَجَبَ إذا رأينا في الهندوس من النقائص ما يُرى عادةً في الأمم التي رَتِبتْ<sup>(١)</sup> حكمَ الأجنبيِّ قروناً كثيرةً ، فالهندوسى<sup>(٢)</sup> ، على العموم ، حَوَّارٌ<sup>(٣)</sup> هَيَّابٌ مَكَّارٌ ولاج<sup>(٤)</sup> مَسْلَقٌ<sup>(٥)</sup> إلى أبعدِ حدٍّ ، وتدلُّ أوضاعه على الخداع والإخلاف<sup>(٦)</sup> ، وهو بعيد من المبادئ الوطنية ، وما عُرِّضَ له من البغى والظلميان أحقاباً<sup>(٧)</sup> جعله يرى الخضوع لسيد على أن يحترم هذا السيد شرائع طائفته وعقائده الدينية ، فالهندوسى ينقاد سلفاً لجميع أوامر سيده ويَعُدُّ نفسه سعيداً إذا ما نال حُفنةً أرز يُمسِكُ بها رَمَقَه .



٢٨ - كارتى . مدخل معبد مصنوع تحت الأرض في القرن الثانى قبل الميلاد

(١) رثم الشيء : ألغىه - (٢) حَوَّارٌ : الضميف الرخو - (٣) ولاج : كثير الولوج - (٤) ملاف : كثير التلافى - (٥) ألغى : ألغى - (٦) أخقاب : جمع حقب وهو ثمانون سنة أو أكثر .

والهندوس قوم لَيِّنُونَ صَابِرُونَ مُسَلِّمُونَ ، وأشدُّ نقائصهم وفقاً لنظر الأوربي هي ، خلا ما تقدم ، البِلَادَةُ والغفلةُ والجمول .

والجمول أظهر أخلاق الهندوس ، وبالجمول نَمَسَّرُ خضوع ٢٥٠ مليون هندوسي لسلطان ٦٠٠٠٠ إنكليزي من غير أن يَرَقَمُوا عَقِيدَتَهُمْ<sup>(١)</sup> ، مع أنه يسهل عليهم أن يُبِيدُوا هؤلاء الإنكليز في يوم واحد إذا قاموا قَوْمَةً رَجُلٍ كما يسهل على رَجُلٍ<sup>(٢)</sup> من الجراد أن تُهْلِكَ بَرَّةٌ حقل ، وليس هذا مما يصدر عن الهندوس ، وما اضطراب فصائل من السباهي الساخطين في سنة ١٨٥٧ إلّا فورةٌ محلية عارضة لم يكثر لها مُعْظَمُ القوم .

وسنرى أن مستوى الهندوس العقلي المتوسط ليس دون مستوى سادتهم الأوربيين العقلي المتوسط ، بيد أن الهندوس أقلُّ من هؤلاء الأوربيين أخلاقاً بمراحل ، وفي هذا بيانٌ لسبب انقياد الهندوس للغربيين ، والأخلاقُ (أى الثبات والعزم) ، هي ، كما نعلم من التاريخ ومن دراسة الناس ، تُمَثِّلُ دوراً في حياة الأفراد والأمم غير الذى يقوم به الذكاء ، فبالأخلاق ، على الخصوص ، أكثرُ مما بالذكاء ، تُؤَسَّسُ الدِّيانات وتُشَادُّ الدول ، وفي صراع يقع بين شعبين يتألف أحدهم من أناس أذكاء متعلمين متصفين بالحدَر الذى هو وليد الذكاء قائلين ببطلان كلِّ مَثَلٍ عالٍ غير مستعدين للتضحية بأنفسهم في سبيل المَثَلِ العُلْيَا ويتألف الآخر من أناس محدودي الذكاء عُنْدَ لا يتأخرون عن بذل أرواحهم انتصاراً لدين يَتِمُّ النصر لهؤلاء على أولئك لاريب ، فهذا ما قلته غير مرة في غير كتاب ، ففيه مفتاح كثير من حوادث التاريخ التى يَظَلُّ

---

(١) المقبرة : الصوت - (٢) الرجل : القطعة العظيمة من الجراد خاصة وهو جمع على غير لفظ واحد

إدراك أمرها متعذراً بذونه ، فإذا كان الرومان قد قهروا الإغريق ، وإذا كانت قبائل العرب التي هي من شِبَاه البرابرة قد خَرَجَتْ من جزيرتها ففتحت العالم الإغريقيّ الرومانيّ ، وإذا كان المسلمون قد ملكوا الهند ، ثم جاء إنكليزٌ قليلون فدَوَّخوها ، لم يتفق ذلك كله لهؤلاء الفاتحين جميعهم إلا بفضل ما اتصفوا به من شِدَّة العزم أكثر من انصافهم بقوة الذكاء ، فالعزيمة هي أقوى ما في البشر من القُوَى .

ويُضَاف إلى الخمول الذي هو أظهر صفات الهندوس عدم اكترائهم الدال على الإذعان والتسليم فالقدَّر فيُعْضَى الهندوسيُّ هادئاً عن كلِّ ما لا يَمَسُّ آعَالِهِ طائفتَهُ ومعتقداته الدينية فيحتمل أقسى ضروب التجبُّوت عاداً إياها أمراً مُقدَّراً لا مفرَّ منه . وليست شجاعة الهندوسيِّ مثل شجاعة الأوربيين ، فالهندوسيُّ يزدرى الحياة ولا يَهْزُهُ الموت ، ولا يحاول اجتنابه ، لِمَا يَجِدُهُ من عدم استحقاقه لذلك ، ولِمَا يراه من أن كل عمل للفرار منه لا يُجْدِي نفعاً .

وعدمُ اكتراث الهندوسيِّ لا أكثر ما في هذه الدنيا يؤدي إلى عدم التأثير فيه بمثل العوامل التي يُؤثِّرُ بها في الأوربي ، فكيف يُؤثِّرُ في أناس لا يبالون بالحياة ولا بالموت ولا يشعرون شَيْئاً من فرض أية عقوبة تنصُّ عليها قوانيننا ، ولا سيما السجن ، ولا يطلبون في كل يوم غير وَجْبة أرز يسُدُّون خَلَّتَهُمْ بها ؟ فالهندوس إذا ما نالوا مثل هذه الوجْبة لم تَجِدْ ما يُخْرِجُهُمْ من بِلَادَتِهِمْ ، فَعِدِ العامل الهندوسيُّ أي مبلغ من المال مقابلَ عملٍ يقوم به في وقت معين وَنَلَّ منه أيَّ عهد بذلك لم يُشْجِرْ ما عاهدك عليه ، فالغدُّ عند الهندوسيِّ مستقبلٌ بعيد مشكوك في أمره كثيراً

فلا يدور في خلدَه أن يُفَكِّرَ فيه ، فالأوربيّ الذي اختبر الهندوس قليلاً يعلم جيداً أنه يجب عليه ، إذا أراد أن يعتمد على تحاليلهم ، مثلاً ، ليكونوا حاضرين في الزمن المُقرَّر ، أن يحملهم على النوم ليلاً أمام بابه .

ويجب على الباحث أن يدرس أحوال الهندوس عن كُتُوبٍ ليُعلم جهلهم بعض مشاعرنا البسيطة التي انتقلت إلينا بالوراثة كالدقة والضبط ، ومن ذلك أن الهندوس في بدء إدخال الخطوط الحديدية إلى بلادهم كانوا يصلون إلى محطاتها بعد ساعتين أو ثلاث ساعات من الوقت المُقرَّر لذهاب القطار ، فلما علموا بالتجربة أن القطار تمضي من غير أن تنتظرهم صاروا اليوم يقدون إلى المحطات قبل الميعاد بساعتين أو ثلاث ساعات ، فمن ثمّ ترى أن خُلقَ عدم الضبط فيهم لم يتغير، بل بدّل دليله على حسب تعبير علماء الجبر .

وقد عاملتُ هندوساً من جميع الطبقات ومنهم خيرُهم الجامعات الأوربية ، فلم يحدث أن أناق واحد منهم مرّةً واحدةً في الوقت المعلن ، مع أنني لم أجد في الهند إنكليزياً واحداً يُخاف الميعاد .

ونحن ، بعد أن درسنا أخلاق الهندوس العامة ، نرى ، للوصول إلى حكمٍ صائب ، أن نبحث في صلاتهم بالأوربيين وفي علاقات بعضهم ببعض .

يأتى لم الأوربيون ذوو الصّلات بالهندوس من مُداخلة هؤلاء وعدم صدقهم ، وهم ينسَوْنَ أن هذه النقائص من مقتضيات علاقات العبد بسيّده ، فصِلاتُ الهندوس بعضهم ببعض هي على خلاف ذلك ، وإذا ما اتخذنا احترام المرء لطباع بلده وعاداتها

وشرائعها وما ينطوى عليه هذا المرء من التقوى وروح التسامح مقياساً أمكننا أن نقول إن عوام الهندوس أفضل من عوام الأوربيين وإننا كلما صعدنا في السلم الاجتماعية بدا لنا العكس فرأينا فقدان الأخلاق في الهندوس الذين تخرّجوا على الطريقة الأوربية فتبّت لنا بذلك فساد النظرية القائلة إن التعليم يرفع مستوى أخلاق الناس وعلمنا بذلك أن التربية التي تلائم احتياجات أمة فتصلح لها تأتي بنتائج سيئة عند تطبيقها على أمة أخرى سلكت طريقاً أخرى في التطور .

وتقتصر نقوى الهندوسى على أبناء طائفته ، ولا تنس أن هذا من مقتضيات أوامر دينه القائلة إن العمل يكون ذنباً على حسب أهمية المجنى عليه ، فمع أن شريعة منو تمدّ شتم البرهمنى جناية تنصّ على أن أكبر جناية على الشودرى من اللّمس<sup>(١)</sup> . ولا أرى أفضل من قول الأستاذ الإنكليزى مستر مونير وليامز الخبير بأحوال سكان الهند في أخلاق الجمهور الهندوسى ، قال هذا الأستاذ :

« لم أر في أية ناحية من أوربة شعباً ، كالهندوس ، متديناً مُتِمّاً لواجباته خاضعاً لأولياء الأمور مُحَقَرِماً ، مع خفض جناح ، للسنّ والعلم مطيعاً لأبويه ، أجل ، إن للهندوس نقائص ومعايب ، ولكن ذلك دون ما فى الأوربيين ، وإنى لأشكّ فى أن يكون أسوأ الهندوس ذا مساوىء وشوائب كما فى طبقات الأوربيين التى تقابل طبقته . »

ذكرنا صفات الهندوس الخلقية المشتركة على العموم ، فنرى الآن أن نُقدّر مستوى أهليّاتهم العقلية ، ويتطلب هذا التقدير مقياساً فننخذ الأوربيين مثلاً .

---

(١) اللّمس : سفار الذنوب .



ولكى تكون المقابلة ممكنة يجب أن تتناول عناصر متماثلة يُقاس بعضها ببعض  
فتقابل بين هندوس الطبقات الوسطى بأوربي الطبقات الوسطى وتقابل بين هندوس  
الطبقات العليا وأوربي الطبقات العليا .

أشك في تأدية المقايسة بين طبقات كلا الفريقين الوسطى إلى تفوق يذكر  
للأوربيين مهما بولغ في التدقيق ، نعم ، إن الهندوسى دون الأوربي مبادرة وأبطأ  
منه عملاً ، ولكنه يستطيع أن يقوم بمثل ما يقوم به الأوربي من غير عناء وآلات  
أقل من آلات الأوربي ، فيصنع كأحسن عامل أوربي أنواع المصنوعات الخشبية  
والحجرية والمعدنية ، وما يؤدى إليه التخصص من إضعاف مستوى الأوربي لم يؤثر  
في الهندوسى بعد ، والهندوس مثل الأوربيين ، إن لم يفوقهم ، فى القيام ببعض  
الفنون كفن العمارة .

والهندوس مساوون للأوربيين فى أكثر الأعمال التى لا تستلزم غير أهليات  
عقلية متوسطة ، فتجد بين الهندوس محامين وأطباء ومهندسين يعدلون من هم فى  
المستوى المتوسط بيننا ، فالهندوسى يستطيع كالأوربي أن يرسم صورة بناء وأن  
يسوق قاطرة وأن يدير جهاز برقى ، وتجد الهندوس فى الإدارات الإنكليزية بالهند  
يقومون بأكثر وظائف البريد والمصارف والمالية والخطوط الحديدية ، الخ .

ويبدو قصور الهندوس وعجزهم عند الصعود فى أعلى درجات المقياس العقلى  
حيث قوة المبادرة وروح الإبداع والقدرة على التأليف بين الأفكار الكثيرة وتفرق  
ما انتأف منها وما اختلف ، فالهندوسى يتعذر عليه أن يدير مشروعاً صناعياً عظيماً  
وأن يقود الرجال وأن يقوم بالمباحث العلمية وأن يأتى بالاكتشافات وما إلى ذلك

كلُّهُ من الأعمال التي تتطلب استقلالاً وحرية سيرة ، فالهندوسى ، وإن سَهِّلَ عليه أن يدير قاطرة أو جهاز برقى ، يستحيل عليه اختراعهما ، وتقريباً للذهن نقول : إننا إذا جمعنا اتفاقاً ألفَ أوربيٍّ وَجَدْنَا بينهم ٩٩٥ على الأقل لا يفوقون ألفَ هندوسىٍّ يُجْتَمِعُونَ اتفاقاً أيضاً ، وإن الذى لا يُجِدُهُ فى الهندوس هؤلاء هو واحدٌ أو أكثر من ذوى المواهب العالية والأهليات النادرة .



٢٩ - أجنتا : منظر عام لمداخل فسم من الأديار والمعابد التي نحتت تحت الأرض في منحدر الجبل بأجنتا بين القرن الثانى قبل الميلاد والقرن السابع بعد الميلاد

هذه مسألة مهمة قد فصَّلْتُها فى كتاب آخر فذكرتُ أن الفروق بين العرق العالى والعرق المتأخر لا تقوم على تفاوت فى مستوى كلا ذينك العرقين العقلى المتوسط ،

بل تقوم على عَطَل العرق المتأخر من رجال قادرين على مجاوزة ذلك المستوى ، وهذا أمرٌ أساسيٌّ يمكن الاستدلال عليه في العوامل النفسية ، وهذا أمرٌ أساسيٌّ قد سعت في استنتاجه من العوامل التشرّحية أيضاً ، فقد أثبتُ ، بماقت به من المباحث في عِدَّةٍ جاجمٍ من عروق مختلفة ، أن العروق العالية تحتوى على الدوام مالا تجده في العروق المتأخرة من الجاجم الكبيرة الواسعة .

ولنترك تلك المبادئ الفلسفية العامة ولنُؤمِّن ما يختلف به هندوسى الطبقات العليا عن أوربى الطبقات العليا ، لنُبَصِّر أن ذلك الهندوسى يفرق عن ذلك الأوربى ، على الخصوص ، في عَطَل من روح الضبط والدقة وروح النقد وخلق المبادرة وأصالة الرأى وقوة البرهان وفي سعة خياله وفي مجزئه عن رؤية الأمور كما هى عليه وما إلى ذلك من النقاى التى لا يَطْفُو عليها قدرته على الإدغام وما فيه من المنطق الذى لا يَعدُو به حدَّ استنباط عِدَّة نتائج من الأمر الواحد فلا يستطيع أن يقابل بين التشابهات والمختلفات التى تُستخرج من مقايسة شتى الأمور .

عَطَلُ الهندوسى من روح الضبط واضح ، فالأمور تَتَمَوَّج عنده ، كالضباب ، من غير ضابط ، فبدو له كما لو كانت من خِلال عَدَسَاتٍ كَلَمَّا رَا المَشَوِّهَةَ التى يعرفها علماء القيزياء ، فترى نُظْمه الدينية وأفاصيصة التاريخية وقصائده القومية مبهمَةً متناقضةً ، ولهذا التناقض وعدم الضبط تَجِد أدیان الهندوسى ، ولا سيما البُدْهِيَّة ، غامضةً لدى علماء أوربة الذين تَعَوَّدوا دِقَّة المنطق فلا يكون للكلمات عندهم سوى معانٍ صريحة معينة ، ولذلك يلوح الإلحاد والشرك للأوربى ، مثلاً ، أمرين تَفْصِل

أحدهما عن الآخرة عميقة مع أنهما لا يبدوان للهندوسى إلا أمرين يمكن التوفيق بينهما فتقرأ فى كتبه فرضهما عليه .

وأمر كفقدان الضبط وتووج الفكر ، وإن كانت تُحتملُ فى الإلهيات والأشعار والقصائد الدينية ، تُضحى ثقيلة غير سائغة عند تطبيقها على الموضوعات التى لا بد لها من الضبط ، وأمر كذلك حالت دون مجاوزة الهندوس أدنى المراحل فى العلوم الصحيحة ، أجل ، قد هضم الهندوس ما علمهم إياه العرب فيما مضى وما يُعلمهم إياه الأوربيون فى الزمن الحاضر ، ولكنهم لم ينتهوا إلى اكتشاف واحد فى ميدان المعرفة .

ومن آية عدم الضبط ذلك أنك لا تجد بين ألوف الكتب التى وضعها الهندوس فى ثلاثة آلاف سنة من سنوات الحضارة كتاباً واحداً يشتمل على توارىخ صحيحة ، فاضطر العلم الحديث إلى اتخاذ بعض الطرق المصنوعة كى بُعِنَ تعيناً تقريباً الأزمنة التى ظهر فيها أشهر ملوكهم ، ولا تسأل عن أنسابهم التاريخية ، فمهما يتجلى لك استعداد الهندوس ، عن حسن نية ، لرؤية الأمور على غير ما هى عليه ورواية ما يشاهدونه مُحرَفاً مُبدلاً .

وإذا أردنا إجمال ما ورد فى هذا الفصل عن الأخلاق المشتركة بين أكثرية الهندوس قلنا إن عوامهم ليسوا دون عوام الأوربيين ، وإنه ليس عندهم ما عند الأوربيين من أصحاب النفوس العالية ، وإن معظمهم عاطل من النشاط والثبات والإرادة ، وإتهم مقسومون إلى عدة طوائف مؤلفة من ألوف الزمّر التى ترى لكل واحدة منها جنسية خاصة ذات مصالح تختلف عن مصالح الأخرى ، وإن أحوالاً

كهذه تُفسَّر الدور الذى مثَّلته الهند على مَسْرَحِ العالم والذى ستمثله ، فالهندُ ،  
إذ كانت أُمَّةً منذ الأزل كُتِبَ عليها أنْ تخضع لِسَادَةِ من الأُجَانِبِ على  
الدوام .

تَمَّ البَحْثُ فى البَيِّنَاتِ والعُرُوقِ التى هى عَوَامِلُ حَضَارَةِ إِحْدَى الأُمَمِ الأَسَاسِيَّةِ ،  
وقد تَجَدَّ عَوَامِلُ أُخْرَى فى تَطَوُّرِ هَذِهِ الحَضَارَةِ ، وَلَكِنِهَا تَسْتَنْدُ إِلَى البَيِّنَاتِ والعُرُوقِ  
على الدوام ، وَنَحْنُ ، إِذْ فَرَّغْنَا مِنْ بَحْثِنَا التَّمْهِيدِيِّ ، نَدْرُسُ الحَضَارَاتِ التى أُيْنِعَت  
فى الهند والتطورات التى اعتُورَتِهَا فى غُصُونِ الأَجْيَالِ .

---



البَابُ الثَّالِثُ  
تَارِيخُ الْهِنْدِ





## الفصل الأول

### تاريخ الهند قبل المغازي لأوربائية

(١) مصادر تاريخ الهند - نقص المصادر التاريخية - ليس للهند تاريخ -  
اقتصار تلك المصادر على المباني والكنب الدينية والأساطير وأقايص قدماء  
السياح - أهمية المباني والتماثيل والنصب - لا يزيد تاريخ أقدمها عن  
ثلاثة آلاف سنة - الأسس لتقسيم تاريخي - (٢) العصر الويدي - العصر  
الويدي هو عصر الهند الأساطيري - المغازي الآرية - كتب الوبدا -  
(٣) العصر البدهي - قعدان الوثائق التاريخية - الغزو الإسكندري -  
علاقات الإغريق بالهندوس - أشوكا ووكراماديتيه - عواصم الهند القديمة -  
(٣) العصر البرهمي الجديد - وثائق هذا العصر - دوامه - (٤) العصر  
الإسلامي - أهمية الغزوات الإسلامية - لم يبدأ تاريخ الهند الصحيح إلا في  
هذا العصر - تعاقب الدول الإسلامية في الهند - المغول - سقوط دولتهم -  
(٥) تاريخ جنوب الهند - تاريخ جنوب الهند مستقل عن تاريخ شمالها -  
ممالك الدكن الهندوسية القديمة - ممالك بنديا وجيرا وجولا وجالوكية -  
فتح المسلمين لجنوب الهند - سقوط دولة ييجانفر .

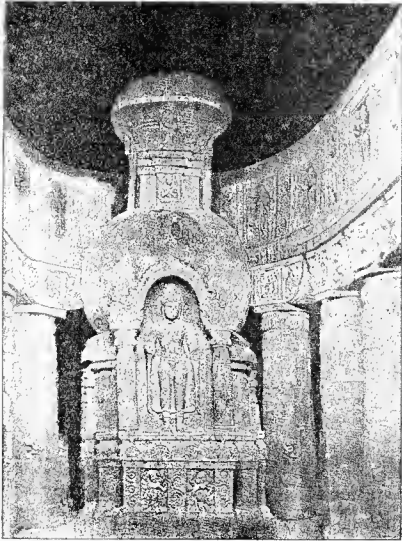
### ١ - مصادر تاريخ الهند

ليس للهند القديمة تاريخ ، وليس في كتبها وثائق عن ماضيها ، ولا تقوم  
مبانيها مقام الكتب ما دامت لا تزيد في القَدَم عن ثلاثة قرون قبل الميلاد ، ولولا  
ما في قليل من الكتب الدينية من أكذاس الأساطير التي يُستشف منها بعض  
الحوادث التاريخية لظل ماضي الهند مجهولاً جهل ماضي جزيرة الأطلننيد التي مُحِيت

بانقلاب جيولوجى فجاء ذكرها فى الأساطير القديمة التى خَلَدَهَا أفلاطون .  
وأقدم المصادر التى يُرجَّع إليها فى تَبَيُّن أثرِ الماضى المفقود أشعَارُ ويدا الدينية  
التي كُتِبَتْ فى أدوار مختلفة والتي تَصِلُ فى القِدَمِ إلى ما قبل القرن الخامس عشر من  
التاريخ الميلادى تقريباً ، ثم تأتى القصائد الحماسية المعروفة بمهابهارتا وراماينا وشرىعة  
مَنُو الدينية والاجتماعية .

وليس أدب الهندوس فى عصرنا بأغنى منها فى العصر الذى قبله ، والمصادر  
الوحيدة التى يمكن مراجعتها فى الأمر هى المجموعات التى أَلَفَهَا البورانا ووُضِعَتْ فى  
أدوار مختلفة لا تُجَاوِزُ القرن الثامن بعد الميلاد ومُلِئَتْ بانحرافات العجيبة وَعَظِلَتْ  
من أى تاريخ عَطَلَّ لا يستطيع العلم الحديث أن يستنبط معه كبيرَ شىء ، فالحق أن  
دور الهند الناريحى لم يَبْدَأْ إلا بعد المغازى الإسلامية فى القرن الحادى عشر بفضل  
مؤرخى المسلمين .

ونُضِيفُ إلى تلك المصادر الناقصة أقاصيصَ السَّيَّاحِ الذين زاروا الهند فى القرون  
القديمة ، وهذه الأقاصيص قليلة جداً ، وليس لدينا مما هو خاصُّ بما قبل المسيح سوى  
مختارات من أُنْدَوْتة ميفاستين السفير اليونانى لدى بلالط مَعْدَهَا قبل الميلاد بنحو  
ثلاثمئة سنة ، ولم يَنْتَه إلينا عن الثلاثة عشر قرناً التى انقضت بين ذلك الزمن القديم  
والمغازى الإسلامية غيرُ قِسْمَتَيْنِ لِلْحَاجِّينِ الصِّينِيِّينَ فاهيان وهويون سانغ اللذين زار  
أولهما الهند فى القرن الخامس وزارها الآخر فى القرن السابع ، وذلك خلافاً ما ورد فى  
كتب المؤلفين من شُدُور ، وتُعَدُّ قصة ثانى ذينك الحَاجِّين ، على الخصوص ، أهمَّ الوثائق  
التي وَصَلَتْ إلينا عن الهند قبل الغزوات الإسلامية .



٣٠ - أجتا , عراب معبد منحوت تحت الأرض ( بلغ ارتفاع التناال الكبير مترأ  
واحداً و ٦٠ سنينراً )

وما في كتب التاريخ من نقص كبير عن الهند يُشير عن أهمية الآثار الماثلة كالمباني والتماثيل والنصّات<sup>(١)</sup>، وأقدم هذه الآثار الأعمدة التي نقشَ أشوكا عليها مراسيمه قبل الميلاد بـ ٢٥٠ سنة، ثم يليها في القِدَم نقوش المباني العظيمة كجِهَارَت وسانجِي وغيرها من التي أقيمت في القرن الأول من الميلاد أو قبله بقرنين أو أكثر، فمن يُنعم النظر فيها يظفر بفوائد كبيرة عن طبائع الشعوب التي أقامتها وعاداتها ومعتقداتها وفنونها ويعلمُ درجة تمدنها .

وإلى تلك الآثار التي لا يكاد أقدمها يرجع إلى ما قبل ثلاثة قرون قبل الميلاد تُضَاف المعابد المصنوعة تحت الأرض والتماثيل والنقود التي تُلقي ضوءاً على تاريخ البقعة التي أنشئت فيها، ومن ذلك أن كَشَفْنَا من بقايا التماثيل والمباني تأثير الإغريق العميق في بعض المناطق بعد الإسكندر بَعْدَ قرون، أي بعد طرد الإغريق من الهند بزمنٍ طويل، ومن ذلك أن نقوش المعابد تَكْشِف لنا عن منشأ ما انتاب الهند القديمة من المعتقدات وتطور هذه المعتقدات .

وللدين أثر بالغ في الهندوس على الدوام كما في أمم الشرق، وبلغ الدين من الشأْن العظيم في الهند ما نَقْدِر أن نتخذ به تطور المعتقدات أساساً لتقسيم تاريخي .

ويشتمل ذلك التقسيم الواسع، الذي لم تُحدّد فيه الأدوار لتداخلها أو لوجودها معاً، على الأعصر الآتية : ١ - العصر الويدي، ٢ - العصر البرهمي، ٣ - العصر البُدْهي، ٤ - العصر البرهمي الحديث أو عصر النهضة البرهمية، ٥ - العصر الإسلامي، ٦ - العصر الأوربي .

(١) النصمة : الصورة التي تمجد .

## ١ - العصر الويدى

ترجع أوائل العصر الويدى إلى ما قبل القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وآيتها غزو الآريين للهند .

ويُعَدُّ العصر الويدى عصرَ تاريخِ الهندِ الجغرافىِّ ، فكلُّ ما نعرفه عنه من علم قليل هو ما نَكشَف عنه الكتبُ الدينيةُ المعروفة بالويدا والتي أُصيب في تسمية أهمِّها رِغْ ويدا بتوراة آريي شمال الهند الغربى .

عاش قدماء الآريين الذين استوطنوا ما بين جبال هِمَالَيَّة وجبالِ وِندھيَا في البَدَاة رعاةً أعراباً ، ومن المفروض أن قاموا بغزوم شبيئاً فشيئاً ، ويظهر أن أقدمَ كتبهم وُضِع قبل الميلاد بخمسة عشر قرناً حين كانوا لا يعرفون نظام الطوائف وحين كانوا يعبدون قُوَى الطبيعة غيرَ مقيمين لها معبداً ولا هيكلًا ، وإلى الشعوب التي مَلَكَوها جَلَبُوا لغةً ودِيانةً جديديتَيْن ولم يأتوها بفنٍّ عِمارة ، فهو لاء الآريون الفطريون ، وإن كانوا قادرين على وضع الكتب ، لم يكونوا عارفين بِشَيْدِ المباني الحجرية ، ولا شَيْء يَدُلُّ في أقدم كتبهم على أنهم أنشأوا معابدَ وقصوراً .

وسنعود إلى العصر الويدى في الفصل الذى خَصَّصناه لدرس الحضارة الآرية بالهند ، فلا نرى أن نُسمِّب في بيانه الآن كما أننا لا نُسمِّب في بيان العصر البرهمى الذى خُتِم به ذلك العصر فنعود إلى دراسة حضارته ، وهذا إلى أن وثائق هذين العصرين التاريخيَّة الصحيحة مفقودة ، وما انتهى إلينا من قصائد العصر البرهمى التى أيدتها أُحْدُوثَة ميغاستين يُثَبِّت أن الهند أخذت في العصر البرهمى تَعَطَّى بالمدن والمعابد والقصور ، وإن لم يَصِل إلينا أىُّ طَلَلٍ لمبانيه .

## ٢ - العصر البُدَهي

يرجع ظهور البُدَهيّة في الهند إلى الأساطير أكثر مما إلى التاريخ ، فلا نعرف عن عصرها الأول غير ما ورد في الكتب البُدَهيّة من الأحاديث الخيالية ، ثم أخذ صريح الحوادث يبدو والإيهامُ ينبجى بعد مغازى الإسكندر ، ولا سيما حين أضحت البُدَهيّة ديناً رسمياً قبل المسيح بنحو ٢٥٠ سنة ، ثم عاد الغموض بعد زمن قليل مع الأسف ، وبقيَ على ما كان عليه عدّة قرون .

وقع غزو الإسكندر في سنة ٣٢٧ قبل الميلاد ، فلما أتمَّ الإسكندر فتح بلاد فارس عزم على فتح الهند لكي يصبح سيد آسية .

وما كان من انقسام منطقة البنجاب إلى عدّة دويلات مستقلة متنافسة يَسرَّ للإسكندر بدء فتحه للهند ، والإسكندر حضر إلى الهند على رأس جيش مؤلف من ١٢٠٠٠٠ مقاتل ، وكانت نواة هذا الجيش من الإغريق وسياجته من الفُرس ، وكان لديه أدلاء من الهنود ، وكان على اتفاق مع رؤساء لسكان البلاد الأصليين ولا سيما مع ملك تاكشिला الواقعة بين نهر السُّنْد ونهر جهيلم الذي كان يُعرَف بنهر هيداسپس .

رَحَفَ الإسكندر من بقطريان إلى مدينة كابل ثم سار إلى الهند فعبّر نهر السُّنْد فاعترض له بُورس ملك ما بين هيداسپس وجناب فهزم هذا الملك ثم حالفه تاركاً له مملكته فخضع له إذ ذاك عدّة ملوك ولا سيما ملك كشمير .

ثم زحف الإسكندر بعد عدّة وقائع ضدّ رؤساء من الأهالي إلى نهر هيفاس (المعروف اليوم بنهر بيكس) ، فلم يوافقه جيشه على السير إلى ما وراءه ، فأقام على

ضيفاه اثني عشر هيكلاً تذكاريًا لتسكون علامًا على نهاية الغزو ، فلما عاد إلى صِغاف هيداسپس أنشأ أسطولاً فَبَزَلَ به إلى حيث يَصُبُّ في نهر السُّند ، ولم يفتأ الإسكندر يحارب إلى أن وَصَلَ إلى بَتِّيَالَة الواقعة على مصب نهر السُّند فأرسل أسطوله إلى الخليج الفارسي بقيادة نِيارُك وسار على الشاطئ ، ثم قَسَمَ جيشه إلى فِئَلَتَيْنِ فأعاد أحدهما من طريق كرمان إلى بلاد فارس بقيادة كراتر وَرَجَعَ بالآخر من طريق جدروزيا (السُّند) ، ثم وَصَلَ ذلك الأسطول إلى الخليج الفارسي وتلاقى الإسكندر وكراتر فأقيمت الأعياد ابتهاجاً بالعودة من الغزو .

ولو فظفنا إلى غزوة الإسكندر من ناحية الفتح لقلنا إنها غير ذات نتائج لتلاشي الحاميات الإغريقية التي تركها في الهند في بضع سنين ، بيد أنه كان لتلك الحملة نتائجٌ طيبةٌ لوصولها أوربة بالهند لأول مرة .

اغتم الملك الهندوسي جَنْدَرُغُطَا (المعروف لدى الإغريق بساندروكوتوس) فرصة رجوع الإسكندر ، وكان ابناً لأحد زعماء البنجاب الذين شَتَّتَ الإسكندر شملهم ، فَوَسَّعَ رُقْعَةً مملكته في شمال الهند بالتدريج ، مُنْكَكلاً بالحاميات الإغريقية جاعلاً باتلي بوترا (بَتْنَة الجديدة) عاصمةً للمملكة مَعْدَهَا ، ولم يلبث أن ذاع صيته فأرسل نيكاتور السالوقي ، الذي مَلَكَ بعد وفاة الإسكندر سورية وبلادَ بابل والولايات الواقعة بين نهر الفرات ونهر السند ، حوَّالَى سنة ٣٠٠ قبل الميلاد ، سفيراً إلى بَلَّاطه اسمه ميغاستين ، فأقام هذا السفير الإغريقَ زمناً طويلاً بباتلي بوترا ، فمن القصة التي أنها هذا السفير فانتهى إلينا جزء منها اطلعنا ، لأول مرة ، اطلاعاً صحيحاً على طبائع الهندوس وعاداتهم في ذلك الزمن .

ولم تقتصر علاقات الإغريق بالهندوس على غزوة الإسكندر ولا على سفارة

ميناستين ، فالיום نعلم ، مع سكوت المؤرخين ، وذلك من النقود وبقايا المباني التي انتهت إلينا ، أن خلفاء الدولة الإغريقية البطريرانية التي أقامها نيكاتور السلوق فتحوا البنجاب وشادوا عدّة ممالك ووصلوا إلى مقرا ، وأن أفاقاً اسمه ميناندر أسس سنة ١٢٦ قبل الميلاد مملكةً بين نهر جمنّة ومصب نهر ترّبدا .

والنقوش والنّصّات<sup>(١)</sup> والنقود هي كلّ ما انتهى إلينا من تلك الممالك الإغريقية في الهند ، فمنها نعلم أن هذه الممالك زالت أمام مغازي الشيث حوالى الميلاد ، وأن هذه المغازي بدأت في القرن الذى جاء قبل الميلاد ، وأن الشيث استولوا على شمال الهند الغربى فأقاموا مملكة اشتملت على بقطريان وضيّاف السند والبنجاب وقسم من راجبوتانا وأن أجل هذه المملكة كان قصيراً ما احتل طردُ الشيث من الهند في أوائل القرن الأول من الميلاد .

ولتدع جانباً هذا الجزء الغامض من تاريخ الهند الذى بعثه المباحث الحديثة ولنأت إلى جندّر غبّتا وخلفائه .

يُدعى حفيد جندّر غبّتا بأشوكا الشهير الذى تقلّد الملك سنة ٢٥٠ قبل الميلاد تقريباً ، ومما جاء في بعض الأساطير البُدْهيّة أن أشوكا هذا قتل إخوته المئة الذين وُلدوا لأبيه من ستّ عشرة زوجة فأمن بذلك أمر منافستهم له فبسط ملكه على جميع شمال الهند ، وتّضح حدود مملكته من الكتابات التى لا تزال موجودة ، فمنها نرى أنها قامت بين أفغانستان والبنغال وهيمالية وترّبدا وأنها تاخّت مملكة الإغريق في بقطريان من الغرب .

---

(١) النّصّة : الصورة التى تمبّد .



وُبدئ تاريخ الهند المعمرى بالملك أشوكا ، ولا يزال كثيرٌ من العمَد التى رفعها  
لِتُتَقَسَّ عليها مراسيمه قائماً ، وأشهر هذه الآثار ، كالموجودة فى بهارت وسانچى  
وبُدْهَة غَيَا ذات النقوش البارزة المعتبرة فى تاريخ البُدْهِيَّة ، صُنِعَ فى أيام ملكه  
أو بعدها بزمن قليل ، ولم ينته إلينا شئ من القصور التى أنشأها ، ونفترض ، مع  
ذلك ، أنها جميلةٌ جداً ، فقد روى الحاجُ فاهيان ، الذى رأى أطلالها وأطلال برج  
قصره فى باتلى پوترا ، أنها من الأعاجيب التى يَمَجِّزُ عن صنعها إنسان .  
وأشوكا ذلك هو الذى جعل من البُدْهِيَّة دينَ الهند الرسمى ، وكان على جانب  
عظيم من الحَمِيَّة الدينية فأرسل مبشرين إلى كلِّ ناحية ، حتى سيلان ، حتى مصر  
بالقرب من بطليموس فيلادلفيا .

ودام مُلْكُ آل مورية الذين كان أشوكا أهمَّ رجالهم نحوَ قرن ونصفِ قرن ،  
أى بين سنة ٣٢٥ وسنة ١٨٨ قبل الميلاد ، فَبَعْدَ أن أُدبِلَ منهم انقسمت الدولة التى  
شادها أشوكا إلى عِدَّة دُوَيْلات ذوات ملوكٍ مستقلين ، واستطاعت مملكة مَقْدُّها  
أن تدمر ، مع ذلك ، إلى القرن السادس من الميلاد مقتصرةً على البُقْعَةِ التى تُعرَفُ  
فى عصرنا بهيار ، وتَجِدُ فى القوائم التى وَضَعَهَا الپورانا أسماءَ ملوكٍ مَقْدُّها لمدة ألف  
سنة ، ولكن هذه القوائم غيرُ موثوق بها .

والوثائق الوحيدة التى انتهت إلينا عن الهند بعد عهد أشوكا حتى الغزو الإسلامى  
هى المباني وأساطير الپورانا ، فهذه الوثائق وما يضاف إليها من أحاديث الحاجَّين  
الصينيين هى كلُّ ما نستطيع أن نَتَمَسَّكَ به حضارة الهند فى ذلك الدور الطويل .

ولم يظهر فى أثناء ذلك الظلام الدامس الذى دام اثني عشر قرناً غيرُ قليل من  
الرجال ذوى الخطر فضَلَّت أحاديث الهند ذكرهم ، وأشهرُ أولئك هو الرجل الأساطيرى

وكرما ديتة الذى كان ملكاً لَمَالُوا ومقيماً بأوجين بالقرب من نَرَبَدَا ، ففى تلك الأحاديث أنه بسط ملكه على بلاد الهند إلى أقصى جنوب الدكن ، وعلى ما فى تاريخه من روح الأساطير نرى أنه مثل دوراً مهماً فأرّخ الهندوس سنة جلوسه فافترضوا أنها سنة ٥٧ قبل الميلاد فاتخذوها مبدأ للتاريخ المعروف بِسَمَوَا .

ومن دواعى الأسف أن خلت تواريخ الهندوس من الضبط ، شأن الهندوس فى كل أمر ، فمن البحث الدقيق فى المباني والكتابات الحجرية يتبين لنا أن وكرما ديتة كان يملك بعد التاريخ المذكور فى الكتب بستمئة سنة .

وإلى هذا البطل تعزو الأساطير طرد الشيث من الهند ، والشيث كانوا قد أوغلوا بين إغريق بقطريان قبل الميلاد بقرنين فأخضعوهم ، ثم انتحل أحد ملوكهم كُنشكا البدهية فأقام قبيل الميلاد دولة اشتملت على أفغانستان والپنجاب وراجپوتانا ، ولا نعلم عن تاريخ الشيث فى الهند غير أنهم نشروا الفن الإغريق فيها ، كما يشهد بذلك بعض التماثيل بمترا .

ونذكر من معاصرى وكرما ديتة ، وذلك بحسب الكتابات التى فسّرها كنفقهم ، الراجة هرشاوردهان الذى دام ملكه من سنة ٦٠٧ إلى سنة ٦٤٨ فقص علينا الحاجّ الصيغى هيوين سانغ الذى زار الهند سنة ٦٣٤ أنه من أقوى ملوك شمال الهند ، وكانت مدينة قَنُوج التى هى من أقدم مدن الهند عاصمتها ، وهذه المدينة ظلت مقراً لآل غُپتا مدة طويلة ، ويُفترض أنها من مَهُود<sup>(١)</sup> الحضارة الآرية ، فذكرها بطليموس سنة ١٤٠ بعد الميلاد باسم قَنُوجيا ، وكانت المملكة التى اتخذتها عاصمة لها فى زمن هيوين سانغ تمتد من كشمير إلى آسام ومن نيبال إلى نَرَبَدَا .

(١) مهود : جمع مهود .

وتقع قَنُوج في غرب أغرا وتبعد من نهر الغَنج بضعة كيلومترات ، واجمت الأنبياء على مدح جلالها ، وأعجب السلطان محمود الغزنوي بها أَيْمًا إعجاب وقتها هجم عليها سنة ١٠١٦ من الميلاد فرآها حينما دنا منها ، على رواية فرشته ، « مدينةٌ تُنَاطِلُ السماءَ بمحوصنها ومبانيها جذيرةٌ بأن تفتخر بأنها لا نظير لها » .

ولم يبق من هذه العاصمة القديمة التي كان طولها خمسَ كيلو مترات ، على قول هيوين سانغ ، حجرٌ يُبَيِّنُ تاريخها ، وبلغ خراب مبانيها التي كانت قائمة قبل الغزو الإسلامي مبلغاً لم يقدر كثنتهم معه أن يجد طملاً منها على ما قام به من بحث واستقصاء ، وكلُّ ما استطاع كثنتهم أن يلاحظه من قديم في مدينة قَنُوج القديمة هو كتابةٌ يرجع تاريخها إلى سنة ١١٣٦ ميلادية ، أى إلى ما بعد الفتح الإسلامي بزمن طويل ، وما تراه فيها من المباني لخميصه أقيم في العصر الإسلامي وإن بُني بعضه من أنقاض المباني الهندوسية القديمة .

وقَدُوج هي من كِبَرِيَّاتِ العواصم القديمة التي لا نَعْرِفُ تاريخها إلا من بعض الروايات المبهمة وبعض الكتابات ، ولا يجوز أن يُعزَى إلى خيال الأدباء وحده ما وُصِفَتْ به عَظَمَةُ هذه العواصم بعد أن شاهدنا بقايا بعضها الذي نَجَا من التخريب كمدينة كهجورا مثلاً .

كانت قَنُوج وكهجورا ومهوبا وغيرها من المدن المشهورة ، التي لم يبق منها سوى الاسم أو الأطلال ، عواصم لدول قوية ، وأشهرُ هذه العواصم ما كان يملكه ملوك من العرق الراجبوتي الذي لا تزال نرى منه أَسْراً مألوفةً فحافظ على نظامه وعاداته إن لم يَصُن استقلاله ، ومن المحزن أن بدأنا نَعْلَمُ تاريخ الراجبوت بعد أن

أخذوا يتصادمون هم والمسلمون ، أَجَلٌ ، استطاع المسلمون أن يُخَرَّبُوا عواصمهم وأن يدحروهم إلى مناطق راجيوتانا الجبلية الوعرة ، غير أنهم لم يخضعوا لهم إلا ظاهراً .  
ذلك العصر الذى دام من زمن خلفاء أشوكا إلى زمن النهضة البرهمية فإلى المغازى الإسلامية هو ، إذَنْ ، كالعصر الذى جاء قبله غموضاً ، فلولا ما بَقِيَ من مبانيه لجهنا أسره تقريباً .

### ٣ - العصر البرهمي الجديد

ليس لدينا وثائق تاريخية عن عصر النهضة البرهمية أو العصر البرهمي الجديد ، فالتقود والمباني هي المصادر الوحيدة التي يُرْجَع إليها في تنوُّره .

ومن المحتمل أن شرع نفوذ البرهمية القديمة ، الذي لم يَغِبْ تماماً ، يبدو أيام آل كپتا الذين بسطوا سلطانهم على شمال الهند في القرن الخامس من الميلاد ، ففي تقود ملوك قَنُوج ودعلى ومهوبوا ذكرٌ للمودة إلى المعتقدات القديمة ، وفي القرن الخامس والقرن السادس لم ينفك نجم البُدْهيَّة عن الأفول ، فلما حَلَّ القرن السادس نَدَرَشِيدُ مباني بُدْهيَّة ، ولما حَلَّ القرن الثامن غابت البُدْهيَّة عن الوجود تقريباً ، وسندرس في فصل آتٍ سرَّ هذا الغياب مستثنين في ذلك إلى المباحث التي قُمنَّا بها في الهند .

وأخذ يظهر مذهبٌ جديد اسمُه الجَيْنِيَّة حينما بدأ ذلك الماضي المظلم ينبجلي ، ولكن معظم الهند قد شَطِر بين دِيانة وشنو ودِيانة شيوا ولم يَعدْ حَدٌّ النظر محافظة البرهمية الجديدة على الآلهة القديمة ، فما بين هذه الدِيانة الجديدة والدِيانة القديمة من فرق عظيمٌ جداً ، فالبرهمية الجديدة هي ، بالحققة ، مزيجٌ من قديم المذاهب الوبدية والمعتقدات البُدْهيَّة ومختلف الخرافات الأجنبية .

ولم يُقَطَّع عصر البرهمية الجديدة التي خَلَفَت البُدْهِيَّة في الهند في القرن السابع أو القرن الثامن من الميَلاَد بفعل الغَزَوَات الإسلاميَّة ، فالهندُ ، وإن خضعت لأتباع النبي وكثيرٍ من الهندوس وإن رَضُوا بالإسلام ديناً كما يدل عليه وجودُ خمسين مليون مسلمٍ في الهند ، حافظ معظم أهلها على دينهم القديم ولا يزالون يزاولون شعائره حتى الآن .

#### ٤ - العصر الإسلامي

مارس المسلمون في الهند مثل النفوذ العميق الذي مارسوه في جميع أقطار العالم التي فتحوها ، ولا أمة ، كالمسلمين ، تَمَّ لها من النفوذ البالغ ما تَمَّ للمسلمين كما أثبتناه في كتابنا « تاريخ حضارة العرب » ، ولا تستثن الرومان من ذلك ، ففي مدة سلطان المسلمين الذي دام في الهند سبعة قرون غيَّر فريقٌ كبير من الشعب الهندوسي دينه ولغته وفنونه تغييراً عظيماً وظلَّ هذا التغيير بادياً بعد زوال ملكهم ، فعلى ما تَعَلَّمه من عدم تأثير الغزو الإغريقي للهند وعلى ما تراه من تَفَهِّ النفوذ الإنكليزي في الهند تجد فيها خمسين مليوناً من الهندوس يَدِينُون بدين محمد .

ترجع غَزَوَات المسلمين الأولى للهند إلى القرن السابع ، ولم تكن هذه الغَزَوَات سوى غارات مُؤَفَّقَةٍ ، ولكنها لم تُسَبِّر عن استقرار دائم ، وفي أوائل القرن الحادي عشر فقط بدأ غزوُ المسلمين الجِدُّ للهند بقيادة محمود الغزنوي .

محمود الغزنويُّ هذا من سلالة أَفَاقٍ تركيَّ أنشأ إمارة مستقلة في مدينة غَزَنَةِ الجبلية الواقعة في جنوب كابل الأفغانية ، فلما زحف إلى الهند كان شمالها الغربيّ مقسوماً بين أسراء كثيرين من الراجبوت معترفين لراجة دهلي بالعلَب والتفوق ، وكان

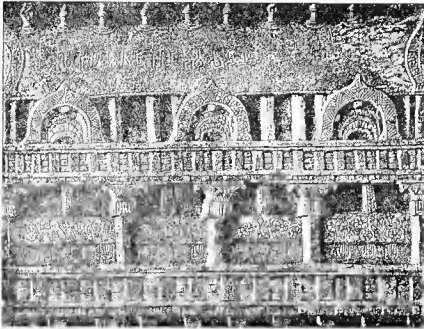
راحة قَتُوج الذى هو سليل راماي ملك إمارة أودهة وإمارة وادى الفَنج ، وكان آل پال يملكون البنغال وبهار ، وكان خلفاء وكرماديتة يملكون ملوا ، وكان جنوب الهند يشتمل على الممالك الهندوسية الثلاث التى سنتكلم عنها فى مكان آخر : چيرا وجولا وپنديا .

لم يُوَطِّدَّ محمود الغزنوى سلطانه بسهولة ، فقد قاومه الراجپوت ، ولا سيما ملك لاهور أشدَّ مقاومة ، وما لاقاه من المضاعب الكبيرة غير التى لاقاها الإسكندر فلم تقلَّ الحَمَلات التى قام بها بين سنة ١٠٠١ وسنة ١٠٢٦ لإخضاع شمال الهند عن سبع عشرة حملة ، ووصلَ فى غزوه إلى السكجرات حيث انتهب معبد سومنات ، ولكنه لم يحتفظ بغير الپنجاب ، فظلَّ الراجپوت مستقِلين تقريباً ، ثم سار خلفاؤه على سُنَّتِهِ فى التوسع فهاجر الراجپوت إلى مِنطَقة راجپوتانا الجبلية الصعبة حيث أسسوا دُولاً لم تخضع بالحقيقة لأحد ولا للغول ، وهى لا تزال مُلكَ كثير من الأُسَر الراجپوتية المالكة .

وما تَمَّ على يد محمود الغزنوى من فتح فذو طابع دينى سياسى ، فمحمود الغزنوى كان مسلماً متين العقيدة تَوَاقفاً إلى رفع شأن الشريعة النبوية فأعلن فى كل مكان أنه ناشر لدين العرب وحضارتهم فأَنعم خليفة بغداد عليه بلقب يمين الدولة . وكانت الهند تتمتع ، حين أوغل محمود الغزنوى فيها ، بما لا عهد لها بمثلها من الوَفَر والبُسْر ، وما لا يزال قائماً فيها من المباني والآثار يُثَبِّت أن وصف أدباء الشرق لها بعيد من المبالغة ، وما كان يقع بين ملوكها المحليين من الحروب لا يُؤَدَّى إلا إلى تبادل مواضع خزائنها وكنوزها من غير أن تخرج منها مع أن ما عُرِضَتْ له منذ قرن من امتصاصها المنظم قد نَهَكَها تماماً .

وليس مما لا طائل فيه أن تُسهب في ذلك الأمر انطلق على سرِّ غَيِّ المباني التي  
نَصَفها في هذا السُّفر فلم يجد مؤرخو الشرق ، حتى محمود الغزنوي نفسه ، من التعابير ما  
يُمرُّون به عن إعجابهم بها .

فلما فتح محمود الغزنوي مدينة مترا سنة ١٠١٩ بهَرَّتْه أهُبَّتْها فكُتِبَ يقول :



٣١ - بهارت . نفوس بناء هندوسى أُدِم في القرن الثاني قبل الميلاد تقريباً

« تحتوى مدينة مترا العجيبة على أكثر من ألف من المباني المثينة متانة أهل  
الإيمان والمصنوع أكثرها من الرُّخام .. وإذا عُدَّ المال الذي أنفق على إنشاء هذه  
المباني بلغ ألوف الألوف من الدنانير فضلاً عن أنه لا يقام مثل هذه المدينة في أقلَّ  
من قرنين ، ووَجَد جنودى في معابد المشركين خمسة أصنام من الذهب ذوات عيون  
من ياقوت أحمر تساوى قيمته خمسين ألف دينار ، ووَجَدوا فيها صنماً آخر مزخرفاً

بما زنته أربعمئة مثقال من الياقوت الأزرق .. وَوَجَدُوا فِيهَا ، فضلاً عن ذلك ، نحو مئة صنم من الفضة يَعدَّل وزنها حمل مئة بعير » .

رأى محمود الغزنويُّ مثل تلك العجائب في جميع المدن التي دخلها ، ولا سيما في قَدْوُج التي كان لها أن تُبَاهَى بأنها فريدة بمبانيها كما روى فرشته الذي ذكرناه آنفاً ، فوجد في أثناء الحملة التي قام بها سنة ١٠٢٤ هُدم معبد سومنات بالسكجرات على الخصوص ، معبداً عجباً ذا ست وخمسين سارية مصفحة بصفائح من ذهب ومرصعة بالحجارة الكريمة ، وذا ألوفٍ من التماثيل المصنوعة من الذهب والفضة والمحيطه بهيكله ، وذا صنم ضخم قائم في وسطه مشتمل في جوانبه على مقدار كبير من الحجارة الكريمة ، وذا حشم مؤلفين من ألفي برهمي وخمسمئة راقصة وثلاثمئة موسيقي ، ويُقدَّر ما غنَّته المساهون من الكنوز في تلك الأثناء بنحو ٢٥٠ مليون فرنك أي بمبلغ عظيم جداً في ذلك الزمن .

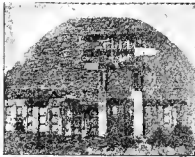
ولم يقل دَهْش خلفاء محمود الغزنوي عنه تجاه الثروات والعجائب التي لاقوها في كل مكان بالهند ، فقد هدم محمد الغوري أصنام ألف معبد بينارس وحمل أربعة آلاف بعير من الغنائم التي استولى عليها ، وبلغ ما حصله جنود المسلمين في حملتهم الأولى التي قاموا بها في الدَّكَّن من الذهب الكثير ما تركوا معه الأدوات الفضية لِثِقَلِ نَقْلِها ، فلم تكن أواني المعابد وبيوت الأغنياء مصنوعة إلا من الذهب الخالص ، ولم يكن الناس ليتداولوا غير النقود الذهبية على عكس ما يقع في أيامنا .

ودام سلطان آل محمود الغزنويُّ الأفغان في غزنة ولاهور من سنة ٩٩٦ إلى سنة ١١٨٦ حين طردهم محمود الغوريُّ رأسُ أُسرةِ الأفغان الثانية ، فسلك محمود الغوريُّ هذا في فتوحه مسلكاً بسيطاً كُتِبَ له التوفيق به كما كتبت لخلفائه ، ومنهم الإنكليز ،



من بعده ، فقام ذلك على التدخل فيما كان يقع بين الأمراء المحليين من نزاع وعلى الاستفادة من تنافسهم بإضماهم ثم بالاستيلاء على ممالكهم ، فهو بعد أن تَوَسَّط حليفاً في نزاع كان يُفرِّق بين ملوك دهلي وقتلوج جمع مملكتينهم وألف منهما دولة واسعة يَحُدُّها بنارس من الشرق وغواليار وكجرات من الجنوب جاعلاً مدينة دهلي مقراً للحكومة .

مات محمود الغوري فأعلن أحد ولاته قطب الدين استقلاله فأضحى قطب الدين هذا رأس الأسرة الأفغانية المعروفة بأسرة الملوك الماليك التي دام سلطانها من سنة ١٢٠٦ إلى سنة ١٢٩٠ ، وإلى قطب الدين هذا يُعزى إنشاء « منارة قطب » بدهلي . والملك أَلْتَمَش هو أشهر ملوك هذه الأسرة ، ويعدُّ زاره الفخْم من أشهر مباني دهلي ، ودام عهده من سنة ١٢١١ إلى سنة ١٢٣٦ فحارب في أثنائه عدَّة مرَّات ضدَّ غارات المغول وقتل القبائل المحلية .



أدبيل من الأسرة الغورية فقامت مقامها أسرة أخرى يُعدُّ علاء الدين من أشهر ملوكها (١٢٩٤ - ١٣١٣) ، لما اتَّسع به مدَى الفتوح الإسلامية في عهده ولما كان له من الذوق في الفن المعماري مثل ما كان لأسلافه كما يشهد بذلك الباب المنقوش الذي يتَّحل اسمه بدهلي .

٣٢ - سانجى . منظر معبد مقبب ( من المحتمل أن يكون هذا المعبد قد أنشئ في القرن الثالث قبل الميلاد ، وقد أنشئ السياج المحيط به والأبواب الكبيرة المؤدية إليه في القرن الأول من الميلاد ) ( يبلغ ارتفاع القبة نحو ١٢ متراً وبلغ قطرها ٣٤ متراً )

ومن سوء حظ هذه الأسرة الجديدة أن تفاقم خطر المغول الذين جُنِّدوا في

جيشها المملوكي شيئاً فشيئاً ، فلم يلبث زعيم هؤلاء المرتزقة أن أسس أسرة أفغانية مالكة خامسة ( ١٣٢٠ - ١٤١٤ ) اشتهر منها فيروز وطوغلُق ، وامتاز ملوكها بالطابع الذي وسّموا به فنّ العمارة .

وفي سنة ١٣٩٨ ، أيام ثاني ذينك المملوكين ، أغار تيمورلنك على الهند فسلب دهلي فجلب الهند كإعصارٍ فعاد إلى بلاده .

وكان الولاة يحاولون الاستقلال أيام انهماك ملوك دهلي في الحروب فوفق أكثرهم له فسادوا عدّة ممالك فتنافست عواصمها في البهاء وزيّنت أجيادها بقلائد من المباني التي لا يزال عددٌ كبيرٌ منها قائماً .

سادت القوضى بعد غارة تيمورلنك ، فحاول الولاة الذين استقلوا بالولايات الإسلامية أن يصبحوا أصحاب دهلي ، فتمكن اللودي ، حكام لاهور ، من الاستيلاء عليها في سنة ١٤٥٠ فأسسوا أسرة أفغانية مالكة سابعة دام سلطانها إلى سنة ١٥١٧ . في تلك السنة سلّك حاكم لاهور الجديد تلك السُنّة فأراد الاستقلال فرأى إبراهيم لودي أن يحمله على الخضوع فاستغاث بملك كابل المغوليّ بآبر الذي هو من حَقْدَة تيمورلنك وجنكيزخان فأبصر بآبر هذا أن فرصة فتح الهند سنّحت فلاح له اهتبالها فزحف إليها بجيش مؤلف من ١٢٠٠٠ رجل فقلّب جيش لودي المؤلف من ١٠٠٠٠٠ رجل فاستولى على دهلي وعلى جميع شمال الهند .

بآبر ذلك هو مؤسس آل الملك المغوليّ بالهند ، وهو الذي استطاع أن يدوّمها ، ثم مات في أغرا سنة ١٥٣٠ بعد أن أصبحت أفغانستان وهندوستان قبضته .

حافظ جنوب الهند على استقلاله في معظم الدور الإسلاميّ الأول الذي لخصناه آنفاً ، وذلك خلا القسم المتوسط المجاور لتركبدا الذي استولت عليه الدول الإسلامية

المستقلة ، ولم تخضع الهندُ بأسرها لسلطان واحد إلا في الدور الأخير من الدولة المغولية ، وذلك لوقت قصير جداً ، ففي شمال الهند ووسطها ، إذن ، مارس بابر وخلفاؤه ملكهم .

اضطُرَّ هايرن ( ١٥٣٠ - ١٥٥٦ ) ، ابن مؤسس الدولة المغولية بالهند ، إلى الجهاد طويلاً فأكره على التجلاء عن أغرا إلى السُّند حيث تزوّج امرأة فارسية فرُزِق منها في سنة ١٥٤٢ ابنه الذي اشتهر بالملك أكبر فيما بعد ، ثم ثبّت دعائم مملكته فاستردَّ ما خسّره فوات بالقرب من دهلي حيث لا يزال ضريحه ماثلاً .

وفي زمن خليفة هايرن ، الملك أكبر ( ١٥٥٦ - ١٦٠٥ ) ، تَجَلَّتْ عظمة الدولة المغولية بالهند ، فقد حاول هذا الملك إدغام الهندوس بالمسلمين فتروّج أميرات هندوسيات واتَّخَذَ وزراء له من المسلمين والهندوس معاً ، وأراد مزج قِيَّ عِمارة كلتا الأمتين ، ونستطيع أن ننبِّئَ مقاصده من المباني التي شادها وإن سكت التاريخ عنها ، ويُعدُّ عهده الذي دام خمسين سنة من أنضر العهود الجديرة بأطيب الذكر ، ونرى النُظُم التي انتحلها من أكثر النُظُم ملائمةً للشعوب التي ملكها ، وكُتِبَ لكتير من هذه النُظُم البقاء بعده ، وقَلَّدَها الإنكليز في الغالب .

وأكبر ، إذ كان مرتاباً وكان يُعدُّ الهندوس والمسلمين من المتعصبين ، احترم ديانتهم ، وشجّع بإنصاف إقامة معابد لجميع الأديان ، وخيّل إليه أن يصهر الأديان في دين واحد فحَظِط ما سعى إليه .

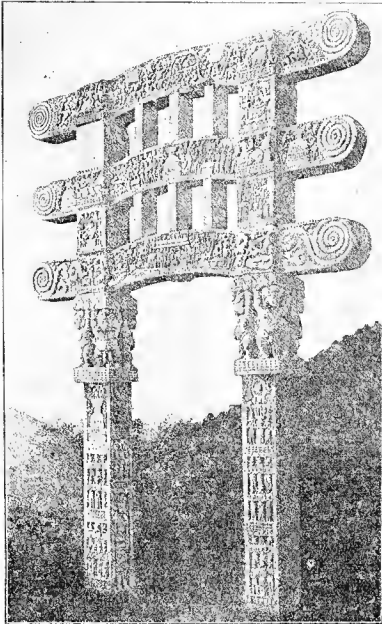
والملك جهانكير ( ١٦٠٥ - ١٦٢٨ ) من النوانغ أيضاً ، وإن كان دون أبيه أكبر أهمية ، وهو ، إذ كان مرتاباً كأبيه مُتَحَلِّياً مثله بخلق التسامح ، سار على سياسته فتروّج نساء مسلمات وهندوسيات فعامل هاتين الأمتين بإنصاف ، وكان

للتنصاري الذين بلغ عددهم ستين شخصاً في عاصمته نصيب من رعايته .  
ولم يكن ابنه شاهجهان الذى خَلَفَهُ سنة ١٦٢٨ فدام سُلْطَانُهُ إلى سنة ١٦٥٨  
متساحماً مثله ، فقد حذف من فن العِيارَةِ ما استطاع حذفه من المؤثرات الهندوسية  
كما يدل على ذلك ما شاهده من المباني .

وفي سنة ١٦٣٧ استقرَّ شاهجهان بدهلى وأنشأ فيها القصر الفخم الذى لم يسمح  
الإِنْكِلِيز بِغَيْرِ بقاء جزء منه ، فَبُعِدَ ، مع ذلك ، من أجل مباني الدنيا .  
وفي عهد شاهجهان أُقيمت أشهر مباني المغول فنذكرُ منها تاج محل ومسجد  
اللؤلؤ بأغرا والقصر والمسجد الكبير بدهلى ، الخ .

وحالَفَ أورنغ زيب أباه شاهجهان في سنة ١٦٥٨ فدام ملكه إلى سنة ١٧٠٧ ،  
فسكان بقيم بأغرا تارةً وبدهلى تارةً أخرى ، وفاق أباه قلةً تسامحَ تِجَاهِ الهندوس ،  
وأدَّى بتعصبه إلى سقوط الدولة المغولية بالهند ، وذلك أنه قضى على مملكة بيجاپور  
ومملكة غول كوند الإسلامية في الدكن فقفى على الحاجز الأخير القائم أمام أعدائه  
الذين كان المراتبا أهمهم ، فأَعَدَّ بذلك انحلال دولته العظمى ، فنحن لو عَدَدْنَا  
أهمية الدولة بنسبة اتساعها لقلنا إن الدولة المغولية بالهند بلغت الأوج في عهد أورنغ زيب ،  
غير أنه كان ينطوى تحت هذا الاتساع بذور الانحطاط التى لم تلبث أن تحققت ،  
ففى لم نَمُشْ ، بالحقيقة ، بعد الملك الذى رفع شأنها .

دام العصر الإسلامى الذى أجبَلنا تاريخه بما نقدم نحو سبعة عشر سنة ، ولم تكن  
وَحْدَةً الهند في مُعْظَمِ هذا العصر الطويل الذى امتدَّ إلى زمن أورنغ زيب في غير  
الظاهر ، فقد أقام هؤلاء المسلمين ممالكَ مستقلةً كمملكة غور ومملكة غولكوندا  
ومملكة بيجاپور وغيرها من الممالك التى لا نرى البحث في أمورها ، فالحق أن الهند لم  
تُصْبِحْ قَبْضَةً سِيد واحد إلا في أيام أورنغ زيب ، وذلك لوقت قصير .



٣٣ - سانجی : منظر باب بعید فذلا من المعبد المقب  
( يبلغ مجموع ارتفاعه خمسة أمتار و ٢٥ سنتيمتراً )

لم تدم تلك الدولة الموحدة زمناً طويلاً ، فكان موت أورنغ زيب نذير انهيارها ، فلم يكده أورنغ زيب يتوفى حتى وقعت الهند في الفوضى العميقة ، فأخذ المراتها والأفغان والسك والجات والراجبوت وأمرء مسلمون يتكفون بالتهاب وباقتطاع ممالك مستقلة من الجثة الضخمة فلم يبق لخلقاء أورنغ زيب الضعفاء سوى سلطة اسمية ، واسترد الله كن استقلاله فأنشأ الوزير نظام فيه دولة لا تزال قائمة باسمه حتى الآن وأخذ مدينة حيدرآباد عاصمة لها .

وفي سنة ١٧٣٩ أغار شاه الفرس نادر على دهلي فقصب جميع ما جمعه المغول من السكوز ، فأب بغنائم تقدر بأكثر من مليار فرنك ، وفي سنة ١٧٤٧ استولى الأفغان على لاهور والپنجاب ، واغتزم المراتها الفوضى فنزعوا من الدولة أجمل ولاياتها .

ولم يكن زوال تلك المغول كله وليد يوم واحد ، فقد ظل جالسا على عرش دهلي حفة أولئك الملوك ١٥٠ سنة أخرى ، بيد أن سلطانهم أصبح اسمياً بالتدريج فكانت خاتمة أمرهم أن أضحووا موظفين لدى الإنكليز ، ولما أيسر آخرهم في سنة ١٨٥٧ كان سلطانه أقل من ظل في المدينة التي كانت مقرآ لآبانه .

ونعد غزوات المراتها من أقوى الأسباب في سقوط دولة المغول بعد موت أورنغ زيب وتقسيمها إلى عدة ممالك ، ونكاد نسدل على هذه الغزوات ثوبا من النسيان لو كانت غارات انتهاب كالتي قام بها الفرس والأفغان ، لا مغازى فتح ، فقد كان المراتها يجمعون الهند بأسرها تحت سيادتهم لو تم لهم النصر ففري الهند نفسها إذ ذاك قبضة الهندوس لأول مرة منذ قرون كثيرة ، فيتطلب الفتح الأوربي حينئذ جهوداً غير التي اقتضاها .

وكان المراتها يسكنون المنطقة المعروفة قديماً بمهاراشترا الواقعة في الشمال الغربي من الدكن وفي جنوب ولاية بمبي الحاضرة مبتدئة من جبال ساتپور ، وتجاوب تلك المنطقة الجبلية فروع من جبال كهات وجبال ونديها فكان يقيم بها أناس جبليون لم يخضعوا للمسلمين إلا ظاهراً .

بدا المراتها أعداء أشداء للدولة المغولية في سنوات أورنج زيب الأخيرة ، فما أظهره هذا الملك من قلة التسامح معهم على شق العصا ، فجمع الأفاق شيواجي المولود في جواربونا جيشاً من الأنباع ، بعد أن قضى عمراً في قطع السابلة ، فاستطاع أن يقطع مملكته التي لم تشمل على غير جزء من مملكة بيجابور في بدء الأمر فلم يلبث أن وسع رقعتها في معظم جنوب الهند ، فأت أورنج زيب قبل أن يقهره مع ما قام به من الحروب الطاحنة .

ومملكة بيجابور الإسلامية هي الحاجز المهم الذي كان يقي الدولة المغولية من المراتها ، يسد أن أورنج زيب هدم هذه المملكة فاستطاع المراتها أن يقوموا بالغازي والغارات أحراراً في كل مكان .

فتحت المراتها ، بعد موت أورنج زيب ، أكثر الولايات الهندية بالتتابع ، ومثل أمراء المراتها المتحدون حوراً عظيماً في نصف قرن ، وإنهم لجأذون في ندوخ الهند بأسرها إذ وقفتهم مغازي الأفغان الذين كسروهم سنة ١٧٦٠ في معركة پاني پت الشهيرة حيث قُتل ٢٠٠٠٠٠ رجل كما روى .

ومن نتائج غزوات الأفغان وتنافس أمراء المراتها وما اضطّر إليه هؤلاء من محاربة أمراء المسلمين المستقلين أن دبّ الضعف فيهم ، فاعتمد الإنكليز ذلك فاستطاعوا أن يقهروهم ، والإنكليز وجدوا بين أولئك من قاتلوهم بعنف مع ذلك ،

ولم يُتِمَّ الإنسكابُ إخضاعهم إلا بعد أربع حروب انتهت في أوائل هذا القرن ، ولا يزال بعض أمراء المراتها مالكيين لاندور وغواليار على الخصوص ، ولكنهم لا يتمتعون بشيء من السلطان السياسي على ما عندهم من جيوش كثيرة .

## ٦ - تاريخ جنوب الهند

جنوب الهند منطقة لا يرتبط تاريخها في تاريخ شمال الهند إلا عرضاً ، ونحن إذ لم نَسْطِيعُ أن نطبِّق عليه تقسيماتنا العامة نرى أن ندرسه في مطلب مستقل .

قَسَمَ القدماء الهند إلى المنطقتين الكبيرتين : الهند الشمالية أو الهندوستان والهند الجنوبية أو الدَكَّنْ ، واتَّخَذَ وادي نَرَبْدَا في الغرب والجبال المجاورة لكَتَكْ على خليج البنغال فواصلَ لتينك المنطقتين ، واليوم لا يُطابقون اسم الدَكَّنْ إلا على الهَضْبَةِ الوسطى التي يَحْدُثُهَا نَهْرُ نَرَبْدَا وجبال وَندھيا شمالاً ووادي كَرِشنا جنوباً وجبال كَهَات الغربية غرباً وجبال كَتَكْ وجبال كَهَات الشرقية شرقاً .

وإذا عَدَوْتَ المَسمِينَ وقائلاً من الآدميين القاطنين ببعض البقاع المَعِيْنَةِ وجدت سكان الدَكَّنْ القديمة من ذوى الجلود السُّمْرَ الذين هم نتيجة توالد العروق السود الفطرية والغزاة الصُّفْرَ الذين أَتَوْا من التبت لا ريب والمغول الذين أَتَوْا من الغرب ، وهذا التوالد المُسَكَّرُ قد تَمَّ في عصور أقدم من عصرنا كثيراً ، واليوم يبدو سكان جنوب الهند ، وإن شئتَ فَقُلْ الدراويدَ ، من أكثر عروق الهند تجانساً ، فهم يَدِينُونَ منذ اثني عشر قرناً بديانة واحدة ويتخذون فنوناً واحدةً ويتكلمون بلغات تكاد تكون واحدة .



ويظهر أنه لم يكن للبُدْهيَّة أثرٌ كبير في سكان جنوب الهند ، وهذا الأثر ، عند افتراض وجوده ، قد زال بسرعة ، فلا ترى بعد نهر كَرِشنا بناءً بُدْهيًّا .

وَالْجَيْنِيَّةُ أَثَرٌ أَكْبَرُ مِنْ أَثَرِ الْبُدْهيَّةِ هُنَاكَ ، فلا تزال تَجِدُ لها أشياءَ حول كالنجي وَرَمَ وفي ميسور ، والإسلام أتباعٌ غيرُ قليلين هُنَاكَ أيضًا ، ولكن البرهمية ظلت دِيانةَ الأكثرين من سكان جنوب الهند ، ويُقسَّم هؤلاء بين المذهبيين : وشَنُو شِيوا ، غيرَ أن معابدهم متاثلةٌ غيرُ مختلفة في سوى الرموز ، فنرى ، لذلك ، أن نَضَع ، من الناحية المعماريَّة ، أكثر مباني جنوب الهند في فصل واحد بدلاً من أن نُصنِّفها بحسب المدن والممالك كما نُضطرُّ إليه في أمر مباني شمال الهند ووسطها .

وتاريخُ جنوب الهند ، إلى دور المغازي الإسلامية ، أى إلى القرن الثالث عشر من الميلاَد ، أشدُّ غموضاً من تاريخ شمال الهند ، فلا تَجِدُ فيه آثاراً أدبية ككتب الوريدا ومهابهارتا الخ ، ولا يجاوز ما أُلِّف من الكتب بلغة الفول أو اللغات الدراويدية الأخرى القرنَ الثامن بعد الميلاَد قَدَمًا ، ولا يجاوز ما أقيم من المباني الحجرية وما نُقِش من الكتابات الحجرية القرنَ الخامس بعد الميلاَد قَدَمًا .

ونستنتج من تقاويم الملوك وفتوحهم التي أُشير إليها في الكتابات الحجرية ، وورود أسماء الملوك جنوب الهند في مراسيم أشوكا قبل الميلاَد بثلاثة قرون ، وذكرِ أسماء بعض المدن في كتب قديماء المؤلفين ، وجودَ عمالِك في جنوب الهند قبل الميلاَد بخمسة قرون أو ستة قرون وإن كنا لا نستطيع قولَ شيء عن حضارتها ، وما لا مرأى فيه ، مع ذلك ، أن جنوب الهند لم يَتَمَدَّنْ إلا بعد شيالها بزمان طويل .

ويمكن تلخيص ما نعرفه عن ممالك جنوب الهند قبل المغازى الإسلامية بما يأتى :

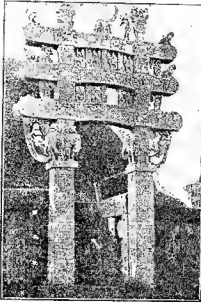
كان جنوب الهند مقسوماً ، قبل الميلاد ، إلى ثلاث ممالك كبيرة ، مملكة بنديا ومملكة جولاً ومملكة جيرا ، وذلك بحسب أساطير الهندوس التى جاءت الكتابات الحجرية مُصدّقةً لها ، وكانت مملكة بنديا تلك تقع فى أقصى جنوب الهند ، وورد ذكرها فى المهابهارتا وفى مراسيم أشوكا وأحاديث ميغاستين ، ويرى على العموم ، أنها كانت موجودة فى القرن الخامس قبل الميلاد تقريباً وإن لم ينته إلينا شيء من تاريخها ، واتخذت مدينة مدورا عاصمةً لها ، ومالاشك فيه أن كان لسكان مدينة مدورا هذه علاقات بالرومان كما تدل عليه النقود الرومانية التى وُجدت بالقرب منها .

ثم استولى بيت جولاً المالك على مملكة بنديا حوالى القرن الحادى عشر من الميلاد فظل أمرها اسمياً إلى منتصف القرن السادس عشر تقريباً ، فلما حلت سنة ١٥٥٩ استولى عليها راجه بيجانفر ، وشيد فى عهد الملك تيرومل (١٦٢٣-١٦٥٩) ما فى مدورا من المباني .

وكانت مملكة جولاً تقع فى شمال مملكة بنديا وشرقها فتتمد من وادى كولورن ووادى كاويرى إلى مستوى مدراس ، ومن اسمها اشتق اسم جول متمدّم الذى جعله الأوربيون كوروميندل .

ومن المحتمل أن تكون هذه المملكة قد قامت فى الزمن الذى قامت فيه مملكة بنديا ، فقد ذُكرت فى مراسيم أشوكا وإن جهلنا تاريخها مثلما نجهل تاريخ بنديا ، ونعلم ، مع ذلك ، أن ملوك جولاً كانوا ، كما جاء فى الكتابات الحجرية ، فى

عظيم يُسمَّى ورَّخاء بين القرن العاشر والقرن الثاني عشر من الميلاد ، فقهروا جنوب الهند وامتدَّ سلطانهم إلى سيلان التي كانوا قد استولوا عليها في سنة ٢٥٠ قبل



٣٤ - سانبى . منظر الباب الكبير الهمالى  
( يبلغ مجموع ارتفاعه نحو نسمة أمتار  
و ٦٠ سنتيمتراً ) .

ظهور المسيح على حسب ما جاء في التواريخ السنغالية ، وبلغت فتوحهم البنغال ومملكة أودَّه في الشمال ، فكانوا مالكيين في القرن الحادى عشر لأقوى ما عرفه جنوب الهند من الممالك ، بيد أن نفوذهم لم يدم طويلاً ، فقد كان آفلاً قبل الغزو الإسلامى الذى وقع سنة ١٣١٠ .  
ويظهر أن عاصمة مملكة جولاً في القرن الثاني من الميلاد كانت مدينة أورايور القريبة من ترى جنابلى فنقلت إلى مدينة كُذِبَه كُوتَم في القرن الثالث فإلى مدينة تانجور في القرن العاشر .

وكان الجيرا يملكون ناحية الغرب من مملكة جولاً وناحية الشمال من مملكة بنديا وجزءاً كبيراً من ولاية ميسور الحاضرة ، وكانت مملكتهم قائمة قبل الميلاد ، فقد ورد ذكرها في مراسيم أشوكا أيضاً ، وكانت هذه المملكة على جانب عظيم من القوة في القرن الرابع والقرن الخامس من الميلاد كما تشهد بذلك تقاويم الفُتُوح المنقوشة قديماً على الحجارة ، وبلغت فُتُوح ملوكهم مدى بعيداً في الشمال فافتخر مَلِكُهم كُوغَنِي راجه الثالث في إحدى الكتابات بوصول جيوشه إلى نهر نَرَبْدَا ،

وَنَمَّ هَذَا الْفَتْحُ حَوَالَى الْقَرْنِ الثَّامِنِ مِنَ الْمِيلَادِ ، فَاسْتُدِلَّ عَلَيْهِ مِنْ مَعْبَدٍ قَائِمٍ عَلَى الطَّرَازِ الدَّرَاوِيدِي فِي إِيْلُورَا .

وَكَانَتْ مَدِينَةُ تِلَاكَادَ ، الْوَاقِعَةُ عَلَى نَهْرِ كَاوِيرِي وَالْبَعِيدَةُ اثْنِي عَشَرَ فَرْسَخًا مِنْ شَرْقِ مِيسُورَ ، عَاصِمَةِ جِيرَا .

وَيُضَافُ إِلَى تِلْكَ الْمَالِكِ الثَّلَاثِ مَمْلَكَةُ جَالُوكِيَا الَّتِي مَثَلَتْ دَوْرًا مَهْمًا فِي فَنِّ الْعِمَارَةِ عَلَى الْأَقْلَ ، وَكَانَ ظَهُورُ هَذِهِ الْمَمْلَكَةِ بَعْدَ تِلْكَ بَزْمَنٍ طَوِيلٍ ، فَقَدْ قَامَتْ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ مِنَ الْمِيلَادِ ، ثُمَّ غَابَ نَجْمُهَا بَعْدَ سِتَّةِ قُرُونٍ ، وَتَقَسَّمَ أَسَرُّ جَالُوكِيَا لِلْمَالِكَةِ إِلَى بَيْتِ جَالُوكِيَا الشَّرْقِيِّ وَبَيْتِ جَالُوكِيَا الْغَرْبِيِّ عَلَى حَسَبِ مَا كَانَ لِمُلُوكِهِمْ يُقَسِّمُونَ الدَّكْنَ .

وَكَانَ سُلْطَانُ ذِيكَ الْفَرَعَيْنِ مِيسُوطَا ، فَوْقَ تِلْكَ الْمَالِكِ الثَّلَاثِ ، عَلَى أَمْلَاكٍ وَاسِعَةٍ مُشْتَمِلَةٍ عَلَى مَمْلَكَةِ مِيسُورِ الْحَاضِرَةِ وَجِزءٍ كَبِيرٍ مِنْ مَمْلَكَةِ نِظَامِ الْحَالِيَةِ ، وَكَانَا يَزْعُمَانِ أَنَّهُمَا مِنَ الْعِرَاقِ الرَّاجِعِيْنِ نَجَاءَ طِرَازِ مَبَانِيْهِمَا الَّذِي هُوَ مَزِيْجٌ مِنْ طِرَازِ الْهِنْدِ الشَّمَالِيَةِ وَطِرَازِ الْهِنْدِ الْجَنُوبِيَّةِ مُؤَيَّدًا لَزَعْمَهُمَا .

وَمَا تَرَكَ جَالُوكِيَا مِنَ الْمَبَانِي قَلِيلٌ ، وَمِنْ الْخُتْمِ أَنَّ يَكُونُ ذَلِكَ قَدْ نَجَّمَ عَنْ اتِّخَاذِ الْمُسْلِمِينَ لِمَا كَانَ يَمْلِكُهُ جَالُوكِيَا مِنَ الْمَدَنِ ، كَبِيْجَابُورِ وَكُلِّ بَرَّغَةِ الْخِ ، مَقْرَأً لِدَوْلِهِمُ الْكَبِيرِي فِيهَا بَعْدَ ، وَلَتِلْكَ الْمَبَانِي بَعْضُ الْأَهْمِيَّةِ مَعَ ذَلِكَ ، فَقَدْ رَأَى بَعْضُ الْمُؤَلِّفِينَ أَنَّهَا عَنْوَانُ طِرَازِ مَمَّوَهَ بِالطَّرَازِ الْجَالُوكِيَاوِي .

وَفِي وِلَايَةِ مِيسُورِ بَلَغَ ذَلِكَ الطَّرَازُ غَايَتَهُ بَيْنَ سَنَةِ ١٠٠٠ وَسَنَةِ ١٣٠٠ مِنَ الْمِيلَادِ ، فَتَجَدَّ أَجْمَلُ نَمَازِجِهِ فِي هَلَايِيدِ وَبِيلُورَ ، وَمِنْ الْخُتْمِ أَنَّ تَسْكُونَ قَدْ أُنْشِئَتْ قَبْلَ الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ مِنَ الْمِيلَادِ ، وَيُذَكِّرُنَا مَا فِيهَا مِنْ قَبِيْضِ الزَّخْرِفِ بِالْمَبَانِي الْجَمِيْنَةِ ،

وليس ما يسترها من النقوش التي تُمثِّل الآلهة الهندوسية شيوا و پاروتى ووشنو الخ ، بأرقى من نقوش المعابد الدراويدية ، ونَعُدُّها مرحلة انتقال بين طراز شمال الهند وطراز جنوبها أكثر من أن تكون عنوان طراز جديد .

وطَفِق جنوب الهند يُعرَّض للغازى الإسلامية منذ القرن الثالث عشر من الميلاد، وجاهد المسلمون عدَّة قرون لفتح أقسام الدَّكَن المختلفة، ولم يُوَفِّقوا لتدوين جميعه إلَّا لوقت قصير ، وفي الدَّكَن أقاموا ممالك قويَّة وإن لم تكن من الشَّوكة بما يقاس بياهم في شمال الهند ، وذلك كما يبدو لنا ، عند سكوت التاريخ ، من قِلَّة تأثيرهم الدينى واللغوى والفنى فيه ، ولم يصبح فن العبارة إسلامياً ، مع ذلك ، إلا في المدن التي ظَلَّت بأيديهم زمناً طويلاً ، أَجَلٌ ، شاد ملوك من الهندوس ، كأحد ملوك مَدُورا ، قصوراً على الطراز الإسلامى ، ولكن تأثير هذا الطراز ظلَّ في المعابد الهندوسية كالعدم تقريباً .

وقعت مغازى المسلمين الأولى للدَّكَن سنة ١٣٠٦ في عهد علاء الدين ، فبلغ الجيش الإسلامى شاطئ ملبار في سنة ١٣١٠ وخُرِّبت هَلَابِيدُ وميسورُ في سنة ١٣١٠ ، وكان لورَنغل مثل نصيبيهما في سنة ١٣٢٣ ، واسترُعان ما تمَّ فتح شمال الدَّكَن فقام بأمر حكومته ، بعض الوقت ، ولَاة مسلمون تابعون لملوك دهلَى مُتَّخِذُونَ دَوْلَت أَبَاد مَقَرًّا لَهُمْ .

لم يلبث أولئك الولاة أن نَشَدُوا الاستقلال لأنفسهم فكان أول بيت إسلامى ممالك مستقل بيت ملوك بهمنى الذى دام سلطانه من سنة ١٣٤٧ إلى سنة ١٥٢٦ فاستطاع فى أثناء ذلك أن يَضُمَّ إليه ساحل أوريسه بعض الزمن ، ولم تُعَمَّ هذه المملكة أن قُسِّمَتْ إلى خمس ممالك إسلامية مستقلة متحاربة على الدوام ، وهذه

الممالك هي : مملكة بيجاپور (١٤٨٩ - ١٦٨٩) ومملكة أحمد نهر (١٤٩٠ - ١٦٣٧) ومملكة غول كوندا (١٥١٢ - ١٦٨٧) ومملكة برار (١٤٨٤ - ١٥٧٤) ومملكة بيدر (١٤٨٩ - ١٥٩٩) ، فما كان من اقتتال هذه الممالك منها من التوسّع في جنوب الهند فسهّل على جنوب الهند أن يحافظ على استقلاله .



٣٥ - خريطة الهند الإسلامية في عهد الملك أكبر  
( القرن السادس عشر من الميلاد )  
( خطاطها المؤلف )

والواقع أن جنوب الهند كان مقسوماً إلى منطقتين مختلفتين في القرن الخامس عشر وفي النصف الأول من القرن السادس عشر ، فأما المنطقة الأولى فكانت واقعة شمال نهر كريشنا تابعة للمسلمين ، وأما المنطقة الثانية فكانت واقعة جنوب ذلك

النهر تابعة لراجوات من الهندوس معدودين من مُعَمَّال راجه بيجانفَر ، وما في بيجانفَر  
هذه من المباني الرائعة ، التجربة الآن ، شاهدت على ازدهار دولتهم فيما مضى .  
وفي سنة ١٥٦٤ فقط وَفَّق ملوك الدَّكَّن المسلمون المتحدون لتقويض سلطان  
الهندوس في جنوب الهند وتخريب بيجانفَر ، ولم يكن تدويع جنوب الهند هذا إلا  
ناقصاً مع ذلك ، فقد قامت فيه عِدَّة دُولَات ، كدُولَة تانجو ودُولَة مَدُورَا  
وغيرها من الدُولَات التي حافظت على استقلالها بين العَتَن إلى أن نزعه المراتها  
ثم الإنكليز .

استقرَّ المراتها بتانجور سنة ١٦٧٤ واستولى المسلمون على مَدُورَا سنة ١٧٣٦ ،  
ثم استفاد الإنكليز الذين نَبَت أمرهم بمدراس سنة ١٧٣٦ من تلك المنازعات ففتحوا  
جنوب الهند بالتدريج ، وما أصاب مسلمي ميسور من الهزيمة سنة ١٧٩٩ في زمن  
تيبو صاحب أسفر عن تَسَلُّم الإنكليز لزمام السلطة العليا في جنوب الهند وعن  
بسط سيادتهم عليه بأمره ، وسنرى ، عما قليل ، كيف تَمَّ لهم هذا الفتح وما هي  
العوامل التي جعلته ممكناً .

## الفصل الثاني

### صِلَاتُ الْهِنْدِ الْقَدِيمَةِ بِالْغَرْبِ

ناريخ الغزوات الأوروبية

كيف فُتِحَتِ الْهِنْدُ

(١) صلات الهند بأوربة في القرون القديمة والقرون الوسطى - كيف كانت الهند تتصل بأوربة في القرون القديمة - العرب وسدهم كانوا واسطة ذلك - صلات الهندوس بالفرس - صلات الهندوس بالإغريق بعد غزو الإسكندر - صلات الهند بممالك بقطريان الإغريقية - اكتشاف طريق إلى الهند أيام قيصرية الرومان - طريق بحر أربرة - معارف بطليموس عن الهند - انقطاع صلات أوربة بالهند مدة ألف سنة بعد الفتح الإسلامي - رحلات علماء من العرب إلى الهند - بعثة ماركو بولو - اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح في القرن الخامس عشر - نتائج هذا الاكتشاف العظيمة - (٢) مؤسسات الأوروبيين الأولى بالهند - محاولات البرتغاليين والهولنديين - إقامة أول شركة إنكليزية في أوائل القرن السابع عشر - كره وكلاء الإنكليز في البلاط المنغولي - حلول الإنكليز محل البرتغاليين والهولنديين بالندرج - تأسيس شركة فرنسية للتجارة في الهند - (٣) الصراع الفرنسي الإنكليزي في الهند - قوة الإنكليز والفرنسيين في أوائل ذلك الصراع - محاولة دوبليكس طرد الإنكليز من الهند - استدعاءه - حبوط عمل خلفه - اتساع الفتح الإنكليزي بسرعة بعد طرد الفرنسيين - (٤) كيف فتحت الهند - انتحال الإنكليز لأساليب دوبليكس - كيف فتحت الإنكليز الهند بمجنود هندوس ومال هندوس - الصفات الخلقية التي أدت إلى استيلاء الإنكليز على الهند - نتائج فقدان الشعور القومي في الهند .

### ١ - صِلَاتُ الْهِنْدِ بِأُورْبَةِ فِي الْقُرُونِ الْقَدِيمَةِ وَالْقُرُونِ الْوَسْطَى

كانت أوربة والهند تنبادلان سِلَماًهما منذ أقدم القرون ، ولكن بطرُفٍ عرضيةً،



وذلك العالمان ، وإن كانا يتقايضان ، لم يتعارفا ، وتلك الصلات كانت تتم إما بطريق آسية الوسطى بعد أن تجوب السلع الهندية بلاد التتر وبلاد فارس وإما بطريق مصر بعد أن تقطع هذه السلع البحر الأحمر مارّةً من الخليج الفارسي وسواحل بلاد العرب ، والعرب وحدهم كانوا واسطة هذه المقايضات ، وظلّ سكان اليمن الذين كانوا يُعرّفون بأهل سبأ محتكرين لها زمناً طويلاً ، وكان تجار مصر ، بعد وفاة الإسكندر بـ ١٥٠ سنة ، ينالون سلع الهند بواسطة هؤلاء العرب .

وطرق اتصال العرب بالهند كانت ثلاثاً ، كانت إحداها بريّة والأخرى بحريتين ، فأما الطريق البرية فكانت تصل بواسطة القوافل أعظم مراكز الشرق كسمرقند ودمشق وباداد وغيرها بالهند مارّةً ببلاد الفرس وكشمير ، وأما الطريق البحرية فكانت أكثر استطرافاً ، فكان التجار الذين يسلكونها بأنون إلى موافى الخليج الفارسي حيث يتسلمون سلع الهند لينقلوها إلى البحر الأحمر فحاذين سواحل بلاد العرب ، ومن البحر الأحمر كانت تلك السلع تنقل إلى الإسكندرية حيث كان الفنيقيون ثم التجار الأوربيون من جنوه وبيزه والبندقية يأخذونها ليوزعوها بين مرافئ البحر المتوسط ، فكانت مصر ، بذلك ، خطاً وصل بين الشرق والغرب وكانت تلك التجارة مصدر ثروتها المهم .

صلات الفرس بالهند كانت أولى الصلات لا ريب ، فنلم بما ذكره هيرودتس الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد أن دارا بن هستاسب « أراد أن يعرف البحر الذي يصب فيه نهر السند » فأرسل بعثة بقيادة سيلاكس فسارت هذه البعثة من جوار أنك الواقعة على ضفاف نهر السند مع هذا النهر إلى البحر ثم أبحرت إلى الغرب

فَوَصَلَتْ إِلَى الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ بَعْدَ سَفَرٍ دَامَ ثَلَاثِينَ شَهْرًا « فَبَعْدَ أَنْ تَمَّتْ هَذِهِ الرَّحْلَةُ الْبَحْرِيَّةَ أَخْضَعَ دَارَا الْهِنْدُودَ وَبَسَطَ سِيَادَتَهُ عَلَى ذَلِكَ الْبَحْرِ » .

وَلَمْ يَكُنِ الْهِنْدُودُ الَّذِينَ حَكَمُوا عَنْهُمْ هِيرُودَتُسُ فَكَانُوا يَدْفَعُونَ إِلَى دَارَا الْأَتَاوَى (١) ، كَمَا تَشْهَدُ بِهِ الْكِتَابَاتُ الْمَسَامِيَّةُ ، إِلَّا مِنْ الْهَمَجِ الْجَاوِرِينَ لِنَهْرِ السُّنْدِ ، فَفَعَلْنَا مِمَّا رَوَاهُ هِيرُودَتُسُ أَنَّ مِنْ عَادَاتِهِمْ أَكْلَ أَقْرَبَائِهِمْ وَأَصْدِقَائِهِمْ إِذَا مَرَضُوا « وَعَدَّ نَسَائِهِمْ مِنَ الْأَنْعَامِ » ، وَمِنْ الْمُحْتَمَلِ أَنَّ دَامَتْ تِلْكَ الصَّلَاتُ فِي عَهْدِ خُلَفَاءِ دَارَا ، وَدَلِيلُنَا عَلَى ذَلِكَ وَجُودُ أَفْيَالٍ فِي حَيْشِ مَلِكِ الْفَرَسِ دَارَا قَرِيزَانَ حِينَمَا غَايَبَهُ الْإِسْكَانْدَرُ سَنَةَ ٣٣٠ قَبْلَ الْمِيلَادِ .

وَلَمْ يَدْرُكْ أَمْرَ الْهِنْدِ مَعْرُوفًا بَعْضُ الْمَعْرِفَةِ إِلَّا بَعْدَ غَزْوِ الْإِسْكَانْدَرِ سَنَةَ ٣٢٧ قَبْلَ الْمِيلَادِ ، وَكَادَ هَذَا الْبَطْلُ الْمُتَقَدِّمُ لَا يَسْتَشْهَرُهَا ، فَلَمْ يُؤْغَلْ فِيهَا هُوَ أَبْعَدَ مِنْ نَهْرِ السُّنْدِ ، وَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنْ جُنُودِهِ فِي الْهِنْدِ بَعْدَ عَشْرِ سَنِينَ مِنْ حَمَلَتِهِ ، فَأَسْفَرَتْ هَذِهِ الْحَمْلَةُ عَنْ لَقْتِ الْأَنْظَارِ إِلَى الْهِنْدِ بَعْدَ أَنْ كَانَ أَمْرُهَا مَجْهُولًا تَقْرِيْبًا .

غَادَرَ الْإِسْكَانْدَرُ بِلَادَ الْهِنْدِ ، فَلَمْ تَلْبَثِ الْمَمَالِكُ التَّابِعَةُ لَهُ وَالْمَرْزَبَاتُ (٢) الَّتِي أَقَامَهَا أَنْ رَفَعَتْ رَايَاتِ الْعَصِيَانِ ، فَفَتَّرَتْ الْعِلَاقَاتِ الَّتِي تَرْتَبِطُ الْهِنْدُ بِدَوْلَتِهِ الْعَظِيمَةِ بَعْدَ مَوْتِهِ بِالْتَدْرِيجِ ، فَجَدَّتْ الْهِنْدُ طَلِيقَةً مِنَ الْفَاتَحِينَ الْأَجَانِبِ بَعْدَ عَشْرِ سَنَوَاتٍ .

عَلَى أَنَّ صِلَاتِ الْإِغْرِيْقِ بِالْهِنْدِ دَامَتْ بِوَسْاطَةِ مَمَالِكِ بَقَطْرِ يَانَ الْإِغْرِيْقِيَّةِ كَمَا يُثْبِتُ ذَلِكَ خَبَرُ الْوَفْدِ الَّذِي أَرْسَلَهُ مُؤَسَّسُ الْمَمْلَكَةِ السُّورِيَّةِ السَّلَاقِيُّ بِرِزْعَامَةِ مِيفَاسْتِينَ إِلَى پَاتَلِي پُوتَرَا (بَنْتِه) حَوْلَى سَنَةِ ٣٠٠ قَبْلَ الْمِيلَادِ ، وَهَذِهِ هِيَ الرِّحْلَةُ الْأُولَى الَّتِي نَفَّذَ

(١) الْأَتَاوَى : جَمْعُ الْإِتَاوَةِ وَهِيَ الْحَرَاجُ — (٢) الْمَرْزَبَةُ : الرَّأْسَةُ عِنْدَ الْفَرَسِ .

الأوريون فيها قلب الهند فكانت أحدى وثمة ميغاستين التي انتهت إلينا المصدر الوحيد عن أحوال الهند في ذلك العصر .

وما لا شك فيه أن الهدف المقصود من الوفد هو أن يُحوّل عن مصر إلى ندمر ودمشق وأنطاكية مجرى التجارة الذي كان يسلكه العرب فيؤدي إلى اغتناء البطالة كما أدّى إلى إثراء خلفاء القاهرة فيما بعد ، فنشأ عن ذلك انتظام العلاقات بين بقطريان وشمال الهند الغربي انتظاماً نستدلّ عليه من المؤثرات في مباني شمال الهند الغربي .

أضحت مصر ولاية رومانية سنة ٣٠ قبل الميلاد فاعتقد أغسطس ، كما كان الناس يعتقدون ، أن بلاد العرب هي مصدر التوابل والأبازير مع أن العرب كانوا يأتون بها من الهند ، فوجّه إلى بلاد العرب حملة لم يكتب لها فوز ، وفي زمن القيصر كلوديوس ، أي في القرن الأول من الميلاد ، دفعت ريجس سفينة إلى سيلان انفاقاً فمُلم بذلك أن من الممكن الوصول إلى الهند من سوا البحر العظيم بفعل بعض الرياح بدلاً من محاذاة السواحل كما كان يُسار قبل ذلك ، فصار تجار من الرومان يقومون بهذه الرحلة من مصر في سبعين يوماً على رواية بلين فيبلغون متغاور الواقعة بين غوا وكاليسكت ، وفي ذلك الحين ألف تاجر إسكندري كتاباً سمّاه « رحلة في بحر أريثرة »<sup>(١)</sup> فنجد فيه بعض المعارف الجغرافية .

وما عرّفه القدماء عن الهند في القرن الثاني من الميلاد نلّمه من كتاب بطليموس في الجغرافية ، وما في هذا الكتاب من المعارف فسطحي مقصور على وصف الساحل .

---

(١) بحر أريثرة : هو المحيط الهندي الآن وفي العصور الأولى أطلق اليونان هذا الاسم على المحيط الهندي وخليج العرب والخليج الفارسي ( المترجم )

وَقَلَّتِ السَّلَاتُ بِالْهِنْدِ فِي دَوْرِ انْحِطَاطِ الدَّوْلَةِ الرُّومَانِيَّةِ ثُمَّ قُطِّعَتْ تَمَامًا حِينَئِذٍ فَفَتَحَ الْعَرَبُ الْعَالَمَ الْقَدِيمَ بِقِيَادَةِ خُلَفَاءِ مُحَمَّدٍ ، وَظَلَّتْ مَقْطُوعَةً عَنِ الْعَالَمِ النَّصْرَانِيِّ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ سَنَةٍ ، فَمَنْ أَرَادَ الْإِطْلَاعَ عَلَى حَالِ الْهِنْدِ فِي الْقُرُونِ الْوَسْطَى فَلْيَطَالِعْ مَا جَاءَ فِي كُتُبِ سِيَاحِ الْعَرَبِ مِنَ الْأَنْبَاءِ ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ السِّيَاحِ نَذْكُرُ الْمَسْعُودِيَّ الَّذِي زَارَهَا فِي أَوَاسِطِ الْقَرْنِ الْعَاشِرِ وَابْنَ بَطُوطَةَ الَّذِي طَافَ فِيهَا سَنَةَ ١٣٣٠ ، الخ .

وَزَارَ الْهِنْدَ ، قَبْلَ سِيَاحِ الْعَرَبِ ، حُجَّاجٌ مِنَ الصِّينِيِّينَ الْبُدْهِيَّيْنَ ، وَمَا رَوَاهُ هِيُونِ سَانَعٌ عَنِ الْهِنْدِ فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ مِنَ الْمِيلَادِ فَأَمَّهُمْ مَا انْتَهَى إِلَيْنَا عَنِ الْهِنْدِ فِي ذَلِكَ الدَّوْرِ .

وَأَوَّلُ مَنْ وُفِّقَ مِنَ الْأَوْرَبِيِّينَ لِدُخُولِ الْهِنْدِ رَجُلَانِ مِنَ الْهِنْدِيَّةِ ، أَحَدُهُمَا مَارْكَو بُولُو الَّذِي زَارَهَا فِي الْقَرْنِ الثَّلَاثِ عَشَرَ مِنَ الْمِيلَادِ ، وَالْآخَرُ ، وَهُوَ مِنْ أَبْنَاءِ بَلَدِهِ ، زَارَهَا فِي الْقَرْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ مِنَ الْمِيلَادِ بَعْدَ أَنْ نَزَلَ مِنَ الْقِرَاتِ وَالْخَلِيجِ الْفَارْسِيِّ فَوَصَلَ إِلَى كَمْبِي ( كَهْمْبَات ) .

وَحَرَّكَتْ عَجَائِبُ الْهِنْدِ الْخِرَافِيَّةِ عَوَامِلَ الطَّمَعِ فِي الشُّعُوبِ الْأَوْرَبِيَّةِ فِي الْقُرُونِ الْوَسْطَى ، فَصَارَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا يَبْحَثُ عَنْ طَرِيقٍ لِلْوُصُولِ إِلَيْهَا غَيْرِ الطَّرِيقِ الَّتِي مَنَعَهُمُ الْمُسْلِمُونَ مِنْهَا ، وَلَيْسَ بِمَجْهُولٍ أَنْ كَرِيسْتُوفُ كُولُومْبُ وَجَدَ أَمْرِيكَةَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى الْهِنْدِ ، فَاعْتَقَدَ ، حِينَ وَطِئَ ، جُزُرَ الْأَنْتِيلِ أَنْهُ نَزَلَ إِلَى الْجُزُرِ الْقَرِيبَةِ مِنْ شَوَاطِئِ الْهِنْدِ ، فَاتَ هَذَا الْمَلَّاحُ الْكَبِيرُ قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ خَطَأَهُ .

وَالْبَرْتِغَالِيُونَ هُمُ الَّذِينَ وَجَدُوا الطَّرِيقَ الْمَشْهُودَةَ فَسَكَانَ لَا كَشْفَافَهَا أَهْمُ النَّتَاجِ ، فَنِي سَنَةِ ١٤٩٨ جَاوَزَ فَاَسْكَودُوغَامَا رَأْسَ إِفْرِيْقِيَّةِ الْجَنُوبِيِّ مَتَوَجِّهًا إِلَى الْهِنْدِ فَبَلَغَ كَالِيكْتِ الْوَاقِعَةَ عَلَى شَاطِئِ الْمَلْبَارِ مِنْ جَنُوبِ الْهِنْدِ .

والبرتغاليون ، حين وَقَّعُوا لهذا الاكتشاف الكبير ، وَصَلُوا أوربة بالهند رأساً فَقَضَوْا بذلك على تجارة مصرَ التي ظَلَّتْ مستودِعَ السِّلْعِ الهنديةِ عِدَّةَ قرون ، ولم تنقطع علاقات أوربة بالهند منذ ذلك الحين فانقضى كلُّ أَفَاقٍ أوربيٍّ عليها بُغْيَةٌ استغلَّها ، ومنذ أوائل هذا القرن فقط كُشِفَ أمر اللغة السنسكريتية وتوالت البعثات العلمية على الهند بانتظامٍ فَكُشِفَ عن الهند ذلك العِطَاءُ الذي كان يَحْجُبُها عن أوربة فكانت تُعَدُّ مكاناً لكلِّ عَجِيب .

## ٢ — إقامة الأوربيين الأولى بالهند

وَصَلَ فاسكودوغاما إلى سواحل الهند حيث يقيمُ صغيرُ اسمه زامورن الكاليكتي ، فاستولى ألبوكرك على غوا فآخذها عاصمةً مِنطقة الهند البرتغالية ، ولم يَفْتَأُ البرتغاليون يَبْسُطون سلطانهم فدَّانَ لهم قِسْمٌ كبير من الساحل الغربي الممتد من ملبار إلى جزيرة كاتمياوار .

والبرتغاليون ، وإن عَرَفُوا أن يفتحوا ، جَهِلُوا المحافظة على ما فتحوا ، فلم يلبثوا أن تَوَارَوْا أمام أوربيين آخرين حينما أَتَوْهم لينافسوا .

والهولنديون أول من بدأوا بمنافستهم ، فكانت حملتهم الأولى في سنة ١٥٩٦ ، فلم يَنْقُضِ نصفُ قرن حتى طردوهم ، والهولنديون لو لم يُزْخِرْهم الإنكليز عن مكانهم لأقاموا في الهند إمبراطورية عظيمة ، ولكن موارد هولندا إذ كانت ضعيفة في أوربة لم تَقْدِرْ هولندا على مقابلتهم باستمرار فَتَخَلَّتْ عن مكانها لهم .

وفي سنة ١٦٠٠ ، أي في عهد الملكة إليزابث ، أُلْفِتْ أول شركة إنكليزية

للتجارة في الهند فبدت وضيفةً في أوائل الأمر ، وبدأ وكلاؤها الذين بُعثوا إلى بلاط المغول خُصَّماً ، وفي سنة ١٦٠٨ ، حين ظهر هوكنز الإنكليزي سفيراً لملك إنكلترة جيمس الأول ولشركة الهند الإنكليزية لدى بلاط الملك جهانكير المغولي قال له وزراء هذا الملك إن ملك إنكلترة ليس غير سيد جزيرة صغيرة يسكنها صيادون بأنسون ، فلما مضت سنتان ونصف سنة على إقامته هناك من غير أن يظهر بطائل عند الملك المغولي صرَّح إليه أن يُعطيه كتاباً إلى مولاه فقال له الوزير الأول إن مما لا يناسب قَدْرَ ملك مغولي أن يكتب إلى أمير صغير كملك إنكلترة .

بيد أن تلك الشركة الإنكليزية لم تقنط ، فنالت ، بالدسائس ، براءة من الملك المغولي مُبَّح لها فيها بأن تتاجر في سورت ، فأنست دائرة أعمالها بالتدريج فكان لها في أقل من ستين سنة فروعاً في كل مكان تقريباً ، فاشترت في سنة ١٦٦١ مدينة بمبي من البرتغال ، ثم استقرت في سنة ١٦٧٧ بمدراس ، ثم عَيَّنت في سنة ١٦٨١ قائداً لكتائب بالهند ، ثم أرادت في سنة ١٦٨٦ أن تقا تل كتائب الملك المغولي بالبنغال فهزمت .

قام الإنكليز مقام البرتغاليين والهولنديين شيئاً فشيئاً ، ولكنهم لم يُعمِّموا أن قابلو أعداء آخرين طامعين في فتح الهند وجهاً لوجه ، فرأوا أن يُزِيلوهم من طريقهم أيضاً ، فهولاء المنافسون الجدد هم الفرنسيون الذين أخذوا يُسَبِّقون أقدامهم في الهند وإن أتوها متأخرين ، فقد أنشأوا في سنة ١٦٦٤ شركةً فرنسية للتجارة في الهند تحت رعاية كولبر .

لم تُفسَّك دولة أوربية ثانية في بسط سلطانها ، ولو قليلاً ، على جزء من داخل الهند ما ظلت دولة الغول قائمة ، مكتفية بما لها من المؤسسات في سواحلها ، ولكن

أبواب المطامع فُتِحَتْ بوفاة أورنج زيب الذى كان موته نذير انهيار سلطان المغول ، فلما تمَّ انحلال الدولة المغولية العظمى قامت على أنقاضها عدَّة ممالك فصار من الممكنات إقامة إمبراطورية جديدة فى الهند بالتَّدخُّل فيما يقع بين أمراءها الكثيرين من المنازعات الداخلية ، وفى الهند كان الفرنسيون والإنكليز وحدهم ثابتى الأساس قادرين على وِراثَةِ تلك التَّركَةِ التى يتنازعها كثير من الخصوم ، فَلَسَّرَ عَآنَ ما اضْطَرَّعُوا .

### ٣ - الصراع الفرنسى الإنكليزى فى الهند

أوَّل نزاع بين الفرنسيين والإنكليز كان فى جنوب الهند ، فى جنوب الهند كانت الفوضى عظيمة ، فكان مُعْظَمُ الدِّكَّانِ مُلْكاً لِمَلِكَةِ حيدرآباد المستقلة ، وكان أمير أركت يدير كرناتك بالنيابة عن حيدرآباد ، وكان أقصى الجنوب مقسوماً بين الممالك الهندوسية : ترى جنابلى وميسور وتانجور ، وكان الفرنسيون يملكون بونديچيرى ومتاجرَ غير ذات قيمة فى ماهى وكارى كَلَّ وجندر نَقَر ، وكان الإنكليز يملكون مدراس وبمبى ومرافىء كثيرة على الشاطئ ، وكان المراتبا يشنون الغارات على كلِّ مكان .

وَقَعَت الحرب بين فرنسا وإنكلترة فى أوروبة سنة ١٧٤٠ فَعَن لدو بليكس الذى عُيِّن سنة ١٧٤١ حاكماً عاماً للممتلكات الفرنسية فى الهند أن يطرُد الإنكليز من الهند وأن يُحوِّلها إلى إمبراطورية فرنسية ، فوُفِّق سنة ١٧٤٦ لإجلاء الإنكليز عن أكثر مراكزهم ، ولا سيما عن مدراس بعد وقائع كثيرة ، فلم يلبث أن أصبح

سيد ساحل الهند الشرقى بأسره ، وهو إذ رأى أنه لا يقدر أن ينال من حكومته رجالاً ولا أموالاً عقد عزمته على عدم مطالبتها بأى مدد وعلى فتح أعظم إمبراطوريات العالم وطرد جميع الإنكليز بمئات الأوربيين الذين هم كل من بقوا عنده مستعيناً بنائبه بوسى .

واغتنم دو پليكس فرصة وفاة نظام حيدر آبادر فأجلس أحد أنصاره على عرشه وتمكن من نصب أمير موال على أركت ، ودو پليكس ذلك عين ، فى مقابل ما ساعد به كثيراً من الأمراء ، أميراً على جميع البقاع الواقعة جنوب نهر كرسنا ، أى على بلاد تعدل فرسة مساحةً ويزيد دخلها عن خمسة عشر مليوناً فرنك ، وهكذا استفحل أمر دو پليكس وعظم نفوذه من غير أن يكلف فرسة شيئاً ، فلما رأى الإنكليز أنهم كادوا يتجلبون عن جميع ما يملكون فى الهند تذرعوا بحوك الدسائس فى قصر فرساي فاستطاعوا ، بوسائل لا يزال أمرها سيراً غامضاً ، أن يجلبوا لويس الخامس عشر على استدعاء دو پليكس وعلى ترك جميع ما فتحه ، فكان هذا آخرى عهد قطعه ملك فرنسا .

ينس دو پليكس فعاد إلى فرنسه لميوت فيها بأئساً ، ومن المؤسف أن أطاع أمر استدعائه بعد أن أصبح ، بالحقيقة ، أمير عدة ولايات واعترف ملك المগুল بإمارته وعاد لا يخشى ضياعها ، فلو خالف أمر مولاه ذلك لأسدى إلى فرسة خدمة لا تقدر بثمن ما دامت تلك المعاهدة الشائنة لم تحل دون محاربة إنكلترا ثانية فى سنة ١٧٥٧ ، ولم يكن مجدياً عزم فرسة ، إذ ذلك ، على تجديد ماضيه دو پليكس بعد أن أقصى عن الهند هذا الرجل العظيم ، فخلفه الأسيف لالى الذى جهز بوسائل لم ينل دو پليكس مثلاً فى أى زمن فلم تنفع هذه الوسائل ما عطل من دهاء



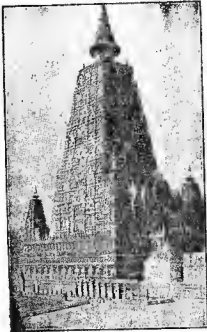
كدهاء دو بليكس ضرورى لتمام النصر له ، فقد غلب في كل مكان فغسر في سنة ١٧٦١ حتى پونديچيرى فساد إلى فرسة فحكيم عليه بالقتل فقتل مع أن الإنصاف يقضى بقتل أولئك الذين استدعوا دو بليكس فأضاعوا على فرسة إمبراطورية الهند .

تخلص الإنكليز من مزاحمة الفرنسيين فخلا لهم الجو فاستفتوحهم بتدخلهم الدائم فيما كان يقع بين الأمراء المحليين من منازعات وبتسليط بعض هؤلاء الأمراء على بعض ، فكانت هزيمة ملك ميسور الأخير تديو صاحب في ميرنفايتم في أواخر القرن السابق ، وكانت محارباتهم الطويلة المرأتها في أوائل هذا القرن الصفحات الأخيرة المومة لفتحهم الهند : ثم ضمت إليهم بالتدريج الممالك الهندية التي لم يستولوا عليها بعد متذرعين للوصول إلى هذا بأية ذريعة ، وعاد الأمراء ، الذين لم تنزع أملاكهم إقاموا به من انخدع ، لا يمارسون سلطة سياسية وأضحوا معدودين من أتباع إنكلترة ، وملكه نيپال وحدها هي التي حافظت على استقلالها التام إلى أيامنا .

#### ٤ - كيف فتحت الهند

ليس من مقاصدنا أن نفضل في هذا الكتاب الوقائع التي قام بها الإنكليز لفتحهم الهند ، ولكن من المفيد أن نشير إلى المبادئ العامة التي سار الإنكليز عليها ، وتلك المبادئ قد اهتدى إليها دو بليكس الذي هو من أكبر دهاء التاريخ ، فانصفه الإنكليز فأقرؤا بأن اتخاذهم لأساليبه أدى إلى فتحهم الهند التي لم يحلموا بتدوينها في أي زمن ، فاسمع مقالته المؤرخ الإنكليزي الكبير ماكولي : «دو بليكس

هو أول من أدرك إمكان إقامة إمبراطورية أوربية في الهند على أنقاض المملكة المغولية ، فقد وضع هذا الداهية ذو النظر الثاقب خطة ذلك حين كان أمهرُ موظفي



٣٦ - بعده غيا ، المجد الكبير (يلعب ارتفاعه ٥٢ متراً ) ( نزل صورة هذا المجد التي التقطها المؤلف على حاله الحاضرة بعد ترميمه وإصلاحه ، وقد أنقى ذيل المبلد ونرجح أن يكون سياحه الذي يرى بعض انتاضه في هذه الصورة قد أفيم في زمن أشوكا ، أي في القرن الثالث قبل الميلاد )

الشركة الإنكليزية لا يفكرون في غير تنظيم قوائم الأوساق<sup>(١)</sup> وحساباتها ، ولم يقتصر دوپليكس على انتحال غرض ، فقد قدّر بعصره الحديد الوسائل المؤدية إلى بلوغ ذلك الغرض ، فرأى أن جميع ما يُمكن أمراء الهند أن يَحْشِدوه من الجيوش في ميدان القتال لا يقدر على مقاومة فئة قليلة من الجنود المدربين الذين يُقادون بحسب فن الغرب الحربي ، ورأى أيضاً أن أهالي الهند يمكنهم أن يتحولوا إلى كتائب يُباهى بقيادتها مريشال سكس أو فردريك الكبير إذا كان على رأسهم زعماء أورييون ، ورأى أيضاً أن أفضل ما يستطيع أن يتمسك به أُنّاك<sup>(٢)</sup> أوربي ليَصِل إلى الحكم في الهند هو أن يُوجّه الأحوال والأهواء وأن يتكلم بلسان إحدى الأعب الفخمة التي تحمّل ألقاب الملوك

(١) الأوساق : جمع السوق وهو الحل .

أو الأمراء ، فكان دو بليكس أول من طبقوا فنون الحرب والسياسة التي سار عليها الإنكليز بعد سنوات قليلة موقّعين .

ثم كرّر الفيلسوف الإنكليزي ستوارت ميل ما قاله ما كولى تقريباً عندما بحث في أسباب فتح الإنكليز للهند فقال : « إن الاكتشافين المهمين اللذين انتهى الفرنسيون إليهما لفتح الهند هما : صُفُّ جيوش الأهالي تجاه الكتائب الأوربية المدربة ، ومهولة تدريب من يستخدمهم الأوريون من الأهالي على النظام الأوربي الحربي » .

و إلى ذينك السببين يعزو الإنكليزي المفضل الأستاذ سيلي لفتح الهند ، فبعد أن ذكرهما في كتاب نشره حديثاً لم يرَ أن ذلك الفتح نشأ عن بَسْطَة الإنكليز في الخلق والخلق كما يتشددّق به بعض هؤلاء ، وعلى ما أراه من عدم القسوة على الإنكليز ، خلافاً للأستاذ سيلي الشديد في حكمه على أبناء قومه ، أُضيفُ إلى السببين المذكورين آتفاً عناد الإنكليز وعزيمتهم الذي لا ينثنى ، ففي هذين الخلقين سرُّ سيادتهم وبقاؤهم سلطانهم .

وليس ذانك الاكتشافان وحدهما ما أسفرت عنه عبقرية دو بليكس ، فالإنكليز مدبرون له ، أيضاً ، باكتشاف ثالث طبّقوه ، فقد قام هذا الاكتشاف ، الذي هو مثل ذينك الاكتشافين أهمية ، على إمكان تدويع مستعمرة بأموال أهاليها المغلوبين ورجالهم ، ومن الغريب أن يعجز الفرنسيون عن العمل بهذا المبدأ الذي اهتدى إليه واحد منهم ، فقد أثبت مثال تونسكن ومثال الجزائر وغيرهما من الأمثلة درجة عجز المكتشفين لأحد المبادئ عن تطبيق هذا المبدأ في بعض الأحيان .

والإنكليز ، حين اتخذوا مبادئ دو بليكس نبراساً لهم ، توصلوا إلى فتح الهند

رجال الهندوس وأموالهم ، وإن شئت فقل بمجنود غير جنودهم وتقود غير نقودهم<sup>(١)</sup> ،  
فالحق أن الهند دانت للإنكليز بجيوش مؤلفة من الهندوس وبأموال أديتها حكومات  
من الهندوس .

وقد يَعْجَب الإنسان ، أولَ وهلة ، من قهر تلك الملايين الكثيرة بسهولة ، مع  
أنه يجب أن تكون جيوش الفاتحين مؤلفة من جنود كثيرين ، لا من بضعة آلاف  
من الجنود ، ولكن عَجَب يَبْطُل إذا قرأ فصولَ هذا الكتاب السابقة ، فيها يرى  
أن كلمة « الهند » ليست سوى تعبير جغرافيّ وأن الهند بلادُ شعوبٍ مختلفة أشدَّ  
الاختلاف ، وأنها لا تحتوى على ما تَعْرِفه أوربة من معنى « الأمة الواحدة » ، أى  
وَخِدةِ العرق واللغة والمُشاعر المؤدية إلى وَخِدةِ المصالح ، وأنها لا تشمل على قومية  
هندية كالقومية الفرنسية أو القومية الألمانية أو القومية الطليانية الخ ، وأن بعض  
شعوب الهند مختلفة أجنبيٌّ عن بعض ، وأن نظام الطوائف الذى يُفَرِّق بين مختلف  
طبقات العرق الواحد ، كما سنرى ذلك ، يوجب نَظَرَ أىَّ هندوسى إلى أكثرية أبناء  
قومه الساحقة كغرباء مثل الأوربيين كما يَعدُّ الراجپوتى سكان جنوب الهند  
من الغرباء .

ولا نُطِيلُ البحث في قُعدانِ الشعور القومى في الهند قُعداناً لا يدركه الأوربيون  
الذين لم يَطُوفوا فيها ، قال الأستاذ الإنكليزى سبلى : « تغيب إمبراطوريتنا الهندية

(١) لم يَقل في معركة بلاسى ، التى خاض الإنكليز غزاهم ضد الهندوس في سنة ١٧٥٧ فكانت  
أشهر المارك التى دخلوها لما أسفر انتصارهم فيها عن انتفال سيادة البنغال إليهم وخضوع الهند  
بأسرها لهم فيما بعد ، سوى اثنين وعشرين جندياً ولم يجرح فيها سوى خمسين رجلاً ، وكان جيش  
العدو فيها مشتملاً على ٦٨٠٠٠ مقاتل وكان الجيش الإنكليزى لا يشمل فيها على غير ٦٥٠  
أوربياً خلا من فيه من الهندوس .

عن الوجود عندما يبدأ الشعور القومى ينمو فيها وعندما يشمر الناس فيها بأن من العار مساعدتنا على دوام سلطاننا ولو لم يبتغوا طرد الأجنبي منها بالفعل ، ما دام ثلثا الحاميات مؤلفين من السكان الأصليين » .

ولما لا تراه من الشعور القومى فى الهند تجد سلطان الإنكليز قويا فيها وتجد ما يحدث فيها من الفتن غير ذى خطر ، ومن ذلك أن ثورة السباهى التى اشتعلت سنة ١٨٥٧ كانت وليدة شكاوى عسكرية خاصة ، فلم تكثر لها شعوب الهندوس فأطاعتها كتائب هندوسية مخلصة تقودها فئة قليلة من الإنكليز ( ككتائب الغوركها و فرق البنجاب ومشاة السك ) .

وإذا عدوت المغازى الأجنبية التى قد يقوم بها أوربيون وجدت أن أكبر خطر على سيادة الإنكليز فى الهند بزوغ شعور قومى فيها وإن كنا نرى بعد ذلك فى الوقت الحاضر ، والإنكليز أنفسهم ، هم الذين يتمهدون ، بما يسلكونه من أساليب التربية التى تدرس نتائجها فى فصل آخر ، نمو ذلك الشعور ويُعدون بذلك انهيار إمبراطوريتهم العظمى .



البَابُ الرَّابِعُ  
تَطَوُّرُ حَضَارَاتِ الْهِنْدِ





## الفصل الأول

### مَحْصَرَةُ الْعَصْرِ الْوَيْدِيِّ

وصف المجتمع الهندوسي قبل الميلاد بألف سنة

(١) عناصر بحث حضارات الهند - التقسيم إلى أعصر - السكتب الدينية -  
الحمايات - الأساطير - أحاديث قدماء السياح - المباني - بطوء التطور في  
الهند - لماذا لم يتجاوز شعوب الشرق أطوار الفرون الوسطى بعد - تأثير  
التقاليد والمعتقدات - من أسباب وجود الفرق اختلاط شرائعه الدينية  
والاجتماعية على الدوام بدلا من فصل بعضها عن بعض كما في الغرب - المعتقدات  
الدينية في الشرق هي أساس جميع نظمها الاجتماعية - عناصر التقسيم لختلف  
أطوار الحضارة في الهند - التقسيم إلى سنة أعصر - (٢) مصادر بحث  
الحضارة الآرية - غموض أصول العصر الآري - لم نصل إلينا منه آثار  
حجرية، وإنما انتهت إلينا منه كتب دينية - قيمة كتب الويدا - لم تكن هذه  
الكتب من عمل شعوب فطرية بل من وضع فريق من الأدباء وعلماء اللاهوت -  
(٣) أصل الآريين - مقايضة بين الآريين وقدماء الفرس - غموض أصل  
الآريين - الفرضيات الحديثة - أدخل الآريون إلى الأمم المفهورة حضارتهم  
ولغتهم، لادهم - توارى الآريين عن الهند - (٤) الأسرة عند الآريين -  
كانت الأسرة والعرق أساسى المجتمع الآرى - ارتباط الفرد الوثيق في أجداده  
وحفدته - كانت الأسرة، لا الفرد، أساس الوحدة - لم تكن الديانة غير  
عبادة العرق والأسرة - خلط الآلهة بالأجداد - أهمية ما يقرب إلى أرواح  
الأجداد من الفرائين - حال المرأة عند الآريين - سلطان رب الأسرة المطلق -  
(٥) نظم الآريين السياسية والاجتماعية - القرية وليدة الأسرة الكبيرة -  
لا يزال نظام القرية، كوحدة سياسية، باقيا إلى أيامنا في الهند - (٦) الحياة  
عند الآريين - فنونهم - طرق معاشهم - الميسر والملاهي والمآتم الخ -  
(٧) مبادئ الآريين اللاهوتية والدينية - لا آلهة معينة عند الآريين -  
تشمل كتب الويدا على أكثر المادى الدينية تناقضا واختلافا - تنذب  
مبادئ الآريين - آلهة الآريين الأصلية - ما يزوه الآريون لإبهام القدرة  
المحدودة - ما يمكن استنتاجه من كتب الويدان المبادئ اللاهوتية والمبادئ  
الدينية - الأخلاق عند الآريين - تقدير الحضارة الآرية في مجموعها .

## ١ - عناصر بحث حضارات الهند - التقسيم إلى أعصر

ذكرنا في فصل سابق أنه ليس لدينا كتاب تاريخ بين آثار الهند القديمة وأن أدوار ما يُقَرَّب من ألف سنة تبقى مجهولة تماماً لو لم يُلقَ عدد قليل من المباني والكتابات وكتب القدماء نوراً ضئيلاً عليها .

وما عندنا من الوثائق التي نبعث بها حضارة الهند ، في دور يُقَرَّب من أربعة آلاف سنة سَكَن الهند في أثنائها شعوبٌ بلغت درجاتٍ متفاوتةً من الحضارة ، وإن كان غير كافٍ ، يزيد عما يقتضيه رسم تاريخ هذا الدور ، فما انتهى إلينا من الكتب الدينية ككتب الويدا ، ومن الحاسيات كالراماينا والمهابهارتا ، ومن الشرائع القديمة كشرائع منو ، يكفي لتمثل الأحوال الاجتماعية في الأزمنة التي وُضِعَ فيها ، وما وصل إلينا عن الهند القديمة من مئات الأناصيص والأمثال والأساطير بدُّ لنا على شعور الأمم التي أبدعتها وأفكارها ونظرها إلى الأمور ، وما بَلَّغنا من المباني وأحاديث الشهود ، القليلة مع الأسف ، كأحاديث السفير اليوناني ميغاستين والحاجَّين الصِّينِيِّين فاهيان وهويين سانغ ، يُبَيِّنُ تلك المصادر إتماماً نافعاً .

ومن بَيَّعَتْ في تاريخ حضارة الشعوب الأوروبية يَرَّ التطورَ التدريجيَّ من صفات هذه الحضارة ، ومن يبحث في حضارة الأمم الشرقية ، كالصينيين والهندوس على الخصوص ، يَبْدُو له مثلُ ذلك التطور أمراً غامضاً وإن تَمَدَّرَ إنكاره ، وذلك التطور ، وإن لم يُفَصِّرْه الباحث ، نشأ خفاؤه عن قِلَّةٍ معرفتنا لماضي تلك الأمم وعن عدم مجاوزة تلك الأمم للطور الذي يكون التطور فيه بطيئاً ، فلو وَقَفَتْ حضارة الغرب في أواخر القرون الوسطى فجأةً غير تاركة لنا سوى وثائق ناقصة نَقَصَ التي نحكم بها في

أمر الشرق الأقصى لاعتقدنا ، عند عدم التدقيق التام ، أن الغرب لم يتطور ، مع أن أسس حضارة الغرب وُضِعَتْ في ذلك الزمن الطويل فقامت على هذه الأسس بعدئذ بسرعة .

جاوزت شعوب الشرق طورَ الممجية الأولى كما جاوزنا ، وارتقت إلى دور يشابه دور قرونا الوسطى كما ارتقيت ، ولسكنها إذ قِيدَتْ نفسها بسلسلة من العادات والتقاليد والمعتقدات أقوى مما يُقَيَّدُنا لم تَسْطِعْ أن تتخلص منها كما استطعنا ، فلم تَخْرُجْ من ذلك الدور كما خَرَجْنَا ، فظَلَّتْ في الدور التمهيدى الذى لا يَتِمُّ تطور إحدى الأمم فيه بسرعة .

وَأَمَّا نِيزَ معتقدات الشعوب الشرقية من أهمِّ الأسباب المختلفة التى يُفسَّرُ بها بطورها تطورها كالبنيئة المادية وطُرُقُ المعاش وللزاج النفسى والعروق الخ . ونيزَ كهذا قد ثَقَلَتْ وِطَانُهُ علينا فى أحد الأزمان لا ريب ، بيد أن معتقدات الغرب لم تَعُدْ حَدًّا للعاليم الدينية مع أن معتقدات الشرق نسيجٌ من الشرائع الدينية والاجتماعية ، فالشرائع الدينية إذ عُدَّتْ ثابتةً غيرَ متحولة على الدوام وجب عَدُّ الشرائع الاجتماعية المشتملة عليها ثابتة غيرَ متحولة أيضاً ، فكان ما تراه من بطورها ، وهنا نقول إننا حينما دَرَسْنَا فى كتاب آخر « تاريخ حضارة العرب » ذكرنا أن القرآن الذى هو دستور دينى واجتماعى كأكثر دساتير الشرق ، وإن أنعم على العرب بالوحدة التى بدَّوْا بها أمةً واحدة ذاتَ مشاعرٍ واحدةٍ ومعتقداتٍ واحدةٍ ومقاصدٍ واحدةٍ ، أَدَّى ، فيما بعد ، إلى انحطاط الحضارة العظيمة التى نشأت على أساسه <sup>(١)</sup> .

المعتقدات الدينية فى الهند هى أساس جميع النُظُم الاجتماعية ، فما فى الهند من نُظُم اجتماعية ليس ، بالحققة ، إلا نُظُمًا دينيةً ، ونحن ، حين نرى الدور المهم الذى

---

(١) أخطأ المؤلف فى رأيه ذلك فرددنا عليه فى مقدمتنا لكتاب « حضارة العرب » ( المترجم )

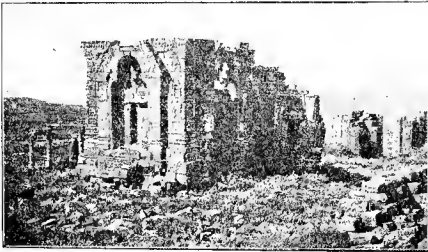
مثله الدين في جميع شعوب الهند على الدوام ، نَعُدُّ تطورات الدين عنصراً أساسياً في تقسيم ما حضارتها من الوجوه ، وتسكون هذه التطورات غير محسوسة عند النظر إليها بين قرن وقرن ، وتبدو كبيرة عند النظر إليها في أدوار تحتوي عِدَّة قرون على الدوام ، وذلك كما نُضطرُّ إلى أن نفعله لعدم كفاية الوثائق ، ولا يقاس تاريخُ بُولْف عن حضارات الهند بكتاب جغرافيّ يشتمل ، مثلاً ، على ما لأحد البلاد من الطرق المترجعة بين مسارب الغاب وشوارع المدن وطرق القرى ، بل بكتاب يضعه سائحٌ ينظر إلى إحدى البيّعات من فوق جبلٍ فيصوّرها تصويراً عاماً مقتصرّاً على الإشارة إلى مدنها بإيجاز على أن يُفصل أمرها بعدئذٍ إذا تيسّر له أن يجوب إحدى المدن التي أشار إليها مختصراً .

فلنتخذ المعتقدات الدينية ، إذن ، أساساً للتقسيم ، ولننظرُ إلى الأعصر الستة الآتية في دراسة حضارات الهند وهي : العصر الويدي والعصر البرهمي والعصر البُدْهي وعصر البرهمية الجديدة والعصر الإسلامي والعصر الحديث الذي جعلناه موضوع بحثٍ منفصل في هذا السّفر ، ولا يقلُّ العصر الحديث عن تلك العصور أهميةً ، فبِهِ تنجلي نتائج اصطدام حضارتين يفصل إحداها عن الأخرى مثلُ هُوَّةِ مابين القرون الوسطى والأزمنة الحديثة .

## ٢ - مصادر بحث الحضارة الآرية

نرى أن تنفادى من التكرارات فنَبَسُطَ في هذا الفصل وفي الفصول الآتية حضارة كلِّ عصرٍ بسطاً عاماً على أن نعرِّض في فصول خاصة آثار كلِّ عصر من تلك الأعصر ، كالآداب والمباني ، الخ .

تجلى الحضارة الآرية في شمال الهند الغربيّ في عصر يَرْجِع في القِدَم إلى خمسة عشر قرناً قبل الميلاد ، ولم يَنْتَه إلينا منها أى أثر حجريّ كما أننا لم نجد ما يدلُّ على إنتاجها مثل هذا الأثر ، وكلُّ ما وَرِثه العالم منها هو دائرة المعارف الدينية الواسعة المعروفة بالويدا ، وتحتوى هذه الدائرة على أسفارٍ كُتِبَتْ في أزمنة مختلفة ، ويُعَدُّ السِّفرُ المسمّى بالَرْغ ويداً أهمّها ، ويرى مكس مولار أن سِفرَ الرَّغ ويدا هذا وُضِعَ قبل المسيح بألف سنة على الأقل ، وفسّر هذا السِّفرُ تفسيراً ملائماً فأخبرنا عن لغة الشعوب التي أَلَمَّتْه وديانيتها وأحوالها الاجتماعية ومزاجها النفسى .



٣٧ - مارتندي . أطلال المعبد الذى أُنِج في كشمير على الطراز الإغريقى الهندوسى  
( في القرن السادس من الميلاد على ما يُحتمل )

ولمّا يَمُضِ قرنٌ على معرفة أوربة لتلك الأسفار ، وقضى مترجموها من العَجَب ما لا يُقَلَّ عن نَعْبِهِم في سَكَبِ أفكار واضعيتها المتعددة في قَالِبِ لُغَوِيٍّ واضح ، ولا أرى أن أحكم هنا في ذلك الأثر الأدبى العظيم الذى لا يُلْتَمَى في رُوع من يقرأه

بأنصاف سوى قليل عَجَب بالحقيقة ، فهو يمتزف ، لا ريب ، بأن من العبث أن يُبْحَث فيه ، خلافاً لما صُنِعَ حتى الآن ، عن « أتر الرعاة الفطريين الذين يُقدِّسون الآلهة حين يَسْمُرُونَ<sup>(١)</sup> أنعامهم » ، وليس مما يحتاج إلى نظر ثاقب أن يُقطع بعجز الرعاة عن وضع أشعار كالتي تراها في الويدا ، فكلُّ شيء في الويدا مصنوع ، وهو من وضع أدباء مُنبهاء ولاهوتيين أذكىاء ، فتى نَفَذَ مبدأ التطور في العلوم التاريخية سؤل الاعتراف بأن آثاراً كالويدا تَفْتَرِضُ سابقَ إعداد في قرون فلا تَصْدُرُ عن أدمغة أناس فطريين كما أن كنيسة غوطية لا تَصْدُرُ عن أدمغة أناس فطريين معاصرين للاموث<sup>(٢)</sup> أو لَوَعْلُ الشمال ، فلا نبحت في الويدا ، إذن ، عن الحضارة الفطرية ، بل عن حضارة أمة ذات ماضٍ تَلِيد .

### ٣ - أصل الآريين

تطلق كلمة « الآريين » على شعب ، ذى جلود بيض وشعر سود ولغة ضائعة معروفة بالآريالك ( فاشتقت منها اللغة المعروفة بالسكسكت ) ، هبطَ قبل الميلاد بأكثر من خمسة عشر قرناً إلى شمال الهند الغربي ماراً من معابر كابل ، وكان الآريون قبائل شبيهة بدويّة شبيهة حضريّة تعرف الزراعة وتتنصّف ، ككثير من الأعراق ، بأنقاد الخيال ، وتشابه بطرق معاشها قدماء الفرس الذين حكى عنهم هيرودتس . وتقدّم الآريون رويداً رويداً من نهر السند إلى نهر الغنّج ، ثم تقدّموا من نهر الغنّج إلى نهر برهماپوترا ، فأخضعوا في أثناء ذلك ذوى الجلود السود والشعور

(١) سرحها يسرحها سرحا وسرحوا : أرسلها اتزعى - (٢) للاموث : الغيل البائد .

السَّبَاط<sup>(١)</sup> كما أخضعوا التورانيين الذين سَبَقوهم إلى الهند ، فتَدَرَّج الآريون من البداوة إلى الحضارة .

لا يزال أصل أولئك الغُرَّة الآريين ، الذين سَلَّوا ، لا ريب ، دوراً مهماً في تاريخ الهند خافياً ، ويُرى ، على العموم ، أن الآريين الفطريين كانوا يقطعون قبل الميلاد بالْقَيِّ سنة في بُقعة من التركستان مجاورة لجرى نهر أ كسوس<sup>(٢)</sup> ، ثم سَلَكُوا طريقين للهجرة ، إحداهما الطريقُ المؤدِّيَّة إلى أوربة والأخرى الطريقُ المؤدِّيَّة إلى إيران ، فالآريون الذين سَلَكُوا طريقَ إيران أقاموا ببلاد فارس وبقطريان والصُّغْد ، ثم دَومَ حَقْدَتِهِمْ على سيرهم إلى الجنوب فجاوزوا جبال هِنْدُوكُش ودخلوا الهند ، فإذا صَحَّتْ هذه النظرية كان الآورييون والهندوس قرَعَى دَوْحَةِ آسيوية بدوية واحدة .

يَبْدُ أن تلك النظرية ليست غيرَ فرضيَّة قائمة ، فقط ، على تشابه أصول اللغات الآوربية ( اللاتينية واليونانية والألمانية إلخ . ) والفارسية والسَّنسكريتية .

حقاً أن هنالك قرابةً لغويةً بين الهندوس والآوريين ، ولكننا نَعْلَمُ اليوم أن تشابه اللغات لا يعنى ، دائماً ، قرابةً العروق ، فإذا عَدَّوَتْ هذه القرابةُ اللغوية لم تَحْدِ ما يؤيد تَحَدُّرَ الآوريين من أصلٍ آسيويٍّ ، ما أمكن افتراضُ العكس بأن يقال إن الآسيويين أتَوْا من أوربة .

هذا ما افترضه حديثاً علماء من الألمان مستنديين إلى وجود أناس شُعُر قليلين في شمال الهند الغربيٍّ ، وأرى أن فرضيَّة علماء الألمان هذه ضعيفةٌ كَثَلِكُ ما عُدَّ

---

(١) السَّبَاط : جمع السبط وهو من الشعر نقبض الجمد - (٢) هو نهر جيحون المسمى الآن أموداريا ( المترجم )

هؤلاء الشُّقْر القليلون بَقِيَّةٌ كَثِيرٌ من الفُرَاة الذين أُتُوا منذ ثلاثة آلاف سنة فأتعبن لتلك البُقعة من كلِّ جهة ، لا من أوربة وحدها ، فإذا كان في العالم بُقعةٌ يَنْدُر وجودُ الشُّقْر فيها فهي بلاد الهند لا ريب ، فلقد طُفَّتْ في جميع نواحيها فلم أصادف فيها إنساناً أشقر ، وهذا إلى قولي إن الشُّقْر الآريين لا بُدَّ من أن يكونوا قد وُجِدُوا فعَرَفَهُمْ مَنْوُ فَعَدَّهُمْ من شعب متأخر فحَظَرَ زواج رجال الطوائف العليا بِنِسْوَتِهِمْ « ذوات الشعور الشُّقْر » .

لم يبق سوى الرجوع إلى الافتراض القائل إن الآريين من أصل آسيوى بعد دحض الافتراض القائل إن الآريين من أصل أوربى ، فقد رُئِيَ نزولهم الأسماءُ بِمختلف البقاع الممتدة من نهر أكسوس إلى بحيرة بال كاش ، أى بِبُقعة من بلاد المغول كان العرق الأصفر يملكها منذ أكثر من ألفى سنة قبل الميلاد على حسب ما جاء في أقاصيص الصينيين ، فأرى ، أيضاً ، وجوب استبعاد هذا الافتراض القائل إن بلاد المغول هى مهدُ الآريين ، ما لم نَرُضْ بزعم ويلر الواهى القائل إن الآريين من المغول .

ولا أحاول هنا أن آتِىَ بافتراض جديد فى أصل الآريين ، بل أذكر أن المحتمل أكثر من سواه ، على ما يظهر ، هو أن الآريين كانوا سكان إيران الأصليين ، وأن الحاورين منهم للهند هم الذين دَخَلوها على دَفَعَات متتابعة لاريب ، كما استولى أجدادهم على أوربة من قبلهم ، وأن تأثيرهم فى دماء الشعوب المقهورة كان ضعيفاً إلى الغاية كما يبدو لى خلافاً للرأى السائد .

ولا أعتقد وجودَ شعبٍ فى الدنيا يستطيع أن يزعم اليوم أنه من سلالة الآريين ، وسببُ ذلك أنه افتُرِضَ ضَيْقُ بلد الآريين الأول وأن ما فتحه الآريون من البلاد ،



ولا سيما الهند ، واسع أهل بأم كثيرة فوقع ما أثبتته البحث من أن شعبتين متفاوتتين في العدد إذا تقابلا لم يلبث أكثرهما عدداً أن يبتلع أقلهما عدداً ابتلاعاً يمحى به مثال هذا الأخير بعد بضعة أجيال ، ووقع مثل ما حدث في مصر التي ليس القوم فيها من سلالة العرب الفاتحين ، بل من سلالة مصريي عهد الفراعنة ، كما نشهد بذلك سحتاتهم المشابهة لسحتات قدماء المصريين التي خلّدتها نقوش المعابد ، وذلك مع اعتناق المصريين لدين العرب وانتحالهم لغة العرب وفق ما ذكرت في فصل سابق .



وجب أن يكون شأن الآريين في أوربة قد تماثل هو وشأنهم في الهند ، فيكونوا قد أدخلوا إلى الأمم المغلوبة حضارتهم ولغتهم ، لا دهمهم ، وهم إذا لم يتوارثوا في الهند بسرعة كما توارى العرب في مصر فلا ن نظام الطوائف الشديد حال دون امتزاجهم في الهند بالتورانيين المقيمين زمناً طويلاً أو أنهم امتزجوا بهؤلاء شيئاً فشيئاً ، ولكن هذا الامتزاج مهما كان بطؤه أدى إلى اختفاء الفاتحين بتعاقب القرون ، فلم تجد في الهند أثراً للآريين منذ زمن طويل ،

٣٨ - نقش إغريقي يدهى بالقرب من بيشاور  
( صنع قبل القرن الخامس من الميلاد  
بزمن قليل على ما يحسد )

ونحن إذا سائرنا رخصة اللغة والعادة فقلنا إن الشعب الغالاني آري فإننا نقصد بذلك أن هذا الشعب من البيض وأنه يدنو من مثال الأوربيين من غير أن يساويهم بياضاً .

ونحن ، وإن لم يكن لدينا علمٌ قاطع بأصل الآريين ، نَعْرِفُ وجودهم من آثارهم الأدبية أو من آثار حَقْدَتِهِم الذين دخلوا الهند فيما مضى ، وفيما تقدم أُلْمِنا إلى حقيقة تلك الآثار ، فَبَقِيَ علينا أن نبحث في أحوال واضعِها الاجتماعية ودرجة حضارتهم ، وهذا ما نفعله كما يأتي :

#### ٤ — الأسرة عند الآريين

كانت الأسرة والعرق في العصر الويدى أساسَ المجتمع الآرى ، فلم يُفَرَّقْ بين الآريين أية زمرة كالتقبيلة أو العشيرة أو الحكومة ، والعرقُ عند الآريين هو الذى كان يعلو الأسرة ، ولم يُوجَدْ شيءٌ عندهم دون الأسرة ، فالفردُ الآرى لم يُعَدَّ مستقلاً عن أجداده ولا عن حَقْدَتِهِ ، فالوَخْدة ، لدى الآريين ، لم تَقُمْ على الفرد ، بل قامت على الأب والأم والأبناء والأجداد وعلى الذرارى التى تَخْرُجُ من أصْلاب هؤلاء فتحافظ على ذكراهم واسمهم بتعاقب الأجيال .

ولم تكن الديانة عند الآريين سوى عبادة العرق والأسرة ، وكانت آلهة الآريين تختلط بالأجداد ، وكان النكاح والولادة لديهم من الأعمال المقدسة ، وكانوا يَرَوْنَ أن انتقال الحياة من الأب إلى الابن بواسطة الأم هو انتقالٌ خَفِىٌّ لِإِلَهِ النار أَعْنِى الذى هو أصل الإلقاح وسيدُ الكون وَمُبْدِئُهُ من خلال أحشاء البشر لتخليد الوجود الأزلَى .

ومن أعظم المصائب عند الآريين أن يَتَزَوَّجَ الواحد منهم أجنبية أو أن يموت غير ذى ولد ، فإفساد نَفَاوَةِ العرق لدى الآريين كانت تتضمن قطعاً أبدياً للنسب الإلهى الذى يَصِلُ الآرى بأغنى فيؤدى ذلك إلى تصامٌ هذا الإله عن صلوات ذلك

الذى أوجب جريانه ، وهو إله كلِّ حياةٍ نقيّةٍ فى عروق شعبه الذى يكون قد اتّصل  
بمناصر غليظة جُمِلت منها العروق الدنيا ، فالزواج بالأجنبيات ، إذن ، هو عند  
الآريين ، جنائية يستحقُّ مقترفوها اللعنة الدائمة .

وليس بأقلِّ فظاعةٍ من ذلك أن يموت الآرى بلا عقب ، فالولد ، عند الآريين ،  
يُخلّد الأجداد بما يقوم به من عباداتهم وبما يُقرب من القرابين إليهم ، فإذا قُطعت  
تلك العبادة وهذه القرابين تَلَاشَت أرواح الآباء وفنيت وزالت الأسرة  
إلى الأبد .

والبناتُ الآريات إذا ما تزوّجن انتَحَلْنَ آلهةً أسرَ أزواجهن فَعَبَدَنَ أجدادهن  
وصِرْنَ غير صالحات لتخليد آبائهن ، فالرجلُ الآرى الذى يموت غير ذى ابنٍ يَنتَك  
من غير أن يُبعث فيما وراء القبر ، ويجرّ خلفه ، بذلك ، أجيالاً كثيرة من الأجداد  
إلى بَوَار لا يمكن تلافيه .

وترى فى الرِّغ ويداً نصّاً على قرابة الإله أغنى وعلى شأنه فى خَلْق الأسرة وعلى  
نقاوة العرق وأهميته وعلى ضرورة ولادة أعقاب قادرين على تقريب القرابين ، جاء  
فى الرِّغ ويداً :

« أغنى هوربُ الخلود ، هوربُ الغنى ، فهو الذى ينعم بالأسرة القويّة ،  
فيا إلهنا القادر ! لا تُؤاخذنا ، نحن عبادك ، بما تراه فينا من عدم العقب ومن القتل  
من الجلال وفقدان القرابين » .

« أَيَسْمُنَا العَطُوف أغنى بأفضاله ؟ أَتَأْمُلُ منه سَعَةً سَرْمَدِيَّة ؟ فيا أغنى  
لسنا من أصلاب عرق أجنبي ولا من عرق كافر ، فلا تَلُكْ غير السبيل المؤدية  
إلينا » .

« فلو لم يكن الإله أغنى من دم كدمنا لكان من العيب بَحْثُهُ عن خضوعنا وقرابيننا ، فله علينا حقُّ المأوى فنحفظه له ، فليَدْخُلْ علينا هذا الإله القادر الظافر الجدير بأن يُسَجِّدَ له » .

والأسرة المُوَحَّدة المباركة الوافرة هي عند الآريين مصدر كلِّ سعادة دنيوية وأبدية ، فلا شيء لديهم يَعْدِلُ مَسَاكِرَها ، فهم لا يفتسأون يتفنَّون بها ، وهم إذا ما أرادوا تصوير مجد الآلهة أو يُمَنِّها لم يَتَمَثَّلْ لهم غير جمال الزوجة ووفائها وقوة الأب الكاهن وجلاله وظَرْف الأولاد وانقيادهم ، فهم يَرَوْنَ في هذه الأمور كلَّ نعيم ، وتَمَلَّأ هذه الأمور جوانحهم ، فَتَجِدُ فيها سرَّ أغانيهم الدينية الكثيرة المُفَصَّلَة حولها ومنها تُجَعِّلُ أخوَالَهُم .

ولا شيء يفوق أهمية تقديم كلِّ أسرة قرايينَ إلى أرواح أجدادها ، وقد قلنا إن تقديم هذه القرايين إذا ما انقطع تلاشت أرواح الموتى وانطقات الأسرة إلى الأبد ، والأب هو الذى كان يقوم بتقريب القرايين ، وكان للأُم ، كما أن عليها ، أن تساعد على ذلك فتَقَامِمْه المجد ، فالأُم كانت تجمع على ضوء القمر الأزهار من سفوح الجبال فتستخرج منها بدقة وبتخدير بطلَى الشراب المقدس المعروف بالسوما ، فكان الأبُ يَنْضَح الضحية بهذا الشراب ، والنارُ إذ كانت تزيد اشتعالاً بشراب السوما الروحاني بعد أن تكاد تنطفئ ، وكان أغنى يبدو بذلك أشدَّ قوةً وأسطع نوراً ، عَبَدَ الآريون هذا الشراب كما عبدوا النار فأبدعوا له مَدَانِحَ وصلوات ، فما جاء فى الرِّغْ ويدا .

« عَظَّمُوا بِتَلِيدِ الأناشيد ذلك الإله النقي الذى يبدو لكم بالأعمال المقدسة المَجِّدَة للآلهة » .

« هو يَنْصَبُ عَلَى مِصْلٍ <sup>(١)</sup> من صوف لِيُصَفِّي ، هو سَدَّ العالم ، هو مَلَاك صلاة الفجر الذي يُسَبِّحُ الحُكَّاءَ بِحَمْدِهِ » .

« بِسَقَرِ السُّومَا الذي هو عَيْنُ الزَّكَاةِ وَمَنْبَعُ السَّعَادَةِ بَأْنِيَةِ الْقَرِيانِ ، وَيَبْدُو نَائِرًا لِلدَّعَاءِ تَنْثُرُ النَّوْرَ لِلْقَاحِ فِي النَّعَمِ <sup>(٢)</sup> » .

وكانت لحوم القربان تُعدُّ نافعةً لتغذية الأجداد ، وكان الإله أغنى بِحُمُلِهَا إليهم ، ولم تكن النار لِتَحْرِقُهَا إِلَّا لِتَجْعَلَهَا صَالِحَةً لِلتَّقْدِيمِ إِلَى الْآكِلِينَ مِنَ الطَّعَامِ الإِلَهِيِّ ، وكان عدم تقريب القربان إلى الأجداد عند الآريين كترك المرء والديته بموتان جوعاً في زماننا ، وما أكثر ما كانت الأسرة تأكل جالسةً هي وعشيرتها من مائدة واحدة حول المَوْفِدِ الداخن .

والأُمُّ إِذْ كَانَتْ تُقَاسِمُ الأبَّ شَرَفَ تَقْدِيمِ الْقَرِيانِ وَمَا يَتَطَلَبُهُ هَذَا التَّقْدِيمُ مِنْ عَمَلٍ نَفَرَضَ مَسَاوَاتِهَا لَهُ ، وَيَتَضَيَّحُ مِنْ كُنْهِ الْوَيْدَا أَنَّ الْمَرَأَةَ ابْنَةً كَانَتْ أُمَّ خَطِيبَةٍ أُمَّ زَوْجَةٍ أُمَّ وَالِدَةٍ لَمْ تُعَدَّ تِلْكَ الْخُلُوقَةُ الْمُنْحَطَّةُ الْفَاقِدَةُ الشُّعُورَ خِلَافًا لِاحْتِفَارِ الْمُشْتَرَعِ مَنُوحِهَا فِيهَا بَعْدَ ، فَكُنْتُ الْوَيْدَا تُحَدِّثُ عَنْهَا وَعَنْ شَأْمِهَا بِاحْتِرَامٍ عَلَى الدَّوَامِ ، جَاءَ فِي كُتُبِ الْوَيْدَا :

« تَعَالَى ، أَيَّتُهَا الزَّوْجَةُ الْحَسَنَاءُ ، تَعَالَى يَا مُنْبِيَةَ الْآلِهَةِ ، تَعَالَى أَيَّتُهَا الْمَرَأَةُ ذَاتُ الْقَلْبِ الْخَمُوفِ وَالْأَعْيُنِ الْكَاذِبِ وَالصَّالِحَةُ لَزَوْجِهَا وَلِأَنْعَامِهَا وَالْمُعَدَّةُ لِلْوِلَادَةِ الْأَبْطَالِ ! » .

« إِنَّ أَمْتِيَّازَ الْمَرَأَةِ هُوَ مَقَاسِمَتُهَا لَزَوْجِهَا شَرَفَ تَقْرِيبِ الْقَرِيانِ » .

(١) المِصْلُ : الرِّعَاءُ لِلْمِصْلِ وَهُوَ وَضْعُ الْإِثْنِ أَوْ نَحْوِهِ فِي خَرْقٍ أَوْ نَحْوِهَا لِيَقْطُرَ مَائُهُ -

(٢) الْمَقْصُودُ مِنَ النَّعَمِ هُنَا الْبَقَرُ .

ونُضيف إلى ذلك الامتياز نَظْمُ المرأة للشائد ، في الرَّغْ ويدأ أناشيدُ كثيرة مُفضّة بأسماء نساء .

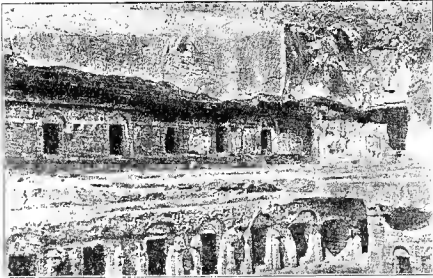
ويظهر أن الاختصار على زوجة واحدة كان مبدأ آرِّي ويدأ على العموم ، ونحن إذا ما نظرنا إلى الأمر بما نراه بعد ذلك وَجَدْنَا الأمراء والأغنياء منهم كانوا يتزوجون عِدَّةً زوجات ، والذي حَفَزَ الآريين إلى انتحال مبدأ تعدد الزوجات هو احتياجهم للميخ إلى الأولاد الذكور ، فالرجلُ الذي لا تِلد له زوجته الأولى إلاَّ إناثًا كان يتزوج امرأةً أخرى بحكم الضرورة .

وكان للفتاة أن تختار زوجها ، وكان للفتاة أن ترفض تسكيل المبارز الغالب في المباراة عند وجود غير خاطب واحد لها كما يحدث أحيانًا ، وإن كانت موافقتها على المباراة ضربة لازب ، وفي كتب الويدا وصفٌ دقيق للغرام الناشئ ولأولى العلاقات بين الفتيان والفتيات ، والآريون ، إذ لم يَرَوْا سعادة في الدنيا والآخرة خارج الأسرة ، كانت تدفعهم أسباب دينية وفصالح دنيوية ، أي كلُّ ما يمكن أن يُؤثِّر في الروح البشرية ، إلى الاهتمام بكلِّ ما يَمُتُّ إلى النكاح بصلة .

وكانت طقوس الزواج تَقَسِّم بذلك الطابع الديني البادئ في جميع شؤون الأسرة ، فتظهر رائعةً بالصلوات والقرابين والنذور وتظهر ذاتَ بَهْجَةٍ بَسَاء الأزياء وكثرة الحضور وضروب اللهو والطرب كما ورد في أُنشُودَةٍ طويلة من أناشيد الرَّغْ ويدأ ، فالمرء حين يقرأ أُنشُودَةَ « أعراس سوريه » يُخَيِّلُ إليه أنه يشاهد عيدًا قديمًا من أعياد الأسرة كما لو ذهب راجعًا ألوف السنين في مجى الأجيال ويلوح له أنه يسمع نصيحة السكاهن وما يُكَلِّمُ به الفتى خطيبته .

ويُضاف إلى صفة الأب الرائعة في تقريب القرابين سلطانُه المطلق ، فيُعطيهم

أبناءؤه إطاعته للأجداد ، لا إطاعة العبيد للأسياد ، فإذا ما طَمَعَن الأَبوان في السَّنْ وعَجَزَا عن العمل غَدَّأَها أبنائُهم كما يُغَدُّون الأجداد بالقرايين ، ولم تُقَطَّع هذه الفروض المتقابلة قط ، وكلُّ ما كان الآرئُ يَنشُدُّه هو أن يشيخ بين أولاده وحَفَدَتِه وما كان ليخاف السِكرَ ما بدأ يَتَذَوِّق فيه شيئاً من طعم سعادة الأجداد الأبدية الهادئة .

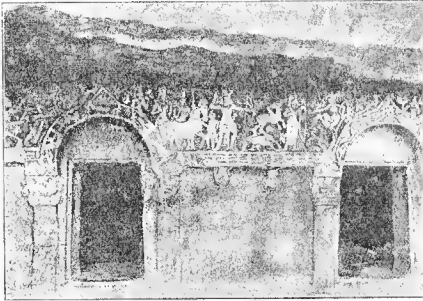


٣٩ - أودى غبرى ( أوريسه ) . مقدم دير راني نور البدهي المنحوت في منحدر جبل ( في القرن الثاني قبل الميلاد )

### ٥ - نُظُمُ الآريين السياسية والاجتماعية

لم يوجد للنُظُم السياسية ولنظام الطوائف وللنظام الحكومي أثرٌ في أوائل العصر الويدي حينما كان الآريون يقيمون بسهولة الهند الواسعة ذات الأنهار السبعة ، وإن شئت فقل حينما كانوا يقيمون ، قبل دخولهم وادي الغنّج ، بالمنطقة التي تُروى بمياه نهر السُّند وروافده .

وقد رأينا أن الأسرة هي أساس مجتمع الآريين ، وأن هذا المجتمع كان يؤلف من العرق بأسره من غير وظائف وطبقات ، قَرَبُ الأسرة كان يَجْمَعُ في شخصه صفة المُقَرَّب والزارع والحارب ، أى جميع الوظائف التى إذا ما فُصِّل بعضها عن بعض نشأ نظام الطوائف ، ولم يكن للثراء الذى هو مصدر التفاوت الاجتماعى وجودٌ فى ذلك الحين ، أَجَلٌ ، كان الأبطال يَبْدُون زعماء وقت الجهاد ، وكان أشجعهم يسير رئيس أصحابه ، ولكن أرضاً إذا ما استولى عليها فوجب إحيائها بالفأس والنار لتصلح للزراعة بِمَشَقَّةٍ تَسَاوَى الجميع فى القيام بذلك .



٤ - أودى غيرى ، نفوس قديمة منجونة على صخر دالة على وكب صيد ملكى ، وذلك فى الدبر السابق ذى الحجرات المنقورة فى منحدر الجبل ، ( وتلك النفوس هى من أقدم ما نشئ على الهند ومن أهم نماذج الفن الهندوسى )

وكانت تنشأ قرية على الأرض الجديدة ، وكانت المساكن الابتدائية المصنوعة من التراب وسُوق الخَبِيرُ ران تؤاوى الأُسَرِ إليها على انفصال بعد أن كان



بعضها يختلط ببعض في الحقول ، ثم وَدَّتْ كُلُّ أُسْرَةٍ أَنْ تَنَالِ قِطْعَةً مِنَ الْأَرْضِ فَبَدَأَ التَّقْسِيمَ ، فلم يبقَ مُشَاعاً بَيْنَ الْجَمِيعِ سِوَى مِرَاعِي الْمَوَاشِي .  
ولم يُسْفَرْ إِنْشَاءُ الْأَرَبِينَ لِلْقَرْيَةِ وَتَقْسِيمُهُمْ لِلْحَقُولِ وَالْأَنْعَامِ عَنْ نَشْوءِ زِمْرَةٍ سِيَاسِيَةٍ أَوْ اجْتِمَاعِيَةٍ بَعْدَ ، فَالْأُسْرَةُ الْكَبِيرَةُ ظَلَمَتْ مَدَارَ الْوَحْدَةِ ، فَكَانَ أَرْبَابُ الْأُسْرَةِ الشُّيُوخُ يَجْتَمِعُونَ لِتَوْطِيدِ النِّظَامِ فِيهَا وَتَقْرِيرِ الْمَسَائِلِ الْمُهْمَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْتَحِلُوا سُلْطَانًا بِالْمَعْنَى الْمَعْرُوفِ ، وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَقِيمَ حَصْنٌ مُخَيَّنٌ مُرَبَّعُ الزَّوَايَا عَلَى مَكَانٍ مُرْتَفِعٍ قَرِيبٍ مِنَ الْقَرْيَةِ مُشْرِفٍ عَلَيْهَا لِيَقِيمَ بِهِ الرَّعِيمُ الْمَنْصُورَ الَّذِي وَسَّعَ الْأَرْضَ فَنَيْطَ بِهِ أَمْرَ الْحَافِظَةِ عَلَيْهَا .

ولم تَجِدْ رَابِطَةً بَيْنَ قَرْيَةٍ وَقَرْيَةٍ ، وَلَمْ تَجِدْ سُلْطَةً عَالِيَةً تَفْرُضُ سَيَادَتَهَا عَلَى الزَّعَمَاءِ ، فَصَادَفَاتِ الْحُرُوبِ كَانَتْ تَتَوَلَّفُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ الزَّعَمَاءِ فَيَنْقَادُونَ ، أحياناً ، لِقَائِدٍ وَاحِدٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْبَغِيَ ذَلِكَ عِنْدَهُ مَلِكاً ، فَالْأَرَبِيُّونَ لَمْ يَقُولُوا بِمَبْدَأِ الْمَلِكِيَّةِ إِلَّا بَعْدَ اسْتِقْرَارِهِمْ بِوَادِي الْعُدْجِ ، وَذَلِكَ مَعَ عَدُوِّ الْمَلِكِ قَائِدٍ حَرْبٍ فَقَطْ كَمَا جَاءَ فِي الْوَيْدَا ، فَلَا تَرَى فِي الْعَصْرِ الْوَيْدِيُّ مَلِكاً ذَا زُرَّاءَ يَجْبِي الضَّرَائِبَ بِانْتِظَامٍ وَيَمْلِكُ شَعْباً بِأَسْرِهِ .

وَإِذَا وُجِدَ لِلْأَرَبِينَ مَلِكٌ فِي الْهِنْدِ فَبِالْإِسْمِ فَقَطْ ، فَمَا كَانَتْ الْقَرْيَةُ الْآرِيَّةُ فِي الْهِنْدِ إِلَّا جُمْهُورِيَّةً صَغِيرَةً مَتَاسِكَةً مَنْظُمَةً ، وَمَا كَانَ الرَّعِيمُ الْمَقِيمُ بِحَصْنِهِ وَالْمَعْرُوفُ بِالرَّاجِهِ إِلَّا سَيِّدًا ذَا سُلْطَانٍ ، فَهَذَا هُوَ النِّظَامُ السِّيَاسِيُّ الَّذِي كُتِبَ لَهُ الْفَوْزُ فِي الْهِنْدِ بِتَعَاقِبِ الْأَجْيَالِ ، وَهَذَا هُوَ النِّظَامُ الثَّابِتُ الْآسَاسُ الَّذِي احْتَرَمَهُ الْفَاتِحُونَ عَلَى الدَّوَامِ مَهْمَا كَانَ جَنْسُهُمْ .

وَمِنْ ثَمَّ تَرَى بِذَوْرٍ دَسْتُورٍ لَا يَزَالُ بَاقِيًا مِنْذُ عِدَّةِ قُرُونٍ فِي مَجْمَعِ نَاقِصِ التَّكْوِينِ ،

ومن ثمَّ ترى بذور نظام الطوائف الذى نشأ مذبذباً مبهماً حين حاولت الطبقات أن تتميز في البداءة فاشتدَّ أمره بعدئذ بفعل المؤثرات الإثنولوجية فأدى إلى حفر هُوَى بين العروق يتعذر اقتحامها .

ويمكنك أن تُبَصِّر في الويدا مسافة ضيقة بين السكّهان والمحاربين لم تُعَسِّمْ أن اتسعت لأسباب سندرسها فيما يأتي .

لم يُقَفِّ توزيع الأعمال عند ذلك الحد ، فبينما كان المُقَرَّب يقضى أوقاته في القيام بالطقوس المقدسة ووضع النشائد وبينما كان المحارب يقضى أوقاته في الغارات والرياضات العنيفة كان من الصواب أن يُسأل : ماذا يكون مصير الحقول وأمر استغلالها إذا لم يوجد من يحرقها ؟ فلذلك كان لابد من ظهور طبقة أخرى : طبقة الزراع .



بَدَتْ في إحدى أناشيد الرُّغ ويداً الأحياء طبقات ثلاث مختلفة دُعِيَتْ بالبراهمة والأكشترية والويشية فدَلَّت بعد زمن على طوائف حقيقية ذات مدلولات مطلقة عميقة . وفي أنشودة أقدم من تلك تقرأ العبارة الآتية ذات المعنى الدالة على تقسيم الطبقات : « ابْتَهَلْ إلى إندرا السِّكِّبَارُ والصَّعَّار وأبناء الطبقة المتوسطة والسائر والقاعد والمحارس لمنزله والمحارب وجميع طالبي الفيض والبركة » .

٤١ - جهو ونيشور (أوربة) . توش معبد براشورا مبشوار الغارجية (أنهى . في القرن السادس من الميلاد)

وتمَّ ظهور الطائفة الرابعة ، أى طائفة الشودرا بعد حين ، فجُمِعت شاملةً للشعوب المغلوبة ، وذلك عند ما دخلت دائرة الحضارة الآرية فى آخر الأُسُر ، وكلما وقع فتح لم يَعْتَرِفَ بسيادة الأجنبي سكان البلاد الأصليون المجاهدون جهراً أو المهاجرون إلى الجبال للمحافظة على استقلالهم القَطرى .

من أجل هؤلاء أُوْجِدَ الغالبون طائفة رابعة ، فتحوّلت الطبقات التى كان أمرها مبهماً غير واضح ، فسكان بعضها يشترك مع بعض فى الولائم وكان بعضها يتصل مع بعض بصِلات النسب ، إلى طوائف مختلفة أشدَّ الاختلاف .

وأهمُّ تلك التقسيمات هو الذى حَدَثَ قبل غيره ففرَّقَ به بين الكهنة والحارِين ، فلم يلبث البراهمة الذين هم وسائط بين الناس والآلهة أن صاروا يزيّدون مزاعمهم فعدُّوا أنفسهم من العالين وحلوا غيرهم على اعتقاد ذلك .

وما بين الحارِين والزراع من فرقٍ لم يُعْتَمَدْ أن بدا واضحاً ، وقد قام على اختلاف فى الثراء أكثر مما فى الوظائف .

وكان القائد الذى يعود مُدَمَّلاً بالغنائم بُسْتُرَ بِغُرْصَان<sup>(١)</sup> ذهبية وثياب زاهية وأسلحة لامعة ، فيصيح راجه ( أى ساطعاً ) ، وللراجوات ، وإن شئت فقل للأكشترية ، شأنٌ كبير فى كتب الوريدا فكان الشعراء الذين يَنْظُمُونَ الأناشيد يأمُلون منهم المجد والعطايا فكان من الطبيعى أن يُشيدوا بذكر بأسمهم وكرمهم أو التنويه ببخلهم وإمساكهم .

ولم يكن بين الطبقات حاجز فى ذلك الحين ، فالطبقات كان بعضها يختلط ببعض

---

(١) الحرصان : جمع الحرص وهو حلقة الذهب أو الفضة أو غيرها

لتقريب القرابين وإقامة الولائم وما إلى ذلك من الأمور التي لا تكون عند وجود طوائف حقيقية .

وشعوب البلاد الأصلية ، إذ لم تُهْمَرْ بَعْدُ ، كان الآريون يَمُدُّونها أُسْرَى حرب ، وكلُّ يدل على استعباد الآريين لهؤلاء الأُسْرَى ، جاء في الويدا :  
« نَضْرَعُ إِلَيْكَ يَا سوما أن تَهَبَ لَنَا الْغَنَى بِالذَّهَبِ وَالنَّحِيلِ وَالْبَقَرِ وَالنَّاسِ » .



٤٢ - بهو وبشور . المبد الكبير ( يبلغ ارتفاعه نحو ٥٢ متراً  
وأقيم في القرن السابع من الميلاد )

ولم يكن أَسْرَ وراثته الوظائف التي هي إحدى علامات النظام الطائفي قاطعاً عند آريي العصر الويدي وإن ذَرَّ قرنه<sup>(١)</sup> بينهم ، فهناك أَسْرُ كانت تنتقل إليها الأغاني

(١) ذر القرن : طلع أدنى شيء منه .

المقدسة ووظائف التضحية كإبراً عن كابر ، وبهذا يُفسَّر حفظ كتب الويدا حفظاً عجيباً .

وكان الأولاد ، على العموم ، يرثون أبويهم في الأعيان ، وفي الأناشيد المقدسة ذكرٌ غالب لعادة إيصاء الإنسان بثروته لأبنائه .

ذلك هو مجتمع آري العصر الويدى الذى كانت تنضج فيه ، مع القرون ، بذور النظم التى ثبت أمرها فى الهند فيما بعد فظلت فيها سائدة لا تبدل لها .

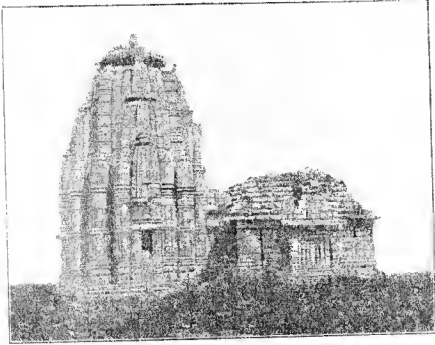
## ٦ — الحياة عند الآريين

يمكننا أن نتملّل الآريين فى أدقّ شؤون حياتهم اليومية حينما ندرس كتب الويدا :

كان شعراؤهم يبحثون مختارين عن صُورهم فى الأشياء المألوفة البسيطة التى تبدو لنا غليظة لاختيارها بوحى دينى رفيع كوجيهم ، بيد أن بساطة الموضوعات هذه التى تحيّد مثلها فى قصائد أكثر الشعراء القطريين لا تحطّ من قدر انسجام أناشيدهم ، فالشاعر الآرى كان يعرف كيف يرفع شأن أكثر الأفسكار ابتداءً وأن يستخرج من النظائر العادية أروع النتائج ، والعرق الآرى إذ كان ذا خيال متفقد مولعاً بتساوق الكلمات كان يترنّع من أناشيده التى انتهى إلينا منها عدد كبير وضمّه مثات الأدباء ، ومن هذه الأناشيد نستطيع أن نقدر غنى الأدب السنسكرتى فى العصر الويدى .

ويظهر أن فنّ الشعر هو الفنّ الوحيد الذى نجح فيه الآريون ، فكلّ شئ .

يدلُّ على أنهم كانوا يجولون فنَّ العمارة ، وقد تتخيل لهم ، مع ذلك ، بعض الآلات الموسيقية الابتدائية وأنهم كانوا يصنعون من المعادن والخشب بعض الأدوات صنعاً فنياً وإن لم يحدثونا عن الصور الملونة أو المنقوشة .



٤٣ - بهو ونيسور . معبد راجاراني ( أقيم في القرن العاشر من البلاد )

والهمن التي كانوا يزاولونها كثيرة ، ويظهر أنهم كانوا على شيء من الحدق في بعضها ، فما وصفوا به ثيابهم الزاهية وخواتمهم وخزائنهم وأسورهم وأرياشهم الذهبية ومراكبهم الحريسة وزينة خيلهم وأسلحتهم اللامعة ودروعهم وسيوفهم وأعمادهم يُثبت أنه كان عندهم حَوَكة<sup>(١)</sup> وصُواعغ وتجارون وصانعو أسلحة وعمال

(١) الحوكة : جم الحائك .

فأدرون على التصرف في الخشب تصرفاً دقيقاً فيصنعون منها أكواباً مقدسة ليُصَتَّ فيها شراب السوما ، وليس قليلاً ما ذكروه من الأدوات المتزلية كالملاقع والمراجل المصنوعة ، كأسلحتهم ، من الحديد على ما يحتمل .

وكانت نُسُجُهم تُصنع من الصوف أو السكتَّان مع خيوط من الذهب في بعض الأحيان ، والنساء هن اللاتي كُنَّ يَغْزِلْنَ والعمال هم الذين كانوا يَحْبِكُون بِالْمَسْكُوكِ . وكان الآريون ينقلون أحذية قَدِيرٍ يطونها بجلودهم كما تدلُّ عليه الآية التي حَكَتْ عن الإله إندرا فقالت إنه دائم السير والحركة « فلا يُفُكُ حذاءه أبداً » . والآريون كانوا يُبدون أُنْخِرَ الفئاس في عُدَدِهِم الحربية ، فكانت مصرايحهم مزينة بصفائح معدنية وكانت تحمل على عجلال مدورة ذات محاور<sup>(١)</sup> .

وكانت الخُصُونُ تُقَرَّنُ بالمرأى كبِ وتُسَاقُ بِالْأَعْنَةِ وَاللَّجْمِ وَالسَّيَاطِ . وكان الحاربون يتقلدون أسلحة مصقولة ساطعة ، ويركبون مرأى كبِ وَيَلْبَسُونَ أساور من ذهب تُصَلِّصُ حينما يَهْرُون أسلحتهم ، وكانت أسلحتهم تُؤَوَّفُ من سيوف وأقواس وسهام توضع في كنانين<sup>(٢)</sup> وتنتهى بِقَوَارٍ<sup>(٣)</sup> من حديد ، وكانوا يضعون على جباههم ريشاً من ذهب ، وكانت الأعلام تَخْفِقُ فوق صفوف الجيش . وكانت الزراعة والحرب وما إليهما من المِهْنِ أَهْمٌ مَا يُعْنَى بِهِ الآريون .

والآريون إذ سكنوا وادى السند غير ذى الزرع في بعض الأحيان بسبب الجفاف عِلِمُوا كيف يَرَقِبُونَ النُصُولَ وَيَرْصُدُونَ قُدُومَ الْأَمْطَارِ ذاتِ الْبَرَكَاتِ ، فكانوا يَعُدُّونَ سَحْبَ الرِّيحِ الموسمية أبقاراً سماوية ترعى في سهول الفلك ويسوسها

(١) الحساور : جمع الحور - (٢) الكنانين : جمع الكنانة وهي جعبة من جلد أو خشب تجعل فيها السهام - (٣) القوارى : جمع القارة وهي أعلى السهم .

راعِ إلهي فُذِرْ من ثُدِيهَا الثَّقَالِ السَّعَادَةِ والرخاءِ على الأرض .  
 وكان الآريون يُشِيرُونَ الأرض بِمَحَارِثَ يَجْرُهَا بَقَرٌ ، وِيعودُونَ إلى منازلهم  
 في فصل الرياح الموسمية على مراكبٍ يَجْرُهَا بَقَرٌ .  
 وكانت المواشي من أهمِّ منابع الثروة عند الآريين ، وكان الآريون يُعَجِّدُونَ  
 البقرة التي تَدِيرُ بالابن المُغَذَّى فيُعَمَّنُونَ بقر بيتها ويحترمونها ويكادون يعبدونها .  
 وكان اللبن والسمن أساسِيَا الغذاء عند الآريين ، وكان الآريون يُرِيْقُونَ منها  
 للآلهة ، وكان المَوْقِدُ يُبَدَّلُ بالسمن الذائب فيزيد النارَ سَعِيرًا والآلهُ أَغْنَى نورًا ،  
 وفي الوباءِ مَدْحٌ للعسل في كل زمن ، فَلَتُصَفَّ النَطَائِرُ والحَلَاوِي إلى تلك الأغذية  
 المُفَضَّلَةِ التي كانت تُقَدَّمُ إلى الآلهة .  
 وكان الآريون يأكلون اللحمَ أيضاً ، وكانوا ماهرين في الصيد فيُصْنَمُونَ  
 الغرائس بالسهام أو يصطادونها بالحبال والأشراك ، وكانوا يصطادون السمك  
 بالشبَّاك .  
 وكان الآريون على علمٍ من الملاحة ، فلم يَجْرُوا في البِداءِ على غير السير في  
 أنهر سَهْتَا سَدَدُوا التي بدت لهم طُرُقًا طَبِيعِيَّةً للمواصلات ، ثم اتَّسَعَ نطاق تجارتهم  
 فصارت سفنهم تَجْرِي في البحر حَامِلَةً سِلْعًا على ألا تَبْعُدُ من الشواطئ المجاورة  
 لمصائب نهر السُّنْد .  
 وكان للآريين علمٌ بالطبِّ ، غير أن ثقتهم بالأدوية التي يقول بها الطبُّ كانت  
 دون ثقتهم بالرَّقِّ والعزائم التي كان الكهنة يزعمون شفاء المرضى بها .  
 وكلما سار الآريون في ميدان الحضارة اتَّسَعَ نطاق توزيع الأعمال عندهم ، ففي



أناشيد الدور الأخير تُبَصِّرُ زيادة المِهْنِ ، فتَجِدُ لكلِّ عملٍ عاملاً ، فتَرى فيها وصفاً حتى سَلَاقُ القرية .

وبدأ التفاوت بين الثروات يزيد في ذلك المجتمع الذى كان أمره يتعقد ، فأخذ يمارس أمور التجارة ، فبدأ وصف أُبْهَةِ الأغنياء وآلام الفقراء عنيفاً ، فصار الفقر الكريه يُجَسِّمُ وَيُضْرَعُ إلى الآلهة أن تُبْعِدَهُ ، والجفافُ هو الذى كان يُوْدَى إلى الفقر فى الغالب فيَقَرُّ أمام سيول الموسم الماطر ، جاء فى الويدا :

« تَوَجَّهْ ، أيها الفقرُ ذو العين الموعوكَة والسير الثقيل ، إلى الجبل السامى حيث تجد مُحْسِنًا مُنْعِماً ، فبأمواج السحاب ندفعك » .

« يَضُرُّ الفقرُ المدحور من هذا العالم ومن العالم الآخر بالبذور ، فيا بَرَهَسَ بَتَى أَبْعِدْ هذا الشرَّ » .

ونشأت عن تفاوت الثروات هذا فضيلةٌ جديدة ، أى الإحسان ، فتأمر أسفار الويدا به كثيراً فيقول الكهنة :

« الإحسان الإلهيُّ الناصر جزء من القربان .

« الرجلُ الحسن هو الرجل الطيب نحو البائس الجائع ، فإذا دخل بيته وَجَدَ سعادةً فى القربان ووجد أحماباً بين الآخرين » .

وانهماك الآريين بالميسر من أسباب الفقر الشديد المفاجئ وتدهور الثروات عندهم ، فقد بلغ وَلَمَهُم بالميسر ، ولا سيما بالترُّد ، ما كانوا يخشرون به ، أحياناً ، فى يوم واحد جميعَ كنوزهم وبيوتهم وحقولهم وأولادهم وأزواجهم وحریتهم ، وفى الويدا وصفٌ قاتم لما يَحْرُ إلى ذلك الوكُوع من المصائب ، ومن ذلك الوصفُ الآتى الذى جاء فى أنشودة رائمة منها :

« يَعلُ المَقامر إلى مَجالس الميسر فيقول : في نَفسه متَحمساً : « سَأ كُتب ! »  
فيستَحوذ النرد على روحه فيُستَلم إليه كلُّ ما يملك .

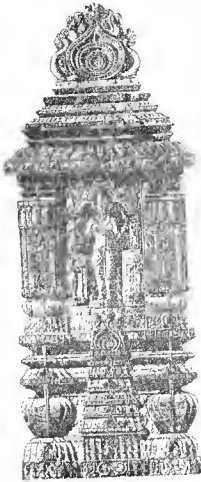
« والنردُ ، كسائس القيل المُجَهَّر بكَلاب  
يضطه به ، يُثَلِّب المَقامر بالرغبة والحسرة  
ويأتى بالنصر ويوزع الغنيمة ويوجب  
سعادة الفتيان ويورثهم اليأس ويغويهم  
بِسِتْرِ من عسل .

« والنرد لا يُؤَثَّرُ فيه غضبٌ ولا  
وعيد ، وله يَعمُو <sup>(١)</sup> الملوك » .

« والنردُ إذ يتدحرج على الأرض  
ويَهْزُ في الهواء يبدو عاطلاً من الذُرَّعان  
فيهيم على من لهم ذُرَّعان ، والنردُ فَحَمُ  
سماوى يسقط على الأرض ، فيُجَمد القلوب  
ويُشعلها » .

« زوجةُ المَقامر تَحْزَنُ حين تُهْجَرُ ،  
وَأُمُّ المَقامر تَغْشَمُ حين تبهل مصير ابنها ،  
والمَقامرُ يرتجف حين يَتَعَقَّبُهُ الدائن  
فَيَينُ لَهُ أن يَسْرِق فلا يدخل بيتَه إلَّا  
ليلاً » .

(١) عنا يعمو عناء وعنوا : خضع وذل .



٤٤ - بهو ونيشور . مشكاة منفورة  
في معبد بهكواتي (القرن التاسع من الميلاد)  
(تمثل هذه الصورة على دقائق التزيين  
في داخل معابد بهو ونيشور ، وهي من  
رسم الهنود فنجدتها في كتاب  
بأوراجندرا الاميتره .)

ولم تكن ملاهى الآريين كلها ذات خطر، فبينهما كان يسوده الظُّهر، كتمثيل  
الأعْب على المسارح الخشبية التى أشير إليها فى الويدا .

والآريون، كجميع الفطريين، كانوا يُوقدون النار بِدَلَك حطبتين إحداها  
بالأخرى، وكانت تانك الحطبتان، اللتان يظهر من دَلَك إحداها بالأخرى إلهُ النار  
أغنى، تَسْمَيَان بالآرنى، جاء فى الويدا :

« هذا هو زمن هزَّ الآرنى وولادة أغنى، فَجِئْ بِمِلْكَةِ الشَّعْب (أرنى) ولنعمل  
على إنتاج ابنها .

« فالإله الذى بيده الخبير هو فى قطعتى الآرنى، فهو فيهما كالجنين فى  
بطن أمه » .

والآريون كانوا يدفنون موتاهم على العموم، وفى الويدا غيرُ نصٍّ على المآتم،  
وفى النصِّ الآتى تصويرٌ شِئْرِيٌّ لوداعٍ حىٍّ لميت :

« اذهب تَجِدُ الأرض الأمَّ الكريمة الرؤوم الفتاة الواسعة العطوف، كالِبِساط،  
على من قَدَسَ لِلآلهة إعطايها .

« فيا أيتها الأرض ! انهضى ولا تُؤْذِ عظامه، وكونى سلاماً عليه رؤوفاً به،  
ويا أيتها الأرض زَمِّلِيه كما تَزُمِّلُ الأمُّ طفلها بذيل ثوبها .

« فَتَسْتَهْضِ الأرض له، ولأَجْمَعُ هذا التراب لكِلا تؤْذِ عظامه، وليحرس  
الأجداد قبره، وليحفريما هنا منزله .

« أَلَا إِنَّ الأَيامَ عندى كالسهم التى تذهب بالريش » .

فأين تَجِدُ ما هو أشدُّ وقعاً على النفس من سرعة الحياة التى تذهب بها الأَيام  
كما تذهب السَّهام بالآرياش ؟ .

## ٧ - مبادئ الآريين اللاهوتية والدينية

مبادئ الآريين الدينية على شيء من الإيهام والغموض ، فلم تكن أموراً إلهية معينةً تعيناً قاطعاً عندهم ، فكان للمشاعر والخيالات الشخصية شأن كبير في تكييفها ، وليس قليلاً ما تتجده من ذلك في الويدا ، فمن ينظر في الرِّغ ويدَا يَملَمَ طوراً بعد طور أن ديانة الآريين كانت ديانة توحيدٍ خالص وديانةً وَخْدَةً وجودٍ راقيةً وديانةً شِرْكٍ غليظة .

حقاً أن قواعد المنطق التي أثبتت التربية أمرها في أدمغتنا الأوربية بتعاقب القرون جعلت لتلك الكلمات المجردة فيها معاني صريحة مُحْكَمَةً لا يُوَقِّقُ بينها مع فصلها يَهْوَى عميقة بين ما تدلُّ عليه من المعتقدات ، بيدَ أنه ليس لهذه المبادئ المجردة معاني مقررّة في أدمغة الفطريين التي لا يكون فيها للأفكار والمقائد واللغات غيرُ معانٍ مذبذبة متقلبة على الدوام ، ولم يكن للتناقض مكان في دماغ الآريّ ذى الفكر المتقلب بسرعةٍ تقلبِ الشُّعْبِ التي كان يراها في النلك ، فالإله الذى يَرِدُ ذكره في الأثنشودة يبدو الأهمّ ما حَدُثَ عنه ، فلم تَسْكُدْ تَقَلْبُ الصّفحة حتى تَجِدَ إلهاً آخرَ يَعْلَمُ به ، والإنسان يرى أحياناً أن الشعراء الذين وضعوا الأناشيد أرادوا التجلّسُ بذلك ، مع أنهم ، كأكثر الشعراء ، لم يكتفوا لموضوعات الأناشيد إلا قليلاً لا ريب ، فكانوا يُضَحُّون مختارين بالرأى في سبيل خيال أو وصف .

إذن ، تبدو الأناشيد الآرية مُتَمَوِّجَةً بين أشدّ المبادئ الدينية اختلافاً ، فتَجِدُ

فيها عبادة قُوى الطبيعة وتُجَد فيها وَحدة الوجود وتُجَد فيها الشُّرك وتُجَد فيها التوحيد .

ولا شئ أصعب من وضع تقسيم لآلهة الآريين ووضع سلسلة لها .  
وأكثر الآلهة أو الرموز المذبذبة ذات الصفات والمقامات غير المستقرة على الدوام ، فتُجَد الأساطير الوبدية مملوءة بها ، هي ما يأتي :  
إله النار أغني والشراب الختمر سوما الذي يَحُمُّهُ ، فأغني هو موجب الآلهة وهو موجب العوالم وهو موجب الحياة الكونية ، وسوما يُجَدُّ الآلهة ويَهَب للناس القوة والنشاط ، وسوما أوجب مثله ، السماء والأرض ، إندرا ووشنو ، وسوما حين اتَّجَد بأغني صَوَّر السماء والكواكب .

وملكُ السماء إندرا هو من أكثر الآلهة ذكراً لدى الآريين ، فهذا الإله محارب واقف على مركبة حربٍ كأنه زعيمُ عشيرة آرية .  
ويجتمع حول الإله إندرا آلهة لا يَحْصِيها عدُّ فتقاسمه سلطانه وتُعْلِيه في الغالب ، ومنها الآلهة التي تُعرَف بالماروت ، أي آلهة الزوابع والأعاصير والبروق وتوزيع الأمطار ، والتي هي أولادُ رودرا الذي هو أجل إلهٍ والذي يُرْسِل الصواعقَ وَيَحْيِي الأنعام وَيَشْفِي الأرْضَى ، ومن تلك الآلهة الإله الذي يُعرَف ببرهسپتي الذي يُنظِّم الكون ، ومنها الإله ورونا الذي ينظر إلى أعمال الناس والذي هو ملك السماء كالإله إندرا ، والذي يُصَوِّر بعض الأناشيد خاضعاً للإله إندرا وهذا ويُصَوِّر بعضها سائداً له ، ويُصَوِّر بعض آخر منها متجداً به .

ثم يجيء الإله سُورْيَه ، الشمس ، وشنو الذي يحوب الفضاء بثلاث خطوات ، والذي قَفَز ذات يومٍ إلى الصفِّ الأول من الآلهة بعد أن كان ذكره خاملاً في الوبدا .

ويُضاف إلى تلك الآلهة ، الكثيرة التي لا فائدة من عدّها جميعها ، أشخاص مجردة كـ"كپوراندھی ( الرضاء ) وأراماتی ( الإحسان ) ومرتیو ( الموت ) ، الخ . وتمثّل الآريين للآلهة يختلف عن تمثّل الأوربي لها اختلافاً عظيماً ، فلا نرى علماً يستطيع أن يحیی أنفكاراً مميّزة عبّر عنها بلغة شعب ميت ، فما في لغاتنا العصرية من كلمات بيّنة مُحكّمة لا يُعربُ به عن آراء أولئك .

ولا يمكننا أن نُبصّر معنى الأمور الخاصة بزمان زال إلى الأبد إلا بالبحث العميق في آثاره الأدبية ، فمع أن قصائد المهابهارتا والراماينا أحدثت من التشائد الوبدية الأولى تبدو آثاراً آرية بالحقيقة ، فمن يقرأها يسهل عليه أن يكتبيّن الفروق بين ما دار حول الآلهة عند الآريين من الأفكار وما يدور حولها عندنا ، فسلطان الآلهة وإن مُجّد في تلك القصائد ، في الغالب ، لم تُخرُج هذه الآلهة ظافرة في كل مرة من اصطرعاها هي والإنس أو الجنّ ، والأدب الهندوسي حافل بمئات الأفاصيص التي هي من هذا الطراز ، ومن ذلك أن راونا ، ملك الجنّ المعروفين بالركشّاسا افتخر ، وهو يخاطب أحد الزّهاد ، بقره للإله العظيم إندرا والإله يما ، ومن ذلك ما ورد في صفحة أخرى من أن ابن الإنسان لكشاشاً أخا راماً قال للحسناء سينا معزياً إياها عن غياب زوجها الذي افترض وقوعه في مكمن :

« من المستحيل أن تغلب الأسراً وجميع الآلهة ، حتى الإله إندرا ، أخی » .

ومن ذلك أيضاً ما ورد في رواية شكُن تَلا التي نظمها الشاعر كالى داسا في القرن السادس من الميلاد ، على ما يحتمل ، من أن « ملك الآلهة » إندرا أرسل رسولاً إلى الملك دُشايَنتا ، الذي هو رجلٌ ، ليرجو منه أن يُعيّنه على قهر الغفاريث الذين « يسعّر بعجزه عن دحرم » ، فوافق ذلك الملك الرجل على ما طُلب منه

فانتصر على أولئك الغفاريين الذين لم يَسْطِيعْ «مَلِكُ الآلهة» أن يَفْهِمَهُمْ .  
 ظهر مما تقدم أن من الصعب حصرَ المعتقدات المذبذبة المتحولة التي اُسْتُعْبِطَ من  
 الويدا في دوائر من التعاريف معيّنة ، وهذه المعتقدات تشابه تلك الموجودات المتقلبة  
 غير المحددة التي كان علماء الطبيعة يَعدُّونها من الحيوانات تارةً ومن النباتات تارةً  
 أخرى ، ونحن ، مع محاولتنا القيام بهذا العمل الجديب نستخرج ، تقريباً ، الأمور  
 الآتية من مجموع المعتقدات التي جاءت في الويدا .

(١) عبادة قُوَى الطبيعة .

(٢) تَشَخُّصُ هذه القُوَى بأسماء الآلهة .

(٣) اعتقاد خلود الروح .

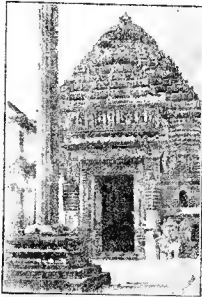
(٤) عبادة الأجداد .

(٥) الميل إلى إخضاع الطبيعة والناس

والآلهة للإله واحد أقوى منها ، وهو الإله  
 إندرا على العموم .

(٦) هَيَؤُ لِيَّةُ الدين الثابتة التي

ينحصر بها أمر الدين في تبادل الإنسان  
 والآلهة للإهبات ، وذلك بأن يُقَرَّبَ  
 الإنسان قرايبته ويُقدَّم فواكه وأن تمنح  
 الآلهة الكُثْرَ واليسرَ والمطرَ المبارك  
 والصحةَ والكنوز .



٤٥ — جكن ناتمه ( ساحل أوريسه )  
 مدخل المعبد الكبير (القرن الثاني عشر  
 من الميلاد)

والآن نبحث في هذه المسائل مستنديين إلى بعض النصوص :

يملاً تأليه قُوى الطبيعة وعبادتها الرِّغ ويدا .

و تُفَرِّضُ عِبَادَةً كُنْتُكَ عَلَى شَعْبٍ جَاهِلٍ فَتَى سَازِجٍ هَلُوعٌ<sup>(١)</sup> فِي قَطَرٍ ، كَالْهِنْدِ ،  
ذِي عَظْمَةٍ رَائِعَةٍ وَجَمَالٍ عَالٍ وَذِي يُسْمَرُ لَمْ تَسْمَعْ بِهِ أُذُنٌ مَرَّةً وَذِي عُسْمَرٍ مَرْهُوبٍ مَرَّةً  
أُخْرَى ، فِي الْهِنْدِ عُدَّتْ الشَّمْسُ وَالرِّيحُ وَالْأَنْهَارُ وَالْجِبَالُ وَالنَّبَاتَاتُ قُوى قَادِرَةٌ ،  
و بَدَأَ سَيْرُ الشَّمْسِ لِلْأَرَبِينَ سِرًّا مُحَيَّرًا لِلْعُقُولِ ، وَشَمَلَتْ لَطَائِفُ الْفَجْرِ وَعُدُوبَةُ  
الشَّمَقِ وَتَعَاقَبَ الْفُصُولُ أَنْظَارَهُمْ فَلَا شِعْرَ أَوْهُمْ حَظِيرَةٌ قُدْسُهُمْ بِأَلْهَةٍ وَصَفُوهَا .

و لَكِنْ الْقَوْمُ فِي وَادِي السُّنْدِ حَيْثُ يَكُونُ الْحَرُّ وَالْجَلْفُ هَائِلَيْنِ كَانُوا يَضْرَعُونَ  
بِإِلْيَافِ الْقَوْلِ ، فِي الْغَالِبِ ، إِلَى إِلَهِ الرِّيحِ وَابِرٍ إِلَى أَعْوَانِهِ وَرَسُولِهِ الْمَارُوتِ وَ إِلَى الْبَقَرَاتِ  
السَّمَاوِيَةِ الَّتِي هِيَ سَحُبٌ تَحْمِلُ الْمَطَرَ .

فَابْلِكْ بَعْضَ الْأَنْشُودَةِ الَّتِي تَتَقَنَّنِي بِالشَّمْسِ ، فَتُعَدُّ مَثَلًا حَسَنًا لِلشَّعْرِ الْوَيْدِيِّ :  
« يَقِيمُ الْإِلَهُ سَاوِرَتِي بِالنَّجْمِ السَّاطِعِ الَّذِي يَبْزُغُ<sup>(٢)</sup> فَيَنْبِرِ الْعَوَالِمُ كُلُّهَا ، فَالشَّمْسُ  
تُحْيِي بِأَشْعَتِهَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَالْهَوَاءَ » .

« يَحْيَى بِالشَّمْسِ جِيَادُهَا الْحُمْرُ ، فَيَصِلُ الْفَجْرُ الْعَظِيمُ الْجَمِيلُ الَّذِي يُنْقِشُ الْجَمِيعَ  
بُضْيَانَهُ ، فَتَأْتِي الْإِلَاحَةُ عَلَى مَرْكَبَةٍ فَخْمَةٍ فَتَوْقِظُ الْإِنْسَانَ لِيَقُومَ بِعَمَلٍ نَافِعٍ » .

« كَيْفَ تَطْلُعُ الشَّمْسُ الَّتِي لَا دَلِيلَ لَهَا وَكَيْفَ تَغِيْبُ الشَّمْسُ الَّتِي لَا رَابِطَ لَهَا  
مِنْ غَيْرِ أَنْ تَسْقُطَ ؟ وَمَنْ يَعْرِفُ الْقُدْرَةَ الَّتِي تُمَسِّكُهَا ؟ هِيَ صَاحِبَةُ رَيْتَانَا ، هِيَ حَافِظَةُ  
الْقَبَةِ الْخَضِرَاءِ وَعِمَادِهَا » .

وَالنَّارُ الَّتِي تُعْرِفُ بِأَغْنَى مِنْ أَمَمٍ الْآلِهَةِ الْوَيْدِيَةِ ، وَلَا يَفُوقُ النَّارَ سِوَى الْخَالِقِ  
الْأَعْلَى الْإِلَهُ إِنْدَرَا ، فَالنَّارُ مَوْجُودَةٌ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَتَسْرَى النَّارُ فِي كُلِّ مَكَانٍ ،

(١) الْهَلُوعُ : الضُّجُورُ الَّذِي لَا يَصْبِرُ عَلَى الْمَصَائِبِ - (٢) يَزْغُ يَزْغُ بَزْغًا وَبَزُوعًا : طَلَعَ .



تسرى في شرايين الأحياء وفي جوف الأرض وفي عروق النبات وفي أشعة الشمس،  
والنار تتجلى إذا ما ألهب الكاهن الحطب ، جاء في الويدا :

« حينما أرى هذا السكان النير في قلبى تدوى أذنانى وتختلج عينائى وننيه نفسى  
في ارتباب ، فاذا أقول ؟ وَفِيمَ أَفَكَّرُ ؟ » .

« فبا أغنى ! تَجَدَّتْكَ جَمِيعُ الآلهة واجفة<sup>(١)</sup> ما تواريت في الظلام » .

والمعتقدات حول اليوم الآخر مبهمة متقاربة في الويدا ، ففي الويدا يعود الشخص  
بعد موته إلى العناصر ، وينشئ روحه جسم جديد ، فن ثم ترى بداءة المذهب  
التناسخ<sup>(٢)</sup> ، وفي الويدا تجد الاعتقاد القائل بخلود الروح وبأن الروح أسمى من  
الجسم وأنها أساس شخص الإنسان ، جاء في الويدا :

« تَتَذَهَبُ عَيْنُ الْمَيِّتِ إِلَى الشَّمْسِ وَلِتَذَهَبَ رُوحُهُ إِلَى آيَوِ ، وَلْتَعَرِّدَ إِلَى السَّمَاءِ  
وَالْأَرْضِ مَا أَنْتَ مَدِينٌ بِهِ لَهَا ، وَلْتَعُطِ الْمَاءُ وَالنَّبَاتُ مَا فِي بَدَنِكَ مِنَ الْأَجْزَاءِ  
الَّتِي لَهَا .

« وفي الكيان جزء خالد ، وهذا الجزء هو ما يجب أن تُدْفِنَهُ بأشعتك وتُلهِيَهُ  
بنيرانك يا أغنى ، وانقل ، يا جانا ويدا ، ذلك الموجود السعيد ، الذى برأته ، إلى  
عالم الأتقياء الأبرار .

« وروحك حين تزور هنالك بقعة الموت تدعوها إلى منزلك هنا ، إلى الحياة .

« وروحك حين تزور هنالك السماء والأرض تدعوها إلى منزلك هنا ، إلى الحياة .

« وروحك حين تزور هنالك الشمس والنجم تدعوها إلى منزلك هنا ، إلى

الحياة . الخ » .

(١) الواجب : المضارب — (٢) التناسخ : انتقال النفس الناطقة من بدن إلى بدن آخر ويعرف  
« بالنفسم » والذين يعتقدون ذلك يسمون « بالتناسخية » .

ونشأت عبادة الأجداد عن ذلك الإيمان بخلود الروح ، ورأينا في مكان آخر أن الأجداد القَوْنَى ، عند الآريين ، لا يدومون ولا يَسْعَدُونَ في المَشَوَى الأبدى ما لم تَدُم أسرتهِم في الدنيا مُتَقَدِّمَ إليهم القرايين وَنَصَلَى من أجلهم ، وفي الويدا :  
« يا أغنى ! تعالَ مع هؤلاء الأجداد القدماء الأتقياء العظماء ، تعالَ مع ألوف عباد الآلهة هؤلاء الذين يركبون وإياها مركباً واحداً ويشربون هم والإله إندرا الشراب ويأكلون وإياه القربانَ ويذهبون للجلوس بالقرب من الدار » .

وتَجِدُ في الويدا بذرة الإيمان بالإله عِلَى خالقِ كُلِّ فَنٍ وكلِّ دَائِمٍ مهيمٍ على الناس والأجداد والآلهة ، وَيُحَيِّلُ لَوَاضِعِ أَنْشُودَةٍ كُلِّ إلهٍ فيها أن هذا الإله هو أهمُّ الآلهة أو الإله الواحد ، ومما حدث في الويدا أن عُدَّت الآلهة ، في بعض الأحيان ، إلهاً واحداً ذا أسماء متنوعة ، وفي الويدا :

« أن الروح الإلهية التي تسير في السماء تُسَمَّى إندرا ومِترًا وورونا وأغنى ، فالْحِكْماء هم الذين يَطْلِقُونَ على الموجود الواحدِ عِدَّةَ أسماء فيقولون هذا أغنى ( النار ) وَيَمَّا ( الموت ) ، الخ . »

ومن هنالك ترى أن للموجود الواحد خواصَّ مبهممة فيدعى تارةً بالنار وتارةً بالموت أو ما إلى ذلك من المُجَرَّدات الأخرى ، وفي العبارة الآتية تَجِدُ ما هو أدقُّ من ذلك :

« ذلك الذي هو أبونا ، ذلك الذي هو سبب كلِّ كائن ، ذلك الذي هو محيطٌ بكلِّ موجودٍ عليهم بكلِّ عالم ، فالإله الواحد هو موجب الآلهة الأخرى ، وكلُّ ما في السكون يُقَرَّرُ بسلطانه » .

بَيِّدَ أَنْكَ تَجِدَ ، أحياناً ، ما يكسو ذلك القولَ المؤكد ثوباً من الالتباس  
مصدره شعورُ الإنسان بعجزه عن معرفة أصل الأشياء ومصيرها ، ففي الويدا :  
« تَعْلَمُونَ خَالِقَ كُلِّ شَيْءٍ ، هُوَ ذَلِكَ الَّذِي تَرَوْنَهُ أَمَامَكُمْ ، وَلَسْكَنَ كُلُّ شَيْءٍ  
عِنْدَنَا مُسْتَوْرٌ بِنِطَاءٍ مِنْ تَلْجٍ ، فَأَحْكَامُنَا غَامِضَةٌ ، وَالنَّاسُ يَمْخُضُونَ مُقَرَّبِينَ لِلْقَرَابِينَ  
وَمُرْتَابِينَ لِلْأُنْشَادِ » .

وكان يَتَّبَعُ في تلك الأدمغة القطرية مذهبُ الارتياب الذي نَمَّا بعدئذ في  
كتب الهند نمواً عظيماً ، ودأبنا على ذلك النصِّ الآتي الذي ورد في الرِغْ وبدا  
فاستشهد به مكس موللر في كتابه « أصل الأديان ونشوءها » :

« مَنْ يَذَرِي ، مَنْ يَقُولُ مَنْ أَيْنَ أَتَى هَذَا السَّكُونُ ؟ فَالْآلَهَةُ ظَهَرَتْ بَعْدَ ظُهورِهِ ،  
فَمَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُخْبِرَنَا بِمصدرِهِ ؟  
« مَنْ أَيْنَ أَتَى هَذَا السَّكُونُ ؟ هَلْ هُوَ مِنْ صَنَعِ خَالِقٍ أَمْ لَا ؟ يَعْلمُ ذَلِكَ مَنْ  
يَنْظُرُ مِنْ فَوْقِ الْفَلَكِ ، وَقَدْ لَا يَعْلَمُ . »

ويظهر أن الجمهور كان لا يبالى كثيراً بمثل هذه الأفكار التي كانت تُساورُ  
بعضَ المفكرين ، فالذي كان يُهَيِّمُ الجمهور هو أن يتساوم هو والآلهة تساوماً علمياً فيقدم  
إليهما القرايين والأدعية والنشائد في مقابل أسْرِ عَزِيزَةٍ وَكَنُوزٍ وَافرة وقطاع كبيرة  
وانتصارات مُؤَزَّزة ، ففي الويدا غيرُ شاهد على ذلك ، والشواهد فيها من نَمَطٍ واحد ،  
ففيها أن أَيْ إِلَهٍ يُضَرَّعُ إِلَيْهِ يُتَمَلَّقُ بوَعْدِهِ بِسِوَلٍ مِنْ شَرَابِ السُّومَا وَأَنْهَارٍ مِنْ  
عَسَلٍ وَلَبَنٍ وَبِالصلوات والأدعية والتسابيح ، وبتقريب القرايين أحياناً ، على أن  
يَخْجِي الأُسْرَ وَيَقِي مِنَ الأُمْرَاضِ وَيُنْزِلَ عَلَى الْحَقُولِ الْمَطَرََ وَيَجْعَلَ الْبَقَرَ كَثِيرَةً  
النَّسْلَ وَالْدَّرَّ .

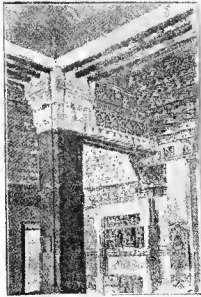
وقلما كان يُحْتَلَقُ بتلك الأمور الغليظة الصادرة عن الحرص والطمع روحُ التوبة والندم على ما قَرَّطَ من الذنوب والرغبة في إصلاح الحال .

ولا تكاد تجد في الويدا مبدأ الذنب ، فالآرى كان لا يَبْغِي السَّكَّالَ ، ويعزو ما يَقرِّفه إلى ضعف الطبيعة البشرية ، جاء في إحدى تلك الأناشيد :

« يا پترس ! لا تَوَاخِذْنَا بِذُنُوبِنَا ، فهي نتيجة ضعف طبيعتنا البشرية . »

وما عند الآريين من مبادئ الأخلاق فقليلُ النَمُوِّ قليلُ الصرامة ، فيكاد ينحصر ما تأمر به الويدا في إيتاء الصدقات والرفق بالحيوانات والوفاء للأصدقاء .

نَحْمُ بِحُفْنِ الْمُجْمَلِ الذي رسمنا خطوطه بإخلاص فاعتمدنا فيه على الويدا ، فحاولنا فيه إظهار حضارة الآريين وشأنهم ، فنقول ، من غير أن نفتخر لهم بالصفات



العالية التي أريد وصفهم بها حينما كُشِفَ أمرهم ولا بما عَزَى إليهم من الشأن في تكوين العروق ولا بما قُصِدَ نسبته إليهم من كلِّ أمر رفيع في الغرب ، إنك لا تُبْصِر حضارة تساوت هي وحضارتهم في النشوء فاستطاعت أن تتخلص مثلها من بقايا الممجية الأولى ، وإنك إذا قايست بين الشعب الآرى والشعب اليهودي الذي مَثَّلَ دوراً كبيراً في العالم وجدتَ ذلك أعلى من هذا ، ففي تاريخ بني إسرائيل ترى ما لا ترى له أثراً في كتب الآريين

٤٦ - جكن ناتها . داخل معبد غورشا باري ( القرن الثاني عشر على ما يحتمل )

من الأكاذيب وكفران النعمة والجبن والندالة والتجبر والبهيمية وسفك الدماء  
والخُرافة الضارية .

وغير ذلك يكون تقديرنا عند المقايسة بين ذينك العريقين في الأسلوب الشعري،  
فليس الرُّغُويدا بأجملَ من سِفَرِ أيوب .

ونعترف عند النظر إلى المتاحى الفلسفية المدونة بصورة استثنائية في كتابي  
كلا العريقين بأن الشوق إلى معرفة الحقيقة والمجهول وغير المحدود وبأن مشاعر البؤس  
البشرى وبأن وهى حُطام الدنيا أظهرُ بياناً وأكثرُ نصاً في التوراة مما في الويدا .

وإذا نظرتَ إلى الأمر من ناحية الحياة وجدتَ ، على العموم ، أن التوراة  
أكثر من الويدا تشاؤماً ، وتبدو الويدا أكثر من التوراة تفاؤلاً ، فالآرى متفائلٌ  
بطبيعته ويسهلُ أن تجدّه راضياً بما قديم له ، فإذا علمت أن الآريين أربابَ  
الأسر يفتبطون بأبنائهم ومواشيهم ورياحهم الموسمية فلا يطلبون من السماء الصافية  
أكثر من هذه الأشياء صعبَ عليك أن تُصدّق أنهم أجدادنا ، نحن الغربيين ذوى  
الحاجات التى لا تقف عند حدّ فيصعبُ قضاؤها ، نحن الغربيين الذين لا نعيش إلا  
بين المآرب الأزلية والرغائب الأبدية

## الفصل الثاني

### حَضَارَةُ الْعَصْرِ الْبَرْهَمِيِّ

وصف المجتمع الهندوسي قبل الميلاد

بثلاثة قرون أو أربعة قرون

(١) الوثائق التي يستعان بها في بحث المجتمع الهندوسي قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون — شرائع منو — الملائق بالإغريق — رحلة ميغاستين —

(٢) تقسيم المجتمع الهندوسي إلى طوائف — حقوق كل واحدة من هذه الطوائف وواجباتها — الضرورات التكنولوجية التي أدت إلى نظام الطوائف — فساد المثال الآري كما ظهر من دراسة النفوس القديمة — شدة نظام الطوائف — وطوائف أفراد كل طائفة — (٣) المدن والمباني — ما انتهى إلينا من مباني ذلك العصر — وصف مدينة هندوسية قديمة على حسب رواية ميغاستين ورواية رامايانا — (٤) الحكومة والإدارة — سلطة الملك المطلق — إدارة الدولة — الضرائب — (٥) إقامة العدل — الشرائع والعادات — إذا عدت الجريمة الدينية لم تجد شريعة سوى العادة — كيف كان العدل يقوم — البحث عن الجرائم والاشتراك الجزائي — حكم الله — لا تفرض العقوبة بحسب الضرر الواقع — ديانة الطوائف — (٦) الجيش وفن التهيئة — أهمية الجيوش الهندوسية على حسب رواية ميغاستين — الأسلحة — فن التعبئة — (٧) الزراعة والتجارة — التعليمات الزراعية — مبادئ المفاوضة — الربا الفاحش — الطبقة الصناعية والتجارية — (٨) أحوال النساء — الوصاية على المرأة في العصر البرهمي — عقوبة الرناء الشديدة — واجبات الأزواج المتبادلة — (٩) معتقدات الهندوس الدينية قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون — تطورات النظام الويدي القديم — جفاء الطغوس — أسس وحدة الوجود — مذهب التناسخ — مستقبل الإنسان على حسب أعماله في حياته — شدة النير الديني المفروض على الهندوس في العصر البرهمي .

## ١ - الوثائق التى يستعان بها فى بعث المجتمع الهندوسى

كما كان قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون

كان وادى السُّند مقراً للحضارة الآرية التى وصفناها فى الفصل السابق ، وكان وادى الفُنج محلّ نشوء الحضارة البرهمية التام .

استمرّ فاتحو الهند على زحفهم إلى الشرق فى الدور الذى دام نحو ألف سنة ففصل بين دَوْرَيِ هذه الحضارة البارزين ، فأضحوا سادةً جميع الهندوستان ، أى جميع القطر الواقع بين بحر عُمان وخليج البنغال ، وبين جبال هِمَالِيَّة وجبال وَندھيا ، وخضع سكانُ هذا القطر الواسع الفنى القدماء لقاهرهم نهائياً وكفّوا عن مقاتلتهم راضين بغيرهم مختلطين بهم ، ورأى الآريون أن يحتنبوا هذا الاختلاط الذى بدا فى الصميم فصار يؤدى إلى انصهار بعض العروق فى بعض بعد أن كان سطحياً ، فوضعوا ، وضع المُتِمِّم ، نظامَ الطوائف الذى ذكرنا ظهوره الأول فى العصر الوبدى . بلغت الحضارة البرهمية ذُروتها قبل الميلاد بثلاثة قرون أو أربعة قرون ، وفى ذلك الزمن ، لا ريب ، أُلفت مجموعة شرائع مَنُو (مانوا - دَهرما - شاسترا) التى صارت دستور الهند المدنى والسياسى .

وظنّ فى بدء الأمر أن تلك المجموعة أقدم من ذلك بزمن طويل ، فَرَجَمَها جونس إلى القرن الثامن قبل الميلاد ورجَّعها آخرون إلى القرن الخامس قبل الميلاد ، ثم أبدى حديثاً رأى أقومُ من ذلك كما يظهر ، فلم يرَّجِعْها إلى ما قبل القرن الثانى أو الثالث قبل الميلاد .

إن مانوا — دهرما — شاسترا أوثق مصدر لدينا عن العصر البرهمي ، وهو يَعْدِلُ الرَّعْ وَيَدَا عن العصر الويدي ، وما وصفناه في أمر الويدا نصنع مثله في أمر شرائع مَنُو فستنبط من هذه الشرائع الأساسية جميع الشواهد التي تتمثل بها ، بالضبط ، ما تشير إليه من الأزمنة .

وليست الكتب المقدسة وحدها هي التي نستجلى بها العصر البرهمي مع ذلك ، فقد أخذ التاريخ ، أيضاً ، يُلقَى بِصِيصاً ، ولو ضعيفاً ، على الهند القديمة بعد غزوة الإسكندر .

أَجَلٌ ، إن غزوة الإسكندر لم تُسفر عن كبير معرفة للبريين ، غير أنهم أبصروا بها القطرَ الحافلَ بالأسرار الواقع فيما وراء نهر السُّنْد فوجهوا إليه بعدئذ أفكارهم وأنظارهم في الغالب ، فَعَنَّا لنيكاتور السلق ، الذي هو أحد الأمراء المقتسمين لدولة الإسكندر المقدوني ، أن يُتِمَّ ما بدأ به هذا الفاتح راجياً أن يكون أوفر حظاً منه فخاب أمله ، فقد كان لدى ملوك الهند الشمالية من الحرس والجيوش الكثيرة ما لم يجزؤ معه على مقاتلتها مخاطرأ .

بيد أن ذلك الأمير فتح بقطريان فأصبح جاراً لأولئك الملوك فعَرَضَ عليهم أن يتفاوض هو وإياهم ، فحالته جَمَدَراً غُوِثَتا ( المعروف لدى الإغريق بساندروكوتوس ) الذي كان من أعظمهم سلطاناً فتزوج هذا الملك الهندوسي بابنته مُصِيفاً إياها إلى نسائه مما عُدَّ خارقاً للعادة عند الإغريق والهندوس على السواء ، فذهبت هذه الأميرة الفتاة إلى عاصمة زوجها باتلي پوترا الواقعة على ضفاف النَّجْج وغير البعيدة من رأس الدلتا لتلحق به ، فرافقتها إليه السفير ميغاستين فَقَصَى هذا السفير أوقات فراغه في وصف ما كان غريباً عليه من طبائع الشعوب التي أصبح بين أظهرها .



ومن المؤسف أن رحلة ميغاستين الكاملة المفصلة ، كما يظهر ، لم تصل إلينا ،  
واليوم نعدُّ مزورةً المجموعة التي عزاها أنيوس القيربى في القرون الوسطى إلى ذلك  
السفير السلوقي على أنها صحيحة ، غير أن مؤرخى الإغريق واللاتين وجغرافيتهم  
المعاصرين لهذا السفير والذين ظهروا بعده قد استشهدوا برحلته في الغالب فاقتطفوا  
منها فصولاً كاملة ، فتجد أسترابون ، مثلاً ، يستند إليها كثيراً في الجزء الذى درس  
فيه جغرافية الهند ، فنشأ عن ذلك أن اتهمت إلينا منها قطعٌ واسعة بعض الاتساع  
نعدُّ ، بالإضافة إلى شرائع منو ، الأساس الذى نعتمد عليه في بحث الهند البرهمية .  
حقاً أن رحلة ميغاستين وشرائع منو هى الوثائق الوحيدة التى تُستنبط منها  
معارف ، على شئ من الصحة ، عن العصر البرهمى ، وأما القصائد الحماسية الكبرى ،  
كالراماينا والمهابهارتا ، فمحشوةٌ بالأساطير مهذبةٌ عدَّة مرات لا ريب ، فلا تصلح  
لمعرفة الزمن الذى وُضعت فيه ولا لتعيين ما أشارت إليه من الحوادث بالضبط ،  
وإن كانت آثاراً أدبية خالصة يُرجع إليها أحياناً بتحفظ كبير .

## ٢ - تقسيم المجتمع الهندوسى إلى طوائف

حقوق كل واحدة من هذه الطوائف وواجباتها

رأينا في أواخر العصر الوبدى تقسيمَ الوظائف وتطورها لتكوين إرثية ،  
وذكرنا أن ذلك يوجب نظام الطوائف وإن كان لا يؤدى وحده إلى ظهور هذا  
النظام .

كانت ضرورة المحافظة على نقاوة العرق واحترام الأنساب وبقاء الأسر القديمة  
مما يشغل بال آرى العصر الوبدى ، فصار التفكير في ذلك همَّ مشرعى الآرين

عندما دان للآريين الفاتحين شمال الهند فتفرق هؤلاء القليلو العدد بين سكانه المغلوبين الكثيرين .

وكانت الحقائق الإثنولوجية ، التي هدّت إليها التجارب فوضّعت في نصوص من الحكم ، بديهيّةً عند الآريين ، فالآريون كانوا يعلمون ، لا ريب ، أن الغزاة لا يلبثون أن يفتنّوا في الشعب المقهور إذا امتزجوا به فلا يبقى لهم أثر بعد بضعة أجيال ، وكانوا يعلمون ، أيضاً ، أن تزاوج رجل وامرأة من عرقين متفاوتين يؤدي في الغالب إلى ولادة أولاد متوسطين خلقاً منحطين خلقاً .

فاسمع ما جاء في شريعة منو :

« لم يلبث كلّ بلد يؤلّد فيه أولاد من عرق متوالد مُفسد لصفاء الطبقات أن نفوّض دعائمه وينحطّ سكانه .

« وأُسرة الرجل مهما تسكن شريفةً ممتازة لا بدّ لهذا الرجل ، إذا كان وليدَ طبقات مختلطة ، من أن ينتقل إليه بالإرث شيء من سجيّة أبويه وسوء خلقهما .

« وما في الرجل من فُقدان الشاعر النبيلة وغلظة الكلام والجلف وإهمال الواجبات ففوروث عن أمٍ جديرة بالاحترار .

والآريون قد تملّكوا تلك المبادئ على حسابهم الخاص لا ريب ، فلما راعهم ، على الأرجح ، هبوط عرقهم أقاموا الحواجز الواقية الشديدة التي لا تزال باقية .

ولا يدلّ ما في شرائع منو من التعاليم على سلامة العرق الآري قبلها ، وإن دأت على تقدير الآريين لضرورة سلامة عرقهم ، فتوالد الآريين وغيرهم قد حدّث حتماً ، فلم يُعسّم المثال الآري أن تغبّر ، فلا تجد شريسة قادرة على مقاومة بعض الضرورات الفيزيولوجية .

ومما يُؤيِّد هذه النظرية ما فى المباني القديمة من النقوش ، فتدلُّ نقوش ذلك العصر ، كنقوش بهآرت مثلاً ، على مثال نجدّه فى القرون الآتية وفى مناطق الهند البعيد بعضها من بعض بُعداً كبيراً ، كسانجى وبهآجا على الخصوص ، فلا نرى بينه وبين المثال القفاسى وجه شبه ، فهو ذو وجه عريض صفيح يُثبَّت تغلَّبَ العنصر التورانى ، والآريون أخلص إذا ما وُجدوا فى ذلك الحين كانوا أقلية صغيرة منتسبة إلى طائفة البراهمة وحدّھا لا ريب .

ويدلُّ درس المجتمع فى ذلك العصر على تطوره خلقاً وخلُقاً ، فقد أضيف ثقل نظام الطوائف الذى وُضِعَ لإنقاذ ما بقي من النقاوة والفخر إلى نير التقاليد الشديد الذى حُصِرَت فيه الحضارة الهندوسية فلا تخرج منه أبداً ، فعدَّت الآلهة هَيُولاً نيةً وحلَّت تعاليم مَنُو الجانفة محلَّ الشعر الآرى الرائع ، نَعَمْ ، إن الخيال لم يُقَيَّد تماماً ، بيد أنه أضحى أشعث ثَقِيلاً مُنْتَجِجاً للأساطير المألولة التى لا حدَّ لها بدلاً من أدعية الويدا البليغة أو نشائدها الساطعة .

والطوائف التى ورد ذكرها فى شريعة مَنُو أربع : طائفةُ البراهمة ( الكهنة ) وطائفةُ الأكشترية ( المقاتلة ) وطائفةُ الويشية ( الزراع والمرايين والتجار ) وطائفةُ الشودرا ( سِفلةُ الناس الذين ليس لهم مهنة خاصة فلم يُعترف لهم بعمل غير خِدْمَةِ الآخرين ) .

وعلى الرجل أن يتزوج بامرأة من طائفته أو من طائفة أدنى منها ، ولكن الرجل الذى يتزوج بواحدة من الشودرا يصبح مفضوحاً مَهْتَوَك السَّئِر ويطْرَد من طائفته ويصيبه خزيٌ فى الدنيا والآخرة ، فلا يتزوج نساء الشودرا إلا رجالُ من الشودرا .

ويمكن البرهمن أن يتزوج امرأة من الأكشترية أو من الويشية ، ولاعكس ،  
فمن معتقدات الآريين أن الأب الذى هو من طائفة أعلى من طائفة زوجته يستطيع  
أن ينقل بعض صفاته إلى ابنه ، وأن الأب الذى هو أدنى من طائفة زوجته يُنزل  
هذه الزوجة وأولاده منها إلى مستواه ، فيُنظر في عدم الكفاءة الحقيقية في الزواج إلى  
زواج المرأة حيث الذرارى .



٧ - كهجورا . معبد شيفا ( القرن العاشر من الميلاد ) ( ارتفاعه نحو ٢٥ متراً )  
واليسك واجبات كل واحدة من الطوائف ومبادئ النساك كما جاءت في  
شريعة مَنوبادنا بالرمز البرهمن المشهور القائل إن كل طائفة خرجت من جزء من  
جسم برهمة .

« أراد الربُّ المولى تكاثرَ الجنسِ البشرى فخلق من قِبه وذراعه وفخذيه ورجله البراهمة والأكشترية والويشية والشودرا وأراد دوام هذا الجنس فجعل لكل واحد من هذه الطبقات أعمالاً خاصة .

« فعَهِدَ إلى البراهمة في درس أسفار الويدا وتعليمها وتقريب القربان وإدارة ضحايا الآخرين والعطاء والأخذ .

« وفَرَضَ على الأكشترية حماية الشعب وممارسة الإحسان والتضحية وتلاوة الكتب المقدسة وعدم الانهماك في الشهوات .

« وَخَصَّ الويشية بتربية المواشى وإيتاء الزكاة والتضحية ودراسة الكتب المقدسة والتجارة والربا والحِرث .

« وأَوْجِبَ على الشودرا عملاً واحداً فقط ، وهو خدمة تلك الطبقات من غير أن يَحْطُوا من قَدَرِها .

« وَأُتِمِّرَفَ أمر الرجل الذى ينتسب إلى طبقة دينية والذى وُلِدَ من أُمٍّ حقيرة فلم يَظْهَرِ أمره جيداً فَيُحْتَمَلُ إلى الناظر إليه أنه رجلٌ شرفٍ وما هو بذلك .

« يَمَكُنُ المرء الذى يولد من أب شريف وأُمٍّ حقيرة أن يكون شريفاً بخصائله ، ولكن الذى يولد من أُمٍّ شريفة وأب حقير يُعَدُّ حقيراً كما هو حكم القَدَرِ .

« لَا يَنْجُلُ الرجلُ الشودرى الذى يتزوجُ امرأةً من طبقة الكَهَنانِ غيرَ ولدٍ أدنى منه ، كما أن كلَّ واحد من هؤلاء المُولَدِينَ الأَدْنِيَاءِ يتزوج بواحدة من بنات الطبقات الأربع الخالصة لَا يَنْجُلُ إِلَّا ولداً أدنى منه .

« نَارُ جَهَنَّمَ هِيَ دار البرهمن الذى يتزوج امرأةً من الشودرا ، لا من طبقته ، فَإِذَا وُلِدَ له ولد منها طُرِدَ من طبقة البراهمة » .

كان تفوق رجال البراهمة على بَقِيَّةِ الشعب عظيماً ، وما كانوا يتمتعون به من الساطن والحقوق والاحترام يجعلهم من شبهة الآلهة أكثر من أن يكونوا من البشر ، وقد نالوا هذا المقام الممتاز بعنصرهم الطيب وبما لصلواتهم من التأثير المزعوم في عزائم الآلهة وبما اكتسبوه من العلم في جميع أيامهم .

وكان البراهمة يقومون ببعض الواجبات ، في الحقيقة ، في مقابل ما يتمتعون به من الامتيازات ، وبيان الأمر : أن حياة البرهمن كانت تُقسَّم إلى أربعة أدوار : دور المراهقة وفيه يتخرَّج البرهمن على أسانذة مخصوصين في دراسة الكتب المقدسة والاطلاع على أسرار الدين ، ودور الفتوة وفيه يتزوَّج البرهمن فيصبح أباً ورب أسرة ما كانت وظائفه وراثية وما كان واجبه الأول أن يكون ذا ولد ، ودور الكهولة وفيه يقضى البرهمن أيامه معتزلاً مُتَبَتِّلاً زاهداً ، ودور الشَّيْبَةِ وفيه يصبح البرهمن كاملاً متصلاً بالآلهة رأساً متأملاً متأهباً للموت .

ويجب أن تكون هذه الحياة ، التي قُسمت على هذا الوجه إلى هذه الأدوار الأربعة ( المراهقة والفتوة والكهولة والشَّيْبَةِ ) ، لكل هندوسى وُلِدَ مرتين ، أى لكل هندوسى مقبول ، ويُعدَّ جميع رجال الطوائف الثلاث الأولى من الذين وُلِدوا مرتين ، فالواحد منهم إذا خرَّج من دور المراهقة وُضع حول عنقه حَبْلٌ رمزى في احتفال ليكون علامة على الولادة الروحية وعلى أنه ابن برهمن ، غير أن البراهمة وحدهم هم الذين يمارسون بدقة الوظائف الأربع : وظيفة المرشح للرهبانية ووظيفة رب الأسرة ووظيفة الناسك ووظيفة القانت .

وفي حالة القري يؤذن للبرهمن في القيام ببعض الوظائف ، وبالتجارة أيضاً ، ولكن فقراء البراهمة يعيشون ، على العموم ، من جُود الأكشترية وكرمهم ، فإيتاء

الحيات للبراهمة هو أفضلُ عمل يقوم به هندوسى ، جاء فى شريعة منو :  
« يُؤَجَّر الواهب مرة على هبة المال لغير البرهمى ، ويُؤَجَّر مرتين على هبته  
لرجل يزعم أنه برهمى ، ويُؤَجَّر مئة ألف مرة على هبته لبرهمى مُتَبَحِّر فى كتب  
الويدا ، ويُؤَجَّر أجراً لا حدَّ له على هبته لبرهمى مُتَبَتِّل إلى علم اللاهوت » .  
وإليك أهم ما جاء فى شريعة منو من النصوص على حقوق البراهمة :  
« إذا ولد البرهمى وُضِع فى الصف الأول من صفوف هذه الدنيا ، والبرهمى  
إذا كان السيد الحاكم لكل مخلوق وَجِب عليه أن يحافظ على كنز الشرائع المدنية  
والدينية .

« والبرهمى محلٌ لاحترام الجميع والآلهة بسبب نسبته وحده ، وأحكامه حجة  
فى العالم ، والكتاب المقدس هو الذى يمنحه هذا الامتياز .  
« كل ما فى هذا العالم مُلك البرهمى ، والبرهمى حق فى كل موجود بسبب  
اليسكريّة والنسب .

« والبرهمى إذا ما افتقر حُقَّ له أن يمتلك مال الشودرى الذى هو عبد له من  
غير أن يجازيه المالك على ما فعل ، فالعبد وما يملك لسيده .  
« وأن يدنس البرهمى صاحب الرُخ ويدأ بذنب ولو قتل أهل العوالم الثلاثة  
وتناول طعاماً من أسفل رجل .

« ولا ينبغي للملك أن يتجنى خراجاً من برهمى عالم بالكتاب المقدس ولو مات  
الملك محتاجاً ، ولا يجوز له أن يضرب على جوع برهمى فى ولاياته .  
« وليجتنب الملك قتل برهمى ولو اقترف جميع الجرائم ، وليطرده ، إذا رأى ،  
من مملكته على أن يترك له جميع أمواله وألاً يصيبه بأذى .

« والبرهمنى المُلْحَصَن إذا ما زَنَى قُصَّ شعر رأسه قَصًّا شائناً ، على حين يُقَتَّل الزُّنَاة المُلْحَصَنون من أبناء الطبقات الأخرى » .

ومن حقوق البراهمة أن يكونوا مشيرين للملك ، فعلى الملك ألا يقطع أمراً مُهِمًّا قبل أن يستشير أكثرهم درايةً ، فكان يجتمع بانتظام مجلسٌ يدعى بالمجلس الكبير للبحث فى أهمِّ الشؤون .

وشاهد ميغاستين ما كان يتمتع به البراهمة من ضروب العزِّ والشرف وحدث عن فلسفتهم معجباً فقال إنها قريبة من فلسفة سقراط وفيثاغور .

وكان الأكشترية (المقاتلة) يقومون بأمور الحرب وحدها فلا يمارسون حِرْفَةً أو مهنة أخرى ، وكان وقت السلم لهم وقت بطلالة ، وكان يجب عليهم أن يستعدوا للحرب على الدوام وأن يلبؤوا أول نداء ما فامت رسالتهم على حماية الشعب وما أركن الويشى ( الزارع ..) إلى مرابطتهم فى الثغور فحَثَّ قتلهم مطمئناً .

وكان الأكشترية والبراهمة ( الكهنة ) عِمَادَى المجتمع المُنَمِّ أحدُهما للآخر ، وإن كان الأكشترية دون البراهمة بدرجات ، جاء فى شريعة مَنُو :

« لا فلاح للأكشترية بغير البراهمة ، ولا ارتقاء للبراهمة بغير الأكشترية ، فتلك الطائفتان إذا ما اتحدتا كُتِبَ لهما الفوز فى الدارين .

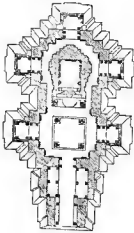
» يجب أن يُعَدَّ البرهمنى أباً للأكشترى ولو كان عمر البرهمنى عشرَ سنوات وعمر الأكشترى مئة سنة ، ويجب أن يحترم الأكشترى البرهمنى على هذا الأساس » .

ومن ثمَّ ترى الفرق بين تبنك الطائفتين الأوليين ، وهذا الفرق ليس بالذى يذكر إذا ما قيس بالهَوَّة التى تفصلهما عن بقية الشعب ، ويبدو الأكشترى نَدًّا



للبرهمن من بعض الوجوه كما يُستَشَفُّ من ذلك النصِّ الدالُّ على الصلة الوثيقة بينهما ، ويبدو مالا يتصوره العقل من الوهاد العميقة بينهما وبين الويشية ، ولا نقول الشودرى الذى يكاد يكون غير موجود فى المجتمع .

وكانت طبقة الويشية تشتمل على الزراع والتجار والمهنيين ، وكان هؤلاء يُعدُّون من الذين يُولدون مرتين ، وإن كان قبولهم يتمُّ بعد الأكَشترية بمدة كما أن قبول الأكَشترية هؤلاء كان يتأخر عن قبول البراهمة .



وما كان الويشى ليهبط إلى درجة الأجراء مهما رأيت من انضاع مهنته ، فكان للويشى منزله وأسرته التى هو ربها المحترم ، ولا شيء كان يجلب العار لدى الهندوسى البرهمنى كإيجار المرء نفسه من الآخرين ، فالخدمة من شأن الدواب والشودرا .

وإليك بعض نصوص وردت فى شرائع منو عن الويشية :

٤٨ - كهجورا . رسم  
معبد كهندواريا ( كما خططه  
الجنرال كنتنغهم ) ( الفرت  
الناشر من البلاد )

« يجب على الويشى بعد أن يُقلدَ الحبل المقدس ويتزوج امرأة من طائفته أن يُعنى جاداً بمهنته ويربى للوشى على الدوام .

« وليُعلم جيداً كيف يبذر الحبوب ، وليُفرَّق بين الأرض الجيدة والأرض الرديئة وليطَّلع على نظام الأوزان والمكاييل اطلاعاً تاماً .

« وليُعرف أُجرَ الخدم ولغاتِ الناس وما تُحفظ به السلع وكل ما يمتُّ إلى البيع والشراء بصلة » .

ولا ريب في سريان قَطَرَاتٍ من الدم الآرَى في عروق الويشية وإن كان دم الويشية كثير الاختلاط بغيره ، وأما السودرا فهم سكان البلاد الأصليون الأدياء الذين لا يحالفهم الإنسان من غير أن يَهْبِطَ من مرتبته ، وهم نُفَايَةُ الْخَلْقِ وأحق من البهائم ، وليس في هذا ما يَصْغُبُ إدراكه عند النظر إليه من الوجهة البرهمية ، فليس في السكب أو الحصان أى حَظَرٌ على مستقبل العرق الآرى ، مع أن السودرا كانوا يَهْدُون ، على الدوام ، قاهريهم بغيرهم وابتلاعهم ، فلو لم يُفَصِّصْ المغلوبون منذ الساعة الأولى لأَدَّى غزوهم السُّلْمَى إلى زوال أى أثر من العرق القديم الذى يفتخر البراهمة بالانتساب إليه ، ولو انقطع القَرَّاح<sup>(١)</sup> عن السيل في قناته الصَّوَانِيَّة لامتصته حَمَاءُ<sup>(٢)</sup> مُسْتَنْقَعٍ واسع .

ويمكن القارئ أن يطلع على درجة الذل العظيم التى كان يعيش فيها السودرى المنكود الحظ من النصوص الآتية الواردة في شرائع منو :

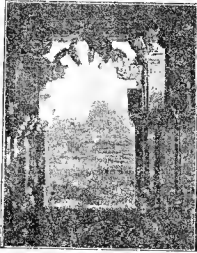
« يجب على السودرى أن يمثل امتثالاً مطلقاً أوامر البراهمة سادة الدار العارفين بالكتب المقدسة والمشتهرين بالفضائل ، فترجى له السعادة بعد موته ( بيعت أسنى ) .

« خدمة السودرى للبراهمة هى أفضل عمل يُحَمَّدُ عليه ، ولا أجر للشودرى على عمل آخر يقوم به .

« ولا يجوز للشودرى أن يجمع ثروات زائدة ، ولو كان على ذلك من القادرين ، فالشودرى إذا جمع مالا آذى البراهمة بفتحته .

(١) القراح : الماء الحالمى - (٢) الحماة : الطين الأسود .

« ويجب نفي ابن الطبقة الدنيا الذي تُحدِّثه نفسه بأن يساوى رجالاً من طبقة أعلى من طبقته وأن يُوسم تحت الورك .  
« وتقطع يده إذا علا من هو أعلى منه بيده أو عصاه وتُقطع رجله إذا رَفَسه برجله حين الغضب .



« وإذا ما دعاه باسمه أو باسم طائفته مُدَسِّمًا أُدخل إلى فيه خِنْجَرٌ مُحَمَّى مَلُولٌ النَّصْلُ طوله عشرة قراريط .

« ويأمر الملك بصَبِّ زَيْتٍ حَارٍّ فِي عَيْنِهِ وفي أذنيه إذا بلغ من الوقاحة ما يُبْذَى به رأياً للبراعة في أمور وظائفهم .

٤٩ - كهجورا . باب المعبود السابق  
( أُخذت هذه الصورة من داخل المعبود ) .

« ومن يَكُ ذا علاقات برجل منبوذ أَسْقَطَ في نهاية سنة ، ولا يكون

هذا السقوط ، فقط ، بأن يُقَرَّبَ معه أو يُقَرَأَ معه الكتاب المقدس أو يُحَاكَّفَ مما يؤدي إلى السقوط حالاً ، بل يَنْجُمُ أيضاً عن الذهاب معه في مركبة واحدة أو الجلوس معه على متكأ واحد أو الأكل معه حول خِوَانٍ واحد » .

### ٣ - المدن والمباني

أقام الهندوس في العصر البرهمنى مَبَانِيَّ فَخْمَةً ومدناً زاوية على ضِفَافِ العَنَاجِ ،

فكانوا بذلك على عكس آرى العصر الوبدى الذين لم يُنشئوا غير قرى  
حقيرة .

وأطلال ماشاده الهندوس فى العصر البرهمى قليلة جداً ، ويثبت ما بقى منها ،  
كنقوش بهارت وأعمدة أشوكا ، أن الهندوس كانوا ماهرين فى فنّ العمارة .

ومن المحتمل أن أنشئت أبنية الهند الأولى من الخشب والأجر وأن المباني  
الحجرية لم تكن غير نسخة عنها ، وليس ما قام به ميغاستين من الوصف وحده هو  
الذى أسند إليه فى هذا ، بل أسند ، أيضاً ، إلى مشاهداتى فى نيپال التى حافظت  
على طبائع الهند القديمة ، فقد وجدتُ فيها أعمدة حجرية غير قليلة اقتديست نقوشها  
من نقوش الأعمدة الخشبية اقتباساً تاماً .

والأمر مهما يكن فإن الذى لا ريب فيه هو أن الهندوس كانوا مالكيين لمدين  
مهمة فى زمن ميغاستين ، فإِ وصفَ به هذا السفير اليونانى مدينةً بالى بورتا  
الكبرى من القول يدلنا على اتساعها وقوتها وعظمتها .

قامت تلك المدينة ، كما روى ميغاستين ، على ضفاف الغنّج وكانت مسطحة  
مستطيلة جداً وكان يحيط بها سور ، وكان يوجد فى أسفل هذا السور خندق عريض ،  
وأنار عجب ميغاستين قصرُ الملك فيها وأسواقها وحوانيتها المملوءة بالسلع الثمينة  
والواكب الزاهية التى كانت تجوب شوارعها .

ولم يكن وصف ذلك السفير كلّ ما لدينا من الوثائق لتمثّل إحدى المدن  
الهندوسية فى القرن الثالث قبل الميلاد ، فإليك وصفاً أكثر تفصيلاً مما ورد فى رحلة  
ذلك السفير جاء فى شعر الراماينا الحماسى الذى وُضع فى زمن أقدم من تاريخها  
لا ريب :

« هـى بُقْمَةٌ واسعة دَسِمَةٌ باسمة وافرة الغنى مملوءة بالحبوب والمواشى واقعة على ضفاف سَراجو مَسَمَّة كوسلا ، هنالك كانت مدينة مشهورة فى جميع العالم أنشأها سيد البشر مَنُو ، فكانت تدعى بأجودها .

« يا لجمال تلك المدينة ويا لسمادة تلك البلدة التى كان عرضها ثلاثة أَوْذِجًا وكان طول سورها الرائع اثنى عشر أَوْذِجًا ! .

« كان لتلك المدينة أبواب يَفْصِلُ بعضها عن بعض مساوِفُ متساوية ، وكان يقطعها شوارعٌ كبيرةٌ عريضة ، وكان يَسْطَلعُ من هذه الشوارع الشارعُ الْمَلِكِيُّ حيث تَرَشَّاشُ الماء يُسَكِّنُ ثائرَ الفُبار .

« وكان تجار كثيرون يَتَرَدَّدون إلى أسواقها ، وكان كثيرُ الحِطْلِيِّ يزخرِف حوانيتها ، وكانت منيعة ، وكان كبيرُ البيوت يُغَطِّي أرضها ، وكانت مَرْيَنَةٌ بالغِياض والحدائق العامة ، وكانت تحيط بها الخنادق العميقة التى يتعذر اقتحامها ، وكانت دور صناعتها طاخعة بأنواع الأسلحة ، وكانت الأقواس البديعة تُتَوَجَّج أبوابها فيَحْرُسُها النَّبَّالة على الدوام .

« وكان الملكُ المنصور العالى الشأن دَشَرَتْها يَمَلِكُ تلك المدينة كما يَمَلِكُ الإله إندرا مدينةَ الخالدين أَمْرًا وَاقِي .

« وكانت البنودُ الخافقة ترفرف فوق حنايا مداخلها المنقوشة ، وكانت تتمتع بكل ما ينتجه مختلف الفنون والمِهَن ، وكانت زاخرة بالمرآكب والخيول والفيلة والمُعدَد والمقامع وآلات الحرب ، وكانت طرقها ذواتُ الأبوابِ اللينة وأسواقها الحسنة التوزيع على أبعادٍ محسوبة حسابًا دقيقًا تَعِجُّ بالباعة والسعاة والشِّياح ، وكانت

ألوف الجوع تَعْدُو وتَعْدُو فيها ، وكانت تُحْتَبِئُ العيون الساطعة والبساتين العامة وَرِدَاه  
الجلال وَضَخْمُ المِيسَانِ المُوَزَّعَةُ توزيماً كاملاً ، وكانت تبدو محطة لمرآكب الآلهة  
الحَيَّة في هذه الدنيا لِمَا فيها من هياكل هذه الآلهة » .

#### ٤ - الحكومة والإدارة

كان نظام الحكم في العصر البرهمن مَلَكِيَّاً مطلقاً ، فكان الملك يُطاع كِبَالَهُ ،  
فإذا ما ارتقى الملكُ العرشَ ، ولو بعد جنابة يقتربها ، نُظِرَ إليه مثلاً لمشينة قُدْسِيَّة  
وقدرة إلهيَّة ، جاء في شريعة مَنُو :

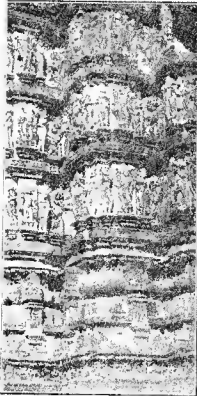
« يجب ألا يُسْتَخَفَّ بِالْمَلِكِ ولو كان طفلاً ، وذلك بأن يقال : إنه إنسان ،  
فالإنسانية تَتَجَسَّم في صورة الملك البشرية » .

ويظهر أن حكومة ذلك العصر كانت ذات حُؤُو أبوي فلم تَبْدُ شديدة على  
الرَّعِيَّة ، وكان البراهمة على رأسها تقريباً بسبب مركزهم الطائفي ، فكان على الملك  
أن يعمل برأيهم وأن يُجْزَلَ لهم العطايا ، وكان لصلواتهم من النفوذ ما كانوا يُعْدُّون  
به قادرين على جعل أيام حكمه سعيدة بحجدة أوعلى صبَّ ضروب الغَضَبِ وجميع اللَعَنَات  
السَّاهِية على رأسه .

ومن الأَكْثَرِيَّة كان يُنْصَبُ الملك ، والملك على الأَكْثَرِيَّة ، وقد كانوا  
رفقاء في الجيش ، احترامُ الجنود لقائدهم .

إذن ، كان سلطان الملك المطلق يَتَجَلَّى على الويشية ، ولم يُعَدَّ رجال هذه  
الطائفة إلا من مُسَاقِيهِ ومُزَارَعِيهِ ، فكانوا يزرعون الأرض ويتاجرون لأجله ،

وإن شئت قتل لأجل الدولة ، فالضرائب ، وإن كانت تُجَبَّى للملك ، كان على الملك أن ينظم الجيش ويرعاه وأن يقوم بكل ما ينفع الرعية من الأعمال .  
وكان في الولايات وفي المدن وفي أحقر القرى مفتشون لمراقبة إنتاج الأراضي وقيَم السلع والأثمان التي تُباع بها كي تُجَبَّى ضرائب الملك منها بعد أن تُعَيَّن .



٥٠ - كهجورا . دقائق نفوس  
معبد كهنداربا .

ويلوح لنا أن نوع الإدارة ذلك مرعيج جانر ، بيد أن احتماله كان سهلاً على المهندس كما يظهر ، وهم الذين شَبَّههم ميفاستين بالأولاد السَّهْلِي الانقياد فقال إنهم أكثر شعوب العالم دماثة وتسلياً ، شَأْنهم في الزمن الحاضر .

والمملوك ، مع ما كانوا يتمتعون به من السلطان المطلق ، لم يكونوا قادرين على إساءة استعمال مقامهم ، فهم ، إذ كانوا مُتَزَوِّين في قصورهم ملزَمين ، مع انتظام في العيش ، بتطبيق شرائع متو والعمل بتعاليمها الكثيرة في واجبات الملك كان همهم الكبير مصروفاً ، على

ما يظهر ، إلى الخلاص من الخنجر والسُّم ، فعلى ما كان يَحْتَفُ منصَبهم من الأخطار

كان محلّ رغبة وطمع ، والقائلُ المُوَفَّقُ الذى يَخْلُفُ الملكَ إذ كان يُعَدُّ موجوداً  
إلهياً فَوَزَّ قبضه على التاج والصولجان وإذ كان لا يخشى سوى الإخفاق وَجَبَ على  
الملك أن يتذرّع بالحذر وحده لإنقاذ حياته ، والحذرُ ما توصيه به شريعة مَنْوُ  
أيضاً ، فترى أن مُتَوَكِّفَ حاشية الملك من أناسِ ضِعَافِ ذوى حياءِ يَحْشَوْنَ حَوْلَكَ  
الدسائس حوله والانتهاز به وأن يُغَيِّرَ الملكَ مكانَ نومه فى الغالب وألا يسكر لاحتمال  
قتل إحدى زوجاته إياه فى أثناء سُكْرِهِ ، طمعاً فى الزواج بخلفه .

ولم يكن من حق إنسان ، مع ذلك ، أن يَسْكُنَ داخل القصر غيرُ الملك  
وأزواجه ، فكان على حرس الملك أن يقيموا بخارجه .

وكنْتَ ترى بين حينٍ وحينٍ موكباً رائعاً مشتملاً على الملك وزوجاته مُؤَلَفَّامِن  
مُيُولَ مجهزة بأفخر جِهاز ومن نساء مَسْلُحَاتٍ ومن نَبَّالَةٍ وحرس سائرراً بأبهة من  
الشوارع إلى الصيد بين جبال ممدودة على الجانبين وَقَفّاً لحجى الاستطلاع .

وكنْتَ ترى الملك حينما يذهب ليقْرُبَ القرايين الرسمية أو ليحكم بين الرعية  
أو ليقود الكتائب .

وفى شرائع مَنْوُ أن الملك الحَكِيمَ الرشيد هو الذى يَظَلُّ متأهباً للحرب على  
ألا يخوض غمارها إلا إذا كان موقفاً بأن النصر يكون حليفه ، فعلى الملك الذى يَوَدُّ  
النصر ألا يمتشق الحسام قبل المفاوضات وبَثَّ العيون والأرصاد وبَذَرَ عوامل الشقاق  
بين الأعداء ، جاء فى شرائع مَنْوُ :

« ليجتذب الملكُ من يستطيعون أن يساعده على بلوغ مآربه ، كأقرباء  
الأمير العدوِّ الطامعين فى عرشه أو وزراء هذا الأمير الساخطين ، ولْيُعَلِّمَ جميعَ ما



يصنعه الأعداء ، فإذا ما آتس من السماء عطفاً حارب ، غَيْرَ هَيَّابٍ ، ليفتح بلاداً » .

ولم يكن التجسس نافعاً ضد الأعداء وحدهم ، بل كان يُعدّ أداةً حكومية صالحة ، فبالعيون كان الملك يكتشف الانتهاز به ، وبهم كان يعلم مدى تَرَاهة مفتشيه وإخلاصهم ، وبهم كان يراقب الغلال الأسواق دَرءاً لكلِّ غِشٍّ وتدليس في جباية الخراج .

وكان الخراج يزيد وينقص بحسب جَوْدَةِ المواسم ورياءتها ، فكان يُزاد في الجَذْبُ وينقص في الخِصْب ، فاسمع ما جاء في شريعة مَنْوُ حَوَّلَ هذه التحولات : « يمكن إبلاغ الضريبة المفروضة على التجار في زمن العُمر إلى ثُعْنِ الفَلَّات ، وإلى رُبْعها ، وإلى واحد من عشرين من الربح النقديّ بعد أن تكون في زمن اليُسْر واحدًا من اثني عشر من الفَلَّات وواحدًا من خمسين من الربح النقديّ ، ويجب على السودرا والعمال والمحترفين أن يُؤدُّوا عمل يوم واحد في الشهر من غير أن يُؤثُّوا ضريبة » .

« وليأخذ الملكُ سُدُسَ الدخل السنويّ من اللحم والعسل والسمن والرُّبّ والعَمَّار<sup>(١)</sup> والشجر والعِطَر والزهر والجَذَر والثَمَر » .

ومن قِمِّ تَبْصِير أن السودرا ليس لهم ثروة غيرُ العمل فلا يؤدُّون إلى بيت المال ضريبة سوى عملِ يومٍ واحد في الشهر .

وكانت المراقبة العامة في البلاد مُحَكَّمة التنظيم ، فكان لكلِّ قرية وكلِّ مدينة مفتشها الذي يرفع تقريره إلى المفتش الأعلى لمجموعة من المدن ، ثم يرفع هذا

---

(١) العمار : ما يتداوى به من النبات .

المفتش تقريره إلى مفتش الولاية ، ثم يرفع مفتشو الولايات النتائج رأساً إلى وزراء الملك الذين كانوا يُختارون من أعلم البراهمة .  
وكان للجيش أيضاً مفتشون من مراتب مختلفة على حسب أهميتهم .

## ٥ — إقامة العدل ، الشرائع والمعادات

الأصل هو أن يقيم الملك العدل ، ولكن الملك إذا كان يتعذر عليه ، بحكم الطبيعة ، أن ينظر في جميع الدعاوى كان يُنِيب عنه البراهمة في ذلك . قال منو :  
« على الملك الذي يَودَّ أن ينظر في الخصومات أن يذهب إلى مجلس القضاء متواضعاً هو وأناس من البراهمة والمشيرين المُحَنِّسِينَ .

« فالملك إذا لم يفعل ذلك وجب عليه أن ينيب عنه برهياً مثقفاً .  
« ولْيُدَقِّقْ هذا البرهية في القضايا المعروضة للفصل فيها مستعيناً بثلاثة مساعدين .  
« وليختَر الملك لتفسير الشريعة ، إذا أراد ، رجلاً من طبقة الكهنوت فلا يستند هذا الرجل في القيام بالواجبات وباللدالة عليه إلى غير نسبه ، أو ليختَر رجلاً يبدو من البراهمة وإلا فمن الأكشيرية أو الويشية ، ولكن ليَجْتَنِب اختيار مفسر لها من الطبقة السفلى » .

ولم يوجد قانون شامل لجميع مشاكل الحياة الاجتماعية ، فترى من قول منو الآن أن للعادة حكم القانون على العموم .

« يجب على الملك الصالح أن يدرس قوانين الطبقات والولايات الخاصة ، وأن يدرس نُظُم شركات التجار وعادات الأسر ، وأن يجعل لها قُوَّة القانون إذا لم تكن تلك القوانين والنُظُم والمعادات مخالفة لتعاليم الكتب المُنزَّلة » .

والخصومات بين الناس كانت قليلة، فكان الهندوس يَمَقُّتُونَ الدعاوى خلافاً لما يُشَاهَدُ في أيامنا ، وكانت الجُنَحَ والجَنَاحَاتُ تُفَصَّلُ بعد عناية كبيرة واحتفال عظيم . والعيون هم الذين كانوا يكتشفون الجرائم في الغالب ، فكان التجسس شاملاً للعدل والسياسة، والتهغايا، على الخصوص ، هُنَّ اللَّائِي كُنَّ يَقْمُنَ بأعمال التجسس ، وكان الغريب إذا ما واصل إلى البلد يُحَاطَ ، من غير أن يَشْعُرَ ، بجواسيس لا يتركونه . وكانت أُمَدُّ شهادة الزور من الكبائر فيعاقب مقترفها بمقوبة رادعة في هذه الدنيا إذا ما اُكْتَشِفَتْ وبأشدَّ الجزاء في الآخرة على كلِّ حال ، جاء في شريعة مَنُو : « يجب على كل عاقل ألاَّ يَحْمِفَ زوراً ولو من أجل أمر نافع ، فالبَوار في الدنيا والآخرة للشاهد الكاذب .

« وَيُعَدُّ لشاهد الزور من النَّسْكَال ما يُعَدُّ لقاتل البرهمنى أو لقاتل المرأة أو لقاتل الصبي أو للذي يؤذي الصديق أو للذي يُتَنَفَّ المَال . « سَيَهْوَى في نار جهنم رأساً على عقب المجرم الذي يَشْهَدُ الزور عند سؤاله من قِبَل القضاء . »

وكان يُرَى في أمر الشهادة ، كما في محاكنا ، ألا يكون الشاهد قريباً لهم أو ذا علاقة أخرى به ، وكان يُزَكَّى قبل سماع شهادته ، قال مَنُو :

« يجب أن يُختار الشهود للقضايا في جميع الطبقات من أناس موثوق بهم عالمين بواجباتهم خالين من الغرض ، ويجب أن يُرَدَّ من لم يكونوا من هؤلاء . « لا يجوز أن تقبل شهادة من لهم مَقَنَم ، ولا شهادة الأصدقاء ، ولا شهادة الأجرء ، ولا شهادة الأعداء ، ولا شهادة من اشتهروا بسوء النية ، ولا شهادة المجرمين . »

وكان لا يُشَدَّدُ في أسر الشهود إذا كان الجرم كبيراً وأُمسِكَ الجرمُ مُتَلَبَّساً  
به وكان إثباته سهلاً ، جاء في شريعة مَنْوُ :  
« لا يُفَرَضُ نَقَهَى أمر الشهود في جرائم الغصب والسَّرِقَة والزنا والشتائم  
وسوء المعاملة » .

تُثَبِتُ تلك النصوص وغيرها ، مما لا نرى سَرَدَه في هذا الكتاب ، درجة  
حرص براهمة المزدوس على إحقاق الحق بتدقيق ووضوح .  
وتَجِدُ بين تلك التحفظات الحكيمة الدقيقة التي وُضِعَتْ لإظهار الحق عاداتٍ  
خرافية شاملة للنظر قريبة من أحكام الرب في قرون الغرب الوسطى ، جاء في  
شريعة مَنْوُ :

« لِيُحْتَفَ القاضى البرهمنى بصدقه ، وليُحْتَفَ الأكشترى بجنونه أو فيوله  
أو سلاحه ، وليُحْتَفَ الويشى ببقره وحبوبه وذهبه ، وليُحْتَفَ الشودرى  
بكلِّ الجرائم .

« أوليّاُمر القاضى ، بحسب أهمية المفضلة ، من يريد امتحانه بأن يُمسِكَ  
النار بيده أو يُعْطَسَ في الماء أو يَمَسَّ رأسَ زوجته ورأس كلِّ واحد من أولاده  
على انفراد .

« فالذى لا يَحْرِقُه اللَّهَبُ أو لا يَطْفُو فوق الماء فلا يناله أذى يُقَدُّ صادقاً  
في يمينه » .

ومن يَتَصَفَّحُ السُّمُرَ الثامن والسُّمُرَ التاسع من شرائع مَنْوُ يَجِدُها مملوءين بما يجب  
عمله في تَحْرِى الآثام والجرائم والمقوبات التي تُفَرَضُ على المذنبين .

وَتُوجَّهَ تِلْكَ الْأَحْكَامُ رَأْسًا إِلَى الْمَلِكِ الَّذِي هُوَ قَاضِي الْمَمْلُوكَةِ الْأَعْلَى وَالْمَسْئُولُ عَنْ جَمِيعِ مَا يُقْتَرَفُ فِيهَا مِنَ الْجَرَائِمِ الصَّغِيرَةِ وَالْكَبِيرَةِ .

وَمِمَّا ذَكَرْنَاهُ أَنَّ لِلْمَلِكِ سُدُسَ الدَّخْلِ ، وَمَنْ يُنْعِمُ النَّظَرَ فِي الْآيَتَيْنِ الْآتِيَتَيْنِ يُطْلَعُ عَلَى مَا كَانَ مِنَ التَّضَامَنِ بَيْنَ الْمَلِكِ وَشَعْبِهِ مَادَّةً وَمَعْنًى .

« سُدُسُ ثَوَابِ طَائِفَةِ الْأَعْمَالِ لِلْمَلِكِ الَّذِي يَحْتَمِي رَعِيَّتَهُ وَسُدُسُ جَزَاءِ سَيِّئَةِ الْأَعْمَالِ يَقَعُ عَلَى الْمَلِكِ الَّذِي لَا يَسْهَرُ عَلَى مَصَالِحِ رَعِيَّتِهِ .

« وَسُدُسُ ثَوَابِ مَا يُقَدَّمُ إِلَى الْآلِهَةِ مِنَ الْقِرَاءَاتِ الصَّالِحَةِ وَالْقَرَابِينَ وَالْهِبَاتِ وَالتَّسَابِيحِ لِلْمَلِكِ الَّذِي يُجِيرُ رَعِيَّتَهُ » .

وَمَا قُلْنَا أَنَّهُ هِنْدُوسُ ذَلِكَ الْعَصْرِ كَانُوا يَرْغَبُونَ عَنْ رَفْعِ الدَّعَاوَى ، فَقَدْ أُوصُوا بِأَنْ يَحْلُلُوا مَسَائِلَهُمْ صُلْحًا وَأَنْ يَلْجَأُوا ، عِنْدَ الْاِقْتِضَاءِ ، إِلَى بَعْضِ التَّدَابِيرِ الْقَسْرِيَّةِ ، قَبْلَ أَنْ يَطْرُقُوا أَبْوَابَ الْقَضَاءِ .

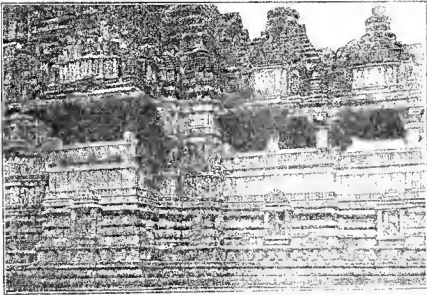
« يُمْكِنُ الدَّائِنُ أَنْ يَتَخَذَ جَمِيعَ الْوَسَائِلِ الْمَأْلُوفَةِ لِإِكْرَاهِ الْمَدِينِ عَلَى رَدِّ مَا اسْتَدَانَهُ .

« وَعَلَى الْمَلِكِ أَلَّا يُعَزِّزَ دَائِنًا أَكْرَهَ مَدِينَتَهُ عَلَى رَدِّ مَا اسْتَدَانَهُ » .

وَالْمَقْصُودُ مِنْ عِبَارَةِ « اتِّخَاذِ جَمِيعِ الْوَسَائِلِ الْمَأْلُوفَةِ لِاسْتِرْدَادِ مَا اسْتَدَانَهُ الْمَدِينِ » هُوَ اتِّخَاذُ طَرِيقِ الْإِرْغَابِ وَالْإِرْهَابِ وَتَوْسِيطِ الْأَصْحَابِ نَحْوَ الْمَدِينِ وَتَعَقُّبِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَفِي بَيْتِهِ وَالتَّقْبِضِ عَلَى زَوْجَتِهِ وَأَوْلَادِهِ وَوَقْفِ هَؤُلَاءِ فِي بَيْتِ الدَّائِنِ وَالِاتِّجَاءِ إِلَى الْجُلْدِ فِي نَهَايَةِ الْأَمْرِ .

وَلَمْ تَكُنْ أَبْوَابُ الْيُسْرِ مُوصَدَّةً دُونَ الْمَدِينِ ، فَكَانَ يُمْكِنُهُ أَنْ يَوْفِيَ مَا عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ بِأَنْ يَعْمَلَ مَقْدَارًا فَقْدَارًا ، وَإِذَا مَا عَقَدَ مُقَابَلَةً أَوْ مَصَالِحَةً أَوْ مَبَايَعَةً أَمْكَنَهُ

الرجوعُ عنها في خلال عشرة أيام ، فذلك المقد لا يصبح بائناً لا يُنْقَضُ إلا بعد انقضاء عشرة أيام .



٥١ - كمجورا . دفاق معبد لكشمن جى ( القرن العاشر )  
( يطلع عرض هذا القسم المصور نحو ١٣ منا )

والشريعة عيّنت مقدار الرّبا ، وكان هذا المقدار يختلف باختلاف الطوائف ،  
فما كان يؤديه البرهمنى من الرّبا أقل مما يؤديه الأكشترى ، وما كان يؤديه هذا أقل  
مما يؤديه الويشى .

ومما تقدم تُبصر أن كلّ شىء كان يميل إلى المرونة والرفق في علاقات بعض  
الأفراد ببعض ، فكان هؤلاء القوم الصابرون المادنون يكرهون أعمال العنف ،  
وكان أول ما يجب على الملك أن يصنعه هو أن يمنع القهر ويجازى الغاصب بشدة .  
« يجب على الملك الذى يطمع فى سيادة العالم وفى السعادة الثابتة الأبدية

أَلَا يَغْفُلُ طَرَفَةٌ عَيْنٍ عَنْ مَجَازَاةِ الَّذِي يَقْتَرِفُ أَعْمَالِ الْمُتَفِ كَالْحَرْقِ وَقَطْعِ السَّائِلَةِ .  
« وَلْيُعَذِّبِ الَّذِي يَقْتَرِفُ أَعْمَالِ الْمُتَفِ مَجْزَمًا أَكْثَرَ مِنَ اللَّسَّازِ <sup>(١)</sup> الْهَمَّازِ <sup>(٢)</sup> »  
الْمَثَلَابِ <sup>(٣)</sup> الضَّرَّابِ السَّرَّاقِ .

« وَمَا لِلْمَلِكِ الصَّابِرِ عَلَى مَقْتَرَفِ أَعْمَالِ الْمُتَفِ إِلَّا بِالَّذِي يُبْلِغِي نَفْسَهُ فِي الْهََاوِيَةِ  
فَلَا يَنْتَالُ غَيْرَ بَعْضِ النَّاسِ » .

وَكَانَتْ أَهْمِيَةِ الْجَرَائِمِ الَّتِي تُتَقَرَّفُ وَالْعُقُوبَاتِ الَّتِي تُفْرَضُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ  
طَائِفَةِ الْمَجْنُونِ عَلَيْهِ ، لَا بِاخْتِلَافِ الضَّرَرِ ، فَمَا كَانَتْ الْعُقُوبَاتِ الَّتِي تُفْرَضُ عَلَى  
الْبَرْهَمِيِّ مِنَ الشَّدَةِ كَالَّتِي تُفْرَضُ عَلَى أَبْنَاءِ الطَّوَائِفِ الْآخَرَى .  
« فَإِذَا اقْتَرَفَ بَرْهَمِيٌّ مَعْرُوفَ بَكْرَمِ النَّحْيَةِ <sup>(٤)</sup> جُنَايَةً غَرِّمَ ، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ  
عَدَمًا يُنْفَى مِنَ الْبِلَادِ وَأُذِنَ لَهُ فِي اخْتِذَاثِ أَثَانِهِ وَأَسْرَتِهِ .  
« بَيِّدَ أَنْ مَنْ يَقْتَرِفُ مِنْ أَبْنَاءِ الطَّبَقَاتِ الْآخَرَى تِلْكَ الْجُنَايَةَ غَيْرَ مُتَعَمِّدٍ يَخْسِرُ أَمْوَالَهُ  
وَيُنْفَى مِنَ الْبِلَادِ ، وَمَنْ يَقْتَرِفَهَا عَدَمًا يُقْتَلُ » .

وَتَقُولُ الْعُقُوبَاتُ الْمَنْصُوصُ عَلَيْهَا فِي شَرِيعَةِ مَنْوُ بِمَصَادِرَةِ الْأَمْوَالِ أَوْ النَّفْيِ أَوِ الْقَتْلِ  
عِنْدَ اقْتِرَافِ الْجُنَايَاتِ الْكُبْرَى كَالْقَتْلِ أَوْ زِنَا الْأَزْوَاجِ ، وَبِالْفَرَامَةِ أَوْ قَطْعِ الْعِضْوِ  
أَوْ السَّجْنِ عِنْدَ السَّرِقَةِ .

وَعَدَّ خَطْفَ الْبَنَاتِ وَغَسْبَ الْقَتَاتِ وَزِنَاءَ الْأَزْوَاجِ مِنَ الْجُنَايَاتِ الْكُبْرَى  
لِإِمَّا يُوْدَى إِلَيْهِ ذَلِكَ مِنْ تَمَازُجِ الطَّوَائِفِ الَّتِي حَرَّمَته شَرَائِعُ مَنْوُ ، وَسَتَعُودُ إِلَى هَذَا  
الْمَوْضُوعِ فِي الْمَطْلَبِ الَّذِي خَصَّصْنَاهُ لِلْبَحْثِ فِي أَحْوَالِ النِّسَاءِ .

وَإِنِّي أَخْتِمُ قَوْلِي الْإِجْمَالِي فِي النِّظَامِ الْقَضَائِيِّ بِكَلِمَةٍ عَنِ الْمَوَارِيثِ فَأَقُولُ إِنَّ

---

(١) الهماز : التمام - (٢) الهماز : العياب - (٣) المثالب : المتناوب - (٤) التحيزة : العليمة .

الأولاد كانوا يفتسمون ميراث أبيهم بالتساوى حين وفاته ، ومما كان يَحْدُثُ أُنْ يُخَصَّصُ الأب ابنه البكر ذا اللزايا الحميدة بجميع التَّركَة فيقوم مقامه بعد موته ، وكان إخوة الميت وأبواه يرثونه عند ما يُتَوَفَّى بلا ولد ، وكان الملك والبراهمة يرثونه إذا مات بلا وارث .

## ٦ - الجيش وفن التَّعَمُّيَّة

كان جيش براهمة الهندوس يُؤَلَّف من طبقة الأكَشترية ، وكان مما يخالف الشريعة أن يتعاطى أكَشترى غير مهنة الجندية ، والشريعة كانت لا تأذن للأكَشترى في اتخاذ مهنة أخرى إلا عند أقصى الضرورة ، والأكَشترى كان يعيش جندياً حتى في زمن السلم .

ومما رواه ميغاستين وجودُ معسكر جامع لجميع المقاتلين مُقدَّراً عددهم بأربعمئة ألف ، فكان هؤلاء يَفْضُونَ أيامهم في تمرين قُوَّتهم وحِدْقِهِم في اللعب والشرب والنوم ، وكان الملك يَعْرِضُهُم بين حين وحين .

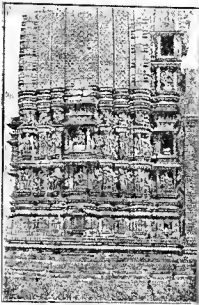
وأعجب ميغاستين بانتظام ذلك المعسكر المحتوى على أربعمئة ألف مقاتل وبأمانة الهندوس فَرَوَى أنه لم يسمع من الأخبار السيئة عنه سوى سَرَفَةِ جنديٍّ منه لبعض ما عند جنديٍّ آخر .

وكان المقاتلون يَتَجَمَّعون عند أول نداء ، فما كان عليهم أن يُعِدُّوا عُدَّةً ولا أن يجهزوا حصاناً أو مركبة ، فكان الملك يقوم بجميع ذلك ، والملك كان يُخَصَّصُ مُعَظَم الضرائب لهذا الغرض كما رأينا ، وكانت قوة الجيش وأهْبَتُهُ تتجلىان فيما فيه من المراكب والفيُول والخيُول ، فكان يرْكَب كلَّ فيل أربعة رجال وثلاثة نَبَّالَة وسائق ، وكان يرْكَب كلَّ مركبة ثلاثة رجال ونَبَّالان وسائق .



« قوة الجيش في التيل على الخصوص ، فلا شيء يَعْدِلُ الفيل ، فتُعَدُّ أَعْضاء الفيل وحدها أسلحةً ثمانية ، وفي الحصان تتجلى قوة الجيش أيضاً ، فالحصان حصنٌ متحرك ، فالملك الذى يملك خيولاً أكثر من عدوه يكون النصر حليفه في ميدان الوغى .

« لا بدّ لمن يقاتل في السهول من المراكب والخيُول ، ولا بدّ لمن يقاتل في أماكن المياه من السفن والفيُول ، ولا بدّ لمن يقاتل في الأدغال من الأقواس والنبال ، ولا بدّ لمن يقاتل في الميدان من السيوف والتروس وما إليها من الأسلحة » .



لم تقتطف ذلك القول من شريعة منو ، بل أخذناه من مختارات الأفاصيص التى جُمِعت بعد زمن فَعُرِفَتْ بالهتو پديشا لما رأيناه فيه من دقائق الطبائع الحربية الموافقة لعادات العصر البرهمى .

ومن تلك المجموعة نقتبس العبارة الآتية التى تشير إلى حرب الاستيلاء أكثر من أن تُشير إلى إحدى الحملات العادية ما ذكرَ فيها النساء وما يرافق الجيش من كل ثمين : « يجب أن يكون القائد العام وأشجع الجنود في مُقدِّمة الجيش ، وأن يكون النساء

والأمير والمال وكل ثمين في القلب ، وأن يكون الخيل والمراكب والفيُول والمشاة في الميمنة والميسرة .

« ويحب على القائد المساعد أن يكون في المؤخرة وأن يشد عزيمة كل تعب ،  
ويحب على الملك ، ويحف به وزراؤه وأعوانه ، أن يقود القليق للمهم من الجيش .  
وإذا نظرنا إلى أمر الجيش من حيث فنّ التعبئة أبصرنا التواصي الثلاث الآتية  
التي اقتطفنا أولاهما من العدو بدبشا واقتطفنا الآخرين من شرائع منو فرأينا أنها  
تأمر باتباع تلك السنة :

« يجب على من يرغب في النصر المؤزر أن يناوش جيش العدو فيبيده بالتدرج ،  
فمن السهل قهر العدو إذا ما أتيب زمناً طويلاً .  
« وإذا أحاط بالعدو وجب عليه توطيد معسكره وتخريب أملاك العدو وإتلاف  
ما فيها من السكّال والقوت والماء والوقود .

« ولينهدم أحواض العدو وحصونه وخنادقه ولينأزله نهائراً وليبأغته ليلاً .  
وإذا وجدت في كتب المهندوس نصوص على ضروب الخدائع الحربية والحيل  
السياسية وجدت فيها أيضاً تعاليم تُشع رحمة ، ففيها ، مثلاً ، نهى عن استعمال الأسلحة  
الغادرة التي تحدث جروحاً بليغة خطيرة كالسهام السامة ، وفيها نهى عن الإجهاز  
على عدو عاجز عن الدفاع كأن يكون قد سقط صريعاً أو أن يكون مبارزاً لمجاهد  
آخر ، فإليك ما جاء في شريعة منو :

« لا يجوز لمحارب أن يقاتل أعداءه بأسلحة غادرة كالعصى ذوات الخناجر المثلثة  
النصل أو النبال ذوات الأسنان أو السهام السامة أو الحراب المثلثة .  
« ولا يجوز لمحارب أن يضرب عدواً ماشياً إذا كان هو راكباً مركبة ، ولا رجلاً  
مُحنئاً ، ولا مُتكتفياً طالباً الرحمة ، ولا من يثكُ شره ، ولا من هو جالس ، ولا  
من يقول : أنا أسيرك . »

وأوصى مَنْوُ بأن يُعامل الأعداء المغلوبون بكرم على أن هذا من حُسنِ السياسة فقال :

« لا تزيد موارد الملك ووسائله إلا إذا جعل المَلِكُ صديقاً من الضعيف الذى قد يَقْوَى ذات يوم ، ولو نال الملك كنوزاً واكتسب أملاً كآ . »  
والنصر إذا تَمَّ للملك أمكنه أن يأخذ مغانم كثيرة على أن يُعطى البراهمة قسماً وافراً منها ، ومن مصالح الملك ، مع ذلك ، ألاَّ يُرْهِق الشعوب التى أصبح سيدها عُسراً ، قال مَنْو :

« اغتصابُ الأشياء الثمينة المؤدى إلى الخقد أو منحُ الأشياء الثمينة المؤدى إلى تَأَلُّفِ القلوب قد يسكون محمداً أو مذموماً بحسب الأحوال . »

واليك وصيةً بأن يحترم الغالب قوانين المغلوبين وديانتهم احتراماً يُدْكَرُنا بالسياسة الرشيدة التى سار عليها الرومان ، أمهرُ ممالك رقاب الشعوب :

« يجب على المالك الفاتح أن يُمَجِّدَ آلهة الشعب المغلوب وأصحاب الفضيلة من كهَّانته ، وليُسَمِّغَ عليه النِّعَمَ ،

وليُزِيلَ مخاوفه بمراسيم خاصة ، وليَحْتَرِمَ قوانينه كما هى ، وليُنْعِمَ على أميره وأعوان أميره بالجواهر . »



٣٠ - كهجورا . غانيل فى أساس معبد الإلهة باراوتى (القرن العاشر من الميلاد)

ولِيُزِيلَ مخاوفه بمراسيم خاصة ، وليَحْتَرِمَ قوانينه كما هى ، وليُنْعِمَ على أميره وأعوان

وكانت الحرب تُعدُّ أمراً خطيراً سيئاً ، فعلى وليِّ الأمر ألا يلجأ إليها إلا بعد أن يَبْذُل ما في طاقته من الوسائل السلمية لاجتنابها ، قال منو :

« يجب على الملك أن يَبْذُل جميع جهوده في حمل أعدائه على الخضوع فلا يُقَصِّر في مفاوضاتهم ولا في تقديم الهدايا إليهم ، ولا في نشر بذور الشقاق بينهم ، ولْيَفْعَلْ ذلك دفعةً واحدةً أو على انفراد مُتَّعِجاً القتال .

« والملكُ إذ كان لا يَعْلَم تماماً من سيخرج من الحرب منصوراً ومن سيخرج منها مهزوماً وجب أن يُبْعِدَ شبحها ما استطاع .

« فإذا لم يستطع أن يَتَّخِذَ واحدةً من تلك الوصايا الثلاث وجب عليه أن يحارب ببسالة لِيَقْلِبَ العدوَّ » .

## ٧ - الزراعة والتجارة

الوشية هم الذين كانوا يمارسون الزراعة والتجارة ، بيّد أن أبناء هذه الطائفة كانوا لا يتعاطونها لحسابهم الخاصّ وإن استطاعوا أن يتمسكوا وأن يفتنوا ، فالملكُ هو مولاهم ، وهو مالك الأراضي الحقيقيّ ، وكان الزارع المهمل يُجَازَى لِإِضْراره حقوق الملك ، فضلاً عن افتقاره ، قال منو :

« يُعَرِّمُ الزارعُ الذي تُتْلِفُ مواشيه حقله أو الذي لا يَبْذُرُ الحَبَّ في الوقت الملائم بغرامة تُعَدِّلُ ثَمَنَ حِصَّةِ الملك من الغلّة عشر مرات ما حدث هذا بإهماله ، أو بنصف هذه الغرامة إذا نشأ الإهمال عن أجراءه من غير أن يَعْلَمَ » .

وكان المالك يُنظَّم بدقة أمور البيع والشراء وأثمان السلع وقيمة العيارات والمسكايل وشؤون الاستيراد والإصدار، جاء في شريعة منو :

« يجب على المالك أن يضع مراسيم لتنظيم أمور البيع والشراء بعد أن ينظر إلى المسافة التي تُجَلَّب بها السلع الأجنبية وإلى المسافة التي تُصدَّر بها السلع المحلية وإلى مدة خزنها وإلى ما يمكن أن يُربح منها وما يُنفق عليها .  
« ولْيُنظَّم المالك ، بواسطة الخبراء ، أثمان السلع المتقلبة في كل خمسة أيام أو خمسة عشر يوماً .

« ولْيُعَيِّن المالك قيم المعادن الغالية ، ولْيُحدِّد العيارات والمسكايل ، ولْيُمَتَّصها في كل ستة أشهر مرة » .

وأكثر العيارات والمسكايل استعمالاً ما كان مصنوعاً من الذهب والنحاس والفِصَّة ، وكانت تُفَرَض أقصى العقوبات على من يمتنع في أمر الضريبة أو نوع السلعة ، فمن شريعة منو :

« يُعزَّم من يُخَادَع في أمر الضرائب أو من يبيع ويشتري في غير الألوان أو من يُزوِّر في قيم السلع ثمانية أمثال القيمة .

« ويجب ألا تُباع سلعةٌ مخلوطةٌ بغيرها على أنها غير مخلوطة ، ولا أن تُباع سلعةٌ رديئةٌ على أنها جيدة ، ولا أن تُباع سلعةٌ أخفُّ من المُتَّفَق عليها ، ولا أن تُباع سلعةٌ غير مُحرَّرة ، ولا أن تُباع سلعةٌ مع إخفاء عيوبها » .

ولم يكن اتصال الرقابة وجور المفتشين المالكين الدائم والضرائب الثقيلة على الزارع والتاجر وما إلى ذلك من القيود الشديدة لِيُمَيِّر ذلك الشعب الجاهل الهادئ الذي حمًا النير الديني ظهره فضلاً عن الاستعباد الإداري ، وما كان لذلك الشعب أن

يتوجع من هذا ، فقد كان يرى المُقابِلَ فيما يتمتع به من السلام الذى هو أطيب الأموال .

وكان مُعظم ما يُجَبَى يُنْفَقُ ، بالحقيقة ، على شؤون الحرب ، وكان الويشى غير مُكَلَّفَ بأية خدمة عسكرية ما انطوت هذه الخدمة على نُبل كثير عليه ، وما كان يَحْرُثُ حَقْلَهُ آمناً مطمئناً على حين يدافع الأُكْشترية عن الثغور ، فإذا ما أتت المواسم جَيِّدَةً حاز الويشى الغنى وإذا ما أتت رديئة فكان عُسرُ رجا العون من بيت المال ما بدا المليك مولاه وأباه الذى لا يَرْضَى بهلاكه ، وكان للويشى أعياده الرفيعة ، وكان رَبّاً لأُسْرته فيتمتع بما يتمتع به أرباب الأُسَر من الهناء المنزلى ، وكان الويشى ممن يُؤَلَّدون مرتين ، فكان له بهذا حقّ قِيَادَةِ السُودَرَا ، وما كان له أن يقوم بالأعمال الدينية .

وما كان الأُجْرَاء قليلين لديه ، ففي شريعة منو سبعة أنواع للأُجْرَاء الذين كانوا ، بالحقيقة ، أرقاء فلا يستطيعون أن يتمسكوا ، جاء في شريعة منو :  
«لِلأُجْرَاء سبعة أنواع وهى : أسيرُ الرَاية أو أسيرُ المعركة ، والأَجِيرُ بشرطِ الإعالة ، وابنُ الأُمّة فى بيت السيد ، والمملوكُ المُشْتَرَى أو الموهوب ، والعبدُ الموروث ، والمُسْتَرْقُ عقوبةً ، والعاجزُ عن دفع الغرامة .

« ولا يملك الولد والزوجة والرقيق شيئاً ، فكلُّ ما يُحْزِرُونهُ ثُلُكٌ لِمُعِيْلِهِمْ » .  
« وعلى ما تراه من تكاليف شريعة منو السكينة الوثيقة لا تخلو هذه الشريعة من راحة ، فمن كان عاجزاً عن العمل كانت مُنْفِيهِ من الضريبة ، فقد جاء فيها :  
« لا يجوز للملك أن يَفْرِضَ ضريبةً على الأعمى والأبْلَه والأَكْسَح وابن السبعين ومن يساعد المُتَعَبِّثِينَ إلى الكتاب المقدس » .



٥٤ - كهجورا . عمود في ممبد  
شيوا الفانم في ممقل كالنجر بشمال  
كهجورا الصرقي (بلغ ارتفاعه ستة  
أمتار و ٩٠ سنطيقراً)

وكان الصانع الفقير لا يُطالَب بغير عمل يوم  
في الشهر ضريبةً .

والمرء يتخار حين يقرأ بين نصوص تلك  
الشريعة ، الواضحة العادلة إجمالاً ، إباحة الربا  
الفاحش الذي كان يقرَّجَح ، بحسب الأحوال وفي  
الغالب ، بين ٢٠ و ٢٤ و ٤٠٠ و ٥٠٠ في المئة ،  
جاء في شريعة منو :

« لِيَقْبِضَ الدائنُ الراهنُ في كل شهرٍ واحداً  
من ثمانين في المئة أو واحداً ورُبُعاً زيادةً على  
رأس ماله .

« وَلِيَقْبِضَ ، عند عدم الرهن ، اثنين في المئة  
في كل شهر ، ذا كراً أهل الخير والصلاح ، فهو إذا  
ما قبض اثنين في المئة لا يُعدَّ مقترفاً لذنب الربح  
غير الشرعي .

« وَلِيَقْبِضَ ، فقط ، في كل شهر اثنين  
في المئة من البرهمي وثلاثة في المئة من الأكَشَتري  
وأربعة في المئة من الويشي وخمسة في المئة من  
الشودري ، وذلك بحسب الترتيب الطائفي .

« ولا يجوز أن يزيد الربا عن رأس المال إذا  
قُبِضَ مع رأس المال من غير مشاهرة ولا مياومة ،

وَلْيُصْبِحَ رَأْسُ الْمَالِ مَعَ الرِّبَا خَمْسَةً أَضْعَافَهُ عِنْدَ إِدَانَةِ الْحُبُوبِ وَالْفَوَاكِهِ وَالصُّوفِ  
وَالسَّيِّبِ<sup>(١)</sup> وَالذُّوَابِ لِتُرَدَّ بِأَعْيَانٍ مِنْ ذَاتِ الْقِيَمَةِ » .

ولا نستطيع أن نتمثل جيداً الطبقة الصَّناعية والتجارية في الهند في العصر  
البرهمي إلاَّ بنقل بعض عبارات وردت في شريعة مَنُو عن واجباتها ، جاء في  
شريعة منو :

« يجب على الويشي<sup>٢</sup> ، بعد أن يتقلد الحبل المقدس ويتزوج بامرأة من طبقته ،  
أن يقوم ، كادحاً ، بِمِهْنَتِهِ وَبَتَرِييَةِ الْمَوَاشِي .

« فالحقُّ أن ربَّ الحُلُوفَاتِ قَوَّضَ أَمْرَ الْحَيَوَانَاتِ النَّافِعَةِ ، بعد خلقها ، إلى  
الويشي أن يقوم بتربيتها ، كما وضع الجنس البشري تحت وصاية البراهمة والأكشترية .  
ولا يَدَّبِعُ ويشي<sup>٣</sup> هواه فيقول : « عُدْتُ رَاغِباً عَنْ تَرْبِيَةِ الْمَوَاشِي » ، فإذا  
تشاغل عنها وَجِبَ ألاَّ يقوم آخرُ مقامه فيها .

« وَلْيَسْكُنْ عَلَى عِلْمٍ بِتَقْلِبِ أَمَانِ الْجَوَاهِرِ وَاللَّائِي وَالزَّرْجَانِ وَالْحَدِيدِ وَالنَّسُجِ  
وَالْعُطُورِ وَالتَّوَابِلِ .

« وَلْيَعْرِفْ كَيْفَ تُبَذَّرُ الْحُبُوبُ ، وَلْيُفَرَّقْ بَيْنَ الْأَرْضِي الْجَمِيدَةِ وَالْأَرْضِي  
الرَّيْثَةِ ، وَلْيُطْلَعِ جَيْداً عَلَى نِظَامِ الْمَسْكَايِلِ وَالْعِيَارَاتِ .

« وَلْيَقِفْ عَلَى خَيْثِ السَّلْعِ وَطَيِّبِهَا وَمَحَاسِنِ الْبُلْدَانِ وَمَسَاوِئِهَا وَمَا يُخْتَمَلُ مِنْ  
الرَّيْحِ وَالْخُسْرَانِ عِنْدَ الْبَيْعِ وَمَا تَزِيدُ بِهِ الْمَوَاشِي مِنَ الْوَسَائِلِ .

« وَأَيْلَهُمْ بِأَجُورِ الْأَجْرَاءِ وَبَلْغَاتِ النَّاسِ وَبَطُرُقِ حِفْظِ السَّلْعِ وَبِكُلِّ مَا يَمُتُّ  
إِلَى الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ بِصَلَةِ .

(١) السَّيِّبُ : مِنَ الْفَرَسِ شَعْرُ الذَّنَبِ وَالنَّاصِيَةِ وَالْعُرْفِ .



« وَلْيَبْذُلْ جُودَهُ فِي إِتْمَانِ نُرْوَتِهِ حَلَالًا ، وَلْيُؤَيِّنْ بِإِطْعَامِ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْخَلَائِقِ الْحَيَّةِ » .

## ٨ - أحوال النساء

لم تكن المرأة في العصر البرهمي ، كما كانت في العصر الويدي ، العروس المذلَّة التي تُتَّالُ الحُظُوةُ لديها برفيع الأعمال ، ولا رَبَّةَ المنزل الفخورة المحترمة التي تقاسم زوجها شرف تقرب القربان ، فقد اتَّسع شأنها فيه وبدأ في شريعة منو كما يأتي :

« واجباتُ النساء هي أن يَلِدْنَ وَيُرَبِّينَ أولادهن ويُدَبِّرْنَ أمورَ منازلهن » .

وتكون المرأة ، بحسب شريعة منو ، تحت وصاية دائمة ونقضى حياتها مطيعة . فيجب على الحفيدات والفتيات والعجائز ألا يَصْنَعْنَ شيئاً كما يشأن ولو في بيوتهن .

« وتكون المرأة تحت رعاية أبيها في صباها وتحت رعاية زوجها في قُتُوسها وتحت رعاية أبنائها في شَبَبِها ، فلا ينبغي لها أن تسيركا تريد » .

والجتماعُ الهندوسي إذ قام على نظام الطوائف الجديد القائل بالتفريق بين الطوائف تفريقاً مطلقاً وبسدم اختلاط بعضها ببعض فإن المرأة التي نَخِفُ وتطيش فتخالف هذا النظام تَفْقِدُ حريتها ، وقد أسىء الظنُّ بقلبها ومشاعرها ، ووُجِدَ أن كلَّ قانون لا يَجُودُ دون هواها ، وأنها لا . به للراشيم السياسية في تنظيم وحى فؤادها فلم تُتَرَكَ لِحدِثها ، جاء في شريعة منو :

« يجب على الأزواج ، مهما بلغوا من حَوَرِ العزيمية ، أن يراقبوا سلوك نساءهم ، وأن يَعدُّوا هذا الأمر شريعةً سائدةً لجميع الطبقات .

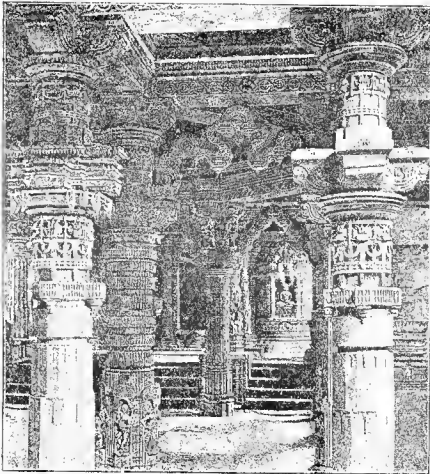
« فالحق أن الزوج يصون ذريته وتقاليده وأسرته ونفسه وحقه إذا ماصان زوجته .  
 « ويجب على المرأة الفاضلة أن تُقدّس لزوجها على الدوام كإله ، وإن كان  
 فاسد السيرة عاطلاً من الصفات الحميدة منهمكاً في ضروب العشق والغرام .  
 « والمرأة إذا لم تكن وُفِيَّةً لزوجها غَدَّتْ عُرْضَةً لِلْخِزْيِ في الدنيا ، وَبُعِثَتْ  
 بعد موتها في بطن ابن آوى أو أصيبت بعده بالجذام والسَّلِّ » .

ولا جُرْمَ يَمْدِلُ زناء الأزواج ، ففي شريعة منو :  
 « يؤدى زناء الأزواج إلى اختلاط الطبقات ، وهذا الاختلاط يؤدى إلى  
 انتهاك الواجبات وهلاك النوع البشرى وخراب السكون » .  
 والعقوبات التى تُفرض على المرأة الزانية وشريكها فى الذنب هائلة ، وتبدو  
 هذه الشدة عندما تكون الزوجة من طبقة رفيعة على الخصوص ، جاء فى شريعة منو :  
 « إذا كانت المرأة الفخورة بِأَسْرَتِها وصفاتها غير وَفِيَّةٍ لزوجها فخاته وجب على  
 الملك أن يدع السكّاب تفقرشها فى مكان عام » .

« وليتَحَكَّمْ على الزانى بها بالحرق على سرير من حديد مُحْتَمَى على أن يزيد  
 منفذو الحكم النار سعيراً بالحطب إلى أن يُحْرِقَ الداعر »  
 وَوَدَّتْ شَرِيعَةُ مَنْو ، التى قَدَّرَتْ ضعف المرأة الشديد وتقلب سجيّتها فتكلّمت  
 عنها برحمة مع الازدراء ، أن تتساقق معها فحَمَلَتْ نتائج الخطيئة ذلك الذى  
 لم يعرف أن يصونها وذلك الذى أغواها فقالت :

« إذا حدث أن اغترب الزوج فى بلد أجنبى وجب عليه ألا يَحْرِمَ زوجته  
 وسائل العيش قبل أن يغيب ، فالمرأة التى يَمَاضِيها البؤس قد تَأْتِي المنكر ولو كانت  
 صالحة .

« وَلَيَنْفَ الْمَلِكُ مِنْ يُغَوُّونَ نساء الآخرين بعد أن تُقَطَّعَ بعض أعضائهم » .  
وما فرضته شريعة منو على الزوج من الوفاء لزوجته والعناية بها ليس بأقل مما  
فرضته على الزوجة ، وهذه الشريعة قد رأت أن سعادة العرق في الحال والمستقبل  
قائمة على اتحاد الجنسين بالزواج فأَوْصَت الرجل بأن يختار زوجةً صالحة له فلا يستطيع  
أن يتركها بعدئذ إلا إذا أبغضته أو كانت عاقراً أو كانت لا تضع غير إناث .



• • • جبل آيو . داخل معبد وعلا شاه  
( القرن الحادى عشر )

« بَيِّدْ أَنْ الزَّوْجَةَ الطَّيِّبَةَ الْمُتَحَلِّيةَ بِالْأَخْلَاقِ الصَّالِحَةِ لَا تَحِلُّ زَوْجَةً أُخْرَى مَحَلَّهَا إِلَّا بِرِضَاهَا وَلَوْ كَانَتْ مَرِيضَةً ، وَلَا يَحُوزُ أَنْ يَزْدَرِيَهَا أَبَدًا » .

وَيَجِبُ عَلَى الزَّوْجِ أَنْ يَدْخُلَ السَّعَادَةَ إِلَى قَلْبِ زَوْجَتِهِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ ، فَمَا يُقَوِّضُ دَعَائِمَ الْمَنْزِلِ أَنْ تَعَامَلَ الْمَرْأَةُ بِعَنْفٍ أَوْ أَلَّا تَكُونَ مَوْضِعَ احْتِرَامٍ مِمَّنْ يَحِيطُلُونَهَا ، جَاءَ فِي شَرِيعَةِ مَنْوُ :

« رَضِيَ الْإِلَٰهَةُ بِاحْتِرَامِ النِّسَاءِ ، وَلَنْ يَكُونَ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ ثَوَابٌ إِذَا مَا احْتَقَرَتِ النِّسَاءُ .

« وَالسَّعَادَةُ كُلُّ السَّعَادَةِ فِي الْأَسْرِ الَّتِي يَتَحَبَّبُ فِيهَا الزَّوْجَانِ .

« يَجِبُ أَنْ يَحْبُوَ الزَّوْجَاتِ آبَاؤُهُنَّ وَإِخْوَتُهُنَّ وَأَزْوَاجُهُنَّ وَإِخْوَةُ أَزْوَاجُهُنَّ بِضُرُوبِ الْاحْتِرَامِ وَالْعَاطَايَا إِذَا رَغِبُوا فِي الْفَلَاحِ » .

وَيَجِبُ أَلَّا يَقْلَّ احْتِرَامُ الْأَوْلَادِ وَإِطَاعَتُهُمْ لِأُمِّهِمْ عَنْ احْتِرَامِهِمْ لِأَبِيهِمْ وَإِطَاعَتِهِمْ لَهُ إِنْ لَمْ يَزِدْ ، فَقَدْ جَاءَ فِي شَرِيعَةِ مَنْوُ :

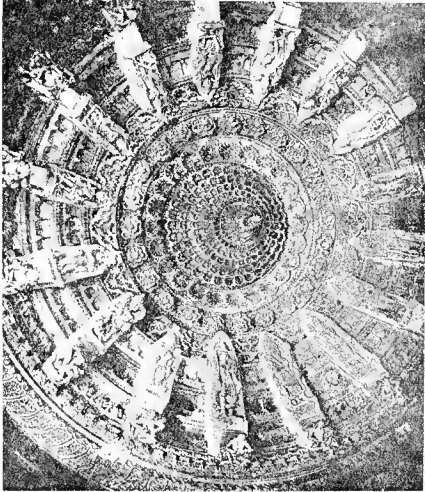
« لِيَصْنَعَ الْفَتَى مَا يَرُوقُ أَبُوهُ وَمَعْلَمُهُ وَيَرْضِيهِمْ عَلَى الدَّوَامِ فِي كُلِّ حَالٍ ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ قَامَ بِأَعْمَالِ التَّقْوَى وَنَالَ ثَوَابًا .

« وَالْمَعْلَمُ أَجْدَرُ بِالْاحْتِرَامِ مِنْ عَشْرَةِ مُرَبِّينَ ، وَالْأَبُ أَجْدَرُ بِالْاحْتِرَامِ مِنْ مِثْلِ مُعَلِّمٍ ، وَالْأُمُّ أَجْدَرُ بِالْاحْتِرَامِ مِنْ أَلْفِ أَبٍ » .

وَلَمْ يَكُنِ النِّكَاحُ تِجَارَةً ، فَلَيْسَ لَوَالِدِ الْفَتَا أَنْ يُعْطَى مَالًا وَلَا أَنْ يُعْطَى حُطْمًا ، وَإِنَّمَا كَانَ يُفَرِّضُ عَلَيْهِ أَنْ يَبِيعَ عَنْ أَخْلَاقِ الْخَطِيبِ ، قَالَ مَنْوُ :

« يَجِبُ عَلَى وَالِدِ الْبِنْتِ أَلَّا يَنْالَ مَالًا عِنْدَ مَا يَزَوِّجُهَا وَلَوْ كَانَ شَوْدَرِيًّا ، لِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ ذَلِكَ مِنْ بَيْنِهَا الْمَضْرُ .

« وأحرى بالبت الصالحة للزواج أن تقع في بيت أبيها إلى أن تحضرها الوفاة  
من أن يزوجه أبوها بزواج عاطل من الأخلاق الحسنة » .

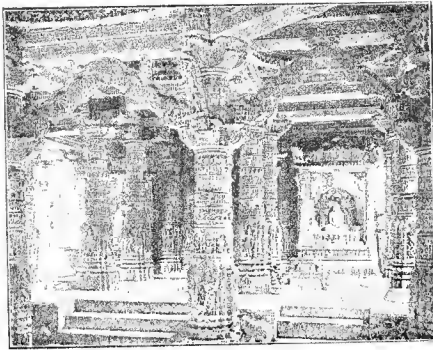


٥٦ - جبل آبو . قبة المهراب في معبد وعلا شاه  
( مصنوعة من الرخام النقوش )

والخلاصة أن شريعة منو، إذا بدت كثيرة الارتياح في فضائل النساء ومتانة

أخلاقهم ، وإذا كانت لم تُحَدَّثْ عنهم بمثل ما جاء في الرَّغْزُ ويداً من القول الشعريّ  
والسكلام العذّب ، وإذا كانت لم تَمُنَّحْنِ مقاماً كالذي كان لهنّ عند قدماء  
الآريين ، جعلت لهنّ ، مع ذلك ، مكاناً مهماً في المنزل والمجتمع ، فالأسرة التي  
تُؤَلَّفُ على حسب شريعة منو متينةٌ وتكون حقوق أفرادها وواجباتهم متبادلة ،  
جاء في تلك الشريعة :

« أمّ واجب على الزوجين أن يَفِيَّ أحدهما للآخر وفاء متبادلاً إلى آخر العمر .  
« وما على الزوجين من التحابُّ فقد أظهر لكم » .



٥٧ - جبل آبو ، معبد ورج بال تيج بال الجبني  
( القرن الثاني عشر من البلاد )

وليس في شرائع مَنُو ذكر لعادة حرق الأرملة على مَوْقِد زوجها التي لم تَزَلْ  
عن بلاد الهند إلّا في أيامنا ، وتلك العادة أَخَذَتْ تَشِيعَ في ذلك الزمن مع ذلك ،  
فقد رَوَى خبرها مؤرخو المَقدونىّ من اليونان .

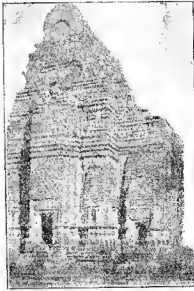
#### ٩ - معتقدات الهندوس الدينية

قبل الميلاد بثلاثة قرون أو أربعة قرون

ظهرت البُدْهِيَّة في الهند في العصر البرهمنى ، وكاد يكون لها شأن فيه ، فقد  
حَدَّث ميغاستين عن رهبانٍ بُدْهِيَّين وعن مذاهبهم الحديثة التي كانت حديث القوم  
في زمانه وعن معارضة البراهمة لها ، غير أن البُدْهِيَّة لم يستفحل أمرها فتصيح دين  
الهند الرسمي إلّا بـمـدة قليلاً ، أى في عهد آشوكا الذى ظهر قبل الميلاد بقرنين ونصف  
قرن كما نرى ذلك في فصل آت ، وأما الآن فإننا نبحث في الديانة البرهمنية قبل  
المسيح ببضعة قرون .

ظلَّ دين القوم ، من الناحية النظرية على الأقل ، كما هو منصوص عليه في  
كتب الويدا ، قد بَقِيََت هذه الأسفارُ الكتب المقدسة المعتبرة التي يُحْتَجّجُ  
بنصوصها على الدوام ، بيد أن المعتقدات تطورت تطوراً شاملاً مع بقاء الآلهة القديمة ،  
فترى من جهة ظهورَ نظريات فيما بعد الطبيعة جديدةٍ حول مقادير الإنسان  
ومصاير الكون وأسبابه ، وترى من جهةٍ أخرى تحوُّل الدستور الكهنوتىّ إلى  
دستور شديد إلى الغاية ، وبلغ أمر الطقوس وتقريب القرابين من الأهمية ما نقول  
معه إن قدرته السحرية غَدَّت تفوق قدرة الآلهة ، وإقامة الشماثر هي التي تُهمُّ قبل

كل شيء ، وإن نجد ديانة ذات شعائر جافة مُعَقَّدة كمثل ، وكان ريحاً صرصرًا قد هبَّت في العالم الويدى القديم فأتت إلى الأبد على الآلهة العجيبة التي وصفتها كتب الويدا بالقول الرائع والخيال الساطع ، فصِرَتْ لا تُبْصِر في الشرق ذلك الفجر العذب اللطيف ، بل ترى كوكب النهار فوق مركب النصر ، وصِرَتْ لا تَشْمُر بالرياح الطيبة تسوق البقرات الإلهية إلى المراعى السماوية فتدِرْ ثديها بما يَعْمُر الأرض من المطر السخي ، حقاً لقد غابت هذه الأساطير وما كانت تثيره في النفوس من الخيالات .



٥٨ - غواليار ، معبد تيلي مندر  
( أنشئ في القرن العاشر من الميلاد على ما يحتمل )  
( يبلغ ارتفاعه نحو ٣٤ متراً )

ولا ندرس في هذا المطالب بالتفصيل علم اللاهوت البرهمي القديم الزاخر بدقائق الشعائر وتقريب القرابين ، وإن كُنَّا نعود إلى ذلك ، مع تعديل ، في الفصل الذي خصصناه للبحث في ديانات الهند الحديثة ، وكل ما نفعله الآن هو أننا نُشير إلى أكثر المناحي الفلسفية انتشاراً في ذلك الحين ، وهي ما نراها مُجَمَّلة بوضوح في كتاب منو الذي لم يفعل غير تكرار ما يقوله البراهمة والأوباناشد بأسهاب .

ولم تسكن الآلهة الغامضة الأمر في الرِّغ ويدا ، فتَجَلَّت مؤخراً في شَخْصِيَّاتٍ شِيوا ووشنو ، إلا أشدَّ غُوضاً مما كانت عليه في العصر الويدى ، فليست هذه الآلهة غير



مظاهر مجردة فاترة للإله الأعلى برهما الذى يَبْثُ الحياة فى كل موجود ، وليس الإله برهما ، مع ذلك ، الربّ الأسمى الخالق لكل شئ ولكل موجود والمهيمن على المراتم الذى بَصُرَتْ به كتب الوبدا ، فهذا الإله ليس مستقلاً فضلاً عن عدم تديره للسكون ، فهو إذ كان مؤزّعاً فى جميع الخلوقات المتّرجحة بين أطبيها وأخبثها يشاطرها مصايرها وينال نصيباً من آثامها وآلامها وبُعْثها وتحولها البطىء وارتقامها العسير ، قال منو :

« تَسْتَقِرُّ الروح العليا فى أرقى الخلوقات وأسفلها .

« فن جوهر تلك الروح العليا يَخْرُج ، كالشرر ، ما لا يُحصى من أصول الحياة فتوجب هذه الأصول الصادرة حركة جميع المراتب على الدوام .

فلهذا المذهب ، القائل بتَجَلَّى الروح العليا فى جميع الخلوقات ، يحب على الإنسان أن يحترم كيان هذه الخلوقات ولو كانت من الحيوانات الضارة أو الحشرات الواهية .

« والإنسان ، حين يَعْرِفُ تَجَلَّى الروح العليا فى روحه الخاصة وفى جميع الخلوقات ، يبدو هوَ إياه تجاه جميعها فَيُنَابِئُ بأن يَفْنَى فى برهما ، أى بأحسن مصير .

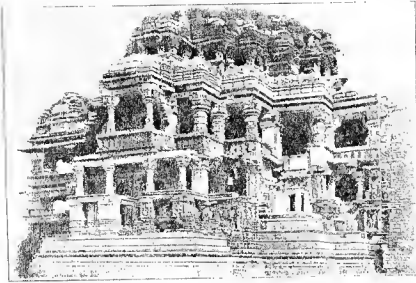
« وإذا عَجَزَ البرهمنى عن تكفير ما اقترفه من قتل حيّة أو مخلوق آخر فليَتُبْ ، فبالنوبة تُمَحَى الذنوب .

« وليَتُبْ ، أيضاً ، إذا قَتَلَ ألف حيوان صغير ذى عظام أوقَتَلَ من غير ذوات العظام ما يملأ مركباً كما يتوب عند ما يقتل شودرياً » .

وليس الروح بمنفصلة عن الله ، فالروح فى كلِّ جزء من السكائن الأعلى ، وتتألف الروح العليا من مجموع أرواح الآلهة والناس والحيوانات ، والله ، المتعدد وغير الشخصى معاً ، هو مصدر كل عمل وكل حياة وكل تبدل .

« ألا إن الروح هي مجمع الآلهة ، وإن الروح العليا هي مقرّ الكون ، وإن الروح هي مصدر أعمال ذوات الحياة » .

وليس ربُّ الكون الأعلى بالذي يتصوّره الخيال ، فهو غير الهَيُولَا في القاهرُ الذي يسرى في الكون فيهب له الحياة كأغني إله الآريين القديم ، وهو النور القوى الموجود في كل مكان ، وهو الذي يُقدّس البرهي له مرتجفاً فيشهرُ بسرّياته في عروقه ، جاء في شريعة منو :



٥٩ - غوالبار . معبد ساس بهاول الكبير ( القرن الحادى عشر ) ( يبلغ ارتفاعه الآن نحو ٢١ متراً ، وقد كان ٣٠ متراً قبل أن يهدم أعلاه على الأرجح )

« يجب على الإنسان أن يعلم أن الموجود الأعظم هو ربّ الكون الأعلى ، وأنه أدق من الذرة وأنه أسطع من الإبريز<sup>(١)</sup> وأنه لا تدركه الأبصار إلا في المنام على وجه مَجَرَّد .

(١) الإبريز : من الذهب خالصه .

« فبعض الناس يَعْبُدُهُ في عنصر النار ، وبعضهم يَعْبُدُهُ في شخص سيد الخلقوت مَنُو ، وبعضهم يَعْبُدُهُ في إندرا ، وبعضهم يعبدُهُ في عنصر الهواء الخالص ، وبعضهم يعبدُهُ في برهما الأزل .

« ذلك هو الله الذي يُحِيط بجميع الخلقوت بحسب مؤلف من العناصر الخمسة فتنمو هذه الخلقوت بعد أن تولد ثم تنحلّ فيتمّ ذلك كلّهُ بمركبة تشابه دوران العجلة » .

والخلاصة أن ذلك هو مذهب وَخْدَةِ الوجود ، ولكن ذلك ليس بمذهب وَخْدَةِ الوجود الهَيُولَانِيَّةِ الساطعة الظاهرة التي عَرَفَهَا الآريون ، وليس بقوى الطبيعة التي أضحت آلهة مع محافظتها على ثيابها المؤلفة من السُحْبِ والأشعة وعلى شَدَا عطورها وعلى هَدِيرها ودَوْبِهَا ، بل هو مذهب وَخْدَةِ الوجود الأكثرُ تجرداً وقولاً بالقضاء والقدر ، هو مذهب وَخْدَةِ الوجود الذي يَحْجُبُ الله فلا يُبْذِرُهُ رافعُ السكّام ولا ساطعُ الألوان ، هو مذهب وَخْدَةِ الوجود الذي يجعل الله أسيراً في العناصر ، هو مذهب وَخْدَةِ الوجود الذي يقيم عِزَّةَ الله ومَجْدَهُ على تجريده من الصورة والظاهر والإرادة والحياة ، فيشابههُ من يَتَطَهَّرُونَ من الذنب ، أو يَفْتَنُونَ فيه . وعلى الإنسان ، قبل أن يَصِلَ إلى ذلك النعيم الدائم ، أن يحتمل أذى الحياة زمناً لا يتصور طولهُ المرهوب سوى خيال الهندوسيّ الخصب ، فدى حياة الإنسان ليس بالشئ الذي يُذَكَّرُ إذا ما قيس بذلك الزمن الطويل ، فالولد الذي يُولَدُ لا بدّ من أن يكون قد جاوز عِدَّةَ أطوار قبيل أن يولد ، والأشيبُ الذي يموت لا بدّ من أن يولد ويعود أشيبَ عِدَّةٍ مرات في عدة أجسام .

وتُجَدُّ في شريعة مَنُو تفصيلاً واضحاً لمذهب تناسخ الأرواح الذي هو أساس

جميع مذاهب الهند الدينية ومنها البهيمية ، وتجد فيه ، أيضاً ، تفصيلاً لمذهب السكّرما الذى يرى أن عمل الإنسان فى هذه الحياة الدنيا يُعَيِّن الحال التى يُولَدُ بها مرة أخرى فَعَمَّ أمره ، كذلك ، جميع المذاهب الدينية التى انتشرت فى الهند فيما بعد .

والحياة التى تَعَقُبُ الحياة الأولى تكون طيبة أو خبيثة بحسب حُسْنِ الحياة الأولى أو خُبْئِهَا ، فالروح تنمّص إما برهياً أو قديساً أو إلهاً ، وإما جَنْدَلاً<sup>(١)</sup> أو بقرة أو خنزيراً أو حية ، جاء فى شريعة مَنْو :

« إذا عَمِلَتِ الروحُ الصالحاتِ على الدوامِ وقليلًا من السيئات فتَمَمَّتْ جسمًا من العناصر الخمسة تمتعت بأطيب النعم .

« وإذا عَمِلَتِ الروحُ السيئات على الدوامِ وقليلًا من الصالحات جُرِدَتْ بعد الموت من جسمها ونزَعَتْ من العناصر الخمسة وتَمَمَّتْ جسمًا آخر مؤلفًا من أجزاء دقيقة من العناصر وعَذَّبَهَا عذابًا شديدًا ، والروح ، بعد أن نقاَسَ هذا العذاب الأليم كما يقضى به قاضى النار وتَطَهَّرَ ، تَمَمَّصَ جسمًا من العناصر الخمسة ، أى تكلمى ببلن .

« فعلى الإنسان أن يَعْلَمَ بنفسه أن نوع التناسخ يكون على حسب ما يعمل من الصالحات والسيئات فيُوجَّهُ نفسه إلى الفضيلة على الدوام .

« وَيَلْبَثُ أكابر المجرمين فى جهنم أحقابًا ، ثم يُقْفَى عليهم بأن يحاوزوا المراحل الآتية تكفيراً عن خطيئاتهم :

« فَيَتَمَمَّصُ قاتل البرهمن ، بحسب أهمية جرمه ، جسمَ كلب وخنزير وحمار وجل وثور وتيس وكبش ووحش وعضفور وجندلا .

(١) الجندلا هو ابن الرجل المريف والمرأة الشودرية ، ويحىء دون الشودرا أنفسهم مرتبة .

« والبرهمن الذي يَسْرِقُ ذهباً يَتَقَمَّصُ ألف مرة أجسام العناكب <sup>(١)</sup> والأفاعى والحرابي <sup>(٢)</sup> وحيوانات الغُدران والغفاريت الأشرار » .

وفي شريعة منو يتوقف مصير الإنسان على جميع أعماله في الحياة الدنيا فيدخل في وزنها المائل كثير هذه الأعمال وصغيرها ، لا كما في النصرانية التي تقول بمحاسبة الإنسان في اليوم الآخر على العمل الفلاني أو العمل الفلاني أو الوضع الأخير فقط مع النظر إلى التوبة في الساعة الأخيرة ، جاء في شريعة منو :

« الإنسان مجزئ بأى عمل يأتيه بقلبه أو لسانه أو جسمه إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وعلى ما يصنعه الإنسان يتوقف حاله فيكون طيباً أو متوسطاً أو سيئاً . »

وتلك العقيدة هي مصدر خضوع الهندوسى لنظام مرهوب لا يترك له خيار القيام بأى عمل مهما صغر ولا قضاء أى احتياج جسمانى مهما صَوَّل .

فأقل إهمال منه يذهب بشمرته التي تعهد أمرها بمسقة ، فلا يأمل تلافى ما فرط منه من اللَمَم <sup>(٣)</sup> إلا بإقامة شعائر التطهير ، وما قيمة أحكام القضاة في مخالفة الإنسان للشريعة ؟ وما قيمة العَطَل من وجود شاهد على تعدى أمرها ؟ فشعور المذنب الورع يُصَوِّر له نتائج ما صنع ، فيترضى طائعاً بما تفرَّضه الشريعة عليه من العقوبات الشديدة .

(١) العناكب : جمع العنكبوت - (٢) الحرابي : جمع الحرباء ، وهى ضرب من الزحافات تتلون في الشمس ألواناً مختلفة ويضرب بها المثل في التغلب - (٣) اللَمَم : صغار الذنوب .

ومن يطالع ما في شرائع مَنْو من الأوامر الشديدة يَتَيَّنُ ثَقُلَ النَّيْرِ الذى كان مفروضاً على الهندوس وأثره في أدقِّ شؤون حياتهم في العصر الذى نحاولُ بعث تاريخه ، ويَتَمَثَّلُ الفرق بينه وبين أدب آريِّ العصر الويدى السَّمَحِ اليسير ، فالحق أن الزمن تَغَيَّرَ وأَصْحَى شعب الأجيال القديمة الحرُّ السعيد قطعاً من الرعايا الخَوْف الذين يتجلى فيهم الذُّعْر والألم إذا ما ساروا على الدوام .

ذلك أسرُ المجتمع البرهمن القديم ، ونَجِدُ مبادئه الأساسية في المجتمع البرهمن الجديد ، حتى في الهند الحديثة ، يَبْدَأُ أَنَّكَ ترى شِدَّةَ تلك المبادئ قد خَفَّتْ بفعل البُدْهيَّةِ السَّمْعَاءِ .

وبلغت البرهمنية القديمة من شِدَّةِ التَّوَكُّرِ حول النفوس ما كانت تَتَقَصَّفُ به تحت الضغط فتنتظر المنتقذ ، وكانت وطأة النَّيْرِ تَثْقُلُ على الناس في أدقِّ أعمالهم فتسحق قلوبهم فلا يَرَوْنَ بخيالهم سوى رَجْسِ الحياة وقُبْحِها ، فيبدو لهم كلُّ شَيْءٍ سيئاً إلَّا الفناء ، وما وَصَفَ « دانتى » به العذاب في رواية « جهنم » هو وحده يَتَمَثَّلُ لنا رأى قدماء البراهمة في ضروب العذاب الذى يبدأ في الدنيا فيَتَدَرَّجُ شدةً في أحقاب لا يتصورها خيال إلى أن يَفْدُوَ الإنسان جديراً بالفناء في الكَوْنِ ، وإن شئت فقلْ في العدم ، ومن طبيعة الأمور أن يَفْتَبِقَ فجر الأمل في تلك الأُممِ الْمُتَمَلِّقَةِ من خلال الضغط المُسْتَدَّ عليها ، ومثل هذا ما حدث بعد زمن قليل في العالم الرومانى حين ظهر المسيح وإن اختلفت الأسباب .

ظهر في الهند ، أيضاً ، المنتقذ الذى جاء بما كانت النفوس الظَّالِمَةُ تنتظره من

القول العذب ، فكان لهذا القول صدى بعيد المدى في أرجاء آسية ،  
فوجدت به ملايين البشر ، الذين حنا كواهلهم نير الطوائف وأنخضتهم قيود  
الدين الثقيلة وأولاهتهم أنواع العذاب الأبدى المنتظر الذى لا مفر منه ، ربحاً طيبة  
مملوءة حناناً ورحمة وإحساناً .

كان بذهة شاكيه موفى ذلك المنقذ ، وكانت البذهية تلك البشرى  
الطيبة .

---

## الفصل الثالث

### خصّارة العصر البدهيّ

(١) الوثائق التي يستعان بها في تمثيل المجتمع الهندوسي حول القرن الرابع أو القرن الخامس قبل الميلاد — دام العصر البدهيّ في الهند نحو ألف سنة — فلة الوثائق التاريخية وكثرة المباني الحجرية في العصر البدهيّ — مخطوطات نيال — رحلات حجيج من الصين — (٢) الفضة البدهية — تحول العالم البرهمي القديم في أوائل العصر البدهيّ — حياة بدعة كما جاءت في لاباوشتار — ولادة بدعة — بأسه — نأملانه في أسباب الألم — نظرياته في هدف الحياة ونوسها — (٣) البداية البدهية — الأدب الذي نجم عن البدهية — لا تمس البدهية الآلهة العديّة — مذهب السكرما — الأسباب الأدبيّة — والمادبة التي انتشرت بها البدهية — تأثير البدهية الواسع في آسية — عاذا تختلف البدهية عن البرهمية — (٤) البدهية كما جاءت في المباني — رأي علماء أوربة في إلحاد البدهية — فساد هذا الرأي — البدهية أكثر الأديان إشراكاً — مطابقة ما جاء في الأفاصيس لما في المباني — هافى البدهية من التأمّلات اللاهوتية يرى في جميع ديانات الهند — نشوء النظريات الفلسفية حول البدهية نشوءاً موازياً لها مستقلاً عنها — مصدر ما في أوربة من الأغاليط حول البدهية — يجب عد البدهية متطورة عن البرهمية — (٥) توارى البدهية عن الهند — تؤدي دراسة مباني نيال وسائر بلاد الهند إلى تفسير ذلك الغياب — البدهية في نيال — التالوث البدهيّ — امتزاج البرهمية والبدهية في نيال — (٦) المذاهب الفلسفية في البدهية — بطلان الأشياء — مختارات من كتاب بدهي حديث — (٧) المجتمع البدهيّ — روح الاتحاد والإحسان والرحمة — رحلات الحاجين الصنفين فاهيان وهويون سائق في الهند — ما انتهى إلينا منهما عن المجتمع البدهيّ — الخلاصة .



## ١ — الوثائق التي يُستعان بها في تَعْمُلُ المجتمع الهندوسى

حول القرن الرابع أو القرن الخامس قبل الميلاد

دام العصر البدهى من القرن الثالث قبل ظهور المسيح إلى القرن السابع بعد ظهوره، فينطوى هذا العصر على مدة ألف سنة تقريباً ، ويتطور الدين فى السنوات الألف هذه ، وتُغطّى الهند فى أثنائها بالمباني العجيبة ، ويُؤدّى ما سمح الدهر ببقائه من أطلال هذه المباني وما اكتُشف حديثاً من الكتابات الدينية إلى الوقوف على نشوء الحضارة الهندوسية فى ذلك العصر، غير أن حوادث ذلك العصر التاريخية ظَلَّتْ دفينَةً تحت طبقة من الظلام الدامس .

والعالم الذى كان يُؤدّ ، منذ نصف قرن ، أن يكتب فصلاً بعنوان فصلنا هذا لم يجد من المعارف ما يملأ به سطرًا واحدًا ، وكادت أوربة تكون وقتئذ جاهلة كلُّ شىء عن شأن البُدْهِيَّة وحقيقة أمرها مع أنها الشريعة العليا لنصف مليار من البشر .

وليسَت كثيرةً الوثائقُ التى تؤدى إلى تَبَشُّر بضعة أسطر عن تاريخ تلك السنوات الألف من تحت أعفار القرون ، ومن هذه الوثائق نذكر ، فى الصفِّ الأول، المباني الفخمة التى نعلم منها مبتكرات الفنون وعظمة الملوك ، ومن أقدم هذه الوثائق وأكثرها قيمة نذكر ، كمصادرٍ معارفٍ ، الأعمدة التى ملأ الملك آشوكا ولاياته الواسعة بها فنقش عليها قبل الميلاد بثلاثة قرون أحكام شريعة جديدة لدى الهندوس .

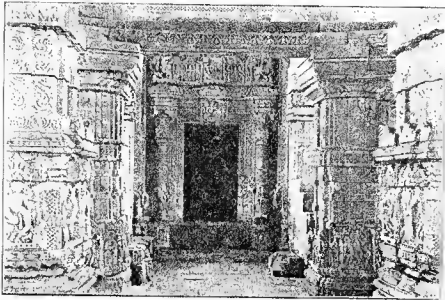
ومن الوثائق التي يستعان بها في ذلك نذكر ، أيضاً ، مجموعة مخطوطات نيپال الكثيرة الخاصة بالديانة البُدْهِيَّة تقريباً ، وأُعدُّ « زهرة الشرع القويم » و « كَلِيَّتَا وَشْتَار » أهمّ ما تُقَلُّ إلى اللغات الأوربية منها ، ونُضِيف إليهما « توارِيخ ملوك مَعْدَهَا » التي هي ، بالحقيقة ، أفاصيص خرافية لا تَمُتُّ إلى التاريخ الصحيح بصلة ، كما نُضِيف إليهما رِحْلَةَ الْحَاجِ الصِّينِيِّ فَاهِيَانِ الَّذِي زَارَ الْهِنْدَ فِي الْقَرْفِ الْخَامَسِ وَرِحْلَةَ الْحَاجِ الصِّينِيِّ هِيَوِيْنِ سَانْغِ الَّذِي زَارَهَا فِي الْقَرْفِ السَّابِعِ مِنَ الْمِيلَادِ .

## ٢ — القصة البُدْهِيَّة

من يُنْعَمُ النَّظَرُ فِي الْوُثَائِقِ الْأُولَى الْمَذْكُورَةِ آتَفًا ، أَى فِي كِتَابَاتِ أَشُوكَا الَّتِي نَقِشَتْ قَبْلَ الْمِيلَادِ بِقَرْنَيْنِ وَنِصْفِ قَرْنٍ يَعْلَمُ وَجُودَ تَحْوِيلٍ عَمِيقٍ فِي الْعَالَمِ الْبَرَهْمِيِّ الْقَدِيمِ ، وَبَيَانَ الْأَمْرِ : أَنَّ مِنْ مِطَالَعَةِ شَرَائِعِ مَنُو يُنْبَتُّ لَنَا اسْتِخْدَاءُ أَجْيَالٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الْبَشَرِ لِغَيْرِ دِينِيٍّ دَقِيقٍ شَدِيدٍ ، وَمِنْ مِطَالَعَتِهَا يَبْدُو لَنَا مَقْدَارُ الضِّيقِ الَّذِي كَانَ مُسْتَحْوِذًا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْأَدَمِيِّينَ الَّذِينَ كَانَ أَقْلُهُ ذَنْبَ قَلْبِيٍّ أَوْ حَسِيٍّ يَأْتِيهِ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يُوْدِي إِلَى أَفْطَعِ تَكْفِيرٍ ، وَالَّذِينَ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ اشْتِرَاكٌ فِي احْتِمَالِ الْبَأْسَاءِ فَكَانَ بَعْضُهُمْ يَنْظُرُ إِلَى بَعْضٍ مِنْ فَوْقِ الْحَوَاجِزِ الطَّائِفِيَّةِ ، فَإِذَا تَنَاوَلَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ ، بِحَسَبِ الْأَحْوَالِ ، كَأَسَ مَاءٍ مِنْ آخَرٍ أَوْ قَالَ لَهُ قَوْلًا كَيْفًا مَزْجُوجًا بِأَطْيَبِ التَّمْنِيَّاتِ عُدَّ مُقْتَرَفًا جَرْمًا لَا يَمَحُحِي إِلَّا بِالتَّوْبَةِ وَالتَّكْفِيرِ الطَّوِيلِ ، فَبَيْنَمَا كَانَ الْقَوْمُ عَلَى ذَلِكَ أَتَتْهُمْ رِيحٌ طَيِّبَةٌ فِيهَا حَنَانٌ وَإِحْسَانٌ فَسَقَطَتِ الْقِيُودُ وَتَفَتَّحَتِ الْقُلُوبُ وَصَارَ وَجْهُ الْأَرْضِ يَتَبَدَّلُ ،

فقد صاح مصلح كبيرٌ مُجَلِّجٌ<sup>(١)</sup> فكان شرعٌ عطفٍ وكان شرعٌ محبةٌ شاملٌ  
لجميع الخلق مؤلفٌ لما بين الطوائف .

لم نعرف حياة المصلح الشهير الذي يُقَدَّس اسمه وذكراه خمسمئة مليون  
من البشر إلا من الشعر الأساطيري ، فمن خلال هذه الأساطير ، إذن ، نستطيع  
أن نستنبط تلك الحياة ، ونُعَدُّ « لَيْتِنَا وَشِتَار » التي وُضِعَتْ في نيبال في أوائل  
التاريخ الميلادي ، على ما يحتمل ، أقدم هذه الأساطير ، فإليها نستند في رسم حياة  
بُدْهَة .



٦٠ - غوالبار ، داخل معبد ساس هو الكبير

وهاجم النقاد المعاصرون تاريخ بُدْهَة الأساطيري بشدة ، فلم يروا أن

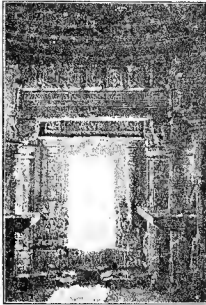
(١) المججلج : البعيد الصوت .

يَرْمُومُوا دَوْرَ الْأَسْطُورَةِ الْبُدْهِيَّةِ الْإِفْتِرَاضِيِّ وَلَا أَنْ يُشَبِّتُوا أَنْ شَاكِيهِ مَوْنِي انْتَفَع  
بِالْتَّقَالِيدِ الْقَدِيمَةِ الَّتِي أَخَذَتْ مِنْ أَسْطُورَةٍ وَشِنُوْ وَأَسْطُورَةٍ كَرَشْنَا ، فَالْحَقُّ أَنْ مُعْظَم  
تَارِيخِ بُدْهَةٍ هُوَ ، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ مَسِيو سِينَار ، مُقْتَبَسٌ مِنَ الْأَسَاطِيرِ الْقَدِيمَةِ وَأَنْ مِنْ  
الْمُمْكِنِ عَدَّ دِيَانَتَهُ خِلَاصَةً عَقَائِدَ وَطَقُوسٍ كَانَتْ مَوْجُودَةً قَبْلَهُ .

وَلَيْسَ مِنَ الْمُهْمِّ أَنْ نَعْرِفَ حَيَاةَ بُدْهَةٍ الْحَقِيقِيَّةِ ، فَإِذَا اسْتَنْتَبَتْ مُحَمَّدًا لَمْ تَجِدْنَا  
مُطْلَعِينَ عَلَى حَيَاةِ مُؤَسِّسِ دِيَانَةِ إِطْلَاعًا مُعْجِيحًا عَلَى مَا يَحْتَمِلُ ، فَلَمْ تُؤَلَّفْ سِيَرَتُهُمْ ،  
عَلَى الْعُمُومِ ، إِلَّا بَعْدَ وَفَاتِهِمْ بَزْمَنٍ طَوِيلٍ ، وَكُلُّ مَا نَرَى مَعْرِفَتَهُ ، مَعَ ذَلِكَ ، هُوَ أَنْ  
مَلَائِينَ كَثِيرَةٍ مِنَ الْبَشَرِ يُقَدِّسُونَ بُدْهَةً مِنْذُ أَكْثَرِ مِنْ أَلْفِي سَنَةٍ ، سِوَاكَ أَلَّا كَانَ  
رَجُلًا حَقِيقِيًّا أَمْ وَهْمِيًّا .

لَمْ تَظْهَرِ دِيَانَةُ بُدْهَةٍ عَلَى مَسْرَحِ التَّارِيخِ إِلَّا فِي الْقَرْنِ الثَّالِثِ قَبْلَ الْمِيلَادِ ،  
مَعَ أَنَّ بُدْهَةً وُلِدَ قَبْلَ ظَهْوَرِ الْمَسِيحِ بِخَمْسَةِ قُرُونٍ فِي كَيْبِلَا وَسْتُوْ الْوَاقِعَةِ فِي  
جَنُوبِ نِيْپَالِ ، وَتَجِدُ أَوَّجَهُ شَبْهًا شَامِلَةً لِلنَّظَرِ بَيْنَ حَوَادِثِ حَيَاتِهِ الْخُرَافِيَّةِ  
وَبَعْضِ أَقْصِيصِ الْأَنْجِيلِ ، قَبْدَهَةٍ ، كَعِيسَى ، وَلِدَ مِنْ أُمِّ عَذْرَاءَ ، وَأُخْبِرَ بِوِلَادَتِهِ  
إِخْبَارًا مُعْجَزًا ، وَبُدْهَةٍ الَّذِي سُمِّيَ ، حَيْنَ وُلِدَ ، بِغُوتَمَا فَلَقَّبَ بِشَاكِيهِ مَوْنِي كَانَ  
يَنْتَسِبُ إِلَى أُسْرَةِ مَالِكَةِ كَمَا انْتَسَبَ عِيسَى إِلَى آلِ دَاوُدَ ، وَتَجِدُ ، مَعَ ذَلِكَ ، اخْتِلَافًا  
فِي حَلْفَوَلَةِ ذَيْنِكَ الْمَصْلَحِينَ وَشَبَابِهِمَا ، فَمَعَ أَنَّ غُوتَمَا رُبِّيَ وَارِثًا لِعَرْشِ كَانَ ابْنِ مَرْيَمَ  
بِشَاطَرِ يَوْسُفَ النَّجَّارِ عَمَلَهُ ، فَإِذَا عَدَدْتُ هَذَا الْاِخْتِلَافَ رَأَيْتُ تَمَازُجًا عَجِيبًا مِنْ كُلِّ  
وَجْهِ بَيْنَ صِيَامِ عِيسَى فِي الْبَرِّيَّةِ حَيْثُ حَاوَلَ الشَّيْطَانُ أَنْ يُغْوِيَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَصِيَامِ  
شَاكِيهِ مَوْنِي فِي الْآجَامِ حَيْثُ حَاوَلَ الشَّيْطَانُ أَنْ يُغْوِيَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ أَيْضًا ، وَيُذَكِّرُنَا

ما حدث لهذا الحكيم الهندوسى مع المرأة التى طلب منها أن تَسْقِيه بما حدث لعيسى مع السامرية وما قاله لها .



٦١ - غوالبار. معبد ساس هو الصغير (القرن الحادى عشر من الميلاد) ( أخذت هذه الصورة من الهراج )

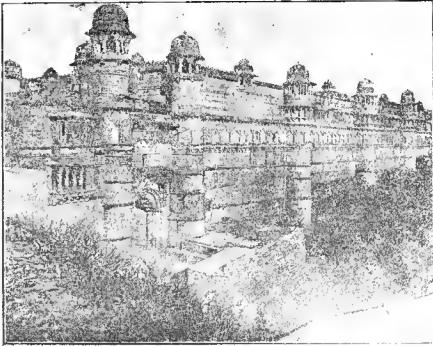
وتزيد أوجه الشبه تلك أهمية عند الوقوف على تشابه تَيْنِكَ الدِّيَاتَيْنِ موضوعاً فضلاً عن الشكل ، فكلماتها أمرنا بالإحسان والمساواة والزهد ، وكلماتها ناطقنا الخطيئة بالنيّات كما تُناط بالأعمال ، وكلماتها ابتدعتا الرّهْبَانِيَّةَ ، وكلماتها اعتنقهما ملايين من البشر بروح واحدة ووسائلَ واحدة ، فصَلَحَ الغرب بالنصرانية وصَلَحَ الشرق بالبُدْهِيَّةِ ، وكلماتها عنوان أملٍ إنسانى واحد ولم تكونا سوى وجهين لحادثٍ مهمٍّ واحدٍ فى

تاريخ أدب العالم ، وليس مما نبالى به كثيراً أن تكون إحداها مدينةً للآخرى أو أن تكون كلُّ واحدة منهما قد نشأت نشوءاً ذاتياً غريباً مستقلاً عن نشوء الأخرى ، فلا ندرس هذا الأمر فى هذا الكتاب .

ذاق غُوتَمَا منذ أن كان طفلاً فى قصر أبيه كلَّ ما يمكن أن يحود به الجاه والثرء والجمال والصحة والفتُوَّة من أطايب النعم ، فلما بلغ سنَّ الرجولة تزوج بفتاة حسناء كان يَعْبُدُها فوضعت له ذكراً ، ففى ذلك الحين الذى بلغ فيه أوج السعادة انفقت له

ذات يوم ثلاثُ معاهدات متتابعات فقررت مصيره وهي : أنه ليقى شيخاً حَتَّ  
الأيام ظهره فلا يكاد يمشی من السَّقم ، وأنه ليقى رجلاً مصاباً بالطاعون النضيم  
فيمتلكوى من الألم ، وليقى ميتاً شاحباً مُشَوَّهاً فيكفنه والداه الحزوانان .

فقال غوتماً في نفسه : لِمَ الهرم ؟ لِمَ المرض ؟ لِمَ الموت ؟



٦٢ - غواليار . منظر قصرمان مندر ( القرن الخامس عشر ) ( يبلغ ارتفاعه

نحو ثلاثين متراً ويبلغ طوله نحو مئة متر )

وقال في نفسه أيضاً : إني غنيّ قويّ سعيد عزيز ، وما لدى من الثروة والقوة  
لا يمنع ، مع ذلك ، رأسى من الشَّيب ووجهى من التَّسكُّرُش وأعضائى من التَّلَوَّى  
والألم ، ولن يحول دون ذلك أحبابى الذين سيسكون فوق قبرى ، وكيف أفرح

بكنوزى وصحتى وزوجتى الفتاة الحسناء وولدى وأنا عارف بما ينتظرنى ؟ أجل ،  
عندى من السعادة أقصى ما يطمع فيه رجل ، ولكن ما هو عيش أولئك الذين هم  
عاملون ، أولئك الذين هم بانسون ، أولئك الذين هم مُسْتَضْعَفُونَ ، أولئك الذين هم  
جائعون ؟

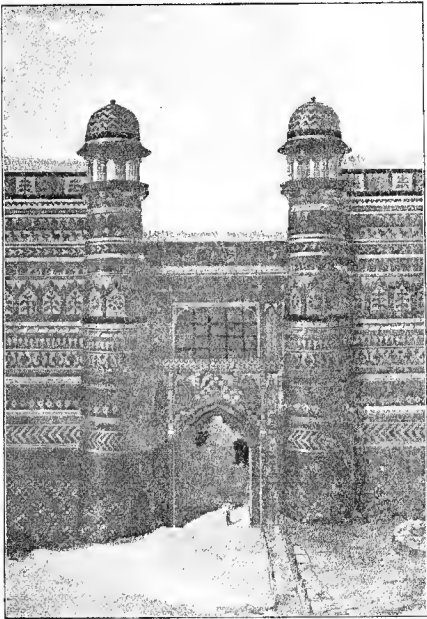
أسفرت هذه التأملات عن وصوله إلى النتيجة القائلة إن العالم ليس إلا مجموعة  
آلام فسأل :

من أين يأتى الألم ؟ ما هو سببه ؟ كيف يكافح ؟

هنالك عزم بذهة على اكتشاف مصادر الألم الملازم لسكل موجود ومداوانه ،  
فرأى أنه لا يستطيع أن يكون سعيداً ما عليم أن لسعاده نهاية وأن ما يتمتع به من  
سعادة زائلة أمر شاذ فترك زوجته العزيزة وولده الطفل وأباه الشائب وقصره وأجرأه  
وكنوزه ولبس ثوباً حقيراً وحل بيده كَشْكُولا وصار يحوب القرى ماشياً عائشاً  
من الصدقات مفكراً فى الحياة مُقَلِّباً لجميع وجوهها مداوماً على تأملاته .

يَبْدُ أنه لم يَصِلْ بتلك التأملات إلى الحل للنشود فأراد اعتزال العالم فأوغل فى  
الأدغال البعيدة مفكراً سابحاً فى بحر من الرؤى ليلَ نهار .

مَرَّت السنون ، وكانت كلما مَرَّت رأى شاكياً موفى بعهده من الغاية الغامضة  
التي يسعى إليها ، ورأى أن من العبث ما عَرَضَ روحه وبدنه له من ابتلاء قاس وأن  
من العبث ما قام به من الصيام إلى أن فَقَدَ وَغِيه وكاد يقضى نحبه وأن من العبث أن  
ينهمك فى فهم الطبيعة ومصير الأمور فهماً مجرداً ، فهو لم يَصِلْ ، بَعْدُ ، إلى درجة  
بُذْهَة ، إلى الدرجة التي يصبح فيها الخلق الذى يعملو البشر فيقدر على إنارة الناس  
وكشف الكُرُوب عنهم .



۶۳ - مدخل قصر غوالیار



وإن بُدِّهَتْ لِيُجْهَدَ نَفْسُهُ فِي الْوَصُولِ إِلَى الْعِلْمِ الْأَسْمَى إِذَا ابْتُلِيَ بِأَمِيرِ الْغَفَارِيتِ وَرُوحِ الشَّرِّ مَارَا ، فَقَدْ أَرَادَ هَذَا الْجَيْشُ أَنْ يُبْطِلَ عَمَلَهُ وَأَنْ يُدْخِلَهُ إِلَى زِمْرَةِ الْمَذْنِبِينَ .

رَأَى بُدِّهَةَ مِنَ الرُّؤْيَى ، الَّتِي وَصِفَتْ فِي « اللَّيْتَا وَشْتَار » مَا أَزْعَجَ نَفْسَهُ ، وَبَيَانَ الْأَمْرَ :

أَنْ كَتَابَتْ مِنَ الْجِنِّ الْأَشْرَارِ أَحَدَتْ ، فِي سَكُونِ الْبَرِّيَّةِ ، نَدْوَرُ حَوْلَهُ وَهِيَ قَوْلُ لَهُ هَمْسًا ، بِالنَّاصِبَةِ ، قَوْلَ الشَّكِّ الْمَأْثُورِ : « مَا فَائِدَةُ ذَلِكَ ؟ » الَّذِي يُبْعِدُ أَصْلَبَ النَّاسِ عَوْدًا مِنَ الْمَدْفِ وَيُثَاقِيهِ فِي هُوَّةٍ مِنَ الْيَأْسِ ، وَبَيْنَمَا كَانَ يَهْزِمُ بِرَصِينِ السَّكَّامِ جَيْشَ الْغَفَارِيتِ الْمُؤَلَّفِ مِنْ غِيلَانَ ذَوَى أَجْسَامٍ بَارِيَةٍ دُكِّنَ سُودٌ وَعَمِيونَ مُسَوِّهَةٌ غَائِرَةٌ كَالْأَبَارِثِ الْمُتَهَيِّمَةِ مَقْلُوعَةٌ أَوْ شَافِقَةٌ <sup>(١)</sup> وَغِيلَانَ <sup>(٢)</sup> مُتَوَجِّحِينَ بِكَالِيلٍ مِنْ أَصَابِعِ بَشَرِيَّةٍ وَغِيلَانَ لِأَرَأْسِهِمْ وَغِيلَانَ لَهُمْ مِثْلُ أَلْفِ رَأْسٍ ، إِذْ بَنُورٌ رَائِعٌ حَافِلٌ بِالْأَسْرَارِ يَمُومُ الْغَابَةَ الَّتِي بَدَتْ نَدِيَّةً كَمَا لَوْ بَلَّلَهَا الْقَطَرُ ، إِذْ بَامْتِحَانٍ يُبْتَلَى بِهِ ذَلِكَ الْحَكِيمُ فَيَرَى نَفْسَهُ ، وَهُوَ غَارِقٌ فِي تَأْمَلِهِ ، مُحَاطًا بِجَحْفَلٍ مِنْ بَنَاتِ الْجِنِّ أَسْرًا السَّاحِرَاتِ ، إِذْ بِصُورٍ رَائِعَةٍ تَتَمَوَّجُ بَيْنَ الْأَغْصَانِ فَيَنْدَمِجُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ عَلَى شَكْلِ زُمْرٍ شَهْوَانِيَةٍ ، إِذْ بِنَسَاءٍ مَتَطَرِّقَاتٍ أَوْ مَعْتَدِلَاتٍ لَابَسَاتٍ أَزْهَى ثِيَابٍ أَوْ عَارِيَاتٍ بَاهِرَاتٍ يَرَى بَعْضُهُنَّ مِنْ تَحْتِ أَهْدَابِهِنَّ الطَّوِيلَةِ بِسِمَامٍ أَحْدَاقَهُنَّ الْمُغْرِيَةِ وَبَرَفُ بَعْضٍ مِنْهُنَّ لِحَاطَتُهُنَّ الْحَادَّةَ فَيُخَدِّقُنَّ بِهِ لَطِيفَاتٍ مُحَاوَلَاتٍ إِغْوَاءَهُ بِعِبَارَاتِ الْحُبِّ وَأَوْضَاعِ الْعُسْقِ وَبِمَا لَمْ نَسْمَعْ بِهِ أَذْنَ مِنْ وَعُودِ اللَّذَاتِ .

(١) الشافقة : الناطرة بمؤخرها أو في إعراس - (٢) تجد صورة هزبية لهذا المظهر في أحد تصاور جبر أجناتا التي نقرأها في هذا الكتاب .

قالت بنات المغاريت الساحرات لذلك الحكيم : « تعال ، يا صاحب الوجه  
الذى يُحاكى القمر وانظر إلينا نحن ذوات الوجوه التى تشابه الزهر النَّضِر والأصواتِ  
التَّعْدِبَةِ التى تنفذ القلوب والأسنانِ البيض التى تَحْكِي الثلج والفضَّة ، أتجد لنا مثيلاً  
حتى فى مَقَرِّ الآلهة ؟ أترى مثلاً فى منازل الإنسان نحن اللاتى نرغب فىهن آلهة  
الدرجة الأولى على الدوام ؟ » .

ولكن شاكِيه مَوْنى صَبَرَ على هذا الامتحان الساحر فأجابهن ، كما جاء فى  
الأسطورة التى نلخصها بما يأتى :

« أرى البدنَ الدَّائِسَ الرَّجِسَ النَّجِسَ المملوء دوداً والسريعَ الالتهابِ والزوالِ  
والمُدْتَرِّ بالآلام ، فسأنازلُ المجد الخالد الذى تقوم عليه سعادة العالم الثابت والمتحرك  
فَيَقْدِّسه الحكماء » .

فسمع شاكِيه مَوْنى القولَ التَّعْدِبَ الآتى :

« لقد أَبْدَيْنَ سُحُور الشهوة الأربعة والستين وَأَطْنَنَ نُطْقَهُنَّ وَخَرَصَ صَوْنَهُنَّ <sup>(١)</sup>  
وخلَّاهُنَّ وَخَلَّعنَ ثيابهنَّ ثَمَلَات ضاحكات ، فهاذا أَسَانُ إِيكَ أَنْتِ الذى  
يَحْتَقِرُهُنَّ ؟ » .

غير أن شاكِيه مَوْنى قاومَ المِحْنَةَ بشجاعة فقال :

« الخطيئةُ موجودةٌ فى كُلِّ مخلوق ، ويعلمُ أمرها من خلعت عنه زِيَرُ أهوانه ،  
ولا أعرف الشهواتِ إلَّا كالسيوفِ والسهامِ والحِرَابِ والمُوسَى الدهونِ بالعسلِ  
ورأسِ الأَفْعَى والأَخْدُودِ <sup>(٢)</sup> النَّارِىِّ .

وفى الأسطورة أن شاكِيه مَوْنى « لم ينظر إلى تلك المخلوقات عاشقاً ولا ساخطاً ،

---

(١) الحرص : حافة الذهب أو الفضة أو غيرها - (٢) الأخدود : الحفرة المستطيلة .

فَلَنْ تَرَى جُفَ (١) الْجِبَالِ وَتَسَجَّرَ (٢) الْبَحَارُ وَتُسْكَوَّرَ (٣) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ أَقْرَبُ مِنْ أَنْ تَفْنِيَ النَّسَاءُ ذَلِكَ الَّذِي رَأَى بَنُورَ بَصِيرَتِهِ خَطِيطَاتِ الْعَوَالِمِ الثَّلَاثَةِ .

هنالك أرى كبيرُ العفاريث ، كما صنع الشيطان مع المسيح ، بُدْهَةً المستقبلِ ممالكَ الدنيا ومجدّها واعداً إياه بالنجاح والنصر والساطان إذا ما عدلَ عن طلب الحكمة .

قال العِفْرِيْتُ : « أَنَا رَبُّ الشَّهْوَةِ فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ ، وَأَنَا الْمُسَيِّرُ وَالْمُذِلُّ لِلْآلَةِ وَجَمْعِ الْأَرْبَابِ وَالْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ ، فَقُمُ أَيُّهَا الَّذِي يَقِيمُ بِمَلِكِي وَسَمِعْ صَوْتِي » .



فَقَالَ شَاكِيهِ مَوْنِي : « إِذَا كُنْتُ رَبُّ الشَّهْوَةِ فَلَسْتُ رَبُّ عَالَمِ الْمُرْتَبَاتِ ، انْظُرْ إِلَيَّ تَرَنِّي صَاحِبَ الشَّرِيعَةِ ، وَإِذَا كُنْتُ رَبُّ الشَّهْوَةِ فَلَا تَسْلُكُ سَبِيلَ الضَّلَالِ ، سَأُنَالِ النُّهْيَ وَأَنْفُكَ رَاغِمٌ وَأَنْتَ نَاضِرٌ » .

كفَّ جيشُ العفاريث المزهوبِ عن الكفاح مُضَاضِبًا مُتَوَارِيًا فِي الظَّلَامِ ، فَبِذَلِكَ تَمَّ النُّصْرُ لِشَاكِيهِ مَوْنِي ، فَهَرَدَ وَأَبْلُ مِنْ الزَّهْوِ جَبِينُهُ فَسَمِعَ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ يَقُولُ لَهُ :

٦٤ - جنور. برج النصر (القرن الخامس عشر)  
(ارتفاعه نحو ٣٦ مترًا)

(١) رجف الجبل برجف رجفًا : زلزل - (٢) سجر البحر : نجره - (٣) كورت الشمس : اضمحلت وذهبت .

« تمنح الآلهة تيجاناً من اللآلىء وتُعطي راياتٍ وأعلاماً وتُنطِرُ أزهاراً وتنشر من الصَّنْدَل ذَرّاً وتقول على أنغام الموسيقى : أيها البطل ! غُلِبْتَ ككتائب العدو بعد أن أحاطت بشجرتك .

« أيها البطل ! اليوم تنال ، على أحسن أربكةٍ ، النُهي الخالي من شائبة الشهوة ، واليوم تَظنَرُ بِمَلَكٍ بُدَّهَ بعد أن قهرتَ بِرِفْقٍ حزبَ الشيطان .

وأريد بالشجرة المذكورة آنفاً تلك التي كان يلجأ إليها شاكيه موني في أثناء عزله ، وكانت تلك الشجرة مغروسة في المكان الذي يُعرَف اليوم بِبُدَّهَ غَيّاً والواقع أمام المعبد الذي نشرنا صورته في هذا الكتاب ، ولا يزال القوم يُقدِّسون ذلك المكان كما يُقدِّس اليوم زيتونُ جَمْسِيَّانِي الذي سال تحته عرقُ المسيح الدامي ، أَجَلٌ ، تحولات تلك الأغصان ، التي كانت تقى بُدَّهَ حين تأمله ، إلى غُبارٍ منذ زمن طويل ، ولكن نقوى المؤمنين حَلَّتْ ، على الدوام ، محلُّ تلك الشجرة وقتما هَلَسَتْ .

جاوز ذلك الحكيم تلك المِخْنَةَ صاحباً للنُهي الأسمى فانتهى إلى حلٍّ ما كان يساوره من المعضلات الهائلة ، جاء في « لَيتِنَا وَشَتَار » :

« جَمَعَ إِذْ ذَاكَ أَفْكَارَهُ خَالِصَةً كَامِلَةً نَبْرَةً مُنْزَهَةً عَنِ الرَّجْسِ خَالِصَةً مِنَ الْفَسَادِ مَرِنَةً مَهْيَأَةً لِمَا أُعِدَّتْ لَهُ ثَابِتَةً بِحَافِظَةٍ عَلَى الْعَهْدِ مُسْتَمِدَّةٌ لِلتَّقَى الْحِكْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ .

« فرأى بالعين الإلهية الخالصة التي هي أرقى من العين البشرية بمراحل أن الخلائق ترتحل وتُبْعَثُ من طبقة طَبَّيَّةٍ أَوْ من طبقة حقيرة وفي طريق قويم أو طريق ردىء عاجزة أَوْ نَاهِضَةٌ تَجْزِيَّةٌ بِأَعْمَالِهَا .

وَتَمَثَّلَ لَهٗ مَدَى الْبُؤْسِ الْبَشْرِىِّ مِنْ جَدِيدٍ فَمَنْ لَهٗ أَنْ يَكْتَشِفَ ، فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ ، سَبَبَهُ وَالْوَسَائِلَ الَّتِي يَزُولُ بِهَا زَوَالًا تَامًا .

وهو إذْ أُنْعِمَ الْبُؤْسُ فِي سِلَاسِلِ الْعِلَلِ وَالْمَعْلُولَاتِ رَأَى أَنْ الشَّهْوَةَ أَوْ الرِّغْبَةَ هِيَ أُمُّ الشُّرُورِ وَأَنَّ الْوَهْمَ عَلَى رَأْسِهَا ، فَالشَّهْوَةُ تُسْتَحْوِذُ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْذُ وَلَادَتِهِ وَتَقْضِمُ قَلْبَهُ كَالْتَّعْبَانِ ذِي السَّبْعَةِ الرُّؤُوسِ الدَّائِمِ الْحَيَاةَ الَّتِي لَا تُرَوَّى لَهٗ غُلَّةٌ أَبَدًا ، وَكَيْفَ تُرَوَّى غُلَّةُ هَذَا التَّعْبَانِ ؟ لَيْسَتْ الْفَرَائِسُ الَّتِي تُرْمَى لَهٗ ، أَى الْمَجْدُ وَالسُّلْطَانُ وَالْعِزُّ وَتَمَلُّ الْمَشَاعِرِ وَمِلَاحُ الرُّوحِ وَالْفَتَوَّةُ وَالْجَمَالُ وَالْحُبُّ إِلَّا أَعْرَاضًا زَائِلَةً وَأَوْهَامًا خَادِعَةً ، وَالْإِنْسَانُ وَإِنْ طَمِعَ فِيهَا لَمْ تَكُنْ إِلَّا طَائِمًا بَاطِلًا ، وَإِذَا إِنْ كُلُّ شَيْءٍ فِي السَّكُونِ يَتَحَوَّلُ بِلا انْقِطَاعٍ ، وَإِذَا إِنْ كُلُّ شَيْءٍ فِي السَّكُونِ يَهْلِكُ وَيَتَجَدَّدُ ، وَإِذَا إِنْ كُلُّ شَيْءٍ فِي السَّكُونِ فِي يَوْمِنَا غَيْرُهُ بِالْأَمْسِ فَهَلْ تَجِدُ غَيْرَ الْأَوْهَامِ الَّتِي هِيَ وَلِيدَةُ الرِّغْبَةِ وَهَدَفُهَا ؟ أَلَا نُحَسِّنُ صُنْعًا إِذَا مَا قَتَلْنَا الرِّغْبَةَ فِي أَنْفُسِنَا وَبَدَّدْنَا بِذَلِكَ الْأَوْهَامَ فَالْآلَامَ ؟

« هَكَذَا انْفَضَّحَ لِبُدْهَةِ نُورِ الدِّينِ ، الْمَجْهُولِ سَابِقًا ، فَيَتَسَّعُ ، عَلَى الدَّوَامِ ، بِأَعْمَالِ الْفَسْكَرِ فَيَصْدُرُ عَنْهُ الرَّأْيُ وَالرُّؤْيَا وَالْعِلْمُ وَالْفَهْمُ وَالذِّكْرُ وَالْمَعْرِفَةُ .

« وَهَكَذَا عَلِمْتُ ، أَيُّهَا الْمُتَدِينُونَ ، مَا هُوَ الْأَلَمُ وَمَا هُوَ مَدَاهُ وَمَا هِيَ الْوَسَائِلُ الَّتِي يُزَالُ بِهَا ، وَعَلِمْتُ ، أَيْضًا ، مَا هُوَ بُؤْسُ الشَّهْوَةِ وَبُؤْسُ الْحَيَاةِ وَبُؤْسُ الْجُلُودِ وَبُؤْسُ الْبُؤْسِ وَكَيْفَ تَغْلِبُ هَذِهِ الْأَبُؤُسُ وَتَزُولُ فَلَا يَبْقَى لَهَا أَثَرٌ ، وَعَلِمْتُ ، أَيْضًا ، مَا هُوَ الْوَهْمُ وَمَا هُوَ مَدَاهُ وَكَيْفَ يُبَدَّدُ وَتَزُولُ فَلَا يَبْقَى لَهٗ أَثَرٌ » .

إِذَنْ ، قَامَ مَذْهَبُ شَاكِيَّهِ مَوْفَى ، الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَنْشُرَهُ بَيْنَ النَّاسِ حِينَمَا نَهَضَ مِنْ تَحْتِ شَجَرَةِ الْحِكْمَةِ وَعَادَ إِلَى إِخْوَانِهِ ، عَلَى إِبْطَالِ الرِّغْبَةِ وَالتَّجَرُّدِ مِنْ أُمُورِ

الدنيا وبمديد الوهم كأملٍ عالٍ والدخول في ملكوت نِزْوَانَا حيث يغيب الشعور والفكر .

ولو اقتصر ما جاء به شاكّيهِ موفى على البراهين الفلسفية التي عزّزتها القِصّة إليه ما خرج اسمه من تحت طبقة الظلمات حيث يرمّقد كثيرٌ من أجيال البشر ، فالبراهينُ الفلسفية لا تحرك الجوع ، والجوع يُؤثّر فيها صوت المشاعر وحدّه ،



٦٥ - باغدها . بالقرب من أوديبور ، أطلال معابد قديمة في الآجام

فمن يرد أن يفتدّ قلوب الناس فليشاطرهم آمالهم وآلامهم وليهزّ مشاعرهم ، وذلك كما أصاب أحدُ الشعراء في قوله : « مهما بلغ ما نعبّده من الشدّة وجَدْنَا فيه ما يقاسمنا آلامنا ، امرأة كان أو إلهاً » .

في ذلك ترى سرّ النفوذ البالغ الذي اتفق ليُدّهه الذي كان ابن ملك فأصبح ، كما ودّ ، سائلاً ليقاسم الجوع بوئمتها وليعلمها كيف تتخلص منه فعرف كيف يحرك

أفندتها ، وبُدَّهَة ، كعبسى ، أدرك آلام البشر وفاسمهم إياها وعلمهم قيمة المحبة والأمل ، فلم يَزَلْ سيدهم .

أجلنا حياة بُدَّهَة على حسب ما جاءت فى القصة ، وسنكلم عن ديانتها كما فيها أنباءه وتوطَّدت فيما بعد ، وكما تبدو فى الكتب التى انتهت إلينا ، لا كما جاء بها لأول مرة حينما غادر شجرة الحكمة .

### ٣ - الديانة البُدَّهية

لم تأت البُدَّهيةُ العالمَ بدين جديد فى الحقيقة ، بل جاءت بأدب جديد ، وليس فيها سوى عقيدة واحدة قائمة على تأكيد أمر الوهم والعدم .

حقاً أن البُدَّهيةَ لم تُكَبِّشْ شيئاً ولم تكافح أمراً من الناحية العلمية ، فقد أبقت على البرهمية وعلى آلهتها وطوائفها ، مع القول إن الآلهة والغاريت والبراهمة والشودرا ليست إلا صُوراً مؤقتة متحولة بلا انقطاع إلى أن تنفى فيه تعالى بعد أن تكون بُدَّهَة ، أى أن تصبح صاحبة العقل المطلق فترى بنور البصيرة سلسلة الموجودات السابقة وغاية الحياة وارتباط العلل والمعلولات ثم تدخل فى سلام رزوانا الأعلى الأبدى .

ذلك هو الهدف الذى تسير إليه النباتات والحيوانات والآلهة والناسُ وجميع مخلوقات الحية بعد ما لا يُحصى له عددٌ من التناسخات والتقمصات .

والطبيعةُ الأزلية إذ وُجدت فى كلِّ زمن وكانت جوهر كلِّ شيء عدَّت عدماً لا أساس له ، وإن شئت فقل خلاء لا حدَّ له ، والخلاء هذا قد تجلَّى ، ذات مرة ، على صورةٍ بفعل الرغبة فصار ذا إحساس وضمير وإرادة ، أى ذا حياة ، وأخذ يتطور

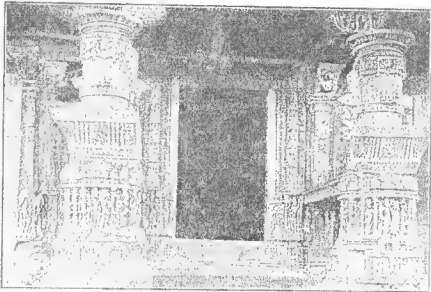
تطوراً متسلسلاً ، والسببُ الأعلى بعد أن تَجَسَّدَ على هذا الوجه غذا قادراً على القيام ببعض الأعمال الطيبة أو السيئة وأضحى عاجزاً عن الاهتمام ثانيةً إلى جوهره المادى إلا بشواب أعماله ، وفي الكَرَمِما تقديره لانتقال السبب الأعلى من الأسفل إلى الأسمى نتيجةً لجميع أعماله وجميع أقواله وجميع أفكاره في أثناء كل حياة من حيواته ، فيَصِلُ إلى درجة الإنسان ، فإلى درجة المتلدين ، فإلى درجة بُودَهي سَتَمُوا ، فإلى درجة بُدْهَة ، ثم يَهْمِطُ إلى الهُوَّة الصامتة الهادئة التي أخرجته الرغبة منها ، وترافقه الرغبة وما تَجَرُّهُ في موكبها من الآلام ما دام حياً ، فهدفُ البُدْهيِّ الصحيح ، إذن ، هو أن يُبَيِّت الرغبة في نفسه لينال الراحة العليا .

ونأتى الأعمال الصالحة التي تسير إلى تلك الغاية بجانب ذلك الجهد الدائم المؤثر ، ولكل عمل ثمرته ، ومن الأعمال النِّيَّاتُ والأقوال والأفكار .

وتَجِدُ روحَ البرهمية في مذهب الكَرَمِما القائل إن أعمال كل واحد تُعَيِّنُ الصور التي تُبْعَثُ بها فيما بعد ، بَيِّدَ أن الأدب في البُدْهيَّة أرق مما في البرهمية ، فالبُدْهيَّة تُعَيِّنُ بالحياة الباطنية وجميع الأعمال التي تُصَنِّعُ كلَّ يوم في ضمير الإنسان ، فبُدْهَة ، كما في الإنجيل ، يَعِدُّ الإنسان قاتلاً إذا أراد سوءاً بإنسان آخر ، وَيُعَدُّ مجرمَ شهوةٍ كلُّ من يبتغي ثمرةً مُحَرَّمَةً ، ولا يقول بُدْهَة إن التوبة تُكَفِّرُ الذنوب ، فهو يرى أن التوبة ، مقصودة كانت أو غير مقصودة ، لا تستطيع أن تمنع صدور المعنول عن العلة ولا العمل عن نتائجه ، وأكثُرُ ما يبدو الفرق الأسمى بين البرهمية والبُدْهيَّة هو فيما نقول به البدهية من روح المحبة القوية التي تُحْيِي هذا الأدب الجديد في تواضعها وحلمها ولطفها وتسامحها العام .



وَيُكْتَبُ نَجَاحٌ كَبِيرٌ ، لَا رَيْبَ ، لِإِصْلَاحِ دِينِي بِرِفْعِ الْبَاسِئِينَ الَّذِينَ أَثْقَلَ  
نِظَامَ الطَّوَائِفِ كَوَاهِلَهُمْ ، وَيُعَلِّمُهُمُ مِنَ الْفَاحِشَةِ النَّظَرِيَّةِ ، إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْفَاحِشَةِ  
السِّيَاسِيَّةِ ، مُسَاوِينَ بِطَبِيعَتِهِمْ وَمُسْتَقْبَلِهِمْ إِسَادَتَهُمُ الْمُتَكَبِّرِينَ ، وَيَحْوِلُ الْقَوْلَ الْعَذْبَ  
وَالْمُبَادِيَّ الرَّحِيمَةَ إِلَى مَجْتَمَعِ حَنَاهُ حُكْمٌ حَدِيدِيٌّ ، وَيُظْهِرُ أَسْبَابَ الْأَلَمِ فِي مَنَابِعِهِ ،  
وَيُعَلِّمُ وَسَائِلَ إِزَالَتِهِ شَعْبًا أَرْخَاهُ جَوْ شَدِيدٌ وَأَخَافَهُ كَابُوسٌ دِينٍ صَارِمٌ بِمَا لَا يَعْرِفُ  
الرَّحْمَةَ مِنَ الْوَسَائِلِ الْمَفَاجِئَةِ .



٦٦ - نَاقِصُهُ . فَمِنْ مَعْبَدِ بَاسِكَا ( أَوَّلِيٍّ فِي الْفَرَنِّ الْعَاصِرِ مِنَ الْمِبْلَادِ عَلَى مَا يَحْتَمِلُ )

ذَلِكَ الْإِصْلَاحُ الدِّينِيُّ هُوَ وَلِيدُ احْتِيَاجَاتٍ جَوَائِزَةٍ فَظَهَرَ لِقَضَاءِ هَذِهِ الْاِحْتِيَاجَاتِ ،  
فَلَا يَبْجَحُنَّ الْعُلَمَاءُ فِي بَرَاهِينِ أَمْنَتِهِ الدَّقِيقَةِ وَمَا اسْتَنْبَطُوهُ مِنَ النِّتَاجِ الْفَلَسَفِيِّ عَنْ أَسْبَابِ  
اِنْتِصَارِ الْبُدْهِيَّةِ وَمَا بَيْنَ أَدْبِهَا وَمَذْهَبِهَا مِنَ التَّنَاقُضِ .

مَذْهَبُ الْبُدْهِيَّةِ دُونُ مُؤَحَّرٍ ، وَلَمْ يَسْتَمِعِ الشَّعْبُ إِلَيْهِ قَطُّ ، وَكُلُّ مَا سَمِعَهُ

الشعب هو نداء الأمل والمحبة الذى رَدَدَتْ سَمَاوُهُ صَدَاهُ فَلَبَّاهُ بِرُوحِهِ مِنْ قُوَّهِهِ .  
ومن الأسباب التى أدت إلى انتشار البُدْهِيَّة ما هو مَادِيٌّ أَيْضاً ، فقد كان يتألف  
من قسم الهند الشمالى المعروف بالهندوستان دولةً واحدة قبل الميلاد بقرنين ونصف  
قرن ، وكان أشوكا مَلِكَ هذه الدولة ، وكان اعتناقُ المَلِكِ لدينٍ يَكْفَى لازدهار هذا  
الدين وانتشاره .

ذلك ما اتفق للصنرانية فى الدولة الرومانية حينما انتحلها قسطنطين ، فأصاب  
كثيرٌ من المؤلفين فى تسمية أشوكا بتسطنطين الهند البُدْهِيَّ .

وما انتهى إلينا من الوثائق الثمينة التى تركها أشوكا ، أى الكتابات المنقوشة  
على أعمدة وصخور فى جميع أجزاء دولته الواسعة ، يُثَبِّتُ حَقِيقَتَهُ فى نصر تلك المبادئ  
الجديدة ويثبت أن ما فى هذه المبادئ من الناحية الشعبية السائغة ومن الأدب  
الكريم وروح المحبة أوجب اعتناقُ الجُهَّال والحسكاء والمنبوذين والبراهمة لها  
على السواء .

تَجِدُ جذورَ الفلسفة البُدْهِيَّة فى المذاهب القديمة المعاصرة للبرهمية الأولى ، ولم  
يَبْدُ نَحْوُهَا إلا بعد طويل زمن ، ولم يَكُ أُنْزِى فى بدء الأمر للكنيسة البُدْهِيَّة وما  
اشتملت عليه بعد حين من المحافل الدينية ومبدأ الاعتراف وذخائر الأولياء و بُدْهَةِ  
الموَلَّه ، ولم تَكُ أسطورة بُدْهَةِ آتَنْدُ شائعةً ، وما كاد أشوكا يذكر اسم ذلك المصلح  
الكبير إلا مرةً أو مرتين ، والثورة الوحيدة التى قد يَرْجِعُ تاريخ حدوثها إلى عهد  
هذا الملك ، أى الثورة الأساسية التى أعان على وقوعها بما أُوتِيَ من قوة ، هى تطور  
الأخلاق والوجه الجديد الذى بَدَتْ به واجبات بعض الناس نحو بعض وزعزعة

النير البرهمي الثقليل و بزوغ دور المحبة الميعة والحلم الذي جدّد العالم الآسيوي  
الهرم من الأساس .

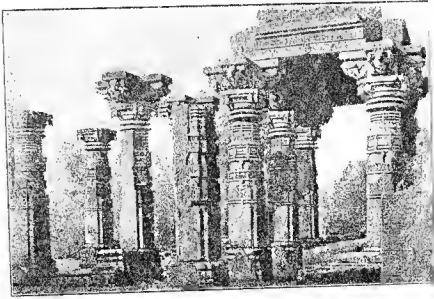
وأوضحت البُدْهيّة بالتدرّيج ديناً مُعْظَماً ثابت الأساس ذا آلهة وشعائر وعبادات  
وفلسفة ، ومن سوء حظ انتصار البُدْهيّة النهائي أن عَطَلَتْ من آلهة فتركت الميدان  
للآلهة البرهيمية كي تُعْبِذَها الجماهير وإن لم تُوص بها ، ومن العبث أن وَصَمَتْ  
البُدْهيّةُ الآلهةَ دون الوَلِيّ أو دون الرجل الذي يَصِلُ إلى درجة بُدْهَة ، فنشأ عن  
ذلك أن هَصَرَتْ الآلهةُ البُدْهيّةُ واستغرقتها وصهرتها مع البرهيمية .

بذلك نفسر السبب في غياب البُدْهيّة عن بلاد الهند إلى الأبد مع أن بلاد الهند  
مهديها ، والبُدْهيّة هي التي قالت بديانة الهند وَرْضِيَتْ أن تُدْغَمَ فيها ، والبُدْهيّة  
وَصَلَتْ إلى بقية آسية مع موكب من الآلهة البرهيمية التي لاءمت الخيال وأعانت  
على انتصارها .

ولا يمكن ديانة كالبُدْهيّة أن تَسْكُبَّ آلهةً سيطرت على الهند أحقاباً كَبَّاءَ  
أبدياً ، والبُدْهيّة هي التي أرادت وضع تلك الآلهة في مرتبة ثانوية من غير أن تجيء  
بما يقوم مقامها .

ولم تلبث فرقة البُدْهيّة أن كَثُرَتْ كما كَثُرَتْ فرق البرهيمية من قبل ، وبينما كان  
يقوم في معابد بُدْهَة إله حَدَدَتْه القِصَّة بالتدرّيج جعلته بعض الفرق حالاً عاليةً  
يصير إليها جميع الخلوقات بعد أن تستعدّ هذه الخلوقات في ألوف من البُعوْث التي  
تَسِمُ في عصور لا حدّ لها ، وهذه الخلوقات تستطيع ، إذ ذاك ، أن تكون عاملاً  
نجاة لأهل الكون الآخرين ثم تُقِيمُ بنعيم زُرَوَانَا السَّرْمَدِيّ حيث الخاتمة  
السعيدة المُعْلَى .

وترى الفرق الجديدة أن بدّة شاكّة مولى وحده لم يكن رسول الحق في العالم، فسيظهر بدّة ثان وثالث حاملين أنواراً جديدة وقوى جديدة مرشدين إلى أقصر طرق لبولوج السكّال ، بيد أنه لا بدّ من مرور أحقاب لا تُحصى بين ظهور بدّة وبدّة إما بتطايبه تكون بدّة من زمن طويل لا يتصوره سوى الهندوس ذوى الخيال الخصب الذى لا يقف عند حدٍ فلا عهد لتصوراتنا الغربية المتواضعة بمثله .



٦٧ - أومكارجي . أعمدة معبد سندسوهرا ( القرن الثانى عشر على ما يُحتمل )

والزهد أحسن وسيلة لنيل حال بدّة ، ومن هنا جاء النظام الرهبانى الذى لم يُعتمد أن ملأ الهند بالأديار ، وأقوى طريقة يتخذها الإنسان ليسكون بدّة هو أن يقتل في نفسه الرغبة التى هى علة الحياة والألم ، وهذا ما تهدى إليه الحقائق الكبرى الأربع التى هى أساس الشريعة البدّهية والتى تخاطب رجال الرهبان ، لا الجمهور ،

لِما يتطلبه إدراكها والعملُ بهما من التقدم في سبيل السكّال ، جاء في لَبِيقًا وَشَتَارَ ما يأتي :

« أيها الراهب ! إليك الحقائق الأربعُ المُسَكَّرمة : الألم ومصدر الألم وردع الألم وسبيل ردع الألم .

« فما هو الألم ؟ الألم هو الولادة والموت وفراق الحبيب والاجتماع بالبعيض ، والألم هو أن ترغب في شيء وألا تنال ما ترغب فيه ، والألم ، أيضاً ، هو أن ترغب في شيء فتَجِدْ في طلبه فلا تناله ، والألم ، باختصار ، إذ كان موضوع الأمور الخمسة التي تتقبلها الحواس أُلماً فإنّ هذا هو الألم .

« وما هو مصدر الألم ؟ مصدر الألم هو الرغبة التي تَتَجَدَّد بلا انقطاع ، هو الذي يذهب مع هَوَى اللذة ، هو الذي يَسُرُّ هنا وهناك .

« وما هو ردع الألم ؟ ردع الألم هو التسكين من غير أن يبقى منه شيء ، هو الرغبة التي تتجدد بلا انقطاع ، هو الذي يذهب مع هوى اللذة وَيَسُرُّ هنا وهناك ، هو الذي يَحْضُل وَيُقْضَى .

« وما هو سبيل ردع الألم ؟ سبيل ردع الألم هو الصراط المقدس المؤلف من ثمانية أجزاء كالبحر السكّال المؤدّي إلى ردع الألم .

« تلك هي الحقائق المُسَكَّرمة الأربع أيها الرهبان ! » .

وهناك سبب آخر ، غير الرغبة في قتل الألم والوصول إلى حال بُدْهَة الجيدة فإلى السكينة التامة ، أوجب اختيار كثير من المُريدِين حياة العزلة في الأديار ، وهو تَجَلَّى المساواة في الأديار فعلاً بعد أن أعلنتها البُدْهِيَّة مبدأً ، ففي الأديار يساوى

الشودرا والباريا والجاندارا البرهمن وأياكلون معه إذا ما كانوا أعضاءً بمحفل واحد ، وكان للنساء ، أيضاً ، أديارهن حيث يظمن غير ضيفات ولا خاضعات إما أمر به منهن من الوصاية الدائمة .

وكانت الحياة شاقة في تلك الأديار المنحوتة في الجبال فأنشأتها الهند في ألف سنة فنقض العجب من طرازها في الزمن الحاضر ، وكان لا بد لمن يود العيش فيها أن يوجب على نفسه الفقر والطهر ، وأن يتقبل إلى الحياة الجديدة بهجر المرأة والمال والولد ، وكان على الراهب ألا يملك شيئاً وأن يعيش من الصدقات على ألا يطلتها وألا يأخذ من أيدي الحسنيين أكثر من أكلة ، وأن يعلم الناس السلام والحق ، وأن يُنشىء مشافى وملاجىء للفقراء والمسافرين ، وأن يجتهد في منع الحروب ويأمر بالتسامح العظيم تجاه جميع الأديان عادةً إياها أوجهاً ناقصة للحقيقة الواحدة ، وأن يرى الأولاد ويحملهم على احترام الوالدين مُتمثلاً نص الكتب البُدْهيَّة على « أن الولد لا يكافى والديه ولو حمل أمه على إحدى كتفيه وأباه على كتفه الأخرى مئة سنة » .

والبُدْهيَّة أنت العالم الآسيوى القرم بروح المحبة وبما لم يعرفه هذا العالم من الأدب العالى ، وقول العالم الفاضل المتدين مكس مولر جاء مُصدّقاً لما قاله للبشرى فورّد فيه : « دعا إلى الأخلاق الفاضلة ، قبل ظهور المسيح ، أناس اعتقدوا أن الآلهة أشباح باطلة فلم يُقيموا هيكلًا حتى لأرب غير المعروف » .

وتؤيد الجملة الأخيرة من هذا القول آراء الأوربيين الخاطئة في البُدْهيَّة ، وسأثبت عما قليل أنك لا تجد ديانة ، كالبُدْهيَّة ، ذات أرباب متعددين مستنداً

فى ذلك إلى المبسأى ، ومن الصأحيأ إشارة تلك العبارة إلى سمو الأدب البدهى؁ فلا سآء؁ بالأسقىة؁ ديانة؁ أنقى من البدهىة أدباً ولا أعذب منها قولاً ولا أكثر منها رآأاً؁ فبدهىة باآ عن الوسائل التى أيقذبها الناس من مصبرهم القاسى فأبى الناس دعونه؁ وهو ابن الملك الذى غدا سائلاً ليشاطر الجاهير بوسآها وإعماها الحببة؁ فكان من أعظم من عرفتهم الدنيا أأذاً بمآام القلوب؁ وهو الذى اعتنق الناس دينه الحامل لاسمه حيث غرس؁ وهو الذى اكتسب دينه الناس بما آآلى به دعائنه من الحلم والحببة وإنكار الذات؁ وهو الذى ألآن دينه الطبايع فى أسمة وآول البرابرة السفاكين إلى رجال هادين؁ ومن هؤلاء نذكر أآالاف المغول الذين أأاموا أراماً من رؤوس البشر فأصبحوا بتأثيره قوماً مهذباً بين مثقفين .

وغاية القول أن البدهىة تشتمل على أرقى المعارف الدينية التى عرآها العالم لولم آآن السكواهل للاستعباد أكثر من أى دين .

ومما أقدم ترى أن البدهىة آآلف عن البرهمية بسمو الأدب وروح التسامأ والحببة أولاً؁ وبالسكان الواسع الذى جعلته للإنسان فى الكون فلم تُعطه ديانة أخرى مثله ثانياً؁ فالطبيعة إذ إنها آآغير بلا انقطاع وتبدع سوراً سائرة إلى الكمال مؤدية بالتدرج إلى ظهور الإنسان الذى يستطيع أن يصبح بفضل عزمه أكثر من إله؁ أى أن يصبح بدهىة الكائن الكامل الذى هو الأصل والغاية؁ والجمع والصر؁ والعظم والعظم؁ ومعنى السكون؁ فإنها؁ كالكون؁ سلسلة أأوال زائلة وشعور واهم؁ والكائن ذلك؁ إذ إنه عظيم مبهم؁ فإن من عدم الصواب أن أأذبده من ليس عنده إقدام لاهوتى الهندوس وهيامهم باآتراع الصور الجسمية والأعداد الضأمة .

ولم يُبْعِرْ أتباع بُدْهَة ، الذين يُعَدُّون بالملايين بتعاقب القرون فكانت أكثرَ بينهم الساحقة من الدهاء والجهلاء والصُّغَرَاءَ والوُضَمَاءَ ، تلك التأمّلاتِ الهائلة التي تَقْلِبُ دماغ الأوربي ، فكان هؤلاء يدخلون معابده مفتخرين بالسجود مع البراهمة للتكبرين أمام صورته المقدسة وعبادة ذنائبه والاحتفال بأعياده الرائعة تكريماً لإنائه الخاص بالصدقات ، وكانوا لا يَعْرِفُونَ عنه سوى الحجة العذبة ذاكرين ، ناعى البال ، أن أحد أصحابه <sup>(١)</sup> سأل أحقر امرأة أن تَسْقِيَه فقالت ، وهى تعلم أن ابن الطائفة يُفَضَّلُ الموت على تناول قطرة ماء من يدها :

« مولاي ! إننى جَنْدَالِيَّةٌ » .

فأجابها بِرَفْقٍ :

« لا أسأل عن أنك جَنْدَالِيَّةٌ أو غيرُ جَنْدَالِيَّةٍ ، وإنما أقول إننى ظمآن ، فأطلب منك أن تَسْقِيَنِى » .

ذلك أمر بسيط فى الظاهر ، ولكنه معجزة الحجة عند الهندوسى وآيةٌ بَعَثَ لدى جموع من الخلائق البشرية .

تلك هى البُدْهِيَّةُ ، وليس بضائرها أن تَعْرِقَ فلسفتها بعد زمن فى بحر من المجردات القريبة من الهوس وأن تَعْرِقَ عباداتها فى طقوس البرهمية ورموزها ما كانت ديانة محسنة مصلحة قوية مؤثرة تأثيراً لا يُعَدِّلُهُ شىء فى تاريخ الإنسان .

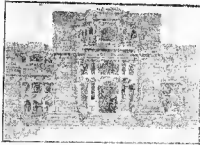
---

(١) ربما فصد المؤلف أن بدعة نفسه ، لا أحد أصحابه ، هو الذى سأل تلك المرأة أن تسقيه ، كما تدل عليه مقارنة المؤلف فى أوائل الفصل بين بدعة والسيخ ، وإلا وجب أن يكون الحادث قد تكرر ، وهذا ما نلتجده ما دام عزو طلب السق إلى بدعة أكثر ملازمة لسباق الموضوع من عزوه إلى صاحب له ( المترجم )



## ٤ - البُدْهِيَّة كما جاءت في المباني

استحوذ على الناس بأوربة عَجَبٌ عظيم حينما عَلِمُوا أمر البُدْهِيَّة من كتبها الفلسفية التي وُضِعَتْ بعد ظهورها بستة قرون فترجعت منذ سنوات قليلة إلى اللغات الأوروبية فَرَأَوْا أن أتباعها البالغ عددهم خمسة مليون نفس لا يعرفون إلهاً عاذرين العالم وهماً باطلاً لا يقابل آمال الناس إلا بالتعَدَم .



٦٨ - بندراين . معبد غوبندو ( القرن  
تاسع عشر ) ( يبلغ ارتفاع المقدم  
١٤ متراً )

ومن الطبيعي أن كنتُ لا أعْرِفُ  
عن البُدْهِيَّة ، قبل زيارتي للهند ، غير  
ما ورد في الكتب التي أشرت إليها  
أنفاً فأنكلم عنها في فصل آخر ،  
وكنت أشك ، مع ذلك ، في إمكان  
اعتناق الملايين من شِبَاه البرابرة للإلحادات  
فلسفية فاترة ، فكان يلوح لي أن مما

يناقض سُنن التاريخ أن تظهر ديانة قائمة على مبادئ كتلك المبادئ بَعْتَةً في العالم  
وأن تَنِيْب هذه الديانة عن البلد الذي ظهرت فيه قُوْر قيامها تقريباً ، فكنتُ أرجو  
أن تؤدي دراستي للمباني البُدْهِيَّة ، التي أهْمَل أمرها مَنْ بحث من علماء أوربة في  
الديانة البُدْهِيَّة ، إلى إلقاء ضياء جديد على تاريخ هذه الديانة ، فلم يَحِب رجائي ،  
فثبت لي من النظر في النقوش التي تستروجه المباني القديمة في الهند أن الديانة  
البُدْهِيَّة التي مارسها الهندوس في ألف سنة تختلف عن الذي نتعلمه من الوثائق  
المكتوبة .

وفي المباني ، لا في الكتب ، يجب دراسة تاريخ البُدْهيّة ، فما تُخبرنا به المباني غير ما نجده في الكتب الأوربية ، فهذه المباني تثبت أن البُدْهيّة التي أراد العلماء المعاصرون أن يجمعوا منها ديانة إلحادية هي أكثر الديانات قولاً بتعدد الأرباب .

أحل ، إن المُنسَلَج الأكبر بُدْهية لم يظهر في المباني البُدْهيّة الأولى التي أقيمت منذ نحو ألفي سنة ، كسجاجات بهآرت وسانجى وبُدْهية غيا وغيرها ، إلا رمزاً ، فسكان بُدْهية آثار قدميه وصورة الشجرة التي بلغ تحتها درجة الحكمة العليا ، غير أنه لم يُعَمِّمْ أن أصبح إلهاً مانلاً في جميع المعابد ، وقد بدا وحيداً في أول الأمر كما يُرى في أقدم معابد أجتنا ، ثم اختلط بالتدريج بالآلهة البرهمنية : إندرا وكالى وسرسوتي الخ . كما يُرى في معابد إيلورا ، ثم غرق بين ما كان يهيم عليه من الآلهة الكثيرة فعاد بعد بضعة قرون لا يُعَدُّ إلا جسداً لوشنو ، فهناك أفلت البُدْهيّة عن الهند .

وتَطَلَّب حدوث ذلك الأفعول أو التحول الذي أشرنا إليه في بضعة أسطر مدة ألف سنة ، وأنشئت المباني الكثيرة التي تنطق بتاريخه بين القرن الثالث قبل المسيح والقرن السابع بعده ، وظل بُدْهية يُعَبَّد في أثناء هذا الدور الطويل كإله قادر على كل شيء ، وفي الأساطير تصويره له وهو يَمْنَحُ أتباعه النعم ، وفي رحلة العالم البُدْهيّ الحاج هيويين سانغ الصيني الذي زار الهند في القرن السابع خبره بأن بُدْهية ظهر أمامه في غار مقدس بما انفق له من اتصال طويل في الهند .

والأساطير والمباني صريحة إذن ، فلو استند البحث في البُدْهيّة إليها لَبَدَّت على غير الصورة التي صوّرت بها في الزمن الحاضر ، ومن المؤسف أن أهمل علماء

أوربة دراسة مباني الهند حتى الآن فلم يزوروا الهند فاقتصرت دراستهم للبُدْهيَّة على الكتب ، ومن المؤسف أن عَوَّلُوا على كتب المذاهب الفلسفية التي وُضِعَتْ بعد وفاة بُدْهه بمِئْثَةِ سنة فكانت بعيدة من الدِّيانَةِ الحقيقية .

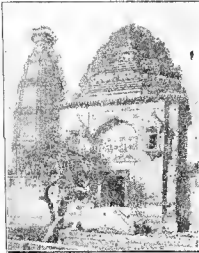
على أنه لا جديد في التأمّلات الفلسفية البُدْهيَّة التي أثارت عَجَبَ الأوربيين كثيراً ، فقد وُجِدَتْ ، منذ عُرِفَتْ كتب الهند بأحسن مما في الماضي ، في كتب المذاهب الفلسفية التي ازدهرت في العصر البرهمي ، في كتب الحكمة التي عُرِفَتْ بأوپانِشَاد التي وُضِعَتْ في مختلف الأديان فوُجِدَ منها نحو مِئْثَيْن وخمسين ترى الزندقة وازدراء الوجود والأدب المستقلّ عن المعتقدات الدينية والمبدأ القائل إن العالم باطل الخ . وترى في بعض تلك الكتب مافي الكتب البُدْهيَّة الفلسفية من المذاهب ، وكان واضعوها من العاملين بمذهب الكَرْمَا الذي هو أساس البُدْهيَّة وأساسُ جميع فِرَق الهند الدينية وأساسُ شريعة مَنُو فيقول : إن الناس مَجْزِيُونَ بأعمالهم في البُعُوث القادمة ، وإن غاية هذه البُعُوث هي الفناء في أصل الأشياء العام ، في برها الذي حَكى عنه مَنُو فَيَقْرُبُ من نِرَوَانَا عند البُدْهيِّين ، فالروحُ تنجو ، إذ ذاك فقط ، من البُعُوث .

والإنسان ، لكي ينتهي إلى ذلك الفناء النهائي ، يجب عليه ، كما يقول البُدْهيُّون والبراهمة ، أن يَقَمَّع الرغبة وأن يَزْهَدَ في متاع الدنيا وأن يعيش عَيْشَ النَّسَاك المتأملين .

فمن ثَمَّ ترى أن نظريات العصر البُدْهيّ الفلسفية مطابقةٌ لنظريات العصر البرهمي الذي جاء قبله ، وهي قد نَمَتْ مُوازِيَةً للدين الذي يُعَلِّمُه الكُهانَ ويمارسه الجمهور وإن اختلفت عنه أشدَّ الاختلاف ، فَعَدَّها كالبُدْهية نفسها من الخطأ العظيم

كخاطئ نظريات الأوباشاد بالبرهمية ، والبُدْهيَّةُ إذ لم تُعرَف في أوربة إلا بتأملات بعض أتباعها الفلسفية عُذَّت هذه التأملاتُ البُدْهيَّةُ نفسها .

ومن السهل أن ندرك أن ديناً يبلغ عدد أتباعه خمسة مليون لا يقوم على المبادئ الفلسفية الفاترة ، ويُعَذَّر بعض العلماء إذا أخطأوا فقالوا غير ذلك ما أفنوا أعمارهم في دراسة الكتب ، لا دراسة الرجال ، وإذا ما مرَّت ثلاثة آلاف سنة وتبدَّل مركز الحضارة ونُسِيت كتبنا ولغتنا كان من المحتمل ، حينئذ ، أن يكتشف بعضُ الأساتذة اللغة الإنكليزية فيترجموا أول ما يُعثرُونَ عليه من الكتب ، ككتاب الأصول الأولى لسينسرو وكتاب أصل الأنواع لداروين ، فَيَدَّعُوا أنها خلاصة المذاهب التي كانت تمارسها الأمم النصرانية في القرن التاسع عشر من الميالد .



وعلى الباحث ألا يُجْهِد نفسه في البحث عن هندوسٍ ليفترض أنهم استطاعوا ممارسة دين بلا آلهة ، فكيف تجِدْ هندوسياً لا يعبد آلهة والعالمُ عنده زأخرُ بها ؟ فالهندوسىُّ ، بالحقيقة ، يُصَلِّي للقمير الذي يقرس أنعامه ، ولجسم الخط الحديدى الذى يصنعه الأوربيُّ ، وللأوربي نفسه عند الاقتضاء .

٦٩ - بنديان . معبد مدن موهن ( أنسى ، في القرن السابع عشر ) ( يبلغ ارتفاع البرج ٢١ متراً و ٤٠ سنتمتراً )

حقاً ، قد يحفظ الهندوسىُّ على ظهر القلب كتاباً من كتب بُدْهيِّي الجنوب ،

كالذى أُنْفِ حديثاً تحت إشراف لَجَنَةِ من الأوربيين ، يُعلِّمه أنه لاخالقَ للعالم وأن كلَّ

ما فيه وَهْمٌ ، ولكن هذا لا يمنعه من أن يَشْمُرَ باحتياجه إلى عبادة بُدْهَةِ الأعظم  
وجميعِ مَجْمَعِ الآلهة الذي يَمْلِكُهُ بُدْهَةُ هذا ، وحقاً يشتمل كتاب «لَلِيَّتَا وَشْتَار» ،  
الذي هو أقدم الكتب البُدْهِيَّةِ والذي يرجع إلى نحو ألف وثمانمئة سنة ، أى إلى  
زمن حَلٍّ بعد ظهور بُدْهَةِ بنحو ستمئة سنة ، على مباحث في الأوهام وِبُطْلانِ أمور  
هذا العالم ، ولكن من ذا الذى عَلمَهُ بُدْهَةُ هذا ؟ عَلمَ أولاً ، الآلهة الكثيرة التى  
تَجِدُ لها ذِكْراً في كل صفحة من ذلك الكتاب والتى حَضَرَتْ ولادته وعلى رأسها  
الإله برهما فَأَلَهَتَهُ فَأَخَذَتْ ترافقه فمَجِدَّتَهُ في نهاية الأمر .

أَجَلْ ، إن ذلك الكتاب مَحْشُوٌّ بالمتناقضات ، غير أن هذه المتناقضات لم  
تسكن لتَبْدُوْا لاهندوسىً ، فَفِكَرُ الهندوسى قد صُهِرَ فى قَالَبٍ غيرِ الذى صُهِرَتْ  
فيه أَفْكارُنا .

لا عهد لاهندوسىً بالمنطق الأوربى ، ولا تَجِدُ كتاباً من كتبه ، التى تَتَرَجَّجُ  
بين دِوَائى رامايِنا ومهابهارتا الحماسين من جهة والكتب الفلسفية التى أَشْرنا إليها  
آنفاً من جهة أخرى ، غيرَ زَاخِرٍ بالمتناقضات ، فالمنطقُ ، وإن وُجِدَ فى هذه  
الكتب ، ليس سوى منطقِ نِسْوَى يُفْرِطُ ، أحياناً ، فى استخراج النتائج إفراطاً  
لا يعبأُ معه بالمتناقضات .

إِذَنْ ، يجب على من يريد أن يعلم أمر البُدْهِيَّةِ ألا يَغْفُلَ عما لا غِنْيَةَ لِدِيَاناتِ  
الهند عنه من الآلهة ، وذلك عند النظر إلى التأملات الفلسفية التى تَخَصَّدَتْ فوق  
البُدْهِيَّةِ ، فلم يحاول بُدْهَةُ ، خلافاً للخطأ الشائع ، أن يُزْعِزَ الآلهة البرهمية ، كما أنه  
لم يحاول أن يَمَسَّ نظام الطوائف ، فلم يكن أىُّ مصلحٍ من القوة ما يستطيع أن يَدْكُ  
به ركن نظام الهند الاجتماعى ذلك .

وما تقدم يدلُّ بسهولة على أن البُدْهيَّة لم تكن غيرَ تطور بسيط للبرهمية ، وذلك لحفاظتها على جميع آلهتها ولأنها لم تُغيَّر سوى أدبها ، ومسال ريب فيه أن البُدْهيَّة اختلفت عن البرهمية قليلاً بعد مرور عدة قرون ، ومن المشكوك فيه أن تكون قد عدَّت ديناً جديداً في البداءة ، ولا شيء يدلُّ على أن أشوكا اعتنق ديناً جديداً ، ولا تكاد تجد غيرَ ذكرٍ أو ذكرين لبُدْهَة في مراسيم هذا الملك التي ملأ الهند بها فاتهي إلينا عددٌ كبير منها ، ففي هذه المراسيم أوصى بالناسمَح تجاه جميع المذاهب الدينية التي كانت البُدْهيَّة واحدةً منها والتي بدَّت جديرة بالتكريم لما اشتملت عليه من روح مؤسستها ، ابن الملك الشهير ، المملوءة بحبة .



وسنثبت ، بعد قليل ، أن البُدْهيَّة غابت عن الهند بسبب اندماجها في البرهمية القديمة مقداراً فقذاراً ، وفي خارج الهند من البلاد ، كبرمانية وكبوج ، التي استقرت البُدْهيَّة بها ، رافقتها الآلهة البرهمية ، ولكن هذه الآلهة إذ كانت مما لم تُعرَفه تلك البلاد العاطلة من البراهمة ذوى المآرب في تقوُّتها حافظ بُدْهَة فيها على ما حَسِرَه في الهند من النفوذ البالغ ، ومن الجدَل الكبير ما دار حول مباني أنغكور الشهيرة يُعرَف هل هي بُدْهيَّة أو برهمية لاختلاط ما يشاهد فيها من الرموز البُدْهيَّة والشَّيْوية ، وما كانت هذه المجادلات لتحدث لو درس العلماء مباني الهند ، ولا سيما مباني

٧٠ - متراً . برج ساتي بوري  
( القرن السادس عشر )  
( يبلغ ارتفاعه ١٧ متراً )

نيبال ، قبل أن يُنعموا النظر في مباني كبوج فيها ،

كانوا يَتَبَيَّنُون اختلاط المذهبيين كما أنهم كانوا يَتَمَيَّنُونَه في البلد المجاور برمانية ، فما

اطلع عليه الموظف الإنكليزي السابق في برمانية مستر ويلر أن البرمان ، الذين هم  
بُدْهِيُون كما هو معلوم ، يَعْبُدُون ، أيضاً ، الآلهة الويدية ولا سيما إندرا وبرهما وأن  
بلاط ملك برمانية يمتوى على براهما ، ومما اطلع عليه ذلك الموظف الإنكليزي ،  
أيضاً ، أن خانات المغول بأسية يعبدون الآلهة الويدية في جوار جبل آلتاني .



٧١ - أوديبور . قصر مهارا ( القرن السابع عشر ) ( دقائق الجبهة المشرفة على الساحة الكبرى )

وترى مما عرضناه أنه لا أثر للهَوَّةِ العميقة التي افترض وجودها بين البُدْهِيَّةِ  
والبرهمية افتراضاً نشأ عن اطلاع العلماء على البُدْهِيَّةِ من قراءة الكتب ، وما بيَّنته  
هؤلاء العلماء من رأى هو الذى حال دون تَبَيُّن ما بينهما من ارتباط ، ومما حدث أن  
البَحَّاثَةَ الأوربيَّ هوغزن الذى عاش في الهند أشار إلى بعض الصور الشَّيْوِيَّةِ التي  
تشاهد في معابد الهند البُدْهِيَّةِ فأجهد نفسه في تفسير سبب وجودها فيها فقال إنه  
لا يوافق ثنائية على امتزاج تينك الديانتين اللتين تنفصل إحداهما عن الأخرى انفصال

السما عن الأرض ، وهو غسنُ هذا كان مقياً إنكليزياً بنفبال ، وما كان عليه إلا أن يُحدِّق إلى ما حوله ليرى درجة اختلاط الآلهة البُدْهيَّة بالآلهة البرهمية في معابد ذلك البلد ، بيد أن العلماء بلغوا في ذلك الحين من اعتقاد اختلاف تينك الديانتين مبالغاً لا يَرَوْنَ معه وجود شيء مشترك بينهما .

ويزيد هذا المثل ، الناطقُ بوجود رأيٍ مُبَيَّن حاجِب الحقيقة ، غرابة عند النظر إلى الرسالة الإنكليزية التي عنوانها « بحث في الشُّبْه بين كثير من الرموز البُدْهيَّة والشَّيْويَّة » ، فذكر كاتبها ، مُتَمَجِّباً ، أن كثيراً من كُتَّاب الهند أنفسهم يَخْطِطون ما في المعابد القديمة من الصُّور البرهمية بالصُّور البُدْهيَّة مستنداً في ذلك إلى كثير من الأمثلة<sup>(١)</sup> ، مع أن عَجَب ذلك الكاتب الإنكليزي كان يزول لو أوضح بمثل ما أوضحنا به سبب امتزاج البُدْهيَّة بالبرهمية .

## ٥ - توارى البُدْهيَّة عن الهند

لا يجمل أحد أن البُدْهيَّة التي يَدِين بها اليوم خمسة مليون من الآدميين ، أى ثلثُ البشر ، توارت تقريباً عن الهند حوالي القرنين السابع والثامن من الميلاد بعد أن كانت الهند مهلاً لها فانتشرت في بقية آسية فعمَّرت الصين وبلاد التتر الروسية

(١) تنجلى أوجه الشبه بين صور الديانتين ورموزها في أحوال كثيرة جداً ، ومن ذلك المثال الذي ينجلي للأنارى في الصورة التي نَصَرَتْها في هذا الكتاب لتمثال صنع في القرن السادس من الميلاد ونصب في بادامى شخصاً وشنو وهو واقف على الأفعى أتاناً ، فهذا التمثال مائل بصورة بدْهية البارزة الموجودة في أمراوتى والتي صنعت في القرن الخامس أو القرن السادس من الميلاد شخصية إياه وهو قائم على أفعى أيضاً ، وفي غبا زرت معبداً برهيميا معروفاً بوشنويد ( معبد قدم وشنو ) حيث يعبد الفوم ما يزعمون أنه أثر قدم وشنو كما يعبد البدهيون أثر قدم بدْهية ، فأمر مثل هذا يدل على اختلاف الأسماء لنفسه ، وهو ما تمد أمثاله بالألوف في الهند .



وبرمانية الخ . وهى إذا كُتِبَ لها بقاء فى الهند فليكون ذلك فى أقصى حَدِّهَا فقط ،  
أى فى نيبال شمالاً وفى سيلان جنوباً .

وترى كُتِبَ الهندوس صامتةً صمتاً تاماً عن توارى البُدْهية عن الهند ، وعُزِىَ  
ذلك حتى الآن إلى ما افترض حدوثه من الاضطرابات الشديدة ، وإذا سَلَّمْنَا بَدَلًا  
بأنه يمكن التوفيق بين مبدأ تسامح الهندوس ومبدأ الاضطرابات الدينية وبأن  
الاضطرابات تُقَوِّضُ دعائم الدين بدلًا من تسهيل انتشاره خلافًا لما تؤكد حوادثُ  
التاريخ أمره وما إلى هذا من الافتراضات التى لا تُصَدِّقُ وجدنا أنفسنا تجاه المُعْضِلَةِ  
الآنية وهى : لماذا عزم فجأةً أسراء الهند ، التى كانت مقسومةً إلى مئة إمارة صغيرة ،  
على الكفر بدين مارسه أجدادهم عدَّة قرون وحلوا رعاياهم على اعتناق دين آخر ؟

أخذتُ أبصِرُ سبب تحول البُدْهية فَوَرَّ بَحْثِي فى مبانى الهند ، ثم اتضح لى ذلك  
السبب حين زيارتى لنيبال ، فعلمتُ ، إذ ذلك ، درجةَ الأغاليط فى الأسباب التى  
دُكِّرَتْ إلى يومنا لتفسير ذلك ، وبيانُ الأمر أننى درستُ أكثر مبانى الهند المهمة  
بانعام نظريٍّ فاتمَّيْتُ إلى النتيجة القائلة إن البُدْهية غابت عن الهند لأنها صُهِرَتْ  
بالتدرج فى الديانة التى خَرَجَتْ منها .

والحقُّ أن ذلك التطور تمَّ ببطء ، ولكن الذى جعل الباحثين يَرَوْنَ وقوعه  
بذتةً هو عَطْلُ الهند من تاريخ ، ومن ثمَّ وجودُ فواصل خمسة قرون أو ستة قرون  
يَتَعَدَّرُ معها وَصُلُ ما بين تحولاتها ، فترانا إزاء ذلك فى حال كمالِ علماء الأرض  
السابقين الذين كانوا يَرَوْنَ تحولات طبقات الأرض وسكانها العظيمة ، لا ما بينها  
من الأدوار المتوسطة ، فيَعَزُّون ذلك إلى الانقلابات العنيفة ، ثم تَقَدَّمَ العلم فأثبت  
لهم أن هذه الانقلابات وليدة تطورات غير محسوسة .

نُحْيِرُنَا دِرَاسَةَ مَا فِي مَبَانِي الْهِنْدِ مِنَ النُّقُوشِ الْبَارِزَةِ وَالتَّمَاثِيلِ بِتَارِيخِ تَطَوُّرِ الْبُدْهِيَّةِ ،  
وَتَوْضُحِ اِنَّا كَيْفَ اَنْ مُؤَسَّسْ هَذِهِ الدِّيَانَةِ الَّتِي اسْتَخَفَّ بِمَجْمِيعِ الْاَلْهَةِ اَصْبَحَ اِلَٰهًا ،  
وَكَيْفَ اَنَّهُ اخَذَ يَظْهَرُ فِي جَمِيعِ الْمَعَابِدِ بَعْدَ اَنْ كُنْتُ لَا تَرَى لَهُ صُورَةً فِي وَاحِدٍ مِنْهَا ،  
وَكَيْفَ اخْتَلَطَ بِالْاَلْهَةِ الْبَرْهَمِيَّةِ الْقَدِيمَةِ مَقْدَارًا مَقْدَارًا ، وَكَيْفَ اَنَّهُ تَحَوَّلَ اِلَى اِلَٰهٍ تَابِعٍ ،  
وَكَيْفَ اَنْ تِلْكَ الْاَلْهَةُ دَخَرَتْ فِي نِهَآيَةِ الْأَمْرِ .

وَكَانَ لَا بَدَّ لِي مِنْ الرُّجُوعِ اِلَى الْقَرْنِ السَّابِعِ مِنَ الْمِئَلَادِ اَوْ اِكْتِشَافِ بَلَدٍ  
يَتَجَلَّى فِيهِ الطُّورُ الَّذِي كَانَتْ عَلَيْهِ الْهِنْدُ فِي الْقَرْنِ السَّابِعِ الْمَذْكُورِ لِإِثْبَاتِ نَظَرِيَّتِي فِي  
ذَلِكَ التَّحَوُّلِ وَفِي نَوَارِي الْبُدْهِيَّةِ عَنِ الْهِنْدِ ، فَوُجِدْتُ أَحَدَ مُهُودِ الْبُدْهِيَّةِ نِيپَالِ الْبَلَدِ  
الَّذِي قَامَتْ اَلْبُدْهِيَّةُ فِيهِ عَوَامِلَ التَّطَوُّرِ الَّتِي هَدَّدَتْهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ حِينَ صَاقَبَتْ  
الْبُدْهِيَّةُ الْبَرْهَمِيَّةَ الْقَدِيمَةَ ، فَتَجَلَّى فِيهِ الطُّورُ الَّذِي اخْتَلَطَتْ فِيهِ الْبُدْهِيَّةُ بِالْبَرْهَمِيَّةِ مِنْ  
غَيْرِ اَنْ تَذُوبٍ فِيهَا ، وَفِي مَعَابِدِ نِيپَالِ بَلَّغَتْ الْاَلْهَةُ الْهِنْدُوسِيَّةُ وَالْاَلْهَةُ الْبُدْهِيَّةُ مِنْ  
الْاِخْتِلَاطِ مَا يَتَعَذَّرُ مَعَهُ ، فِي الْغَالِبِ ، تَبَيَّنَ الدِّينَ الَّذِي يَقُولُ بِهَا ، وَهَذَا مَا عَرَفَهُ  
عُلَمَاءُ الْإِنْسِكَبَرِ الَّذِينَ دَرَسُوا شُؤْنَ نِيپَالِ مِنْ غَيْرِ اَنْ يَسْتَطِيعُوا تَفْسِيرَهُ ، وَمَا رَأَيْتُ  
أَنَّهُ مِنَ الْأَنْفَازِ عِنْدَ عَدَمِ تَفْسِيرِهِ بِدِرَاسَةِ مَبَانِي الْهِنْدِ الْقَدِيمَةِ ظَهَرَ لِي أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ  
الْأَلْفَازِ عِنْدَ إِنْعَامِ النَّظَرِ فِيهَا ، فَقَدْ نَبَتْ لَدَيَّ اَنْ اِخْتِلَاطَ تِلْكَ الْاَلْهَةِ فِي الْهِنْدِ حَدَّثَتْ  
فِي كُلِّ مَكَانٍ مِنَ الْهِنْدِ فِي زَمَانٍ مَا ، وَزَالَ عَنِ الْعَجَبِ مِنْ عَزْوِ عُلَمَاءِ الْهِنْدُوسِ  
قَدِيمِ الْمَعَابِدِ اِلَى إِحْدَى الدِّيَانَتَيْنِ تَارَةً وَ اِلَى الدِّيَانَةِ الثَّانِيَةِ تَارَةً أُخْرَى .

وَبِمِثْلِ ذَلِكَ نَفْسَرُ مَا يَبْدُو غَرِيبًا فِي الظَّاهِرِ ، وَهُوَ أَمْرُ إِفَامَةِ مَعَابِدِ بُدْهِيَّةٍ وَجَيْفِيَّةٍ  
وَبَرْهَمِيَّةٍ بَعْضُهَا بِجَانِبِ بَعْضٍ فِي أَدْوَارٍ وَاحِدَةٍ ، فَإِذَا رَجَعْنَا الْبَصَرَ اِلَى الطُّورِ الَّذِي  
وَشَكَ اَنْ تَتَازَجَ فِيهِ دِيَانَتَانِ سَهْلٌ عَلَيْنَا اَنْ نَقْتَمِلَ مِلْسَكَاَ يُوزَعُ الْهَيْبَاتِ ، غَيْرَ

مُحَابٍ ، بين معابدها كما كان يُورَعُها أحد الملوك في القرون الوسطى بين كنائس مختلف القدّيسين .

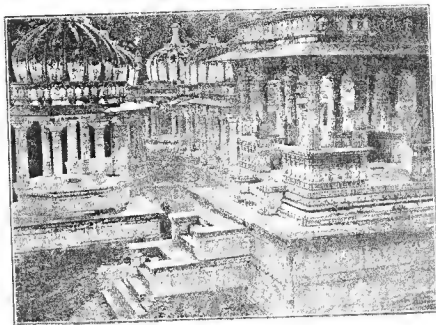
ولم يَنْقُصْ إلينا سوى ما قصّه الحاجّ الصبني هيوين سانغ الذي زار الهند في ذلك الدور فَرَوَى أن مَلِكاً هندوسياً وَرَعَ العطايا بين البُدهيين في اليوم الأول من عيدٍ وَرَعَها بين البرهمية في اليوم الثاني منه ، فذلك الدور الذي كانت فيه تانك الديانتان مُتَوَاقِفَتَيْنِ هو الدور الذي سَقَى انصهارهما في ديانة واحدة ، ومن السهل أن نَدَبِّينِ الصورةَ التي تَمَّ فيها هذا الإدغام من البحث في الديانة السائدة لنيبال في الوقت الحاضر .

تاريخُ دخول البُدهية نيبالَ قديمٌ جداً ، والقصةُ نقول إن بُدهة نفسه جاءه ، والأمر مهمما يكن فإن أقدم الخطوط البُدهية وَجِدَتْ في أديار نيبال القديمة ، وفي القصة أن أشوكا الذي كان مَلِكَ مَعَنْدُها في القرن الثالث قبل الميلاد حَجَّ نيبالَ ليزور معبد شَمِ بُهورَنَاسِه ومعبداً بِشُورَبِي الح . وفي القِصَّة ، أيضاً ، أن الملك أشوكا هذا هو مؤسس مدينة بَنَن التي تُعرَف باسمها النيواري لَلِيتا بَنَن فيمُتَرَض أن أصل هذا الاسم مَحَرَّف من بَتِل بَنَرا التي كانت عاصمة أشوكا في الهند ، وغيرُ قليلٍ للمعابدُ المخرّطة الشكل التي عُرِيت إليه منذ القديم .

غدا نيبالُ ، إذن ، مهداً من مَهْود البُدهية ، ولا تزال هذه الديانة سائدة له منذ ألقى سنة ، وإذا حالت عزلة نيبال دون أفول البُدهية عنه ، كما أَفَلَتْ في بقية بلاد الهند ، فإنها لم تَحُلْ دون تَحَوُّلها فيه تحوُّلاً مشابهاً للذي غابت به عن بلاد الهند تبعاً للبدء القائل إن العللَ نفسَها تُسْفِر عن النتائج نفسها ، ونيبالُ لما كان عليه من الأحوال الخاصة أخذت البُدهية تغيب عنه ببطء ، ولهذا البطء

نستطيع أن نتصور ماذا كانت عليه البُدهية في الهند في القرنين السابع والثامن من الميلاد مع توارى النظم الرَّهْبَانِيَّةُ القديمه عنه ومع عودة السكّهْمُونِيَّةِ فيه إلى النظام الإِرنى ومع رجوع الآلهة القديمة فيه إلى سلطانها السابق .

اليوم تبدو البُدهية والبرهية في نيبال ديارتين مختلفتين اسمًا كما بدّتا في الهند



٧٢ - أوديبور ، المنيرة الملكية

في القرن السابع من الميلاد ، واليوم تبدو تانك الديانتان في نيبال متساختين كنساجهما الذى رأينا وجوده في بقية بلاد الهند قبيل أُول البُدهية عنها للأسباب المعروضة آنفًا ، وبلغ هذا التسامح الذى يُعَمَّر بقشابه تينك الديانتين من القوة ما كان به لأتباعهما معابد وآلهة وأعياد مشتركة كما سنرى ذلك .

مُفْرِض البُدهية ، في نيبال ، على أتباعها عبادة ثالث عالٍ ، بدلًا من أن

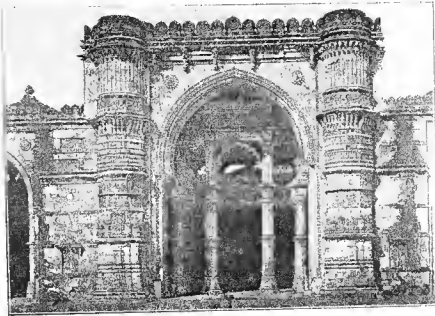
تسير مع المذاهب البُديهية الفلسفية فترى العالم مؤلفاً من هَيُولَى أَرَلِيسَةِ فَادِرَةِ عَلَى التَّسْكُونِ ، وَتُعَدُّ هَذِهِ الْهَيُولَى آلَهَةَ السَّكُونِ الْوَحِيدَةَ ، وَيشتمل ذلك الثَّالُوثُ عَلَى مُثَلِّ الْرُوحِ آدَى بُودَهَةِ الَّذِي هُوَ الْأَصْلُ وَعَلَى مَثَلِ الْمَادَةِ دَهْرَمَا وَعَلَى مَثَلِ الْمَرْنِيَّاتِ سَنَفَهَا الَّذِي هُوَ نَتِيجَةُ اتِّحَادِ الرُّوحِ وَالْمَادَةِ ، وَرَمَزُ هَذَا الثَّالُوثِ ، الَّذِي يَشَابُهُ الثَّالُوثُ الْبَرَهْمِيّ الْمُوَافَقَ مِنْ بَرَهْمَا وَوِشْنُو وَشِيوَا ، هُوَ مُثَلَّثٌ ذُو نَقْطَةٍ فِي مَرْكَزِهِ ، وَهَذَا الْمَرْكَزُ هُوَ رَمَزُ آدَى بُودَهَةِ الَّذِي عُدَّ الْعِلْمَةُ الْأُولَى فِي آخِرِ الْأَمْرِ .

وَتَجِبِي . تَحْتَ ذَلِكَ الثَّالُوثِ الْأَعْلَى الْآلَهَةُ الْبَرَهْمِيَّةُ الْقَدِيمَةُ : وَشْنُو وَشِيوَا وَغَنْبَشَا وَلَكْشْمِي وَغَيْرُهُ مِنْ الْآلَهَةِ الَّتِي بَرَّأَهَا السَّكَّانُ الْأَعْلَى لِتَسِيطَرِ عَلَى الْعَالَمِ ، وَعَلَى مَا تَرَاهُ مِنْ هَيْبُوطِ هَذِهِ الْآلَهَةِ مِنَ الْمَرْتَبَةِ الَّتِي قَالَتْ بِهَا الدِّيَانَةُ الْبَرَهْمِيَّةُ ظَلَّتْ مِنْ رَفْعَةٍ لِقَامٍ مَا بَدَّتْ بِهِ أَهْلًا لِيَعْبُدَهَا الْبَشَرُ بِأَمْرِهِ .

وَلَا تَخْتَلِفُ مَبَادِيٌّ بُدْهِيَّةٌ نِيَالِي فِي الرُّوحِ الْبَشَرِيَّةِ عَنِ الْمَبَادِيِّ الْبَرَهْمِيَّةِ الْقَدِيمَةِ بِصُورَةٍ مُحْسُوسَةٍ ، وَعُدَّتْ هَذِهِ الرُّوحُ ، كَأَرْوَاحِ جَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ ، صَادِرَةً عَنِ الْعِلْمَةِ الْأُولَى آدَى بُودَهَةِ رَاجِعَةً إِلَيْهِ بَعْدَ عِدَّةِ تَنَاسُخَاتٍ ، وَالرَّجُوعُ إِلَى الْعِلْمَةِ الْأُولَى بَعْدَ هَذِهِ التَّنَاسُخَاتِ ، أَيْ الْفَنَاءُ فِي آدَى بُودَهَةِ ، هُوَ الْمَدْفُ الْأَسْمَى الَّذِي يُؤَجَّرُ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ ، وَيتوقف عدد هذه التَّنَاسُخَاتِ وَطَبِيعَةُ هَذِهِ التَّنَاسُخَاتِ عَلَى سَلُوكِ الْإِنْسَانِ فِي حَيَاتِهِ ، وَتُمَيِّنُ أَعْمَالُهُ مَصِيرَهُ .

وَعُدَّ مُؤَسَّسُ الْبُدْهِيَّةِ نَفْسُهُ ، كِبَاخْوَانَهُ الَّذِينَ افْتَرَضَ ظُهُورَهُمْ قَبْلَهُ حَامِلِينَ لِاسْمِ بُدْهَةٍ ، وَرَلِيًّا صَفَتِ جِبِلَّتَهُ بَحِيَّوَاتٍ سَابِقَةً فَأَوْشَكَ أَنْ يَحِلَّ إِلَى الْفَنَاءِ الْأَسْمَى . وَأَنْشَى ، أَكْثَرَ مَعَابِدِ نِيَالٍ أَهْمِيَّةٍ ، وَلَا سِيَّامَعْبِدَ شَمَّ بُهُونَاتِهِ ، تَقْدِيسًا لِآدَى بُودَهَةِ ، وَمُثَلِّ الثَّالُوثِ الْبُدْهِيّ ( بِدْهَةٍ وَدَهْرَمَا وَسَنَفَهَا ) فِي تَمَاثِيلٍ جَالِسَةٍ عَلَى

زهرق سدر، وفي هذه التماثيل بدأ بُدْهَة ذراعين وبدا سِنْفُهَا ودَهْرُهَا ذَوَى أربع أذرع، ومن ذلك الثالث بَدَتْ دَهْرُهَا وحَدَّهَا، إلَهَةُ المادِق، على شكل امرأة. ويحيى بعد الثالث البُدْهَى، كموضوعات للعبادة، صُورُ مؤسس البُدْهِيَّةِ وأَسْلَافِهِ مِنَ الْإِلَهِةِ والبشر، ثم تَحْيَى آلَهِةَ الهِنْدُوس: مَهَاتَمُكَالُ مِثَالُ شِيوا، وكَالِي زوجَةُ شِيوا، وإِنْدْرَا مَلِكُ السَّمَاء، وغُرُودَا الإِلَهَةُ ذُو الرَأْسِ الْمُصْفُورِيَّ، وَغَنِيْشَا الإِلَهَةُ ذُو الرَأْسِ الثَّلَاثِيَّ، وآلَهِةُ الْحِكْمَةِ، الْخ. وهذا الإِلَهَةُ الْأَخِيرُ هُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْإِلَهِةِ احْتِرَاماً وَتَجِدُ صُورَتَهُ فِي مَدَاخِلِ جَمِيعِ الْعَابِدِ، وَبِعِبَادَةِ هَذَا الإِلَهَةِ الْبَرَهْمِيَّ الْخَالِصِ يُبَاشِّرُ جَمِيعَ الشَّعَائِرِ الْبُدْهِيَّةِ.



٧٣ - - أحمد آباد . مقدم المسجد الكبير ( القرن الخامس عشر ) ( الارتفاع الجبهة : ١٣ مترًا و ٥٠ سنتيمترًا ) ( أنشئت مباني أحمد آباد المهمة المرسومة في هذه الصورة وفي الصورة الآتية في العصر الإسلامي على الطراز الهندي المعروف بالجنبي ، وهي لا تختلف عنه إلا بما أضف إليهما من الأفواس والديكائين الثانوية وبخلوها من التماثيل )

وانتحل بُدْهِيُو نيبال الرمزَ الهندوسىَّ مع تحريف مدلوله ، فهم قد عدّوه الرمزَ السِّدْرِىَّ الذى تجلّى به آدى بُودْهَة على صورةٍ لبيبٍ بدلاً من عدّه رمزاً إلى قدرة شيوا على الإبداع .

وقد بُدِّل شكلاً مع ذلك ، فنُقِشَت أربعة وجوه لبُدْهَة على جوانبه ، كما علّته زخارف بُدْهِيَّة .

وما قلنساه ترى درجة اختلاط بُدْهِيَّة نيبال بالبرهمية ، ولهذه البُدْهِيَّة أثر فى البرهمية كذلك ، فيُمثِّل بُدْهَة فى المعابد التى أنشئت تمجيداً لشيوا ، ويَقْصِد أتباع كلتا الديانتين كثيراً من المعابد ذوات الآلهة المشتركة .

وما تشاهده من امتزاج تَيْنِكَ الديانتين فى المعابد تجد مثله فى الأساطير التى نَسَكُرُ فى نيبال ، وتجد مثل هذا الامتزاج فى الأعياد الدينية التى يتعذر تمييز البُدْهِيَّ من البرهْمىِّ فيها ، ويزور الحجاج معابد تينك الديانتين ، على السواء ، زيارة المؤمنين .

تلك هى حال البُدْهِيَّة فى نيبال فى الوقت الحاضر ، ويمكن الناقد البصير أن يُقْصِر منذ الآن انصهارها فى البرهمية قبل انقضاء قرنين أو ثلاثة قرون مستنداً إلى ما ذكرناه ، وقد يعزو السامع ، الذى يحلّ فى المستقبل دور التطور الذى تُجَاوِزه الآن كما جهل المؤرخون المعاصرون تطور البُدْهِيَّة السابق فى الهند ، أقول البُدْهِيَّة عن نيبال إلى شِدَّة الاضطهاد مستشهدين بأطلال المعابد التى تسره إذ ذاك .

بيد أن السامع الذى أُنْتَخِلَ ظهوره فى المستقبل إذا لم يقتصر على درس مُبَقَّعة واحدة من بقاع الهند فَصَبَرَ فَجَابَّ جميع أرجائها نَفَذَت مبادئ التطور الدينى نفسه فصانته عن مثل ذلك الخطأ ، فن أجل هذا نرى أن تَقْصَى الهند أفضل من مزاوله

كتب التاريخ بمراحل ، فالهند هي البلد الوحيد الذي يمكن الباحث أن يُبصر فيه عند انتقاله من مكان إلى آخر سلسلة التطور التي جاوزها البشر منذ عصور ما قبل التاريخ إلى الوقت الحاضر ، فبذلك الدرس الحى يطلع الباحث على التطورات السابقة التي انفتحت للنظم والامتدادات فلا ننصُّ الكتب في الغالب إلا على أقصى وجوها .

## ٦ — المذاهب الفاسفية في البُدْهيّة

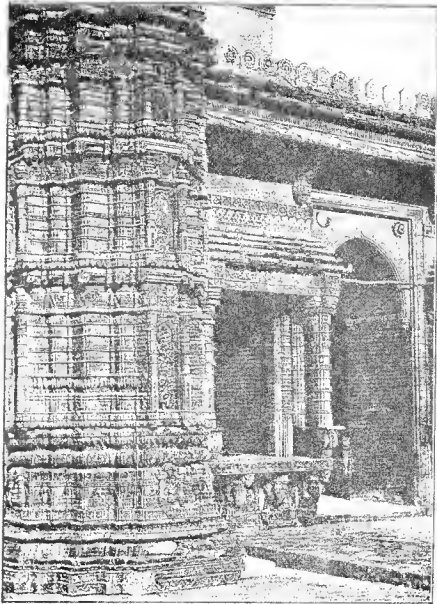
نشأت مذاهبٌ فلسفيةٌ مؤازية لبُدْهيّة مشابهةٌ لآتى ظهرت في العصر البرهمنى ، وليس في هذه المذاهب ما هو مبتكر كما ألعنا إلى ذلك ، وبعضُ كتبها إذ تُرجم إلى اللغات الأوروبية وظنُّ أن البُدْهيّة نفسها بين أضاميم ما تُرجم من هذه الكتب ترى من المفيد أن نُخصَّص روح تلك المذاهب تلخيصاً خاطفاً .

وأمّت تلك المذاهب على القول ببطلان ما فى السماء والأرض ، فالموجودات ليست إلا مظاهرَ وحواضٍ صائرة إلى الفناء ، وهى تشابه الرُّبْد الذى يعلو الماء طرْفَةً عَيْن .

« فلا رجال ولا نساء ولا خَاق ولا حياة ولا نفس ، فلا حقيقة لهذه الأشياء ، وهى وليدة الخيال ، هى مشابهة للوهم ، مشابهة للرُّوْيا ، مشابهة لسُكُل ما هو مختلف ، مشابهة لخيال القمر فى الماء . »

ولا يَعْرِف هذا المذهبُ الفاسفى ، الذى لا عهد للأوربيين بمثل تطرّفه ، إلهاً خالصاً ولا إلهاً أقدم من العالم ، فالطبيعة ، بحسب هذا المذهب ، هى سلسلةٌ لا حدَّ لها (أولاً وآخراً) من الموالد والمهلكات والتراكيب والانحلالات الدائمة





٧٤ - أحمد آباد ، مسجد الملكة في مہرزاپور ( القرن الخامس عشر من الميلاد ) ( دقائيق الزخرف )  
( بناع ارتفاع قسم المئذنة الیادی علی المہوورة سنة أمانار و ٣٠ منہتمراً )

والعمال المتحوّلة التي هي معلولات والمعلولات المتحوّلة التي هي عللٌ والحوادث التي لا أولَ ولا آخرَ لها .

وفلاسفةُ البُدهية ، بعد أن أنكروا مبدأ التكوين ، أنكروا مبدأ القضاء .  
والقدر السائد لجميع الأديان اليونانية ، فلم يَرَوْا وجودَ قَدَرٍ مسيطر على الحلوقات ،



فصيرُ كلِّ مخلوقٍ عندهم مَنُوطٌ بِسَيْرِهِ ،  
والنَّاموسُ الأدبيُّ هو الذي يربط  
الحوادث بعضها ببعض ، والأعمالُ  
وحدها ، أو نتائج هذه الأعمال ، هي  
الخالدة ، والمخلوق يمكنه بالفضل أن  
يَحِلَّ ، بعد سلسلة من الموالد ، إلى نعمة  
العدم فلا يبعث إلى بالدموع ولا بالآلام  
فيئني في زُرْوانا فلا تبقى ضرورة إلى  
تَقَمُّصِهِ صوراً أخرى .

وفي كتب الفلسفة البُدهية سلسلةٌ  
من التأمّلات التي تُنْتِجُ بُطْلانَ  
الأشياء ، فالْبُدهيُّ ، بعد أن يَعْلَمُ

٧٥ - أحمد آباد . مسجد الملكة في سارنغ پور  
( القرن الخامس عشر من البلاد )  
( يبلغ ارتفاع نِصْفِ المِئذنة الظاهر في هذه الصورة  
خمسَ أمتار و ٦٥ سنتمترًا )

مِنْطَقَةَ الصورة والصلابة والخِلْفَةِ ينتهي بتأمّله إلى مِنْطَقَةِ اللانهاية في الفضاء ، والبدهيُّ  
بعد أن يَعْلَمُ مِنْطَقَةَ اللانهاية في الفضاء ينتهي إلى مِنْطَقَةِ اللانهاية في الذكاء ،  
والْبُدهيُّ بعد أن يَعْلَمُ مِنْطَقَةَ اللانهاية في الذكاء ينتهي إلى مِنْطَقَةِ العَطَل من

الموجودات ، والبُدهى بعد أن يجاوز منطقة العطل من الموجودات ينتهى إلى منطقة العطل من الخيالات وعدم الخيالات ، والبُدهى بعد أن يجاوز منطقة العطل من الخيالات وعدم الخيالات ينتهى إلى منطقة الانقطاع عن الخيالات والإدراكات ، فهناك يصبح محايداً تجاه الأفكار ، محايداً تجاه إدراك الخيالات فيعود غير ذى خيال ، أى غير مؤكّد عدم الوجود لما يدُلّ عليه هذا التوكيد من الوجود ، فإذا ما بلغ هذه المرحلة الخالية التى ارتفع إليها « أضحى اسم بُدهة كلمةً وأضحى بُدهة نفسه وهماً أو طَيْمَماً » .

وهذه المزام الفلسفية التى لا أمارى فى بُعد غورها تسوق واضعياً ، فى بعض الأحيان ، إلى السفطة ، والتوكيد أول ما يُجيب به فلاسفة البُدهية عن جميع الأسئلة ، ثم يحبون عنها منكرين ، ثم يحبون عنها غير مؤكدين وغير منكرين ، ومن ذلك أنهم يحبون عن السؤال : « هل يوجد بُدهة أو لا يوجد بعد الموت ؟ » بقولهم : « يوجد بُدهة بعد الموت ، ولا يوجد بُدهة بعد الموت ، ويعود بُدهة غير موجود بعد الموت ما دام غير موجود بعد الموت » .

وبين الأوربيين من يرون ، مثل حَوارِيّ شاكِيّه موفى أن العالم سيصبح بُدهيّاً ، وليس فيما يرون ما يتعذر وقوعه ، فاستنبطوا من تأملات فلاسفة البُدهية كتاب ديانة ذا مسحةٍ عصرية فوافق عليه كاهن شرى بدا الأكبر بجزيرة سيلان ، ولا أقول مؤكداً إن هذا الكاهن الأكبر الذى استصوبه قد أَلَمَ به ، وإنما يُحَيِّل إلى أنه يوافق على كتاب ديانة آخر مُستنبط من الكتب البُدهية مناقض لذلك الكتاب .

وذلك الكتاب الصغير إذ اشتمل ، بأسلوب واضح ، على ما يمكن استنباطه من رسائل الفلسفة البُدْهيّة وكان مما رَضِيَ به مذهبُ بُدْهيٍّ مهمٍّ معروفٍ بِبُدْهيّة الجنُوب فإننا نقطف منه العبارات الأساسية الآتية :

« ٥٧ — ما هو النور الذي يُبَدِّدُ جهلنا ويزِيلُ جميع هوامنا ؟ هو أن نعرف ما سمّاه بُدْهَةٌ بالحقائق الأربع السّكرية .

« ٥٨ — ما هي هذه الحقائق الأربع السّكرية ؟ هي . ( أ ) بُؤْس الوجود — ( ب ) عِلَّة البُؤْس أى إرواء العُلَّة التى لا تُرْوَى لتَجَدُّدِها — ( ح ) هدم الرّغبة — ( د ) وسائل هدم الرّغبة

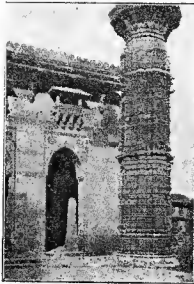
« ٦٥ — إلى أى شئ نَصِلُ عند إحراز النجاة ؟ نصل إلى نِرْوَانَا .

« ٦٦ — وما هي نِرْوَانَا ؟ هي حالٌ يَقِفُ عند حدّها كل تمولٍ فتكون السّكينةُ فيها كاملةً ما عَطِلَتْ من الرغائب والأوهام والآلام وكلُّ ما يجعل الإنسان هَيُولًا نِيًّا ، والإنسانُ ، السّكى يبلغ نِرْوَانَا لا بدًّا له من أن يُبْعَثَ باستمرار ، فإذا ما بانها انقطع بعثه .

« ٦٩ — وهل حسناتنا أو سيئاتنا فعلٌ فى الصورة التى نُبْعَثُ عليها ؟ أَجَلٌ ، فالْحَكَمُ العام هو أننا نُبْعَثُ فى حالِ حسنة عند ما تَتَقَلَّلُ حسناتنا وأُتَا نُبْعَثُ فى حال سيئة عند ما تَتَقَلَّلُ سيئاتنا .

« ١٢٢ — وبأى شئ يختلف كنهة البُدْهيّة عن كنهة الأديان الأخرى ؟ كنهة الأديان الأخرى يزعمون أنهم وسائطُ بين الله والناس لِيُعِينُوا الناس على نَيْلِ الغفران ، وكنهة البُدْهيّة لا يعترفون بالقدرة الإلهية فلا يَأْمُلُونَ شيئًا منها ، ويجب عليهم ، مع ذلك ، أن يَقْضُوا حياتهم على مذهب بُدْهَةٍ وأن يَهْدُوا الآخرين إلى الصراط المستقيم ، ويرى البُدْهيّون أن الله ظِلٌّ عَظِيمٌ قَدَفَ به خيال الجُلهال فى الفضاء .

« ١٢٨ — وبأى شيء تختلف البُدْهيَّةُ اختلافاً جوهرياً عن الذى يُسمَّى ديناً بالمعنى الصحيح ؟ بُدْهيَّةُ الجنوب تُعلِّمُ الصَّلاحَ من غير إيمان بالله ، وتقول بدوام الوجود من غير الذى يُسمَّى الروح ، وبالسَّعادة من غير سماء ذاتية ، وبالسَّلامة من غير رسول مُنقِّذ ، وبالنَّجاة من غير طقوس وصلوات وتَوْبَةٍ ووسطاء من السَّكينة أو القديسين ، وإن شئتَ قلَّ بقرط الصَّلاحِ في هذه الحَيَاة وفي هذه الدُّنيا .



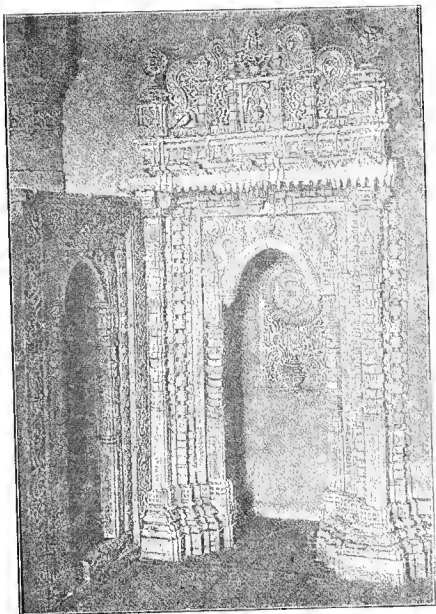
٢٦ - أحمد آباد . مسجد محافظ خان ( أقيم في القرن الخامس عشر من الميلاد ) ( يبلغ ارتفاع قسم المئذنة الظاهر في هذه الصورة ١٢ متراً وسبعين سنتيمتراً )

« ١٣٥ — أَفَتَقُولُ البُدْهيَّةُ بخلود الروح ؟ يَعدُّ مذهب الجنوب « الروح » كلمة يُعَرِّبُ بها الجاهل عن رأى خاطئ ، فإذا كانت الأشياء عُرْضةً للتغير وكان الإنسان شيئاً وجب أن يتغير كلُّ جزء منه ، فلا دوام مع التغير ، ولا خلود مع التحول .

« ١٣٦ — إذا طُرِحَ المبدأ القائل بالروح البشرية جانباً ، فما الذى يُوجِبُ إلى الإنسان بدوام وجوده ؟ الرغبةُ في الحَيَاة التي لا تُروى لها غَلَّةٌ ، فالوجود ذو الرغبة الذى يصنع ما يكافأ به أو يعاقب عليه في المستقبل يتناسخ بتأثير كَرَمَا .

« ١٣٧ — وما الذى يُبْعَثُ ؟ هو تَسَكُّلٌ سِكنَدَا أو شخصٌ جديد صادر عن تَنَصُّد الشخص الميت تنصداً أدبياً .

« ١٤٤ — وهل تَسَكُّلٌ سِكنَدَا الجديد هذا أو هذا الشخص الجديد هو الموجود



٧٧ - أحمـد آخـاد . الخراب الرخاى المغوش فى المسجـد السابق ( يبلـع بمـجـوع ارتفـاع القـسم المغوش نحو ثلاثـة أمتـار )

السابق نفسه ؟ نعم ، من جهة ، ولا ، من جهة أخرى ، ففي أثناء حياتنا الحاضرة  
تبدل سِكَندًا تبدلًا تامًا فمع أن ابن الأربعين فلانًا هو الشخص نفسه أيام كان ابنَ  
الثامنة عشرة ، يُعدّ غيره إما اعتور جسمه وذكاءه وأخلاقه من التَّغَيُّر ، ويُجْزَى  
وهو شيخ ، مع ذلك ، بما عَمِل من الصالحات وما جَرح من السيئات وهو شابٌ ،  
والشخصُ الجديد الذى يُولَد إذ يُولد مُتَمَمِّصًا الشخصَ السابق مع تبدل قليل  
في الصورة أو يولد بتكتل سِكَندًا فإنه يحتمل نتائج أعماله في حياته الأولى .

وإنى حين أختِم تلك المختارات أقول مكرّرًا إن البُدْهِيَّة التى قامت في الهند  
في العصر البُدْهِيّ فأفصحَت عنها المباني تختلف عن المذاهب الفلسفية المذكورة آنفًا ،  
وإن قرابة هذه من البُدْهِيَّة دون قرابة النصرانية من الوثنية اليونانية الرومانية ، وإن  
البُدْهِيَّة الصحيحة هى أكثر أديان الهند إشراكًا ما أضافت آلهةً جديدةً إلى الآلهة  
البرهية ، وإن البُدْهِيَّة التى ننطق بها المباني هى دِيانةٌ ، وإن البُدْهِيَّة المذكورة فى  
الكتب التى وُضِعَت بعد ظهور بُدْهة بستمئة سنة على الأقل هى مذهبٌ فلسفى ، وإن  
ما بين تلك الديانة وهذا المذهب من الهُوَّة العميقة مثلُ التى تُفَصِّل التوحيد  
عن الإلحاد .

## ٧ - المجتمع البُدْهِيّ

من يُرَدُّ أن يَتَّبِعِينَ ما كان للأدب البُدْهِيّ من الأثر الطيب فى المجتمع  
فليَطْلِعْ على مراسيم أشوكا ، فهو يجدّها مملوءة بالتحاليم التى أريد بها سيادة الوثنام  
والسلام والمحبة بين الأنام ، وليست تلك المراسيم شرعيةً سياسية كما ظُنَّ فى أيامنا ،  
بل هى قوانين ذات صِبْغة دينية أرادها وليُّ الأمر المُحِبُّ لرعاياه ، لما فيها من

البساطة والحسن وبذر الحب للآلهة وجميع المخلوقات .

وتختلف مراسيم أشوكا عن شرائع منو في ثلاثة أمور ، وهى :

١ — حب الخير العام الشامل للحيوانات أيضاً وحظر ذبح هذه الحيوانات .

٢ — روح المساواة التى دُعِى بها جميع الطوائف إلى سماع الوعظ الدينى والفوز بوعوده .

٣ — التسامح الذى يَرى معه أن فى كثرة المذاهب الدينية سير البشرية إلى السكال المطلق فيوجب احترامها جميعها .

كانت الحيوانات محل احترام فى المجتمع البرهمى لتجلى الروح العليا فيها بعض التَّجَلَّى أيضاً ، ولأنها صور لآدميين تَقَمَّصوا فيها ، فى الغالب ، بسبب آثامهم ، بيد أنه كان لا يَرى كبير حرج فى قتلها ، فكان الصيد من وسائل تَسْلِيَةِ الملوك والأكشترية ، ثم وضع أشوكا حداً لذلك فجاء فى مرسوم له ما يأتى :

« أَجَلْ ، إن مئاث الحيوانات تُذَبِّح فى كل يوم لأغراض محمودة وإن من الجائز ذبحها لغاية مفيدة ، ولكن تَبَيَّنَ النِّيَّةُ والغاية إذ يبدو صعباً فإن من الخير أن يَكْفَ عن ذبحها ، ومن ثمَّ يجب ألاَّ يذبح حيوانٌ فيما بعد » .

واتخذت وسائل لبلوغ رَفَاهِيَةِ الحيوانات والآدميين ، فجاء فى تلك المراسيم :  
« سَتُنْقَلُ الأعشاب والأشجار المثمرة التى تغيد الناس والحيوانات وتُزْرَع فى الأماكن التى لا تَكْثُر فيها ، وستُحْفَر الآبار وتُفْرَس الأشجار فى الطرق العامة ليستفيد منها الناس والحيوانات » .

وفى البرهمية الأولى نص على أن الناس يؤلَّدون مرَّتين ، والطوائف الثلاث



الأولى وحدها هي التي كانت تُدعى للتمتع بِنِعَم الدين وسماع المواعظ ، فكان يُصَبُّ في أُذُنَيَّ الشودريُّ الذي يستمع إلى وعظِ برَهْمِيٍّ أو إلى قراءة الكتب المقدسة زيتٌ حارٌّ ، فأليك ما قاله أشوكا في ذلك :

« سَمِعْتُ الواعظونَ البراهمةَ الحارِبينَ والسائِلينَ والمُحرومينَ وغيرَهم من غير عائق ، لِيُبدُ خُلوُ السرورِ إلى من يريد وَيَحُلُّوا وفاقَ من هو مُوثِقٌ وبحررُوا كلَّ أسير ، وسيجولُ الواعظونَ جوامعَ الكَلِمِ ومبادئَ البرِّ إلى إخواني وأخواتي وَيُسَدُّوا أُنزُرَ كلِّ تقى وَيَنْقُذُوا كلَّ شقى في أرجاء دولتي » .

وفي مراسيم أشوكا أروعُ مبادئ التسامح ، فقد جاء فيها :

« يقوم أصلُ مذهبنا وجوهره على أن تتبعَ دينَكَ ولا تُسَبِّ دينَ غيرِكَ أو تَحُطُّ من قدره ، وأن تحترمَ الأمورَ الدينيةَ مع ما بين العقائد من الاختلافِ لِما في ذلك من زيادةِ إيمانك ونموِّ يقينِ غيرِكَ ، ففي كلِّ دينٍ نواحٍ طيبةٌ يَحُضِّنُ التمسكَ بها ، ولا شيء ، عند الآلهة المحبوبة ، يَعدِّلُ زيادةَ الإيمان ونموَّ السَّكَّالِ الذي هو هدف جميع الأديان » .

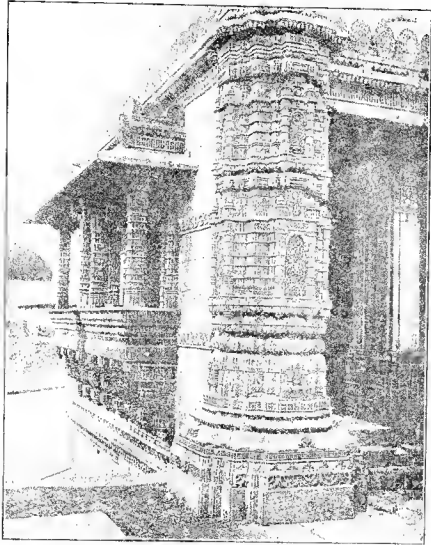
ولم تَبَقِ البُدهية ، على ما يظهر ، دينَ الدولة زمنًا طويلاً كما كانت في عهد أشوكا ، فلم يَكُدْ قرن واحد يمضي على وفاة هذا الملك حتى رَجَعَ بعضُ خَلَفائِهِ إلى البرهمية ، وظَلَّت البُدهية ، مع ذلك ، دينَ الشعب المسيطر في ستة قرونٍ أو سبعة قرون ، فكانت زاهرة حينما ساح الحاجُّ الصينيُّ فاهيان في الهند من سنة ٣٩٩ إلى سنة ٤١٤ بعد الميلاد ، ثم زار الحاجُّ الصينيُّ هيويِن سانغ الهندَ بعد ذلك التاريخ بقرنين فأبصرَ الانحطاطَ الذي آلت إليه البُدهية وشاهد في كلِّ مكان

هَجَرَ الناس لمعابدها وأديارها وتداعى هذه المباني ، فلما انقضى ألف سنة على عهد أشوكا كانت البرهمية قاهرةً للبُدْهيّة نهائياً ، وكانت البُدْهيّة غائبةً ، كدريانة ، عن الهند ، ولم تكن البُدْهيّة لتأفلُ كمبدأ أدبيّ ، فلا تزال ذات نفوذ إلى أيامنا ، وهى التى أوجبت ظهور البرهمية الجديدة التى هى ديانة الهندوس الحاضرة فندرسها فى الفصل الآتى .

والحاجّ الصينىّ فاهيان ذلك قد قام برحلته فى الهند بعد الميلاد بأربعة قرون ليزور الأماكن المقدسة التى وُلِدَ فيها بُدْهه وعاش وامْتَحَنَ ووَعَظَ ، وليُبَاحِثَ أُمَّةَ البُدْهيّة ويَسْخُجَ الكتب المقدسة .

كانت البُدْهيّة فى تلك الأثناء بالغة ذروتها ، فكان البنجاب ووادى الغنّج زاخرين بالأديار التى يَفْصِدُها ألوف الرهبان ليتعلموا فيها أسرار الدين ويتقنّوا إلى التأمل العميق الدائم قبل أن يَنْعَمُوا بِنِروّانا ، وتلك الأديار كانت تقوم على صدقات المؤمنين وهبات الملوك ، وكانت مركزاً للمعرفة ومقرّاً لحلّ المُضِلّات ، وكان يسودها صمتٌ زهدٍ فتمتّ الأمور اليومية فيها بنظام مطلق ، وفى تلك الأديار حلّ فاهيان ضيفاً فوجد ثلاثة آلاف راهب يسكنونها فيجتمعون حول اللوائد من غير أن يُسْمَعَ لهم صوت ولآيتهم ركُزَ قَفْضى العجب من وقارهم وحياتهم وأثرانهم .

وظهرت عدّة مذاهب يمكن ردها إلى فرقتين ، فرقة الحمل الكبير وفرقة الحمل الصغير ، فتُمثّل الأولى الفلسفة البُدْهيّة وتُمثّل الثانية أدبها ، وكانت الأساطير توضع وتنمو ثم تصبح من أصول الدين ، وكانت الطقوس تُنظَّم والأعياد والموكب تُزيّد وكانت الصور والذخائر والزهور والعمود تُجسّم فى هذا الفضاء الذى يَمَدَّر على العامة أن تتخيله ، فكان بذلك قيام الفلسفة البُدْهيّة .



٧٨ — أحمد آباد - مسجد رانی سیدی ، دقائی زخرویه ( القرن الخامس عشر ) ( یلع ارتفاع  
القسم الظاهر فی الصورة أربعة أمتار و عین سنبهترا )

وإذا نظرت إلى البُدهية من ناحية الدستور الاجتماعى والطبائع رأيتها تتجلى فى تخفيف الآلام وتقليل الضرائب وتسهيل الملائق ونشر السعادة وتعميم السلام بما يلائم طبيعة الهندوسى .

أجل ، ظلت الطوائف باقيةً مختلفة عملاً كما فى الماضى ، ولكنها بدت متحدة تساعداً ورفقاً ، فكشفت الكروب وأنشئت المشافى وأقيمت المرباط رمزاً إلى الإخاء الذى يجمع بين جميع الموجودات .

ومؤمات المجتمع الهندوسى تلك ، وهى التى أبصرها فاهيان ، وهى التى تسود جميع الأقطار البُدهية ، وتقرت فى الهند بفعل البرهمية التى نهضت بعد زمن فكانت خاسرة لرؤيتها الأولى حينما أتم هيوين سانغ حججه فى القرن السابع من الميلاد ، وكان النصر لمنهجية البراهمة على مبادئ البُدهية القائلة بالمساواة ، وما قام به هؤلاء من مكافحة البُدهية كان يعود عليهم بالفائدة ، وما فى الشعوب ، ولا سيما الشعب الهندوسى ، من احتياج إلى الآلهة الشخصية المنظورة جذب الجموع إلى الدين القديم بالتدريج ، فأسفر ذلك عن خراب المعابد والأديار البُدهية فى كثير من الولايات وأخذ بُدهة يحتل فى المعابد مكاناً دون مكان وشنوشيو ، وأضحت عاصمة البُدهية السابقة بانلى بوترا خربة ، وصار المسكان المقدس بُدهة غياً نفسه لا يأوى إليه سوى البراهمة .

وتطورات كذلك حدثت فى النظام الاجتماعى ، فبعد أن تكلم فاهيان عن حرية الزراع وقلة ما كانوا يؤتونونه من الضرائب فى زمانه روى هيوين سانغ أن

مقدار الخراج الذى أخذوا يؤتونه واحد من ستة أى مثلاً كان فى زمن منو لا ريب .

وظلَّت العقوبات خفيفة مع ذلك ، وكان يُصار ، فى الغالب ، إلى الماء والنار والمُسمِّ فى الابتلاء ، كما كان يُصار إليه فى محاکمتنا الإلهية فى القرون الوسطى .

وأثنى هيون سانغ على أخلاق الهندوس فأعجب بشرفهم وبما نشرته البُدهية من الرِّفق والمحبة بين جميع طبقاتهم ، فذكر ، على سبيل المثال ، الأفراح العامة التى كانت تجتمع بين ألوف الآدميين من جميع المذاهب والطوائف فيُوزَّعُ الملك فى أنفائها العطايا السَّنيَّة على الجميع ، لا فرَّق فى ذلك بين البراهمة والشودرا ، وبين البُدهيين والمللحين .

ولسكى يُحمِّد هيون سانغ الاطلاع على الفلسفة البُدهية أمام خمس سنوات بدير نالندَّا الذى كان أشهر أديار الهند فكان يضمُّ نحو عشرة آلاف راهب ، ثم جاب هذا الحاجَّ الصينى الهند فوصل إلى سيلان ، ثم قطع الهند ثانية راجعاً إلى بلاده فكانت الرحلة التى قام بها كالتي قام بها فاهيان فيما مضى تقريباً .

وأخذ نجم البُدهية يَأْفُلُ عن الهند بسرعة منذ ذلك الدور ، أى منذ القرن السابع من الميلاد ، فلم يلبث أن غاب عنها تماماً ، فكانت المعابد البُدهية التى أقيمت فيها بعد القرن السابع قليلة جداً ، ومن الأسباب التى أوجبت ذلك الأفول عن الهند كثرة الفرَّق التى انقسمت إليها ، فعَدَّ هيون سانغ ثمانى عشرة فرقة منها فَنَشَبه حماسها فى مجادلة بعضها لبعض بأمواج البحر ، ونرى البُدهية فى هذا

القرن التاسع عشر ، كذلك ، بعيدة من الوصول إلى وَحدة العبادة والمذهب ، فوجدت فرقتين كبيرتين : إحداهما في الشمال والأخرى في الجنوب تَزْعُمُ كل واحدة منهما أنها على الحقّ وأنها حافظة لثَرَاث بُدْهَة .

والآن نذكر في بضعة أسطر المبادئ الأساسية التي يمكن استخراجها من هذا الفصل فنقول :

إن البُدْهية الأولى لم تكن ديانةً جديدة ، بل كانت طوراً من البرهمية التي لم تختلف عنها بسوى أديها ، وإنه نشأ بعد ظهور البُدْهية بزمن طويل مذهب "فلسفي" نشوءاً مؤازياً لها ، وإن أدب البُدْهية يرجع إلى أوائلها ، فيلوح لنا أنه نتيجة آلام البشر ، وإن بدْهَة كان أحدَ أكابر المتكففين الذين هَزَّ صوتهم الدنيا هزّاً عنيفاً لثَقَمَتِهِمْ آمال الجنس .

وإن جذور الفلسفة كانت سائجة في تراب أقدم من ترابها ، وإنها ظهرت حينما كان زُهاد البرهمية المنهوكون المهزولون يُفَسِّكُون ساكنين تحت الأشجار فكان الفناء مثلاًهم الأعلى قبل ظهور بُدْهَة .

وإن البُدْهية إذ لم تكن ديناً ، وإن العالم إذ كان عاطلاً من أى شئ يستغنى عن دين ، استردت البرهمية سابق منزلتها ، وتم لها النصر بعد أن أخذت البُدْهية تتحول إليها ، وإن البُدْهية التي يَدِين بها اليوم خمسة مليون من البشر ليست ، بالحقبة ، سوى طور من البرهمية غير قريب من مثالها الأول لنشوءها بعيدة من العالم البرهمي أى من العالم الهندوسي ، وإن الفروق زادت مع الزمن باختلاف

العروق التي اعتنقتها ، وإن هذه الفروق تتدرّج إلى الزوال لدى العرق الذي لاحت له البرهمية ولاح له إصلاحها .

ولا يمكن الافتراض القائل إن الاضطهادات العنيفة هي التي أدّت إلى نوازي البُدهية عن الهند أن يَقف أمام الوثائق التي عرضناها في هذا الفصل ولا أمام ثبوت المحاسة الغريزية التي صدرت البُدهية بها عن البرهمية وثبوت تطور النفوس البطيء الذي عادت به إليها

## الفصل الرابع

### خصّارة العصر البرهمنى الجديد

وصف المجتمع الهندوسى حوالى القرن العاشر من الميلاد

(١) العناصر التى يستعان بها فى بعث العصر البرهمنى الجديد - غموض تاريخ الهند فيما بين القرنين الثامن والثانى عشر - مبادئ ذلك العصر وكنائباته وأسماطه - الوسائل التى يستعان بها فى بعث حال المجتمع السياسية والاجتماعية فى ذلك العصر - (٢) المجتمع الهندوسى حوالى القرن العاشر من الميلاد - بلوغ الفن الهندوسى غايته - وصف مدن الهندوس الكبيرة فى القرن العاشر - جادة سكانها - شأن الخيليات - أعمال الملوك والأمراء - دين الأهالى - (٣) نظام ممالك الهند الآرية السياسية والاجتماعى حوالى القرن العاشر من الميلاد - راجيونانا هى البلاد الهندى الوحيد الذى حافظ على نظامه السياسى والاجتماعى القديم - أوجه شبه ظاهرة بين هذا النظام والنظام الإقطاعى - الفروق الأساسية الحفزية بينهما - الرمز الراجيونى - ظهورها - الأسرة الراجيونى - الطوائف والمعادن .

### ١ - العناصر التى يُستعان بها فى بعث العصر البرهمنى الجديد

يبدأ العصر الذى نصفه الآن حوالى القرن الثامن من الميلاد أى حين توارت البُدهية عن الهند تقريباً ، فالْبُدهية ، بعد أن سيطرت على الهند ألف سنة ، خَسِرَت سلطانها على النفوس ، فماتت ، فكان موتها دليلاً على تبدل المجتمع ، وبرهيةُ القرون الأولى هى التى حَلَّت محلَّ البُدهية ، ولكن مع ما اعتورها من تطور بالغ بفعل تلك البُدهية .



وفي العصر الذي اتهمنا إليه كان النظام السياسي الذي أعان على انتشار البُدهية،  
أى على اتحاد مُعظم الهند تحت سيد واحد ، قد زال منذ زمن طويل ، فقد انقسمت  
الهند إلى دويلات كثيرة مَاسِكِيَّة مطلقَة مستقلة متناحرة في الغالب .

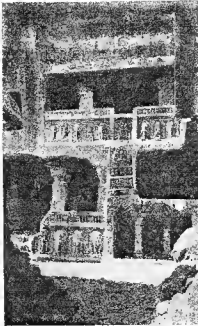
وتاريخُ العصر الذي ندرسه في هذا الفصل فيمتدُّ من القرن الثامن إلى القرن  
الثاني عشر بعد الميلاد ، أى الذي دام منذ أقول البُدهية إلى دور المغازى الإسلامية،  
من أكثر التواريخ غموضاً ، فلولا ما وصل إلينا من مبانيه التي تنطق بعظمة الممالك  
التي ازدهرت فيه ما علمنا من أمره إلا قليلاً ، والمباني الخربة وبعضُ السكتابات  
والنقود والكتب الأديسة التي لا يُعرف تاريخها هي كلُّ ما بَقِيَ من وثائق ذلك  
العصر ، وهذه الوثائق تسكني ، مع ذلك ، لإثبات أن ذلك العصر الجديد ليس أقلاً  
ازدهاراً من الذي جاء قبله .

إِذَنْ ، ووثائقُ بحثِ المجتمع الهندوسي حوالى القرن العاشر قليلةٌ جداً ، وهى تؤدى ،  
مع ذلك ، إلى رسم خطوط الحضارة التي ندرسها في هذا الفصل .

وما مُمَلاً به الهند من المباني العجيبة ، فلا يُقاس به ما أنشئ في القرن  
الأول من الميلاد ، هو أهمُّ وثائق ذلك العصر ، فقد رأينا في الفصل السابق درجة  
وضوح هذه الكتب الحجرية التي تبدو صفحاتٍ هائلة فوق أرض الهند ، فهذه  
المباني نستطيع أن نَقِف على ما اعتور أديان الهند من التطور البالغ .

قامت المعتقدات الجديدة التي نبحث فيها الآن على أساس المبادئ القديمة التي  
تغلَّبت عليها البُدهية عدة قرون ، نَعَمْ ، بُعث الدين القديم ، ولكن مع تبدل عميق  
بفعل البُدهية من جهة وبفعل روح الأجيال الجديدة من جهة أخرى ، وهذا الدين

الذى نسميه « البرهمية الجديدة » هو الدين السائد اليوم ، وهو الدين الرسمي لمُعظم الهند الحديثة على الدوام ، وهو وإن حَوَّلته الأفعال لم تَبْدَلْ أصوله ، ونحن ، حين ندرس هذه الأصول كما نبدو لنا اليوم ، تتمثل ما كانت عليه منذ ثمانية قرون على وجه التقريب .



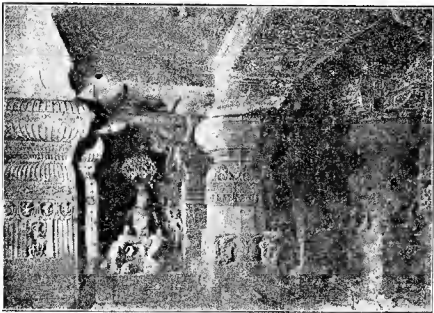
نَتَيَّنْ دِهْ ذَلِكَ العصر بدرجة الكفاية بما انتهى إلينا من المباني والكتب إذن ، وبالمباني نُطَلِّع على حال الحضارة الهندوسية في القرون التي مرت قبل الفتح الإسلامي ، ومن دواعي الأسف أنها لا تفيد كثيراً في استخراج نُظْم ذلك العصر الغامض السياسية والاجتماعية ، وهو الذى نُسَجِّت فيه شبكة ما فى الهند من العادات والمعتقدات التى لا تزال سكتنفها .

٧٩ - بلورا . قدم من مقدم معبد لندراس المصنوع تحت الأرض ( فى القرن السادس من الميلاد ) ( يبلغ ارتفاع مجموع المقدم ١١ متراً و ٢٠ سنيمتراً )

وإذا كنا لا نستجلى نُظْم المجتمع الهندوسى السياسية والاجتماعية فى ذلك

العصر بما لدينا من المباني والكتب لم يَبْقَ لنا ، لبلوغ ذلك ، سوى البحث عن بُقعة فى الهند صانت نفسها ، لمزلتها ، عن المؤثرات الأجنبية فحافظت على النظام القديم ، من غير تغيير كبير .

ومن حسن الحظ أن وُجِدَت تلك البُقعة فاستطعنا أن ندرس نظامها في زمن أو شك أن يَغيب فيه ، فإذا عَدَوْتَ بعضَ أجزاء الدَّكْن التي تسكنها عروق متأخرة لم تَرَ في جميع الهند سوى بُقعة واحدة تَفَلَّت بفضل موقعها الجغرافي من المؤثرات الأجنبية فحافظت على نُظُمها وعاداتها القديمة وما نُظِر عليه أهلها من خُلُق الحرية



٨٠ - إيلورا . داخل المعبد السابق المصنوع تحت الأرض ( يبلغ ارتفاعه مترين و ٦٠ سنتيمتراً )

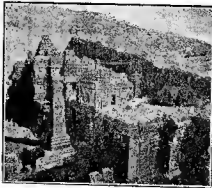
والاستقلال ، وتلك البُقعة هي المنطقة الجبلية الواسعة التي نَصِفُها باسم راجيوتانا ، وتلك البُقعة هي البلاد الهندى الوحيد الذى لا يزال يملكه حَقْدَة قدماء الملوك ولا يزال مُسَيِّكًا بتلايب النُظُم الأولى وآثار الماضى مع تعاقب القرون ، ونحن ، إذ ندرس هذه النُظُم كما تبدو اليوم للباحث نَتَمَكَّن من رسم صورة صادقة عن نظام ممالك الهند التي كان يسكنها أهلون من الآريين حوالى القرن العاشر من الميلاد .

## ٢ - المجتمع الهندوسى حوالى القرن العاشر من الميلاد

يمكننا أن نقيس الحضارة الهندوسية التى دامت من القرن الثامن إلى القرن الثانى عشر بعد الميلاد بالحضارة الأوربية فى أواخر القرون الوسطى ، وذلك عند النظر إلى المباني العظيمة و بعض الكتب الأدبية التى انتهت إلينا من ذلك العصر ، فقد بلغت الفنون حينئذٍ دورها الزاهر فى الهند ويمثل ما شيد فى كهجورا وجبل ابو وغيرهما من المباني العجيبة التى ندرسها فى مكان آخر ما أسفر عنه الفن العوطى من الآثار الجيلة ، ولن نقوم آثار رائعة كتلك إلا فى مجتمع غنى مهذب مُقدّر للفنون مشتمل على فريق من كبار المتفنيين ، وليس بمجهول لدينا تاريخ مباني ذلك العصر ، وهى كثيرة فى شمال الهند وراجپوتانا وشواطىء أوريسه ، وتؤلف أصدق ما لدينا من الوثائق عن ذلك العصر ، وما وصل إلينا من كتب ذلك العصر الأدبية من أشعار وروايات فجدير بالذكر ، وإن كان من الحذر الحسن ألا يستند إليها كثيراً لتعذر معرفة الزمن الذى صيغت فيه فى الغالب : أهو نحو سبعة قرون أم نحو ثمانية قرون ، ولكننا إذا علمنا أن الأمور تتبدل فى الهند قليلاً وأن مِضى القرون فيها كُثِفى السنين فى سواها أمكننا أن نقبس من تلك الكتب بعض المعارف العامة التى نُكسبها بوثائق أصدق منها .

وعلى ما نقوله ، تقريباً ، من أن القصائد الحماسية الهندوسية الكبيرة المعروفة بالراماينا والمهابهارتا هى وليدة كل دور ما صُحِّحت وأُكملت بما أُضيف إليها فى غضون عشرة قرون نرى أصلها أقدم من الميلاد وأنها لا تصلح جيداً لاستنباط المعارف التى تُطبَّق على العصر الذى ندرسه فى هذا الفصل ، وكل ما نرى الاعتماد عليه فى

هذا المظهر هو القِطْع التمثيلية التي تُعدّ كاليداسا وسُدْراكا أهمّهما ، ولا نعرف تاريخ هذه القِطْع التمثيلية بالضبط ، ويوح لنا ، مع ذلك ، أنها وُضعت بعد القرن الأول من الميلاد وقبل القرن العاشر من الميلاد ، وإذ إن ما يُسْتَنْبَط منها لا يختلف عما يُسْتَنْبَط من المصادر الأخرى تقتصر على اقتباس وصف موجز لإحدى المدن الهندوسية الكبيرة والمجتمع الهندوسى ، وهذا الوصف يوجد فى رواية سُدْراكا « مركبة الصّال »<sup>(١)</sup> التي تمرّ من أوجين عاصمة مالوا ذات المباني الخريبة فى الزمن الحالى ،



وما جاء فى تلك الرواية من وصف القصور والبيوت والمعابد يَفْضى بالعجب وينال الباحث منه الأرب ، وليس فى هذا الوصف ما يُوصَم بالمبالغة ما شهّد به من زار مباني غواليار وكجورا وجبل آيو ، فقد رَسَم واضع تلك الرواية أمامنا ، بوصف ساحر ، صورة قصر رُخامى مُرصّع بالحجارة الكريمة ذى رِذاه مُجَهَّزة بصفايح ذهبية مُوشَّاة بالألماس

٨١ - إيلورا . معبد كيلاسا المصنوع من حجر واحد  
( القرن الثامن من الميلاد ) \*

(١) الصّال : الطين اليابس الذى يصل من ببه أى يصوت .  
\* بما أن معبد كيلاسا هو أشهر معابد الهند فدرسه فريق كبير من علماء الآثار رأينا أنه لا طائل من ذبانه فلانين أننا نجد أبعاداً فى كتب كثيرة ، ومن دواعى الأسف أن وجدنا اختلافاً كبيراً فى ذلك بين هذه الكتب فلم نسلط أن نتفحص بها ، وأما أبعاد المباني التى ذكرناها فى هذا السفر فقد استعنا فى الحصول عليها بآلات حديثة وصفاها فى مذكرة خاصة عنوانها « الهند الأثرية والتهاج » فلا يعدو الخطأ الذى نسفر عنه هذه الآلات يضع سنين بترت ، فهذه الأبعاد إذ تنال بها آلياً يجنب بها ما نؤدى إليه الفراءة والحساب من الأغالط الناشئة عن الطرق المعتادة التى لا يستفاد منها ، مع ذلك ، فى قياس الآثار المحاطة بالأبنية المائنة من قياس الأساس .

وذى قناطرٍ من العاج المنقوش وذى جُدُرٍ محاطةٍ بمحائِقٍ وأزهارٍ زاهيةٍ مشتملةٍ على  
مشكّاتٍ مُظلمةٍ ، وحَدَثنا عن معابدٍ رائعةٍ منعكسةٍ على مياه النهر مشتملةٍ على  
محاريبٍ حافلةٍ بالأسرار عامرةٍ بكاهناتٍ سافراتٍ ذواتٍ كهوبٍ ومعاصمٍ محاطةٍ  
بمخالخلٍ وأُسُورَةٍ من ذهبٍ وفِضةٍ تجلجل بالتراف. عندما يَرْتَقِصن أمام الآلهة  
بانسجام .

ومن أزهى دور تلك المدينة دارُ الخليفة الكبرى وَسُنَّت سينا التى كانت من  
أهمّ وجوهها ، وقد كان للخليلات فى ذلك العصر من الشأن العظيم مثل ما كان لهنّ فى  
عصر بريكليس اليونانى ، ومن ينعم النظر فى الخلاصة الآتية التى أقتبسها من رسالة  
أسيوسوبه فوصفت فيها تلك الدارَ يَعْلَمُ ضَوْؤُهَا نفائس الخليلات فى زماننا إذا  
ما قيست بها .

« فى تلك الدارِ رِدَاهُ ثمانٍ وفُسُيفساءُ رائعةٌ ، وزرابى<sup>(١)</sup> لامعةٌ وحنايا<sup>(٢)</sup>  
مُرَصَّعةٌ بالعاج ومُرَيَّنةٌ بالرايات ، وعمدٌ تعلوها آنيةٌ من بلّور ، وصفايحُ من الإبريز<sup>(٣)</sup>  
ساطعةٌ ، وقبابٌ مُرَيَّنةٌ ، ومعارجُ<sup>(٤)</sup> رُخاميةٌ ، ومنافذُ ذواتُ قلائدٍ من لؤلؤ ،  
وفى أصابيل<sup>(٥)</sup> تلك الدارِ بَقَرٌ وجواميسُ وكِبَاشٌ وخيلٌ وِقِرَدَةٌ وفيلةٌ ، وفى  
تلك الدارِ موائدٌ قارٍ ليجلس حولها صَفُوفٌ فُسَاقٍ أَوْجِينٍ ومطربون من كلِّ نوعٍ  
ومُعَنُّون وراقصاتٌ وممثلون وقاصُّون ممثّلون لأوامر الخليفة الكبرى ، وفيها مطابخُ  
واسعةٌ عامرةٌ تَدَكَّرُ النّهمَ مَتَرِيّاً بِنَجْنَةٍ إندرا ، وفيها حوانيتٌ للعطور ومصانعُ للحجّى

(١) الزرابى : جمع الزربى والزربية : ما بسط وانكى عليه - (٢) الحنايا : جمع الحنية : من  
البناء ما كان منحنيّاً - (٣) الإبريز : من الذهب خالصه - (٤) المعارج : جمع المراج وهو السلم  
والصعد - (٥) الأصابل : جمع الإصطبل .

فيتألف منها سوق ، وفيها كتيبة من اتخذم أو الإيميين<sup>(١)</sup> الذين يتنادرون ويضحكون ويلوكون المسك ويقالكون التنبيل<sup>(٢)</sup> ويقصفون<sup>(٣)</sup> ، وفيها حياض ذات مياه مزعفرة<sup>(٤)</sup> ، وفيها حظائر للطيور مذهبة حيث تهتز الببغاوات والزرايق والطواطي والحجلان<sup>(٥)</sup> والساوى<sup>(٦)</sup> والطواويس والأوز ، وفيها حديقة نصرية علقت فيها أراجيح من حرير .

والملتجع في أورجين ، كما في زمن ميخاستين وفي زماننا ، قائم على نظام الطوائف ، والمهين فيه وراثية ، ويتألف منها سلسلة معتددة يرثسها البراهمة في كل حين ، وتجد بين البراهمة زاهدين وتجد بينهم مسترفين مسرورين ، وتجد بينهم هوة الشهوات والنساء الجليات من غير أن يؤثر هذا في مقامهم .

ويكون ولي الأمر ملكاً مطلقاً على الدوام ، ولا شيء يُقيد سلطانه غير ما يحاك حوله من المؤامرات التي تهدده بلا انقطاع فلا يستطيع حارسوه من الأكرتية أن يحبطوها في كل مرة ، ويظهر أنه كان يخكم بالعدل على ألا يكون أحد الخصوم قوياً ، ففي الهند ، كما في أوربة ، يُقضى للقوى إذ ذاك .

وفي مقدمة تلك الرواية ، التي وضعت بعد زمن ، ذكرنا لأكثر المعارف اعتباراً ، فقد مدح فيها ملك لا اطلاعه على كتب الوبدا والرياضيات والفنون الجميلة ومهارته في تربية الفئول .

(١) الإيمون : جمع الإيمع والإيمة وهو التابع لكل أحد على رأيه — (٢) التنبيل : نبات من الهند يعضغ ورقه — (٣) قصف بقصف فصفا وفصوداً : أقام في أكل وشرب ولهو وأكثر من ذلك — (٤) زعفره : جعل فيه الزعفران — (٥) الحجلان : جمع الحجل وهو طائر في حجم الحمام أحر المنار والرجلين وهو يمشي في الصرود العالية يستطاب لجه — (٦) الساوى : طائر أبيض مثل السباني .

وإذا لم نَسْطِيعْ أَنْ نَمَثِّلَ جِيداً حَيَاةَ الْمَلِكِ الْيَوْمِيَّةِ وَكِبَارِ الْأَسْرَاءِ الَّذِينَ يُقَلِّدُونَهُ بِحُكْمِ الطَّبِيعَةِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ مِنْ تِلْكَ الرِّوَايَةِ فَإِنَّا نَمَثِّلُهَا مِنَ الْأَفَاصِيصِ الْهِنْدُوسِيَّةِ الْآخَرَى ، وَلَا سِيَّما الْأَفَاصِيصِ الـ ٣٢ الْمَعْرُوفَةِ بِأَفَاصِيصِ « الْعَرْشِ الْمَقْتُونِ » .

فَالْمَلِكُ بَعْدَ أَنْ يَسْتَقِظَ صَبَاحاً عَلَى صَوْتِ آلَاتِ الطَّرَبِ يَقُومُ بِوَاجِبَاتِهِ الدِّينِيَّةِ وَيُوزَعُ الصَّدَقَاتُ ثُمَّ يَتَمَرَّنَ عَلَى اسْتِمَالِ السِّلَاحِ ، ثُمَّ يَجْمَعُ وَزَرَءَهُ وَيُدَبِّرُ الْأُمُورَ . فَإِذَا مَا حَلَّ وَقْتُ الظُّهْرِ صَلَّى وَتَقَدَّى وَقَالَ (١) ، ثُمَّ تَنَزَّهَ فِي حَدَائِقِ الْقَصْرِ ذَوَاتِ الْفَلَّالِ ، مُحَاطاً بِنِسَائِهِ وَبِالْإِقْصَاصَاتِ مَقْتَطَفَاتِ أَزْهَارٍ مُتَرَنِّمَاتٍ مُتَابِلَاتٍ فَوْقَ أَرْجُوْحَةٍ مِنْ حَرِيرٍ ، الخ .

وإذا مَا حَلَّ وَقْتُ الْمَسَاءِ قَامَ بِالْوَجِيبِ الدِّينِيَّةِ وَتَقَشَّى وَتَنَاهَى بِضُرُوبِ الْإِلَهِيِّ مِنْ غِنَاءٍ وَرَقْصٍ وَمُوسِيقَى إِلَى أَنْ يَأْوِيَ إِلَى حَرِيمِهِ .

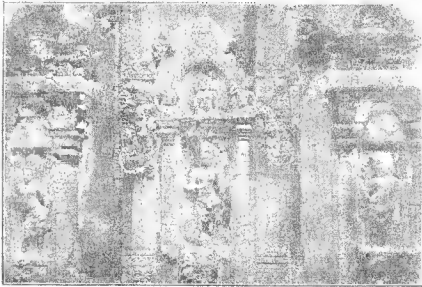
وَالْبَرْهَمِيَّةُ هِيَ دِينُ مَدِينَةِ أُوجَيْنِ الرَّسْمِيِّ عَلَى حَسَبِ مَا جَاءَ فِي رِوَايَةِ « مَرْكَبَةِ الصَّلَافِ » ، وَالْبُدْهِيَّةُ ، وَإِنْ وَجِدَتْ حَيْثُذُ ، لَمْ تَسْكُنْ غَيْرَ مَذْهَبِ الرِّهْبَانِ السَّائِلِينَ ، أَى كَانَتْ فِي دَوْرِ الْأَفُولِ ، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ تِلْكَ الرِّوَايَةَ لَيْسَتْ مِنَ الْقِدَمِ فِي الدَّرَجَةِ الَّتِي افْتَرِصَتْ لَهَا ، أَى إِنَّهَا وُضِعَتْ حِوَالَى الْقَرْنَيْنِ السَّابِعِ وَالثَّامِنِ بَعْدَ الْمِيلَادِ ، وَيُلَوِّحُ ، مَعَ ذَلِكَ ، أَنَّ التَّسَامُحَ بَيْنَ تَيْنِكَ الدِّيَانَتَيْنِ كَانَ تَامّاً .

عَلَى أَمَّا لَا نَضْطَرُّ إِلَى أَى كِتَابٍ لِنَتَعَرَّفَ دِينَ الْهِنْدِ حِوَالَى الْقَرْنِ الْعَاشِرِ مِنَ الْمِيلَادِ مَا دَامَتْ مَعَابِدُ ذَلِكَ الزَّمَنِ تُخْبِرُنَا ذَلِكَ بِوُضُوحٍ ، فَالْبُدْهِيَّةُ كَانَتْ آفَلَةً وَكَانَتْ الْبَرْهَمِيَّةُ فَائِزَةً فِي مَحَاهِلِهَا ، وَأَضْحَى السُّلْطَانُ لِلْآلِهَةِ الَّتِي كَانَتْ ثَانَوِيَّةً فِي الْعَصْرِ الْبَرْهَمِيِّ الْأَوَّلِ كَثِيرِيًّا وَوِشْنُو ، فَاقْتَسَمَتْ هَذِهِ الْآلِهَةُ الْمَعَابِدَ ، وَتَنَافَسَ آلَهُهُ الْبَرْهَمِيَّةُ ، مَعَ ذَلِكَ ،

(١) قال : نَامَ فِي ( الْغَائِلَةِ ) أَى فِي مُنْتَصَفِ النَّهَارِ .



آلهة المذهب الجينيّ القريب من البُدْهيّة والذى مَثَل ، على ما يظهر ، دوراً مهماً في القرن العاشر كما تنطق به فخامة معابده ، وهذا مع القول إن المذاهب الثلاثة ، الجينيّ والشيويّ والرشنيّ ، كانت على وِثام وكانت متساوية في المرتبة لما تدلّ عليه أطلال كهجورا من تماثل معابد هذه المذاهب الثلاثة التي أنشئ بعضها بجانب بعض كالكنائس التي أُقيمت في أوربة تمجيداً لضروب القديسين .



٨٢ - إيلورا . دقائق قسم من نقوش معبد كيلاسا

ولا نُسَبِّح السكلام في الدين الهندوسيّ في القرن العاشر من الميلاد ، فبلغ هذا الدين من مشابهة دين الهند الحاضر ما لا نرى معه قسّله عنه ، فتُحِيل القارىء ، إذن ، على الفصل الذي خصصته في قسم آخر من هذا الكتاب للبحث في دين الهند الحاضر . وإننا بعد أن ألقينا نظرة خاطفة على النواحي الخارجية من الحضارة الهندوسية القديمة التي دام أمرها بين القرنين الثامن والثاني عشر بعد الميلاد نرى أن نبحث في

نظام مُعظم الهند الآرية السياسى فى ذلك العصر فنستند، كما قلنا آنفاً ، إلى دستور الممالك التى حافظت وحدّها على نظامها القديم ، أى إلى ممالك راجبوتانا .

### ٣ - نظام ممالك الهند الآرية السياسى والاجتماعى

حوالى القرن العاشر من الميلاد

تَقسّم صحراء تِهَار النصف الغربى من المنطقة الواقعة بين السّند وجزيرة كاتمياوار وجمبل والغنّج والمساء راجبوتانا ، وتَقسّم النصف الشرقى منها الثلاثُ الجديية الكثيرة الآجام البالغة أقصى علوّها بسلسلة جبال أَرَاوَلّى ، فى منطقة راجبوتانا الجبلية هذه يقطن من افترضوا أنهم حَفَدَة الأكشترية الآريون الذين يُعرفون بالراجپوت أو أبناء الملوك فلا يزالون محافظين على استقلالهم تقريباً .

ويتألف من الراجپوت أبجَلُ عروق الهند وأصفاها على الأرجح ، والراجپوت هؤلاء أهلٌ لأن يقاسوا بفرسان القرون الوسطى الذين غادروا أوربة ليستولوا على القبر المقدس ، وذلك لما اتَّصفوا به من طول القامات وانسجام الملامح ووضاعة البشرة وشَمَم الأنوف وحُسن البرّة ومضاء السلاح .

ويُذكرنا ما يُزَيّن به الراجپوت حيادهم من الجهاز الفاخر وما ينشرونه من البنود فى ميادين القتال وما يتخذونه من رموز الأسر بعادتنا الإقطاعية وبطبيعة الأشراف عندنا ، ولذا يسهل علينا أن ندرك السرّ فى اعتقاد الأوربيين الذين درسوا نظام راجپوتانا سابقاً اشتمالَ هذا النظام على صورة قروننا الوسطى الإقطاعية غافلين عن الفروق العميقة التى تَفصله عن نظامنا الإقطاعى القديم .

ولا تقتصر أوجه الشبه الظاهرة بين نظام راجيوتانا ونظامنا الإقطاعي على ما ذكرناه ، فالزاجه الراجپوتى يسكن حصناً ويسوس ما يملك من هذا الحصن كما كان يصنع الدوكات والسكرونات والبارونات في أوربة .

ومما يحدث أحياناً أن يتخلى الزاجه عن قسم من أملاكه القريب له فيصبح مولياً لهذا القريب التابع ، فيسكون هذا القريب التابع مُلزماً نحو مولاه بالخدمة العسكرية ، فإذا لم يمثل أوامره أو اقترب عملاً شائناً غُرِلَ وطُرد وأعاد ما ملك إلى مولاه ، وتهيمن هذه الطبقة الأرستوقراطية العسكرية على الزُّراع الذين هم من الطبقة الدنيا ، فيدفعون إلى الراجپوت في أوقات معينة قسماً من غلات ما يزرعون ، ويُسخِّروهم الراجپوت ، فهؤلاء هم الشودرا الذين يشابهون فدَّارى<sup>(١)</sup> أوربة في القرون الوسطى .

والمرأة مكانٌ عالٍ وشأن مهمٌّ عند الراجپوت كما كان لأخواتها في عصر الفروسية الأوربية ، ومن أجل المرأة وحدها كانت الحروب تشتعل ، في الغالب ، بين الملوك المتنافسين .

وما كان على المرأة التي تُهْضم حقوقها أو يُطعن في شرفها إلا أن ترسل سيوارها إلى مبارز باسل لكي يمشق حُسامه في سبيلها مسروراً .

وما أكثر ما كانت المدن تقامى فنون الحصار دفاعاً عن حسناء يطاردها عدوٌّ عاشق ، فيبْدى مُحارباتها ضروب الشجاعة ، وما كان العدو ليصل إلى الحسناء مهما كانت نتائج القتال ، فإذا ما شعر أنصارها بجحوط الدفاع أعدوا لها مَوْقِداً ثم صَعِدَتْ فيه طائعةٌ معهم وقتلوا أنفسهم على حين تَفْيِض روحها بين اللهب .

---

(١) الفدَّادون : الرعيان والجالون والبغارون والفلاحون وسواهم ممن تعملوا أسرارهم في حروثهم

وكانت المرأة الراجبوتية تتصف بالشجاعة ، فقد حاربت غير مرة بجانب الأبطال من بنى قومها مُفضَّلةً الموت على التسليم ، ومن ذلك أن الراجبوتيات صَعِدْنَ بالأنوف فوق المواقف في أثناء حصارى جيتور المشهورين لكيلا يَسْمِيَهُنَّ الأعداء .  
وتقول راجبوتانا بمبدأ تعدد الزوجات كما تقول به بلدان الهند الأخرى ، بيد أن إحدى الزوجات تكون مُفضَّلةً ، فكانت تحرق نفسها فوق الموقد عند موت زوجها ، ومما كان يحدث أن تُكاريَ الزوجاتُ ، أحياناً ، في أيتهن كانت المُفضَّلة طمعاً في نيسل شرف الاحتراق عند موته ، وإذا كان الملكُ هو المتوفى كان من التقاليد أن تحرق جميع أزواجه أنفسهن ، ولا يزال يرى بين قبور أوديبور الملكية ضريحٌ يشتمل على رفات الملك سَنُغرام سَنُغها وزوجاته الإحدى والعشرين اللاتي حرقن أنفسهن فوق موقده في سنة ١٧٣٣ .

وما تتمتع به المرأة الراجبوتية من الاحترام يشابه ما كان لأخواتها الأوريات في القرون الوسطى ، كما يدلُّ عليه ما كان من تَفَنَّى الشعراء الجُوالين بمثل تَفَنَّى زملائهم بولائم أمراء النصارى الإقطاعيين وبالألما ب الحربية ومعانى الحب وجمال الحسان وامتشاق الحُسام .



٨٣ - بلورا . تمانيل في معبد دومارلينا المصنوع تحت الأرض ( القرن الثامن )  
( يبلغ ارتفاع التمثال الكبير خمسة أمتار )

إذن ، ليس من العجيب أن يرى الباحثون شبهاً بين مجتمع ذلك نظامه والمجتمع الإقطاعى أيام الحروب الصليبية ، والآن نبيِّن ما ينطوى تحت تلك المائلات الظاهرة من فروق عميقة :

يتصل طور المجتمع الراجبوتى الراهن بطور الحضارة الذى تقدمه رأساً ، لبالنظام الإقطاعى ، وما تراه في أوربة الآن من

الدول الكبرى فهو وليد جَمْعٍ سار من طَوَر الفرد الهمجيّ إلى طور الأسرة وإلى طور القبيلة وإلى طور الشعب وإلى طور الإقطاع وإلى طور الأمة .

ليس النظام الراجحوتى بقائم على الإقطاع ، بل على النظام الشعبى .  
والشعب ليس إلا أسرةً مُكَبَّرَةً ، ويستحيل على الأسرة أن تصبح شعباً قبل أن تتجاوز الطور القبليّ .

وانتقض أن هنالك مجتمعاً همجياً مقسوماً إلى أسر وأنه ظهر من هذه الأسر شخص مقدم مقام خُلق للقيادة وأن خصومةً تَشَبَّت أو أرضاً ضاقت أو مطامعَ حَوَّل مكان آخر ثَارَتْ حين بلوغ ذلك الشخص سنَّ الرُّجُولَةِ فإن ذلك الرجل الجسور لا يسير وحده بحكم الطبيعة بل يستعين برجال أسرته الذين انفق له سلطان عليهم فيتبعونه بحماسة ، ثم ينضم إليهم رجال من الجيران والأقارب والمنحطين والجرمين ، ثم يَمُضَى هو وصحبه هؤلاء قُدُماً فيستولون على أرضٍ عَنَوَةٍ فيستقرون بها فيقيمون حولها حاجزاً فينتحلون ، كِهَصَابَةٍ ، اسمَ زعيمهم وَيَعُدُّونه أباً تميّز آلهم من المجاورين المعادين .

ذلك أمر رومولوس وصحبه ، وذلك أمرُ داودَ في مَغَارَةِ عدلام .  
ولا تصبح هذه القبيلة المصنوعة ، التى تألفت من اجتماع أَقَاذِقِينَ مختلفي الأنساب تحت قيادة زعيم ، شعباً إلاّ بعد حين ، أى عندما تُنْسَى فروق الأنساب بين هؤلاء الأَقَاذِقِينَ فيستطيع حَقْدَتَهُمْ أن يَدَّعُوا أنهم من ذرية مؤسس القبيلة الأول ، فتكون رأستهم لأكبر أبناء هذا المؤسس .

ومن ثَمَّ ترى أن عدداً أبناء الشعب الواحد أنفسهم ذرية جدٍّ واحد لم يُقَمْ على غير الافتراض الوهمي ، ومهما يكن من وَهْمٍ في هذا الافتراض فإن قولنا ذلك يكفي

لتمييز الشعب الراجبوتى من الإمارة الإقطاعية الأوربية ، فغ أن أتباع الأمير الإقطاعى دونه منزلة ولا يرتبطون فيه فلا يحتملون زيره إلا لضعفهم تجدد أبناء الشعب الراجبوتى يرؤن أنفسهم إخواناً لرئيسهم مساوين له وارثين الشرف مثله كائناً عن كابر ، ولؤلؤ الأبناء ما لرئيسهم هذا من حقوق الإكرام ، وهو إذا خاطبهم فكما يخاطب الأخ الأكبر إخوته الصغار الذين لهم ما له من المصالح فلا يمتشقون الحسام معه إلا لحاية هذه المصالح المشتركة ، ولا يبدو سلطان هذا الرئيس مطلقاً إلا أمام العدو فى الحرب كما يبدو سلطان القائد العام فى جميع البلدان .

وما كانت قيادة الجيش ، التى هى أهم المناصب فى دولة حرية منظمة ، إفتكر لصبي ، فما كان يحدث ، أحياناً ، أن تقطع ممارسة الحكم لدى الشعوب الراجبوتية عندما يؤول العرش إلى عاجز عن القيام بأعباء الملك ، فيقوض أمره إذذاك إلى ابن عم السكلالة<sup>(١)</sup> ، فيختار الملك الراحل قبل وفاته ، أو زوجاته بعد وفاته فى الغالب ، الوارث للعرش بطريقة القَبْضَى على أن يوافق بقية أفراد الشعب على هذا الاختيار .

والراجبوت حافظوا على استقلالهم بفضل هذا النظام المتين الذى يعدون به أبناء أسرة واحدة وبفضل شجاعتهم وموقع بلادهم الجبلية ، فعاملهم المغول كخلفاء ، لا كرعاء ، حتى بعد استيلائهم على عاصمتهم چتور ، ويدار بهم الإنسكايز إلى أقصى حدود المدارة .

ورفض مهابارانا أوديبور كل صلة نسب بملوك المغول فى إبان سلطانهم ، وبدا سائله أمير الهند الوحيد الذى رفض حضور اجتماع أمراء الهند حينما نودى بملكة

(١) ابن عم السكلالة : إذا لم يكن لها ، أى لاصق النسب ، وكان رجلاً من العشيرة .

إنسكلترة إمبراطورة على بلاد الهند رآداً إلى نائب الملك « قِلَادَة كوكب الهند العظيمة الشأن » ، قائلاً بهزوء : « إن أحداً من أجداده لم يحبل شِعَارَ الذِّلِّ والعبودية » ، واليوم يتمتع مهارانا أوديبور بشأن رفيع بين ملوك الشعوب الراجبوتية وفي جميع الهند لِسْكَرَمَ مَحْتَدِه وصفاؤه مع عَظَلَه من أى سلطان عسكرى مُهِم <sup>(١)</sup> .

والراجپوت يقولون بمبدأ الزواج من خارج العشيرة ، والراجپوت لِكى يحافظوا على هذا القانون المطلق لمحافظة واضحة قوية لا يزالون يمارسون عادة خطاف الخطيبة الرمزى بعد أن كانوا يأخذون عرائسهم غصباً فيما مضى .

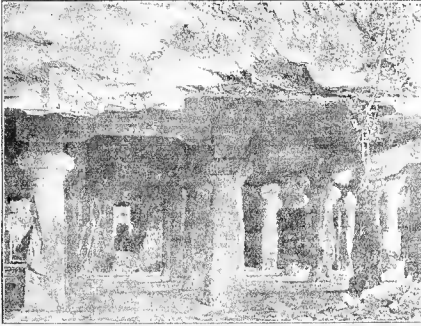
والراجپوت لِكى يحفظوا بناتهم من الزواج بغير كفوء زواجاً ينشأ عن اختطاف من هم دونهنَّ شرقاً لهن ، ولكيلا يكابدوا نفقات الأعراس الباهظة ، اتخذوا عادة قتلهن طفلاتٍ ، وقد أخذت هذه العادة الوحشية تزول في الوقت الحاضر .

ونحن مع إمكاننا أن نَعُدَّ الراجپوت كهندوس استطاعوا أن يحفظوا تقاليد عرقهم من المؤثرات الغربية بفضل مناعة منطقهم لا نعتقد أن الهند كانت تنال مثل ما نالوه لو لم يَعمُق تطورها الفزاة من الأجانب ، فاعتقاد غيرُ هذا يكون عند نَسَبنا الروح

---

(١) جاء في الأساطير أن السى سوديا الذين بنأف منهم شعب أسرة أوديبور المالكة هم من العرق الذى افترض أنه من سلالة راما فتجسد فيه وشنو الإله الشمس ، فإذا عدوت هذا الأصل الخرافى وجدت ذلك الشعب ذا تاريخ قديم ، فما فسه على يفت رانايرناب الذى كان دليلى في أثناء إقامتى بأوديبور أن باباراول هو مؤلف شعب السى سوديا فرأيت في تاريخ الراجپستان لنود ما يؤيد ذلك ، وقد اتخذ ملك بيوا الأول هذا مدينة باغدها ، الحربية في الوقت الحاضر فنشرت بعض صور لأبائها في هذا الكتاب ، عاصمة له حوالى سنة ٧٠٠ من الميلاد ، ثم استبدل بمدينة چنور بعد الاستيلاء عليها فظلت چنور عاصمة ميوار إلى أن وُتِجها المنزل ، فأتخذت أوديبور إذ ذاك عاصمة بدلاً منها ، ودأب أمرها عاصمة إلى الوقت الحاضر ، فمن ثم ترى أن أسرة مهارانا تملك منذ اثني عشر قرناً وأن قديماً كهذا لم ينفى لأسرة مالكة في أوربة ولا في الهند التى لم تؤلف جميع أسرها المالكة الحاضرة إلا بعد سقوط الدولة المنولية .

الطائفية التي تحول دون نمو الروح القومية ، تلك الروح التي ظلت مؤثرة مع قلة أهميتها في دور البقطة البرهمية العامة .



٨٤ - أعمدة المبد الكبير المصنوع تحت الأرض ( القرن الثامن من الميلاد ) ( يبلغ ارتفاع الأعمدة إلى سطحها خمسة أمتار )

ولم تبن الدول الراجبوتية ، التي نُشِبَ به تحارب النحل المُتَضَدَّ بعضها فوق بعض تنضيداً هندسياً ، متمسكةً في الراجبوتانا لأن العدو لم يحلها على انتحال قوانينه فقط ، بل لفتور الراجبوت الحاربين الديني الذي نشأ عن انهماكهم في الأعمال العسكرية في بِنَّة خَسَنَة غير صالحة للتأملات اللاهوتية .

ومن السهل بيان ما للروح الدينية في بقية الهند من التأثير المُفَرِّق في كيان الشعب بأن نقول إن لهذه الروح من العمل في كيان الشعب الأدبي مثل ما يكون



للنظام المدني والحربي من العمل في نشوء الشعب ، فاستراه في الهند من تعدد الطوائف منذ قرون يمتُّ ظهوره بمثل ما يمتُّ به ظهور أحد الشعوب ، ومن ذلك أن طريداً شارباً خاسراً اطائفته يرفع راية الإصلاح الديني بإقدام قبضته إليه بعض المريدين ، فإذا ما كان ليمتاً بحميتاً فاستطاع أن يلعب ببعض المشاعر عند مؤسساً مذهباً جديداً ، وإذا ما ذاع أمر هذا المذهب الجديد انقلب إلى طائفة جديدة .

وإليك ، إذن ، الطائفة التي هي دائرة قرابة جديدة والتي تظهر خارج الشعب الذي هو دائرة القرابة الأولى ، مع اختلاف سنن الدائرتين وتناقضهما أحياناً ، وكلُّ هندوسى حقيقى ينتسب إلى طائفة وشعب معاً ، ولا يجوز له أن يتزوج إلا بقتاة من طائفته على أن تكون من غير شعبه ، وتُبصر النظام المتمدن المختلط الغريب في أعين الأوربيين الذي يمكن أن تنتهى إليه الهند لو سمحت لها الأحوال بأن تدير طائفة وراء مماتها الاجتماعي الأعلى وهدفها الدينى الأسمى ، وهذا الهدف الدينى وحده هو ما وصلت إليه الهند التي يكفي ما فيها من اختلاف الطوائف لقلب خيالنا الأوربية .

ولم يتفق للراجپوت ، بانتظام ، ذلك التبلر الذي يحوّل فريقاً من الهمج إلى شعوب منفصلة إذا لم يُكدّر ، ولم يحافظوا عليه إلا بسبب الفتور الدينى الذي ذكرناه آنفاً ، وتبلر كهذا قد يشاهد في مرحلته الأولى لدى بعض همج الهند كالهميل ، ولكن الشعب عند هؤلاء ليس دائرة مقفلة تماماً ، وليست الأنكحة محظورة عندهم إلا ضمن دائرة القبيلة .

وكلُّ شيء يُسوِّغ لنا أن نرى معظم الهند الآرية في القرن العاشر من الميلاد على الصورة التي نرى بها الآن دويلات راجپوتانا المستقلة ، ومن أجل ذلك اتخذناها

أمثلة على نظام الهند السياسي والاجتماعي قبل الفتح الإسلامي .  
ولا نستطيع أن نُكَمِّل ، كما فعلنا في فصل آخر ، ما ذكرناه آنفاً بما رواه  
سِيَّاحٌ من الأجانب ، وما ورد في رحلة الرَّحَّالة العربي ابن بطوطة لا ينطوي على  
شيء كبير ، وليس أتم منه ما جاء في رحلة ماركوبولو السائح الأوربي الوحيد الذي  
زار الهند في القرن الثالث عشر ، وهانان الرحَّلتان جديرتان بالذكر مع ذلك ، لأنهما  
كلُّ ما لدينا من الوثائق الأجنبية عن جنوب الهند في القرن الثالث عشر .

وما رواه ماركوبولو من المعارف يدور حول الحضارة الدراويدية في جنوب الهند  
على الخصوص ، ولم يتكلم عن هذه الحضارة في هذا الفصل لنقص الوثائق ، ومما قصه  
هذا الرحَّالة الشهير أنه وَجَدَ في ساحل كوروميندل أناساً سوداً عُرَاةً عُبَاداً للبقرة  
مقسومين إلى طوائف ، وأن المنيوزين وحدهم كانوا يأكلون لحم البقرة وأن هؤلاء  
المنيوزين كانوا يُستخدَمون جزائرين لذبح الحيوانات الأخرى ، لأن ذبح كل ذي حياة  
كان يُعدُّ جرماً .

وقد أعجب ماركوبولو ببهاء الحجارة الكريمة التي كان أولئك السود يُزَيِّنُون  
بها والتي كانت تأتيهم من مناجم غولكوندا على ما يحتمل .

وكان أولئك القوم يتكلمون بلغة التمول ، وكانوا مقسومين إلى خمس ممالك  
تكلمنا عنها في الخلاصة التاريخية ، وكانت هذه الممالك واقعة في الدَّكَّان ، وكان  
يملكها خمسة إخوة .

وكان ملوك التمول يباهون بعدد نسائهم ، فكان لديهم نحو خمسة امرأة ،  
فكانت أرواح هؤلاء النسوة تفيض فوق الموقد عند وفاة أزواجهن .

وبلغ ماركو پولو ساحل ملبار الذى كان يقطن فيه قرصان مقاديم ، وبلغ كوكن حيث وَجَدَ أناساً هادئين مشهورين بشرفهم وصدقهم .

وأعجب ماركو پولو بكثرة مدن كجرات وِنِفاها و بازدهار تجارتها و بصناعاتها الخاصة ، ولاسيما صناعة جلودها المُرَصَّعة الموشاة التى كان الأهالى يصنعونها بفنٍ عجيب ، و باحترام أهاليها للحيوانات والبراهمة ، ومما شاهدته أناسٌ غرابة من البراهمة (اليوغويس) كانوا يعيشون من الصدقات كما فى أيامنا ، وأناسٌ قَبَاحٌ يُبَدِّلُون أبدانهم وَيُطَاقُونَ لُحَامَ وشعورهم وأظفارهم ويتناولون أنفسهم جهرًا وَيُبَدِّدُونَ أبشع المناظر .

وجزئياتُ الظواهر أكثرُ ما عَنِيَ به ماركو پولو ، فلم يكن باحثًا كهيون سانع أوفاهيان ، فلا نرى فى رحلته كبيرَ طائل .

وعلى ما تراه من نقص الأسانيد التاريخية تَجِدُنَا قد بعثنا قسمًا غير قليل من المجتمع الهندوسى فى القرن العاشر ، فَوَجَدْنَا للوصول إلى ذلك ما هو أحسن من مذكرات المعاصرين ، وَجَدْنَا فى دُوِّيَّلات راجپوتانا صفحةً حيةً مقطعةً من تاريخ الهند فى الأزمنة التى أردنا وصفها فظلت سليمة إلى أيامنا ، فعلى الباحثين أن يُبْشِرُوا فى فلك رموزها ونقمةً قبل أن تَطْمَسَ الحضارةُ الأوربية الحديثة معالمها ، فالحصارة الأوربية ، وإن كانت دون الفتوح قسوةً ، أشدُّ منها تخريباً .

## الفصل الخامس

### حَضَارَةُ الْعَصْرِ الْهِنْدِيِّ الْإِسْلَامِيِّ

وصفُ المجتمع الإسلامي في الهند حوالي القرن الخامس عشر

(١) تأثير المسلمين في الهند - العروق الإسلامية في الهند - دام العصر الإسلامي في الهند من القرن الحادى عشر إلى القرن الثامن عشر - الشعوب الإسلامية التى اصنعت على الهند فى سبعة قرون - تأثير المسلمين العميق فى ديانة الهند ولحنها وقنونها - تأثير المسلمين فى الهند أنزل منه فى مصر - أدخل المسلمون حضارة العرب إلى الهند بعد أن عدلت فى بلاد فارس - اختلطت حضارة المسلمين بحضارة الهند من غير أن تقوم مقامها كما تدل عليه دراسة البانى - المغول - ضعف تأثير المسلمين العربى فى الهند - (٢) الحضارة الإسلامية فى الهند - نظام الممالك الإسلامية السياسى فى الهند - وصف الحضارة المغولية فى الهند فى عصر الملك أكبر - عدم الأريستوقراطية الوراثية - سلطة ولى الأمر المطلقة - حياة الملك المغولى اليومية - إدارة المملكة - المصالح العامة - الطرق - البريد - الضرائب - العدل - نظام الجيش - شأن النساء فى بلاط ملوك المغول - ميل المغول إلى العلوم والآداب والفنون - آثار ملوك المغول العلمية والأدبية - مذكرات الملك بابر - أهميتها فى معرفة مزاج الأمير المغولى - مقابلة بين أمير مغولى وأير فرنسى فى عصر النهضة .

### ١ - تأثير المسلمين فى الهند ، العروق الإسلامية فى الهند

يبدأ العصر الإسلامى فى الهند فى القرن الحادى عشر وينتهى من الناحية السياسية فى القرن الثامن عشر من الميلاد ، وهذا العصر عُرِفَ أحسنَ مما عُرِفَ أىُّ عصر جاء قبله بفضل مؤرخى المسلمين .

والهندُ خضعتُ في القرون السبعة التي دام فيها سلطان المسلمين لفاطمين من العرب والأفغان والترك والمغول القائلين جميعهم بدين محمد وخلفائه وأُظلمهم .

وكان لهؤلاء الفاطمين الأثرُ البالغ في لغة الهند ومعتقداتها وفنونها ، ولا يزال هذا الأثر بادياً فتجد في الهند خمسين مليوناً من الهندوس يعملون بشرعية القرآن وتجد الناس يتكلمون في قسم كبير منها بلغة مشتقة من لغة السادة السابقين .

وفي فصل سابق درستُ تاريخ الهند فذكرتُ مؤكداً تأثير المسلمين العظيم في جميع البقاع التي خفقت فوقها رايتهم ، في مصر ، مثلاً ، قاموا بعملٍ أخفق الإغريق والرومان في القيام بمثله ، أي إنهم حوَّلوا لغة شعب كانت له أقدم حضارات العالم وحوَّلوا دينه وفنونه ، فلم يندب أبناء الفراعنة ، حين اتصلوا بالمسلمين ، أن نسوا ماضيهم الذي بذل العلم الحديث جهوداً كبيرة لبعثه .

والتحولُ الذي تمَّ في جزء من الهند بفعل المسلمين هو دون التحول الذي وقع في مصر ، ففي الهند كان للغلوبيين من الأثر في الغالبين ما لم يتخذ مثله في أيِّ بلدٍ خضع لاتباع محمد ، فبعد أن كان للحضارة الجديدة التي أدخلها الأفغان والترك والمغول إلى وادي السند ووادي البنغال فعلٌ عظيم في الحضارة القديمة التي كانت فيهما لم تلبث أن تأثرت بها فأفسر هذا عن ظهور حضارة ثالثة مشتملة على عناصر تينك الحضارتين بالتساوي تقريباً ، وتسمَّى هذه الحضارة الثالثة بالحضارة الهندية الإسلامية .

ولم يخلُ العصر الهندي الإسلامي من مؤرخين ، ولو لم يفتنه إلينا من هذا العصر مخطوطاتٌ كافية لتتوَّره لأمكننا ذلك من البحث في المباني السكانية التي شيدت فيه فدأت على اختلاف المؤثرات الإسلامية باختلاف الأقطار ، فمن هذه المباني نعلم

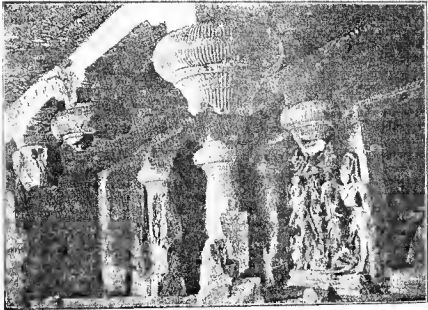
أين كان أثر المسلمين البالغ وأين تغلبت عليه العبقريّة الهندوسية ، وما تجلّى في المعابد والقصور من ضروب الفنون يدلنا ، كذلك ، على مصدر الأثر المألّكة التي كان لها السلطان على الهند لما تحمله هذه المباني من الطابع الفني الخاص بكلّ واحدة منها ، ويمكن القارئ أن يتبيّن تاريخ المسلمين في الهند من الصور التي نشرناها في هذا الكتاب عن فنّ عمارتهم .

ولم يكن المسلمون الذين استولوا على الهند غير مرة في عهد محمود الغزنوي و تيمورلنك و بابر وغيرهم من عرق واحد ، فغزاة المسلمين الأوّلون كانوا من الأتخاّن والترك ، وغزاة المسلمين الآخرون كانوا من المغول مع شيء من التمازج ، وأما العرب الذين هم من أتباع محمد السابقين فلم يقيموا مستعمرات مهمّة في الهند وإن كانوا يحيثون إليها ، في الغالب ، من بلادهم بجاوزين بحر عُمان للتجارة فيُنشئون المستودعات ويستولون عنوة على أملاك في السواحل الغربيّة نحو مصبّ نهر السند .

وإن مغازي جموع المسلمين الزاخرة التي انقضّت على الهند في ثلاثة قرون أو أربعة قرون من عُرة كابل الدائمة الانفتاح هي أخرى المغازي التورانية ، ومن التورانيين ، على الخصوص ، أصحاب بابر المغول ذوو الوجوه المسطّحة والجلود الكامدة والعيون الحادّة الأفقية الفائرة والوجنات البارزة والشعور السود المسندرة<sup>(١)</sup> والأعشى المّعة<sup>(٢)</sup> ، ويختلف هؤلاء المغول الذين هم إخوان هون أتيلًا وكلّوك الأورال كثيرًا عن الأتخاّن ذوي الخدود الضيقة والأنوف المنقارية وعن الترك ذوي العيون التّجبل والجلود البيض والوجوه المتناسبة الصفيقة .

(١) المسندرة : المنبسطة — (٢) للمرة : القليلة الشعر .

وكان المغول فاتحين لجميع آسية تقريباً ومُهدِّدين لأوربة حينما وصلوا إلى الهند ، ولم تُؤسَّس دولته واسعة بسرعة كالتي أسسوها ، وهؤلاء القوم بينا كانوا يرعون مواشيهم في مراعى سيرية العظيمة المِائة استحوذت عليهم روح حرصٍ غريبة طائشة فانقضوا نغمة على العالم لفتح سائرین وراء خيال يختلف عن مطاعم الجمهورية الرومانية المنظمة الفاترة وسجية العرب الدينية ، ذلك الخيال القائم على الفتح العالمى للتَّلهى بالفتح نفسه ، وإن شئت فقل لإذلال الأمم أمام رايهم ولحلها على التسبيح بحمدهم ولوضع جَبَروت رئيسهم الأعلى الخان الأكبر فوق البشر .



٨٥ - إيفنتا . أعمدة في المبد السابق

يبدو جنكيز خان وتيمورلنك في التاريخ كابوسين مُكَلِّنين بتاجين من النار والدم ، وتجد ناحية غير مدركة يعظم بها شأنهما الهائل المرهوب ، وهى ما تراه

فيهما من التناقض المترجح بين الوحشية والتسامح ، وبين الجبروت الذي كانا يذبحان به الخلاق عند أقل مقاومة والحلم الذي كانا ينحنيان به أمام آلهة المغلوبين ، وبين هجميتهما التي كانا يقبجان بها ، بدم بارد ، أهراماً من هاكم<sup>(١)</sup> المقهورين وخبيهم الآداب والفنون والعلوم الذي نتحوّل به كثيرون من قومهم الأجلاف إلى أدباء وعلماء .

كان دين المغول الفطري فائماً على عبادة قُوى الطبيعة ، شأن جميع الديانات الفطرية تقريباً ، فسكانوا يعبدون الشمس والأرض والخليل ، ثم انتحلوا أكثر معتقدات الأمم المغلوبة بالتتابع مضيقين هذه الآلهة بعضها إلى بعض ، وإذا عُدّوا من فاتحي الهند المسلمين فلا نهم كانوا حين دخولها متصلين ، منذ زمن طويل ، بأهم مسلمة كإفروس والأفغان والترك ولأنهم كانوا مشبعين من حضارة العرب المهيمنة على غرب آسية .

ومن الخطّ الحسن أن لقي تسامحهم الكبير تسامح الهندوس فبذلت جهود في أيام دولتهم لدى الغالبين والمغلوبين لصهر مختلف المعتقدات بعضها في بعض وإحراج دبابة واحدة منها . فهذا ما سعى إليه مؤسس مذهب السك المصلح نانك . وهذا ما سعى إليه الملك أكبر وآخرون ، فعلى ما حبطت به تلك الجهود فلم يتفق للهند دين واحد ظلّ بعض أديان الهند يمارس بجانب بعض من غير تنازع .

وسنرى ، حين البحث في أديان الهند الحديثة ، ما هو أمر الإسلام فيها وما هي التطورات التي انفقت له ، وهو دين التوحيد ، ليلائم روح الإشراف في الشعوب التي

(١) الهام : جمع الهامة وهي رأس كل شيء .



اعتنقته ، والآن تقتصر على البحث في المؤثرات العرقية التي نَجَمَت عن المغازى الإسلامية .

من الشَّطَط أن يُقال إن تلك الغزَّوات أسفرت عن ظهور عرق جديد ، فكان الغزاة من القلَّة ما لا يتعدَّى معه أن يُصمَّهروا في جموع الأمم المغلوبة ، والغزاة أولئك كانوا مُولَّدين مع ذلك .

ولم يلبث المغول ، المتصفون بروح التسامح والتوفيق ، أن أرادوا الاتحاد بسكان الهند الذين وَجَدوهم مستقرين بها ، فتمهافتوا على الزواج ببنات الراجپوت فلم تُعَمِّمْ سَحَنَاتِهِمْ أن تغيرت تماماً بعد أن تطورت بمصاهراتهم للأفغان والترك ، فمن إنعام النظر في صور ملوك المغول المرسومة في الخطوط تبدو لنا وجوههم الأكثر ناسباً واستطالةً من وجوه المغول الأصليين المسطَّحة ذات الأنوف المُتَطَامِنَةِ<sup>(١)</sup> والشَّفاة الغليظة .

ويجب أن يُفرَّق في زُمر المسلمين الذين يبلغ عددهم في الهند نحو خمسين مليوناً بين حَفْدَةِ الأُسَرِ الإسلامية وحَفْدَةِ الهندوس الذين اعتنقوا الإسلام .  
فأما حَفْدَةِ الأُسَرِ الإسلامية ، وهم الأَقْلون ، فيشابهون لثالَّ التركي ، ويتألف منهم قوم طائشون بأَسُون أَسيفون على الزمن الذي كانوا فيه سادة البلاد منتظرون الزمن الذي يَتِمُّ فيه النصر لشرعية النبي .  
وأما الهندوس المسلمون فأكثر عدداً ، ويختلفون قليلاً عن إخوانهم البراهمة مثلاً وأخلاقاً .

ونأخِّص ما تقدم بقولنا إن أثر المسلمين العرقي في الهند ضعيفٌ وأثرهم الأدبيُّ

عظيم ، وأكثر ما يبدو هذا الأثر الأدبي في المباني والمصنوعات الفنية ، وله عمل كبير في الدين واللغة ، كما يظهر ذلك من الفصول التي ندرس فيها مباني الهند ودياناتها وأغانيها فضلاً عن هذا الفصل .

## ٢ — الحضارة الإسلامية في الهند

أجلنا في فصلنا عن تاريخ الهند أهم حوادث الممالك الإسلامية في الهند ، ولنذكر أن دولة المغول ، التي تتكلم عنها الكتب على العموم ، لم تدم سوى مئتي سنة من السنوات السبعة التي كان السلطان فيها المسلمين ، وفي بعض ذين القرنين ظل كثير من الممالك الإسلامية قائماً في الدكن ، ولم تجتمع الهند بأسرها تحت راية ملك مغولي واحد إلا قبيل سقوط الدولة المغولية .

ويتضمن وصفنا لتاريخ الحضارة الإسلامية في الهند بحثاً لتاريخ حضارة العرب التي خصصنا سيراً كبيراً لدراستها ، فسلمو الهند لم يدخلوا إلى الهند ، بالحقيقة ، سوى حضارة العرب بمس أن تحوّلت بعض التحول في بلاد فارس بفعل الأزمنة والأمكنة والاختلاط بالشعوب المغلوبة ، وذلك على درجات مختلفة ومع دوامها على التحول .

وأدخل المسلمون معهم إلى الهند نظم الدول العربية القديمة السياسية أيضاً ، وكانت هذه النظم السياسية تحوّل في تضاعفها الحسن التي أدت إلى ازدهار الدول العربية فيما مضى والمساوى التي أوجبت انحطاطها .

حقاً ، لقد بدت جميع الدول الإسلامية ، في الهند وغيرها ، مطلقة على الدوام جامعة لجميع السلطات الدينية والعسكرية والمدنية في أيدي ولاه لا رقيب لهم ،

فكانوا يَسْتَعُونُ في إعلان استقلالهم وتأسيس ممالك لهم من قُوَرِهِمْ ، وَحَقًّا أَنَّ الممالك  
العظمى المطلقة التي تكون جميع السلطات فيها قَبْضَةً رجل واحد تلائم الشعوب  
المتهبرة إما يؤدي ذلك إلى الفتح ، فهذه الممالك لا تدوم إلا إذا ساسها رجال عظام ،  
والرجالُ العظام إذ نَدَر ظهورهم وقع ما تعلم من انهيار الدول الآسيوية الكبرى في  
وقت قصير ، وذلك ما وقع لدولة المغول التي ازدهرت أيما ازدهارٍ عندما كان على  
رأسها رجالٌ كبار فسقطت عندما عَطَلت من مثلهم .

والمسلمون ، حين أدخلوا إلى الهند حضارة العرب ، أدخلوا معها رغبة كبيرة في  
العلوم والآداب والفنون ، وما شادوه في عواصمهم : أحمد آباد وغور ودهلِي وبيجاپور ،  
الخ . من المباني ينطبق بعظيم حمايتهم للفنون ، وما انتهى إلينا من تراجم ملوك المسلمين  
يثبت لنا أن هؤلاء الملوك كانوا يُشَجِّعون الآداب والعلوم أيضاً ، وأنهم كانوا يتعهدونها  
بأنفسهم ، ليس ذلك في كِبَرَى الممالك وحدها ، بل في صُغَرها أيضاً ، ومن ذلك  
أن ملك مملكة غولكندا الضُّغَرَى فيروز شاه كان يزاول علم النبات والهندسة  
والشعر ولا يحيط نفسه بغير العلماء والشعراء والمؤرخين مع أشاغيله في الحروب ضدَّ  
دولة بيجانغَر .

وعلى تلك السُّنَّة سار ملوك المغول ، وهي التي كانت مشتركة بين جميع الدول  
الإسلامية في أوربة وآسية وإفريقية كما أثبتنا ذلك في كتاب سابق <sup>(١)</sup> .

وإذ لم نستطع أن نَرَسُم تاريخ مختلف الحضارات الإسلامية في الهند ، نقصر  
على وصف حضارة المغول التي هي أكثر تلك الحضارات ازدهاراً ، فما جاء في أخبار

(١) فصد المؤلف بذلك كتاب « حضارة العرب » وقد نقلناه إلى اللغة العربية . ( المترجم )

مؤرخيهم وأنباء الأوربيين الذين زاروا الهند في عصرهم يساعدنا على الحكم الصحيح في إدارتهم ونظام دولتهم ، وما أبقوه من المباني يساعدنا على الحكم الصحيح في الفنون أيام سلطانهم .

ذَرَّ قَرْنٌ<sup>(١)</sup> الدولة المغولية في الهند عندما استولى بآبَر في سنة ١٥٢٦ على أغرا التي كان يملكها أمير أفغانى من أسرة لودى المالكة مات فيها ملكاً لهندوستان وكابل ، فلم يَأُلْ ابنه هُمايون جهداً في الصراع دَعَمًا لدولته ، ولم تبلغ دولة المغول في الهند ذروة الرقي إلا في عهد ملكها الثالث أكبر الذى ارتقى العرش سنة ١٥٥٦ فدام سلطانه خمسين سنة ، فهذا الملك الذى هو من أكابر رجال التاريخ ساوى بين المسلمين والهندوس حاضاً تينك الأمتين على التزاوج جاعلاً نفسه قُدْوَةً ، وهذا الملك ، وإن لم يُوَفَّق لصهر ديانتي تينك الأمتين في دين واحد ، استطاع أن يَمْزُج فنون العبارة للأمم التي خضعت لحكمه ، وهذا الملك وَسَّع رُقْعَةَ مملكته ودَبَّرَ شُؤْنَهَا تديراً رشيداً كما يظهر ذلك من الكتاب الكبير الذى أمر وزيره أبا الفضل بنشره ، فترى أنه أحصى الأراضى ومسحها وقَدَّر أنواع تراب الولايات وفرض الخراج على حسب الخِصْب فجعل ثُلثَ الفِئَالَتِ للدولة وثُلُثَها للوزارعين ، وألغى كثيراً من الضرائب وصار يدفع إلى ضباطه رواتبهم نقداً بدلاً من الإقطاعات .

وداومت دولة المغول على الازدهار في عهد خلفائه : جهانكير وشاهجهان وأورنغ زيب ، بيد أن ماصدر عن أورنغ زيب هذا من عدم التسامح وما شَهِرَهُ على ممالك الدِّكَنِ الإسلامية من الحروب أَعَدَّ دولة المغول للانهياء فلم تلبث الهند عند وفاته

---

(١) ذر القرن : طلع أدنى تىء منه .

سنة ١٧٠٧ أن وقعت في وَهْدَة الفوضى ، كما ذكرنا ذلك في فصل سابق .



٨٦ - أمبرنتها . نقوش طرف جانبي من  
المعبد ( القرن التاسع على ما يجتدل )  
( يلع ارتفاع القسم الظاهر في الصورة  
أربعة أمتار و ٥٠ سنتيمتراً )

وفي أوربة تُعدُّ كلمة سلطان المغول  
مرادفةً لكلمة السلطان المطلق والأبهيَّة  
الباهرة ، ولا يخلو هذا من أساس ، فالحقُّ  
أن ملك المغول كان مطلقاً ، فكان  
يستعـين بسلاطنه على صبِّ كنوز  
مملكته ، الغنيمة إذ ذاك ، في بلاطه  
وإنفاقها على ضروب العظمة التي لا  
تألوها عظمة .

وكنت تبصر بجانب الملك وزراء  
فتحسب أنه يستشيرهم في شؤون الدولة  
للهمة ، مع أن هواه كان دستور دولته ،

وكانت السلطات المدنية والحربية والدينية قبضته ، شأن جميع ملوك المسلمين ،  
فكان ظلَّ الله الحيَّ المرهوب وخليفته القادر في الأرض .

وكان وزراؤه وولائته وفادته ومن إليهم من أمراء المغول صنائع فيرفهم  
ويخفّضهم بكلمة تخرج من فيه .

ولم توجد أريستوقراطية وراثية عند المغول ، فالملك هو الذي كان يؤرِّعها  
ويستردُّها كما يشاء ، والملك هو الذي كان يرثها عند وفاة صاحبها ، فإذا ما قضى  
المرَّة نحبّه ، بعد حُظوة لدى الملك وتصرّف في أموال البلاد ورقاب العباد وتمتع

بأطايب النعم ، ترك زوجته وأولاده فقراء فقراً مُذْقِعاً ، وكلُّ ما كان يقدر على صنعه لهم في أثناء حياته هو أن يدفعهم إلى البلاط ليكونوا محطاً لأفضال الملك الذي يديم نِعْمَةً عليهم ، أحياناً ، بعد وفاة أبيهم أو يُجْزَى عليهم رزقاً قليلاً .

وكان ملك المغول لا يحتجب في الهند ، فهو إذا كان يستلب رعاياه في الغالب فإنه لم يسلبهم نِعْمَةً إمتاع العيون ، فكان يبدو للناس على الدوام .

ففي الصباح كان يظهر في شُرْفته فيجتلي الجهور طَلْعَتَهُ فيَهْتَف له ، وما كان ليعدل عن الظهور في الشُرْفَةِ إلا في حالة المرض الشديد ، وإذا حلَّ وقت الظهر عاد إلى تلك الشُرْفَةِ ليشاهد صراع التُّيُول ومختلف التمارين العسكرية وما إليها مما يَمِيزُ في ساحة القصر ، وإذا كان وقتُ العصر جلس للاستقبال ولاستماع كل ما يجدر أن يقال له .

والحقُّ أن الدنو منه كان صعباً ، فكان يحاط بِنِطاقَيْنِ أو ثلاثة نُطُق من ذهب يتخلها أمراء وحرَّاس لا يسون أبهى ثياب حاجزون للناس عن العرش . والحقُّ أن منظر الاحتفال والملك الذي كان يبدو رائع الطَّلْعَةِ بين الجواهر كان ثمناً كافياً لنسيان الشعب ما يدفعه في مقابل انبهاره وحماسه ذات حين مع الاحترام القريب من التَرَع .

وفي المصاممة كانت النفائس الفنية تُجَمِّع أيام سلطان المغول كما كان الأمر في أكثر الممالك الإسلامية ، والولاياتُ إذ كان يَضَعُطُهَا وِلَاةٌ مُطِيعاء كانت تَقْضِي حياة يؤس فتشور في الغالب .

جاء في مذكرات الملك جهانكير ابن الملك أكبر ما يأتي :



٨٧ - بادامى . أمحمد و تمابيل فى معبد مصنوع تحت الأرض ( القرن السادس من الميلاد )  
( يبلغ ارتفاع المعبد إلى مستوى التمثال الظاهر فى الصدر ) وهو تمثال وشنو الجالس  
على الأذى أناننا ) نحو خمسة أمتار )

« علمت ، وأنا في دهلي ، أن فتنة اشتملت في قنوج فأرسلت كتائب لإطفائها ، فقتل ثلاثون ألفاً من العصاة وأرسل عشرة آلاف رأس مقطوع إلى دهلي ، وصليت عشرة آلاف جثة صلباً مكوساً في سوق الشجر المغروس على جوانب الطرق العامة ، وعلى ما ترى من المذابح لم تفتأ الفتن تذهب في الهندوستان ، ولا تجد ولاية من ولايات الدولة لم يذبح فيها خمسمائة ألف شخص في عهدي وعهد أبي . »

وقد حفزت ضرورة اطلاع الملوك على ما يحدث في الولايات إلى تنظيم شؤون البريد لتسير بسرعة وانتظام في كل ناحية ، فلا تزال تجري في كثير من الجهات ، فالبرد كانوا سعاة مشاة يتناوبون أعمالهم بين مسافة ومسافة في الطرق العامة ، وكانت تنصب على جوانب الطرق حجارة بيض ترى ليلاً حفظاً للسعاة من الضلال .

ويظهر أن الطرق كانت جيدة في العهد المغولي ، فقد زعم تافرنيه الذي ساح في الهند في أواسط القرن السابع عشر أن طرق الهند خير من طرق فرنسا وإيطالية ، وروى أن الانتقال من مكان إلى آخر كان يتم بهودج يحياها سعاة سرعان أو عمراكب تجرها الثيران ، ووسائل نقل كهذه لا تزال مألوفة في المقاع التي لم تمتد فيها خطوط حديدية ، أي في معظم بلاد الهند .

وكان خفراء من الجنود يحافظون على السبلح ، فكانوا مسؤولين تجاه قادتهم المقيمين بالمدن الكبيرة عن كل ما يصاب به من يرافقونهم منهم ، فإذا ما قصرُوا في العناية بسبلح أو لم يجيدوا الدفاع عنه لم يوص بهم رئيسهم فيخسروا معاشهم .

وفي شمال الهند كانت الطرق الجيدة والمواصلات السهلة ، وعكس ذلك حال الدكن الناشئة البعيدة من مقر الدولة .



وكانت أمدد جميع أراضي الدولة المغولية ملكاً شخصياً لولي الأمر ، وكانت تقسم إلى صنفين ، فالصنف الأول كان يشتمل على الأراضي التي يُقَطِّع الملك فادة الجيش إياها بشرط أن ينفقوا على كتابتهم وأن يدفعوا إلى بيت المال مبلغاً معيناً في كل سنة ، والصنف الثاني كان يشتمل على الأراضي التي يستأجرها ملتزمون ببذل سنوي يؤدونه ، فكان هؤلاء الملتزمون ، كنبواب الملك ، ذوى سلطان مطلق على من يقبضون على زمامهم من الأهالي ، فكانوا يمحرون عليهم في الغالب ، فكان الفلاح التعب من العمل الدائم في سبيل غيره لا يبالى بالزرع فلا يحرث ولا يتخذ إلا بالسياسة ، وكان إذا ما جمع مالا دفنه في التراب مظهرأ أقصى درجات البؤس حذر سلب ما عنده ظمأ وعذواناً .

ووصف السائح فرنسيس بيرنيه ، الذي أقام بدهلي اثنتي عشرة سنة في أواسط القرن السابع عشر ، أي في عهد الملك شاهجهان فاقبضنا منه هذه التفاصيل ، مظاهم الولاية ورشاهم و بؤس الرعايا وافتقارهم وصفاً قائماً .

كان العدل غير سليم ، فكان يقوى القضاة بالهدايا كما يقوى وزراء الملك و بطائنه وأزواجه ، أجل ، إن الملك أ كبر علق في قصره أجراً يمكن كل إنسان أن يقرعها ليشكو ظمأ أصابه ، غير أن القوم كانوا يعلمون أن من يصنع ذلك يكون عرصةً لانتقام الظالمين القضاة ، فكانت تلك الوسيلة غير صالحة لدرء المظالم .

والملك إذ كان يتعذر عليه أن يدير شؤون ممالكه الواسعة بنفسه وأن يراقب نائبيه كان يرسل مفتشين من لذنه ليخبروه بما يقع ، ولكن هؤلاء ما كانوا ليشتوا إلى الملك بغير فقراء الحكام أو بخلاء الولاة الذين لم يشتروا حسن شهادتهم لهم .

وما كان أمر الجيش خيراً من ذلك ، فقد عدل عن نظام أكبر في دفع رواتب

الجنود نقداً إلى إقطاع أمراء الجيش الإقطاعيات على أن يؤمنوا الجنود ، وأمر هذا الإقطاع إذ كان موقتاً لم يفكر أولئك الأمراء في غير الاغتناء سريعاً على حساب الكتائب ، فكان الجنود يتركون والخيول تباع ، فإذا ما أريد العرض أكثرى أمير الجيش خيلاً وجعل من العبيد جنوداً ، وما كان الملك ليجهل هذا الخداع ، وإنما كان يعجز عنيته مكتفياً بتبديل ولاته وقواده لكيلا يكون لديهم من الوقت ما يقدرّون فيه على الاغتناء كثيراً والتفكير في العصيان .

ومع ما نبهنا من نقص في النظام العسكري ثبت توالي انتصارات الجيوش الإسلامية على الجيوش الهندوسية نفوق تلك على هذه ، وما تعلمه أن راجه ييجانفر عجب ، أيام فوح الدكن الأولى التي تمت في القرن الخامس عشر ، من أنه لم يقاب المسلمين في أية ملحمة فقد مجلساً من الأكشيرية والبراهمة لاكتشاف السبب في نوالى انكسارانه مع أنه أكثر جنداً وأوسع أرضاً وأوفر مالا .

بدا البراهمة أول المتكلمين فعزّوا تلك الانتصارات إلى المشيئة الإلهية لاريب ، بيد أن الأكشيرية اعترفوا بأن المسلمين أمهر من الهندوس في الرماية وأن خيولهم العربية أو الفارسية أهم من فرّوس الدكن القصيرة ، فأسفر ذلك عن سعى الراجوات في اجتذاب المسلمين إلى جيوشهم فاستطاعوا أن يضمّوا فريقاً من المسلمين إليهم فتمّ لهم بذلك بعض الفوز على ممالك الدكن الإسلامية التي مرّقتها الفتن الداخلية ، وفوزتم لهم للهندوس مثل هذا لم يدّم ، مع ذلك ، إلا إلى حين اغضاء الممالك الإسلامية عن اقتتالها قليل زمن متألمة عليهم .

ولم يمت ذلك إلا في أواخر الدولة الغولية حين قلت الحروب وانحلت عرا الجيوش الإسلامية ووقعت في الحال التي نشأت عن جشع القواد وعدم اكتراثهم

فَأَلَمْنَا إِلَيْهَا آنَفًا ، وَأَصْحَتْ تِلْكَ الْجِيُوشُ أَدَاةَ نَاقِصَةٍ فِي أَيْدِي الْمُلُوكِ عِنْدَمَا أَخَذَتْ الْفِتْنُ تَشْتَعِلُ بَيْنَ الْأَهَالِي وَشَرَعَ نَوَابُ الْمَلِكِ الْمَسْلُومُونَ يَرْفَعُونَ رَايَاتِ الْعَصِيَانِ فَيُضَعِّضُونَ أَرْكَانَ دَوْلَةِ الْمَغُولِ الْكُبْرَى .

رَأَى الْمَلِكُ أَوْرَنْغَ زَيْبُ الَّذِي عَاشَ فِي مِيَادِينِ الْحُرُوبِ أَلَّا يُفَادَرَ مَعْسَكَرُهُ ، فَاسْتَنْفَذَ كَنْزَ أَسْلَافِهِ الْخَفِيِّ فَأَحَاطَ نَفْسَهُ بِقُوَى كَبِيرَةٍ وَمَدَقَعِيَّةٍ عَظِيمَةٍ وَفُرُوسِيَّةٍ مُنْظَمَةٍ ، فَكَانَ يَقْضِي أَيَّامَهُ بَيْنَ هَذَا الْجَيْشِ الرَّائِعِ الْهَائِلِ فَتَقِلُّ إِلَيْهِ نِسَاؤُهُ وَجَوَاهِرُهُ وَثِيَابُهُ الزَّاهِيَّةُ عَلَى ظَهْوَرِ الْقِيُولِ تَحْرُسُهَا صُغُوفٌ مُتَرَاصَةٌ مِنَ الْحَارِبِينَ مَعَ الْمُدَافِعِ وَيَتَقَدَّمُهَا فَرِيقٌ مِنْ مَحْرَقِي الْعُطُورِ .

وَكَانَ الْمَلِكُ إِذَا مَا حَطَّ رَحْلُهُ فِي مَكَانٍ نُصِبَتْ الْخِيَامُ بِسُرْعَةٍ عَجَبِيَّةٍ فَيُخَجَّلُ إِلَى النَّاطِرِ أَنْ مَدِينَةً خَرَجَتْ مِنَ الْأَرْضِ ذَاتَ شَوَارِعَ وَمِيَادِينَ وَمَفَارِقَ وَحُصُونٍ حَسَنَةٍ التَّخْطِيطِ ، وَكَانَ لِكُلِّ خِيَمَةٍ مِنْ تِلْكَ مَكَانٌ مُفَسَّلٌ عَلَى خَرِيطَةٍ مَرْسُومَةٍ قَبْلًا ، فَتَبْدُو قُصُورُ الْمَلِكِ الْمُتَحَرِّكَةِ مُشْتَمِلَةً عَلَى مَا فِي أَرْوَعِ الْمَبَانِي مِنْ وَسَائِلِ الرَّاحَةِ ، فَالْحَقُّ أَنْ مَعْسَكَرَ أَوْرَنْغَ زَيْبُ غَدَا الْعَاصِمَةِ الْحَقِيقِيَّةَ لِلدَّوْلَةِ .

وَمَثَّلَ النِّسَاءُ دَوْرًا مَهْمًا فِي بِلَاطِ مُلُوكِ الْمَغُولِ ، فَحَاولَ أَوَائِلُ هَؤُلَاءِ الْمُلُوكِ ، عَلَى الْأَقْلِ ، أَنْ يَصْهَرُوا الْعَرِيقِينَ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ بِتَزْوِجِهِمْ أَمِيرَاتٍ هِنْدُوسِيَّاتٍ وَبَنَاتٍ لَزَعَمَاءِ الرَّاجِئِينَ عَلَى الْخُصُوصِ ، وَنَحْنُ نَحْمِلُهُمُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْإِقْتِدَاءِ بِهِمْ فِي هَذَا الْمَضَامِرِ .

وَلَمْ يَكُنْ لِلْمُلُوكِ الْمَغُولِ عِدَّةٌ مَعِينٍ مِنَ النِّسَاءِ فَكَانُوا لَا يَحْتَرَمُونَ شَرِيعَةَ مُحَمَّدٍ فِي ذَلِكَ كَمَا أَنَّهُمْ لَمْ يَحْتَرَمُوهَا فِي أُمُورٍ أُخْرَى ، فَبَلَغَ عِدَدُ النِّسَاءِ فِي دَائِرَةِ حَرِيمِ الْمَلِكِ

شاهجهان نحو ألى امرأة ، وما كان شاهجهان ليكتفى بهذا العدد ، فكان لا يحشى أن  
يبحث عن خليات له بين نساء أمرائه ، فأسفر هذا عن سُخْطٍ شديدٍ لَمَقَتِ المغول  
زناء الأزواج .



٨٨ - مهالى پور . معبد مصنوع من جلود ( القرن السادس من الميلاد )

وإذا كان الأمراء يرتاعون من تَوَلَّع الملك بزواجهم فإنهم كانوا يُسَرُّون من  
تَوَلَّعهم بيناتهم ، فكان من أقصى أمانى الموظف الكبير أن يرى ابنته بين حريم الملك ،  
فكان يمكن هذه الفتاة ، وهى خلية الملك ، أن تكون عينا عليه ، وكان يمكن  
هذه الفتاة أن تصبح ملكة إذا مارقت الملك ، فتنال بذلك نفوذاً بالغاً وتَصير عامل  
سعادةٍ لأسرته .

وكان للمجائز اللاتي يراقبن الحريم من النفوذ ، في الغالب ، ما يعلمه نواب  
الملك وملوك الأجانب ، فيشتري هؤلاء ، بسهولة ، حمايتهم لهم بالبراطيل .



٨٩ - مهابل بور . نقوش بارزة على صخرة تمثل مفارقة دورغا لأمول مها-ورا ( القرن الثامن  
من الميلاد )

والإنسان يقضى العجب من أبهة حريم الملك ، فكان لكل واحدة  
من نسوته جوارٍ وراقصات ، وكانت كل واحدة منهن تلبس كل يوم ثوباً جديداً  
وخليةً جديدةً .

وكان طهامة الملك يُطعمون المملكات المعروفات بي غم « أي اللاتي

لا يَعرِفَنَّ النِّجمَ ، وكانت التحليلات يَقُمْنَ بشؤون أنفسهن بما يأخذنه من المِنَح والهِمَات .

والملك شاهجهان أقام المزارَ الرائعَ تاج محل من أجل أحبِّ زوجاته لديه وأعزَّهنَّ عليه ، فعَدَّ هذا المزار من أعجب ما اشتمل عليه العالم من المباني .

وسار المغول على غرار المسلمين الآخرين فأداموا حضارة هؤلاء مُحِبِّين للآداب والعلوم والفنون حُبًّا جَمًّا ، فرَحَّبُوا بالشعراء والعلماء ورجال الفنِّ مهما كان جنسهم ، ولا تزال المباني التي شادوها ، فلم يَصْنَعِ الغرب ما هو أروع منها ، تُثيرُ الإعجب ، ولم تكن العلوم دون الفنون حُظُوَّةً في دولتهم فأنشأوا المدارس وأقاموا المراصد ، وحُبُّ المغول لعلم الفلك ورثوه كابراً عن كابر ، فقد جلب خان المغول هلاكو إلى بلاطه أشهر علماء العرب وأقام في مراغة مرصداً كبيراً سنة ١٢٥٩ ، ولما اتخذ تيمورلنكُ مدينةَ سمرقند عاصمة لدولته العظوى أحاط نفسه فيها بالعلماء ، ولما حَلَّتْ أواسط القرن الخامس عشر بنى حفيده أولوغ بك مرصداً مُجَهَّزاً بألات رَصَد رائعة نذكر منها ربعَ الدائرة التي بلغ نصف قطرها ارتفاعَ كنيسة أياصوفية في القسطنطينية على ما يُروى فأسفر ذلك عن نتائج ذات قيمة في الفلك فنشر أولوغ بك هذه النتائج في كتاب مهم مشتمل على أهمِّ مسائل الفلك وعلى مواضع صحيحة للنجوم <sup>(١)</sup> .

(١) لا يزال يرى في دهلي مرصد أنفىء في العصر المغول ، فهذا المرصد قد أقامه راجه جيبور :  
جى سنها ملك الفول محمد شاه حوالى سنة ١٧٢٠ ، وراجه جيبور هذا استعان بفريق من  
الفلكيين والهندسين والرياضيين ، فاحتوى ذلك المرصد على ساعة شمسية يبلغ ارتفاعها ١٧ متراً  
و ٢٥ سنتيمتراً ويبلغ طول قاعدتها ٣١ متراً و ٧٢ سنتيمتراً ، وراجه جيبور هذا أتم بناء المرصد =

ولم يَبْدَ ملوك المغول حمأةً للآداب والعلوم وحدها ، بل ترى الكثيرين منهم قد حَذَرُوهَا أيضاً ، فالحقُّ أن حبَّ الآداب ، ولا سيما الشعر ، كان نامياً عندهم ، فأَلف بعضهم كتباً مهمة فيها ، ونذكر من بين ملوك المغول تيمورلنك الشهير الذى أقام فى بغداد ، كما يُروى ، هَرَمًا من مئة ألف رأسِ إنسانٍ فأنشأ المدارس وشَمَلَ العلوم بعين رعايته وأَلف كتباً ذات قيمة ، وكان سَلَفَتُهُ بابر وجهانكير وغيرهما مثلُ ميله فَعَدَّتْ مذكرات بابر ، التى شُبِّهَتْ بتفاسير يوليوس قيصر ، نموذجاً حسناً فى الآداب ، ومن هذه المذكرات نعلم جَمَعَ المغولُ بين الوحشية والمدنية علماً أحسن مما فى جميع كتب المؤرخين ، ولا شىء يَشْمُلُ النظر أكثرُ من تَجَلَّى حقيقة مؤسس الدولة المغولية بالهند بابر فى مذكراته تلك ، فبابر ، هذا الجَبَّارُ الذى هو سليل جنكيز خان وتيمورلنك ، سار على سَنَةِ أجداده فأقام أهراماً من الرؤوس المفصولة ، ونبصره ، مع جَبَرَوْتِهِ هذا ، أديباً رقيقاً ، وكان بابر هذا يتكلم المغولية والعربية والفارسية ، وله قصائد باللغة الفارسية ، وكان بابر هذا صبوراً على مطالعة كتب العلوم والآداب والتاريخ ، وكان حُبُّهُ للقراءة لا يمنعه من أن يكون مقاصراً كبيراً

== الذى تشاهد أطلاله فى مدينة بنارس ونهر أرباجا ، وعلى ما تجده من بساطة هذه المراد ، إذا ما نيسبت بآلات الرصد الحديثة ، أدت إلى نتائج صحيحة فى علم الفلك بفضل أبعادها مع بساطة طرفها ، وتتوبرا للذهن نقول : إن تعيين انحراف سمت الشمس وعرض أحد الأمكنة يكون بساطة شمسية مؤلفة من جدار قائم مقبوم إلى درجات ذى ميل مسنن به اسنقراراً عمودياً ، فتحدث الشمس عليه ظل هذا الليل ، فترصدات الشمس المسكرة كل يوم إذ كانت تسفر عن فيد أكبر مسامتة لها وأصغر مسامتة لها كان نصف الفرق بين الرقين دالا على أبعد حد لنصف النهار ، ومن ثم على انحراف سمت الشمس ، ونحن يطرحنا هذا الرقم من أعظم مسافة للمسامتة تتوصل إلى عرض المكان ، صلى هذا الوجه وجد العالم الفلكي المذكور أنفاً رقم ٢٣ درجة و ٢٨ دقيقة كأبعد حد لنصف النهار ، أى وجد رقماً قريباً من الرقم الصحيح بنحو نصف دقيقة .

وشارباً مفرطاً ورفيقاً أنيساً وباسلاً وفياً لأصحابه مع استخفاف وتهكم ، وبابراً هذا ، مع علمه كيف يبدو ملكاً كبيراً عند الاقتضاء ، كان يدعو السفراء ، الذين يَفِدُون على بلاطه ، إلى طرح السكّاف الرسمية جانباً في بعض الأحيان ليَقْضُوا معه ساعة لهو ومَرَح ، وبابراً هذا ما كان ليرى حَرَجاً في الجدل حول مسألة علمية أو منطقية أو لاهوتية عند انهماكه في السكر ايلاً ، وفي كلِّ صفحة من كتاب بابراً الملوك بأدقِّ ضروب النقد والذوادر تَجِدُ سِعة اطلاع من غير تَنَطُّع ، وفي هذا الكتاب تَجِدُ أنه كان يَتَمَسَّك بالنسكته أو الكلمة الطيبة أبناً وَجَدها ، ومما حدث ذات يوم أن أدركه ثلاثة فرسان بعد سِتْرَ يومين على أثر معركة خَسِرَها فَوَقَّفَ فالتفت فقال لهم ساخراً متكبّراً : « أريد أن أرى ، أيها الشجعان ، أيتكم يجرؤ على مَسِّى قبل الآخر » ، فارتبك هؤلاء الفرسان الثلاثة بفعل سُخَرِيّته فقالوا مرتدين حالاً .

حقاً أن بابراً ، المَقْدَام الموهوب العالم الذي يُعَدُّ من أقوى الفاتحين في العالم ، كان يجمع في شخصه مغامرة عرقه ورقته وهمجيته ، فكان ، حينما مات ، وهو ابن خمسين سنة ، ملكَ الهند التي دَوَّخَهَا بِأَتْنَى عَشَرَ أَلْفَ جُنْدِيٍّ بعد أن ظهر زعيمَ قرية وهو في السنة الثانية عشرة من عمره .

وكلُّ مقابلةٍ بين شعوب الشرق وشعوب الغرب إذ كانت خادعة على الدوام غدا من الصعب أن نقايس بين العصر المغوليِّ وأيّ دور جاوزته أوربة كالدور الإقطاعيِّ مثلاً ، فالفراس المغوليُّ والبارون النصرانيُّ ، وإن تماثلا ذوقاً وسفكاً ،



كان الأول منهما أفضلَ من الآخر ثقافةً وحُبًّا للآداب والعلوم والفنون بدرجات ،  
وأرى ، مع ذلك ، أن المقابلة ممكنة بين العصر المغولي وعصر النهضة ، فالأمير المغوليُّ  
والأمير الفرنسيُّ كانا متماثلين ، لا ريب ، في حُبِّهما للمخاطر الدامية والمبارزة بالسيف  
وأموار الشرف والجواهر الثمينة والملابس الزاهية والأشعار الدقيقة وفي احتقار ذلك الحيوان  
الذى كان يُدعى في أوربة بالقَدَّاد وفي الهند بالشودرى .

---



البَابُ الْخَامِسُ  
آثَارُ حَضَارَاتِ الْهِنْدِ



## الفصل الأول آداب الهند ولغاتها

(١) قيمة آثار الهند الأدبية القديمة — قيمة آثار الهند الأدبية صعبة من الوجهة الأوربية — نقائص آداب الهند — (٢) المنشائد والأشعار الدينية — الآداب الوبدية — مختارات مختلفة — أنشودة لإندرا الوبدية — أنشودة الفجر الوبدية — أنشودة الشمس الوبدية — أنشودة الروح العليا الوبدية — أنشودة برهما — أنشودة آدى بدعة البدعية — (٣) النصائد الهندوسية الخماسية الكبرى — المهابهارتا — أهميتها في الهند — خلاصة ومقتطفات — دخول الجحيم — دخول جنة إندرا — الرامايانا — خلاصة ومقتطفات — هبوط الفتنا — طالع القمر — اصطيد الغزال البحري — إعلان حب سينا — جيش شيوا — (٤) الأمثال والأساطير — يمكن الأمثال أن تكون أهم ما أنجبه الهند — أهمية البيج نقترا — ترجمتها إلى أكثر لغات العالم — الهندو يديشا — الأساطير — (٥) التمثيل الهندوسى — شأن الحب فيه — الحوادث المحارفة التي فيه — شعب التمثيل الهندوسى — سكن تلا — (٦) آثار أدبية مختلفة — تنوع الموضوعات — البرورانا — الأوباننشد ، الخ . — (٧) لغات الهند — تشتمل الهند على أكثر من ٥٤٠ لغة ولهجة — تقسيمها إلى خمس فصائل — أهم تلك اللغات — صعوبة نيل الأمكنة في الهند .

### ١ — قيمة آثار الهند الأدبية القديمة

كتبَت الهندُ ، وانتهى إلينا كثير مما كتبَت .

وظُنَّ ، حينما أسفر بحث بعض الأوربيين في السَّسْكَرت عن كشف النقاب عن آداب الهند المجهولة ، أن عالمًا من العجائب والطرائف سيخرج من دياجير الماضى

الحافل بالأسرار ، وظنُّ ، على الخصوص ، أنه اكتُشِف مصدر جميع الحضارات  
وجميع الأديان وأُتينا ، بـرجوعنا إلى عَمَمَات عرقنا الحقيقية ، نهتدى إلى العصر الذهبيُّ  
الضائع وإلى سرِّ مصيرنا .

ولسُرْعَان ما فَتَرَت تلك الحماسة ، فقد عُرِف أن حياة شعوب الهند القديمة  
وأفكارها مهما كانت انتهت هذه الشعوب ، مثلما انتهينا ، إلى مُعْصَلَات كبيرة من  
غير أن تَحُلَّ واحدة منها ، فما كانت الكلمة الأخيرة التى تطمئن إليها نفوسنا لتأتينا  
من ضِفاف العَنَج ، وما كان حبُّ الاستطلاع الشديد الذى أثارته المباحث الأولى فى  
كتب الهندوس إلَّا لينقلب بسرعة إلى عدم اكتراث .

ولسنا بالذين ندرس كتب الهند فى هذا الفصل من حيث قيمتها الفلسفية كدرسنا  
ما فيها من الوثائق النافعة فى البحث التاريخي ووصف الطابع ، بل نبحث فيها من  
الناحية الأدبية فقط .

بولِغ فى تقدير كتب الهند الأدبية فى البداءة ، ولم يُنَحَرَّجْ فى تفضيلها على  
غُرَر آداب اليونان والرومان ، والواقع أن ما فى آداب الإغريق ورومة القديمة من  
الحاسن التى تقضى بالعجب تُغَرِّبنا بالإعراض عن السكتب الهندوسية ، فما فى شعر  
الإغريق والرومان وكثرهم من القريب والوضوح والاعتدال والانسجام والقصد الرائع  
السكامل يجعل الأوربيَّ صَمَب المراس ، فما كان مذهبنا الارتيايى الحديث إلَّا ليزيد  
مَقْتًا للعبالة والإغراب ، وما كان لِيَسْهَل على قُرَّاء هذه هى حالهم أن يُعْجَبُوا بما  
وَصَلَ إليهم من آداب الهندوس الضخمة المشوشة المُمَاة الملوَّنة بالخوارق .

يَبْدُ أنكَ تُبْصِر ، بين هذه المبالغات وهذا الغلوِّ فى الخيالات وتجسيم الموضوعات

الحقيقية البسيطة والشعور الصادق الخالص وتَوَجُّج الأهواء والعواطف، تصويراً للروح والطبيعة بما هو طريف لامع أحياناً، وترائي أشبه طائفاً، الآداب الهندوسية بنهر يشتمل ترابه على سُذُور من التُّبر، فيجب على من يرغب في استخراج بعض هذه السُّذُور أن يجمع إليه عِدَّة أمتار مُكَمَّبة من هذا الطين .



٩٠ — نايجور . منظر الزون المرمي ومداخله ( القرن الحادى عشر من البلاد )  
أُخذت هذه الصورة من خلف الزون ( يبلغ ارتفاعه ٦١ مغراً )

ولا نَعرُض على القارئ فى المختارات التى ننشرها فى هذا الكتاب سوى سُذُور من الذهب ، فإذا ما استَقْبَط منها أن جميع ما أنتجته قرائح الهند هو من نوعها غافلاً عن أن هذه التناجى تحتوى على أكاداس عظيمة ثقيلة مُؤَلَّة فإنه يكون مخدوعاً خَدَعَ من يُحَيِّلُ إليه أن تراب ذلك النهر من سُذُور التُّبر فقط .  
ويجب ألاَّ يمدَّ هذا الفصل الذى ندرس فيه آداب الهند إلاَّ لَمَحَّة إلى أهم

ما هو معروف منها ، فعلى القارئ الذى يريد أن يكون على علم واسع فى هذا المضمار أن يَرْجِع إلى الكتب التى نشرنا مختارات منها فى هذا السُّمُرُ والذى تُرْجِمُ الشَّيْءَ الكثير منها إلى الفرنسية والإنكليزية ، والقارئ إذا لم يكن عالماً بآثار الهندس ، أى إذا لم يكن من المعجبين بكل ما يصدر عن السنسكرت إعجاباً تقليدياً فإنه لا ينظر حَسَباً إلى الآداب الهندوسية ، وهو يصِلُ مثلنا ، لا ريب ، إلى النتيجة القائلة إن هذه الآداب إذ كانت تُلَامُ أدمغة الهندوس وكانت تقضى بإعجابهم للموروث منذ قرون فإنها ليست مما يقرأه الأوروبيون بشغف لعدم ارتباطها وانسجامها وإما فيها من المبالغة والإسهاب المُوَلِّ ولُبْعُهَا من المنطق .

وسنقتصر فى المطالب الآتية على تحليل أشهر آثار الهند الأدبية بإيجاز وعلى مقتطفات قصيرة منها .

ولكى نَجْأُو موضوعاً ذلك مدى اتساعه جَلَاءً نِسْبِيّاً رأينا أن نجعل عناوين تلك المطالب ما يأتى : النشائد والأشعار الدينية — القصائد الحسائية — الأمثال والأساطير — التمثيل — آثار أدبية مختلفة .

### ٣ — النشائد والأشعار الدينية

إذا عَدَدْتُ القصائد الحسائية الكبرى التى ندرسها فى مطلب آخر رأيت الأدب الويدى الصحيح يتألف من أناشيدَ ورسائلَ دينيةٍ تُعْرَفُ بالويدا .

وقد أتيح لنا فيما تقدم أن نتكلم مطولاً عن النشائد الويدية وأن نستشهد بكثير منها وأن نشير إلى مناحيها العامة ، فعلى مالا مِرَاءَ فيه من جمال القليل منها نوافق العلامة كولبروك على رأيه القائل : « إن ما تشتمل عليه كتب الويدا لا يستحقُّ



أن يُقرأ ولا أن يترجم . » والعلامة كولبروك هذا تلقى من براهمة بنارس علم الويدا فكان من الصبر ماقرأها كلها معه ، وهو الذى سرَّ ، مع ذلك ، من معرفة أورة لها إما اشتملت عليه من المعارف ذات القيسة فى تاريخ الحضارة كما ذكرنا ، فهذه الكتب هى الوثائق الوحيدة التى آلت إلينا من عصر يظال أمره مجهولاً بدونها لا ريب ، وهذا مع إمكان جمع جميع المختارات المفيدة التى تُقتطف من كتب الويدا فى بضع صفحات .



٩١ - ناخور . دقائى ، فوش فى الزون السابق ( القرن الحادى عشر من الميلاد )

ولا تتألف الآداب الويدية من الرِّغ ويدا وحدها ، بل تشمل أيضاً على نشائد وأحكام وعهود ، ومما قلناه إن هذه الآداب نضجت مقداراً فقداراً ، وإن من الدُّخف أن يسير الباحث على غرار بعض المؤلفين فينشُد فيها « انبساط القلب وصَفْوَة الطبيعة وسعيًا وراء اللئلى الأعلى » .

وَبُدِي بوضع كُتِب الويدا قبل ظهور المسيح بألف سنة ، ولم تفتأ تُصَحَّح في أكثر من ستة قرون ، وكانت قبل تدوينها ، كدائرة معارف مشتركة ، يُنَقِّحها الناشرون ويكملونها في كل استنساخ مستعنيين بمساعدين جُدد .

وَجِد في الآداب الويدية أثرًا لهذا النشوء البطيء ، ولا تجد الأجزاء التي تتألف منها متجانسة في مجموعها ، وهناك بُعدٌ بين شعر بعض النشائد وأمثال السوترا الموجزة التي ذكر واضعوها لا ريب قول كاتب هندوسي : « إن المؤلف أن يُسرَّ إذا ما اختصر بمقدار النصف حرفَ عليّ قصير كالو رأى نفسه قد وُلِدَ صبيًا . » والمهندوس يسيئون استعمال هذه القاعدة قليلًا ، مع ذلك ، لا من حيث الاختصار ، بل من حيث الغلو في الإمهاب الذي فيه عيهم .

وَيُعَدُّ ما في الرَّغ ويدا من ألوف الأدعية أهمَّ أقسام الويدا من الوجهة الأدبية ، ونصف ما في الرَّغ ويدا خاصٌّ بإله السماء إندرا وإله البارأغني ونصمه الآخر خاصٌّ بالآلهة الأخرى : الشمس والطبيعة والسُّحْب ، الخ . وفي هذا الكتاب استشهدت ببعض مقتطفات منها ، والآن أذكر أهمَّها مكرراً قولي إن قيمة تلك الآثار الأدبية العظيمة لا تُقدَّر بمثل هذه المختارات ، ولا أقصر على ما تيسَّر من الويدا وحدها بل أضيف إليه أنشودة برهما للشاعر كالي داسا الذي يُقَلَّن أنه عاش في القرن السادس من الميلاد وأنشودة سنسكريتية اقتطفناها من مخطوطات نيپال البُدْهيَّة التي نشرها مستر هوغنسن ، ولم تُترجم هذه الأخيرة إلى الفرنسية بعد ، وتجد فيها روعة التوراة التي تنذر في المدونات البُدْهيَّة المطولة على العموم والتافهة على الخصوص .

### أنشودة إندرا الويدية

« إندرا هو الإله المولود الأول ، هو الإله المجيد الذي زَيْنَ الآلهة الأخرى بأعماله ، هو الإله الذى يززل السماء والأرض بقدرته وعظمته التى لا حدَّ لها .

« إندرا هو الإله الذى يُثَبِّت الأرض الراحفة ، ويُمْسِكُ السماوات ويُبَدِّدُ السحبَ العاصفة ويُوَسِّعُ الأجواء .

« إندرا هو الإله الذى يَهَبُ الحياة لكلِّ موجود ، هو الذى يَطَأُ أعداءه الأنذال فى المفاور المظلمة ، هو الذى يَقْبِضُ على جُنُهم كما يَقْبِضُ الصائد على الفئصة .

« إندرا هو الإله ذو الوجه الجليل الذى يأمر الأغنياء والفقراء بالصلاة ، هو الذى يستغيث به السكاهن فى أدْعِيَّته والشاعر فى نشأته ، هو الذى يرضى عما يَهَبُ .

« إندرا هو الإله الذى يملك الجياد والحقول والعِجَال والمدن والمَرْكَبات المملوءة كنوزا ، هو الذى ينجىء بالشمس والفجر ، هو الذى يُسِيلُ المياه .

« إندرا هو الإله الذى ينصر الأمم ، هو الذى يطلب المجاهدون منه العون عند القتال ، هو الذى يبدو مثال السكُون ، هو الذى يَهَبُ الحياة للوجودات غير الحية .

« إندرا هو الإله الذى لا يُظْهِرُ قوته إلَّا ليجازى الخيث والكفور بلا انقطاع ، هو الذى لا يعفو عن الطاغين المستهزئين ، هو الذى يذبح الغيلان .

« إندرا هو الإله الذى تسجد له الأرض والسماء ، هو الذى ترتجف أمامه الجبال ، هو الذى يُرسل الصواعق .

« إندرا هو الإله الذى يَقْبَلُ الإِراقةَ والقرايين والأناشيد والأدعية ، هو الذى يُعْجِبُ الأتقياء ، هو الذى يُسَرُّ بضحايانا وهبائنا » .

### أنشودة الفجر الويدية

« الفجر هو التزّجّان للنير للكلام المقدس ، الفجرُ يَنْشُرُ حُلِيَّه لِيَفْتَحَ لَنَا أبوابَ النهار ، الفجرُ يَضِيءُ الكونَ فَيُطْلِعُنَا عَلَى كُنُوزِهِ ، الفجرُ يُنَبِّئُ الخلائقَ ، الفجرُ يدعُو العالمَ الراقِدَ إِلَى الحركةِ بِيَدِهِ القادرةِ ، الفجرُ يَخْفِزُ الإنسانَ إِلَى البهجة والسرورِ وَإِلَى القيامِ بالشعائرِ المقدسةِ وَإِلَى العملِ لنيلِ السعادةِ ، الفجرُ ، عَلَى عَكْسِ الظلامِ ، نُبْصِرُ بِهِ كُلَّ بعيدٍ ، الفجرُ ، ابنُ السماءِ ، يبدو لَنَا نافعاً لَامِعاً مُدَّ ثِراً بِدِثَارِ ساطِعِ رَبٍّ لِكُلِّ ثَرَاءٍ فِي الأرضِ ، الفجرُ يَنْعَمُ بِضِيائِهِ كُلَّ موجودٍ وَيُبْعَثُ كُلَّ خَامِدٍ ، فَمَتَى يَزُورُنَا الفجرُ ؟ الفجرُ الذى يَنْبِيرُنَا الآنَ يَكُونُ كَالَّذِى جَاءَ قَبْلَهُ ، وَيَكُونُ مِثْلَهُ الذى يَأْتِي بَعْدَهُ ، هُوَ يَنْبِيرُنَا كَثِيرِهِ ، عَادُوا غَيْرَ أَنَاسٍ أَوَّلُتْكَ الَّذِينَ رَأَوْا الفجرَ بِتِلَالٍ كَمَا يَتَلَاؤُا الْيَوْمَ ، وَالْآنَ حَلَّ دُورُنَا لِرُؤْيَتِهِ ثُمَّ يَحِلُّ دُورُ أَنَاسٍ آخَرِينَ يَرَوْنَ الفجرَ بَعْدَ زَمَنِ فَيَمُوتُونَ . . . الفجرُ فِي رَجَمِي مِنَ الْهَرَمِ وَالْمَوْتِ ، فَيَتَقَدَّمُ نَاشِراً سَنَاءَهُ غَامِراً شَوَاطِئَ السَّمَاءِ ، الفجرُ إِلَهُ النُّورِ وَهُوَ يُبَدِّدُ الظُّلَامَ النَّجِسَ ، الفجرُ يُخَيِّ الطَّبِيعَةَ مِنْ فَوْقِ مَرَكِبَتِهِ الرَّائِعَةِ الَّتِي تَجْرُهَا جِيَادُ سَحَرٍ ، أَفِيقُوا ، إِلَيْكُمْ رُوحاً جَدِيدَةً تَسْرِي فِيْنَا ، الظُّلُّ يَتَقَدَّمُ وَالنَّهَارُ يَقْتَرِبُ ، فَقَدِ مَهَّدَ الْفَجْرُ الطَّرِيقَ الَّتِي تَسِيرُ مِنْهَا الشَّمْسُ ، هَلُمُّوا إِلَى النُّورِ ، هَلُمُّوا إِلَى الْحَيَاةِ ! » .

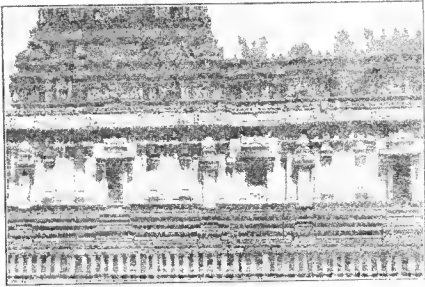
### أنشودة الشمس الويدية

« أشعة النور تَظْهَرُ العَالَمَ فَتُنْجِي<sup>١</sup> بِالْإِلَهِ الذِي يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ ، تُنْجِي<sup>٢</sup> بِالشَّمْسِ  
التي إِذَا مَا بَدَتْ تَوَارَتْ النُّجُومُ كَاللصُّوصِ وَتَبْدَدَ ظِلَامُ اللَّيْلِ ، أَشْعَةُ الشَّمْسِ السَّاطِعَةِ  
كَالنَّارِ تَسْلُمُ عَلَى جَمِيعِ المَخْلُوقَاتِ ، الشَّمْسُ تَجْرِي وَتَبْدُو لِلْأَعْيُنِ وَتَبْثُ النُّورَ وَيَمْلَأُ  
سَنَائِهَا الْأَجْوَاءَ وَتَهْضُ أَمَامَ كَتِيبَةِ الْآلِهَةِ وَأَمَامَ النَّاسِ وَالسَّمَاءِ فَيَرَاهَا كُلُّ وَاحِدٍ  
وَيُعْجَبُ بِهَا ، الشَّمْسُ تُزَكِّي<sup>٣</sup> وَتُزِيلُ<sup>٤</sup> أَلْهَمَ<sup>٥</sup> بَضَائِهَا الذِي يَفْشِي الْأَرْضَ الْمَمْلُوءَةَ  
أَنَاسًا ، الشَّمْسُ الْمَشْرِقَةُ تَغْمُرُ السَّمَاءَ وَالْأَجْوَاءَ وَتُبْذِعُ اللَّيْلَ وَتُبْصِرُ كُلَّ  
ذِي حَيَاةٍ وَيَجْرُ<sup>٦</sup> مَرْكَبَتَهَا سَبْعَةُ جِيَادِ شُقُر<sup>٧</sup> ، الشَّمْسُ إِلَهٌ يَرَى كُلَّ شَيْءٍ وَكُلَّ  
الْأَشْعَةِ شَعْرَةِ الْجَبَلِ ... وَنَحْنُ ، بَعْدَ أَنْ يَزُولَ الظَّلَامُ وَنَرَى النُّورَ الرَّائِعَ ، نَسْجُدُ أَمَامَ  
ذَلِكَ الْإِلَهِ الذِي يَسْطَعُ بَيْنَ جَمِيعِ الْآلِهَةِ وَيُظْهِرُ أَنْفَر<sup>٨</sup> مِنْ جَمِيعِ الْكَوَاكِبِ . »

### أنشودة الروح العليا الويدية

« لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ فِيهَا سَلَفٌ ، فَلَا وَجُودَ وَلَا عَدَمَ وَلَا عَالَمَ وَلَا سَمَاءَ وَلَا أُنْثِيرَ فِيهَا خَلَا ،  
فَأَيْنَ كَانَ غِلَافُ<sup>١</sup> كُلِّ شَيْءٍ ؟ وَأَيْنَ كَانَ حَوْضُ الْمَاءِ وَمَوْضِعُ الْهَوَاءِ إِذْكَ ؟ لَمْ يَكُنْ  
مَوْتُ وَلَا خُلُودٌ وَلَا نَهَارٌ وَلَا لَيْلٌ ، وَالْكَائِنُ وَحْدَهُ كَانَ يَقْتَفِسُ<sup>٢</sup> مِنْ غَيْرِ أَنْ  
يَسْتَنَشِقَ شَيْئًا غَارِقًا فِي ذَاتِهِ الَّتِي لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ خَارِجًا عَنْهَا ، وَكَانَتِ الظُّلُمَاتُ بَعْضُهَا  
فَوْقَ بَعْضٍ وَلَمْ يَكُنْ لِمَاءِ سَنَاءٍ فَسَكَانُ كُلِّ شَيْءٍ مَمْزُوجًا بِهِ ، وَكَانَ عَرْشُ الْكَائِنِ فِي  
الْفَضَاءِ الذِي يَحْمِلُهُ ، ثُمَّ بَرَأَ الْكَوْنُ بِإِرَادَتِهِ بَعْدَ أَنْ نَشَأَتْ فِيهِ الرِّغْبَةُ الَّتِي هِيَ أَصْلُ  
كُلِّ شَيْءٍ ، هَذَا مَا قَالَهُ الْحُكَمَاءُ الَّذِينَ يُفَكِّرُونَ بِقُلُوبِهِمْ وَعَقُولِهِمْ فَيَتَفَقَّدُونَ بِيَعْرَمِ

الحديد كل أمر في الأعلى وفي الأسفل وفي أى مكان ما كَمَنْتَ فيهم بظور اللّذّاح  
أى عظيمُ الأفكار ، سيقى جوهر الكائن الأعلى بعد فناء كلِّ شيء كما كان قبل  
خلق كلِّ شيء ، ولكن من يَعْرِف هذه الأسرار ؟ ومن يستطيع أن يكشفها ؟ ومن  
أين تأتى هذه الموجودات ومن أين يأتى هذا السكون ؟ أراد الكائن الأعلى خلقَ  
الآلهة فبرأها ، ولكن من يَعْلَم مصدر هذا الكائن الأعلى ومصدر هذا الخلق  
الواسع ؟ .. »



٩٢ - تانجور . دفائى نقوش في معبد سهرماية  
( ضمن اطاق الزون ) ( القرن الخامس عشر )

### أنشودة برهما لكالى داسا

« المجدُ لكَ أيها الإله ذو الصور الثلاث الذى لم يكن غير ذى طبيعة واحدة  
قبل التكوين ، فلما برأت السكون انقسمت إلى ثلاث صور لكى تبدوَ صفاتك

الثلاث ، القدرة والذكاء والحلم ، أحسنَ مما كانت عليه ، أيها الخالق غيرُ المخلوق ، لقد انتشر أصلك فوق الماء فصدر عنه كلُّ متحرك وساكن ، ويُقدَّس لك لأنك بارئ كل شيء ، وأنت ، إذ تجلَّتْ عظمتك على ثلاثة وجوه ، كنتَ السببَ الواحدَ للخلق والديمومة والفناء ، والعنصرُ المؤنثُ والعنصرُ المذكرُ هما أصلا طبيعتك ومنهما يُبثُّ كل موجود ، قَسَمْتَ الزمانَ إلى ليل ونهار ، وُسِّفَ نومك وسُهادك عن هلاك المخلوقات وبُعْثها ، لا أول لك ولا آخر ، وأنت أصل العالم وغايته ، وكنتَ قِصْل الخلق ولم يكن شيء قبلك ، ولا ربَّ لك وأنت رب كل شيء ، وأنت تَعْرِف نفسك بنفسك ، وَبَرَأْتَ نَفْسَكَ بِنَفْسِكَ ، وَتَضَرَّ نَفْسَكَ بِنَفْسِكَ ، أنت أبو الآباء وإله الآلهة ومُبدِع العلم وموضوعه والبصيرُ وغاية البصر .

### أنشودة آدى بُدَّة البُدَّة

« ١ — لم يكن شيء في البداءة ، وكلُّ شيء كان فضاء ، وما كانت العناصر الخمسة موجودة ، هنالك بدا آدى بُدَّة المَنَزَّة على شكل هيب أو ضياء .

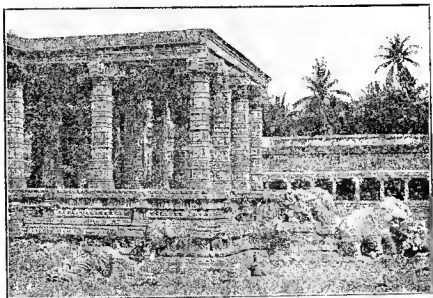
« ٢ — يشتمل آدى بُدَّة على الفونات الثلاث ، وفيه يتجلى مهامورتى وويسواروبا ( صورة كل شيء ) ، فهو بُدَّة الكبير الذى أوجد نفسه بنفسه ، هو أدِيناتا ، هو مَهِيَشُور .

« ٣ — آدى بُدَّة هو أصل ما فى العوالم الثلاثة من الموجودات ، وهذه الموجودات كانت بفضلها ، فنه ومن عميق تأملُه انبجس الكون .

« ٤ — آدى بُدَّة موجود بنفسه ، هو أسوارا ، هو جَمَاع الكلال ولما لانهاية له ،

هو لا أعضاء له ولا عواطف فيه ، وجميع الأشياء صورته وإن لم تكن له صورة ،  
هو شكل كل شيء وإن لم يكن له شكل .

« ٥ — آدى بُدْهَة لا يُجَزَّأ ، ولا وجهَ مرثيًّا له ، والألم لا يَحِدُّ إليه سبيلاً ،  
وهو مصدر قدرته الذاتية ، وهو أبديٌّ بطبيعته ، ولكنه غير أبديٍّ في تجلياته ،  
فترانى أسجد أمامه .



٩٣ — شلْهَرم ، مدخل معبد ذى عمد ( القرن الخامس عشر ) ( يرجع أُنْدم أجزاء  
هذا المَمد إلى القرن العاشر ، ولكن هذه الأجزاء توارثت تحت  
ما أنشئ في القرنين الخامس عشر والسادس عشر )  
( يبلغ ارتفاع الأعمدة إلى أعلاها ثلاثة أمتار و ٥٥ سنْهَبراً )

« ٦ — آدى بُدْهَة لا أول له ، هو كامل ، هو خالص جوهرًا ، هو أصل الحكمة  
والفضيلة المطلقة ، هو يَسْبُرُ الماضي ولا تبدل اسكلماته .



« ٧ — آدى بُدْهَ لا شِبْهَ لَه ، هُو موجود فى كل مكان ، هُو شديد البأس على الأشرار مثل الأسد الذى يَهْزِرُ الظَّبْيَ الوديع .  
 « ١١ — آدى بُدْهَ يَنْعَمُ على ذوات الحسِّ بالسعادة ، وهو يُجِبُّ من يَحْدِمُونَهُ ، وهو يَمْلَأُ بعظمته القلوبَ رَهبةً واحتراماً ، وهو يَكْشِفُ الكربَ عن المكروبين .  
 « ١٢ — آدى بُدْهَ حائِزٌ للفضائل العَشْرَ ، وهو يَنْعَمُ بها على من يُمَجِّدُونَهُ ، وهو يَمْلِكُ بِقَاعِ السماءِ العَشْرَ ، وهو رَبُّ العالم ، وهو يَمْلَأُ بوجوده السماوات .  
 « ١٥ — هُو خالقُ جميعِ البُدْهَاتِ وكثيراً من البُدْهَى ستوايات الذين يُحِبُّهُمْ ، وقد خلقَ العالمَ بمَعُونَةِ رانجا ودهرما (واحد من الثلاث البُدْهَى) ، وليس له خالق ، وهو مبدعُ الفضيلة ، وهو يُعِيدُ كلَّ شَيْءٍ إلى العدم » .

### ٣ — القصائد الهندوسية الحماسية الكبرى

المهابهارتا . — قصائد المهابهارتا العظيمة من أضخم آثار العالم الأدبية فضلاً عن آثار الهند الأدبية القديمة ، وهى تشتمل على ٢١٥٠٠٠ بيت شعر مع أن الإلياذة لا تحتوى على أكثر من ١٥٠٠٠ بيت ، ولا تحتوى الأوديسة على أكثر من ١٢٠٠٠ بيت ، ولا تحتوى الإنيثيد على أكثر من ١٠٠٠٠ بيت ، ويتألف من المهابهارتا خمسة عشر مجلداً عادياً يبلغ مجموع صفحاتها ٧٥٠٠٠ صفحة .

وللمهابهارتا أصل أضيف إليه مع الزمن شئ كثير ، فتمتد المهابهارتا من عمل القرون ، لا من عمل رجل واحد ، وتقدّر المدة التى انقضت بين وضع نصّها الأصيل وآخر تصحيح فيها بألف سنة ، ولا يمكن تحديد عمرها بالضبط ، ولكن من المشكوك فيه أن يكون أحدث أقسامها قد وُضِعَ بعد القرن الثالث من الميلاد .

والمهابهارتا عظيم أهمية لدى الهندوس ، فقد قيل إن كتب الوبدا الأربعة وُضعت في كِفَّة ميزان وإن المهابهارتا وُضعت في الكِفَّة الأخرى أمام الآلهة مجتمعة فَرَجَعَتْ كِفَّة المهابهارتا ، ومما نصَّ عليه أن قراءة ما تيسر من المهابهارتا يمحو الذنوب ، والحق أن تقديس الهندوس للمهابهارتا كتقديس النصارى للكتاب المقدس وتقديس المسلمين للقرآن ، ويعتقد الهندوس أن المهابهارتا وُضعت في السماء وأن الآلهة أنعمت بها على الناس .

وعنوان المهابهارتا ، أو بهارتا الكبير ، تلخيص «ل قصة شعب بهارتا الكبرى» ، وتُخبر هذه القصة باصطراع الباندوا والكوروا فرعى أسرة البهارتيد القمرية التي استقرت بمدينة هاشي نايبورا القديمة الواقعة بالقرب من دهلئ .

وتبدأ المهابهارتا بالأدعية والقوابع والأنساب ، ثم تشتمل على قصة مؤلفة من استطرادات وإيضاحات وتكرارات مُطَوَّلَة يَمَلُّ الأوربي منها ، وفي المهابهارتا اختلطت الروايات بالأساطير اختلاطاً لم يُفَكَّر معه واضعوها في ربط بعض أجزائها ببعض .

وتقوم القصة على اقتتال أبناء باندو الخمسة (الباندوا) وأبناء دهرئ ترَاشترا المثة (الكوروا) وأطيل دم الباندوا ، المشابهين لهر كول وثينة للذين ذُكرّا في الأساطير اليونانية ، ولفرسان القرون الوسطى التائبين ، فجابوا بلاد الهند وأقنذوها من الغيلان المفسدين وقاموا بغيريب الأعمال ، وفاتلوا عفاريت غاب الأساطير الهندوسية الراك شسا المفترسين للناس والقادرين على الظهور بمختلف الصور والسباحة في الأجواء ، وأشدُّ أولئك الإخوة الخمسة (الباندوا) هؤلاء هو العملاق بهماسينا « ذو الذراعين

الطويلتين والبطن الذئبي» ، فقد استأصل الراك شسا الذكور وأغوى بناتهم بحاله نائلاً الجوائز في جميع مسابقات الفروسية .

وفاز أحد أولئك الإخوة الخمسة على منافسيه الكثيرين ، فنال درويدي الحسنة ابنة الملك درويدي مؤثراً قوساً لم يقدر إنسان على ثنيه ، وخرجت الآلهة من منزلها السماوي لتشهد القتال على حسب العادة ، وتزوج أولئك الإخوة الخمسة بهذه الحسنة معاً ، وفي هذا دليل على تعدد الأزواج من الذكور في الهند في سالف الأزمان .

ولم يلبث أولئك الإخوة الخمسة أن سقطوا بعد أن بلغوا ذروة السلطة ، وذلك بما اقترفه أحدهم الذي خسر كنوزه وقصوره في الميسر ، والإخوة الخمسة أولئك إذ أعسروا بذلك رجعوا إلى حياة السياحة ومعهم درويدي الحسنة ، وأخذوا يتكلمون بسماع ما يقصه النساء والجن عليهم من أنباء الخوارق التي لا نهاية لها ، وهكذا فامت حياتهم على سماع الأساطير والقتال ، ومما حدث أن بلغ أحدهم أرخبنا من البأس ما حارب به الإله شيوا المتنكر في صورة صياد ، أجل ، إنه قبير ، ولسكنه اعتذر عن ذلك بأنه التزم جانب الحمية فاقصر على الاغتذاء بالهواء وجاف الأوراق واقفاً على إبهام رجله رافعاً ذراعيه طامعاً أن يبال بهذا الزهد درجة إله في السماء على رأى الهندوس ، ومما يذكر هنا أن مما يزعم مجلس الآلهة أن يرى الناس يقومون بتوبة قاسية ، وأراد أرخبنا ، ذلك الذي قاتل شيوا ، أن يفتن الآلهة فذهب ، كأبطال دانتى ، إلى السماء ، وقاتل المملاق بهياسينا « ذو الذراعين الطويلتين والبطن الذئبي » بقوة بيان الثعبان الهائل الذي لف به فلم يتركه ، كما فعل أبوهول إديب ، إلا إذا حل الغازه

ولم يَنْتَهِ أولئك الإخوة الخمسة أمام تلك الأعمال المروية بفضل دُرْعَانِهِم  
الساحرة ، فهزموا وحدهم جيشاً خَرَجَ على مَلِكٍ كانوا جنوداً له كاتمين أسماهم .

وتَجِدُ قِصَصَ أعمال البطولة ممزوجة بالخوارق في المهابهارتا ، وتَجِدُ اختلاط  
مسائل ما بعد الطبيعة بكثرة فيها ، فترى في الكتاب السادس منها ، مثلاً ، مباحث  
دينية مُطَوَّلَةٌ ، وفيها تُبَصِّرُ كَرِشْنَا الذي تَجَسَّدَ فيه السكائن الأعلى وشنو يُحَدِّثُ  
في وسط الحركة أخاه أَرْجُنَا الباسلَ ، الذي تَجَسَّدَ فيه وشنو أيضاً ، عن بطلان متاع الدنيا  
وعن مصير الخلوقات وعن تدرُّجها إلى الفناء في برهما وعن وجوب قمع الرغبة وما إلى  
ذلك من النظريات القريبة من المبادئ البُدْهِيَّةِ .

وأدلة لاهوتية كذلك لا تمنع من صَرَبات السيف ، فمع أن وشنو تَجَسَّدَ في  
واحد من باندوا لم ينتصر هذا على أعدائه كوروا إلا بعد قتال هائل دام ثمانية عشر  
يوماً ، والنصرُ بعد أن تَمَّ لباندوا استطاعوا أن يسيطروا بسلام ، وهم عندما شَعَرُوا  
بِدُنُوِّ أَجَلِهِمْ توجهوا ، ومعهم زوجتهم المشتركة الفَتَّانَةُ دروَيْدِي ، إلى جبال هَيْالِيَّةِ  
حيث ماتوا بالتتابع لِيُرْفَعُوا إلى مقرِّ الآلهة الخالدة حالاً ، فهناك عُلِمَ أن وشنو لم  
يَتَجَسَّدَ في واحد من بنداوا فقط ، بل ظهر تَجَسَّدٌ مختلف الآلهة في أعدائهم الكوروا  
أيضاً ، فضلاً عن الإخوة الأربعة .

هذا هو الأساس الذي قام عليه ذلك الديوان الحاسي الذي لا يَنْصُبُ مَعِينَهُ ،  
وهو ، كما ترى ، ذو مَسَحَّةٍ أَرِستوقراطية كَهَنُوتِيَّةٍ ، فلم يُذْكَرْ فيه سوى الآلهة  
والكهَّان والمُلُوك ، ولا تَجِدُ فيه إشارة إلى الشعب ولا إلى العامل ولا إلى التاجر ،  
الخ . وفي ديوان الحاسة ذلك شِعْرٌ رائع يمكن قياسه بأجل الأَشْعار الأوميروسية ،  
ولا ريب في أن أدبه أرقى من أدب الإلياذة والأوديسة ، ولكن ما فيه من شوائب

ظاهرة لا يُعْرِى الأوربيَّ على مطالعته ، فهو ينقلنا إلى بشرية بائدة تختلف عنا بنفكيرها وشعورها ونظرها إلى الأمور اختلافاً تاماً ، وهو يعرِّض علينا عالماً من المبادئ الوهمية تسحر الإنسان في دور طفولته لا في دور كالدور الحاضر .

وإننا نحتم تلك الخلاصة بمختارات معتدلة الخيال اقتطفناها من المهاجرات :

### هبوط يود هيشتيرا إلى الجحيم

« تَبِيع يُوْدْ هِيشْتِيرا رَسولَ السَّماءِ مِنَ العَلِياءِ بِحُطَّاءِ واسِعَةٍ ، فَيالِهَ مِنْ سَقوْطِ مَشْؤومٍ ! وَيالِها مِنْ رِحْلةِ هائلةٍ ! ذَلِكَ هُوَ مَأوِى الأرواحِ الجُرْمةِ الغارقةِ فِي ظُلُماتِ حالكَةِ والمُذْتَرَّةِ بنباتِ خبيثٍ والمنشقةِ رَاحَةَ الإنِمْ الوَبِىِّ واللحمِ والدمِ ، ذَلِكَ هُوَ المَأوِى المملوءُ بِالْجُنَّتِ والشَّعْرِ والعظامِ والفاسدِ بالديدانِ والمَواِمِ ، ذَلِكَ هُوَ المَأوِى الَّذِى يرمى بِالشَّرِّ المُتَّبِهمِ وَتُحْلَقُ فَوْقَهُ الغِرْبانُ والعِقبانُ وَغَيرِها مِنَ السِّكْواكِرِ المُجَنِّحةِ الَّتِى تَهْبِطُ مَبْتورةً مَهِيضَةً فَوْقَ الجِبَالِ .

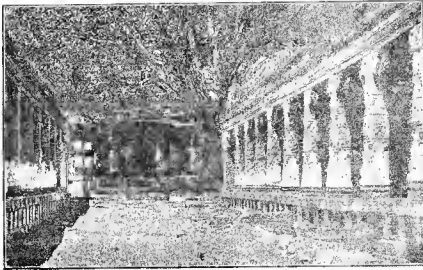
« سارَ المَلِكُ خائِفاً مُزْجِرَةً الشَّعْرِ بَيْنَ نِلكِ الجُنَّتِ والرَّاحَةِ المُنقِنَةِ ، ورأى أَمامَهُ نَهْراً مِنَ الأمْواجِ اللَّتْهَبَةِ وَغايَةِ مِنَ النَّصالِ ذاتِ الأغْصانِ الحادَّةِ وصُخُوراً مِنَ الحَديدِ وَخِوابِىَ مملوءَةً لَبِناً فَائِراً وَزَيْتاً حارّاً وَعَوْسَجاً<sup>(١)</sup> ، فَانْطَلَأَ أُعِدَّتْ لِلْمَجْرَمِينَ .

« رَاعَتْ نِلكَ الأَبْجَرَةَ الوَخِيمةَ يُوْدْ هِيشْتِيرا فَارتَدَّتْ إلى الوِراءِ حِينَ سَمِعَ القَوْلَ الآتِىَ يَخْرُجُ مِنْ مِهاَلِكِ اللَّيْلِ : « وَاحْزِياهُ<sup>(٢)</sup> ، قِفْ ، أَيُّها المَلِكُ العادِلُ الشَّهِيدُ ، ثَانيَةً لِنَختِفِيفِ آلامِنا ، يَحْمِمْ عِطْرَ رُوحِكَ النِّقيَّةِ حَوْلَكَ كَالرُّخاءِ<sup>(٣)</sup> ، وَلِنا فِي هَذا

(١) العوسج : من شجر الشوك - (٢) واحزياه : كلمة نستعمل للتأسف - (٣) الرخاء : الرخ اللينة التى لا تحرك شيئاً .

العِطْرُ سَكِينَةً نَنْظُرُهَا مِنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ ، اُنْكَثَ هُنَا ، يَا ابْنَ بَهَارَتَا الْقَدِيرِ ، فَبِكَ  
يَزُولُ الْعَذَابُ » .

« أَثَّرَتْ هَذِهِ الْعِجَاجُ<sup>(١)</sup> الْحُزْنَ فِي الْبَطْلِ فَتَحَسَّرَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُمَيِّزَهَا لِمَا  
تُعْبَرُ عَنْهُ مِنَ النَّبَارِيجِ ، ثُمَّ غَلَبَهَا ، فَقَالَ لِرَسُولِ السَّمَاءِ مُتَوَرِّغاً مَذْعُوراً مَتَبَهِّماً لِلْعَدْلِ  
الرِّبَانِيِّ مَرْتَحِفاً فِي سَوَاءِ ذَلِكَ الْجَوْءِ الْخَلَاقِ : « ارْجِعْ إِلَى أَوْلَئِكَ الَّذِينَ تَمْتَشِلُ  
أَوَامِرِهِمْ فِي السَّمَاءِ ، لِأَنِّي عَدَلْتُ عَنِ الْعُودَةِ إِلَيْهَا ، فَسَاقِي هُنَا عِنْدَ مَنْ أُحِبُّ لِمَا  
يُوجِبُهُ وَجُودِي بِجَانِبِهِمْ مِنْ تَخْفِيفِ آلَامِهِمْ » .



١٤ - تَرْبِي . أَعْمَدَةٌ فِي مَدْخَلِ الْجَبَلِ الْمَقْدَسِ ( بِمِقْدَارِ رَفْعِ الْأَعْمَدَةِ مِنْ أَسْفَلِهَا إِلَى  
أَعْلَاهَا مِثْرَيْنِ وَ ٥٥ سَنِينَ ) ( يَظْهَرُ أَنَّ الْمَبْدَأَ أَنْتَنِي فِي الْقَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ  
وَلَكِنْ الْإِنْشَاءَاتُ الَّتِي نَدُلُ عَلَيْهَا هَذِهِ الصُّورَةُ قَدْ تَمَّتْ فِي زَمَنِ  
أَحَدَتْ مِنْ ذَلِكَ بَرَمَن طَوِيلٍ )

« فَلَمَّا سَمِعَ الرَّسُولُ ذَلِكَ عَادَ إِلَى قَصْرِ رَبِّ الْأَرْبَابِ إِنْدَرَا وَأَخْبَرَهُ بِمَا عَزَمَ عَلَيْهِ

(١) الْعِجَاجُ : جَمِيعُ الْعَجَمَةِ وَهِيَ اسْمُ بَعْضِ الصَّبَاحِ .

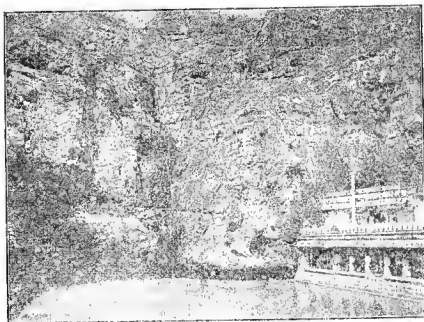
حفيد بهارتا ، ولما أدام يود هيشيرا حيفا بدار العذاب هبط إندرا و يَمّا وغيرهما من  
الآلهة إلى الهاوية ، ولما بلغوها بددت أنوارهم الظلام وزال العذاب عن الجرمين ،  
فصرت لا ترى نهراً مضطرباً ولا غابة شائكة ولا بحيرة من نار ولا صخراً من قُلز<sup>(١)</sup>  
ولا جُنة كريهة ، بل صرت تجد ريحاً طيبة عطرة تنتشر فوق أرضة الآلهة ،  
وصرت ترى النار مُنارة بنور السماء الساطع » .

### زيارة أرجنّا لجنة إندرا

« ودّع البطل الطليق من قيود الأرض أرجنّا الجبل وأهرع فرحاً إلى الموكب  
الإلهي صاعداً في الأجواء فوصل إلى البقاع المحرّمة على أبناء الأرض فوجد فيها  
عشرات الألوف من اللزّجات المنيرة بذاتها ، لا بفعل الشمس والقمر وأى ضياء ،  
والتي بلغت من البعد ما تعجز معه عن قياس حجمها والتي تبدو ، لهذا البعد ، مصابيح  
شاحبة ، فدنا منها فشاهد تألّفها وانسجامها الرائع ، فرّت أمامه مثاث من الملوك  
العادلين والحكماء الراشدين وضحايا الحرب والمعتكفين الذين فتحوا السماوات ، ورأى  
منزل الأولياء والقائمين ذا الأزهار الجميلة الأوضاع فتندبّم شذاها العطر ، وشاهد غابة  
مودنا التي تنتشر جميع الغواني تحت أشجارها الخضر ، وإن شئت فقل شاهد للمأوى  
المعدّ لأفئدة المؤمنين فلا يدخله من لا يعرفون التوبة ولا يُقرّبون القرايين  
ولا يتبّتون في ميدان القتال ولا يُقدّمون الضحايا ولا يميلون إلى الزهد ولا يُنصّتون  
للويذا إذا قرئت ولا يزورون الأماكن المقدسة ولا يدخله من يستخفون بالفصل  
وبالصدقات ومن يحجّدون بالدين ومن يسكّرون ومن يزّنون ، ولا تُدخل مدينة  
إندرا قبل مجاوزة هذه الغابة الساطعة الربانية الغناء .

(١) القلز : النحاس الذي لا يميل فيه الحديد .

« وَقَعَتْ أَمَامَ مَدِينَةِ إندرا أَلُوفُ الْمَرْكَبَاتِ الْحَيَّةِ وَفِيهَا مُجَعَّدٌ إندرا بصوت الشعراء والغواني على حين كان النسيم يذشر أطيب رائحة ، وفيها استقبلت الآلهة والسعداء فَرِحِينَ ذَلِكَ الْحَارِبِ ذَا الذَّرَاعَيْنِ الْمُفْتُولَيْنِ بِسَلَامِ التَّهْرِيكِ عَلَى صَوْتِ الْمُوسِيقَى السَّمَاوِيَةِ ، فَسَارَ عَلَى الطَّرِيقِ ذَاتُ الْكُوكَبِ وَعَلَى دَرَبِ الشَّمُوسِ ذَوَاتُ الْأَنْوَارِ مُحَاطًا بِمَلَائِكَةِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالْهَوَاءِ وَبِصَفْوَةِ الْبَرَاهِمَةِ وَالْمَلَكُوتِ فَرَصَلٌ مُكْرَّمًا إِلَى حَضْرَةِ رَبِّ الْأَرْبَابِ » .



٩٥ - تريبتي . حوش مقدس في سفح الجبل

الراماينا . - للراماينا مثل أهمية المهابهارتا فيُعَدُّ هذان الديوانان الحاسيان ، مع كتب الويدا ، أعظم ما في الآداب السنسكريتية .

والراماينا ، مع أنها أقدم من الميلاد بعدة قرون لاريب ، أحدث من المهابهارتا ، فكان ما فيها من التحريف أقل مما في الأخرى ، وهي إذ لم تشمل على غير ٤٨٠٠٠



بيت من الشعر فإنها أصغر من الأخرى بأربع مرات ، ويعتقد الهندوس أن الإله وشنو هو واضعها .

تقوم الرامايانا على خبر الحروب التي أوقد نارها راماً ليسترد زوجته سيتا الحسناء التي اختطفها الشيطان راونا ملك الجن الأشرار المقيمين بجزيرة لَنَسْكَا ( سيلان ) والمعروفين بالراك شسا .

وراما هو ، كأحد أبطال المهابارتا ، إله في صورة إنسان ، أو إنسان تَجَسَّد فيه وشنو، ويتألف أعوانه في الحروب من القِرَدَة والنسور ، والحوادث في الرامايانا ، كما في المهابارتا . تجرى في عالم خيالي ، ويدور مغزاه العام حول صراع بين الخير والشر ، وما في الرامايانا من مخاطر فصدره ما سام الظالم راونا به الكهان من الخسوف وما منه من تقديم القرابين ، فلما سَخِطَت الآلهة على ذلك عقدت مجلساً ورأت أن يتَجَسَّد أحدها في صورة إنسان لإنقاذ البشر فأمر برهما أخذ الأفانيم الهندوسية الثلاثة وشنو بذلك ، فوُطِّن وشنو نفسه على الإخلاص ، فوُلِدَ في صورة البطل راماً ، ثم نفاه أبوه بتحريض من إحدى زوجاته جاهلاً أصله ، فأطاع أباه فاخفى هو وزوجته الحسناء سيتا في الغاب ، وكان يسكن غابة دَنَدَكا التي اختارها مقراً لعزلته جن غيلان خياليون وغَدَّت السَّعْلاء<sup>(١)</sup> سورين كها أخت راونا ملك الراك شسا عاشقة راماً الجميل فتَحُول سيتا دون التنفيذ فتحاول سورين كها إغتراسها فيدحرها راماً فيجدع<sup>(٢)</sup> صاحبه لكشامنا أنفها ويَصْلِم<sup>(٣)</sup> أذنيها ، فتعزم سورين كها على الانتقام فتعود مع أربعة عشر ألف عفرية فيهزم راماً جميع هؤلاء بنياله السحرية فتغضب سورين كها من قهرها فتطير إلى سيلان فتطلب العون من أخيها راونا ( الملك ذي

(١) السَّعْلاء : أنثى الفول — (٢) جدع الأنف يجدعه جدعاً : قطعه — (٣) صلم الأذن يصلها صلاً : قطعا من أصلها .

الوجود العشرة والذرعان العشرين) اسكى يَحْطَفُ سينا ، فيجوب راؤنا الهواء فوق مركبة سحرية وَتَجِدُ في أخذ سينا بالحيلة مستعيناً بصديقه الذى انقلب إلى ظلى ويستدرج راما إلى خارج منزله فيحطف حينئذ سينا متنكراً بزىٍّ أحد الزهاد ويخرجها معه فوق مركبة سحرية فيَجِدُ ملك الطيور وصديق راما النَّسْر جانا يوش في وقته فيسفر ماحدث من القتال الذى أُهين فيه راؤنا عن قتل ذلك النَّسْر ، فيداوم راؤنا على سيره وبقود تلك التى سبأها إلى قصره حيث يسعى في إغواشها على غير جَدْوَى .

ويكتشف راما مكان سينا بفضل القرد هنومان فيستعين بالملك سُغْرِيوا ويحיש مؤلف من قرد ودببة<sup>(١)</sup> ويحف لاستردادها ويحاصر أنكا عاصمة راؤنا ، ويقوم بهجوم هائل ونُقْلَع الجبال والغابات لتُطْرَح فوق الرؤوس ، ويقا تل راما أخا راؤنا قتالاً شديداً ويَمْلأ به ويدوس أخو راؤنا هذا أنفى قرد حين سقوطه ، وَيُجْرَح راما ، ومن حسن الحظ أن كان ملك الدببة يَعْرِف وجود نبات سحرى فوق جبل كيلاسا قادر على شفاء البطل راما فنَوَّس إلى هنومان أن يأتى بشيء منه ، وما كان هذا القرد الباسل ليضيع وقته في البحث عن ذلك النبات ، فقد اقتلع الجبل ورجع حاملاً إياه على ظهره ، فشَمِي الأمير آنئذ فَبُعِثَ المجاهدون تارةً أخرى وعاد القتال إلى ما كان عليه فأسفر عن قتل راؤنا بسهم سحرى سَلَّمه برها إلى راما فهنت الآلهة الخالدة للنصر الذى أوجب عودة سينا إلى بعلها ، وجاوزت سينا هذه لبيب مَوْقِد فدأت على أنها لم تسكن لراؤنا ، وَبَيَّنَ إندرا لراما ، إذ ذاك ، أنه شخص تَجَسَّد فيه وِسْنو ، هنالك رَكِب البطل راما مع سينا مركبة سحرية فبلغ بها عاصمته أجودهايا حيث يمارس سلطانه أحد عشر ألف سنة .

(١) الدببة : جمع الدب .



٩٦ - وبلور . دقائق عمود في الزون الكبير  
( القرن الرابع عشر من الميلاد )

ومما يلاحظ أن جميع أبطال ذلك  
الديوان الحماسي هم ممن تجسدت فيهم  
الآلهة فبدؤوا من ذوى السلطان الخارق  
وبدؤوا متقلدين سلاحاً سحرياً قليل الخطر  
سهل الاستعمال ، والمنطق الهندوسى  
إذ كان لا يبالى بهذه الدقائق إلا قليلاً  
فإننا لا نُسهب فيها كثيراً ، وإنما نختم  
المطلب ببعض المختارات المختصة من  
الراماينا .

#### هبوط الغنغا

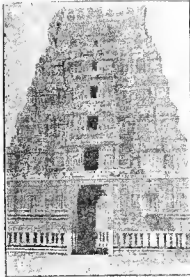
« صعد مهبشورا فوق ذروة همالية  
فخاطب نهر الغنغا الذى يجرى فى الهواء  
فانلأ له : اهبط !  
« هنالك فتح الحُرمة الواسعة من  
كل جانب مُحدثاً حوضاً كبيراً شبيهاً  
بغار جبل ، فهبط نهر الغنغا الإلهى من  
السموات وألقى أمواجه بصولة فوق رأس  
شيفا العظيم ، فتأ على رأسه كدراً واسعاً

سريعاً عاماً ليصف دورانه ، ثم أراد بهاغى رنى إنقاذ الغنج فعَل على تَبِيل الخطوة  
لدى مهاديو زوج أوما الخالد ، فأجاب شيفا دعوته فأطلق مياه الغنغا فأرخت صفيرة

من شعره فشقّ بها قناةً فانطلق هذا النهر الإلهي الصافي الطاهر السعيد المثلث المجاري  
فسكان نهرُ الفَنَج .

« حَضَرَت هذا المنظرَ الآلهةُ والرُّسُلُ والغاندهروا وجموعُ السَيِّدِهَا فوق  
مركباتٍ مختلفةٍ وجيادٍ جميلةٍ وفيولٍ رائعةٍ ، وجاءت إلهاتٌ ساجداتٌ ، وأتى الجدُّ  
أصلُ الخُلُوفاتِ برهما يَقْلَهُ سائرًا مع النهر ، فالحقُّ أن طبقات الخالدين هذه اجتمعت  
هنالك لنشاهد أعظم العجائب أى لترى نزول الغنى إلى الدنيا .

« وكان بغشى السماء سحابٌ مظلم مع تالى تلك الكتائب الخالدة الطليعى ومع الزينة  
الرائدة الساطعة التى كانت مُرَبَّنَةً بها فننير الفلك بنور ساطع يَعْدِلُ أنوار مئة شمس .



« جرى النهر ، وكان يجرى سررياً  
بارةً ومعتدلاً مُنْتَبِهاً تارةً أخرى ، وكان  
يَتَسَّعُ أحياناً ، وكان يسير بطيئاً طوراً وكانت  
أمواجه تتلاطم مرةً وكانت الدُّخَانُ (١)  
تسبح بين أنواع الزَّحَافَاتِ والأَسْمَاكِ .

« وكانت السماء محتجة كالبروق التى  
تخرج من مكانها هنا وهناك ، وكان  
الجو الملوأ أزباداً بيضاً كثيرةً يَنُمُعُ مثل  
أَمْعَانِ البحيرة المَؤَوَّهة بِالْأَوْرِ في أيام  
الخريف ، وكان الماء ينزل من رأس  
مهاديوا إلى الأرض صاعداً هابطاً عِدَّةَ  
مرات كالزوايع قبل أن ينال مجرى منتظماً على صدر برتهوى .

٩٧ - كانفى درم . معبد فى زون ( أنفى )  
فى القرن الخامس عشر من البلاد على ما يَحْتَمَلُ

(١) الدُّخَانُ : جمع الدُّخَس ، وهو دابة فى البحر تمكن الفريق من ظهورها ليستعين على السباحة  
ونسى ( الدافين ) .

« رَأَى آتَنُذُ أَنْ الْغَرَهَا وَالْغَنَّا وَالْغَانْدَهْرُوا الَّذِينَ يَسْكُنُونَ فَوْقَ صَدْرِ الْأَرْضِ  
يَكْسَحُونَ مَعَ النَّاعَا بِجَرَى النَّهْرِ الصَّائِلِ ، ثُمَّ مَجَّدَ هَؤُلَاءِ الْأُمُوجَ الصَّافِيَةَ الَّتِي  
تَجَمَّعَتْ فَوْقَ جِسْمِ شَيْوَا وَنَشَرُوهَا فَوْقَهُمْ فَتَطَهَّرُوا مِنْ كُلِّ دَنَسٍ ، وَعَادَ إِلَى الْقُصُورِ  
الْأَثِيرِيَةِ أُولَئِكَ الْمَلْعُونُونَ الَّذِينَ سَقَطُوا مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ فَاسْتَرَدُّوا طُهُرَهُمُ الْقَدِيمِ  
بَعْدَ أَنْ اغْتَسَلُوا فِي ذَلِكَ النَّهْرِ ، وَقَامَ الرَّشِيُّ الْإِلَهِيُّونَ وَالسَيِّدَهَا وَأَعَظَمُ الْقَدِيسِينَ  
بِالدَّعَا خَافِي الصَّوْتِ ، وَكَانَتْ الْآلَهَةُ وَالْغَانْدَهْرُوا يُفَنُّونَ ، وَكَانَتْ جَمَاعَاتُ الْأُسْرَا  
تَرَفُصُ ، وَكَانَتْ كِتَابَتُ الرِّهَادِ فِي حُبُورٍ ، وَكَانَ الْعَالَمُ كُلُّهُ غَارِقًا فِي سُرُورٍ .

### طلوع القمر

« طَلَعَ الْقَمَرُ وَحَوْلَهُ كَتِيبَةٌ مِنَ الْكُوكَبِ وَعَلَيْهِ تَاجٌ مِنَ الْأَشْعَةِ فَيَقَعُرُ الْعَوَالِمُ  
بِأَنْوَارِهِ السَّاطِعَةِ ، وَرَأَى هُنُومَانُ الشَّهِيرُ صُعُودَ هَذَا الْكُوكَبِ الدَّرِّيِّ الَّذِي يَنْبِرُ  
الشَّوْاطِي . الْأَثِيرِيَّةُ فَيَبْدُو أَبْيَضٌ مِنَ اللَّابَنِ أَوْ مِنْ أَلْيَافِ السُّدْرِ سَابِحًا فِي التَّلَكِ كَبَاوَرَّةٍ  
فَوْقَ بَحِيرَةٍ ، فَأَعْجَبَ بِأَنْوَارِهِ اللَّامِعَةِ الْمُتَأَلِّقَةِ بِصَهْبِهَا فِي الْأَفَقِ بَيْنَ قَطِيعِ مِنَ النُّجُومِ  
كَمَا لَوْ كَانَ نُورًا هَائِمًا مَلْتَهَبًا حُبًّا فِي مِرَاحِ عِجَالٍ ، وَأَنْصَرَه وَهُوَ يُطْفِئُ<sup>١</sup> بِالنَّدْرِ  
مَا طَرَأَ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْحَرِّ فِي النَّهَارِ وَيُنِيرُ مِيَاهَ الْبَحْرِ الْوَاسِعِ وَيُضِيءُ جَمِيعَ  
الْمَخْلُوقَاتِ » .

### صيدُ رامَا للغزال السحري مارتِجَا

« يُرَى الْغَزَالُ حِينَمَا وَلَا يُرَى حِينَمَا ، وَيَبْرُهُ مَسْرَعًا خَوْفًا مِنْ أَنْ يُضْمَى<sup>(١)</sup> »

(١) أَسْبَى الصَّيْدَ : رَمَاهُ فَقَتَلَهُ .

فانتفاً أكبر الراغو ويد ، و يظهر تارةً ويختفي تارةً أخرى ، ويمدو مذعوراً مرةً ويغيب مرةً أخرى ، و يغيب طوراً ويخرج من كِنَاسِهِ<sup>(١)</sup> راكضاً طوراً آخر .

« كان الغزال السحريُّ مارتجاً خائفاً فجاب جميع الغابة ، فرآه راما ذات ساعة يزُرُ كُضْ أمامه فشَدَّ قوسه غاضباً ، فلم يَسْكُدْ هذا الغزال يرى راما مُنْقَضاً حاملاً قوسه بيده حتى توارى غير مرة محاولاً ألا يراه ، فكان يبدو قريباً منه حيناً وكان يبدو بعيداً منه حيناً آخر .

« والغزال ، بين ظهورٍ وتوارٍ ، استدرج راما الذي يَتَمَقِّمُهُ إلى مكان بعيد ، وكان راما ، الرَّاكض وراء الغزال وقوسه بيده فيُبْصِرُه حيناً ولا يُبْصِرُه حيناً آخر في الغابة السكبرى كالقمر الذي تَحْجُبُه السُّحُب في الخريف تارةً ويبدو حيناً تنقشع تارةً أخرى ، يقول : « يُقْبَلُ ! أراه ! يتوارى ! » فيجوب جميع أجزاء تلك الغابة الواسعة .

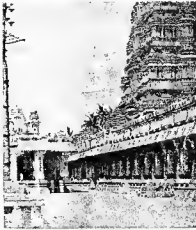
« ووَصَلَ البطل راما الذي كان يُحْدِثُ في كلِّ ثانية إلى قُبَّةٍ مُظَلَّةٍ من الأعشاب الغنْصَةِ فَوَقَّفَ فيها له ذلك الغزال مع غِرْ لَأَنْ أخرى ساكنة قائمة بالقرب منه ناظرة إليه مذعورةً ، فعزم البطل راما على إصمائه فشَدَّ قوسه المتينة ووضع أحسن سهامه على وَتَرِها .

« فَوَقَّ<sup>(٢)</sup> راما السهم وجَذَبَ الوتر إلى شحمة أذنه ، ثم فَنَحَّ جُمُوعَ كَمَّةٍ<sup>(٣)</sup> فأطلق ذلك السهم الحادَّ الحاسراً الذي صنعه برهما ييسده فأصاب به قلب الغزال مارتجاً فأصماه » .

(١) السكناس : بيت الظلي - (٢) فوق السهم : وضع فوفته في الوتر ليرى به ، والفوفة هي وضع الوتر من رأس السهم - (٣) جمع السكف : السكف حين تقبضها .

## إعلان حب سينا

« قالت سينا لزوجها راما : سأذهب إلى حيث تذهب ، أقسم بحبك وبمحبائك  
أننى لا أرغب فى سُكْنَى السماء بعيدةً منك يا سليل راغمو الشريف ! فأنت مولاي  
وأنت سيدى وأنت دليلى وأنت إلهى ، سأذهب معك ، فهذا عزمى القاطع ، أراك  
تريد دخول هذه الغابات الكثيفة الوعرة فأسير أمامك لأحطّم تحت قدمى العشب  
الناهض والعوسج الشائك فأشقى لك طريقاً ، فالزوج هو القوام على المرأة الصالحة ،



٩٨ - بيجانفر . داخل الباحة الثانية لزون  
شعبو الكبير (القرن الخامس عشر من الميلاد)

لا والدُها ولا أمُّها ولا ابنها ولا صديقتها  
ولا قلبها ، فلا تَدْفَسْ علىَّ بهذه السعادة  
واطردُ منك هذا الفكر السيئ كما تطرح  
القطرة الأخيرة من الكوب ، خذنى معك  
أيها الأمير العزيز غير حذر ، ثق بوفائى ،  
أنعم علىَّ بهذه الحظوة ، لأرافقك  
ولأعيش معك فى هذه الغاب التى يسكنها  
الأُسود والخنازير والدَّبَّابَة والنمور ،  
فستغذى فيها كما تتغذى بالقواكه

والجذور ، ولن أكون عبيثاً ثقيلاً عليك ، ما أعظم سرورى حين أقطن بتلك  
الغابات الوارفة<sup>(١)</sup> الطيبة العطّرة ، إنى إذا ما عشت فيها بمحبتك مرّت ألوف السنين  
على كيوم واحد ، فالجنةُ بغيرك كجَهَنَّمَ ، وجهنم معك أطيبُ منزل .

(١) ورف الطل يرف ورفاً : امد وانمع ، وورف النبات : نضر واهتز واشتدت خضرته  
فهو ( وارف ) .

### جيش شيوا

« هنالك بَدَت كتائب أعوان شيوا السماوية نقذف النار من العيون والأفواه ، وهي ذوات أرجل وذُرْعان ورؤوس كثيرة ، وهي تلبس أسورة مرصعة بالجواهر ، وهي ترفع أيديها في الهواء كأنها أفيال وجبال ، ولكتائب من هذه صُورُ السكّاب والخنّازير والجمال وأعضاء الأفراس وبُتات آوى والأبقار والدَّبَبَة والقِطاط ، ولأخرى أفواه الأثمار والقهود ومنساقير الغُرَبان والبَبغاوات ورؤوس الزَّماميج <sup>(١)</sup> ، ولهذا صورة التعابين الهائلة وتلك مناقيرُ الإوزِّ والزرايق والعقاق ومناطرُ السلاحف والتاسيح والدَّخْسان <sup>(٢)</sup> ، والقِرْدَة ، وبعضها يُقلِّد مالك الحزين والضفدع والحوت ، وبعضها عِدَّة عيون وآذان واسعة و بطون كثيرة ، وبعضها يغير رأس وبعضها رأس دُبٍّ أو رأس كبش أو رأس كلب ، وترعى بالشرر من السَّامِّ ويلتهب كلُّ شجرة في جباهها وأبدانها . »

### ٤ — الرموز والأمثال — القصص والأساطير

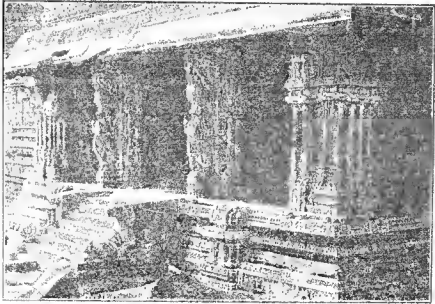
« يمكن عدُّ رموز الهند وأمثالها من أهمِّ ما أنتجته ، ولا رب في أن الهندوس أساتذة لنا في هذا المضمار ، وأعدُّ اليَنج نثراً <sup>(٣)</sup> أشهرَ مجموعةً للقصص والحكم ، وهي تتألف من رموز اتَّخَذَ فيها الحيوان عاملَ درس للإنسان ، أجل ، إن ما فيها من الأحاديث قليل الاشتباك بمضمونه في بعض ، ولكن هذه الأحاديث وما انطوت عليه

(١) الزماميج : جمع الزميج وهو طائر مائي أبيض في حجم الحمام ولا يأكل غير السمك .

(٢) الدخسان : جمع الدخس وهو دابة في البحر — (٣) الينج نثرا : هي كتابية ودمنة (الترجم)



من الأمثال مما يشمّل النظر على العموم ، وما في صفحاتها من الحكم الكثيرة ، في الغالب ، يُشير في النفس حبّ الاستطلاع .  
ويُرى أن وضع تلك المجموعة تتمّ في زمن قديم جداً ، ويَرى كثير من العلماء أن بعض تلك الأحاديث اقتبسها إيزوب ، بيّد أن الكتاب السنسكريتي الذي يشتمل عليها جميع في عدّة أدوار ما ذُكر فيه اسمُ عالمٍ فلكيٍّ عاش حوالى القرن السادس بعد ظهور المسيح .



٩٩ - يجانفر . مدخل معبد وتوبا ( القرن السادس عشر من الميلاد )

وذاع صيت أمثال الهند وقصصها ببلاد فارس في النصف الأول من القرن السادس من الميلاد ، فأرسل كسرى أنوشروان الساسانيّ ( الذي دام عهده من سنة ٥٣١ إلى سنة ٥٧٩ م ) عالماً طبيعياً ليترجم البنّج تنقرا إلى اللغة البهلوية ، وحافظ

خلفاء هذا الملك على هذه الترجمة إلى أن مَرَّقَ العرب دولة الفرس في سنة ٦٥٢ ، فلما انقضت مئة سنة على زوال تلك الدولة وَجَدَ الخليفة العباسيُّ أبو جعفر المنصور نسخة منها تَعَلَّقَتْ من خراب المكتبة الفارسية فأمر بنقلها إلى العربية .

والقرون كلما مَرَّتْ على تلك الأمثال عَظُمَ قدرها، فَتُرْجِمَتْ الپَنجُ تَنَتْرَا في القرن العاشر إلى الفارسية نظماً ثُمَّ نُقِلَتْ في القرن نفسه إلى التركية بأمر سليمان ، وَتُرْجِمَتْ الپَنجُ تَنَتْرَا إلى اليونانية في أواخر القرن الحادى عشر ، وَنُقِلَتْ إلى العبرية فالإسبانية في القرن الثالث عشر ، وَنُقِلَتْ إلى الألمانية في القرن الرابع عشر ، وَرَجَمَهَا ريمون البيزبارى في أوائل القرن الرابع عشر من الترجمة الإسبانية تلك إلى اللاتينية من أجل زوجة فيليب الجليل حَمَّةَ النَّبَرِيَّةِ ، ولا تجد لغةً لم يُنْقَلْ إليها هذا الأثر الخالد بشئ من الأمانة ، وَمَثَلَتْ الپَنجُ تَنَتْرَا دوراً مهماً في آداب القرون الوسطى ، ومن هذه المجموعة اشتقَّ أكثر الأمثال الأوربية ، ومنها أمثال لافونتن

ونذكر مجموعة الهتو پَدِشا بجانب مجموعة الپَنجُ تَنَتْرَا ، وهى مثلها مشهورة وإن كانت أحدثَ منها كثيراً ، على أن الهتو پَدِشا ليست إلا نسخةً جديدةً عن الپَنجُ تَنَتْرَا مع اختصار فى بعض الأمور وإضافاتٍ أمثالٍ حديثةٍ مقتبسةٍ من مجموعة بمجولة قديمة جداً على الأرجح .

ومجموعة الهتو پَدِشا هذه نقلت إلى أكثر اللغات الأوربية أيضاً ، وسنذكر بعضَ مختارات من حِكَمِها في فصل آخر .

وهناك مجموعاتٌ أخرى مشابهة لتينك المجموعتين وإن كانت دونهما شهرةً ، فلا نرى فائدةً في ذكرها .

ويمكن القول إن كتب الهندخافلة بالقِصص والأساطير، فتعدُّ الآداب الهندوسية التاريخية أو الدينية مجموعة منها .

وعُرف كثير من الأقاصيص الهندوسية في أوربة بكتاب ألف ليلة وليلة، وتحتوى هذه المجموعة على كثير من القصص الهندوسية وإن كان معظمها من أصلٍ عربى، غير أن ما فى كتاب ألف ليلة وليلة من القصص الهندوسية بلغ من الصقل والإصلاح ما يصعبُ معه، فى الغالب، تمييز ما هو من أصلٍ هندوسى فيها .

وتستحقُّ الأساطير الهندوسية، التى مُلِئت بها الكتب الدينية أو التاريخية، دراسةً خاصة، لا من أجل فائدتها الضئيلة على العموم، بل من أجل المعارف النفسية التى تستنبط منها عن الهندوس فىصعب على الأوربى تَبَيُّنُها، فلا بدَّ من قراءة أساطير غير قليلة للوقوف على منطق الهندوسى الخاص وتطور فكره وطرارز ربطه الأمور بعضها ببعض، وقد ترجمتُ فى سبيل هذا الكتاب بضع أساطير نيبالية ذات مَفْزى، ثم وجدت أن صدره لا يتسع لها، فأوصى المتخصصين فى آثار الهند أن يدرسوا أسطورة بيرويكشا الذى هتفت الآلهة بأنه سىتزوج أمه، كما هتفت لإديب، وبأنه لم يشطع أن يتخلص مما قُدِّر عليه مع ما قام به من الجهود، وأن يدرسوا أسطورة إنشاء معبد بُدْهه بأمر أمير قَتَلَ والده خطأً فدلَّ ما احتوته هذه الأسطورة من التفاصيل على أن أمر القرايين البشرية كان شائعاً فى الهند حيناً من الزمن، وأن يدرسوا أسطورة الرَّحالة سَمْبِيل الذى شاهد أصحابه الخمسة تفرسهم خمسة عفرينة فى أثناء سياحته فى سيلان، الخ .

## ٥ - التمثيل الهندوسى

بعض الروايات الهندوسية كُتِبَ نظماً و بعضُها كُتِبَ نثراً على العموم ، وتختلف لغة هذه الروايات باختلاف مُؤَلِّفِها ، فأما أبناء الطوائف العليا فيتكلمون فيها بالسَّكْرَتية ، وأما أبناء الطبقات الدنيا فيتكلمون فيها باللغة البراكرتية .

والأدب فى تلك الروايات أرفع مما يبدو فى مسارحنا الحديثة مع أنها وُضِعَتْ لسان فاسق فى بعض الأحيان ، فروحُ الدِّعَاةِ التى تسود رواياتنا تراها غير موجودة فى الروايات الهندوسية تقريباً ، أَجَلْ ، إن للگرام كبيرَ شأنٍ فى الروايات الهندوسية ، غير أن الزواج يَعْمِيقُهُ فيها ، ومما كانت تُحَرِّمُهُ مبادئُ الهندوس الاجتماعية وَلَوْعُ المرء بزواج الآخرين ، وللخيليات دَوْرٌ مهم فى تلك الروايات كالذى لهن فى رواياتنا المصرية لا ريب ، ولكنه كان لهؤلاء الخيليات من المقام العالى فى المجتمع الهندوسى ما يَعْدِلُ مقام أَخَوَاتِهِنَّ فى العالم اليونانى السابق وما هو أسمى مما لأَخَوَاتِهِنَّ فى الوقت الحاضر .

وروايات الهند من روايات التوابيع<sup>(١)</sup> ، فالحوادث فيها من خوارق العادة على الدوام ، وفيها تظهر الآلهة ظهوراً مستمراً ، وفيها تنزوج الإلهات بالآدميين ، وفيها تَحُلُّ الآلهة المعضلات عندما تتعقد .

وروايات الهندوس ، من حيث التركيب ، ضعيفةٌ ضَعْفًا يَسْتَوْقِفُ النظر ، فقيها ضَحَّى بالجموع فى سبيل التفاصيل على الدوام ، وأبطالها ثَرثارون على العموم ،

(١) التوابيع : جمع التابعة وهى الجنية .

وَنَشْعُرُ بِالتَّصْنَعِ وَالتَّكْلَافِ فِيمَا يَقُولُونَ ، وَمِنْ الصَّعْبِ أَنْ تَجِدَ بَيْنَ الرِّوَايَاتِ الْهِنْدُوسِيَّةِ  
وَالرِّوَايَاتِ الْيُونَانِيَّةِ وَجَهَ شَبَهٍ خِلَافًا لِمَا رَأَاهُ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ .

وَلَمْ يَنْشَأْ ذَلِكَ الضَّعْفُ عَنْ عَطَلِ تِلْكَ الرِّوَايَاتِ مِنْ قَوَاعِدَ مُقَرَّرَةٍ ، فَقَدْ اتَّبَعَ  
وَاضْعُوهَا . بِالْعَكْسِ ، عِدَّةُ أَصُولٍ مُعْقَدَةٍ فِي إِنْشَائِهَا ، كَمَا يَبْدُو ذَلِكَ فِي كُتُبٍ كَثِيرَةٍ  
قَضَى الْعُلَمَاءُ الْمُتَخَصِّصُونَ زَمَنًا طَوِيلًا فِي تَرْجُمَتِهَا .

وَمُمَثِّلُو الْهِنْدُوسِ كَانُوا مُحْتَرَمِينَ أَكْثَرَ مِمَّا هُمْ عَلَيْهِ الْآنَ ، وَغَيْرُ قَلِيلٍ مَا كَانَ  
يُنَالُهُ وَاضْعُو الرِّوَايَاتِ مِنَ الْخَطْوَةِ مَا عَلَّمْنَا أَنْ مُلُوكًا لَمْ يَتَرَفَعُوا عَنْ كِتَابَةِ رَوَايَاتٍ  
تُمَثِّلِيَّةٍ ، وَمِنْ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ نَذْكُرُ رَوَايَةَ « مَرْكَبَةُ الصَّاهِلِ »<sup>(١)</sup> الَّتِي أَلَّنَاهَا شُودْرَا كَا  
مَلِكُ مَعْدَهَا فِي أَوَائِلِ التَّارِيخِ الْمِيلَادِيِّ عَلَى مَا يَظْهَرُ .

وَنَذْكُرُ مِنَ الرِّوَايَاتِ الْهِنْدُوسِيَّةِ التَّمَثِيلِيَّةِ الْكَثِيرَةِ الْمَعْرُوفَةِ فِي أَوْرَبَةِ مَا وَضَعَهُ  
كَالِي دَاسَا الَّذِي يُفَقَّرُضُ أَنَّهُ عَاشَ فِي الْقَرْنِ السَّادِسِ مِنَ الْمِيلَادِ ، وَنَمْعُدُّ مِنْ رَوَايَاتِهِ :  
( السَّحَابُ الرِّسُولُ ، وَأَصْلُ الْإِلَهِ الْفَتَى ، وَغَرَامُ بَطَالٍ بِأَوْرُوشَى ، الْحُجَّ ) ، وَأَشْهُرُ  
رَوَايَاتِهِ عَلَى الْإِطْلَاقِ هِيَ رَوَايَةُ شَكُنْ تَلَا الَّتِي تَرُجِّمَتْ إِلَى أَكْثَرِ مِنْ عَشْرِ لُغَاتٍ  
وَالَّتِي تَجِدُ لَهَا عِدَّةَ تَرَاجِمٍ فَرَنْسِيَّةٍ ، فَأَعْجِبُ بِهَا غَوْتَهُ وَلا مَارَتَيْنِ وَغَيْرَهُمَا مِنْ أَعْظَمِ  
الْكِتَابِ ، وَذَلِكَ فِي زَمَنِ خُبَيْلٍ فِيهِ أَنْ اكْتَشَفَ الْآدَابُ السَّنَسْكَرْتِيَّةَ فَتَفَحَّ  
الْإِنْسَانُ آفَاقًا جَدِيدَةً ، وَعَلَى مَا نَرَاهُ مِنْ عَدَمِ اسْتِحْقَاقِ تِلْكَ الرِّوَايَةِ لِمَا مُدْرِخَتْ بِهِ  
فِي الْبَدَءَةِ نَجِدُ أَنْ مُحَاسِنَ كُتُبِ الْهِنْدُوسِ تَجَلَّتْ فِيهَا أَكْثَرُ مِنْ تَجَلِّيِ مَسَاوِيهِمْ ،  
فَهِيَ ، عَلَى الْعُمُومِ ، أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهَا بِسَاطَةً وَأَقْرَبُ إِلَى الصَّوَابِ وَأَقْلَى مَبَالِغَةً ،

(١) الصَّاهِلُ : الطَّيْنُ الْبَاسِ الَّذِي يَصِلُ مِنْ يَبِسِهِ ، أَيْ بَصُوتِ .

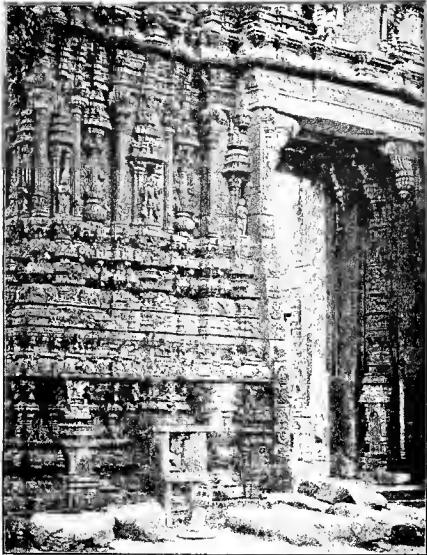
وموضوعها إنساني مؤثر وأبطالها بعيدون من التعمّل ، والكلام فيها موجز وتكاد تخلو من التسف والحجاز ، وفيها بعض فصول عاطفية رائعة .

وخلاصة تلك الرواية هي أن الملك دُشَينَته كان يصطاد فلقى في صومعة ابنة للإلهة وناسكٍ اسمها شَكْنُ تَلَا فأولع بها فزوجها على الفور على حسب عادة أبطال الهندوس ، وزواجٌ بسيط مثل هذا مما كانت تعترف به الشريعة موقوفاً على اعتراف الفريقين المختصين به ، فلما قضى منها وطراً قتر حُبُّه لها فعاد إلى عاصمته هسّتي ناپورا من غير أن تحزن كثيراً كما يستنبط من صمت واضع الرواية ، وهي لم تعزم على اللحاق به إلا بعد أن أبصرت أنها ستصبح أمّاً ، وقد خامرها شكٌ في أنه يعترف بها فأخذت معها الخاتم الذي وهبه لها لتُثبِتَ حقيقة أمرها ، ومن المؤسف أن آذت أحدَ الزّهاد بأن نسبته أن تجيب عن سؤاله متاهيةً ، فدعا عليها فغصير الملك ذاكرته في مكانه فلم يعترف بها ، وكان من نتائج هذا النسيان أن غصبت فأصاعت الخاتم في نهر ، أجل ، وجد الخاتم صياداً في بطن سمكة ، بيد أن الملك لم يعترف بها فراحلت إلى حيث لم يعرف أحد ، فبحث عنها زوجها الملك فلم يجدها إلا بعد بضعة سنين ، وما كانا لياتقيا إلا بتمجزة مع ذلك ، وبيان الأمر أن ملك السماء إندرا عجز عن قهر جيش العناريت فهدم إلى الملك دُشَينَته في إبادتهم ، مما نقبين به ما كان يُعزى إلى الآلهة والناس من الشأن ، فانتصر هذا الملك عليهم فاستأصلهم فكافأه إندرا بأن وجد له زوجته وابنه ، ثم تحم الرواية بتبجيل مُشوّش قليلاً .

## ٦ — آثار أدبية مختلفة

إذا عدوت التاريخ ، والتاريخ ما عجز الهندوس عن تدوين كتاب فيه ما عطاوا من مثل هذا الكتاب ، لم تجد موضوعاً لم يكتبوا فيه ، فقد ألّفوا في الفلسفة واللاهوت

والاشتراع ، الخ . عِدَّةُ كُتُب ، وَأَلْفُؤا ، كَذَلِكَ ، فِي الْعِلْمِ عِدَّةُ كُتُب ، وَإِنْ كَانَ  
مَا أَلْفُؤُهُ فِيهَا هَزِيلًا .



١٠٠ - نَادِيَتْرِي ، نَقُوشُ تَامَرِ حَوَاجِرِ مَعْبِدِ ( الْقَرْنُ الْبَاسِ عَشْرُ مِنَ الْمِيلَادِ )

ولو عدّنا هذه المؤلفات لخرّجنا من دائرة الإجمال ، فلا نذكر منها ، لذلك ، غير الكتب المعروفة بالپورانا ، إما لها من الأهمية عند الهندوس .  
وتجىء كلمة الپورانا بمعنى « القديم » ، ويُقصد بها كتب في الديانة وُضِعَتْ في مختلف القرون ، فقليل ، بحقّ ، إنها مستودع الأساطير الشعبية ، وتشتمل ، كذلك ، على تاريخ أسر الهند المالكة القديمة الأساطيرى ، وفيها أكثر من ٨٠٠٠٠٠ بيت شعر ، ويتألف منها ثمانى عشرة دائرة معارف لا يحتمل الأوربي قراءتها .

ونذكر ، عدا الكتب التى ألعنا إليها فى هذا الفصل ، المؤلفات الفلسفية التى فُصِّلَتْ فى الأوباناشدا ، وتكلمنا عنها حينما درسنا أمر البُدْهِيَّة ونعود إليها فى الفصل الذى خصصناه للبحث فى دِيانات الهند الحاضرة ، ولا نجد ما يسبق فلسفتها جُرْأةً ، ونعترف بأن الهند انتهت منذ ألفى سنة إلى كِبُرِيَّات المسائل التى لم يَصِلْ إليها الغرب إلا منذ قرن واحد فلم تُحْجِم عن إيجاد حلّ جريء لها .

ونعدُّ آثار الهندوس الغنية مهمة إلى الغاية فضلاً عن آثارهم الأدبية ، ونبحث فى فنِّ عمارتهم بعد أن ندرس فى المطلب المختصر الآتى لغاتها ، وفنِّ عمارتها هو الذى أرى البحث فيه أهمّ مما فى غيره وإن عُرِف قليلاً حتى الآن .

## ٧ - لغات الهند

ليس من هدف هذا الكتاب وحدوده أن ندرس فيه لغات الهند ، ولو دراسةً وجيزة ، وسنقتصر فى هذا المطلب على المعارف الإحصائية المختصرة التى تشير إلى تنوّع تلك اللغات .

يجب على الرّحالة الذى يودُّ أن يسبح فى الهند وأن يدرّكه أمره فى كلّ مكان

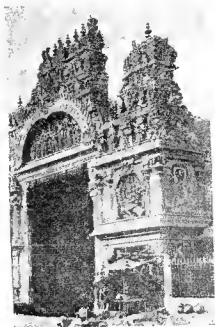


منها أن يتعلم نحو ٢٤٠ لغةً ونحو ٣٠٠ لهجة ، وإذا ما أراد أن يبدو تام الثقافة في لغات الهند أن يعرف ، عدا تلك اللغات وتلك اللهجات ال ٥٤٠ ، الفارسية التي هي لغة رسمية للقصور الأهلية والمجتمعات الراقية في الهندوستان ، وأن يعرف البهلوية التي هي لغة المجوس ، والصينية التي هي لغة المهاجرين في كلكتة ، واللغات الأوربية التي يتكلم بها في الهند سكان المستعمرات الإنكليزية والبرتغالية والفرنسية ، الخ . وما لا يفيد أنه يُضيف إلى تلك اللغات ، المُترَجِّع عددها بين ٥٥٠ و ٥٦٠ ، لغة السنسكريت القديمة التي تُدرَّس وحدها في جامعات أوربة على وجه التقريب ، لأنه لا يجد في الهند رجلاً يتكلم بها .

يمكن ردُّ لغات الهند الكثيرة إلى خمس فصائل أساسية يختلف بعضها عن بعض أكثر من اختلاف اللغات الأوربية فيما بينها ، وهذه الفصائل هي : ١ - اللغات الآرية ، ٢ - اللغات الدراويدية ، ٣ - اللغات الكولية ، ٤ - اللغات التبتية ، ٥ - اللغات الكهاسية .

وتشتمل الفصيلة الأولى على اللغات ذوات اللِّي ، وتشتمل الفصائل الثلاث التي تليها على اللغات ذوات الوصل ، وتشتمل الفصيلة الخامسة على اللغات ذوات المقطع الواحد .

والناس يتكلمون ، على العموم ، باللغات الآرية في شمال الهند وقسم من وسطها ، ويتكلمون باللغات الدراويدية في الجنوب ، ويتكلمون باللغات الكولية في جهات متفرقة في الشرق والوسط ، ويتكلمون باللغات التبتية في أودية همالية ، ويتكلمون باللغات الكهاسية في قسم من آسام .



١٠١ - مدورا . ( الزون الكبير ) باب  
معبد الإلهة ميناكشي ( القرن السابع عشر  
من الميلاد ) ( أنسى زون مدورا الكبير في  
زمن قديم جداً ، ولكن أهم أجزائه التي  
نشرناها في هذه الصورة وفي الصور الآتية  
يرجع إلى عهد الراجة تيرومال ، أي إلى  
القرن السابع عشر )

ومن فصيلة اللغات الآرية تُعدّ  
اللغة السنسكريتية الميثة منذ زمن طويل  
والتي وُضعت بها كتب الهند المقدسة  
القديمة ، ولا تجد لهذه اللغة غير شأن  
مشابه للغة اللاتينية في كتب العبادات  
الكاثوليكية ، فلا يتعلمها سوى  
شريحة قليلة من البراهمة .

وترجع عناية الأوربيين العظيمة  
بالسنسكريتية في جامعاتهم إلى عَدَم  
هذه اللغة ، فيما مضى ، الأصل الذي  
اشتقت منه اللغات الأوربية ، بيد أن  
من المعلوم في هذه الأيام أن اللغات  
الهندية الأوربية (السنسكريتية والألمانية  
والسلافية واللاتينية واليونانية والزندية)  
هي أخوات اشتقت من لغة مشتركة

صائفة في الوقت الحاضر ، فعادت السنسكريتية لا تكون لغة أمّا أكثر من أية لغة  
آرية أخرى كالإيونانية أو الهندية أو اللاتينية مثلاً ، وانحصرت فائدة الأوربيين من  
تعلمها في قراءتهم كتب الهند الدينية القديمة الأصلية .

وفي الهند ، علما اللهجات ، ست عشرة لغة آرية ، والهندوستانية هي أكثر  
هذه اللغات الآرية انتشاراً وأجدرها بالتعليم ، فهي لغة الهند الرسمية ، وهي لغة

الأعمال فيها ، وبها تُكتب الصحف وأهم الكتب ، ولا غُنيّة لمن له علائق بالهند عن معرفتها .

والهندوستانية الكثيرة الانتشار في الهند ، اليوم ، هي حديثة التكوين مع ذلك ، فلا يرجع تاريخ ظهورها إلى أقدم من القرن الخامس عشر ، والهندوستانية مزيجٌ من الهندية ، التي هي من أصل آريّ فكان الناس يتكلمون بها في الهندوستان ، ومن اللغتين العربية والفارسية اللتين كان مسلمو الهند يتكلمون بهما ، وقواعدُ هذه اللغة سنسكريتية وتكتبُ بالحروف الفارسية ( العربية ) على العموم ، وتُعرف هذه اللغة ، في الغالب ، بكلمة الأردو التي تعني المُعسكر ، لأنها كانت لغةَ المُعسكرات المغولية بدهلي ، ونشأت هذه اللغة نشوءاً غريباً عن صلات شعوب الهند بعضها ببعض ، فعلى علماء النحو أن يدرسوها إذا ما رغبوا في معرفة نشوء اللغات وتحوّلها .

وأكثرُ اللغات الآرية شيوعاً ، بعد الهندوستانية ، هي الهندية التي يتكلم بها أهالي قسم من الهندوستان نفسها ، والبنجابية التي يتكلم بها أهالي البنجاب والبنغالية التي يتكلم بها أهالي البنغال ، الخ .

ولا قرابة بين اللغات الآرية واللغات الدراويدية التي يتكلم بها سكان جنوب الهند كما ذكرنا ذلك في فصل سابق ، فاللغات الدراويدية من فصيلة لغوية مستقلة ، أي من اللغات ذوات الوصل المؤلفة ، كما هو معروف ، من أصل ثابت توصل مقاطعُ بأوائل كلماته وأواخرها .

وتحتوي فصيلة اللغات الدراويدية على أربع عشرة لغة وعلى عِدّة لهجات لكل واحدة من هذه اللغات ، ويتكلم بهذه اللغات خمسون مليوناً من الناس ،

وأهم هذه اللغات هي التملوية التي يُتَكَلَّمُ بها في جنوب الهند الشرقى الممتد إلى رأس كمارى والتي هي غنية بآدابها ، والتيلغوية التي يتكلم بها ١٧ مليوناً من الهندوس في شرق الدَّكَّـن وفي بعض أملاك نظام ، والسكرتية والمليالية اللتان يُتَكَلَّمُ بهما في الساحل الغربى ، الخ .

وفصيلة اللغات السكوية التي تتكلم بها قبائل الهند الوحشية هي عنوان مالمسكان الهند الأصليين من اللهجات قبل المغازى الأجنبية .  
ولا أثر انصيلة اللغات التبتية إلا في أودية هيمالية .

ولا يتكلم باللغات السكاسية إلا أناس قليلون في جنوب آسام ، وهذه اللغات من ذوات المقطع الواحد ، أى من اللغات المؤلفة من جذر ثابت مستقل كما هو أمر اللغة الصينية .  
وإليك جدولاً بأكثر لغات الهند شيوعاً على حسب الأهمية العددية ، فالرَّقم الذى هو بمزاء كل لغة منها يدل على عدد ملايين الآدميين الذين يتكلمون بهذه اللغة أو اللهجات المشتقة منها :

| مليون  | مليون        |
|--------|--------------|
| ٨٢ و ٥ | الهندوستانية |
| ٣٩     | البنغالية    |
| ١٧     | التيلغوية    |
| ١٧     | المراتمية    |
| ١٦     | البنجابية    |
| ١٣     | التملوية     |
| ٩ و ٥  | السكرجانية   |
| ٨ و ٥  | السكرتية     |
| ٧      | الأوروية     |
| ٥      | المليالية    |
| ٤      | السندية      |
| ٢      | الهندية      |

ولا تَسْمَلُ السياحة في داخل الهند بسبب تنوع لغاتها ولهجاتها ، فإكثر ما كابدنا من المشاق من جرّاء ذلك ، ويصعب تعيين الأمكنة في الهند أحياناً ،

ففي الهند أما كنُ يُسمَّى كلُّ واحد منها في الخرائط والكتب بعدة أسماء يجهلها الأهليون على العموم ، فعلى المرء أن يكون مُسكاشفاً ليعلم ، في الغالب ، أى مكان قصّد المؤلف في كتابه (١) .

ثبت مما قلناه آنفاً عن اختلاف لغات الهند أن شعوب الهند ليست أقلّ اختلافاً في لغاتها منها في عروقتها ، وما بين هذه الشعوب من الفروق العميقة المزدوجة إذ كان أعظم مما بين الشعوب الأوربية ، لا ريب ، فإنها لا كبير أمل لها في أن تُوفّق لتأليف أمة واحدة .

(١) لم يكثر الإنكباب كثيراً لتوحيد كتابة الأسماء ، فلا تجد خريطين لإنكبابين كتبت فيهما الأسماء على نطق واحد ، حتى إنك ترى بين المدن التي تنظمها الحطوط الحديدية اسم المدينة الواحدة مكتوباً على أوجه مختلفة في خريطة الدليل والسجل والمخططة ودليل البريد ، أجل ، لا تصعب معرفة اسم مدينة كانپور إذا كتبت : Cownpore أو Kanhpur ، واسم مدينة أمريت سر إذا كتبت : Amritsir أو Umritsur واسم مدينة بوندبيري إذا كتبت : Pondichéry أو Punduchéry واسم مدينة كانچی ورم إذا كتبت : Conjevéram أو Kanchipuram ، الخ . ما بدا الأمر بسيطاً ، والسكن الأمر يصعب إذا كتبت مدينة تانجور : Tanjawur وكتبت مدينة أجودها : Awadh أو Audh وكتبت مدينة تراون كور : Tiruwankodu ، وكتبت مدينة مدراس : Mandir-Ray ، الخ . ومما لاحظته إستويك في كتاب مهم نشره عن الهند أن كلمة فنتج ، التي تضاف إلى أسماء عدة مدن تكتب على أحد عشر وجهاً غير صحيح : (Futeh ، Futty ، Futtun ، Futteo ، Futtih ، Futteh ، Futt ، Futi ، Futick ، Futhe ، Futh وندرك بسهولة ، بعد هذا ، كما بين ذلك المؤلف ، أن رؤساء السكتائب لم يستطيعوا أن يميزوا أى مكان على دلائل المسافرين التي تعطيه الحكومة إيها ، وقال ذلك المؤلف ، فضلاً عن هذا ، إنه قابل خريطة حكومة مدراس بخريطة أركان الحرب فلم يجد أية مطابقة بين الأسماء ، فأبصر اسم تهر واحد كتب في خمس خرائط : (Tambaravari ، Tamberperny ، Tamraparni ، Chindinthura ، Pambouri

وعلى ما نراه من اختصار الخريطة التي نشرناها في أول هذا الكتاب ، وعلى ما نراه من اقتصارها على الأمكنة المحتوية للمباني المهمة تجدها أكل ، من تلك الناحية ، من أكثر الخرائط المفصلة ، وقد بذنا كبير جهد في تنظيمها ، ومن الطبيعي أن اعتمدنا على التهجئة الإنكليزية ما دامت اللغة الإنكليزية لغة الهند الرسمية ، وما ألف أكثر الكتب الخاصة بالهند بهذه اللغة ، وقد اخترنا من تهجيات الاسم الواحد أكثرها انتشاراً وقرباً من اللفظ الخارج كما سمعناه بنفسنا .

## الفصل الثاني مباني الهند

سموية درس فن البناء في الهند — نذكر وصل بعض أدوار مبانيها — ظهور طرز بناء بفته ونواربها فجأة — (١) تقسيم مباني الهند — أصول فن البناء الهندوسي — ظهوره — قواعد تقسيم له — جدول عام لتقسيم مباني الهند — (٢) فن بناء الهند في العصر البدهي ( بين القرن الخامس قبل الميلاد والقرن الثامن بعد الميلاد ) — المعابد والأديار المنحوتة في الصخور — أجناتا وكارلي ، الخ . — الثياب — سانبجي وسارنامها — المعابد البدهية الكبرى القائمة فوق الأرس — بدهه غيا — المباني الإغريقية الهندوسية في شمال الهند الغربي — ضعف المؤثرات الأجنبية في الهند — أمثلة مختلفة — (٣) فن البناء في العصر البرهمي الجديد ( بين القرن الخامس والقرن الثامن عشر من الميلاد ) — فن البناء في ولاية أوريسا — معابد بهو ونيشور — فن البناء في راجبوتانا — معابد بنديل كهند وجل آبو — منصور غواليار وأوديبور ، الخ . — فن البناء في كجرات — مباني أحمد آباد — مباني الهند الوسطى — معابد أمبرناتيه وإيلورا ، الخ . — (٤) فن البناء في الهند الجنوبية — المعابد المصنوعة تحت الأرض في جنوب الهند — بادامي ومهايلي يور الخ . — وضع معابد جنوب الهند العام — معابد ييجانغر ومدورا وشري رانم ، الخ . — (٥) فن البناء الهندوسي الإسلامي — تنوع الطرز الإسلامية في الهند — عناصر فن البناء الإسلامي الأساسية — أصول الطراز المغولي — عناصره الأساسية — تصنيف المباني الإسلامية في الهند — (٦) فن البناء الهندي النباتي — مباني نيبال — اختلاط العناصر الهندوسية والصينية — تقسيم معابد نيبال ومبانيها العام — (٧) فن البناء الهندوسي الحديث — تدهور فن البناء في الهند حديثا — أسبابه — المباني الهندوسية التي أديمت في الهند منذ نرن .

دراسة فن بناء الهند ذات مصاعب عظيمة ، فتجد بعض الأدوار من جهة

عاطلة من المباني فتكون الأمثلة التي هي على جانب كبير من الأهمية ، في بعض الأحيان ، واحدة تقريباً ، وترى مباني أحد الأدوار من جهة أخرى تختلف بحسب البقاع اختلافاً لا تجد معه ، في الغالب ، قرابة ظاهرة بينها ، فالحق أنك لا تبصر في مباني الهند تلك الوحدة التي عُرِيت إليها كما أنك لا تبصر مثل هذه الوحدة في أديانها وعاتها وفنونها ، والحق أن الهند مؤلفة من بلدان متباينة يثارت سكاناً أكثر مما يُشاهد بين بقاع أوربة المختلفة .

يمكن عالم الآثار الذي يدرس مباني الغرب ، كمباني فرنسا مثلاً ، أن يتبين ، في الغالب ، نشوءها بين قرن وآخر وأن يلاحظ التطورات المتتابعة التي جاوزتها بين شكل وآخر ، وليست الأدوار التي لم ينته إلينا شيء منها طويلة أبداً ، ويمكن وصل حلقاتها بالخطوط التي وصأت إلينا عند الضرورة ، فبالمباني وبالكتب يسهل بعث ماضي الغرب .

والأمر غير ذلك في الهند حيث أباد الزمان والإنسان شهود أدوار حضارتها الغابرة الطويلة إبادة لا رجعة معها ، وحيث لا نجد إلى زمن قريب أثراً خطيئاً جديراً بأن يُسمى تاريخاً .

وإن عالم الآثار الذي يطوف في الهند ، وهو يعرف أن ماضيها حافل بالحضارات الكثيرة القوية ، ليُبْهَت مما يراه ومما لا يراه فيها ، فلا تجد في الهند حجراً أثرياً من بقايا أقدم حضارتها ، وإن شئت فقل من حضارتها التي ظهرت قبل الميلاد بخمسة عشر قرناً فأشادت بذكرها كتب الأدب ، ولا تجد من الحضارة التي قامت بعد تلك بُنْج دام ألف سنة سوى بقايا لا تكفي لإيضاح تاريخها وإن كُفّت

لإثبات عظمتها ، والمباني ، حين بدّت في الهند بغتةً قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون ،  
 مثّلت بدرجة من السكّال لم تُجَاوِزَ قطّ مع تماقب القرون .  
 ولا يكتشف الباحث في أية ناحية من الهند الأدوار الأولى التمهيدية التي تدلُّ  
 عليها بقايا الحضارات الأخرى على الدوام تقريباً ، ففي بعض بقاع الهند يرى الباحث  
 ظهور المباني فجأةً وتجمّعها في قرنين أو ثلاثة قرون ثم يرى تواريتها بغتةً ، أى إنه  
 لا يجد قبلها وبعدها غير الليل الدامس ، أجلّ ، إنه يكتشف في بقاع أخرى من  
 الهند مؤثرات يونانية وفارسية بادية ، بيد أن هذه المؤثرات لا تمدُّ بعض البقاع ،  
 وقد توارت بغتةً أيضاً ، وحقاً أنه يشاهد ، من قوّره ، في إحدى البوادي الهندية  
 أبواباً هائلةً مُعْطَاةً بنقوش عجيبة ، غير أنه إذا ما جاب جميع بلاد الهند الواسعة لا يكاد  
 يرى من نوعها غير اثنين أو ثلاثة من أدوار حضارة دامت أكثر من عشرين قرناً ،  
 وهو إذا ما عدّل عن اكتشاف الماضى القديم المظلم من تحت الأعفار فاقصر على  
 دراسة مباني دور أحدث من تلك الأدوار معروف تاريخياً كاللور الإسلامى لم يسلم  
 من المصاعب أيضاً ، فن العبت أن يفترض أنه يتألف من هذه المباني سلسلة متجانسة  
 يزعم أنها شيدت من قبل شعوب تدين بديانة واحدة وتتكلّم بلغة واحدة ، فإجده  
 من الفروق بين المباني التي أقامها أتباع النبي في دور واحد وبقاع مختلفة من الهند هي  
 من الوضوح والاتساع ما يجعلك تسأل معه : هل هذه المباني من آثار قرون واحدة  
 وشعوب واحدة ؟

وتاريخ ماضى الهند وحده يمكنه أن يُلقَى بعض النور على الشذوذ الظاهر الذى  
 تُسفر عنه دراسة أطلالها ، وبالوثائق التاريخية يمكننا أن نتبيّن الحوادث التي لا تُفسّر  
 غيرها إذا مُسّرت هذه الوثائق تفسيراً صالحاً مع نقصها ، فبالناريخ وحده ندرك



مباني الهند ، ومباني الهند وحدها هي التي تُكْمِل هذا التاريخ ، و بفضل هذه المباني  
خَرَجَتْ أَدْوَارٌ من عالم النسيان بعد أن سكتت عنها الكتب والعنقوتات .

## ١ - تقسيم مباني الهند

إذا استثنينت بعض المغاور التي ليس لها قيمة فنية وجدت أقدم مباني الهند لم  
تنشأ إلا بعد القرن الثالث قبل الميلاد ، ولدينا أدلة صحيحة ، مع ذلك ، على أن المهندوس



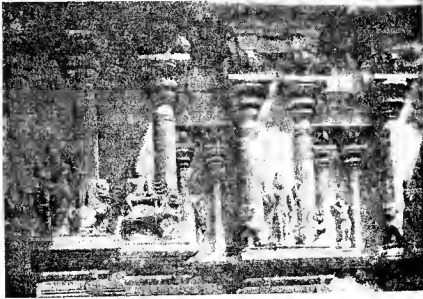
١٠٢ - مدورا. منظر معابد أخذ من حوض  
الصدر الذهبي

كانوا ذوي طراز بناء قبل هذا التاريخ  
فأقاموا فيه مدناً وشادوا فيه قصوراً ،  
فنحن نعلم ، من الوصف الذي ورد في ديوانتي  
المهابهارتا والراماينا ومن المباني التي انتهت  
إليها ومن شُرف بهارات الكثيرة النقوش  
مثلاً ، أن تلك المباني بلغت من الكمال

درجة لم تنلها إلا بمجاورة ماض فني طويل ، ونحن نفترض ، على العموم ، أنها زالت  
لأنها كانت مصنوعة من الخشب والأجر وإن صُنِعَتْ أسسها من الحجر ، كما تدل  
عليه محافظة أهل نيپال ، المتمسكين بقديم العادات ، على عادة إقامة مبانيهم من  
الخشب والأجر إلى يومنا هذا ، وكما لاحظته ميغاستين قبل الميلاد بثلاثة قرون ،  
وكما يشهد به معبد بُدْهَة عَيَا الكبير المصنوعُ بعضُه من الأجر في ذلك الدور  
على الأقل ، فسكان البناء الوحيد الذي انتهى إلينا ، فالأجر والخشب إذ كانا أسهل  
استعمالاً من الحجر في البناء كان لنا أن نرى تفضيل المهندوس لهما على الحجر .

ولم تبدأ الهند ، على ما يحتمل ، تُعرَف المباني الحجرية التي وَصَل إلينا بعضها

إلا في عهد أشوكا أى في القرن الثالث قبل الميلاد ، ومن المحتمل أن صنعها بتأثيرها منقولة عن المباني الخشبية القديمة ، فعلى هذا رأى كثير من العلماء ، وقد وجدت ما يؤيده فيما شاهدته بنپال من اقتباس بتأثيرها ، بضبط ، في المعابد الحجرية أعمدة المعابد الخشبية المنقوشة .



١٠٣ - مدورا . دفاقی نفوش في معبد من معابد الزون الكبير

وتبدو الآثار البدھيَّة القديمة ، كالأعمدة التذكارية والقباب والشرف المنقوشة ، من كمال الصنع ما نُسج به على منوالها عدَّة قرون في البقاع الهندية المختلفة : أمراؤنى وأجنتا وسانچى الخ . وظنُّ قبل تعيين الزمن الذى شيدت فيه هذه المباني ، أن من الممكن إثبات تطورها الفنى بالمعابد الأولى المصنوعة تحت الأرض ، بيد أن تلك المنقوشات العجيبة معاصرة لهذه المعابد الأولى التى نُحِتت تحت الأرض لتكون

ملاحىء أو صوامع للرهبان المتكفين ، وما مَثَلُ من يريد أن يستنبط أصول فنِّ عمارة دور من آثار ابتدائية كذلك إلا كمثل من يستنبط أصول مبانى المدن الحديثة من أكواخ الرعاة فى الجبال ، والمعابد المنحوتة تحت الأرض حينما اتَّفَق لها بعض الأهمية صارت تُصنَّع وَفَقِ الآثار المعمارية المودودة من الطراز الأول .

وإذا عَدَوْتَ المعابد المنحوتة فى الصخر لم يبق لديك من تلك الأدوار الابتدائية سوى عدد قليل من النقوش والأعمدة التى تَفَلَّتَتْ من التخریب بمعجزة ، ومن حسن الحظ أن فَسَّكَر البَدْهِيَّون فى نحت معابدهم الأولى فى الجبال وإنقاذها بذلك من يد الزمن ، ولو لم يُخَرَّب الإنسان فيها بعض الشئ لظلت كما كانت حين صُنِّعَتْ ، وليس عدد هذه المعابد قليلاً إذا ما قيس بالآثار التى أقيمت فوق الأرض كالأعمدة التى صُنِّعَ كُل واحد منها من حجر واحد فنقش عليها أشوك مراسيمه وكالشرف المنقوشة القابلة فى الوقت الحاضر والمحيطه بالمزارات الخروطة الشكل .

ولم يبق شئ من القصور والمعابد السكبييرة التى صُنِّعَتْ قبل الميلاد فوق الأرض ، ووَجَدَ فاهيان الذى زار الهند فى القرن الرابع من الميلاد أطلالاً لقصور أشوكا ، ووَجَدَ فاهيان هذا ما كانت عليه تلك القصور من الرَوَّعة فقال إن الناس ليعجزون عن صنع مثله .

وغابت المعابد البَدْهِيَّة المصنوعة تحت الأرض غيباً تدريجياً بين القرن الخامس والقرن الثامن من الميلاد ، واستُبدِلَتْ بها معابد مصنوعة فوق الأرض لختاف الديانات ، وهذه المعابد إذ أنشأ أكثرها أتباعُ الجَيْنِيَّة أَطْلَقَتْ كلمة الطراز الجَيْنِيَّ عَلَى الطراز الذى أقيمت به ، ولا أوافق على هذه التسمية ما رأيت معابد برهمية وجَيْنِيَّة شيدت

على هذا الطراز في دور واحد كما بدا لي من المقايسة بين المعابد البرهمية والمعابد الجينية في كهجورا .

وسنرى في غضون هذا الفصل أن فنَّ عمارة الهند قد اختلف اختلافاً كبيراً بين بقعة وأخرى وبين دور وآخر ، وما كان الاختلاف الذي نُبصره في فنَّ العمارة الأوربي بتعاقب القرون بأعظم من ذلك .

وعلى الباحث في المباني الهندوسية أن ينظر إلى جزئياتها عند الفصل في أمرها ، لا إلى خرائطها البسيطة ، وما لا ريب فيه أن معابد العصر البدهي كانت تُؤلف من رِداء واسعة منحوتة في الجبال ومن مزارات مخروطة الشكل محاطة بأعمدة وأن معابد العصر البرهمي تُؤلف في شمال الهند من رِدْهَة أو عِدَّة رِداء قائمة الزوايا مُزَيَّنة بأروقة فوقها هَرَم ذو وجوه مستديرة الخطوط ، وأنها تُؤلف في جنوب الهند من أطر واسعة قائمة الزوايا تُدخِل من أبواب هَرَمِيَّة ذوات وجوه مستقيمة الخطوط والأضلاع وذوات طبقات كبيرة ، ووصف عام كهذا لا يُغني القاري ، مع ذلك ، عن النظر إلى الصور التي نشرناها في هذا الكتاب فيمكنه أن يتبين بها طُرُرها .

وهنا نذكر أن مهندسى الهندوس لم يشيروا بصنع القباب للتوجهة إلى مركز واحد في جميع معابد الهند التي أنشئت قبل العصر الإسلامي وبعد هذا العصر في الغالب ، فصانوا المعابد القديمة من الخراب بذلك ، فقباب كتلك التي تُصنع في الغرب بمواد قليلة فتتساقط مساحات كبيرة تحمل في ثناياها بذور زوالها « فلا تنام أبداً » كما يقول الهندوس ، فالحق أن البقاء لا يُكتسب لمبان تُشاد بحسب طرقنا الأوربية في بلد كثير الزلازل والموارض الجوية كما يدل عليه أمر اللباني التي

أنشأها الإنسكيز، والحق أن مباني الهند لو أقيمت وفق قواعدنا مآلتهى إلينا منها سوى الغبار.

أخذ الهندوس، دَعْمًا لجسر أوسترًا لبناء، القباب ذوات اللداميك الأفقية التي



يَنْضُدُّ بعضها فوق بعضٍ تنضيداً يَنْتَأُ به عالياً مما سَفُلَ، فإذا كانت المساحة التي يُرَادُ عَمُودُهَا<sup>(١)</sup> واسعةً أضيف إلى الأعمدة التي تُمسِكُ حجارة الدائرة صفٌّ أعمدة آخر قريبٌ من مركز هذه الدائرة، ولم يستعمل الهندوس القباب والأقواس المتوجهة إلى مركز واحد في معابدهم إلا نادراً، حتى بعد أن نشر المسلمون هذا النوع من البناء، ولا يُفْتَرَضُ أنهم جهلوا ذلك الطراز قبل المغازي الإسلامية مارأينا الإغريق الذين لهم صلاتٌ سابقة بهم كانوا يُعَلِّمُونَهُمْ إياه، لا ريب، عند افتراض جهلهم له كما جهله المصريون في القرون القديمة.

وما يَتَّخَذُ لحضارات الهند ومعتقداتها الدينية من التقسيمات العامة يمكن أن يَتَّخَذَ مثله لمبانيها، والواقع أن هنالك فروقاً عميقة بين فن العمارة في العصر البدهيّ

(١) غما البيت يغموه غمواً : عطاه .

١٠٤ - مدورا . دقائق أعمدة رواق في الزون الكبير ( يبلغ ارتفاع الأعمدة إلى السقف نحو خمسة أمتار ويبلغ ارتفاع تماثيل الحيوانات الحجرية القريبة نحو مترين )

وبينه في عصر النهضة البرهمية والعصر الإسلامي ، ولكن تقسيماً كهذا ناقصٌ  
نقصاً تاماً ، فما بين العروق من الفروق يؤدي إلى فروق بين المباني أشدَّ من التي



يؤدي إليها اختلاف العقائد ، فبهذا نكتشف  
السُرَّ في اختلاف فنِّ العمارة في شمال الهند  
عن اختلافه في جنوبها مع اعتناق تَينِكَ  
الجهتين لديانة واحدة في أكثر من ألف  
سنة .

والنقشيم الذي يلوح لنا صلاحه هو  
الذي يستند إلى البقاع التي أقيمت فيها  
المباني ، وهذا هو التقسيم الذي رَضِينَا به ،  
وهذا هو التقسيم الذي يَرَى به القارىء ،  
الناظر إلى صُورَ هذا الكتاب ، أنه  
ما يُقَرَّب به بين متشابه المباني وما يساعد  
على الوصف الشامل ، ونحن لم ندرس في  
مختلف المطالب مختلف المباني القائمة في  
البُقعة الواحدة ، كدهلي مثلاً ، إلَّا عندما  
تكون هذه المباني قد أُنشِئت في أَدوار  
شديدة التباين فلا يَمُتُّ بعضها إلى بعض

١٠٥ - مدورا . دلائق عمود في ردة

الزون الكبير المعروفة بيوتو موتاڤام

بوجه شبه .

وأولُ نظرة إلى صُورَ هذا الكتاب تدلُّ على أن كمال مباني الهند ليس بحسب

أزمنة إنشائها ، بل تدلُّ على أن أقدمها أتمها ، ويتجلى بلوغ فنِّ البناء ذروته في معابد جبل أبو ومعابد كهجورا التي ترجع إلى القرن العاشر من الميلاد ، فعلى ما في هذه المعابد من نقص في فنِّ التماثيل بلغت جُزئيَّاتها من السَّكَّال مبلغاً لم تُقدِّر القرون معه على إضافة شيء إليها .

ولا بطلَمَن الباحث أن يحدِّد في الهند مثل ما يحدِّده في الغرب من تطور فنِّ العمارة التدريجيِّ ، فنن العمارة في الهند ، كآداب الهندس ، قد وَصَلَ إلى درجة من الرقي بسرعة ، والهند لم تُجاوِز هذه الدرجة بعد أن وَصَلَ فيها إليها .

وبدلَّ الجدول الآتي على عناصر التقسيم الجديد الذي هدَّتنا إليه مباحثنا ، ونُخصِّص ، بعد أن تَسرِّده ، بضعة مطالب للبحث في تاريخ فنِّ عمارة كلِّ دور وكلِّ بقعة بحثاً موجزاً ، ونحن إذ كُنَّا لا نستطيع ، لضيق المكان ، أن نَصِف بالتفصيل أيَّ بناء ، نحيل القارئ الذي يُهمُّه هذا الموضوع إلى الكتاب الكبير الذي لم يكن هذا الفصلُ غيرَ خلاصة خاطفة له <sup>(١)</sup> ، فمن ذلك الكتاب اخترنا صوَر هذا السَّمَر الكبيرة تابعةً للتصنيف الذي نعرِّضه ، فهي تكفي لَيَقْيَن بها القارئ أهمية آثار الهند .

---

(١) كتاب « آثار الهند » ، وهو يقع في خمسة مجلدات ، ويشمل على ٤٠٧ من الصور الكبيرة ، وعلى مجلد واحد خاص بالعمارة ، وهذا الكتاب هو نتيجة ما قامت به بعثة الآثار التي فوضت الحكومة ( الفرنسية ) إلى أمرها ، فأرسلنا نسخة منه إلى وزارة المعارف ( الفرنسية ) العامة ، وقد نطلب درس مباني الهند في وقت قصير فطمنا أربعة آلاف فرسخ في بِناء عاطلة ، في الغالب ، من الطرق ومن جميع وسائل النقل فأنهينا إلى ابتكار أساليب جديدة في التصوير والرسم ، فنقوم هذه الأساليب المبتكرة على المزج بين الفنونَ جغرافية وبعض الطرق الهندسية فنجد وصفها في مذكرة خاصة نُشرت في المجلد العلمية سنة ١٨٨٥ بعنوان « الهند الأثرية والمنهاج » ، فترى فيها ، أيضاً ، درجة ما في دراسة مباني الهند من النقص حتى الآن ، وما بقية من الوقت نهائياً لصنع صورة للأطلال التي تزول بسرعة عظيمة .

١ — تقسيم مباني الهند العام

١ — فنُ عمارة الهند البُدْهي ( بين القرن الخامس قبل الميلاد والقرن الثامن بعد الميلاد ).

١ — مباني الهند الأولى ( أعمدة تذكارية ، معابد وأديار منحوتة في الصخر )

أمثلة : أعمدة الله آباد ودھلي التذكارية ، مباني بهاجا وكارلي وأجنتا ، الخ .

٢ — مباني بُدْهيّة أنشئت فوق الأرض .

أمثلة : مباني بهارت وسانچي وسارناتھه و بُدْهه غَيَا ، الخ .

٣ — مباني يونانية هندوسية في شمال الهند الغربي .

أمثلة : مباني پيشاور وكشمير ، الخ .

٢ — فن بناء البرهية الجديدة في شمال الهند ووسطها

( بين القرن الخامس والقرن الثامن عشر من الميلاد )

١ — فن العمارة في شمال الهند الشرقى .

أمثلة : مباني ساحل أوريسا ( بهُو ونيشُور ، جَسكن باتھه ، الخ ) .

٢ — فن العمارة في راجپوتانا وبنديل كهند .

أمثلة : مباني كهجورا وغواليار وچُتُور وجبل آبو وأودپور وناغدها ، الخ .

٣ — فن العمارة في كجرات .

أمثلة : مباني أحمد آباد ، الخ .

٤ — فن عمارة الهند الوسطى .

أمثلة : مباني إلفنتا وإيلورا وأمبرناتھه ، الخ .



٣ — فن عمارة الهند الجنوبية ( بين القرن السادس

والقرن الثامن عشر من الميلاد )

١ — معابد جنوب الهند المصنوعة تحت الأرض .

أمثلة : مباني ممّاكلى پور وبادامى ، الخ .

٢ — فن عمارة المعابد فى جنوب الهند .

أمثلة : مباني شِلَمبَرمَ وتانجور وترىقى وكانجى وَرَمَ وبيجانفر ومدورا

وسرى نكهم ، الخ .

٤ — فن العمارة الهندوسى الإسلامى ( بين القرن الثانى عشر

والقرن الثامن عشر من الميلاد )

١ — فن العمارة الإسلامى قبل العصر المغولى .

أمثلة : مباني دهلى القديمة ومباني أجير وبيجاپور وغول كوندا ، الخ .

٢ — فن العمارة فى العصر المغولى .

أمثلة : مباني أغرا ودهلى وفتح پور ولاهور ، الخ .

٣ — فن العمارة التى تُوجى بالمؤثرات الإسلامية فى مختلف بقاع الهند التى

يختصّ الهندوس بأكثر مبانيها .

أمثلة : المباني الإسلامية فى غواليار ومهوبا ومدورا ، الخ .

٥ — فن العمارة الهندوسى التبتى ( بين القرن الثانى من الميلاد والزمن الحاضر )

أمثلة : مباني شم بھوناتھة وبُدھة ناتھة وبھات غاؤن وَپَنَ وكھات ماندو ، الخ .

٦ — فن العمارة الهندوسى الحديث

أمثلة : مباني بنارس وأمريتسر ، الخ .

## ٢ — فن عمارة الهند في العصر البُدهي

( بين القرن الخامس قبل الميلاد والقرن الثامن بعد الميلاد )

لا يَرُجِع أقدم مباني الهند إلى ما قبل زمن راق من العصر البُدهي ، أَجَلٌ ،  
وُجِدَتْ في البنغال معابدٌ مصنوعةٌ تحت الأرض في القرن الخامس قبل الميلاد ، يَبْدُو  
أن هذه المعابد ليست إلا حفائرٌ نُقِيت مهارة الهندوس في نحت الحجر ، ولا تَكْشِف  
عما كان عليه فنُ عمارتهم ، فالهندوس لم تَبْدُ آثارهم المعارية إلا في عهد الملك أشوكا  
الذي كان قبل الميلاد بنحو ٢٥٠ سنة .

ويمكن تصنيف جميع آثار الهند في العصر البُدهي كما يأتي :

الأعمدة التذكارية . — تَرُجِع هذه الأعمدة التذكارية إلى عهد الملك أشوكا  
الذي أمر بأن تُنقشَ عليها مراسيمه ، ويمكن عُدُّها من أهم المصادر لتاريخ الهند ،  
وتَجِدُ أشهرها في الله آباد ودهلي ، وتُصِرُّها مستورة بكتابات خاصة بالعالم الديني  
وذكرِ كِبَات الملوك ، الخ . ويعاود تيجانها أفيالٌ أو أسودٌ تَدْكُرُّنا بأعمدة پرسبوليس ،  
وَيُقَرِّض أن هذه الأعمدة كانت منصوبة ، على العموم ، أمام القباب البُدهية  
أو ما إليها ، وتشاهد ، أحيانا ، أمام المعابد الواقعة تحت الأرض ، ولا سيما في كارلي .  
المعابد والأديار المنحوتة في الصخر . — إن أقدم مباني الهند وأغناها ما نُحِت في  
منحدرات الجبال من المعابد والأديار .

وإذا استئنيت بعض الرُءاه المنحوتة تحت الأرض في بهار ، فترُجِع إلى القرن  
الخامس قبل الميلاد ولا تبدو غير حفائر بسيطة ، وجدت تاريخ أقدم تلك المعابد والأديار  
لا يزيد عن القرن الثاني قبل الميلاد ، وداوم القوم على صنع معابدٌ وأديار من ذلك

الطراز إلى القرن الثامن بعد الميلاد فيكون مجموع الزمن الذي استمروا على إنشائها فيه نحو ألف سنة ، وهم لم يَكْفُوا عن صنعها إلا بعد توارى البُدْهِيَّة عن الهند ، فالحقُّ أن تسعة أعشار تلك المعابد والأديار بُدْهِيَّة ، وأن عشرين فقط برهمن أو جيني .

ونقسم تلك المباني المنحوتة في الصخر إلى معابد وأديار ، فنعدُّ من هذه المعابد ثلاثين ونعدُّ من هذه الأديار ألفاً .

ولم نعدُّ بعضُ هذه المباني حفائرَ قليلة الزينة ، بيدَ أنك ترى في أكثرها وأقدمها غنى في النقوش والتخاريم لم يتَّفِق لأمة أحسنُ منه .

وفي هذا الكتاب نشرنا صوراً ما هو مهمٌّ من تلك المعابد ولا سيما أشهر ما يُشَاهَد في بهاجا وكارلي وإيلورا وبادامي وأجنتا ، الخ . والآن أقول بضع كلمات عما هو موجود منها في أجنتا لِيَتَمَثَّلَ القارئُ صنعها والعملَ الهائل الذي تُعْرِب عنه ، على أن أذكر في مطلب آخر شيئاً عما في إيلورا

نُحِتَت معابد أجنتا بعيدةً تسعين كيلو متراً من أورنغ آباد ، وذلك على جوانب جبل وعرة فوق فِجْ غامرٍ يجري منه سيلٌ فائرٌ ، ولا تُبْلَغ تلك المعابد إلاَّ بِجَوِّب أكداس من الصخور ، ويدلُّ منظر تلك الأماكن الوَهْرَةَ الوَهْرَةَ أن الرهبان الذين كانوا يهاجرون إليها كانوا يتمسكون بالعُرْلة تمسكاً لا يُوصَل معه إليها بآية وسيلة ممكنة ، كما يُسْتَدَلُّ عليه من حال الأوربيين القليلين الذين يَرَوْنَ زيارة أجنتا ، مع قرب بمبي ، فيقتضى تحقيق رغباتهم برحابة .

وُثِّبَتْ تفاوت أعمار تلك المعابد أن كثيراً من الآدميين قد عاشوا تحت قبابها الدُّجَن قروناً طويلة ، ولن يَتَبَيَّنَ الإنسان العمل الذي تَطَلَّبه نحت تلك المعابد في

جَوْفَ الجبل إلا إذا تخيل القرون التي تَمَّ فيها .

ومن المحتمل أن يكون أقدم تلك الآثار قد أُُنشِئَ . بأَجَنَّتْنا قبل ظهور المسيح بـ ١٥٠ سنة ، وأحدثها قد تَمَّ بعد الميلاد بسبعة قرون ، وما بين تلك الآثار من الفروق يقوم على فيض الزخارف أكثر مما على القيمة الفنية ، ففي أجننا ، كما في بقية بلاد الهند ، لا تستند قيمة المباني إلى قاعدة التطور التدريجي .

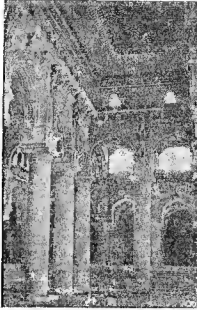
ويتصف أحدث معابد أَجَنَّتْنا باشتغالها على صورة بُدْهَة ، على الخصوص ، اشتغالاً مُسَكَّرَراً بما لا حدَّ له ، وتحتوى هياكل هذه المعابد على نقوش يبدو بُدْهَة بالغاً بها درجة السعادة الإلهية .

ويتقدم معابد أَجَنَّتْنا وأديارها المنحوتة تحت الأرض شُرَفٌ حجرية قائمة على أعمدة منحوتة مثلها في الصخر .

وفي أَجَنَّتْنا عِدَّةُ أديار تابعة للمعابد ، ويتألف كل واحد منها من حُجُرَات حول رَدْهَة ، وتشتمل كل واحدة من هذه الحُجُرَات على سرير من حجر ، ولا تنفصل هذه الحُجُرَات عن المعبد في الغالب ، بل تُتَخَذُ الرَدْهَة التي تحيط بها هذه الحُجُرَات ، وهي واسعة أحياناً ، معبداً مشتملاً على مقاصير جانبية خاصة بعبادة بعض الأولياء كما في الكنائس الكاثوليكية ، ولم تَقْتَأْ الأديار الأخيرة تَتَّسِعْ ، فوجب دَعْمُ سَقْف المعبد الواقعة حوله بأعمدة إضافية ، وإن كان هذا السقف مؤلفاً من الجزء الأعلى مما هو منحوت في الجبل ، وتحتوى أَجَنَّتْنا على رِداء منحوتة تحت الأرض يبلغ جانبها ٢٨ متراً ويحيطها ٢٤ عموداً ضخماً لا يزيد ارتفاعه على أربعة أمتار .

ويُرَى في صدر كل واحدة من تلك الرِّدَّاه العظيمة المنحوتة في الصخر ، على

العموم ، تمثال كبير لبُدْهَة تُحيط به تماثيل أخرى وتستر الأعمدة والسقوف نقوش وزخارف ملونة ، وتستر الحيطان تصاوير ممثلة لحياة بُدْهَة ، وهذه التصاوير ، مع



ردائها ، مفيدة إلى الغاية ، فهي وحدها كلُّ ما انتهى إليها من التصوير في الهند الغابرة ، ومن المحتمل أن تكون قد صُنِعَتْ في القرن الخامس من الميـلاد ، وما يشمل النظر الوجوه فيها ، فسلامح هذه الوجوه وقسَمَاتُها وزِيَّها وزِينَتُها مما يدلُّ على عِرْقٍ يختلف عن العِرْق الذي يُرى مثاله في المباني الأولى القائمة في بهاجا وكرالى وبهـارت وسانجى ، الخ .

١٠٦ - مدورا . داخل قصر تيرومل نابات ( القرن السابع عشر من الميـلاد ) انبج هذا البناء الذى هو من أهم فـصور الهند فى القرن السابع عشر أيام الراجة الهندوسى تيرومل ، فلو جرد من التماثيل التى تزبن مختلف أجزائه لعد أنراً إسلامياً خالصاً ، فيمكن عده مثالا على التأثير العظيم الذى اتفق للمسلمين فى جميع بـقاع الهند ، ومنها التى لم تخضع لسلطانهم .

ولا شئ يفوق تلك المعابد المنحوتة تحت الأرض غير معابد إيلورا ، فمن أروع المناظر منظر تلك الرِّدَاه الواسعة ذات الأعمدة الضخمة والتى يَتَبَّه النظر وسط ظلامها فلا يُرى فيها تمثال بُدْهَة

العظيم ، الذى يلوح العُلُوج حارسين له ، إلا على نور المشاعل .

القياب . — يُذَكِّرنا شكل القباب ، على العموم ، بمزاراتنا الأوربية القديمة ،

فهي ذات شكلٍ نصف كُرَى على العموم ، كما فى سانجى ، وقد يكون

بُرْجِيًّا كما في سارناتهة ، ويحيط بها سياج حجري ذو نقوش ، وتُدخل من أبواب ضخمة .

وتنوّر أمر تلك القباب من وصف قبة سانجى الكبيرة ، فهذه القبة من أقدم مباني الهند وأجملها ، وأنشئت هذه القبة نفسها في أيام الملك أشوكا ، أى في زمن أقدم من ٢٥٠ سنة قبل ظهور المسيح ، وأنشئ سياجها الحجري وأبوابها في أوائل القرن الأول من الميلاد ، ولا تحتوى الهند على غير قليل من المباني التى أقيمت في ذلك العصر إذا استأنيت العابد التى نُحِتَت في الصخر ، وإذا كانت مباني سانجى قد تفلّمت من التخريب فذلك لوقوعها في بقعة منيعة ، وإذا أدنيت إلى ذلك الأثر ما شيد في ذلك العصر من المباني ، كمباني بهارت مثلا ، فعات أن هذه ليست دون تلك زينة أبقت أن فنّ العارة في كبريات العواصم الهندية كان قد بلغ درجة رفيعة من العظمة لا ريب .

أقيمت قبة سانجى في زمن أنشئ فيه ما يماثلها من المباني التى شيدت للدلالة على مكان مقدس أو لتخليد حادثة دينية .

وشكل قبة سانجى نصف كروي تقريباً ، وظاهر هذه القبة مسطح ، ويبلغ قطر قاعدتها ٣٤ متراً ، ويبلغ ارتفاعها نحو ١٧ متراً ، وكان يعلوها ، كما كان يعلو كل ما يماثلها ، هيكل متآزى السطوح لإمساك ثلاثة ألواح حجرية منقوشة يزيد عرض كل واحد منها عن الذى فوقه ، وهذا إلى أن شكل الهيكل ذلك كان شامعاً فتجده فوق رسوم القباب والنقوش البارزة وفي العابد المنحوتة تحت الأرض .

وقبة سانجى أنشئت من الآجر كغيرها من المباني المماثلة لها ، وأهم أقسام

هذه القبة هو السياج الحجري الكبير الذى يحيط به ، ولا سيما الأبواب الأربعة الزائفة التى يدخل منها نقشناها صوراً أبرز أجزائها .

ذلك السياج الحجري يُحْدِقُ بتلك القبة ، ويتألف من أساطين عمودية مشنة الزوايا ذوات نُفُرات أُدخلت إليها أعمدة حجرية أفقية إتماماً لها .

ويشتمل ذلك السياج على نقوش كثيرة ، ولكن دقائق عمل المتفنين تَجَلَّتْ ، كما يظهر ، فى تلك الأبواب الكبيرة التى تكلمنا عنها آنفاً ، فترى جميع وجوه هذه الأبواب مغطاة بضروب النقوش البارزة ، والباب الشمالى هو أهم هذه الأبواب ، فيبلغ ارتفاعه نحو عشرة أمتار و يبلغ عرضه ستة أمتار .

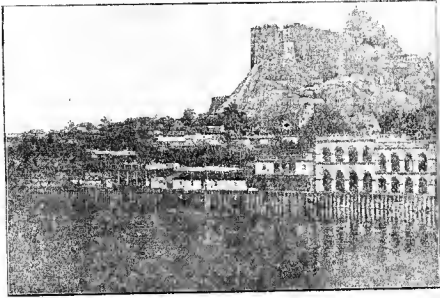
والنقوش البارزة التى تستر تلك الأبواب الضخمة تشير ، على العموم ، إلى مناظر حياة بدّهة حينما كان أميراً وإلى معاشه قبل ذلك ، ولم يُصوِّرْ هذا المصلح الكبير فيها بحسب الأوضاع المتفق عليها فأنحصرت فيها بعد فى رسمه واقفاً أو متربعا .

ويعلو هذا الباب الشمالى خُطَافٌ ، وأُخْطَافٌ رمزُ بدّهة ، وتجد عن يسار ذلك الباب وفى قاعدة العمود صورةً لأثر قدم بدّهة .

ومع أن نقوش الأبواب الأخرى وزخارفها دون نقوش ذلك الباب وزخارفه فَيَسّاً ففى جديرة بالذكر ، كما يبدو ذلك من صورنا الفوتوغرافية ، فالحيوانات التى تعلو أعمدة أحدها تستوقف النظر كثيراً .

ويشير منظرُ صُورِ الأشخاص المنقوشة فى سانجى وزينة رؤوسهم ووجوههم المستديرة والمسطحة ، كما يظهر ، إلى عِرْقٍ من آسية الوسطى لم يبق إلى أيامنا ، وإن مثّل دوراً مهماً فى ذلك العصر لما نراه بارزاً أيضاً فى مباني بهارت وبدّهة غيا ، الخ .

المعابد البُدْهيّة الكبيرة القائمة فوق الأرض . — المعابد البُدْهيّة الكبيرة القائمة فوق الأرض نادرة جداً ، ولم ينشأ هذا عن أنه لم يُصنَّع منها سوى عدد قليل ، بل نشأ عن اندثار مُعظّمها بسبب صنعها من موادّ لا تقاوم جَوَّ الهند كالآجر على الخصوص، والمعبد البُدْهيّ الوحيد الذى لم تُصبه يد التخریب ، لترميمه المتصل ، هو معبد بُدْهه غياّ الذى أنشئ قبل الميلاد بقرن فى المكان الذى تقول الأساطير إن بُدْهه بلغ فيه مرتبة الحكمة العليا .



١٠٧ - ترى جنابلى . منظر المدينة وقلعتها

وأقدس أما كن الدنيا عند البُدْهيّين ، البالغ عددهم خمسة مليون من الآدميين ، أى عند أكثر شعوب آسية ، هى الأمكنة الثلاثة : مدينة كاپالا وستو حيث وُلِد بُدْهه ، ومدينة بنارس حيث دعا بُدْهه الناس إلى مذهبه ، ومدينة بُدْهه غياّ حيث بلغ بُدْهه مرتبة الحكمة العليا ، ولا نعلم ، بالضبط ، مكان أولى هذه المدن الثلاث ،



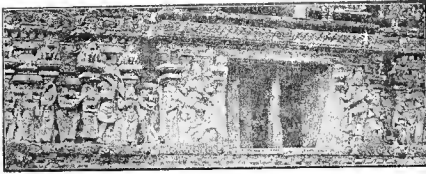
ولاتزال المدينتان الأخريان منها باقيتين ، وهما من أكثر بلاد العالم التي يزورها الناس .  
وكان تاريخ معبد بُدْهَة غنيًا موضع جدال كثير بين علماء الآثار ، ولم يكن تاريخ إنشائه الأول محلَّ أخذ وردٍّ بين أحد ، ما اعترف الباحثون ، على العموم ، بأن وصف (الحاجّ الصيّف) هيوين سانغ له يطابق حاله الحاضرة ، وإنما يدور النقاش حول دلالة أوائل القرن الرابع عشر الذي ورد ذكره في مخطوط على تجديد ذلك المعبد أو على ترميمه ، ثم أزال مباحث كنتنغهم وراجندرا لالاميترا كلَّ شكٍّ في أن ماتم في القرن الرابع عشر ليس إلا ترميمًا قام به عمّال من الأهالي غير مُبدّلين شيئًا في أشكاله الأصلية .

وشكلُ معبد بُدْهَة غنيًا هَرَمِيّ وقاعدته مربعة ، وطبقاته تسعٌ ، ويقوم على مكعب ارتفاعه نحو ثمانية أمتار وجانبه خمسة عشر مترًا ، ويبلغ مجموع ارتفاعه اثنين وخمسين مترًا ، وتجد في داخله ثلاثة محاريب صغيرة منضودة ، ويُقدَّر ارتفاع الأسفل منها بنحو سبعة أمتار وجانبه بأكثر من ستة أمتار ، ويشتمل على تاج من حجر بركانيّ أسود كان يعلوه تمثال ذهبيّ لبُدْهَة .

وإنني أذكر أن شكل ذلك المعبد الهرمي أمرٌ شاذٌّ في شمال الهند ، وإنما يذكرنا بمعابد جنوبها ، وأقدمُ المعابد التي أقيمت على هذا الطراز إذ أُشِيت بعد معبد بُدْهَة غنيًا باني عشر قرنًا حقًّا لنا أن نرى من الإمكان اتّخاذ صانعها هذا المعبد نموذجًا لهم .

وأسفرت الأحافير الحديثة التي تمّت حول بُدْهَة غنيًا عن إخراج عدد كبير من النقوش والأعمدة والتماثيل النُذْرِيَّة القديمة في الغالب فوضّعت هذه الآثار ، اليوم ، في الحدائق المحيطة بذلك المعبد ، وتشير إحدى صورنا التوثوغرافية إلى أهمها .

ورممت الحكومة الإنكليزية معبدَ مُدَّة غَيَّا حديثًا ، ولا أرى الشناء على فاعل هذا الترميم ، فقد غَيَّرَ شكلَ بعضِ الجزئيات بصورة محسوسة كما بدالى من المقايسة بين حال ذلك المعبد الحاضرة وصورته الفوتوغرافية قبل الترميم ، وكفى ذلك المعبدَ لونًا أصفر كدِرًا فاكسب به منظرًا كريها ، مع أنه أنفق على ترميمه المخرن نحو مئتي ألف فرنك .



١٠٨ - شرى رانغم . دقائق نقوش معبد في الزون الكبير ( القرن السابع عشر من الميلاد ) ( ربما كان زون شرى رانغم الكبير أوسع زون في العالم ، وهو يتألف من سبعة أطر تبلغ جهة أكبرها ٩٠٠ متر ، ويشتمل على ١٥ برجاً بلغ ارتفاع أحدها ٥٢ متراً )

المباني الإغريقية الهندوسية في شمال الهند الغربى . - لم تحُلِ الحواجز المنيعه التي تفصل الهند ، كما يلوح ، عن بقية العالم دون غزو مختلف الأمم لها منذ القديم ، والفتاحون من آريين ومغول وفرس وأفغان قد دخلوا الهند من خلال جبال هيمالية ، ولا سيما معبر أفغانستان ، فعمروها ، وإذا بدأت بالفرس الذين غزوها بقيادة دارا قبل الميلاد بخمسة قرون ثم بالإغريق الذين أوغلوا فيها سنة ٣٣٠ قبل المسيح بقيادة

الإسكندر فاتمتهبت إلى العرب فإلى المغول الذين فتحوها بأسرهما وجدتهن ذات صلات بأمم كثيرة وأبصرتهن خاضعة لكثير من المؤثرات الأجنبية .

جاز لنا ، إذن ، أن نتوقع انعكاساً لتلك المؤثرات في فنِّ عمارة الهند ، وانعكاساً كهذا كان ضعيفاً ، مع ذلك ، إذا عدّدت المؤثرات الإسلامية ، فالحق أن الهند طَلَّتْ ، إلى حين خضوعها لسلطان الإسلام ، تَمَتَّصَتْ فاعلمها من غير أن يُؤثِّرُوا فيها ، ومثَّلُ الهند في ذلك كَمَثَلُ بلاد الفراعنة مصرَ التي غزتها عشرون أمة ، كاليونان والرومان ، فحافظت على كيائها القديم وعلى دينها وفنِّ عمارتها ولغتها ، فما كان لغير التمدن الإسلامي أن يُحوِّلَ ديانتها ولسانها وفنونها .

وكان للإسلام أثرٌ بالغ كذلك الأثر في الهند ، وذلك من غير أن يُزِيلَ ما لقيته فيها ، خلافاً لما اتفق له في مصر ، ففي الهند اختلطت المؤثرات الإسلامية بالمؤثرات الهندوسية فأضحى نصف فنِّ عمارة الهند ، كالعنبر ، إسلامياً وأضحى نصفه الآخر هندوسياً .

وإذا عدّدت الإسلام وجَدَّتْ المؤثرات الأجنبية في الهند ضعيفةً إلى الغاية ، ووجدت تلاشي هذه المؤثرات في العوامل المحلية ، فالفن الذي أُدخل إلى الهند ، مهما كان نوعه ، لم يلبث أن تحوَّلَ على أيدي عمال من الهندوس فاكتسب مظهراً خاصاً ذا طابع هندي ، ولا فرق في ذلك بين أن يكون هذا الفن قد دخل الهند منذ ألقى سنة وأن يكون قد دخلها في أيامنا .

ويتجلى أقدم المؤثرات الفنية الأجنبية في ضفاف السند ، فأولى علائق الهند بالقرس ثم باليونان صدَّرت عن هذه البقعة ، وقد رأينا أن ما رواه هيرودس

يُثَبِّتُ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ الَّتِي قَامَتْ عَلَى ضِفَافِ نَهْرِ السُّنْدِ كَانَتْ تُعْطَى الْجِزْيَةَ قَبْلَ الْمِيلَادِ بِأَرْبَعِ مِئَةِ سَنَةٍ ، ثُمَّ أُيِّدَتِ السَّكَنَاتُ الْمَسَارِيَّةُ هَذِهِ الرِّوَايَةُ .

وَمَا نَرَاهُ مِنْ أَطْلَالِ الْمَبْنَى الَّتِي لَا يَرْجِعُ أَقْدَمُهَا إِلَى مَا قَبْلَ الْمِيلَادِ كَثِيرًا ، بَسْكَشِفَ عَنِ التَّأْثِيرِ الْفَارْسِيِّ فِي بَعْضِ أَقْسَامٍ مِنْ فَنِّ الْعِمَارَةِ ، وَيَبْدُو هَذَا التَّأْثِيرُ ، عَلَى الْخُصُوصِ ، فِي الْأَعْمَدَةِ ذَوَاتِ التَّيْجَانِ الَّتِي هِيَ عَلَى شَكْلِ الْجُرْسِ فَتَعْمَلُوهَا حَيَوَانَاتٌ مُضْطَجِعَةٌ طَيْرِيًّا ، وَتَجِدُ نَمُودَجَ ذَلِكَ فِي قَصْرِ بَنِي أَخْمِيدِ بِرَسِيدُولِيسَ ، فَأَعْمَدَةُ كَهَذَا النَّمُودَجِ تَبْصُرُهَا فِي كَثِيرٍ مِنْ مَعَابِدِ الْهِنْدِ الْقَدِيمَةِ ، وَلَا سِوَا فِي نَاسِكٍ وَسَاجِسِي الْخَ . وَفِي الْمَنَاطِقِ الْقَرِيبَةِ مِنْ بِنْشَاوَرِ ، وَتَشَاهِدُ فِي بَهَارْتِ أَقْدَمَهَا ، أَيْ مَا يَرْجِعُ إِلَى مَا هُوَ أَقْدَمُ مِنْ ٢٥٠ سَنَةٍ قَبْلَ الْمِيلَادِ .

ثُمَّ حَلَّتِ الْمَوْثُرَاتُ الْإِغْرِيْقِيَّةُ مَحَلَّ الْمَوْثُرَاتِ الْفَارْسِيَّةِ ، بَيِّدُ أَنَّكَ لَا تَجِدُ الْأَثَرَ الْإِغْرِيْقِيَّ إِلَّا فِي أَوْدِيَةِ كَابُلْ وَكَشْمِيرِ ، وَيُظْهِرُ هَذَا الْأَثَرَ ، عَلَى الْخُصُوصِ ، فِي التَّمَاتِيلِ وَالْأَعْمَدَةِ ، فَالْأَعْمَدَةُ فِي كَشْمِيرِ مَصْنُوعَةٌ عَلَى الطَّرَازِ الْإِغْرِيْقِيِّ الْمَعْرُوفِ بِالْذُّوْرِيِّ ، وَالْأَعْمَدَةُ فِي تَسْكَشِيلَا مَصْنُوعَةٌ عَلَى الطَّرَازِ الْإِغْرِيْقِيِّ الْمَعْرُوفِ بِالْيُورِيَّ ، وَالْأَعْمَدَةُ فِي وَادِي كَابُلْ مَصْنُوعَةٌ عَلَى الطَّرَازِ الْإِغْرِيْقِيِّ الْمَعْرُوفِ بِالْقُورَنْتِي ، وَهَذَا إِلَى أَنَّكَ تَبْصُرُ فِي هَذِهِ الْأَعْمَدَةِ طَائِعَ الْمُعْتَقَدَاتِ الْهِنْدُوسِيَّةِ ، فَتَرَى ، عَلَى الْخُصُوصِ ، تَمَثُّلَ بَدْهَةِ بَيْنِ أَوْرَاقِ الْأَقْنَمَاتِ <sup>(١)</sup> .

وَلَمْ تَجَاوِزِ الْمَوْثُرَاتُ الْإِغْرِيْقِيَّةُ قَسَمَ شِمَالِ الْهِنْدِ الْغَرْبِيِّ الضَّيِيقِ الَّذِي أَشْرْنَا إِلَيْهِ فِيمَا نَقْدَمُ ، وَمِنْ الْعَبَثِ أَنَّ حَاوِلَ بَعْضِ الْبَاحِثِينَ أَنْ يَكْتَشِفَهَا فِي نَقُوشِ مُخْتَلَفِ الْمَعَابِدِ

---

(١) الْأَقْنَمَاتُ : هُوَ نَبَاتٌ يَعْرِفُ بِشَوْكِ الْيَهُودِ .

البارزة والمحفورة ، فأنت إذا بعدت من المناطق المجاورة لنهر السند وجدت تلك  
للمؤثرات غارقة في الفن الهندوسى فلا تقدر على تبيينها ، وإننى بعد أن درست أهم  
معابد الهند بدقة لم أبصر فى نقوشها وعمارتها ما يدل على أن الهندوس اقتبسوا من  
الفن الإغريق شيئاً يستحق الذكر فيما خلا تلك البقاع الضيقة .

وتلك المؤثرات الفارسية الأولى التى توارت ، من قورها ، عن الهند عادت إليها  
مؤخراً مع المغازى الإسلامية بأعمق مما فى الماضى ، والفن الذى أدخله المسلمون إلى  
الهند هو من أصل فارسى تطور تطوراً عميقاً بفعل الحضارة التى جاء بها العرب إلى  
بلاد فارس حينما هدموا عرش الأكاسرة من بنى ساسان فى القرن السابع ، ويرتبط  
الفن الجديد الذى أدخله المسلمون إلى الهند ، فكان نصفه عربياً ونصفه الآخر  
فارسيّاً ، فى أقدم طرز الفرس من عِدّة وجوه ، فخذ الخزف المطلق بالميناء مثلاً تراه  
يرجع إلى ما قبل الميلاد .

### ٣ — فن البناء فى العصر البرهمى الجديد

( بين القرن الخامس والقرن الثامن عشر من الميلاد )

نقسم ، أول وهلة ، مباني العصر الذى ندرسه الآن فيبدأ حوالى القرن السادس  
من الميلاد ، أى فى الزمن الذى كان نجم البُدْهيّة يَأْفُل فيه عن الهند بسرعة ، إلى  
صنفين ، ويشتمل الصنف الأول على جميع المباني القائمة فى مختلف بقاع الهند الشمالية  
والوسطى ، وتختلف مباني هذا الصنف الأول اختلافاً جديراً بالذكر باختلاف  
الأمكنة والأزمنة التى نشأت فيها مع ما تجده بينها من قرابة ظاهرة ، ويشتمل  
الصنف الثانى على مباني جنوب الهند ، وتبلغ مباني هذا الصنف الثانى من التشابه

ما يحتاج معه تمييز بعضها من بعض إلى عين بصيرة ، ونحن ، حين نُضطرُّ إلى تقسيم دراسة مباني الصنف الأول إلى عدَّة مطالب ، نستطيع أن نلخص مباني الصنف الثاني في مطلب واحد .



١٠٩ - شرى رنغم . الزون الكبير ، أعمدة  
في داخل المعبد

فنَّ البناء في ولاية أوريسة . -  
تُعَدُّ المباني القائمة على سواحل أوريسة  
من أقدم مباني الهند وأجدرها بالذِّكر ،  
وأنشئت هذه المباني بين القرنين  
الخامس والثالث عشر من الميلاد ،  
وما في أوريسة من المعابد المصنوعة  
تحت الأرض فأقدم من تلك المباني  
ما وُجِدَتْ بينها معابد يَرَّجِع تاريخ  
إنشائها إلى ثلاثة قرون قبل الميلاد ،  
وإن كانت هذه المعابد لا تَمُتُّ بصلة  
إلى طراز المعابد التي نتكلم عنها الآن .

وأقيمت معابد ولاية أوريسة على نمط واحد من حيث خطوطها الأساسية ،  
وذلك مع انقضاء سبعة قرون أو ثمانية قرون بين إنشاء مبانيها الأولى ومبانيها الأخيرة ،  
وهي تختلف عن معابد جنوب الهند ، فلا ترى فيها أبراجاً ذات طبقات مُتَّصدة ولا  
رِدْأهاً تحمِلُها أعمدة ، وعلى ما كان يُعرَف من أمر الأعمدة ، التي أسفرت الأحافير  
في أوريسة عن اكتشاف عدد منها صُنِعَ قبل إنشاء معابدها بطويل زمن ، فإن  
القوم لم يستعملوا الأعمدة في شَيْء هذه المعابد إلَّا نادراً .

وشكل معابد أوريسة الخارجى هَرَمِيٌّ، بيد أن جوانب هذه الأهرام ذات خطوط مستديرة بدلاً من أن تكون ذات خطوط مستقيمة كما فى معابد جنوب الهند .

ويتألف المبد الأوريسى من مزار مُكَمَّب مشتمل على صور للآلهة يَعْلُوهُ بُرْجٌ هَرَمِيٌّ ذو جوانب مستديرة الخطوط من التى تكلمنا عنها ، وذُرَا تلك الأهرام مقطوعةٌ وتعلوها تيجان ذات جوانب تُشَابِه بها البَطِيخُ المُسَطَّح ، ويستتر تلك الأهرام زخارفٌ ونقوش ، ويتقدم جبهة المبد الأوريسى رُواقٌ يشاه بُرْجٌ هَرَمِيٌّ أيضاً ، ونلى هذا البرج رَدْهَةٌ أو رَدْهَتَانِ مُعَدَّةٌ إحداها للرقص والأخرى للطمع .

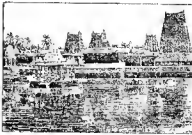
ويحيط بالمبد الأوريسى سُورٌ ذو أبواب كثيرة مزخرفة تعلوها سقف هَرَمِيٌّ ذو جوانب مستقيمة الخطوط .

وجبهة المبد الأوريسى مصنوعة على وجه نكون الآلهة به أمام شمس مشرقة . والنسب فى المبد الأوريسى وأبعاد كل جزء فيه خاضعة لقواعد دقيقة ، ولم يسر رجال الفن على هوامٍ إلا فى زخارفه ونقوشه ، وأنشئت جميع معابد أوريسة على رسم واحد ، فترى أشكالها العامة متشابهة كثيراً ، والمهندوس محافظون أكثر من جميع الأمم المحافظة ، فإذا ما أثبتت العادة بينهم أى طراز وجب انقضاء عِدَّة قرون ليتعدوا عنه ، وفى دقائق الزخارف ، لا فى شكل المابد ، يجب البحث عن أوجه التطور عند درس فنِّ عمارة الهند .

ونحن جُدُر المابد بأوريسة عظيم إلى الغاية ، وننشأ بما هو أقوى مما تتطلبه متانتها ، فما جاء فى أقدم كتب فنِّ البناء الهندوسى أن تعِدِلْ جُدُر البناء أربعة

أعشار مجموع مساحته وأن تُترك الأعشار الستة الباقية لفضائه ، فكان من نتائج هذا التعلُّو في المواد الإنشائية أن اكتسب البناء من القوة ما لم يَفِنَ معه تقريباً فضلاً عن رَوَعته ، ولعلّ فيما يَحْدُثُ في بلاد الهند من الزلازل وتقلبات الجوِّ ما يُسَوِّغُ إفراط القوم في ذلك كما تشير به النظرية .

ولم يَقُلْ مهندسو تلك المعابد عما يزيد أبعادها الظاهرة ، فتراهم أكثرها من الخطوط القائمة قصداً ، و تراهم تَجَنَّبُوا الخطوط الأفقية عمداً .



و بُنِيَتْ جميع المعابد في أوريسة من الحجارة الرملية على الخصوص ، لا من الآجر كما هو الأمر في جنوب الهند ، وبلغ تشذيب حجارتها ووصل بعضها ببعض درجة من

١١٠ - كنهه كونه . الحوس المقدس  
في داخل الزون ( القرن السابع من  
الميلاد )

السكّال والإحكام لم يبق معها احتياج إلى الملاط فلم يَتَّخِذْ قطّ ، وشُدَّتْ أقسامها

الناتئة كثيراً بكلايب من حديد في بعض الأحيان ، وأنشئت العوارض المرتكزة على الأعمدة ، أحياناً ، من حديد مُطَرَّق ، بدلاً من الحجارة ، ووُجِدَ في كَنَارِك من هذه العوارض ما طوله سبعة أمتار ومقطعه ٢٠ و ٢٥ سنتيمتراً ، ورُوِعِيَتْ في صنع هذه العوارض قواعد الميكانيكا النظرية فجُعِلَتْ أواسطها أثخن من أطرافها . وما تقدم ترى أن تلك المعابد صُنِعَتْ من الحديد والحجارة فقط ، وأما الخشب فلم يُعْتَمَدْ عليه إلّا في صنع الأبواب ، ومن هذه الأبواب نذكر باب هُؤُورِيَشُور المصنوع من خشب الصندل المحفور .

ولا تعرف مبانى أوريسة القباب ذات الحجارة المتجهة إلى مركز واحد ، شأن



قِيَاب معابد الهند الأخرى ، وكلُّ ما يُرى في أوريسة من القِيَاب تلك التي تتألف من مداميك أقفية ، وقِيَاب كهذه بعيدة من شروط الاقتصاد في المواد الإنشائية لا ريب ، ولسكنها تتصف بالديمومة .

وفي معابد أوريسة نَدَرَت الأعمدة والأساطين المنفصلة عن الجُدُر ، ولا تَجِدُ منها في سوى بهو من معبد بهو نيشور الكبير .

فنُ العِمارة في راجپوتانا . — يُطَلَق اسم راجپوتانا على البُقعة المعروفة عند الأهالي باسم راجهستان أو بلد الراجوات ، ووُقِّت طائفة الراجپوت للمحافظة على نُظُمها في تلك البُقعة منذ فتحهم لها ، حتى بعد أن دَوَّخها المسلمون .

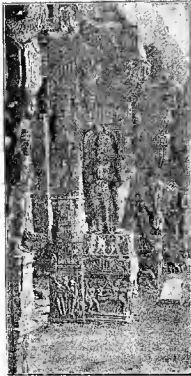
تعنى كلمة الراجپوت أبناء الملوك ، والراجپوت هم عنوان عِرْق من أقدم عروق الهند وأصفاها ، وزعم الراجپوت أنهم حَمَدَةُ القاتحين من الآريين ، وبين الراجپوت ترى أقدم طبقة للأشراف في العالم الهندوسى ، وراجه أودپور هو ولى الأمر الوحيد الذى يستطيع أن يزعم أن شجرة نسبه ترجع إلى ما قبل ألف سنة .

وَوَجَدَ المسلمون ، حينما أوغلوا في الهند ، الراجپوت مستقرين بجميع مدن الشمال وبسمل الفَنج إلى حدود البنغال الحاضرة ، فكانت لاهور ودهلى وقَنوج وأجودِها الخ . قبضتهم ، وكانت دولتهم ممتدة في الشمال والغرب من نهر السُّند ونهر سَتلج إلى نهر بَخمَنَة القريب من أغرا ، وكانت ممتدة في الشرق والجنوب إلى جبال وِندِها ، وإن شئت فقل إن دولتهم كانت قائمة على جميع شمال الهند الغربى ، فلما دُحِرُوا من هذه البِقاع الخصبَة هاجروا إلى مناطق راجپوتانا الحالية المنيعَة .

سَيِّد القارىء شَبْهاً عظيماً بين أكثر المباني التي أنشئت قبل العصر الإسلامى على الأقل فنهجتها فيها الآن ، وتقع هذه المباني في بُقعة واحدة وشادها عِرْق

واحد ، وبين هذه المباني ما هو ذو طراز خاص ، ومن المتعذر أن نشير إلى الأطوار التي اشْتُبِتَ منها ، وإلى المراحل التي ترتبط بها في مبان أخرى أحدث منها ما كانت عنوان نوعها .

ويلوح لنا أن نعت « الجيني » الذي وُصِفَ به فن كثير من المباني التي سندرسها غير صحيح كما قلت ذلك آنفاً ، فيظهر أن الباحثين أطلقوا كلمة « الفن الجيني » على طراز عمارة خاص بديانة معينة مع أنه لا يشير إلا إلى طراز أحد الأدوار بالحقيقة ، فسرى أن مباني أحد الأدوار في المكان الواحد قامت على طراز واحد ،



مهما كانت الآلهة الجينية أو البرهمية التي شيدت تقديساً لها ، ولنا أمثلة على ذلك في معابد كهجورا .

نذكر من مباني راجبوتانا القديمة التي نشرنا غير صورة لها في هذا السفر معابد كهجورا الواقعة في بُنْدِيل كهند ومعابد جبل آبو .

تقع مدينة كهجورا ، التي كانت عاصمة آل چندل من الراجبوت فعدت مهجورة ، على بُعد ٣٤ كيلو متراً من شرق مدينة جهنّربور ، وكانت هذه المدينة ، التي أصبحت مُنْسِيَةً في الوقت الحاضر ،

من أهم مدن الهند كما تشهد بذلك مبانيها العظيمة ، ففيها نحو أربعين معبداً يبلغ

١١١ - كنيه كوثم . داخل معبد رامما في الزون الكبير ( القرن السابع عشر من الميلاد ) ( يبلغ ارتفاع الأعمدة إلى أعلاها أربعة أمتار و ٤٠ سنتيمتراً )

اتساع بعضها سِمَةً كنانسنا القوطية الكبرى ، ولا تزال تَطَّلِعُ على أطلال لها  
فيها مساحتها عِدَّة كيلومترات مربعة ، وأنت إذا ما استنيت مدينة بَهْوَرَنيشور لم  
تَرَ مدينة ذات مجموعة مباني مثلها .

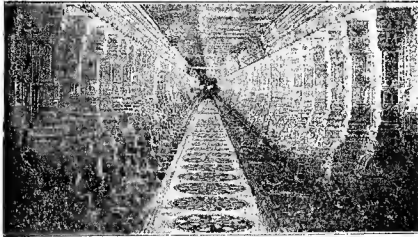
وأكثر معابد كهجورا التي لا تزال قائمة مما بُني في القرن العاشر من الميلاد ،  
ويُفْتَرَضُ أن أحدها شيد في القرن السابع بعد الميلاد ، وإن كان يُشَكُّ في  
تاريخ إنشائه .

وعلى ما تُبَصِّرُه من إقامة معابد كهجورا في قرن واحد ، على العموم ، فإنها  
خاصة بثلاث ديانات مختلفة ، أعني ديانة شَنُو وديانة شِيوا وديانة الجُنيين ،  
وبلغت هذه المعابد من التشابه الفنى ما يَصُمبُ معه ، أَوَّلُ وَهَلَاةٍ ، أن يُعرَفَ الدين  
الذى تخصه ، ويمكننا أن نستنبط من تساوى أهميتها تساوى تلك الديانات الثلاث  
ازدهاراً في ذلك العصر .

ولم يَسْتَقِ الهندوس قَطُّ معابد كهجورا من الناحية المعارية ، وتجد بين ألوف  
التماثيل التى تَفْشَى هذه المعابد غير تماثيل لا يعبيه مِنْقَاشُ نَحَاةِ الزمن الحاضر ،  
ولا تجد بين متنفذى الكندرايات القوطية غير واحد استطاع أن يصنع ما يَمْدُلُ  
معابد كهجورا في بعض الأحيان ، وقلما تُبَصِّرُ واحداً منهم قَدَرَ على صنع ما يفوق  
زخارفها .

ولما بين تلك المعابد من شَبَه أكتفى باتخاذ أحدها مثالا ، فأختار معبد كهندرايا مهاديو  
الذى أنشئ في القرن العاشر من الميلاد على مُسَطَّحٍ حَجَرِيٍّ فبلغ طوله ٣٣  
متراً وبلغ عرضه ١٨ متراً وبلغ ارتفاعه ٣٥ متراً ، فهذا المبد يُدْكَرُنا جِزْجاً ، أى  
من حيث شكل أهرامه ذوات الخطوط المستديرة ، بمعابد أوريسه الكبرى وإن كان

يختلف عنها في جُرَيَّات الزخارف مع اشتقاقها من مصدر واحد ، ويتقدم مزار هذا المعبد إطاراً أمامه رُواقٌ يَدْخُلُ من درج حجرية ضيقة ، وحول هذا المزار مَمَرٌ خِلافاً لِمَا يَشَاهِدُ في أكثر معابد أوريسه ، ويُضَاءُ هذا المزار والرْدَهة التي تَجِيءُ قبله إضاءة جانبية بنوافذ واسعة يتألف من مجموعها رُواقٌ تُشَكِّله أعمدة فينجم عن ذلك اكتساب رسم المعبد شكلَ صليب مزدوج ، وقَبَابُ هذا المعبد ، كما في جميع معابد الهندوس ، مصنوعة من حجارة مُنَصَّدَةٍ مُنْضِداً أفقياً ، وطِرَازُ عِمَارَةٍ كَوْنًا ، وإن كان لا يسمح بأخذ مساحة كبيرة يَمْنَحُ القِيَابُ قوة كبيرة كما قلنا ذلك آنفاً ، ومما رأيناه ، أيضاً ، أن مهندسي الهندوس وَفَّقُوا لتكبير المساحة التي تَغْشَاهَا القُبَّةُ المصنوعة على ذلك الوجه بأن دَعَّمُوا المداميك الأفقية المجاورة للوسط بأعمدة .



١١٢ - راميشورن . معبر الأعمدة في داخل الزون ( القرن السابع عشر من الميلاد )  
( يبلغ طول هذا المعبر نحو ٢١٠ من الأمتار ، أي أكثر طولاً من أوسع صحن  
أكبر الكندرايات )

ويستر داخل معبد كهنداريا وخارجته تماثيل يُقَرَّبُ ارتفاعها من متر واحد ،  
ويبلغ عدد هذه التماثيل نحو سبعمئة .

ونقع معابد جبل أبو التي نذكرها الآن ، ككثير من معابد الهند القديمة ، في بقاع صعبة الوصول ، ويبدو لنا أن منشئها أرادوا هذه الصعوبة وفَقَّ خطة مرسومة .

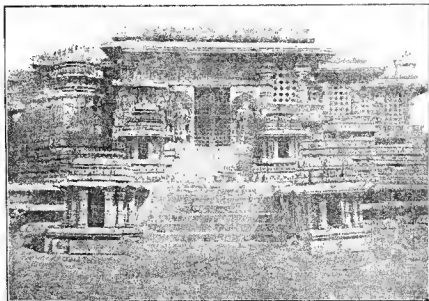
وتقوم معابد جبل أبو فوق ذِرْوَةِ جبل مُوحِش يبلغ ارتفاعه نحو ١٨٠٠ متر ، وُبنِيَتْ جميع هذه المعابد من الرُخام الأبيض الذي لا عهد لتلك المنطقة به ، فوجب نقل هذا الرُخام إلى تلك الذروة وتحملُ نفقاتٍ باهظة بذلك ، وتَطَلَّبَ إدماجُ قِطْع هذا الرُخام بعضها في بعض أعمالاً أشدَّ من تلك ، وما أسفرت عنه هذه الجهود من الأثر الفني فيساويها ، ولا تُبَصِّرُ مثلَ ذلك الإدماج في أىِّ بناء غوطى بأوربة .

ومعبدا جبل أبو خاصان بالديانة الجينية ، وبُدِيَ بإنشاء أحدهما المعروف بمعبد ويملاشاه سنة ١٠٣٠ ، وُبنِيَ الآخر المعروف ببال تيج بال بين سنة ١١٩٧ وسنة ١٢٤٧ .

وتتبد ذاتك المعبدان على نسق واحد ، ويتألف أساسهما من إطار قائم الزوايا يبلغ طوله ٣٤ متراً وتُحِيط به مقاصيرُ صغيرة لا يَدْخُلُها النور إلا من أبوابها ، ويحتوى كل واحد منها على صنم عارٍ مُمَثِّلُ لصورة القديس الذى بُنِيَ المبدن نقدياً له ، وترى الصورة نفسها مقبسة في كلِّ مقصورة اقتباساً تاماً ، وترى نحو ستين مقصورة حول ذلك الإطار ، وترى أمام كل واحدة من هذه المقاصير شُرْفَةً مؤلفة من صَمَى أعمدة ، وتعلو كلَّ باب لها نقوشٌ بارزة تُمَثِّلُ مناظر حياة ذلك القديس .

ويتألف قسم الإطار المقدم من رُواقٍ واسع تغشاه قبة يدعىها ٤٨ عموداً مُتَدَمِّجاً من الرُخام الأبيض يفوق الأعمدة الإغريقية العارية .

والقبة التي تدعها تلك الأعمدة هي ، كجميع قباب ذلك العصر ، مصنوعة من مداميك أفقية ، ويشاهد ستة عشر تمثالاً مصفوفاً حول دائرتها ، وهذه القبة إذا ما قيست بقيمتي كينسلي وستينسبر وأكسفورد المشهورتين بفناهما بدت هانان القمتان بجانبها ثقيلتين ، هذا ما رآه فرغوسن ، فلا يسعني إلا أن أشاطره رأيه هذا مشاطرة نامة .



١١٣ — هيلابيد (ميسور) ، مدخل المعبد الكبير ( القرن الثالث عشر من البلاد )  
( هذا المعبد هو مثال الطراز المعروف بالآلوكي نسبة إلى آل چالوكية الذين  
شيدت هذه المباني في أيامهم فيظاهر أن هذا الطراز مزيج من الطرز الجينية  
في شمال الهند ووسطها ومن الطراز الدراویدی في جنوبها )

ومعبدا جمبل آبو ، على عكس ما يشاهد في كهجورا ، خاليان من كل زينة  
خارجية ومن كل نقش خارجي ، ولا شيء يدلُّ ، أوَّل وهلة ، على ما تشتملان عليه  
من المعجائب .

وفي راجبوتانا مبانٍ رائعةٌ أخرى ، ولا سيما مايقوم منها في غواليار وجنور ، ولا أرى وصفها لضيق صدر هذا الكتاب ، فأكتفي بنشر صور لها ، ويُعدُّ قصر غواليار والمعابد التي يشتمل عليها سور القلعة من أهم مبانى الهند القديمة ، وسأقول بضعَ كلمات عن هذا القصر وعن قصر أوديبور .

ومع ما عليه قصر غواليار من تَلَف ، وعلى ما مُنِيَ به أكثرُ قِطْعَه الخربية المَطْلِيَّة بالميناء من السقوط ، فإن السَّاحَ التناظر إليه لا يستطيع إلا الإعجاب به كما أُعْجِب به الملك باهر حينما دخله سنة ١٥٢٧ .

أقيم قصر غواليار حوالي سنة ١٥٠٠ ، ويسيطر هذا القصر على القلعة التي أنشئ على جانب منها ، ويبلغ طوله خارجاً نحو مئة متر وارتفاعه ثلاثين متراً ، وأهم وجوهه هو الوجه الشرقي المستور بالخزف المَطْلِي بالميناء ، ولهذا الوجه طَبَقَتان ، ويؤلف من رصيف قائم الزوايا يتخلله على أبعاد متساوية ستة أبراج مستديرة تعلوها قباب ، ولا تزال تَجِد رَوْعَةً لما بقي من خزف المَطْلِي السائر للجُدُران ، وليست التصاوير التي تغشاها غير هندوسية ، ولكن صنعها من أصل فارسي كما هو واضح .

وداخل ذلك القصر مؤلف من طائفتي غُرَف صغيرة منظومة حول باحات صغيرة ، ولا تزيد مساحة أكبر هذه الغُرَف عن  $10 \times 6 = 60$  ، وهي ذات فنٍّ بديع كما يبدو ذلك من إحدى الصور الفوتوغرافية التي نشرناها ، ولا أجد ما يَمْدِلُهَا رَوْعَةً غير بيوت في قصور فتح پور المشابهة لها .

وقصر أوديبور هو القصر الراجبوتي الوحيد الذي تستطيع أن تقيسه بقصر غواليار ، بيد أن قصر أوديبور دون هذا القصر فناً ، لأنه أحدث منه ، ولما تَجِدَه

فيه من الطابع الإسلامى ، وهو يُعَدُّ ، مع ذلك ، من أجمل القصور التى تَخْطُرُ على قلب بشر إقامته على مكان من أروع ما فى الدنيا .

وترى ، أيضاً ، بين الصور الكبيرة التى نشرناها عن مبانى أوديبور بعض مزارات فى المقبرة التى تضم رُفَات ملوك ميوار .

وتَجِدُ على بعد ١٩ كيلومتراً من أوديبور مدينةً ناغدها التَّخْرِبة الضَّائِمة فى الآجام ، وتشتمل هذه المدينة التى أُسِّسَتْ فى القرن السابع من الميلاد على معابد من أروع ما فى الهند ، وإذ كان يَصُغَّب بلوغ تلك الأطلال تَفَلَّسَتْ من الرُّوَاد على العموم ، فلم يشتمل كتاب آخر على صور لآثارها الفخمة .

فَنَ البناء فى كجرات . - طراز البناء فى كجرات ، ولا سيما طراز أحمد آباد ، الذى يمكن اتخاذه نموذجاً يختلف عن طُرُز المبانى المذكورة آنفاً ، وذلك لاختلاط العناصر الفنية الإسلامية فيه بطراز البناء الذى يُدعى بِالْجِنِّى .

أُسِّسَتْ مدينة أحمد آباد فى القرن الحادى عشر من الميلاد وظَلَّتْ مئةً وخمسين سنة عاصمةً لولاية كجرات التى أَعْدِلَ بريطانية العظمى مِسَاحَةً ، والتى حافظ أهلها على استقلالهم مع اختلاف العروق التى يتألفون منها ، ومدينة أحمد آباد تلك اشتهرت بِجِدِّها ، وفيها ازدهرت الفنون والآداب أَيْما ازدهار ، وذاع صيت البُقعة القائمة عليها منذ القديم ، وكانت تتاجر مع بلاد العرب ومصر .

ويعود فضل إقامة أهمِّ مبانى كجرات إلى أتباع الديانة الجينية المشابهة للبهية ، ولم يصنع المسلمون غير جعل هذه المبانى ملائمة لمذهبهم .

استولى العرب على كجرات منذ القرن الأول من الهجرة ، ولكنهم لم يستقروا بها ، وحافظت كجرات على استقلالها إلى عهد الملك فيروز تغلق ، مع ما قام به



محمود الغزنوي من غزو لاحق ، فلما حَلَّت سنة ١٣٩١ اعتنق هندوسى راجپوتى الإسلام وتسمّى بمظفر وعُيّن نائباً لذلك فى كجرات .

وفى سنة ١٤١٢ نقل حفيد مظفر السلطان أحمد عاصمته إلى المدينة التى أطلق عليها اسمه فجعل اسمها أحمد آباد .

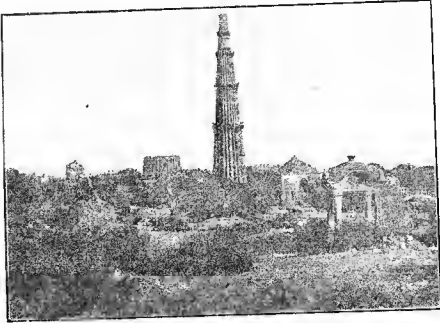
وحوّلت المباني الهندوسية القديمة المبنية على الطراز الجيئى إلى مساجد ، وما أنشئ بعدئذ من المساجد قام على هذا الطراز ، فإذا جرّدت مباني أحمد آباد الحديثة من الأقواس والمآذن والكتابات العربية أمكنك عدّها هندوسية الطراز .

فتّح الملك أكبر مدينة أحمد آباد سنة ١٥٧٢ فجعلها من أملاك الدولة المغولية ، فكان يُدير شؤونها ولأه يأتونها من دهلى ، ومن هؤلاء نذكر شاهجهان وأورنغزيب قبل أن يجلسا على عرش أجدادهما .

بلغت أحمد آباد ذروة عظمتها فى العصر المغولى ، قبّدت أجمل مدينة فى الهندوستان ، وفى العالم على ما يحتمل ، فكان عدد سكانها يزيد على مليونين ، وكان لسائحها وتجارها صلات مستمرة ببلاد العرب وإفريقية وجميع أجزاء الهند ، وكان لمصانع ديباجها ومُخملها وحريرها وطيلسانها وورقها شهرة فى كل مكان ، وبلغ عمال الخشب والذهب والعاج فيها من إتقان الصنع ما يَعْجب معه التفوق عليهم ، وعمال كجرات هم الذين لا يزالون يصنعون غُلب الصندل المرموقة المعروفة بِغُلب بمبى .

وفى العمارة فى كجرات ، وهو الذى نعدّ طراز أحمد آباد مثالا له ، دليل بارز على اختلاف فنّ البناء الإسلامى فى مختلف أقسام الهند ، وتجد لمباني أحمد آباد من العالِم الخاص ما لا تجد مثله فى بقعة أخرى من بقاع الهند لما اتَّفَق للعناصر

الهندوسية فيها من النَّفْثِ ، أَجَلٌ ، إن ما فيها من الأقواس والمنار والكتابات العربية يمنحها مظهراً إسلامياً ، بيد أنها تعدُّ بِزُخْرُفِهَا من طراز المباني الجَلِينِيَّةِ التي وجدنا أروع نماذجها في جبل آبو.



١١٤ - دلهي القديمة ، منظر عام لأطلال مسجد قطب الدين ( برج قطب هو في وسط هذه الصورة ، وترى دقائقه في الصورة الآتية ، ونجد عن اليمين وتجاه البرج طائفة علماء الدين )  
( نرجع مباني دلهي إلى ثلاثة أدوار مختلفة ، فأما مباني الدور الأول فهي التي شيدت قبل الفتح الإسلامي في بقية من بني تغريباً ، وأما مباني الدور الثاني فهي مباني الفتح الإسلامي الأول التي شيدت في أوائل القرن الثالث عشر فنظهر في هذه الصورة والصور الآتية ، وأما مباني الدور الثالث فهي مباني الدور المنوّل التي شيدت في القرن السادس عشر والقرن السابع عشر ، وهي تختلف عن السابقة ونصّرنا صوراً لها في هذا الكتاب )

وإذا سألت عن رسم مساجد أحمد آباد العام وجدته مثل رسم جميع المساجد الإسلامية ، أي وجدته مؤلفاً من ساحة واسعة فأعمدة الزوايا تحيط بها أروقة مسقوفة ،

فعلی جانب من هذه الساحة تَرى رُواقاً كبيراً مُعدّاً للعبادة تعلوه ، على العموم ، ثلاثُ قِبابٍ يحِملها اثنا عشر عموداً ، شأنُ القِبابِ الجُنيَّةِ ، والقُبَّةِ الوسطى أعلى من القبتين الأخرين ، وقد تمَّ هذا العلوُّ بإضافة أعمدة أعلى من الأخرى مرتين فوق مُقدِّم الأعمدة وبتنضيد أعمدة على الجهات الثلاث الأخرى مستندة إلى السقف الذى اتَّخذ أساساً لبقية القِباب ، ويزيد هذا الوضع ، الذى لا تشاهد مثله فى المباني الجُنيَّةِ الأقدم مما فى أحد آباد ، مقدار الضياء الذى ينفُذ فى البناء .

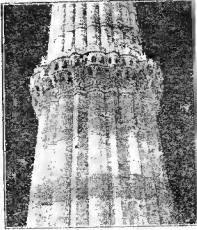
ولما قضت الضرورة بتوسيع أروقة الصلاة فى المساجد لم يَتِمَّ ذلك بزيادة قطر قِبابها ، بل بزيادة عددها ، ومن ذلك أن جُعِلَت القِباب فى المسجد الكبير خمساً يَحُولُ كُلُّ واحدة منها اثنا عشر عموداً ، لا ثلاثاً على خط واحد ، وكل قُبَّة إذ كُرِّرَت ثلاث مرات غُوراً غَدَّت تلك القِباب الخمسُ عشرة قُبَّةً إِذَنْ .

ومما يَشَاهَدُ فى أكثر المساجد وجودُ كِواءٍ<sup>(١)</sup> حافلة بالنقوش الهندوسية الرائعة ، وكانت هذه الكِواء مملوءةً بالتماثيل فى المعابد الجُنيَّةِ ، فالشريعة الإسلامية إذ كانت تُحرِّمُ صُورَ الآدميين وكان خُلُوُّ الكِواء من شىء أمراً كريهاً رُئِيَ مَلُوهَا بشبكة هندسية .

مباني الهند الوسطى . — ليس عدد مباني البُقعة التى ندرسها الآن كثيراً ، وإنما تُعدُّ من أكثر مباني الهند وقفاً للنظر ، ولا يختلف أكثر هذه المباني ، كمعبد أمبرناتيه مثلاً ، عن المباني التى درسناها ، بيد أنك تجد بينها ما يدلُّ على فنِّ بناء خاصٍ كمباني إيلورا .

(١) الكِواء : جمع الكِوة وهى الحرق فى الحائط .

وترى في وسط الهند ، أيضاً ، معابد مصنوعة تحت الأرض ، ولكنها غير  
 بُدْهيّة كما هو أمر معابد كالري وأنجتا الخ . المذكورة فيما تقدم ، بل تخصّ الديانة  
 البرهية كما هو أمر معابد إلفنتا ، أو تخصّ  
 كلتا الديانتين كما هو أمر معابد إيلورا ،  
 ومعابد إيلورا هذه هي من المعابد التي  
 أدت دراستها إلى نظريتنا التي أوضحنا  
 بها أقول البُدْهيّة بابتلاع البرهية لها  
 ابتلاءً تدريجياً .



١١٥ - دهل الفديّة . قسم من برج فطب  
 ( بدى بإنشاء برج فطب الدين الذي ترى  
 منظره العام في الصورة السابقة سنة ١١٩٩ ،  
 ويبلغ ارتفاعه ٧٣ متراً ، ويشمل على خمس  
 طبقات يحيط بكل واحدة منها شرفة مشابهة  
 للشرفة الظاهرة في هذه الصورة )

تقوم معابد إيلورا التي ندرسها وحدها  
 في هذا المطلب على جوانب جبل تُتَوَجَّحُ  
 ذُرُوتُه قرية روضة الصغيرة حيث يرى  
 ضريح الملك أورنغ زيب ، ونقع هذه  
 القرية في شمال أورنغ آباد الغربي وتبعد  
 منها ٢٢ كيلومتراً .

ويبلغ عدد الأحافير التي تتألف معابد إيلورا منها ثلاثين ، ونَحِتَتْ هذه المعابد  
 في الجانب الغربي من الجبل على طول كيلو مترين ، وتَجِدُ مدخل هذه المعابد ضامعاً  
 في فِجَاجٍ عميقة تسترّها أجسام وأشجار عادية<sup>(١)</sup> ، واليوم ترى تلك المعابد والأديار ،  
 التي غَمَرَتْهَا أجيال من الآدميين فتدَّكَّرْنَا بآثار قدماء المصريين الضخمة ، صامتة ،  
 فلا يُسَكِّدُ رصمتها سوى سائلين قليلين يسرون وراء السياح .

(١) المعادي : الشىء القديم .

وأنشئت معابد إيلورا في أدوار مختلفة ، ويرجع معبد وشواكرما ، الذى هو أقدمها ، إلى سنة ٥٠٠ من الميلاد ، ولم يُنشأ معبد كيلاسا الذى هو أحدثها فى زمن أحدث من سنة ٨٠٠ من الميلاد ، فتتكون تلك المعابد قد أنشئت ، إذن ، فى دور دام ثلاثمئة سنة .

وعندى أن ذلك الدور ، الذى بدأ فى القرن السادس وانتهى فى القرن التاسع فشيدت فيه مباني إيلورا ، هو الدور الذى عادت البُدْهِيَّة فيه بالتدريج إلى البرهمية مصهورة فيها ، فلم تلبث أن ابتلعتها بأسرها ، وفى هذه المعابد أحيط بُدْهَة بِالْهَة ثانوية كثيرة مؤلفة من آلهة برهمية ومن آلهة مرشحة لمرتبة بُدْهَة ، وذلك بدلا من أن ينفرد بُدْهَة وحده بهذه المعابد ، ومن الصعب أن نُميز جميع هذه الآلهة مستندين إلى ما بدا لنا من تفسير مجتهدى البراهمة ( الپندت ) الخلافى ، غير أنه وُجد فى هذه المعابد ما يُزيل الشك ، فقد رُئي بين نقوش ما هو بُدْهِي منها صورةُ إله السماء إندرا ، وإلهة الموت كالى ، وإلهة العلم سرَسَوَى ( زوجة برهما ) ، وإلهة الحكمة غنيسا الخ . وهكذا نستطيع أن نشاهد فى معابد إيلورا ذلك التطور الذى تَمَّ فى الهند بين القرنين السادس والتاسع من الميلاد فلم يبق منه فى الهند الأصلية سوى أثر قليل وإن سهَّل علينا درسه فى نيبال كما بينَّا ذلك ، ولا تدلُّ معابد إيلورا على ذلك الدور الانتقالى وحده ، بل تدلُّ ، أيضاً ، على مثل ما فى نيبال من أن بعض معابدها بُدْهِيَّة تماماً وأن بعض معابدها التى أنشئت بعد هذه المعابد البُدْهِيَّة بزمان قصير برهمية تماماً . وبعضُ معابد إيلورا قائمة فوق الأرض وأكثرها مصنوع تحتها على عدَّة طبقات مستندة إلى أعمدة ضخمة منقوشة نقشاً عجيباً ، ومما يلاحظ أنها عاطلة من مثل

الأفواس الهلالية التي تُرى في المعابد البُدْهيَّة القديمة المصنوعة تحت الأرض ، ومن النادر أن تجِد فيها دَعُوبَات .

ويتطلب تعداد معابد إيلورا ودرسها مجلداً ، فاكثفينا في هذا السُّفر بذكر أهمها ، وفي هذه المعابد تُبَصِّر ما لا تُبَصِّره في غيرها من خُدُور وتماثيل .

وأجدرُ معابد إيلورا بالذكر معبدُ إندرا ومعبدُ كيلاسلا ، وليس معبدُ كيلاسلا هذا معبداً مصنوعاً تحت الأرض تماماً ، فترى القسم الأوسط منه منزلاً فوق الأرض عن بقية الجبل ، ولسكنك تجدُه محاطاً بعدَّة أحافير تُؤَلِّف جزءاً منه وتُدشَّب في جواب الجبل .

ويشابه خارج معبد كيلاسلا معابد جنوب الهند الدراويدية ، وتجد تكراراً له في الأبواب وتجد هذا المثلَّ الابتدائي في مهابلي پور أيضاً .

وإذا عدَّوت معابد مهابلي پور وجدت معبد كيلاسلا الذي أنشئ في القرن الثامن من الميَّلاَد ، كما يلوح ، أقدمَ من جميع معابد جنوب الهند .

وإذا دُكَّ هذا المعبد البرهمي الذي صُنِعَ تقديساً لشيوا من المباني التي تَجَلَّى خيال متفنى الهندوس في نقوشها ، فلا يَكُنِّي مجلد واحد لتصوير هذه النقوش فاقصرنا على نشر أهمها ، فهي تُمثِّل جميع الآلهة الهندوسية وتُمثِّل أفاصيص ديوان المهابهارتا .

وكان يَبْشَى داخل ذلك المعبد وخارجَه تصاويرُ ملونة فلم يَبْقَ منها سوى أثر قليل .

ويقع معبد كيلاسلا المصنوع من حجر واحد في باحة قائمة الزوايا تُؤَلِّف جوانبها

من حواجز من الجبل نفسه ، وقد نُحِتَتْ في هذه الحواجز رِداءة تحت الأرض مُزَيَّنة بنقوش .

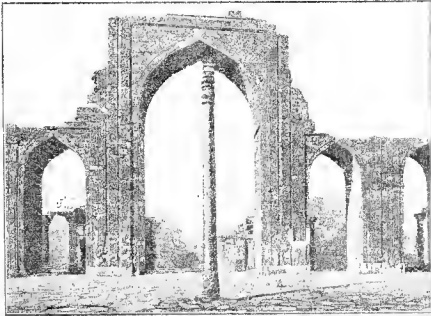
وُنُحِتَ ذلك المعبد الواقع في وسط تلك الباحة من صخرة واحدة ، ويبلغ ارتفاعه نحو ثلاثين متراً ، وتُدْخَلُ تلك الباحة من رُواق مُزَيَّن بأعمدة مربعة .

وداخل ذلك المعبد مُؤَلَّف من رَدَّهة كبيرة تَدْعَمُها أساطين وأعمدة مربعة ، وتحيط بها مقاصير ، وَنُصِبَتْ حول ذلك المعبد تماثيل أسود وأفيال وحيوانات وهمية مختلفة يُحْمَلُ إلى الناظر أنها حارسه له .

وَيُشَاهَدُ بالقرب من المعبد مِسْلَتَانِ تَبْدُوَانِ واضحتين في صُورِنَا ، وَيُشَاهَدُ هنالك ، أيضاً ، فيلان هائلان من قطعة واحدة ، ويبدو لنا أن المهندس الذى أشرف على صنع ذلك المعبد دَارَى أقسام الصخر الضرورية لنحته ونحت الفيلين والمِسْلَتَيْنِ والمقاصير والجسور الجامعة بينها .

ولا أختم كلامي عن معابد إيلورا قبل أن أقول إنه كان لها ، مع مباني كهجورا وبيجانغر ونيبال ، أبلغ الأثر في نفسى ، فقد نَسِيت ما كابדתه من الجوع والتعب وليالى السَّهَادِ أمام هذه العجائب ، أَجَلْ ، إن معبد الكَرْتَنَك في الأقصر بمصرَ أُرَرَانِع ، ولسكن معبد الكَرْتَنَك هذا إذا كان يُضْحَلُ . إلينا أنه من عمل قوم من العمالة فإنه يلوح لنا أن معبد كَمِيلَاسَا ومعبد إندرا الواقعين في إيلورا من صنع قوم من الجنِّ ، فما كان لعلاء الدين ، مع فانوسه السحري ، أن يُتِمَّ عملاً شيطانياً كهذا ، وما كان للصَّوَرِ الفونوغرافية أن تُبْدَى لنا حقيقة تلك الآثار إلا قليلاً ، ويجب ، لتَمَثُّلِها ، أن نَتَخَيَّلَ كتدراية عظيمة رائمة منحوتة في حجر واحد مفصول عن

جبل فصلاً مصنوعاً وترى بذهنك أيدي العُمال ، الذين ينتسبون إلى عالم غير عالمنا  
فحفروا بها جوانب تلك الهُوَّة لِيَفْصِلُوا ذلك الصخر الهائل ، حفروا بها أيضاً ساسلة  
معابد غائرة في جوانب ذلك الجبل ، وترى تلك المباني وحواجزها مستورة بماثيل  
آلهة وإلهات وغيان وبكل ما يتصوره الإنسان الواسع الخيال من الحيوان على



١١٦ — دعلي القديمة . أفواس مسجد قطب وعمود الملك دهاقا للصنوع من حدبد (أنشئت  
هذه الأنواس في أوائل القرن الثالث عشر ، وبلغ ارتفاع أعلاها ١٦ متراً وترى أمامه  
عمود الملك دهاقا للصنوع من حدبد والذي هو من أندربها دعلي القديمة ،  
ومن المحتمل أن يكون قد نصب في القرن الثالث من الميلاد )

مختلف الأوضاع ، وترى هنالك الآلهة المزهوبة الجبارة يَحْرُسُهَا شياطين من الحجارة  
متوعدين للزائر فلا يدنو منها ، وترى قوماً من الغيلان مُكَشَّرِينَ عن أنيابهم ،  
وترى إلهاتٍ باسمات ساحرات بأسطاط لِذُرْعَائِهِنَّ ، وترى راقصات مثيرات

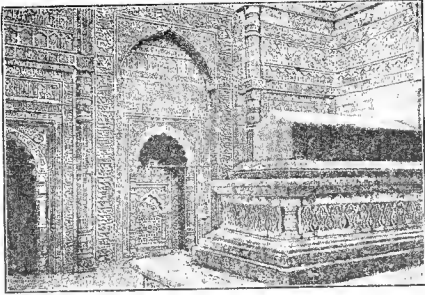


لِلشَّهَوَاتِ ، وترى آلهة وإلهاتٍ متعاقبةً بشدة عن غرام شديد، وترى هؤلاء القوم من الأصنام الذين يلوح أنهم قدماء قديم العالم ، والمؤلفون من موجودات علوية ومن راقصات ومن جنيات ، يُؤلفون موكباً لا آخر له منتشرأ على حواجز المعابد وفيها هو منحوت من الباني في الجبل ، وأنت كلما صعدت وهبطت وتقدمت على نور شمسك وجدت ظلال أولئك ضاحكة تارة ومُهَدَّدة تارة أخرى ، فتصاب بالدُّوار فتعتقد أنك انتقلت إلى عالم من السحر والمعجائب ، وتُدرك ، إذ ذاك ، وجود فرق بين تماثيل كتدراياتنا الغوطية الفاترة الجامدة وأولئك القوم المصنوعين من الحجارة على أشكال بلغت من الحياة والصدق ما نقول معه إنها تتحرك ، ولم يكن تاج محل القائم في أغرا وحده هو الذي يكفي لزيارة الهند كما قيل ، بل إن معبد إنديرا ومعبد كجيلاسا يستحقان مثل هذه الزيارة أيضاً .

#### ٤ — فنُّ البناء في الهند الجنوبية

نجهل مصادر فنِّ البناء الهندوسي في جنوب الهند جهلنا لمصادره في شمالها ، فلما بدت أقدم آثاره في أقدم معابد بادامى ومهابلى پورالغ ، وذلك حوالى القرن السادس من الميلاد ، كان قد وصل درجة من السكال منطقية على ماض طويل ، وليس لدينا ما نذكره عن هذا الماض الطويل الراقد تحت أعفار القرون ، نعم ، إن ممالك جنوب الهند الكبيرة ، التى كانت عواصمها ، كمدورا مثلاً ، معروفة لدى كتّاب العالم الإغريق اللاتينى القديم ، اشتملت على مبانٍ مهمة لا ريب ، بيد أن الأزمنة والحروب الأهلية والغزوات الأجنبية لم تبق فيها شيئاً فلم نقدر على ملء الهوة التى

تفصل أبنية ما قبل التاريخ الحجرى ، الموجودة فى الهند كما فى أوربة ، عن المعابد  
العجيبة التى شيدت فى القرن السادس من الميلاد .  
ولا نستطيع ، إذن ، أن نرجع فنَّ عمارة جنوب الهند الأول إلى غير المباني ،  
الحديثة نسبياً ، القليلة التى أقيمت فى القرن السادس من الميلاد كباني مهابلى پور



١١٧ — دهلى القديمة . ضريح الملك ألتش ، أنشئ سنة ١٢٣٥ فى مسجد قطب ( جميع  
قوس الردهة المشتملة على الفبر منقورة على حجارة رميلة حمراء ، وبيع ارتفاع أعلى القوس الكبير  
الذى يرى فوق المحراب نحو خمسة أمتار ، وتتفصل حجارة الأفواس بعضها عن بعض قليلا فيسهل  
الانثناء إلى أنها مبنية من مداميك أفقية على الطريقة الهندوسية ، وبعد هذا الضريح مع الأثر  
المرسوم فى الصورة الآتية مثلا للمباني التى امتزج فيها الطراز الهندوسى بالطراز  
العربى امتزاجاً حسناً )

وبادامى ، يئسد أننا لا نجد بين هذه المباني والمعابد الهرميمة التى يعود إنشاؤها إلى  
القرن العاشر من الميلاد أى بناء متوسط ، فتنبصر هنا حلقات مفقودة فى سلسلة  
المباني كما أبصرت هنالك ، أجل ، إن فنَّ البناء تغير فى هذا الدور الذى دام نحو

أربعة قرون ، غير أن المباني التي أنشئت فيه إذا كانت قد نالت ضخامة لم تنل كمالاً ، فالحق أنك ترى معابد مهاللي بور الأولى الصغيرة قد كُبرت كثيراً فيما بعد فاستبدلت في المعابد التي أنشئت مكبرة بالأعمدة المنقوشة نقشاً بسيطاً أعمدة مَعْقَدَة منقوشة عليها صور للفيالان والفرسان تُعَدُّ في الغالب دون التي رأيناها في معابد إيلورا رَوْنَة فأمكن ربطها شكلاً بآثار جنوب الهند ، وذلك عدا ما في بيجانفر على ما يحتمل .

و بين معابد جنوب الهند فروق مهمة من حيث الصنع ، ولكنها شيدت على رسم واحد كما يظهر ، فكانت من فصيلة واحدة ، فترى فيها ما يأتي :

يحيط بالمعبد الكبير على الدوام إطار فائمه الزوايا أو عِدَّة أطر فائمه الزوايا ذات مركز واحد لها في جهاتها الأربع بابٌ هَرَمِيٌّ مجذوم الرأس متآزى السطوح ، فيبلغ ارتفاع هذا الباب المستور بالتمائيل ستين متراً أحياناً ، فذلك الأبواب الهَرَمِيَّة هي التي تمتاز بها معابد جنوب الهند ، وتلك الأبواب قد تُعَدُّ معابد لضخامتها ، وما يشاهد في الغالب تعاقب كثير من تلك الأبواب الهَرَمِيَّة على خط واحد فيتألف من ذلك شارع أهرام ، ومصدر هذا الوضع ، على ما يظهر ، هو عدُّ القوم للإطار الأول غير مناسب لشهرة المعبد أو غنى بعض الواهبين فأنشأوا حوله بالتعاقب أطرًا أخرى ذات مركز واحد فتوسيعهم بذلك المعبد الأصلي من غير هدمه ، فأسفر هذا الأمر الذي هو وليد ضرورة توسيع المعبد في البداءة عن اتخاذه دستوراً في شيد المعابد الجديدة فكان ما تراه من اشتغال هذه المعابد على عِدَّة أطر ذات مركز واحد .

وتحتوى الأطر الخارجية للمعابد الكبرى على مسكن لسدنتها ، وتحتوى أيضاً ، على أسواق النخ ، فيتألف منها مدينة مشتملة على عِدَّة آلاف من الأهلين .

وتَجِدُ في صُحُون<sup>(١)</sup> المَعْبِدِ الدَّاخِلِيَةِ رُواقًا أو أكثر من أعمدة ، منقوشة عادةً ،  
أمام زُون<sup>(٢)</sup> .

ونذكر ، من بين الأبنية التي تشتمل عليها المعابد العظيمة ، الرِّدَاة ذوات الأعمدة ،  
ومن هذه الرِّدَاة ما تحتوى الواحدة منها على ألف عمود .  
ويُرى في إطار كلِّ معبد حوض مقدس قائم الزوايا مُعدٌّ للغسل يزيد جانبه  
على مئة متر في الغالب .

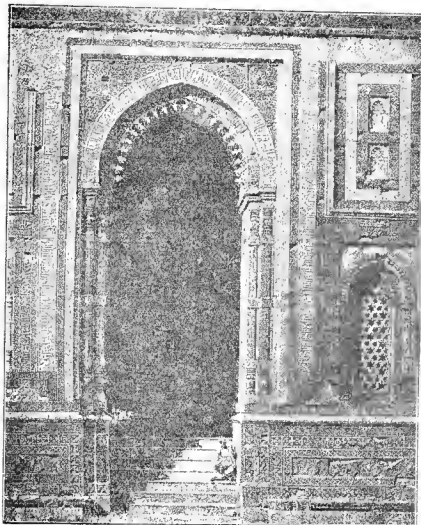
ويكون زُون الألهة التي أقيم المعبدُ تقديسًا لها في وسط أحد الصُّحُونِ الدَّاخِلِيَةِ ،  
وهذا الزُّون هو بناء قائم الزوايا يعلوه هَرَمٌ عالٍ كما في تانجور مثلاً ، ولا ينفذ النور  
في الزُّون إلا من الباب ، ويكون هذا الزُّون صغيراً على العموم ، ولا صَيَّرَ من صِقره  
ما دام دخوله مقصوراً على أبناء الطوائف العليا .

والزُّون هو القسم الأصلي في كلِّ معبد من معابد جنوب الهند ، وفي سبيل الزُّون  
بذلك الضَّمَانُ وصانعو التماثيل أكبر عمل ، فترى الزُّون مملوءاً من أسفله إلى أعلاه  
بالتماثيل الكثيرة جداً المتفاوتة القيم ، فترى بين هذه التماثيل ما هو بديعٌ وترى بينها  
ما هو شنيع ، وقد تكون هذه التماثيل من حجر ، وتكون في الغالب من المِلاط أو  
الفَخَّار ، وعكسُ ذلك أمر أعمدة الزُّون ، فهي مصنوعة من قِطْعِ صَوَّانٍ واحدة ،  
ويجد بعض علماء الآثار الأفاضل وجهَ شَبَهٍ بين الزُّون والأبراج القائمة أمام المعابد  
المصرية ، وعندى أن هذا الشَبَه سطحيٌّ ، فمن المتعذر أن تجد شَبَهًا جدًّا بينهما ،  
وإذا كان لابدٌ من الإصرار على وجود شَبَهٍ بينهما فإن مثل هذا الشَبَه يكون بين  
الزُّون ومعابد بابل الهرمِيَّةِ المربعة القواعد التي حَكَّى عنها أسترايون فُتْبِصِرَ مثلاً

---

(١) الصُّحُون : جمع الصحن وهو الساحة - (٢) الزون : الموضع تجمع فيه الأصنام .

صالحاً لها في مرصد خرز آباد ، وهذا إلى أن ذلك الطراز ليس خاصاً بمنسوب الهند  
وحده فتشاهد مثله بشمال الهند في معبد بُدّهة غيا الذي يَرُجِع إلى القرن الأول من الميلاد.

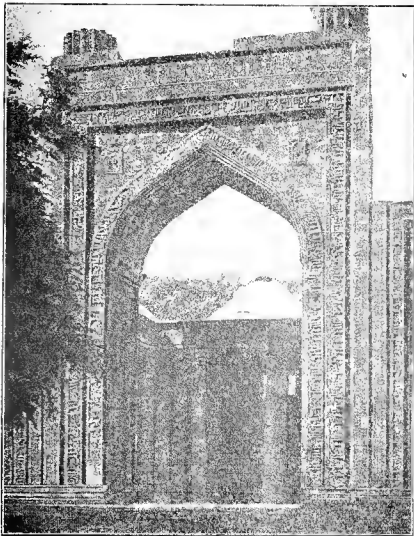


١١٨ — دهل التديبة ، مدخل طابق علاء الدين ( أنشئ سنة ١٣١٠ )  
( يبلغ ارتفاعه نحو ١١ متراً )

والناظر حينما يبحث في الزُّون يرى وجهَ كلِّ طبقةٍ منه مؤلفاً من أطواق صغيرة ذات أعمدة تملؤها قُبّةٌ ويتخللها تماثيل ، فعلى هذا الطراز الابتدائي شيد أقدم معابد الهند الجنوبية ، كعسابد مهابلى پور مثلاً ، ومن هذا العنصر اقتبس صنع الزُّون .

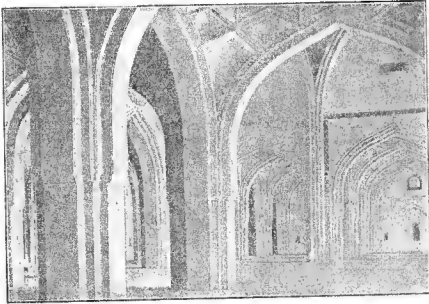
يكفى البيان الموجز السابق لوصف طراز المابد التي شيدت في سبعة سئة ( بين القرن العاشر والقرن السابع عشر ) فنشرنا صوراً لها فلا تجد فروقاً أساسية مهمة بينها ، ومن الممكن أن يقال ، على العموم ، إن جميع المباني التي وُصِفَت في هذا المطلب من طراز واحد خلا ما هو مصنوع منها تحت الأرض ، وتقوم تلك المابد في بقعة جنوب الهند الممتدة من نهر كرشنا إلى النقطة القصوى من شبه جزيرة الهند .

ونذكر من المابد الشاملة للنظر التي وصفناها ما هو قائم منها في المدن : بيجانغر ومدورا وشرى رنغم على الخصوص ، ويبلغ معبد شرى رنغم نحو كيلومتر طولاً ، فهو أوسع معبد في العالم على ما يحتمل ، وفي بيجانغر أطلال من كلِّ نوع ، وبيجانغر هذه كانت من أعظم عواصم الدنيا كما تشهد به أطلالها ، فقدت اليوم بَرِيَّةً لا يسكنها غير الضواري ، ومن أروع ما شَعَرْتُ به عند ما زرت عجائب الهند هو ما تجلى لى حينما سرت ذات ليلة مُقَمَّرَةٌ في شوارع هذه المدينة الميتة الواسعة انساع شوارعنا والمُطَرَّرَةٌ بأطلال المابد والقصور ، ولذُرّا هذه المابد والقصور البادية من خلال الأدغال من الرّوَعة ما يأخذ بمجامع القلوب ، وأشدُّ من ذلك رَوْعةُ منظر الإطار الحجريِّ العظيم المحيط بتلك الأطلال الجليّة والذي لا بدَّ من مجاوزته قبل دخول تلك العاصمة ، هنالك خُيِّلَ إلىّ أنّي دخلت مدينة جبارة من صُنْعِ الْجِنِّ



١١٩ - أجمير : إحدى أفواس المسجد الكبير ( القرن الثالث عشر من البلاد ) ( يبلغ ارتفاعه نحو ١٧ متراً ) ( طراز مسجد أجمير مطابق لطراز المباني الإسلامية الأولى التي شيدت بدعوى فنسرها صورها في الصفحات السابقة )

فخرَ بها مرَّةً من أبناء السماء والأرض ، ومن المعابد التي تحتملها هذه المدينة أذكر  
معبد وتهبوا وما اشتعل عليه من الأساطين المصنوعة كلُّ واحدة منها من حجرٍ  
واحد فبكاً هذا المعبد من عجائب الدنيا ، فعبد وتهبوا هذا هو من أنفس ما شاده  
الإنسان ، وهو من الآثار الرائعة التي لا تُصنَّع مرَّةً أخرى .  
« ونظهر ألوف الآلهة المتأملة التي تحول الأعمدة من مداميك المعبد إلى حنايا  
القباب » .



١٢٠ - بيجاپور ، داخل المسجد الكبير ( القرن السادس عشر من الميلاد ) ( يبلغ ارتفاع  
القوس الكبير الظاهر في الصف الأول من هذه الصورة ثمانية أمتار ، ويبلغ طول المسجد  
نحو مئة متر ، أي ما يعادل اتساع إحدى كتدراياتنا الكبرى التي أنشئت في القرون الوسطى )  
( بيجاپور هي إحدى الموانئ الكبرى الحرة الكثيرة في الهند ، وقد شيدت مبانيها المرسومة  
في هذه الصورة وفي الصور الآتية في القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر حين  
كانت مفرأ لمملكة الدكن الإسلامية فبُنت دائرتها ٤٨ كيلو متراً على ماروى . )

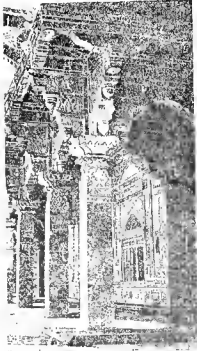


٥ - فنُّ البناء الهندوسىِّ الإسلامىِّ

كان من نتائج تمدُّد الممالك الإسلامية فى الهند فى مختلف الأدوار ظهورُ طُرُزٍ معمارية مختلفة باختلاف الولايات ، وسببُ هذا الاختلاف هو انتساب الفاتحين إلى عروق متباينة ووجود طراز بناء خاص لكل ولاية استولوا عليها ، فأسفر انصهار هذه العناصر غير المتشابهة بعضها فى بعض عن ظهور طُرُزٍ مختلفة يتعذر إطلاق اسم واحد عليها ، فمن يدرسن آثار أحمد آباد ودهلى ولاهور وبيجاپور الخ ، يشعُر بأنه أمام مبانٍ مختلفة الأصول وإن بدا الأثر الهندوسىِّ فى جميعها تقريباً ، فالحقُّ أن مسلمى الهند لم يُوقِّعوا ، كما وقَّعوا فى مصر والأندلس ، لإبداع مبانٍ مبتكرة كجامع قايتباى فى القاهرة أو الجراء فى غرناطة مثلاً ، والحقُّ أن العناصر الأجنبية فى الهند قد تَنصَّد بعضها فوق بعض أو اختلط بعضها ببعض اختلاطاً محدوداً يسهُل معه تبيينُ كلِّ واحد منها ، والحقُّ أن اختلاف المبانى الإسلامية فى الهند باختلاف البقاع نشأ عن اختلاف نِسَب العناصر التى تألَّفت منها .

أدى امتزاج العناصر الأساسية الثلاثة ، الهندوسىِّ والعربىِّ والفارسىِّ ، بعضها ببعض إلى ظهور طُرُز الهند الإسلامية ، وأما العنصرُ البيزنطىُّ فلم يَبْدُ فيها إلا فى أحوالٍ شاذة ، كما فى بيجاپور ، وأما للمؤثرات الأوربية فلم تَبْدُ إلا فى العصر المغولى ، وقد انحصر أمرها ، مع ذلك ، فى الزخارف التشاوية كترصيع رُخام وجوه البناء بالحجارة الثمينة ، وقد بدا المؤثرُ الإيطالىُّ حديثاً فى الأشكال الخارجية وفى جُزئيات زخارف بعض المبانى ، كالتى شيدت فى لكهنؤو وتانجور مثلاً ، بيْد أن نتائج ذلك الضمُّ كان على قِلَّة ودون الوسط بمراحل فلا يستحقُّ الوصف ، وإذا كان فى الإشارة

إليه من فائدة دلالاته على أن الشرق والغرب لا يمتزجان في طرُز مبانيهما كما أنهما لا يمتزجان في أفكارهما .



١٢١ - بجابور . صرح إبراهيم  
( أواخر القرن السادس عشر من البلاد )  
( دنانير الأعمدة المحيطة بالضرع ( يبلغ  
ارتفاع الأعمدة إلى سطحها خمسة أمتار و ٤٠  
سنة بقرآ )

وما نشرناه في هذا الكتاب من  
الصور يُنبئُ ، أحسن من الوصف ،  
باختلاف نتائج ضم تلك العناصر المعمارية ،  
فإذا نظرت إلى أقدم المباني الإسلامية  
الهندية ، كمسجد قطب الذي أنشئ في  
دهلي في أواخر القرن الثاني عشر من الميلاذ ،  
وجَدْتَ المؤثرات العربية هي السائدة لها ،  
ثم كانت الغلبة للمؤثرات الفارسية في شمال  
الهند الإسلامية على الأقل ، كالتي أقيم منها  
في لاهور ، وكانت الغلبة للعناصر الهندوسية  
في بقاع أخرى كأحمد آباد مثلاً ، فحقَّ  
لنا أن نصف آثار هذه المدينة بالهندوسية  
إذا استثنينا أقواسها وقبابها وماذنها .

أقيمت أقدم المباني الإسلامية في الهند كمسجد قطب بدهلي والمسجد الكبير  
بأجير في أواخر القرن الثاني عشر ، وأقيمت المباني الإسلامية الأخيرة المهمة في أواخر  
القرن السابع عشر ، فتسكون تلك المباني قد شيدت في دور دام خمسمئة سنة .  
وفي الكتب الإنكليزية تجد المؤلفين يُطابقون ، في الغالب ، كلمة الطراز

الپتهانى على طراز البناء الإسلامى فى الهند قبل العصر المغولى مقتبسین هذا الاسم من أسماء الأُسَر المالكة التى كان لها السلطان فى ذلك الحین ، فلا أرى من المفید أن یُطلَق اسم خاص على طراز بناء كهذا لا یختلف عن فنِّ البناء العربیِّ إلا ببعض الإضافات الهندوسية ، كما یلاحظ ذلك بسهولة فى المبانی القليلة التى انتهت إلینا من ذلك الدور .

فإذا كانت هنالك ضرورة إلى تسمیات خاصة ، فلتُطلَق هذه التسمیات على الطُّراز البارزة التى تشاهد أمثَلُها فى المدن الإسلامیة : أحمد آباد و بیجاپور وغور الخ . وأما اسم الطُّراز المغولى فیمُجب أن یحافظ علیه ، ویدلّ هذا الاسم على المبانی التى أُنشئت فى عهد ملوك المغول ، ولا یرْجِع أقدم منانى هذا العهد الأولی إلى ما قبل منتصف القرن السادس عشر ، والملک أكبر هو الذى شادها ، ثم سار خلفاؤه ، جہانگیر وشاہجہان وأورنگ زیب ، على سُنَّته فى شَیْد المبانی إلى أواخر القرن السابع عشر ، وَجَد هذه المبانی فى أغرا ودہلى على الخصوص ، ولا یستنبط القارىء من تشابه مبانی ہاتین المدينتين الواضح أن جمیع المبانی الإسلامیة التى أقيمت فى هذا الدور بالهند قد بُنیَتْ على هذا الطراز ، فلیُنْعَمْ نظره فى صور هذا الكتاب لیرى العکس . والمبانی التى أقيمت فى الهند على الطُّراز المغولی هى التى تعرفها أوربة تقریباً ، مع أنها لیست سوى قسم ضئیل مما شاده المسلمون فیها ، ونُفَسَر ذلك باقتصار الأوربيين على زیارة مدينتين مشہورتین منذ زمن طویل وبَہَر مبانیہما لهم ، وإن کنا نرى فى الهند من المبانی الإسلامیة ما ینافس هذه المبانی من الناحية الفنية .

وطراز البناء الذى أتى به المغول هو ، کدیاتہم ، من أصل عربیّ حُوِّل حين سروره من بلاد فارس ، وما حدث أن شاد تیمورلنک الذى ظهر قبل بابَر بمئة سنة

في مدينة سمرقند (١٣٩٣ - ١٤٠٤) مباني ذات طابع فارسيّ ، فمن بلاد فارس اقتبس المغول القباب البصلية الشكل والترصيع بالخرزف المطليّ بالمينا الشائع في لاهور والأقواس الحادة والأبواب الفخمة التي تعلوها نصف قبة .

وأراد الملك أكبر والملك جهانكير صهرَ الهندوس والمسلمين في أمة واحدة فلم يأوّا جهداً في مزج طرازَيْهِم فنَجَمَ عن ذلك أن وُيِّمَ كثير من مباني ذلك الدور ، كباني فتح بورسيكري مثلاً ، بالطابع الهندوسي أكثر مما بالطابع الإسلاميّ ، ثم توارث روح التسامح هذه في عهد شاهجهان (١٦٢٨ - ١٦٥٨) الذي أقام أغنى المباني في العصر المغوليّ فعادت المؤثرات الهندوسية لانبثو في غير بعض الجزئيات ، فصرت لا ترى النقوش البارزة العريضة على متفني الهند ، فكان ما تعلم من خلوّ تاج محلّ منها واقتصار زينته الخارجية على فسُوفاء هزيلة .

وترجع عناصر الفنّ التي كانت سائدة للطراز المغوليّ في عهد شاهجهان إلى استعمال الأقواس المقرّصة والقباب البصلية وترصيع الرُخام الأبيض بالحجارة الثمينة وستر المساجد ، في بعض الأحيان ، بالخرزف المطليّ بالمينا .

وقد أقلّ نجم الطراز المديني لتأثير المغول بأقول نجم هؤلاء بالتدرج ، فلا يشيد القوم مباني مهمة على حسب أصوله في الوقت الحاضر ، مع أن الطراز الهندوسي لا يزال محافظاً على نفوذه ، ومع أن الطراز الإسلامية الأخرى لا تزال باقية في الممالك الإسلامية التي تتمتع بشيء من السلطان كدولة نظام مثلاً .

تسكني الخلاصة السابقة لتسوين ما اتخذناه من تقسيم المباني الإسلامية في الهند ، وعلى الباحث أن يدرس هذه المباني في كل منطقة على حدة ، والمباني المهمة لكل

مِنْطَقَةٍ إِذْكَاتٍ مُتَجَمِّعَةٍ فِي عَاصِمَتِهَا وَجَبَّ اتِّخَاذُ مَبَانِي كِبَرِيَّاتِ الْمَدَنِ أَمْثَلَةٌ فِي  
الْبَحْثِ ، فَإِذَا مَا قِيلَ : فَنَ بِنَاءِ لَاهُورِ وَفَنَ بِنَاءِ بِيْجَاپُورِ ، مِثْلًا ، دَلَّ ذَلِكَ ،  
بِالْحَقِيقَةِ ، عَلَى فَنِّ بِنَاءِ الْمُنْطَقَتَيْنِ الْوَاسِعَتَيْنِ اتِّسَاعَ مَمَالِكُنَا الْأُورِيَّةِ ، فِي الْغَالِبِ ،  
الَّتَيْنِ اتَّخَذْتَا تَبَنُوكَ الْمَدِينَتَيْنِ عَاصِمَتَيْنِ لَهَا .

وَيَسْجُلِي النَّفُوذَ الْإِسْلَامِيَّ فِي جَمِيعِ الْهِنْدِ تَقْرِيْبًا ، فَقَدْ وَجَدْتُهُ حَتَّى فِي نِيْبَالِ الَّتِي  
لَمْ يَدْخُلْهَا الْمُسْلِمُونَ قَطًّا ، وَوَجَدْتُهُ ، أَيْضًا ، فِي جَنْوِبِ الْهِنْدِ الَّتِي لَا تَحْتَوِي عَلَى مَسَاجِدَ  
بِنَاهَا الْمُسْلِمُونَ قَطُّ ، بَلْ تَشْتَمِلُ عَلَى قُصُورٍ إِسْلَامِيَّةٍ بِنَاهَا الْهِنْدُوسُ أَيْضًا كَقُصْرِ  
مَدُورَا مِثْلًا ، وَكَانَ لِلنَّفُوذِ الْإِسْلَامِيِّ مِنَ الْأَثَرِ الْبَالِغِ فِي شَيْدِ هَذِهِ الْقُصُورِ مَا يُحْيِلُ  
إِلَيْكَ مَعَهُ ، أَوَّلَ وَهْلَةٍ ، أَنْ بُنِيَتْهَا مِنَ الْمَسَالِمِينَ بِالْحَقِيقَةِ .

وَإِذَا اتَّخَذْتَ مَا قُلْنَا آتِنَا قَاعِدَةً أَمَكَّنَكَ أَنْ تَصْنِفَ الْمَبَانِي الْإِسْلَامِيَّةَ الَّتِي تَمَلَا  
الْهِنْدَ كَمَا يَأْتِي :

أ - فَنَ الْبِنَاءِ الْإِسْلَامِيِّ قَبْلَ الْعَصْرِ الْمَغُولِيِّ ( وَقَدْ أُنْشِئَتْ عَلَى طِرَازِهِ مَبَانِي  
دَهْلِي الْقَدِيمَةِ وَمَبَانِي أَجْمِيرِ وَبِيْجَاپُورِ وَغُولَسُونَدَا الْخ ) .

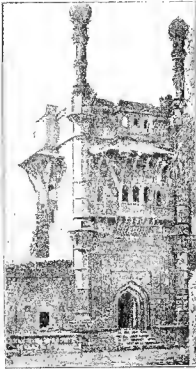
ب - فَنَ الْبِنَاءِ فِي الْعَصْرِ الْمَغُولِيِّ ( وَقَدْ أُنْشِئَتْ عَلَى طِرَازِهِ مَبَانِي أَغْرَا وَدَهْلِي  
وَلَاهُورَا الْخ ) .

ج - فَنَ الْبِنَاءِ الْمَوْسُومِ بِالْمُؤَثِّرَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي مُخْتَلَفِ بَقَاعِ الْهِنْدِ حَيْثُ أَكْثَرَ  
الْمَبَانِي هِنْدُوسِيَّةٌ ( وَقَدْ أُنْشِئَتْ عَلَى طِرَازِهِ الْمَبَانِي الْإِسْلَامِيَّةُ فِي غَوَالِيَارِ وَمِهَوْبَا  
وَكَهَجُورَا وَمَدُورَا الْخ ) .

أَلَا إِنَّ مَبَانِي الْمَسَالِمِينَ فِي الْهِنْدِ كَثِيرَةٌ إِلَى الْغَايَةِ ، وَتُخْتَلَفُ طُرُوزُهَا بَيْنَ دَوْرٍ

ودور وبين مدينة ومدينة فيتعذر وصفها داخل الحدود التي رسمناها لهذا السفر ، وقد نشرنا أهم صورها في هذا الكتاب مع ذلك ، ولا يسعني سوى إحالة الراغبين في دراسة كل واحدة منها بالتفصيل إلى كتابي « الهند الأثرية » ، ومن هذه المباني الإسلامية أذكر برج قطب وباب علاء الدين ومزار أكبر وقلعة أغرا وأطلال فتح پور وقصر ملوك المغول بدهلي وما إلى ذلك من الآثار القائمة في كبريات المدن فيسهل على الباحثين أن يصلوا إليها ، فنجم عن هذا ذراع صبتها في أورة .

## ٦ - فن البناء الهندي التبتى



تقع دولة نيبال ، كما هو معلوم ، بين سلاسل جبال هائلة المتوازية التي تغلغل الهند عن التبت ، ونجم عن عزلتها واستقلالها محافظتها على عاداتها القديمة محافظة تامّة ، ومن المنيد أن يُدرس فنّ بنائها الذى صعب البحث فيه حتى الآن ، فيرى في كثير من مباني نيبال اختلاط العناصر الهندوسية والصينية ، وبانت هذه العناصر في بعض مباني نيبال من التمازج ما أسهر عن ظهور طراز خاص جديد .

١٢٢ - بيجاپور . مهترى محل ( القرن السادس عشر من البلاد ) ( يبلغ ارتفاع المئذنة نحو عشرين متراً ) .

مباني نيبال كثيرة جداً ، ففيها ما يزيد على ألفي بناء ، وترتبط طرز هذه

المباني بأشكال ثلاثة مختلفة اختلافاً جوهرياً كما نصفها لك :

فأما الطراز الأول بحسب القدم فيتألف من مباني كبيرة نصف كريمة مصنوعة من الطين والأجر مشابة لقباب الهند الوسطى كمنار سانجى على الخصوص ، واسكنها ليست مُحاطة ، كهذه القباب ، بسيجات حجرية ذات نقوش ، بل هي مُحاطة بأرصفت مستديرة ، وتُصير في كل جهة من جهاتها الأربع محراباً ، وإن شئت فقل مشكاة ذات تماثيل ، ويعلمو نصف السكرة برج مربع يتوجّه هَرَم أو مخروط ، وترى حَوْل كل معبد أبنية دينية صغيرة ومقاصير وتماثيل الخ .

أجل ، إن تلك المعابد خاصة بالديانة البُدْهيّة ، بيد أن البرهمية والبُدْهيّة بلغتا من التمازج في نيبال ما تتلاقى معه رموز تينك الديانتين في جميع معابدهما . كانت الديانة التي أقيمت من أجلها ، فترى في تلك المعابد البُدْهيّة ، في الغالب ، تماثيل الآلهة البرهمية ( وشنو وغنيسا الخ ) بجانب تماثيل بُدْهة وسابقي تقمصاته والثالوث البُدْهي ( بدْهة ودَهَما وسِنْها ) .

ونحن حين رأينا في نيبال كيف تتدرّج البُدْهيّة إلى الانصهار في البرهمية استنبطنا وقوع هذه الحادثة نفسها في بقية الهند حوالي القرن السابع من الميلاد .

وتلك المباني التي وصفناها ، وإن كانت أقدم ماني نيبال ، ليست أكثر ماني نيبال عدداً ، فيتألف مُعظم معابد نيبال من مباني مصنوعة من الأجر والخشب على طراز تبتى صيني أكثر من أن يكون هندوسياً فنشتمل هذه المباني على عدّة طبقات قائمة الزوايا مُتَقَبَّضَة يعلو كل واحدة منها سقف ، ويظهر كل واحد من هذه السقوف مرتفع الزوايا قليلاً ، كما في المباني الصينية ، مزيناً بعدة جلال ، ويبدو كل بناء أنشئ على هذا الشكل هَرَبِي الشكل ذا طابع خاص .

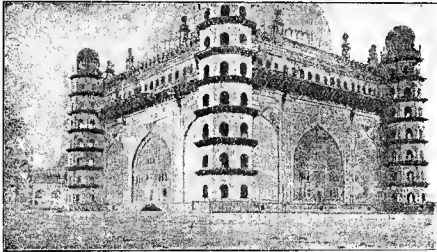
ويربط قسم السقف البارز للأمام في بقية البناء بجسور خشبية منقوشة .

ويحيط بكل معبد شُرْفَةٌ تحمِلُها أعمدة خشبية محفورة حفراً دقيقاً .

ويقوم كلُّ بناء على أساس حجري ذي طبقات كثيرة متقبّض بعضها فوق

بعض ويرى على أحد وجوه كل معبد درَجٌ مؤدية إليه ، ويرى جوانب الدرج

تمثالٌ للآلهة والجنّ والإنس .



١٢٣ — بيجاپور . مزار السلطان محمود ( أنشئ في أوائل القرن السابع عشر ) ( بعد هذا  
المزار من أعظم مباني العالم ، ويشتهر بأبعاده الواسعة أكثر مما بجماله وزخرفته ، ويبدو مربع  
الشكل فيبلغ الجانب منه ستين متراً ، ويؤم على كل واحدة من زواياه الأربع مئذنة ،  
وأما قبة عرضها ٣٨ متراً وارتفاعها من الأرض ٦٠ متراً ، فيبدو  
بذلك أعلى من مسجد أباصوفة بالآسنانة )

وأما الطراز الثالث فيتألف من معابد حجرية تختلف عن طراز دينك الطرازين

اختلافاً تاماً ، فهي ذات طابع مبتكر ، فلا ترى للمؤثرات الصينية أثراً فيها ، أجل

إنك تبصر المؤثرات الهندوسية عملاً فيها ، بيد أن هذه المؤثرات ليست من الأهمية



بحيث تُخرجها عن طابعها الخاص ، وهذه المباني هي الوحيدة التي تشاهد فيها عمل المؤثرات الإسلامية لما فيها من القباب عرضاً .

ومن المتعذر أن نربط هذه المعابد الأخيرة بمثال واحد كما يبدو ذلك من الصور التي نشرناها ، ووصفها المشترك هو في إنشائها على أسس حجرية ذات عِدَّة طبقات وفي وجود تماثيل للحيوان والإنسان على جوانب درجها كما في المعابد السابقة . وليس للمعابد الحجرية ما للمعابد الآجورية ذات السقوف المُنصَّدة بعضها فوق بعض من المنظر الغليظ فتكلمنا عنها آنفاً ، ويمكن عدُّ المبدع القائم أمام قصر الملك في بَنّ من أهم مباني الهند شكلاً ، ويُزَيَّن طبقاته المُتَكَمِّسَ مَعْصُها فوق بعض ( وهذا ما اتخذ مبدأً لفن البناء في نيبال على ما يظهر ) قباب ذوات منظر رائع ، ولم يَبْدُ أثر طراز الشمال الهندوسي في غير الهرم ذي الوجوه المستديرة المخطوط الذي يعلو هذا المبدع .

ومن الصعب أن نُعيِّن تاريخ معابد نيبال ، ولونقريباً ، نَعَم ، يمكننا أن نقول ، بوجه عام ، إن مزارات نيبال تصف السكورية قديمة جداً ، أي معاصرة للقرن الثاني من الميلاد لا ريب ، وإن معابد نيبال الآجورية وانخشبية أحدث من تلك ، أي أقيمت بعد القرن الخامس عشر ، ولكن من المتعذر تحديد تاريخ المباني التي شيدت بين ذينك القرنين ، فظلَّ أمر هذا التاريخ مشكوكاً فيه .

وتغشى معابد كُهرَبَات مدن نيبال وبيوتها وقصورها نقوش وزخارف زاهية ، وصُنِّعت أبواب قصور نيبال من صفائح بر ونزية منقورة نَقْراً دقيقاً ، ويقوم أمام هذه الأبواب حجارة ضخمة تعلوها تماثيل ، ويتجمع أكثر تلك المباني ، في الغالب ، ضمن مساحة قليلة فيتألف منها منظر رائع ، وتراني قد زُرت أشهر مدن الشرق في

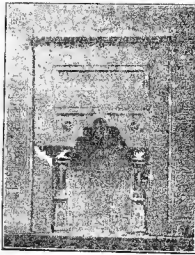
أنشاء سياحاتى ، فلم أجد لمدينة فى الشرق من الأثر الجميل فى نفسى كبعض مدن نيپال ولا سيما بهتن ، أجل ، إن فى الجزئيات غلظة أحيانا ، مع عدم وجود ما يستطيع أشدُّ النقّاد تطرفاً أن ينتقد به نقوش الأعمدة ، ولكنى أقول مكرراً إن المجموع طابعاً رائعاً شاملاً للنظر .

وقد نشرنا فى هذا السّفر صوراً أشهر مباني نيپال ، أى أشهر ما أقيم منها فى كهات ماندو وبهات غانو وبهتن وبشوبتي الخ . مستندين إلى صورنا الفوتوغرافية .

## ٧ — فن البناء الهندوسى الحديث

رجع فن البناء ، كأكثر الفنون الهندوسية ، إلى الوراء رجوعاً سريعاً منذ تمام الفتح الإنكليزى للهند ، أى منذ نحو قرن واحد ، ولهذا الانحطاط الهائل سببان : أولهما تدرّج أمراء الهند وأشرافها إلى الفقر ، فبؤلا السادة إذ جرّدوا ، على الأكثر ، من دخلهم اضطروا إلى العدول عن إنشاء مثل تلك المعابد والقصور العجيبة التى هى عنوان التّراء ومظهر غنى البسلاد فى الغالب ، وثانيهما اعتماد الأقلين منهم ، الذين بقى لهم من المال ما يستطيعون أن يشيّدوا به قصوراً ، أن تفوق الأوربيين فى السلاح يتضمن تفوقهم فى الفنون ، فرأوا أن يقلدوا ما أقامه الإنكليز من الأبنية العامة الثقيلة ، فكان ما نراه من قصورهم الحديثة الشنيعة ، ومن هذا أن راجه غواليار ، الذى هو من أقوى الأمراء الحاليين ، قد تعامى عما أمام عينيه من مباني الهند الرائعة فلم يجد غير إقامة قصر على طراز إحدى مباني لندن السكريبية ، ومن هذا ، أيضاً ، أن أمير إندور بنى له قصراً على الطراز الأوروبى فكان أبشع ما رأيت فى الهند مع عدّه إياه ، لاريب ، أجمل ما فى عاصمته .

ومن الطبيعي أن يسير أغنياء الهند على تلك السُّنة ، ظانِّين أنهم يقيمون الدليل بذلك على بلوغهم درجة رفيعة من الحضارة وعلى نهوضهم فوق مستوى أبناء وطنهم ، فتبصرهم مُنْشِئون بيوتهم على طراز أوربي سقيم ممزوج بما لا يلائمه من الزخارف الإسلامية .



وتصرف فاسد كهذا يؤدي ، لاربيب ، إلى انحطاط فنِّ العمارة الهندوسية انحطاطاً تاماً سريعاً ، وفنُّ عمارة كهذا ، إذ كان لا يدوم إلا بتقدير قيمته يزول ، لاربيب ، إذا لم يُنسَج على منواله ، وليس على الباحث أن يكون نبياً ليبصر عطل الهند بعد جيلين أو ثلاثة أجيال من صانع ماهر فادر على إقامة بناء كتلك الآثار

١٢٤ - غور . محراب مسجد أدبنة ( القرن الرابع عشر من الميلاد ) ( غور عاصمة قديمة مهجورة مثل بيجانفر وكهجورا وبيجاپور ، ونفبر الآجام والأعشاب على مانها فستوى عليها استيلاء تاماً ، ولا ترى كبر أهمية لما بنى منها ( من مجموعة صور هنري رافينشو . )

القديمة التي لا تزال تَمَثِّلُ الهند وإن كانت أطلالها تَمَعَى في هذه الأيام .

حقاً أن انحطاط الفنِّ الهندوسى ترَجَّع إلى ما ذكرته من الأسباب ، ولا أعرف

غيره ، ومما يؤيِّد وجهة نظرى تلك هو أن أُخْرِيَّاتِ العمارات الهندوسية التي بُنِيَتْ في الهند قبل استفعال النفوذ الإنكليزى فيها تُنْشِئُ أن فنَّ البناء لم يكن في دور الانحطاط حين إنشائها .

وفي هذا الكتاب نشرتُ صورَ عدَّة مبانٍ شيدت في الهند منذ قرن ليطلع

القارىء على قيمة أخريات عماراتها ، وأهمُّ هذه العمارات معبدُ دورغا بينارس ومعبدُ أور بأمرتسر ومعبدُ هتھی سنغها بأحمد آباد ، أجلُّ ، إن هذه المباني من طُرُزٍ مختلفة أشدَّ الاختلاف ، بيدُ أنها تنطق بكال من الصنع يتعذر مجاوزته في أوربة ، وأحدثُ هذه المباني هو معبد هتھی سنغها الذى شيّد في أحمد آباد منذ أربعين سنة قترانى أشكُّ في وجود صانع ماهر في الهند يستطيع أن يُنشىء مثله في أيامنا .

هنا نختم ما أردنا قوله عن فنِّ عمارة الهند ، وهو ، كما ترى ، خلاصةُ رِيادى لعالم من المعابد والقصور الخيالية التى هى آثار جيل أَهْل ، وما أولئك الآلهة والإلهات والشياطين وذو الصور الرائعة المتوقعة أو المرهوبة التى تملأُ المعابد المُظلمة ، وما تلك الأساطير والأقايص التى تدور حولَ الملوك والأبطالِ فى المحاريب والمزارات الحافلة بالأسرار إلا شهودٌ على ماضٍ لا تقدّر على بعثه بغيرهم .

---

## الفصل الثالث المُعلوم والفنون

(١) العلم الهندوسى — مصادر العلوم الهندوسية — اقتبس الهندوس علومهم من اليونان والعرب — كيف وقع ذلك — عطل الهندوس من الابتداع العلمى — ممارستهم العملية — لا يجوز أن يبد تفوق أمة في فرع من المعارف دليلاً على مترواها الذهبى — (٢) الفنون الهندوسية — أهمية آثار الفن في بث حضارة أحد الأزمنة — يفصح رجل الفن عن احتياجات الزمن الذى يعيش فيه ومتاعره ومعتقداته — أهمية آثار الهندوس الفنية — أثر الهندوس البالغ في تحويل الفنون التى اقتبسوها من الأمم الأخرى — نشوء الفنون في الهند — النحت والتصوير — الفنون الصناعية — صناعة الحطب والمعادن والحجارة الخ.

### ١ — العلم الهندوسى

لا بطل من الفارسى أن يجد في هذا الكتاب ما يجد في كتاب « حضارة العرب » من فصول كثيرة عن حال العلوم ، فالعرب إذ نقلوا إلى الجامعات الأوروبية كنز العلوم المتراكمة الذى انتهى إليهم من العالم الإغريقى اللاتينى بعد أن وسعوا دائرته بما أضافوه إليه كثيراً كان من المفيد دراسة حال العلوم عندهم في إبان سلطانهم ، ولا نجد مثل هذه الفائدة عند الهندوس ، فالهندوس ، خلافاً للرأى

(٣٥)

القديم ، قد اقتبسوا معارفهم العلمية من الأمم التي كانوا ذوى علائق بها فلم يَعْرِفُوا كيف يُسَيِّرُونَهَا إلى الأمام ، فدراسة العلوم لدى الهندوس في زمن ما تَسْنِي دراسة لتاريخ علوم الأمم التي كانت لهم صلات بها مما يخرجننا من نطاق هذا السمر .

وَيُسَرَّ ما قلناه في فصل آخر عن مزاج الهندوس النفسى عدم إضافتهم شيئاً ذا بال إلى العلوم التي تَلَقَّوْهَا من الأجانب ، فالروح الهندوسية القوية في الفلسفة والدقيقة في الفنون عاطلة من الضبط والإحكام الضروريين للبحث المُجْدِي في العلوم ، ففي هذا سرُّ ضَعْف الروح الهندوسية في المعارف الهندوسية ، فالحق أن الروح الهندوسية إذا كانت قادرة على هضم ما وَصَلَ إليه غيرها من نتائج العلوم ، فإنها لا تستطيع أن تسير إلى ما هو أبعد من هذا .

والأمتان اللتان اقتبس الهندوس منهما معارفهم العلمية هما الإغريق والعرب ، وترانا نجهل كيفية انتشار العلم الإغريقى في الهند ، ولكن مباني شمال الهند الشرقى التي درسناها في فصل آخر تُثَبِّت أن الهندوس كانت لهم صِلات دائمة بإغريق بقطريان ، فمن المحتمل أن يكون العلم الاغريقى قد انتقل إليهم عن هذه الطريق ، فكان ما تَلَقَّوْهُ من امتلاء أقدم كتب الهندوس في الفلك ، ككتب وراها ميهيرا الذى عاش في القرن السادس بأجين ، من الاصطلاحات والمراجع الإغريقية .

وأسهل من ذلك بيان الكيفية التي انتقل العلم بها إلى الهند بياناً صحيحاً ، فالعرب ، كما قلنا في فصل سابق ، كانت لهم قبل الميلاد بزمن طويل صِلات تجارية مُنظَّمة بالهند ، وبواسطة العرب كان الغرب يتَّصل بالشرق في القرون القديمة ، فلما فتح أتباع محمد العالم القديم ، بعد حين ، دامت صلة إحدى الأمتين بالأخرى ،

فَرَوَى مؤلفو العرب وجود كثير من علماء الهندوس في بَلَاط الخلفاء ببغداد ، ولما مَرَّتْ الأيام ففتَح ورثة الخلفاء من المسلمين الهندَ تَمِعَهُم علماء فداوموا على نشر معارف الغرب فيها ، ومن هؤلاء العلماء أذكر البيرونيَّ الشَّهيرَ صديقَ فاتح الهند الأول محمود الغزنويَّ ، فقد سَاحَ هذا العالمُ في الهند في القرن الحادى عشر ونشر فيها علوم العرب التى كانت مزدهرة في ذلك العصر أيما ازدهار ، فسكانت تقوم على ما ورثه العربُ من معارف الغرب القديم وما أضافوه إليه من الاكتشافات ، فبذلك أضْحَى العلم الهندوسى لا يكون بعد القرن الحادى عشر غير علم العرب .

إِذَنْ ، ليست كتب العلم الهندوسى ، التى تَتَرَجَّحُ بين كتب آرياهانا الرياضية المؤلفة في القرن الخامس من الميلاد وكتب برهاغبتا المؤلفة في القرن السادس وما أُلِفَ إلى أيامنا ، غيرَ مشتملة على سوى المعارف العلمية التى دخلت الهند بتلك الطُرُق ، وأهم تلك الكتب معروفٌ لدينا اليوم ، وأَعْرِفُ منها أن مؤلفيها لم يحققوا فى أى علمٍ أىَّ تقدمٍ يُذَكَّر ، وما كان يدور حول قِدَمِ علم الفلك الهندوسى ودقته من الأفكار قد أَهْمَلَ تِجَاهَ الدَّرَاسَاتِ التامة فأصبحت هذه الأفكار غير جديرة بعناية أحد .

ولا تبدو القضايا العلمية الجديدة القليلة جداً ، التى تُرَى فى كتب الهندوس ، إلا على شكل أمَحَاتٍ مُبهمة عاطفة من أىَّ برهان ، ومن ذلك أن العالم الفلكى آرياهانا ذكر في القرن الخامس ، فى بضعة أسطر ، حركة الأرض اليومية حول محورها من غير أن يأتى بدليل ، ومن ذلك أن بهاسكراچاريه جاء فى القرن الثانى عشر ، كما يظهر ، برأى مُبهم حول حساب السكبية الصغرى من غير أن ينتهى إلى شىء .

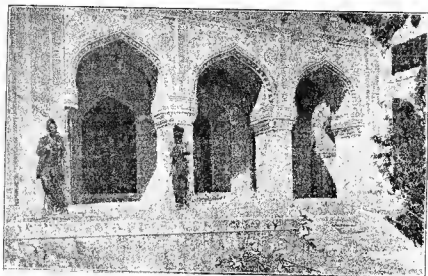
ومما نقدم ترى أنه يجب ألاَّ يُعزَى إلى الهندوس ، على العموم ، أى إبداع فى حقل العلوم ، والهندوس ، إذ لم نقدر على إسناد أى شىء أساسى إليهم ، نرى من غير المفيد أن نتكلم عن كتبهم العلمية التى لا نبصر فيها شيئاً لم نجد فى كتب اليونان والعرب .

وصَغَف قدماء الهندوس فى العلوم النظرية لم يمنهم ، مع ذلك ، من أن يكونوا ذوى معارف عملية على شىء من الرقى ، وذلك كما يبدو من فن عمارتهم القديم ومن فنونهم الصناعية ، فالهندوس كانوا يعرّفون صنع الزجاج والديباغة والتقطير واستخراج المعادن وصنع الفولاذ وتحضير بعض الأملاح المعدنية ، بيد أن هذه المعارف العملية ، التى هى وليدة التجربة ، والتى تعدُّ مصدر غير واحد منها أجنبياً ، ظلت بعيدة من ميدان النظريات والمبادئ العامة بُعداً لا تستحق معه أن تسمى بالعلم ، أجل ، إن التجربة قد تُعلِّم الصبى استعمال العصا فى إزاحة حجر واستعمال مقذّفين فى دفع زورق واستعمال سكرّة فى رفع الأثقال ، غير أن هذا الصبى لا يَصل إلى مرتبة المعارف العلمية إلا حين يعلّم أنب العصا والمقذّف والسكرّة تطبيقاتاً لمبدأ واحد .

وما أنيناه من الأحكام القاسية العادلة فى علم الهندوس وآدابهم غير ما أنيناه فى فنّ عمارتهم وما نقوله ، بعد قليل ، عن فنونهم الأخرى ، ولا يمتري القارىء العالم بروح الأفراد والأمم دَهَش من ذلك ، فوجود أمة تفضّل جميع الأمم فى جميع فروع المعارف البشرية لا تراه فى غير كتب التاريخ وخيال الجماهير ، وضلال كهذا مما يدل عليه الاختبار الدقيق ، ولا مراءى فى أن الأمة ، كالفرد ، تكون بحسب مزاجها النفسى متفوقة فى فرع من المعارف البشرية ، على أن تكون متأخرة فى



الدروع الأخرى ، ولا نجد أفضلية جامعة لكل فرع ، وغير كثير ما يبدو هذا في الحقل الذهني فتقدير على ربط فروعه في سلسلة واحدة ، نعم إنني أرى تفوق ذوات الثدي على الأسماك لما أجده من كون جهازها العصبي أرق من جهاز الأسماك العصبي ، ولكنني إذا ما قايست بين فيدياس ونيوتن وديكارت وقيصر لم أجِد وسيلة لإثبات أيهم أفضل من الآخرين ، فالتفوق الفنى مستقل عن التفوق العلمى ، وكثيراً ما يناقضه ، وهو يتطلب ، بالحقيقة ، طرازاً تفكير وإحساس خاصاً وطراز



١٢٥ - غولكوندا ، دقائق زخرف في مقدم مزار ملكى

نظر إلى الحياة والأمور خاصة ، فيندُر أن يجتمع كلا التفوقين ، إذن ، فى أمة واحدة ، فالعالم يُعَدُّ الحوادث ويسمى فى رؤىة الأشياء كما هى غير مبالٍ بحماها وقُبْحها ، وعكس ذلك أمر المتفنين والشاعر اللذين يجدان فى تزيين الأشياء وإبدائها بمواطنهم على غير ما هى أو على ما هى فى أحوال شاذة ، وإلا عاد المتفنين لا يكون

متفتناً وعاد الشاعر لا يكون شاعراً ، حقاً أننا لا نَعْلَمُ أمةً وَصَّاتْ إلى مثل ما وَصَلْ إليه الأوربيون من الرقيِّ العُلَى في القرن التاسع عشر ، ولكن مما لا ريب فيه أن كثيراً من الأمم ، فضلاً عن الإغريق ، بلغت درجة من الفن أرفع من التي وَصَلْ إليها الأوربيون بمراحل ، فليس عصر البخار والكهرباء بالعصر الذي نَبْلُغُ فيه الفنون ذروتها .

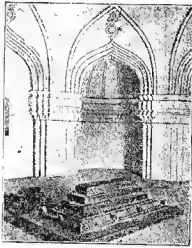
إِذَنْ ، يجب ألاَّ يُسْتَبْطَ بما قلناه أية نتيجة لمصلحة الهندوس أو لغير مصالحتهم ، فليس بتقدمهم الفنيِّ وحده أو بتأخرهم العلميِّ وحده ما يمكن الحكم في أمرهم .

## ٢ — الفنون الهندوسية

خصصنا عدَّةَ صَفَحات من كتابنا « حضارة العرب » لإثبات أهمية الآثار الفنية في بحث حضارة أحد الأدوار ، فقلنا فيه إن المتفنن والكاتب لا يصنعان غير الإفصاح عن مشاعر الزمن الذي يعيشون فيه واحتياجاته ومعتقداته على شكل منظور فنان ما انتهى إلينا من آثار أحد الأجيال الأدبية والفنية أحسنَ صفحات التاريخ ، ومما ذكرناه هنالك أن استقلال المتفنن والكاتب ليس في غير الظواهر ، وأنهما مُكَبَّلَان ، في الحقيقة ، بقيود من المؤثرات والأفكار والمعتقدات التي يتألف منها ما يسمى روح العصر القوية التي لا يستطيع أكثر الناس حرية أن يتخلص من سلطانها غير الشعوريِّ ، وأنه إذا كان لكلِّ جيل آدابُه وفنونه فلاَّ ن له احتياجاته ومعتقداته التي تُعَرِّبُ عنها ، ومما ذكرناه ، أيضاً ، أن فنون أحد العروق إذ كانت ، كنظامه ، وليدةَ مزاجه النفسيِّ فإن من المتعذر على عرق آخر أن ينتحلها من غير أن يُحوِّلها ، وأن

فنَّ العمارة العربيَّ لم يتحول في الهند وحدَّها ، بل تحول في مختلف البلدان التي فتحها المسلمون فكان هذا الفنُّ أحسنَ مثال على هذه المطابقات .

ثم درَّسنا في كتابنا « حضارة العرب » مزاجَ أحد العروق الفنِّ فوجدنا أنه يقوم على السرعة التي يضع بها طابعه الخاصَّ على الفنون السابقة التي يلتحلها منذ دخوله ميدان الحضارة ، وما ذكرناه هنالك أن بعض الشموب تقتبس من مختلف



الجهات ما يلائم احتياجاتها من غير أن تضيف إليه شيئاً جديداً وأن شعوباً أخرى تَمزُج العناصر الأجنبية بما يفيض منها فتَهرِّمُ هذا كله بطابعها الخاصِّ وتُسمِّى لا يكشف تلك العناصر الأجنبية معه غيرُ علم راقٍ ، وذلك كما اتفق للإغريق الذين اقتبسوا من الآشوريين والمصريين فنونهم ، وكما اتفق للعرب الذين هضموا الحضارة اليونانية

اللاتينية ، وغير ذلك أمر الترك وغيرهم من الشعوب العاطلة من البقرية الفنية ، وإيضاحاً لذلك نقول إنه إذا ما قسَّ أقدم مساجد القاهرة ، كمسجد عمرو بن العاص ، بآخرها ، كمسجد قايتباي ، ظهرت قدرة شعب ، كالعرب ذوي الاستعداد الفنِّ ، على تحويل الفنون التي اقتبسها من شعب آخر ، وإنه إذا ما قيسَت المساجد التي أقامها الترك في الآستانة بغيرها من المباني البيزنطية وُجد أنها نُسِختْ بدناءة من كنيسة أياصوفية مع إضافة بعض العناصر الأجنبية إليها إضافة تدلُّ على عَجْز الترك عن التحويل -

وقد رأينا أن الهند كانت محلاً لاستيلاء مختلف الفاتحين ، فلنا أن نجد في فنون

الهند عدة عوامل أجنبية ، بيد أن الهندوس كانوا من الدعاة ما قدروا به على جعل ما اقتبسوه ذا طابع هندوسى بسرعة ، وتناول دهاء الهندوس ، أيضاً ، المارة حيث يصعب إخفاء ماهو مستعار فيها ، فبدا أثره واضحاً فيها ، فلم يلبث العمود الإغريق الذى اقتبسه متفننو الهندوس مثلاً أن زالت عنه صفته الإغريقية متحولاً إلى عمود هندوسى ، والهندوس إذا ما وضع بين أيدي متفنيهم أية أداة فنية أوريسية أبصرت هؤلاء المتفنيين يُجَرِّدونها من صفتها الغربية بتجسيم بعض أجزائها وزيادة زخارف بعضها الآخر ، مع الرضى بشكلها العام على ما يحتمل .

وما اقتبسه الهندوس من العناصر الأجنبية فى فن البناء فقليل إلى الغاية أو محدود السكان على الأقل كما رأينا ، وما اقتبسوه منها فى الفنون الأخرى فعظيم جداً ، ولكن جميع ذلك لم يلبث أن تغيّر ما حوّلوه به فأصبح يتميزه متعلداً .

وإذا سألت عن مبدأ الزخرف الهندوسى العام رأيت به يتّصف بزيادة المبالغة وفراط الغلو فى الجزئيات التى هى أبرز ما تشاهده فى آثارهم الأدبية والدينية والفلسفية ، والمرء إذا ما درس فنون الهندوس على الخصوص أدرك درجة علانق آثار أحد المروق الشاخصة بمزاجه النفسى وأيقن أنها أوضح لسان لمن يستطيع أن يفسرها ، فالحق أن الهندوس لو غابوا عن التاريخ كالأشوريين لكفّت نقوش معابدهم البارزة وآثارهم الفنية وتمثالهم لإطلاعنا على ماضيهم كما نعرفه اليوم ، وأنت تعلم أننا توصلنا ، بدراسة التماثيل والمعابد ، إلى معرفة تاريخ البُدْهيّة معرفةً أصبح مما ورد فى الكتب .

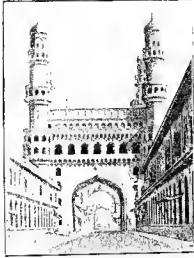
طلّت الهند أغنى بلاد العالم آلافاً من السنين ، وازدهرت الفنون فيها على الدوام مهما كان نوع الفن التى حرّكتها ، وما فتئت الأمم تبحث منذ أقدم أدوار التاريخ

عن أدوات الهند الفنية وحليتها ونسائجها حتى صار من الممكن أن يقال إنها استنزفت مال الدنيا في أئوف السنين ، أجل ، إن الثَّوَرَات ونبدال الأسر المالككة بما كان يؤدي إلى انتقال الثَّوَرَات بين حين وحين ، بيد أن هذه الثَّوَرَات كانت تبقى في الهند فيستعملها مالكوها الجُدُد ، كأسلافهم ، في شَيْد المباني والقصور واقتناء النفائس وتشجيع الفنون التي هي من أغنى مصادر البلاد ، وقد رأينا في الفصل الذي خصصناه للبحث في تاريخ المغازی الإسلامية الأولى درجة غنى الهند العظيمة ودرجة وقف هذا الوثى لأنظار الفاتحين .

واليوم صارت بلاد الهند أفقر بلاد العالم بعد أن كانت أغناها ، و بلاد الهند قد هزأت بعد أن حضمت منذ قرن لنظام مؤد إلى امتصاصها ، و بلاد الهند قد أخذت تستورد السَّاع من برمنغم ومانچستر وغيرها من المدن الإنكليزية بعد أن كانت تملأ العالم بمنتجاتها ، والهندوسى ، الذى أضجى عاجراً عن الوقوف أمام ما تنتجه الآلات الصناعية الأوربية ، طفق يعدل بالتدريج عن فنونه القديمة العهد داحلاً زمرة الأجراء والزرايع .

وقد بينا أن فن البناء شَرَعَ يغيب عن الهند منذ رسوخ الإنكليز فيها ، وسيكون مصير أكثر الفنون الأخرى مثل ذلك بعد زمن قليل على الرغم من تشجيع بعض ذوى النفوس الغيرة ، وما انفك كبراء الأمراء المحليين يفتقرون فلا يستطيعون أن يحثوا على التمسك بتلك الفنون ، وذلك فضلاً عن تملقهم لاسادة الهند الجُدُد باقتنائهم ما تُنتجه إنكلترة ، والسائح الأوربى ، الذى يدخل قصور الهندوس الفنية ، كقصر مهارا بأوديبور ، يقف مشدوهاً حيناً يشاهد فيها أسقاط الأتمعة الرخيصة الكريهة التي تخرج من الأسواق الإنكليزية بجانب عجائب الهندوس الفنية .

وَأَمْدَحَ الآنَ تلكَ القواعدَ السَّكَّانِيَّةَ الضَّرُورِيَّةَ لِتَفْهَمَ الفنونَ الهندوسِيَّةَ باحثِينَ  
فِي أَهْمِيَّاهُمَا بِاختِصَارٍ :

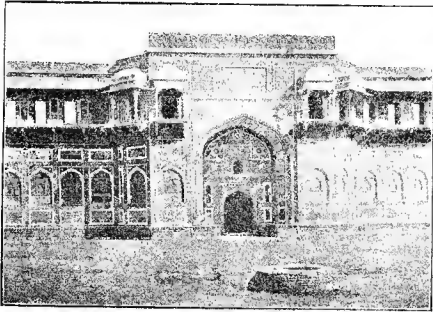


النحت . — لَاتَجْدَأَمَةٌ ، كَالْهِنْدُوسُ ،  
قَدْ اتَّخَذَتْ النُّحْتُ أَدَاةَ لِلزَّيْنَةِ ، فَمَا فِي مَعَابِدِ  
الْهِنْدُوسِ وَمِزَارَاتِهِمْ مِنَ التَّمَائِيلِ وَالنَّقُوشِ  
الْبَارِزَةِ يَعْدُّ بِالْأَلُوفِ ، وَيَحْصُرُ الْمَرْءُ تَحَاةَ  
سَكُوتِ السَّكَنِ الْبَاهِظَةِ فِي فُنُونِ الْهِنْدُوسِ  
عَنِ الْوَثَائِقِ الْخَاصَةِ بِالنُّحْتِ ، وَنَقِصُ كَهَذَا  
مِمَّا أُشِيرَ إِلَيْهِ فِيرَغُوسَنَ ، مِنْذُ زَمَنِ طُولِبِلَ ،  
مَنْ غَيْرَ أَنْ يَفْكَرَ فِي تَلَاْفِيهِ ، وَلَا نَسْتَطِيعُ  
أَنْ نَطْلُعَ عَلَى النُّحْتِ لَدَى الْهِنْدُوسِ بِمَا فِي  
بَعْضِ كُتُبِ الْأَسَاطِيرِ الْهِنْدُوسِيَّةِ مِنَ الصُّوَرِ  
الرَّدِيئَةِ الْمَطْبُوعَةِ بِالْوَلَوَاحِ الْحِجَارَةِ ، وَالَّذِي  
يُظْهَرُ أَنَّ صَانِي تِلْكَ الصُّوَرِ اخْتَارُوا أَرْدَا  
الْأَمْثَلَةِ فَتَجَمَّ عَنْ ذَلِكَ اعْتِقَادُ الْأَوْرَبِيِّينَ ،  
عَلَى غَيْرِ حَقٍّ ، أَنَّ النُّحْتِ الْهِنْدُوسِيَّ مَتَأَخَّرُ

١٢٧ — حيدرآباد . شهر منار والشارع  
السَّكَنِ . ( لَا يَكَادُ نَارِغُ وَجُودِ حَيْدَرِآبَادَ  
يُزِيدُ عَلَى ثَلَاثَةِ فُرُوسٍ ، وَنَبْدُو مَدِينَةُ الْهِنْدِ هَذِهِ  
ذَاتُ طَوَاعِ الْفُرُوسِ الْوَسْطِيِّ الْإِسْلَامِيِّ إِلَى أَمْدٍ حَدٍّ  
مَعَ ذَلِكَ ، وَتَشْرِفُ هَذِهِ الْمَدِينَةُ ، وَهِيَ  
الَّتِي أُنْشِئَتْ فِي أَوَائِلِ الْفُرُونِ السَّابِعِ عَشَرَ ،  
عَلَى شَارِعِهَا الْكَبِيرِ ، وَبِنَافِ مِنْ حَتَائِهَا  
فُوسُ نَصْرٍ مَطْلَعَةٌ عَلَى جَمِيعِ الشَّارِعِ ، وَبِيلُغُ  
اِرْتِفَاعِ الْحُبَّةِ الْكَبِيرِ ١٥ مِثْرًا ، وَبِيلُغُ اِرْتِفَاعِ  
كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ الْتَاوَرِ ٥٦ مِثْرًا )

إِلَى الْغَايَةِ ، فَأَطْمَعُ ، وَالْحَالَةَ هَذِهِ ، أَنْ يَبْدُوَ لِلْقَارِئِ مِنْ صُورِ التَّمَائِيلِ الَّتِي نَشَرْنَاهَا  
فِي هَذَا الْكِتَابِ خَطَلُ ذَلِكَ الْاِعْتِقَادِ ، فَقَدْ وَجَدْتُ ، بِجَانِبِ مَا فِي هُيُونِشُورَ  
وَسَانْجِي وَإِيلُورَا وَأَجَنْتَا وَبَادَامِي وَكِهْجُورَا وَكُنْهِيَا كَوْنَهُمُ الْخ . مِنْ آثَارِ الْفَنِّ الرَّدِيئَةِ ،  
آثَارًا فَنِيَّةً رَاقِيَةً لَا يَقْدِرُ رِجَالُ الْفَنِّ بِأُورَبَةِ عَلَى إِنْكَارِ أَهْمِيَّتِهَا ، وَمَا فِي أُرْدُفِيرِي

وبهارت وسانچي ومهايلي بور من النقوش البارزة التي نشرناها في هذا الكتاب  
يُعَدُّ في كل بلد من أرقى الآثار لاريب .



١٢٨ - أغرا . ، قدم القصر الأحمر في القلعة ( تبدأ بهذه الصورة صور مباني العصر المغول  
أى مباني الهند الإسلامية منذ القرن السادس عشر ، ويمزو بعض المؤلفين لإنشاء القصر الأحمر إلى  
الملك جهانكير ، ويرى كثيرون أن هذا القصر أقدم من زمن ذلك الملك بقرن واحد ، وبلوح انا  
أن هذا القصر هو أقدم مباني المغول بأغرا ، وترى أنه شيد على حسب النماذج الهندوسية التي  
هي أقدم منه ، فهو لا يختلف عنها إلا بما أصب إليه من الأمواس الفارسية . )

وإذا نظرتَ إلى تلك التماثيل من الناحية التشريحية وجدتَها غير مرضية  
وأبصرتَ فيها الأدلة على روح المغالة العريضة على المهندس فترى الصدور والأوراك  
في تماثيل النساء ناميةً نموًّا لا تشاهد مثله في الطبيعة ، وترى الآلهة ذات الأذرع  
الأربع مما يَكرهُه الأوروبي ، غير أن أكثر هذه الصور ذوات حَيَوةٍ شاملة للنظر ،  
فعى ، من هذه الناحية ، على خلاف تماثيلنا المتصلبة الكتيبة المصنوعة في القرون

الوسطى وعلى خلاف أكثر ما فى مصر ، وفى عالم الآلهة والأبطال والإلهات التى تملأ المعابد أكثر الأطوار حياة والأوضاع تنوعاً ، فَيُخَيَّل إلى الناظر إليها أنها نولك أن تنزل من قواعدنا لتتقدم نحوه ، نعم ، إن المنقاش الإغريق أدق وأضبط ، وإسكنه ، فى الغالب ، أبرد .

ومن غير المنيد أن نُسهب فى القول عن التماثيل ، فمعدى أن عرض صورة صادقة لها أفضل مما يقوم به نقد الفن ، فلعل القارئ الذى ينظر إلى صور التماثيل التى نشرناها فى هذا الكتاب يصبح ذا رأى صائب فى الموضوع .

وبالبحث حينئذ يدرس صور التماثيل التى اشتمل عليها هذا السفر ويدقق فى التواريخ التى ذكرت تحتها يرى ، لا ريب ، أن قيمة هذه التماثيل ليست بحسب أزمنة صنعها ، فبينا يشعر بروعة أقدمها ، أى بروعة التى أقيم منها فى بهارت وسانجى منذ ألفى سنة تقريباً ، يرى رداءة ما أقيم منها فى جبل آبو فى القرن العاشر وحسن ما أقيم منها فى كهجورا فى القرن العاشر أيضاً ، وفيما أقيم منها فى معابد جنوب الهند حديثاً ما هو جميل وما هو كريه فالحق أنك لا تجد أثراً ظاهراً للتطور فى فنون الهند كما أنك لا تجد أثراً ظاهراً للتطور فى آدابها .

التصوير . — تذكرُ التصوير القديمة فى الهند مع كثرة الآثار القديمة المنحوتة فيها ، ولا تجد من التصوير فى الهند غير ما هو على حيطان معابد أجناتا التى أنشئت تحت الأرض فى القرن الخامس من الميلاد<sup>(١)</sup> ، ولا تناظر فى هذه التصوير وإن

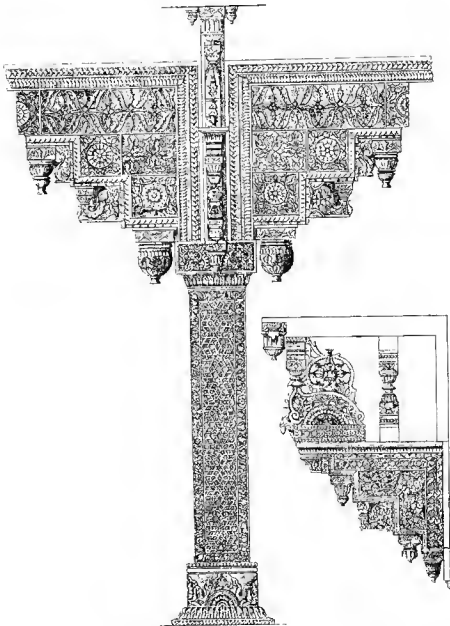
(١) لم نقلت هذه النساوير المنازة الرسومة على الجدران من يد الرمن المحترفين مع تعددها الزمن ، فاعليه هؤلاء الرمون من فلة الحذق فى ملائها أسفر عن إنلاف لم تسفر عن مثله عشرة فرون ، فلما زرتها وجدت الطلاء ينتشر من كل ناحية باذبا التصوير معه فرأيت أجزاء هذا التصوير تراكم على الأرض .



أَتَقَنَّ رَسْمَهَا وَكَانَتْ تُشْعُّ حَيَاةً كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ مِنَ الصُّورِ الَّتِي نَشَرْنَاهَا لَهَا ، وَهَذِهِ  
التَّصَاوِيرُ أَفْضَلُ مِنَ التَّصَاوِيرِ الِإِيزَنْطِيَّةِ الْبَارِدَةِ ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي أَوْرَبَةِ  
حِينَ صَنَعَهَا رَسَّامٌ قَادِرٌ عَلَى وَضْعِ مِثْلِهَا .

وَمِنْ دَوَاعِي الْأَسَفِ أَنَّ ضَاعَتِ التَّصَاوِيرُ الَّتِي رُسِمَتْ فِي تَارِيخٍ مُتَأَخِّرٍ ، وَمَا  
فِي أَقْدَمِ الْخُطُوطَاتِ ، الَّتِي لَا تَرْجِعُ إِلَى مَا قَبْلَ الْمَغَازِي الْإِسْلَامِيَّةِ ، مِنَ التَّصَاوِيرِ  
لَا يُجِيزُ لَنَا أَنْ نَفْتَرِضَ أَنَّ الْهِنْدُوسَ أَصْبَحُوا أَرْقَى مِنْ أَسْلَافِهِمْ بَعْدَ زَمَنِ ، وَتَفْرَجُ  
الْهِنْدُوسُ فِي الْعَصْرِ الْمَغُولِيِّ عَلَى رَسَامِي الْقَرْسِ فَكَانَ مَا رَسَمُوهُ ابْتِدَائِيًّا عَاطِلًا مِنْ  
التَّنَاطُرِ وَالْإِنْجَامِ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ دَقَّةٍ ، فَالْحَقُّ أَنَّ الْهِنْدُ بِتَّصَاوِيرِهَا وَأَدَابِهَا ظَلَّتْ فِي  
حَالٍ مِنَ التَّطَوُّرِ مِمَّا نَلِإِ لِمَا كَانَتْ عَلَيْهِ أَوْرَبَةُ فِي الْقُرُونِ الْوَسْطَى .

الْفَنُونُ الصَّنَاعِيَّةُ (صَنَعُ الْخَشْبِ وَالْمَعَادِنِ وَالْحِجَارَةِ الثَّمِينَةِ ، الخ ) . — يُقْصَدُ  
بِكَلِمَةِ « الْفَنُونُ الْجَمِيلَةُ » ، عَلَى الْعُمُومِ ، فَنُّ التَّصْوِيرِ وَفَنُّ النَحْتِ وَفَنُّ الْعِمَارَةِ ،  
وَيُقْصَدُ بِكَلِمَةِ « الْفَنُونُ الصَّنَاعِيَّةُ » بَعْضُ الصَّنَائِعِ ذَاتِ الْفَائِدَةِ الْعَاصِمَةِ كَالصَّنَاعَةِ  
وَالنَّجَارَةِ وَالتَّرْصِيعِ وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ اللَّيْثَنِ الَّتِي نَقُومُ عَلَى بَعْضِ الْمُنَاجِجِ الْآلِيَّةِ ، بَيِّنْدُ  
أَنَّ هَذَا التَّنْصِيفَ إِذَا كَانَ مُلَاحَظًا لِمَا فِي الْغَرْبِ الَّذِي يَتَدَرَّجُ إِلَى الْعَمَلِ الْآلِيِّ فَإِنَّهُ  
لَيْسَ كَذَلِكَ بِالنَّسْبَةِ إِلَى صُنَائِعِ الشَّرْقِ الَّتِي نَقُومُ عَلَى حِذْقِ الْعَامِلِ ، فَمَا لَا جِدَالَ فِيهِ  
أَنَّ الْقَرْنَ مُسْتَقِلٌّ عَنْ تَطْبِيقَاتِهِ ، فَتَرَانِي أَعْلَمُ أَنَّ صَنَعَ إِنَاءٍ مُرْصَعٍ أَوْ مِقْبَضٍ خَنْجَرٍ  
قَدْ يَتَطَلَّبُ مِنَ الْفَنِّ وَالْخِيَالِ ، مِثْلًا ، أَكْثَرُ مَا يَتَطَلَّبُ إِِنْشَاءُ بِنَاءٍ ذِي خَمْسِ طَبَقَاتٍ  
أَوْ إِِنْشَاءُ مَحْطَةٍ خَطِّ حَدِيدِيٍّ ، فَإِذَا اتَّخَذْتُ كَلِمَةَ « الْفَنُونُ الصَّنَاعِيَّةُ » عَنَوَانًا لِلْفَنُونِ  
الْحَقِيقِيِّ فَلِجَرَارَةِ التَّقْسِيمَاتِ الَّتِي اضْطَلَحَ عَلَيْهَا .



١٢٩ - أغرا ، دقائق عمود حجري منقوش في الفصر السابق

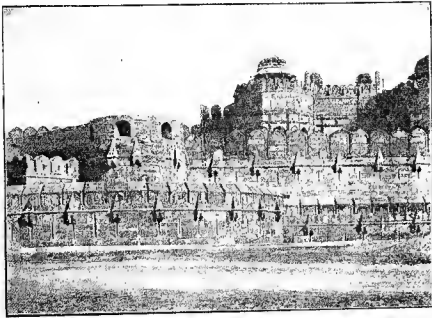
وما في المتحف الهندي بلندن من الآثار يجعل دراسة الفنون الصناعية الهندوسية أمراً سهلاً ، وبلغت دراسة هذه الآثار من الكمال ما لا يُفِيد معه تفصيل موضوع قتله بيرد وود وأجفالقى وكيلينغ وغيرهم من العلماء بحثاً وتحصيلاً ، فنحن ، إذ نحيل القارئ إلى كتب هؤلاء للوقوف على وصف تلك الآثار وصفاً صناعياً ، نقتصر في هذا الكتاب على البيان الإجمالي مُتمِّين له بصور مقتبسة مما في المتحف الهندي وما جلبناه في أثناء سياحتنا في الهند من الأدوات<sup>(١)</sup> .

ومن أكثر صناعات الهند استعمالاً منذ أقدم الأزمان أذكر صناعة المعادن فأضرب في الصف الأول ، وعلى ما أدت إليه الحروب والمغازي الكثيرة التي كانت الهند مسرحاً لها ، لا ريب ، من ندرة الأدوات القديمة لا تزال تلك من هذه الأدوات بعض ما صنَّع من المعدن قبيل الميلاد ، كالصندوق البذهي الذي وجد داخل قبة بذهية بوادي كابل مع نقود يُستدل منها أنه أنشئ حوالي منتصف القرن الأول قبل ظهور المسيح فنشرنا صورته في هذا الكتاب ، فهذا الصندوق قد صنَّع ، كأدوات تلك البقعة ، على حسب الفن اليوناني الهندوسي الذي أوضحنا أصوله في فصل آخر .

وحازت البقاع المجاورة لكابل ، ككشمير والبنجاب ، قصب السبق في صناعة الأدوات الذهبية والفضية كما تدل عليه النماذج التي نشرنا صورها في هذا السفر ، وفي الهند يصنع القوم أدوات الذهب والفضة والنحاس والبرونز بما يقضى بالعجب ، وفي الهند بعض المناطق ، ككتانجور في جنوب الهند ، اشتهر بصناعة البرونز المُرَصَّع بالنحاس الأحمر والفضة فنشرنا نموذجاً مُلوَّناً لها .

(١) أردنا ألا تقطع سلسلة صور المباني فوضنا صور الأدوات الفنية بعدها .

والقوم في الهند ، إذ كانوا لا يستعملون الفاشاني ولا الخرف المطلق بالمينا في أمورهم المنزلية راغبين في البرونز والنحاس ، تجد صناعة هذين المعدنين عندهم راقية ، فتُبصر حسناً ، أحياناً ، في بعض الآنية المستديرة المُخَصَّصة في أعلاها فتصُلح لحمل الماء وحفظه ، وما صُنع من هذه الآنية قديماً خيراً مما يُصنع اليوم فتراه اليوم نادراً إلى الغاية ، وفي المتحف الهندي بلندن من هذه الأواني ما يرجع تاريخه إلى القرن الثاني من الميلاد فصدّر عن كولو مشتملاً على أطوار من حياة بُدْهَة .



١٣٠ - أغرا . - نظر القلعة المملوكية الخارجية ( بدأ الملك أكبر بإنشائها في سنة ١٥٧١ )  
ولم يقتصر حِذْق الهندوس على صناعة الذهب والنحاس والبرونز وحدها ، بل كانوا ماهرين في صناعة الحديد أيضاً ، وذلك كما يظهر من العمود الحديدى الشهير الذى أمر بصنعه الملك دِهاوا فيُرى الآن في مسجد قطب القديم بدلى ، فهذا العمود

قد أنشئ في القرن الرابع من الميلاد ، ولم يسطع الأوريون أن يصنعوا ما هو بصحاته إلا منذ زمن قريب بفضل ما انتهوا إليه من الوسائل الكثيرة التعقيد .

وصناعة ترصيع المعادن المعروفة بصناعة التكفيت ، وصناعة تلبس المعادن نليسياً جزئياً أو ترصيعها بالمينا السكثيف أو الشفاف<sup>(١)</sup> مما زاولته الهند منذ زمن طويل بانقان لم يوفق الأوريون لمثله قط .

وصناعة الخلي في الهند ، وإن لم تنتج ما يلائم الذوق الأوربي ، تساوى بدقتها أهم ما يُصنع في أوربة لا ريب .

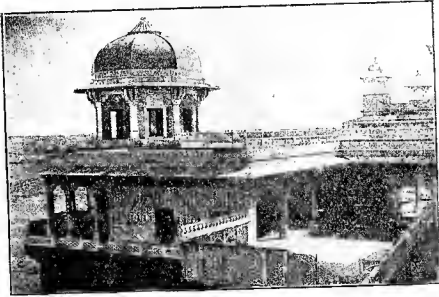
ويصنع الهندوس الزجاج ويذبتون الحجارة السكرية ، وفاق الأوريون الهندوس في ذلك ، لا في صناعة العاج والخشب المرصع .

وأعدت الأسلحة الفولاذية من أهم ما تنتجه الصناعة الهندوسية ، لا من حيث غنى زخرفها وجمال ترصيعها وحدها ، بل من حيث نوع فولاذها الذي طبقت شهرته القرون القديمة بأجمعها أيضاً ، وعند برد وود أن نصال دمشق الذائعة الصيت كانت تُصنع من الفولاذ الهندوسي ، وامتدح كُتّاب الإغريق فولاذ الهند ، وكان يُستحصل أجوده بالحديد الممّقط .

ولم يلبث الهندوس أن انتحلوا جميع الصنائع التي عرفت لها الأهم الفاتحة للهند فأنت بها من بلاد فارس أو من أوربة فحوّلوها كما أشرت إلى ذلك آنفاً ، ولا يزال القوم

(١) تألف من الأدوات المعدنية المكفّنة أو المطبقة بالمينا . من الصناديق الحشوية المحفورة ولاسيا صندوق مبسور الذي استوحى صانوه وجوهه تمانيل مبد هلايد أهم الأدوات التي عرضت في ساوت كنديغتون سنة ١٨٨٦ .

يزاولون في أغرا صناعة ترصيع الرخام الأبيض ، التي هي من أصل إيطالي ، بالحجارة الثمينة كالزبرجد والفيروز واليصب والعقيق والجمشت واللازورد النخ . وفي أغرا بلغت هذه الصناعة درجة رفيعة أيام ملوك المغول ، فكان هؤلاء الملوك يُلبسون قصورهم تلك الزخارف ، ويمكن القارىء أن يدرك تأثير ذلك في النفس من صورة داخل قصر ملوك المغول بدهلي .



١٢١ - أغرا . قبة القصر المغول الرخامية في داخل المدينة ( القرن السادس عشر من الميلاد ) ولا تزال الهند تصنع النسيج الحريرية والبسط والشالات باقان لم يتفق مثله للغرب إلا بمسقة ، بيد أن تقليد الأوربيين لهذه المنتجات الفاخرة وبيعهم ما يقلدونه بشئ بخس مما يندّر بأفولها في وقت قصير .

ومع أن القوم يمارسون صناعة الخزف في كل مكان بالهند فإنهم دون الأوربيين فيها ، وتجد ، مع ذلك ، روعة في كثير من مصنوعاتهم الخزفية الملونة .

وذاع فنُّ ستر المباني بالتخزفِ المِطلىّ بالمينا في شمال الهند الغربي منذ الفتوح الإسلامية ، وأصلُ هذا الفن فارسيّ كما تشهد به أطلال أقدم القصور ببلاد فارس ، وقد استُبدلَ طلّيُّ الجصِّ بهذا الفن في الوقت الحاضر كما تشهد بذلك الضرائحُ الملكية العصرية في غولكوندا مثلاً ، وليس في طراز الزينة هذا ماهو متين مع أن الخِزفِ المِطلىّ بالمينا لا يَفْنَى ، وما تراه في جميع الشرق من سِتر المباني بالتخزفِ المِطلىّ بالمينا ، كما في جامع عمر بالقدس و بعض الأبنية بلاهور وقصر غواليار الخ ، من أروع ما يستوقف النظر ، فالمرء إذا ما أبصر من بعيد مُقدِّمَ تلك المباني الختلف الألوان كقَوْس قَرَحَ ظَنُّ أنه أمام قصر خياليّ شاده الجن ، ولا شيء يدل على فساد تريتينا المدرسية التقليدية أكثر من عطلنا من مهندس أوربيّ يحاول اقتباس أسلوب الرُّخْرُفِ العجيب هذا في قصر من قصور الغرب .



١٣٢ - أغرا . داخل مسجد الأواؤ  
(أنفى سنة ١٦٤٨) ( يبلغ ارتفاع العمود  
إلى أسفل الناج نحو ثلاثة أمتار و ٦٠  
سنتيمراً ) ( وجميع داخل المسجد من الرخام  
الأبيض ، وفيه مكتوب « لم ير مثله بناء منذ  
بده العالم » )

هنا نَحْنُ بمِثْنا في طراز بناء الهندوس  
وسائر فنونهم ، فهذه الفنون ، التي نَبَتَتْ  
في شعب من الشعراء والمتفنين قوياً الخيال  
والمشاعر ضعيف العقل ، أسْفَرَتْ ، ذات  
حينٍ كما في منام سحري ، عن عالم من  
العصائد العظيمة والنفائس الباهرة والخيالات  
الرائعة .

لن يعود الإنسان إلى صنع مثل تلك  
الآثار العجيبة التي هي وليدة ماضٍ يتوارى

مقداراً فقذاراً في ضباب الأجيال ، فيجب علينا أن نحفظ ببعضها على الأقل ، وإن  
تنازع الجيل الحاضر المادي في سبيل الحياة تنازعاً قاسياً لا يترك للإنسان مجالاً  
يرجع به بصره إلى تاريخ أجداده في بعض الأحيان ، فلن تعلم كيف نحترم بهذا  
التاريخ ، فلك الضرائح والحاريب الصامته في الوقت الحاضر وتلك التماثيل الطاعنة  
في السن وتلك النقوش البارزة الصائرة إلى الخراب فيكسرها المهندس بمؤله مستخفاً  
ليلاً انخداعاً فيمدّ عليها خطاً حديدياً هي وثائق ماضٍ صدرنا عنه ولا نلبث أن  
نصير إليه .

---



البَابُ السَّادِسُ  
الْمُهَنْدِلُ الْحَدِيثِ  
الْمُعْتَقَدَاتُ وَالنَّظْمُ وَالطَّبَائِعُ وَالْعَادَاتُ



## الفصل الأول

### مَزَاجُ الْهِنْدُوسِ وَالنَّفْسِ

كيف يمكننا أن نفد في مزاج الهندوس المسمى - فائدة البحث في الأمتال والنفس الشعبية - هذه الآثار هي صدى تجربة الشعب (١) القدر - مذهب الهندوس في الغدر - (٢) الخائن - ثبانه عند الهندوس - (٣) الحياة والمهرم والموت - (٤) عوامل سير الإنسان - ترجع هذه العوامل إلى الخوف والطمع والجوع والحب - (٥) النساء - قدوة كتب الهندوس على النساء - خبثهن وعدم ثباتهن - (٦) العلم والجهل - الهندوس يضعون العلم فوق كل شيء - احتقارهم للجهل - (٧) الغنى والفقر - أهمية الغنى - الموت عند الهندوسى خير من الفقر - (٨) السلوك الواجب في مختلف أحوال الحياة - مبادئ الأخلاق العامة - نتائج الفضائل والردائل - سلوك الإنسان نحو الناس - كيف ينزود إليهم - قائمة المداخلة والاحتراز - الصلوات ونماذجها - (٩) السباسة - سلوك الملوك نحو رعاياهم - وزراءهم وعمالهم - وسائل انتصارهم على أعدائهم - (١٠) مصدر الاختلاف بين دوايم الكتب الهندوسية ودوايم الكتب الأوروبية - الأدب عند الهندوس يستغل عن الديانة - الملائكة بين الديانة والأدب في أوروبا .

رسمنا ، في الفصل الذى خصصناه من هذا السّفر للبحث في صفات أهمّ عروق الهند الخلقية والعقلية المشتركة ، خطوط أخلاق الهندوس التى نشأت عن وحدة البيئات والنظم والمعتقدات ، وبيدنا في الفصول التى درسنا فيها تاريخ الحضارة نُصَحِّح هذه النظم والمعتقدات البلىء في غضون الأجيال .

والآن نتقدم في التحليل لتفهّم مزاج الهندوس النفسى فندرس الهندوسىّ في

مختلف أحوال حياته وفي تفكيره حول أحد المواضيع وفي نظره إلى الحياة وفي مبادئ سيره ، وإن شئت فقل باطنه .

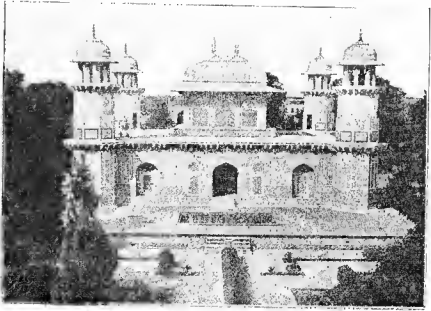
والحق أن ذلك الباطن يبدو لنا من دراسة الطباع والنفوس والعادات ، بيد أن الهندوسى دَوَّنَ في كتبه منذ زمن طويل نتائج تجاربه في الحياة ، والحق أن أخلاق الشعب تتجلى في جميع آثاره ، بيد أنه يجب البحث عنها في آثاره الأدبية على الخصوص .

وهذا القول لا يؤدي ، مع ذلك ، إلى الهدف الذى نسعى إليه الآن ، فالآثار الدينية والفلسفية تصدُر ، على العموم ، عن مؤلفين تقوّدوا العيش في عالم خيالى بعيد من العالم الحقيقى ، أجل ، إن القصائد الحماسية الكبرى وليدة البؤى الخالص الذى نبتت في الأدغة الهائجة المرددة لصدى الأزممة الناشئة فيها ، ولكن مع كبير تحريف ، ما أبدت لنا أشخاصاً مُعَايِنِينَ في مشاعرهم وأعمالهم ، وحقاً أن من الممكن أن يُستنبطَ منها الشيء الكثير أحياناً ، ما دام الشاعر لسانَ العالم الذى يحيط به ، ولكن على أن يكون ذلك مع تحفظ كبير .

ومن حسن الحظ أن بقى لدينا مصدرٌ معارف خير من ذلك مُعْبَرٌ عن أعمال الجماعة التى ظهر منها ، وأقصد بذلك الأمثال القومية والأفاصيص الشعبية ، وليس من غير سبب أن قيل إن الأمثال هى صدَى تجارب إحدى الأمم ، فالأمثال تُعْبَرُ بِإيجازها وتَحَلِّلُهَا القاسى عن أخلاق العرق الذى نشأت عنه وعن طباعه وأفكاره ، والأمثال تُكْرَرُ في كل مكان لملاءمتها لروح أبناء هذا العرق .

والشعب الهندوسى القِدْحُ المُمَلَّى في هذا النوع من الآداب ، فتجد في أساطير المندوس وأفاصيصهم الشيء الكثير من الأمثال ، ولا تجد في أمثال الهندوس

مثلاً ما تُعاب به آثارهم الأدبية الأخرى من التَّردُّد والغموض ، وكيف تكون هذه الأمثال مبهمّة مذبذبة وهي تُعَبَّرُ عن الأفكار العامة تعبيراً شعبيّاً ؟ والأمثالُ لن تكون شعبية إلا إذا كانت واضحة موجزة معاً ، والأمثالُ لن تصبح أمثالاً إلا بعد أن تُحقّق ألف مرّة وتداولها الألسنُ طويلاً زمنٍ فتستقرّ على وجه مُعيّن .



١٣٣ - أغرا . مزار اعماد الدولة ( تم بناء هذا الأثر سنة ١٦٢٢ ، وأُنشئ من الرخام الأبيض المرصع بالحجارة الثينة ، ويبلغ ارتفاع مناوره نحو خمسة عشر متراً ، ولا يمكن قياسه بتأرجح من حيث أبعاده ، ونرى أنه يفوقه ببهاء أشكاله وذوق زخرفته ) .

إذن ، نَتَّخِذُ الأمثال دليلاً لنا في دراسة الروح الهندوسية ، ولن يَعْدِلَ هذه الأمثال ما يدور حول هذه الروح من المباحث ، فالباحث مهما يكن خُراً لا ينظر إلى الأمور إلا من خلال الأفكار التي تُدبَّت فيه بفعل البيئة والوراثة والتربية .

ويقوم عملنا على اقتطاف ما يدور ، كثيراً ، حول موضوعات الحياة المعتادة ، وعوامل السَّيَر في مختلف الأحوال ، ومبادئ الأخلاق والسياسة الخ . وذلك من كتب الهندوس ، ولا سيما من الپَنسَج تَنَترا والهِتُو پَدِيشا ، ثم تصنيف ذلك في مطالب خاصة ، ونحن لم نقتطف من ديوان مهابهارتا الحماسي والكتب الدينية والاجتماعية كالويدا وما نَوَا دَهَرماشاسترا الخ . غير ما يقرب من الآراء الشعبية التي جاءت في الپَنسَج تَنَترا والهِتُو پَدِيشا فِيمُنِيت قَدَم الآراء التي قيلت في بعض الموضوعات ، ومن هذا أن الأمثال الغريبة التي وردت في الپَنسَج تَنَترا حول النساء أَيْدَتَهَا تأملات المشرع الرزين مَنُو في دُستُوره الديني الذي ظلَّ شريعة الهند العليا عِدَّة قرون فَدَلَّ ذلك على أن تلك الأمثال شعبية ، فالحقُّ أن إحدى الحقائق إذا ما صيغت في قَالَبٍ مَثَلٍ أو حِكْمَةٍ أَمَكَنَّا أَنْ نَجْزِمَ بِأَنَّهَا نَصِجَتْ في أجيال كثيرة . وقد اقتصرنا على ما تقدم ليسكون مقدمةً للمختارات التي نَرَى تَجَلَّى الروح الهندوسية فيها ، وقد صَنَّفْنَا هذه المختارات في المطالب الآتية :

المصير — الخلق — الحياة والمهرم والموت — عوامل سَيَر الإنسان — النساء — العلم والجهل — الغنى والفقر — السلوك الواجب في مختلف أحوال الحياة — مبادئ الآداب العامة — السياسة .

## ١ — القـدر

إذا جاوزت بَضْعَ دَرَجَاتٍ من دوائر الطول وجدت جميع الشرقيين من القائلين بالقَدَر ، وهذه الجَبَرِيَّةُ مستقلةٌ عن دِيَانَةِ الشرقيين ما دمت ترى بينهم أمَّا

ندين بمختلف الأديان كالنصرانية والإسلام والهندوسية الخ . وهذه الجبرية ، وإن لم تُدَوَّنْ في العقائد الدينية على الدوام ، تُبَصِّرُهَا مطبوعة في النفوس ، والشرقيون جميعهم مُدَّعِبُونَ من المعتقد القائل إن الحوادث تسير على سُنَنِ ثابتة لا تنفع أمامها إرادة الإنسان ، فإذا سِرَّتْ من الروسى الذى ينحنى أمام القَدَرِ قائلاً : « ما العمل ؟ » فبلغت المسلم الذى ينحنى أمام القَدَرِ أيضاً فيقول : « هذا مكتوب ! » فوصلت إلى الهندوسى القائل : « لا يأتى ما لا يجب أن يأتى ، ويأتى ما يجب أن يأتى » وجدت جميع الشرقيين يَعُدُّونَ القدر سيداً مهيمناً ناضجاً لأعمال الناس بحكم الضرورة ، وإليك أهم ماورد في كتب الهندوس عن ذلك المذهب من النصوص التى لا تُبْطَلُ حركتهم كما أن جبرية العرب لم تَحُلْ دون فتحهم للعالم القديم .

« لا يأتى ما لا يجب أن يأتى ، ويأتى ما يجب أن يأتى ، فى هذا تزيق سموم الهوم ، فلماذا لا نستعمله ! » ( هتوبديشا )

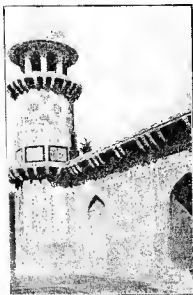
« كَتَبَ القَدَرُ على جباهنا سطرًا من حروف ، فإن يَقْدِرْ أذكى العلماء أن يَحْوِ » ( بَنْج تَنْتْرا )

« قد يَسْقُطُ الإنسان من فوق جبل وَيَقْرَقَ فى بحر ، ويرتمى فى نار ، ويُلاَئِبُ الأفاعى ، ولكنه لن يموت قبل أجله » ( هتوبديشا )

« النجاح فى الأعمال منوط بما يأمر به القَدَرُ ، وهذه الأعمال إذ نُطِمَتْ بأفعال الناس فى حَيَوَاتِهِم السابقة وبسلوكهم الراهن وأوامرُ القَدَرِ إذ كانت سِرّاً وَجَبَ على الإنسان أن يعتمد على وسائله فى السير . » ( مَنُو )

« على الإنسان ألا يَسْكُنَ عن العمل ولو فَسَكَّرَ فى القَدَرِ ، فإن تَسْتَخْرِج سِرّاً من سِمِئَةِ بغير عمل » ( هتوبديشا )

## ٢ — الخلق



قوة الميول الطبيعية التي يَنْجُمُ عنها ثبات الخلق سهلة الإدراك فلم تَغيب عن بال الهندوس ، فعى تنتقل إلى الإنسان بالوراثة فيأتى بها عند ولادته ، ولا تُؤدَّى البيئة التي يعيش فيها الإنسان إلى تعديل مظاهر خلقه ، ولا نجد اليوم ما يستلزم التفسير في ملاحظات الهندوس الآتية عن الخلق إلا القليل :

١٣٤ - أغرا . دقائق زخرف إحدى  
ماور البناء السابق ( يبلغ ارتفاع  
المنارة نحو ١٥ متراً )

« لا يُغَيَّرُ الأمر الطبيعي بالمشورة ،  
فالماء الحارُّ يعود بارداً » ( يَنْجُ تَنْقُرَا )

« لو أصبحت النار باردة وصار القمر مُحْرِقاً لَأَمْكَنَ تَبْدِيلُ طَبِيعَةِ النَّاسِ فِي هَذِهِ  
الدُّنْيَا » ( يَنْجُ تَنْقُرَا )

« يجب اختبار الميول الطبيعية وحدها ، لا الصفات الأخرى ، فالواقع أن  
الطبيعيَّ يَغْلِبُ غيره من الصفات ويتبوأ مكانه في الرأس » ( هِتُوْدِيشَا )  
« يَصْمُبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَتَغَلَّبَ عَلَى غَرِيزَتِهِ الطَّبِيعِيَّةِ ، فَلَنْ نَسْتَطِيعَ أَنْ  
نَحُولَ دُونَ قَرَضِ الْكَلْبِ لِلْأَحْذِيَّةِ وَلَوْ جَمَلْتَهُ مَلِكَا . » ( هِتُوْدِيشَا )



« يَدُلُّ قُتْدَانُ المَوَاطِفِ النَبِيلَةِ وَغِلْظَةُ القَوْلِ والقِسْوَةِ وَنَسِيَانُ الواجِبَاتِ عَلَى رَجُلٍ وَلَدَ مِنْ أُمٍّ جَدِيرَةٍ بِالِاحْتِقَارِ » (مَنْوُ)

« يَرْتَرُّ الْإِنْسَانُ الَّذِي هُوَ مِنْ أَصْلٍ سَاقِطٍ طَبِيعَتَهُ السَّيِّئَةِ عَنْ أَبِيهِ أَوْ عَنْ أُمِّهِ أَوْ عَنْ كِلَيْهِمَا ، فَلَنْ يَسْتَطِيعَ إِنْسَانٌ كَذَلِكَ أَصْلَهُ . » (مَنْوُ)

### ٣ — الْحَيَاةُ وَالْهَرَمُ وَالْمَوْتُ

يشتمل هذا المطلب على آراء عامة في الحياة وإدراك السعادة والهَرَمَ والموت ، وبعض هذه التأملات قائمٌ ، ولكن الحياة ، كما يبدو ، قد صُوِّرَتْ فيها تصويراً حقيقياً بعيداً من التفاؤل والنشازم فجعلتُ أمراً لا يُستفاد منه غيرَ ثانية ، فيجدرُ بالإنسان أن يُسْرِعَ في التمتع به ، والحياةُ على ما فيها من البُطْلَانِ تُؤَلِّفُ النعيمَ الأعلى الذي يرى حكماؤه الهندوس أن يُضَحَّى بكلِّ شيءٍ في سبيله .

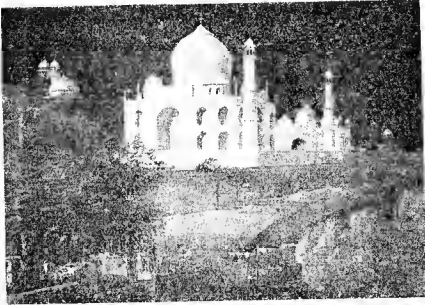
« يَكُونُ قَارِئاً لِكُلِّ شَيْءٍ ، عَالِماً بِكُلِّ شَيْءٍ ، مُمَارِساً كُلَّ شَيْءٍ مِنْ رِغْبٍ عَنِ الرِّغَائِبِ وَبِعِيشٍ بِلَا أَمَلٍ » (هِتُو بِدِيشَا) .

« مَنْ لَمْ يَحْزَنْ فِي الضَّرَاءِ وَلَا يَفْرَحْ فِي السَّرَّاءِ وَلَا يَخَفْ فِي الْبَأْسَاءِ كَانَ تِلْكَا الْعَوَالِمِ الثَّلَاثَةِ ، فَقَدْ لَدَّ أُمٌّ وَلَدًا كَهَذَا .

« الشَّبَابُ وَالْجَمَالُ وَالْحَيَاةُ وَالثَّرَاءُ وَالْقُوَّةُ وَالِاجْتِمَاعُ بِالْأَحْبَابِ أُمُورٌ زَائِلَةٌ ، فَيَجِبُ أَلَّا تَرْجِعَ رُوحَ الْعَاقِلِ » (هِتُو بِدِيشَا) .

« يَجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يُفَكِّرَ فِي الْعِلْمِ وَالْفَنِّ كَمَا لَوْ كَانَ غَيْرَ مُعَرَّضٍ لِلْهَرَمِ وَالْمَوْتِ ، وَعَلَيْهِ أَنْ يُمَارِسَ النُّضِيلَةَ كَمَا لَوْ كَانَ الْمَوْتُ مُنْكِكاً بِشَعُورِهِ » (هِتُو بِدِيشَا) .

« من ذا الذى لا يظهر طويلاً إذا نظر إلى تحته ، فالذين ينظرون إلى فوقهم  
فقراء على الدوام » ( هِنُو بَدِيشا ) .



١٣٥ - أغرا . تاج محل . ( بدأ الملك شاهجهان بإنشاء هذا الأثر المبنى من الرخام الأبيض المرصع  
بالفخياء حوالى سنة ١٦٣٠ ، وذلك ليسكون ضريحاً لأحدى نساائه ، وفام بينائه عشرون ألف  
عامل فى ١٧ سنة ، وعد أجمل مباني الهند ، وأرى أنه يولغ فى شهرته ، فشكاه على الطراز الفارسى  
مع قليل من الزخرف الهندوسى ، وهذا إلى أنك تحد شهباً بيته وبين المباني السابقة كزار ماهيون  
الذى نشرنا صورته « رقم ١٤٥ » )

« تشرب الأفاعى الهواء وهى غير ضعيفة ، وتأكُلُ الفئول البرية السكلاً  
اليابس فتصبح قوية ، ويعيش أكابر الرُّهَّاد بالجدور والفواكه ، فالتقناعة أعظم ثروة  
للإنسان » ( بَنَسْج تَنْتَرا ) .

« مَثَلُ من يقضى أيلمه غير ممتع بماله وغير مُتَعِم بشيء على الآخرين كمَثَلِ

السَّكِينِ<sup>(١)</sup> ، فهو يَتَنَفَّسُ من غير أن يَعِيشَ » (هَتُوْ بِدِيشَا) .

« ماهى الفضيلة ؟ هى الشعور مع جميع المخلوقات ، وماهى السعادة ؟ هى الصحة عند أهل الدنيا ، وماهى اللَّحَبَّةُ ؟ هى الإحساس الصادق الطبيعى ، وماهى المعرفة ؟ هى الإدراك » (هَتُوْ بِدِيشَا) .

« العقلاء لَا يَبْكُونُ مَا هَلَكَ وَلَا مَامَات وَلَا مَاضَاع ، فبهذا يَخْتَلِفُونَ عن الخانين » (بَنَجِج تَنْتَرَا) .

« لِيُتْرَكَ الْفَرْدُ لِلْأُسْرَةِ ، وَالْأُسْرَةُ لِلْقَرْيَةِ ، وَالْقَرْيَةُ لِلْبَلَدِ ، وَالْأَرْضُ لِنَفْسِهَا » (بَنَجِج تَنْتَرَا) .

« على العاقل أن يحافظ على حياته ولو فى مقابل ولده وزوجه ، فالأحياء إذا ما صَانُوا حياتهم وَجَدُوا كُلَّ شَيْءٍ » (بَنَجِج تَنْتَرَا) .

« أَيْبِقُ مَا يُنْتَجَبُ من أجله إذا عاد الجسمُ الْمُرَكَّبُ من خمسة عناصر إلى الْبِنْجَتُومِ<sup>(٢)</sup> ودخل المسكان الذى خَرَجَ منه ؟ » (هَتُوْ بِدِيشَا) .

#### ٤ — عواملُ سِيرِ الإنسان

ليس عند حكماء الهندوس رأىٌ عالٍ فى عوامل سِيرِ الإنسان ، فانخوف والطمع والجوع والحبُّ أهمُّ تلكَ العوامل ، والغَلَبَةُ للخوف بين تلكَ العوامل ، فلذلك كانت العقوبة لدى مَنْو النَّاطِلَةِ الْعُلَمِيَا لِكُلِّ مجتَمعٍ والقادرة على مَنْعِ الإنسان من الانحراف عن الواجب .

(١) السَّكِينُ : زق ينفخ فيه الخمداد .

(٢) الْبِنْجَتُومُ : هى الأرض والماء والغذاء والهواء والسماء (للتترجم)

« العقابُ مهينٌ على البشر ، فمن الصعب أن تجد رجلاً فاضلاً بطبيعته ،  
فبالخوف من العقاب يمكن العالم أن يتَمَتَّعَ بأطاييب النعم » ( مَنُو ) .  
« لا يُبْذَى الإنسان بحبة ولا عناية تجاه الآخر إلا خوفاً أو طمَعاً أو سِيراً وراء  
عامل خاص » ( بَنَسْج تَنْشُرَا ) .

« تَهْجُرُ الطيور الشجرة التي نَفِدَت أثمارها ، وتهجر السكرانُ كُيَ الغدير الذي  
جَفَّ مآؤه ، ويهجر النحلُ الأزهارَ الذابلة ، وتهجر الطباءُ طرفَ الغابة المحترقة ،  
ويهجُرُ الثَدَمَاءُ الرجلَ الفقير ، ويهجُرُ الخَدَمُ المَلِكَ الخلوَع ، فكلُّكم طُلَّابٌ صَيْدٌ »  
( بَنَسْج تَنْشُرَا ) .

« الريح تصاحب النار التي تَحْرُقُ الغاب ، والريح تُطْفِئُ المِصْبَاح ، فمن  
يُصَادِقُ الضعيف ؟ » ( بَنَسْج تَنْشُرَا ) .

« الإنسان لا يُحِبُّ الآخر إلا طَمَعاً في نفع منه ، والآلهة لا تستجيب إلا بسبب  
ما يُقَرَّبُ إليها من القرابين » ( بَنَسْج تَنْشُرَا ) .

« تدوم المودة بدوام المِيسَات ، فالعَجَلُ يهجر أُمَّه إذا نَفَسَ لَبَنُهَا »  
( بَنَسْج تَنْشُرَا ) .

« الإنسان ليس خادماً للإنسان ، بل خادِمُ المَال ، فالمرء يكون وجيهاً أو غيرَ  
محترم بحسب غناه أو فقره » ( هِتُو بَدِيشَا ) .

« الإنسانُ إذا كَذَبَ أو مَجَّدَ من لا يستحق التمجيد أو هاجر إلى بلد أجنبي  
فإنه يفعل ذلك في سبيل بطنه » ( بَنَسْج تَنْشُرَا ) .

« يسيطر الإنسان في هذه الدنيا على جميع أفعاله ما لم تَسَحَّرْ لَهُ امرأة بكلامها »  
( پَنُشِج تَنُتْرا ) .

« يصبح العقلاء والأبطال في المعارك من البائسين أمام المرأة » ( پَنُشِج تَنُتْرا ) .  
« يرى المرء ، الذي تُسَيِّرُهُ المرأة بكلامها ، غيرَ الجائز جائزاً والصعب سهلاً  
وغيرَ السائق سائقاً » ( پَنُشِج تَنُتْرا ) .

### ٥ — النساء

لا نجد كتاباً أسمى على النساء من كتب الهندوس ، والهندوس لا يختلفون عن بقية الشرفيين في النظر إليهن ، فالنساء عندهم مخلوقات ناعمات ، ولكنهن متأخرات متقلبات يجب حَجْبُهُنَّ لئيل وقائهن ، وما صدرَ عن المشرع الرزين مَنُو ، الذي تَسُودُ شريعته الهند منذ ألفي سنة فتقلنا بعمه مع بعض ما صدرَ عن علماء كثيرين ظهرُوا بعده بِعِدَّةِ قرون ، يُثَبِّتُ عدم تَبَدُّلِ رَأْيِ الهندوس في ذلك أصلاً .

« مَنُو جعل قِسْمَةَ النساء في حُبِّهن لفراشهن ومقعدهن وزينتهن وفي هوانهن وغضبهن وسيئ ميولهن ورغبتهن في الشرِّ والدَّعارة » ( مَنُو ) .

« النساء ذوات طبيعة متقلبة تَقَابِ أُمُوجِ البحر ، وللنساء مشاعر مذبذبة لا يَدُومُ أَكْثَرُ مِنْ سَاعَةٍ كَحُبِّ الشَّقِيقِ ، فإذا ما قَضَيْنِ أوطارَهُنَّ نَبَذْنَ الرِّجْلَ الذي يَصْصَحُ غَيْرَ نَافِعٍ لهن نَبَذَ اللَّيْثُ <sup>(١)</sup> بعد عصره » ( پَنُشِج تَنُتْرا ) .

« النساء يُكَلِّمُنَ رجالاً وينظرن إلى رجل آخر مضطرباً ويُفَكِّرُنَ في رجل ثالث مائل في خَلَدِهِنَّ ، فمن ذا الذي يُجِبُهُ النساء إِذْنَ ؟ » ( پَنُشِج تَنُتْرا ) .

(١) اللب . نقل نبات اللب ، وهو نبات يتخذون منه سمّاً .

« النساء منقلبات على الدوام ، ولا تَسْتَعْنِ منهنَّ نسوة الآلهة ، فَطَوُّ بِمَنْ يُحْسِنُ  
حَبَّ نِسائِه ، فالمرأة إذا كانت طاهرة فلرغبة الرجل عنها ، لالحيائِها وعفافها وفضلها  
ووجلها » ( هِتُوْ بِدِيشَا ) .

« يتساوى الجنون والسرطان والنَّيْلَجُ <sup>(١)</sup> والسَّكُورُ <sup>(٢)</sup> والمرأة عناداً »  
( بِنْجِج تَنْتَرَا ) .

« لا تُتَنَالَ النساء بالمطايا ولا بالرعاية ولا بالإخلاص ولا بالعناية ولا بالقوة ولا  
بالمبادىء ، فالنساء مخلوقاتٌ جاهحات » ( بِنْجِج تَنْتَرَا ) .  
« النساء كالبقرة التى تبحث عن السكلاً الجديد فى الغابة ، فالجديد ، الجديدُ ،  
هو ما يرغبن فيه » ( هِتُوْ بِدِيشَا ) .

« حبُّ المرأة ينطفيء بسرعة كوميض البرق ، فالمرأة تتكلف حبك مع تفكيرها  
فى غيرك ، والمرأة تضامك بين ذراعيها مع لَهْفها على منافس لك على ما يحتمل ،  
ولم تَرِيد مقاومة الطبيعة ؟ فالسُدْرَةُ لا تَزْهَرُ فوق ذُرْوَةِ الجبل ، والبغلة لا تَحْمِلُ  
أثقال الحِصَانِ ، والشعيرة لا تَنْبُتُ أَرْزَةً ، فلن تَجِدَ الفضيلة فى روح المرأة »  
( سُدْهَارْكَا ) .

« تَهْوَى المرأة الفاجرة رجلاً آخر على الدوام وترضى بذلك ، فلا تنال فى  
سبيل هواها بسقوط الأسرة ولا بَعْدُ النِّسَاء ولا بالسَّجْي ولا بالخاطرة بالحياة »  
( بِنْجِج تَنْتَرَا ) .

(١) النايج : شئ يعخذ من نبات العظم بأن ينسل ورق العظم بالماء فيجلب ما عليه من الزرقعة  
ويزرك الماء فيرسب النايج أسفله كالطين فيصب الماء عنه ويخفف - (٢) السكور : الكثير السكر .

« ما في قلوب النساء لا يجرى على ألسنتهن ، وما يجرى على ألسنتهن لا يسرى إلى الخارج ، فما في الخارج ليس من صنعهن » ( يَنْسُجُ تَنْقَرَا ) .  
 « يصير المنزل إلى الخراب إذا كان أمره بيد امرأة ، أو وجد فيه مُقَامَر ، أو كان أمره صبياً » ( يَنْسُجُ تَنْقَرَا ) .

« على المرأة أن يُقْلَعَ عن الحب ، فإذا لم يُقْلَعَ عنه وَجَبَ عليه أن يَقْصِرَ على زوجته ، فهي وحدها التي تستطيع أن تَشْفِيَهُ » ( هِتُوَيْدِيشَا ) .  
 « المرأة هي زوجة الرب وبُورَة السَّعَةِ ومدينة التَّهَوُّرِ ومستودع الذنوب وبيت الخداع وحقل الظنون وزنبيل الطلاسم ، والمرأة هي السد الذي لا يَنْفُذُ منه أكابر الناس وذوو الدراية منهم ، والمرأة هي السُّمُّ المزوج بالدُّلُوكِ<sup>(١)</sup> ، فن حَاقَهَا في الدنيا لزوال الفضيلة ؟ » ( يَنْسُجُ تَنْقَرَا ) .  
 « يجب على الزوج العالم بِحَقِّ المرأة التي فطَرَهَا عليه ربُّ الخلق حين برأ الكَوْنُ أن يراقبها مراقبةً وثيقةً » ( مَنُو ) .

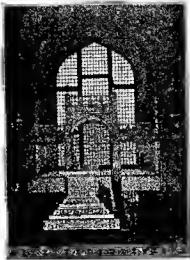
## ٦ — العلم والجهل

الهندوس يَضَمُّون العلم فوق الغنى والجهل تحت الفقر ، وليس في العالم أمة قَدَّرَت العلم كالهندوس ، ونقدِّر الهندوس للعلم كان ، أيضاً ، في زمن لم يكن الغربيون فيه غير برابرة ، وسيرى القارىء من التأملات الآتية أن الهندوس يَقْدِرُونَ على تمييز الذكاء من العلم المكتسب ، فالعلم المقرون بالذكاء عند الهندوس هو طِلْسم سحري يساعد الإنسان على القيام بأي عمل ، والمَلَكُ عندهم لا يساوى الحكيم .

(١) الدلوك : ما يتدك به من طب أو دواء .

« العلمُ أجملُ زينة للإنسان لا ريب ، العلمُ كنزٌ خفيٌّ ، العلمُ صديقٌ رفيقٌ في الرحلات ، العلمُ منبعٌ لا ينضبُ معينه ، العلمُ وسيلةُ المجدِ ورواقُ المجالس ، العلمُ هو التيقنُ العليا ، العلمُ يهيئُ لنا سُبلَ الحياة في الدنيا ، فلو لا العلمُ لسكانُ الإنسان من البهائم » (هتوبديشا) .

« العلمُ أطيبُ النعم ، فلا يمكنُ نزعُه من إنسانٍ ولا شراؤه منه ، فهو كنزٌ لا يفنى » (هتوبديشا) .



١٣٦ - أهرأ . ضريح الملكة في داخل  
ناج محل

« الحكمة والمملكة غير متساويتين ، فالملك إذا كان محترماً في بلده فإن العالم مُبجَّل في كل مكان » (بَنج تَنترا)  
« العالمُ يتصف بكل الحاسن ، وليس في الجاهل سوى المساوىء ، فالعالم خير من عدة ألوف من الجهال » (هتوبديشا)  
« لا ينال الإنسان العلم والثراء والفن نيلاً تاماً إلا إذا ساح في الأرض مسروراً » (بَنج تَنترا) .

« الذكاء خير من العلم وفوق العلم ، فمن كان غير ذكي هلك » (بَنج تَنترا)  
« ما هي فائدة المرء من العلم إذا كان عاطلاً من الذكاء ؟ وما هي فائدة المرء من المرأة إذا كان عاطلاً من العيين ؟ » (هتوبديشا)

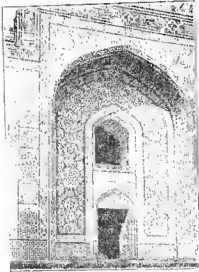


« السهم الذى يَرْمِيهِ النَّبَالُ يقتل رجلاً واحداً أولاً يقتله ، وأما ذكا .  
الحكيم فإنه يهدم بلداً مع رئيسه إذا ما أطلق » ( بَنَسَجَ تَنَسْتَرَا )  
« أعظم الفقر فى قِلَّةِ العلم . » ( بَنَسَجَ تَنَسْتَرَا )  
« الجاهل يهاجمه كلَّ يوم ألفُ غَمٍّ ومئةُ خَوْفٍ ، ولا يهاجمه الحكيمَ شئٌ »  
من ذلك . « ( هِتَوَيْدِيشَا )  
« لا يَلْعَجُ الجاهلُ فى مجلسٍ إلَّا بَبَوْبِهِ ، ولا يلع الجاهل إلا إذا امتنع عن  
السلام . » ( هِتَوَيْدِيشَا )  
« خيرٌ لك أن تكون ذا ولدٍ عالمٍ من أن تكون ذا مئةٍ ولدٍ جاهلٍ ، فالقمر  
وحده يكفي لتبديد الظلام مع أن الكواكب فى مجموعها لا تستطيع ذلك . »  
( هِتَوَيْدِيشَا )  
« يَصِلُ ذُووُ المحاسن إلى النور بحاسنهم من غير نظر إلى أنسابهم . »  
( بَنَسَجَ تَنَسْتَرَا )

## ٧ — الْغِنَى وَالْفَقْرُ

من الصعب أن تَتَهَمَ الهندوس بالملق فى كتبهم ، فهم لا يعلنون احتقارهم  
للأبروات ، كما جاء فى كتب الغربيين منذ القديم ، قولاً لا فعلاً ، فإذا عَدَوْتَ  
العلم الذى يضعونه فوق كلِّ شئٍ ، وجدتَ نَيْلَ الغِنَى غاية الحياة عند حكمائهم ، وهم  
يَعْتَمِدُونَ الفقرَ وَيَرَوْنَ الموتَ أفضلَ منه ، وتبدو آراؤهم هذه مبالغاً فيها ، لا ريب ،  
إذا ما طُبِّقَتْ على حضارتنا الغربية ، مع أنها غيرُ ذلك فى العالم الذى ظهرت فيه ،

فأحوال المعاش لدى أم الهند جعلتها لا تعرف غير أقصى البؤس وأقصى الغنى ،  
وبلغ ما بين الفقر والغنى من التناقض مبلغاً لا أمل للفقير معه أن يتخلص  
من فقره .



١٣٧ - سكندرا ، دقائن زخرف مدخل  
الخدائن القائم فيها زار الملك أكبر ، وهذا  
المدخل مصنوع من حجارة حمراء مسنورة  
بفسيفساء رخامية ، ويرجع تاريخ  
إنشائه إلى سنة ١٦١٣ ، ويبلغ  
ارتفاعه ٢٢ متراً .

ويَهَبُ الغنى الحرية ويؤدى الفقر  
إلى العبودية ، وسترى من التأملات  
والنصائح التى ينطوى عليها هذا المطلب  
أن الهندوس ، على ما كان من استعبادهم  
فى كلِّ وقت ، رأوا مساوى العبودية ،  
فهذه المساوى ، على الخصوص ، هى  
التي أَوْخَت إليهم مقتناً شديداً للفقر .

« يرى بعض العقلاء أن المُلْك يقوم  
على الفضيلة والغنى ، ويرى آخرون أنه  
يقوم على اللذة والغنى ، ويرى بعض  
آخر أنه يقوم على الفضيلة وحدها ،  
ويرى بعض رابع أنه يقوم على الغنى ،  
غير أن النعيم يتمُّ باجتماع هذه الأمور  
الثلاثة . » (مَنَو)

« لا يَدَّخِرُ المرءُ وُسْعاً فى نَيْلِ الثَّرَاءِ ، فعلى العاقل ألاَّ يَبْذُلَ جهوداً إلاَّ للوصول  
إليه . » (بَنَسِج تَنْسَرا)

« من كان غنياً كان ذا أصدقاء ، من كان غنياً كان ذا أقرباء ، من كان غنياً  
كان رجلاً فى الدنيا ، من كان غنياً عاش حقاً . » (بَنَسِج تَنْسَرا)

« يبدو العدو ، فى هذه الدنيا ، للأغنياء قريباً ، ويبدو القريب ، فيها ، للفقراء عدواً .

« من شأن الفنى أن يجعل محترماً من هو غير جدير بالاحترام ، وأن يجعل مرغوباً فيه من يجب اجتنابه ، وأن يُمدح من لا يستحق المدح . » ( پنج تنترا )  
 « يُعدُّ الشَّيب من الشُّبان إذا كانوا من الأغنياء ، ويُعدُّ الشُّبان من الشَّيب إذا كانوا من الفقراء . » ( پنج تنترا )

« من كان غير غنى في هذه الدنيا لم يكن رجلاً إلا بالاسم » ( پنج تنترا )  
 « يتوارى شرف الإنسان وفخره وعلمه وجماله وذكاؤه إذا خسر نروته .

« قد يقال إن الرجل سليم الحواس ، فهذا قول فارغ ، وقد يقال إنه سليم العقل ، فهذا كلام فارغ أيضاً ، فالرجل ينقلب إلى رجل آخر فوراً إذا أضع ثروته . » ( هتويديشا )

« فقَر الناس هو القَدَمُ المُجَسَّم ، هو بُؤْرَة الشرور ، هو ضَرْبٌ من الموت . » ( پنج تنترا )

« قد تحتاج إلى الصِّلصال إذا كان خالصاً ، ولكن الفقير لا ينفع لشيء فى هذه الدنيا » ( پنج تنترا )

« يجب أن تخشى الفقر ، فهو عنوان العجز ، فلا يُعدّ الفقير إلا كلباً ولو فام بأحسن خدمة . » ( پنج تنترا )

« لا تلع صفات الرجل الطيب إذا كان فقيراً ، فالثروة هى التى تُنير الصفات كما تنير الشمس كل موجود . » ( پنج تنترا )

« يتسلاشى ذكاء الرجل المُفسِّر ، مهما كانت قوياً ، في همه الدائم من أجل القوت والتوب .

« ولم يَلْبَثْ بيت الغنى الأنيق أن يصبح سَمِجاً إذا ما أَعْسَرَ ، فيبدو كالأسماء بلا نجوم وكالحوض الذي جَفَّ ماؤه وكالمقبرة الكريمة » ( يَنْجُ تَنْتَرَا )



١٣٨ - سكندرا - مزار الملك أكبر بالهند

( لهذا البناء الذي هو على شكل أُرصفة منضدة وضع خاص ، فترجع أنه مشتق من طراز هندوسي سابق ، فلا نرى له شبيهاً في غير بنج محل بفتح پور )

« يَفْقِدُ الرجل مقامه إذا افتقر ، ويغدو غير شريف إذا فقد منزلته ، وبصبح محتقراً إذا فَقَدَ شرفه ، وَيَقِلُّ عِزُّه إذا احتَقِرَ ، وَيَقْنَطُ إذا قَلَّ عِزُّه ، وَيَحْسُرُ عقله

إِذَا قَطِطَ، وَيَهْلِكُ إِذَا خَسِرَ عَقْلُهُ، آه، مَنْ الْفَقْرُ الَّذِي هُوَ مَصْدَرُ كُلِّ شَرٍّ !  
(هتوبديشا)

« يموت الرجل العاقل غير مُتَوَجِّعٍ، يَبْسُدُ أَنَّهُ لَا يَرْضَى بِالْفَقْرِ، فَالنَّارُ، وَإِنْ  
أَمَكْنَهَا أَنْ تَنْطَفِئَ، لَا يَمَكْنُهَا أَنْ تَبْهُدُ. » (هتوبديشا)

« قِيلَ إِنْ الرَّأْيَ تَفْضِيلُ الْفَقْرِ عَلَى الْمَوْتِ عِنْدَ التَّخْيِيرِ بَيْنَهُمَا، مَعَ أَنَّ الْمَوْتَ  
يُوجِبُ أَلَمًا خَفِيفًا وَالْفَقْرُ يُوجِبُ أَلَمًا ثَقِيلًا » (هتوبديشا)

« لَا خَيْرَ فِي الْحَيَاةِ بغيرِ اسْتِقْلَالٍ، فَإِذَا تَكُونُ الْحَيَاةُ عِنْدَ التَّابِعِينَ لغيرِهِمْ إِنْ لَمْ  
تَكُنْ مَوْتًا؟ » (هتوبديشا)

« لَأَنْ يَعِيشَ الْمَرْءُ فِي غَايَةِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ سَانِلًا، أَوْ أَنْ يَكْسِبَ عَيْشَهُ مِنْ  
حَمْلِهِ الْأَثْقَالِ، أَوْ أَنْ يَمَرُضَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَنَالَ النَّفْيَ مَعَ اسْتِعْبَادِ » (يَنْجُ تَنْشُرَا)

## ٨ — السلوك الواجب في مختلف أحوال الحياة

نُجِمَ فِي هَذَا الْمَطْلَبِ وَنُقِصَ بَعْضُ النَّصَائِحِ الْعَمَلِيَةِ حَوْلَ سُلُوكِ الْإِنْسَانِ فِي الْحَيَاةِ  
وَتَنَاجَى الْفَضَائِلِ وَالرَّذَائِلِ وَحَوْلَ وَاجِبَاتِهِ نَحْوَ أَقْرَانِهِ وَمَا يَجِبُ عَمَلُهُ لِلتَّوْفِيقِ بَيْنَ  
النَّاسِ، وَأَنْفَعُ الصِّفَاتِ الَّتِي أُوصِيَ بِهَا هِيَ : الْبَصِيرَةُ وَالاحْتِرَازُ وَالتَّوْبَاتُ وَالِاعْتِدَالُ  
فِي الرِّغَائِبِ، وَعُدَّةُ الْغَضَبِ أَمْرًا حَقِيرًا لِعَدَمِ فَائِدَتِهِ، وَعُدَّةُ الْمَدَاهِنَةِ أَمْرًا حَسَنًا  
لِفَائِدَتِهَا، فَمِنْ هُنَا تَرَى أَنَّ الْأَدَابَ الْهُندُوسِيَّةَ نَفْعِيَّةٌ إِلَى الْغَايَةِ .

وَنَذَكِّرُ مَبَادِي الْأَدَابِ الْعَامَةِ قَبْلَ النَّصَائِحِ الَّتِي تُطَبَّقُ عَلَى مُخْتَلَفِ أَحْوَالِ الْحَيَاةِ،  
وَتَشَابَهَ هَذِهِ النَّصَائِحِ مَا جَاءَ فِي كُتُبِ النَّصَارَى، وَلَا سِيَّامَا يَدُورُ حَوْلَ الْحِكْمَةِ

القائلة : لا تُعَامِلِ النَّاسَ بِغَيْرِ مَا تُحِبُّ أَنْ يُعَامِلُوكَ بِهِ ، وَلَكِنَّا لِنَسْهَبُ كَثِيرًا فِي بَيَانِهَا ، فَالَّذِي يَجِبُ أَنْ يُعْرِفَ هُوَ مَا يَحَافِظُ عَلَيْهِ النَّاسُ ، لَا الْقَوَاعِدُ الْأَخْلَاقِيَّةُ الَّتِي نَقُولُ بِهَا السَّكْتَبُ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ كَلَا الْأَمْرَيْنِ وَاضِحٌ ، وَمَا نَذْكُرُهُ فِي هَذَا الْمَطْلَبِ مِنَ الْمُتَعَطُّفَاتِ يَكْفِي لِتَبْيَانِ الْأَخْلَاقِ الْعَمَلِيَّةِ عِنْدَ الْهِنْدُوسِ .

### مبادئ الآداب العامة

« أَنْصِتُوا لِرُوحِ الْقَضِيَّةِ ، فَإِذَا أَنْصَتُمْ فَسَكَّرُوا ، فَلَا تَعَامَلُوا غَيْرَكُمْ بِغَيْرِ مَا تُحِبُّونَ أَنْ يُعَامِلُوكُمْ بِهِ . » ( بَنْجُ تَنْتَرَا )

« يَنْظُرُ مِنْ لَمْ قُلُوبُ نَبِيلَةٍ إِلَى نِسَاءٍ غَيْرِهِمْ كَمَا يَنْظُرُونَ إِلَى أُمَمَاتِهِمْ ، وَيَنْظُرُونَ إِلَى أَمْوَالِ غَيْرِهِمْ كَمَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْمَدَرِّ (١) ، وَيَنْظُرُونَ إِلَى الْخُلُوفَاتِ كَمَا يَنْظُرُونَ إِلَى أَنْفُسِهِمْ » ( بَنْجُ تَنْتَرَا )

« يَتَكَنَّنُ النَّاسُ أَنْ يَسْتَعْدُوا بِسَهْوَةٍ لَوْعَظَ الْآخَرِينَ ، وَأَمَّا مِمَارَسَةُ الْقَضِيَّةِ فَلَا يَقُومُ بِهَا سِوَى خِيَارِ النَّاسِ » ( هِتُو يَدِيْشَا ) .

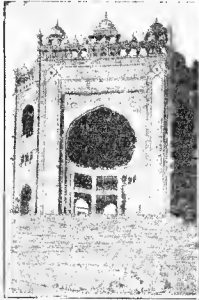
« يَرَى بَعْضُهُمْ أَنَّ الْحِكْمَةَ فِي اللِّسَانِ كَمَا عِنْدَ الْبَيْغَاءِ ، وَيَرَاهَا بَعْضُ آخَرٍ فِي الْقَلْبِ كَمَا عِنْدَ الْبُكْمِ ، وَيَرَاهَا آخَرُونَ فِي الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ مَعًا » ( بَنْجُ تَنْتَرَا ) .

« اللَّئِيمُ يَتَّبِعُهُ عَمَلُهُ وَلَوْ سَارَ مِنْ أَلْفِ طَرِيقٍ ، وَالكَرِيمُ يَتَّبِعُهُ عَمَلُهُ وَلَوْ سَارَ مِنْ أَلْفِ طَرِيقٍ أَيْضًا » ( بَنْجُ تَنْتَرَا ) .

« يُؤْتِي كُلَّ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ التَّكْرَرِ أَوْ اللِّسَانِ أَوْ الْبَدَنِ ثَمَرَةً طَيِّبَةً أَوْ ثَمَرَةً خَبِيثَةً بِحَسَبِ مَا يَكُونُ خَبِيثًا أَوْ طَيِّبًا ، وَتَنْشَأُ أَحْوَالُ النَّاسِ عَنْ أَعْمَالِهِمْ » ( مَنُو ) .

(١) المدر : الطابن العلاك الذى لا يعاطله رمل .

« قيمة الإنسان ، مهما كان أصله وطائفته ، بإخلاصه وضبطه لحواسه وزهده وإحسانه وكفّه الأذى عن غيره وقيامه بالواجب قياماً دائماً » (مهابارتا) .  
 « من يزرع الدُّخْنَ <sup>(١)</sup> يَحْصُدُ الدُّخْنَ ، ومن يزرع الشَّرَّ يَحْصُدُ الشَّرَّ »  
 (مَثَلُ تَمُولِي ) .



« الأنهار التي يقطعها الناس من شجرة خطيئاتهم هي المرض والكرب والغم والرق والبؤس » (هتوبديشا) .  
 « حَبِطَ عمل الأفاعي والأشجار والصوص ، ولولا هذا ما وُجِدَ العالم »  
 (پنج تنترا) .

#### الحذر والاحتراز

« يجب على الرجل العاقل الراغب في النجى وطول العمر والسعادة ألا يثق بإنسان » (پنج تنترا) .

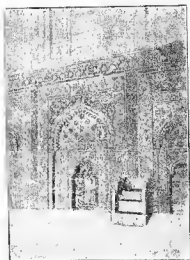
« الضعفاء إذا ما حَذَرُوا لم يقتلهم الأقوياء ، والأقوياء إذا ما وَثِقُوا قتلهم الضعفاء » (پنج تنترا) .

« على المرء ألا يَتَّقَ بعدوّه مَقهور ولو صار صديقاً » (پنج تنترا) .  
 « على العاقل ألا يَطْلُعَ أحداً على

١٣٩ - فتح پور . مدخل المسجد الكبير ( يبلغ ارتفاعه نحو ٢٠ متراً ) (لا تجد ساكناً في فتح پور التي أراد ملوك المول إنشاءها في غابة في القرن السادس عشر فاتخذوها عاصمة لدولتهم ، وبنو قصورها البنية من الحجارة المحر سايمة ، وبعد المسجد الذي نزل هذه الصورة على مدخله من أوسع مباني العالم ، فيبلغ طوله ١٦٨ متراً وبلغ عرضه ١٤٣ متراً ، فإذا ما استنيت هذا البناء وجدت جميع مباني فتح پور قائمة على الطراز الهندوسي الخالص تقريباً )

(١) الدخن : نبات حبه صغير أملس .

غناه مهما كان ضئيلاً ، فالغنى يُحرِّك قلب العابد « ( پنج تنترا ) .  
 « الاستعانة بالقوى في القتال يؤدي إلى موت الضعيف ، والقوى بطل سلباً  
 كالبحر الذي يسكسر الفخار » ( پنج تنترا ) .  
 « من تدخل فيما لا يعنيه بحث عن هلاك نفسه بنفسه كالقرد الذي يقتلع زاوية »  
 ( پنج تنترا ) .  
 « على العاقل ألا يضحى بالكثير من أجل القليل ، فمن الحكمة أن يحفظ المرء  
 الكثير بالقليل » ( پنج تنترا ) .  
 « من يترك الأكيد من أجل غير الأكيد يخسر الأكيد وغير الأكيد »  
 ( هتو بديشا ) .



١٤٠ - فتح پور ، محراب المسجد السابق  
 ( يبلغ ارتفاع قسم البناء الظاهر في  
 الصورة نحو تسعة أمتار )

« أرملة أبواب تؤدي إلى الموت :  
 العمل السيئ ومعاداة القريب ومنافسة  
 الأقوى والاعتماد على المرأة » ( هتو بديشا ) .  
 « العاقل من يتكلم عند ما يسأل عن  
 حقه ، فليتكلم بلاسؤال كالباكي في الغاب »  
 ( پنج تنترا ) .

« الأخق الذي يخاطب صياداً بذل  
 جهداً غير مجد أو الذي يخاطب جاهلاً  
 شقياً يلحقه عار » ( پنج تنترا ) .  
 « يندمل جرح من يصيبه مهم ويلتئم



جُرْحٌ يُجَدِّثُهُ سَيْفٌ ، بَيِّنُ أَنْ كَلِمَةً مُؤَذِيَةً تُشِيرُ عَوَامِلَ الْحَقْدِ فَلَا يَبْرَأُ جُرْحٌ أَوْجَعُهُ  
قول « ( يَنْجُ تَنْتَرَا ) .

### الحلم والصبر

« مَنْ كَانَ حَازِقًا فِي أُمُورِ الدُّنْيَا وَجِبَ عَلَيْهِ أَنْ يَعَاجِلَ هَذِهِ الْأُمُورَ بِحِلْمٍ ، فَلَا  
خُسْرَانَ فِي عَمَلٍ تَمَّ بِحِلْمٍ » ( يَنْجُ تَنْتَرَا ) .  
« الْإِتِّحَادُ أَجْمَلُ شَيْءٍ لِلنَّاسِ ، وَلَا سِيَّامَعَ الصَّدِيقِ ، فَالْأَرْزُ إِذَا مَا جَرَّدَتْهُ مِنْ  
قَشَرِهِ لَا يَنْبُتُ » ( يَنْجُ تَنْتَرَا ) .  
« اجْتِمَاعُ الْأَشْيَاءِ الصَّغِيرَةِ يُؤَدِّي إِلَى نَتَائِجٍ كَبِيرَةٍ ، فَالْأَلَيْفُ الْمَفْتُولُ يُقَيِّدُ الْفِيلَ  
الْمُتَأَنِّجُ » ( هِتُوْ بِدِيْشَا ) .

كَيْفَ يَتَوَدَّدُ الْإِنْسَانُ إِلَى النَّاسِ .

« يَجِبُ أَنْ تَعَامَلَ النَّاسَ عَلَى حَسَبِ أَخْلَاقِهِمْ ، فَالْعَاقِلُ إِذَا مَا أَلَمَّ بِأَفْكَارِ  
الْآخَرِينَ حَكَمَهُمْ مِنْ قُوْرِهِ » ( يَنْجُ تَنْتَرَا )  
« يَجِبُ عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَتَوَدَّدَ إِلَى الْبَخِيلِ بِالْمَالِ وَإِلَى الشَّدِيدِ بِالْخُضُوعِ وَإِلَى  
الْجَاهِلِ بِالْحِلْمِ وَإِلَى الْمُتَعَلِّمِ بِمُخْلَصِ النِّيَّةِ . » ( يَنْجُ تَنْتَرَا )  
« يُمْكِنُ الْمَرْءُ أَنْ يَتَوَدَّدَ إِلَى الصَّدِيقِ بِنَبِيلِ الْعَوَاطِفِ وَإِلَى الْأُبُوَيْنِ بِالْاحْتِرَامِ  
وَإِلَى النِّسَاءِ وَالْخَدَمِ بِالْهَدَايَا وَالرَّعَايَةِ وَإِلَى بَقِيَّةِ النَّاسِ بِاللِّبَاقَةِ . » ( هِتُوْ بِدِيْشَا )

### المداينة وسلامة الطوية

« سَلَامَةُ الطَّوِيَّةِ أَمْرٌ طَيِّبٌ لَدَى الزُّهَّادِ الْمُتَبَتِّلِينَ إِلَى التَّأَمُّلِ ، وَلَسْكَهَا غَيْرُ ذَلِكَ

عند الراغبين في الثراء والزُّلْفَى لدى الملوك على الخصوص » (بَنج تَنقرا)



١٤١ - فتح پور . منظر بَنج محل  
( يبلغ ارتفاعه نحو عشرين متراً )

« لا يعيش الرجل الذي يكون صريحاً  
لدى النساء والعدو والصديق الخبيث .  
« يَرَنَدُ الكَبَشُ لِكِي يَهْجُمُ ،  
وَيَتَكَمَّسُ الأسدُ لِكِي يَنْبَ ، فالعقلاء  
إذ يَنَاجُونَ وَيَكْطُمُونَ غِيظَهُمْ يَحْتَمِلُونَ  
كُلَّ شَيْءٍ عِنْدَ إِنْغَامِ النَّظَرِ » ( هِتُو پَدِشَا )  
« لا يَلْبَثُ العَاقِلُ الَّذِي يَعْرِفُ خُلُقَ  
رَجُلٍ عِنْدَ الْمَصَاقِبَةِ أَنْ يَسُودَهُ . » ( هِتُو پَدِشَا ) .

#### الشجاعة والثبات

« عدم البدء أَوَّلَى علائِم الذكاء ، وإنهاء ما بُدِئَ بِهِ ثَانِيَةُ علائِم الذكاء »  
(بَنج تَنقرا)

« النجاح بالأعمال ، لا بالأمال ، فالطباء لا تدخل فَمَ الأسدِ النَّاسِمِ »  
(بَنج تَنقرا)

« ما هو الحِمْلُ الثقيل لدى الأقوياء ؟ ما هي المسافة البعيدة لدى ذوى الإقدام ؟

ما هو البلد الغريب لدى المتعلمين ؟ من هو عَدُوُّ الحليم ؟ » (بَنج تَنقرا)

« الرجل الثابت يَعْمَلُ الآخَرِينَ فيصير مُحْتَرَمًا ولو لم يكن غَنِيًّا ، والرجل  
الضعيف يُحْتَقَرُ مهما كانت ثروته » (بَنج تَنقرا)

« مَنْ يَقَعُ فِي بُؤْسٍ فَيَسْكُتُ بِالتَّوَجُّعِ لَا يَصْنَعُ غَيْرَ زِيَادَةِ بُؤْسِهِ مِنْ غَيْرِ  
وَقُوفٍ عِنْدَ حَدٍّ » (بَنج تَنقرا)

## الغضب

« الفيل ، مع عظيم قوته ، لا يغضب إذا لَسَمَتْهُ نَحْلَةٌ باحثة عما في صُدْغِيهِ من الشراب ، فالقوى لا يغضب إلا إذا كان تجاه قوة تُعَدِّلُ قوته . » ( يَنْجُ تَنْتَرَا )  
 « غضب الضعفاء سبب تَعَسِيهِمْ ، فالإناء الملتهب يَحْرِقُ جوانبه . » ( يَنْجُ تَنْتَرَا )  
 « لما ذا يغضب الرجل العاجز عن إيقاع الأذى ، فالجِدْمَةُ تَنْبُ من غير أن تكسر المِقلَّة التي تُحَمَّصُ فيها » ( يَنْجُ تَنْتَرَا )  
 « إذا نَبَّحَ الكلب على جبل فأَيُّهما يَأْلَمُ ، الجبل أم الكلب ؟ » ( مَثَلُ تَمَوَّلِي )

## الحسد

« العلماء يَمَقْتُهُمُ الجُهلاء ، والأغنياء يَمَقْتُهُمُ الفقراء ، والأتقياء يَمَقْتُهُمُ الملاحدة ، والنساء الفاضلات تَمَقْتُهُنَّ النساءُ العاجرات . » ( يَنْجُ تَنْتَرَا )

## تحرى الصلات وتأنجها

« على المرء ألا يكون ذا صِلَةٍ بمن لا يَعْرِفُ قُوَّتَهُ ولا أُسْرَتَهُ ولا سِيرَتَهُ » ( يَنْجُ تَنْتَرَا ) .

« قد تكون صداقةٌ ونَسَبٌ بين من تساوى ثروَةً وعِرفاً ، لا بين قوًى وضعيفٌ » ( يَنْجُ تَنْتَرَا ) .

« تكون الصداقة والألفة بين من تساوى ثروَةً وتربيةً ، لا بين من تَبَوَّأَ مكاناً عَليّاً ومن تَبَوَّأَ مكاناً دَنيّاً » ( المهابهارتا ) .

« الأحق الذي يتخذ صديقاً فوقه درجةً أو دونه مرتبةً يَسْخَرُ الناسُ منه » ( يَنْجُ تَنْتَرَا ) .

« يجب على العقلاء أن يتَّخِذُوا لأنفسهم أصدقاء خُلَفاءَ لِيُنْقِذُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الشَّقاءِ ، فمن ليس له أحياءٌ لا يتقلب على البأساء » ( بنج تنرا ) .  
 « حَتَّى الشَّيْطَانُ يَحْتَاجُ إِلَى خُلَّانٍ » ( مَثَلُ تَمُوْلِيْثِ ) .  
 « لا رجل في الدنيا أسعد من يحدث صديقاً ويساكن صديقاً وإذا كر صديقاً » ( هِتُوْپَدِيْشَا ) .

« الظُّلَمَاءُ تَبْحَثُ عَنِ الظُّلَمَاءِ ، وَالْأَبْقَارُ تَبْحَثُ عَنِ الْأَبْقَارِ وَالْأَفْرَاسُ تَبْحَثُ عَنِ الْأَفْرَاسِ وَالْأَغْنِيَاءُ يَبْحَثُونَ عَنِ الْأَغْنِيَاءِ وَالْعُقَلَاءُ يَبْحَثُونَ عَنِ الْعُقَلَاءِ ، فَالْصَّدَاقَةُ تَقُومُ عَلَى تَشَابِهِ الْحَاسِنِ وَالْمَعَايِبِ » ( بنج تنرا ) .  
 « مَنْ يُقَدَّرَ الْفَضْلَ يُحِبُّ صَاحِبَ الْفَضْلِ وَمَنْ هُوَ عَاطِلٌ مِنَ الْفَضْلِ لَا يُحِبُّ صَاحِبَ الْفَضْلِ » ( هِتُوْپَدِيْشَا ) .

« مَعَاشِرَةُ الْأَشْرَارِ تُغَيِّرُ الْأَبْرَارَ ، فَتَرَى الْفَضْلَاءَ يَحْتَنِبُونَ الْخُبَاءَ » ( هِتُوْپَدِيْشَا )  
 « يَخْسِرُ الْإِنْسَانُ ذِكَاةَهُ بِمَعَاشِرَتِهِ مِنْ هَمْ دُونِهِ ، فَإِذَا عَاشَرَ شَبَاهَهُ بَقِيَ مَسَاوِيًّا لَهُمْ ، وَإِذَا عَاشَرَ مِنْ هَمْ أَفْضَلَ مِنْهُ سَارَ إِلَى الْفَضْلِ » ( هِتُوْپَدِيْشَا ) .

« يَكُونُ الْحِصَانُ أَوْ السِّلَاحُ أَوْ الْكِتَابُ أَوْ الْمَرْأَةُ أَوْ الرَّجُلُ طَيِّبًا أَوْ خَبِيثًا بِحَسَبِ الْمَرْءِ الَّذِي يَلَاقِيهِ . » ( بنج تنرا )

« لَا تَعْرِفُ مِنَ الْمَاءِ الَّذِي يُصَبُّ عَلَى الْحَدِيدِ الْحَامِي إِلَّا الْأَسْمَ ، فَإِذَا اسْتَقَرَّ الْمَاءُ عَلَى وَرَقِ السَّدْرِ اتَّعَمَ كَاللُّؤْلُؤِ ، وَإِذَا سَقَطَ الْمَاءُ عَلَى صَدَفٍ تَحْتَ كَوَكَبٍ سَوَاتِي تَحَوَّلَ إِلَى دُرٍّ ، فَالْحَقُّ أَنَّ الطَّبَائِعَ الْكَرِيمَةَ وَالْمُتَوَسِّطَةَ وَالْخَسِيسَةَ تَكُونُ عَلَى حَسَبِ الْجَمْعِ الَّذِي يُلَازِمُ . » ( بنج تنرا )

٩ - السياسة

تَجِدُ فِي كُتُبِ الْهِنْدُوسِ إِيضَاحًا كَاشِفًا عَنِ الْمَبَادِيءِ الشَّعْبِيَّةِ فِي سِيَاسَةِ النَّاسِ  
وَسُلُوكِ الْمُلُوكِ وَوَاجِبَاتِهِمْ ، وَنَقْتَصِرُ عَلَى اقْتِطَافِ بَعْضِ مَخْتَارَاتِهَا مِنْهَا فَتَرَى أَنَّهَا مِمَّا  
لَا يَذْمُهُ مَكِّيَا فِيلِي .

« تَبْدَأُ السِّيَاسَةَ بِالْحِلْمِ وَتَنْتَهِي بِالْعِقَابِ » ( پَنَسِج تَنْتَرَا ) .

« إِذَا كَانَ الْمَلِكُ لَا يَجَازِي مَنْ يَسْتَحِقُّونَ الْجَزَاءَ شَوْى الْأَقْوِيَاءِ الضَّمَنَاءُ كَمَا  
يُشَوِّى السَّمَكُ عَلَى الْمِنْفَاجِ <sup>(١)</sup> » ( مَنُو ) .

« لَا يُخْتَرَمُ مَنْ لَا يَسْتَقِيدُ » ، فَالنَّاسُ يَهَابُونَ الْأَفَاعِي أَكْثَرَ مِنْ مُبِيدِ الْأَفَاعِي  
عَرُودًا » ( پَنَسِج تَنْتَرَا ) .

« يَخْتَصِرُ الْمَلِكُ الَّذِي يَتَمَلَّكُهُ طَبِيبُهُ وَأَسْتَاذُهُ وَوَزِيرُهُ صَحَّتَهُ وَمَقَامَهُ الدِّينِيَّ  
وَتُرُوتَهُ » ( هِتُو پَدِشَا ) .

« إِذَا عَهَدْتُمْ بِالسُّلْطَةِ إِلَى رَجُلٍ خَدَمَكُمْ لَمْ يُفَسِّكْ هَذَا الرَّجُلُ فِي الْعَيْبِ بِكُمْ ،  
فَوَزِيرُكُمْ كَهَذَا يَشِيدُ بِخِدْمَتِهِ وَيَمَرُّجُهَا بِأُمُورِ الدَّوْلَةِ » ( هِتُو پَدِشَا ) .

« يَجِبُ عَدَمُ إِغْنَاءِ الْوَزِيرِ مَهْمَا كَانَ ، فَقَدْ قَالَ الْحَكِيمَاءُ : الْغِنَى يُفْسِدُ أَخْلَاقَ  
الْإِنْسَانِ » ( هِتُو پَدِشَا ) .

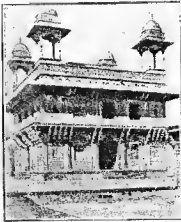
« إِذَا مَا ضَغِطَ الْوُزَرَاءُ اسْتَفْرَغُوا جَوْهَرَ الْمَلِكِ ، فَالْوُزَرَاءُ كَالدَّمَامِيلِ ، فَعَلَى مُلُوكِ  
الْأَرْضِ أَنْ يُؤْمِلُوا وَزَرَائِهِمْ عَلَى الدَّوَامِ ، أُنِيسَتْخَرِجَ مَاءُ ثَوْبِ الْحَمَامِ مِنْ بَعْضِهِ مَرَّةً  
وَاحِدَةً » ( هِتُو پَدِشَا ) .

(١) الْمِنْفَاجُ : السُّفُودُ ، وَهُوَ حَدِيدَةٌ يَشَوِّى عَلَيْهَا الْفُحْمَ .

« قُتِلَ من لم يَقْتُلِ العامل الذى هو مثله ثَرَاءٌ وقوةٌ وذكا، وحرماً وسلطاناً »  
(هتوبديشا).

« يجب أن يكون سلوك الأمير المَلَكِيَّ والوزير الأول وكاهن آكل البيت  
والحاجب تجاه المَلَكَةِ وأُمِّ المَلِكِ كسلوك المَلِكِ » (بَنَج تَنَرا).  
« يجب على الأمير الحاذق فى السياسة أن يكون كائناً خَفَاءَ التى تخفى بين  
طبقتيها العَظِيمَتَيْنِ فتقاوم بذلك صدمة عَدُوِّها ، فإذا ما لاحَت الفرصة تَهَيَّأَ كالحية  
المروية » (هتوبديشا).

« يجب على الأمير ، لِيُظْفَرَ بِأَعْدَائِهِ ، أن يلجأ إلى التوفيق والفساد والتفريق  
معاً أو على انفراد ، وَلِيَتَجَنَّبَ قَهْرَهُمَ بِالسَّلاحِ » (هتوبديشا).



لَا يُقَهَّرُ العَدُوَّ بِالسَّلاحِ كَيَقَهَّرَ بِالحِيلَةِ ،  
فَالْحِتَالُ لَا يَمْلِكُهُ الأَبْطَالُ مَهْمَا كَانَ قَصِيراً »  
(بَنَج تَنَرا).

لَا مَشِيرَ أَحْسَنَ مِنْ وَارِثِ عَرْشِ  
بَذَرِ الفَسَادِ بَيْنَ الأَعْدَاءِ ، فَعَلَى الأَمِيرِ أَلَّا  
يَأْتِيَ أَوْ جَهْداً فى رَفْعِ وَارِثِ عَدُوِّهِ »  
(هتوبديشا).

١٤٢ - فنج بور . خاس محل ( بنج  
مجموع ارتفاع القصر من فوق الرصيف المبنى  
عليه إلى أعلى القباب ١٧ متراً )

« يجب على من يَعْرِفُ قواعد السلوك  
الثلاث التى يجب اتباعها ، وهى : الفضيلة  
والمُنْعَمَةُ والرغبة ، ألا يكون عَظِيمَ الرَّحْمَةِ ، فلن يستطيع متسامح أن يحافظ على ما فى  
يده » (هتوبديشا).

«وجب قتل العدو الضعيف قبل أن يصبح قوياً ، فالعدو الضعيف إذا ما تقوى

صُمب قهره » ( بنج نثرا ) .



« يجب ألا يُجَافَ العدو ، ولو

بأوق العهود ، فإما يُطْمِئ النار مهما

كان حاراً » ( هتو پديشا ) .

١٤٣ - بنج نور . دقائق القسم الأعلى من

عمود في قصر الملكة بيرل

« الأعداء الذين يُقْتَلون بالسلاح

ليسوا بالقتلى ، فقتل الأعداء هم الذين يُقْتَلون بالحكمة ، فالسلاح لا يقتل سوى

البدن ، والحكمة تُقْتَل الأسرة والثروة والشهرة » ( بنج نثرا ) .

« نقوم الحرب على أمور ثلاثة : الأرض والصديق والذهب ، فلي من لا يملك

واحداً منها ألا يوقد حرباً » ( بنج نثرا ) .

« جيش صغير مؤثف من جنود مدربين خير من جيش عظيم مؤثف من أخلط

غير مدربين . فأردأ الجنود يُعَامِدُونَ وَيُوجِمُونَ هزيمة الشُجَّان في الميدان » ( هتو پديشا ) .

« إذا ما نشبت الحرب وجب على الأمير أن يكون صارماً حتى تحاه

من يُحِبُّهم حمة لنفسه ومن يُحافظ عليهم ومن يرعاهم بعين عنايته » ( بنج نثرا ) .

١٠ - مصدر الاختلاف بين تعاليم الكتب الهندوسية

وتعاليم الكتب الأوربية

سوف يقف القارئ ، الذي يطالع هذه الحكيم بعد تلك الفصول التي كان للدين

أبرز مكان فيها ، مشدوهاً أمام تناقض آراء الهندوس في اللاهوت والآداب ، ففي

اللاهوت ترى تَجَلَّى خيال الهندوسى تجلياً مُشَوَّشاً مُفْرِطاً ، وفى آدابه ترى ثمرة الحسِّ العملى بأدق معنى وبأكثره إيجاباً .

فبينما تُبصر السلطان لأخيلة أحبار الهند وشعرائها فى الحقول الوهمية ، فيفتح هؤلاء أبواباً لمستقبل أسطورى فيُعَدُّون كيان الإنسان كخردلة فى عالم الزمان فيضعون درجة من السكمال لا تكاد تُبلغ إلا بألوف مؤلَّفة من التحولات التى تقع فى ألوف من القرون ، نجد علماء الأخلاق فى الهند يقولون بتمتع الإنسان بالحياة قبل كل شئ . ويرَوْنَ أن يُزِيل عنه كلَّ هَمٍّ يُضْنِيهِ وأن ينظر إلى الحياة من ناحيتها الطيبة وأن يبحث عن النِّفى وألا يكون ساذجاً وأن يحذر النساء لأنهن أخطر الشرور بما يُوقِذنه فى الأفئدة من نارِ الحبِّ .

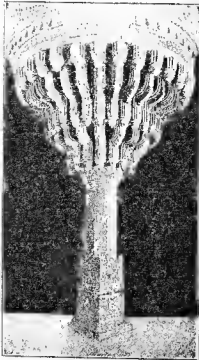
يَبْدُو تَحَلُّل تعاليم الهندوس الخلقى مؤذياً لمشاعرنا ، ولكن لا تنس قيام هذه التعاليم على تفهيم الحياة تفهيماً منطقياً ، فنحن ، وإن كنا نقول بمبادئ خلقية سامية لا نُطَبِّقُ ، عند العمل ، سوى حكمكم كذلك الحِسْكم الهندوسية .

وهذا التناقض الذى يبدو جلياً عندنا يَرَى مثله لدى الهندوس ، ولكن العروق والبيئات والأزمنة جعلت هذا التناقض يظهر فى الهند بين الدين والآداب وجعلته يظهر فى أوربة بين الآداب المُدَوَّنة وأعمال الحياة العادية .

وإذا بحثت عن التناقض بين الذى نُعَلِّمه والذى نُطَبِّقه فيَنفِر منه الشرقيون الذين يدرسون أمور أوربة وَجَدْتَهُ ناشئاً عن مبادئنا الخلقية ، وبيان الأمر أن الدين فى عصور الإيمان كان مرتبطاً فى الآداب ارتباطاً وثيقاً فلم تُعدِّ الآداب فيها سوى تعاليم إلهية خالصة ، فلما تلاشت المعتقدات بِفَيْت الآداب سليمة مثالية ، أى أسمى مما يُقدَّر الإنسان على تحقيقه ، ولما زالت عنها صفتها الإلهية ، بذلك ، تَجَلَّى



البون واضحاً بين الذى نُطَبِّقُه والذى نشير إليه باسم الناس ، لا باسم الله .  
والدين منفصل عن الآداب عند الهندوس فى كلِّ زمن كما كان منفصلاً عند  
الإغريق والرومان ، أجل ، إن التعاليم الدينية تنمُّد ، كما قلنا ، جميع أعمال الحياة  
عند الهندوس لاربيب ، غير أن هذه التعاليم القاطعة الخاصة بانطقوس والحجِّ والصَّلوات  
والقرايين الخ ، أى بسير الإنسان نحو الآلهة ، لا تُبَالى بسلك الناس بعضهم نحو  
بعض ، فلم تَقَمَّ الآداب الهندوسية على غير أساس العادة التى هى وليدة التجربة الناشئة  
عن مقتضيات الحياة ، وبنينا تُبَصِّرُ مَثَلُ الهندوس الأعلى قد ظَلَّ ضمن دائرة خارجة  
عن هذه الدنيا عاسرة بموجودات قادرة على كلِّ شئ غير مبايعة بسوى واجبات



الناس نحوها ، لا بواجبات الناس  
بعضهم نحو بعض ، تُبَصِّرُ الحياة بادية  
للهندوس كما هى بخيرها وشرِّها ، فليست  
الأرض التى يَسْكُنُها الهندوسى ،  
بالحقيقة ، إلَّا جُثَّةُ تراب زائلة إذا  
ما قِيسَت بالمساويف الساطعة اللامعة  
العامرة بالآلهة المرهوبة التى يراها بخيالها  
عندما يطأ مابده أو يُقَلِّبُ صَفَحَاتِ  
كِتَابِهِ المقدسة .

وما بين سلوك الإنسان وآماله من  
التناقض يبدو ، إذن ، عند الهندوسى

كما يبدو عند الأوربيِّ ، وإذا كان هذا  
التناقض أكثر وضوحاً عندنا فلأن

١٤٤ - فتح پور . عمود مصنوع من الصوان  
المنقوش وبعرف إمرش الملك أكبر ويقوم  
فى ردهة استقبال الملك

دائرتي مَثَلِ الهندوسيِّ الأعلى ومَثَلِ الأوربيِّ الأعلى مختلفتان ، ولو نظرتَ إلى  
 ذينك المَثَلَيْنِ الأعْلَيَيْنِ من الناحية الفلسفية لوجدتَ أساسهما واحداً مع ذلك ،  
 فأملُ السعادة الخلاب البعيد الذي يسعى البشر لتحقيقه منذ قرون والذي تعرَّضه  
 على أعيننا مهامايا الخادعة ، أو الغواية السُكُبرى ، هو العامل الحقيقيّ لجميع أفعالنا  
 ولا حياةَ لنا بغيره ، نليس نأسس الديانات وإقامة الدول وإيقاد الحروب والثورات  
 وفتح البلدان وكلُّ ما يُسجَّل التاريخ سِيره ، عند الفيلسوف ، إلا قصصاً لحوادثَ  
 أتمها الإنسان سعياً وراء مَثَلٍ عالٍ دينيٍّ في دورٍ ، وسياسيٍّ أو اجتماعيٍّ في دور آخر ،  
 ومما لا ريب فيه أن المَثَلِ الأعلى الواجب الوجودَ والسيدَ المسيطر على أعمالنا والطيفَ  
 القادر على كلِّ شيءٍ بغير مواضعه هنا وهناك على الدوام ، ولكنه لن يزول إلا  
 بزوال آخر إنسان ، ونحن ، مهما نبُلِّغ من درجات الشكِّ ، لن نَفُكُل عنه طرفة  
 عينٍ من غير أن نحكم على أنفسنا بالموت حالاً .

## الفصل الثاني

### ديانات الهند الحاضرة

آراء الأوربيين الحاضرة في ديانات الهند - وجه الخطأ فيها - الفرون المطبعة بين مبادئ الهندوس ومبادئ الأوربيين الدينية - (١) الثالث الهندوسي : برما ووشنو وشيوا لاهوتية هذا الثالث - (٢) الشيتوانية - قدم شيوا - رموزه - عبادته - (٣) الرشتوية - قدم وشو - رموزه - نغمصاه - (٤) نوع ديانات الهند - تحولها المسيحية - يعطى اسم البرهمية الجديدة على مختلف المعتقدات - وصف هذه المعتقدات المنترك - كيف تؤسس المذاهب - (٥) أشكال ديانات الهندوس الخارجية - نفيد الهندوس بأشكالها في أمورهم الدينية - الزوبة والنفس وتلاوة الكتب المقدسة والصلوات والحج والفرابين - (٦) الجنية - أسوفا ونشودا - مشابهها للبدعية - (٧) مبادئ جميع أديان الهند العامة - الويدية والبرهمية والبرهمية الجديدة هي ديانة واحدة تنفرع منها البدعية والجنية - المبادئ المشتركة بين جميع ديانات الهند - (٨) الإسلام في الهند - أهمية الإسلام في الهند - في الهند محسوبون مليوناً مسلماً - كيف تحول الإسلام في الهند - اقتباساته من أديان الهند الأخرى - نمو الإسلام المستمر في الهند - (٩) تأثير الدين في الأخلاق عند الهندوس - فصل الدين عن الآداب عند الهندوس - إذا نظرنا إلى الهندوس من الماحية الأوربية وجدناهم أكثر الأمم ندينا وأفقا آداباً - لا يمالى آلهة الهند بغير واجبات الناس نحوها ، لا بواجب بعضهم نحو بعض - تقوم التعاليم الدينية الأساسية لدى الهندوس على استمالة الآلهة بالعبادة ونقاء الطائفة - الأهمية القليلة لبعض الجرائم في الهند - روح المحبة هي العصر الأدبي الذي نفذ في الهندوس بفضل البدعية - صفات الهندوس بسجيته لا بآدابه .

لم تؤدّ الجهود العلمية الحديثة إلا إلى إذاعة مختل الآراء حول ديانات الهند ،

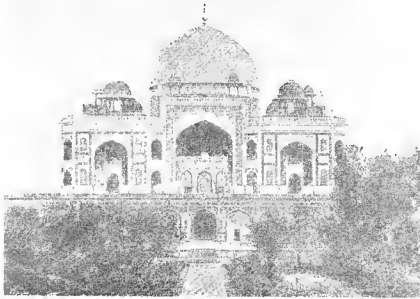
ورأينا ، حين البحث في البُدْهيّة ، درجة اختلاف هذه الديّانات في الحقيقة عما ورد في الكتب ، وتنفّد تعاريفنا الأوروبية الصريحة المضبوطة قيمتها إذا أريد تطبيقها على تلك المعتقدات المتحوّلة على الدوام والتي نَبَت في الهند ولا تزال تَنبُت في الهند فلم تَدَلَّ تسميتها بأسماء مشتركة على غير تشابه ظاهري ، وتتحد المعتقدات المتناقضة في نفوس الهندوس المذبذبة الخيالية البعيدة من المنطق اتحاداً لا نفهم أمره أبداً ، ويسجد الهندوسيّ الذي يكتب ، مُعْتَقِداً ، تأملاتٍ في الزندقة المتطرفة ، أمام ألوف الآلهة الغريبة الغليظة المروبة أو يُقَبِّل باحترام أثر قدّم بُدْهَه وِشْنو ، ولا يقتصر أمر الأديان في الهند على توافقها ، بل تجد بعض العقائد المتناقضة بجانب بعض في الدين الواحد ، ونحن إذ ندرس في الهند نفسها شعائر أديانها نُدرك تلك المتناقضات الغريبة علينا واختلاف معنى كلمة « الديانة » عند الهندوسيّ وعند الأوروبي .

وتُشَقُّ الديانات السائدة للهندوس في الوقت الحاضر ، نظرياً ، من الديانات التي كان يعمل بها في زمن الِويِدا وفي زمن مَنُو ما دامت تعترف بساطان الكتب القديمة المقدسة ، ولكنك تجد فرقاً بين الديانة الموصوفة في الفصول السابقة باسم الِويِديّة والبرهية والديانة الجديدة المعروفة بالبرهية الجديدة أو الهندوسية التي ظهرت في القرون الأولى بعد المسيح فقامت مقام البُدْهيّة مقداراً فقذاراً بابتلاعها إياها ، والبرهية الجديدة هذه هي التي ندرسها فيما بعد .

## ١ - الثالثُ الهندوسيّ

نُسمِّى المذاهب الكثيرة التي تتألف البرهية الجديدة أو الهندوسية من مجموعها إلى دِيانتين سائتين : دِيانة شِيوا ودِيانة وِشْنو ، ويتألف الثالثُ الهندوسيّ من

هذين الإلهين الكبيرين اللذين يُقدَّس لهما الهندوسى التقي مع برهما العظيم .  
ومع أن برهما أقوى هذه الآلهة الثلاثة فإنه ليس له عُبَادٌ خصوصيون ، ولانكاد  
تُجد في الهند معبداً خاصاً به ، وسبب ذلك هو أن الدين لدى الهندوسى تصويرى  
مادى ، فبينما تَعْمُر رموز شيوا وتقمصات وشنو المعابد بالأشكال والصور لم يُمَثَّل  
برهما تمثيلاً ظاهراً ، بل يُظَلُّ برهما هذا الروح الكبرى التى تُلمَس فتَهَب الحياة لجميع  
الخلق فيطمع الهندوسى أن يَفْنَى فيها .



١٤٥ - دهل . العصر المغولى ، مزار الملك جاويون ( أنفى . سنة ١٥٥٥ ) ، ( بنى هذا الأثر  
من حجارة حجر مرصعة بالرخام الأبيض على رصف تبلغ جوانبه ٨٨ متراً )

ولسكلَّ إله في الثالوث الهندوسى نصيبه في أمر العالم ، فأما برهما فهو البارى ،  
وأما وشنو فهو الحافظ ، وأما شيوا فهو المبيد ، ومع مناقضة شأن شيوا لشأن الإلهين

الآخرين فإن هذا لم يكن في الحقيقة ، فليس في الفلسفة الهندوسية موتٌ بالمعنى الصحيح ، فالإبادة والتحول فيها مترادفان ، فصورةُ السكون فيها تتحول بلا انقطاع من غير أن تنفَى عناصرُها ، فشيوا العظيم هو الذى يقوم بهذه التحولات ، وهو ، لذلك ، مُنْعَمٌ كالإلهين الآخرين ، وهو ، لذلك ، ظهيرُها الواجب الوجود . ونحن ، حين نُنعم النظر في شيوا المرحوب ، إله الإبادة والتحول الذى كانت تُقَرَّب إليه الضحايا الدامية ، والقرايين البشرية أحياناً ، كما تُقَرَّب إلى زوجته كالى ، ندرك أنه أقدم من عبده الهندوس وأنه يَطْلُؤُ الإلهَ الراجيح فى الثالث البرهمنى على ما يحتمل .

ولا تَجِد ، كالهندوس ، قوماً قطنوا إلى ما هو نسبى وهى متحول فى ظاهر الأشياء ، فعند الهندوسى أن الذى يدركه الإنسان من السكون ليس إلا مهامايا أو زهماً كبيراً ، والإنسان لا يدرك جوهر الأشياء أبداً ، وما يشعُر به من الطبيعة هو سلسلة التطورات التى لا أول لها ولا آخر ، وفى أعقاب العلل والمعاملات السرمدي ذلك يُبعث الأموات ويموتون بعد أن يُبعثوا ، ولكن الموت والبعث هذين من الظواهر ، وهما مظاهر لجهول ثابت جوهر متحول صورة .

وقد أبصر الهندوس ، منذ قرون ، المهامايا ، ذلك الوهم الأبدى الذى يندخ عيوننا ويُقيّد قلوبنا أو يُخزِنُها والذى يُخفى حقيقةً يتعذر على الإنسان أن يكأسها ، وعَرَف الهندوس كيف يدركونه ويَعْرِفونه فى زمن اعتقد فلاسفة الغرب فيه أنهم لَمَسوا المطلق ، فهناك عظمة الفكر الهندوسى البرهمنى أو البدهى .

والشعب لم يبال ، مع ذلك ، بتلك التأملات الفلسفية الصادرة عن قليل من

المفكرين كما قلنا ذلك حينما درسنا البُديهية ، فبدت هذه المُجرّدات التي لا تُدرَك هَيُولَةً لدى الشعب على الدوام .

## ٢ - الشَّيْوَائِيَّة

شَيَوا هو إله الإِبادَة ، وإن شئت فقل إله التحول ، هو إله الحياة والموت ، هو الإله الذى يُعدّ عضوُ التوليد من صفاته الرمزية فتقرَّب له القرايين مع ذلك ، هو إله الجوهر الأصلى الذى تصدر عنه الموجودات والموت الذى يَحُلُّها ، هو إله الهندِ الحقيقى ومبدع عبقرية عرقها .

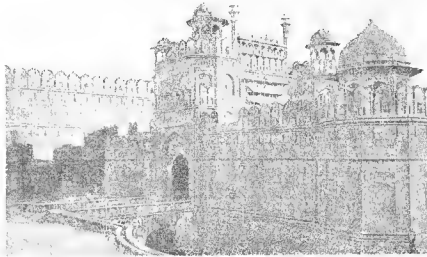
والإله شَيَوا هو أقدم آلهة البرهمية الجديدة ، ويمكن عدّه متحدّاً هو والإله رودرا الذى ذُكر فى الأغاني الآرية ، أى بإله الرياح الذى يأتى بالمطر وخضب الأرض ، ثم خُطِط بالإله أغنى ، وكان قدماء الآريين يُعدُّون النار أصل الحياة التى تسرى فى جميع الموجودات فتَهَب لها الحياة فيعبدونها بحجارة ، وكان الآريون أولئك يُعدُّون النار مُبيدة أو مُحَوِّلة فيَروُن إبادتها للعادة تودى إلى تناسخات بعيدة الغور .

وانتقل شأن الإله أغنى وصفاته إلى شَيَوا فى البرهمية ، وظاهرةُ هذا الإله ذى الاسم الجديد وشعائره دينة مما ذكره ميفاستين فى القرون القديمة فشَبَّهه بديونيزوس الإغريق ، واتخذ القومُ رمزَ شَيَوا ، وهو عضو التوليد ، حوالى بدء التاريخ الميلادى لاريب ، فلما دام محمود الفرنوى بمغازيه فى القرن الحادى عشر كان يوجد اثنا عشر معبداً مشهوراً لتقدّس هذا الرمز .

وجُهِال القوم إذ أشرّوا حبَّ الوثنية بالتدريج جعلوا مما هو رمزُ إلهها حقيقياً ، فظهر المذهب القضييُّ الذى اتخذ عبادة شَيَوا فى صورة عضو التوليد موضوعاً له ،

فترى جميع معابدهم مملوءة بهذا الرمز ، ويحملون عليهم تصاوير صغيرة له من ذهب أو فضة على الدوام ، فيَقْبَلُونَهَا بين حين وحين مُصَلِّينَ لها .

وكان مؤسس هذا المذهب يَئِسُوا يعيش في القرن الثاني عشر فيقول بإنهاء نظام الطوائف فنال نفوذاً كبيراً ، ثم تلاشت مبادئه بموته ، ولكنه ابتدع مذهباً قائماً على الذِّكُورَةِ متخذاً عضواً للتوليد إليها فظل هذا المذهب سائداً للدراويد في ميسور ونظام وجميع جنوب الهند .



١٤٦ — دهلي . العصر المغولي ، مدخل قصر مالوك الدول ( بديء بإنشائه سنة ١٦٣٨ )

ولم يلبث رمزُ عضو الاستيلاد في النساء أن بدا في تلك المعابد بجانب رمز عضو التوليد في الذكور فصار الشيوائيون يُصَلُّون له ، ويمثل هذا الرمز زوجة شيبوا ، پاروتى أو كالى ، أى إلهة الحياة والموت والأم التى خرج العالم منها وإليها مرَّده . ولا تجدد عبادة أدت إلى مناظر مخالفة للذوق والأدب كمعبادة كالى الهائلة .



وَأَسْرَعَانِ مَا أَصْبَحَتْ تِلْكَ الْعِبَادَةُ مَأْلُوفَةً لَدَى أَشَدِّ قِبَالِ الْهِنْدِ جَلَمًا فَاخْتَلَطَتْ  
بِعِبَادَةِ إِلَهِةِ سُكَّانِ الْبِلَادِ الْأَصْلِيِّينَ الزُّنُوجِ الْوَحْشِيَةِ الْمُسْرِجَةِ ، وَفِي سَبِيلِ تَمْجِيدِ  
هَذِهِ الْإِلَهِةِ امْتَزَجَتْ الدَّعَاوَةُ بِالْقِسْوَةِ فَأَرَبِقَتْ عَلَى مَذَاجِ مَعَابِدِهَا دُمَاءَ الضَّحَايَا  
الْبَشَرِيَّةِ الْآخِرَةِ الَّتِي أُبْطِلَ نَفَرِييُهَا فِي الزَّمَنِ الْآخِرِ إِلَى الْأَبَدِ لَدَى الْأَهَالِي الْبَرَاهِمَةِ ،  
وَلَا يَزَالُ يُرَى فِي مَعَابِدِهَا مِنَ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالِدَّعَاوَةِ مَا يَسْتَحِيلُ وَصْفُهُ ،  
وَأُظْهِرَ مَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي الْمَعَابِدِ الَّتِي يَتَرَدَّدُ إِلَيْهَا الشَّيْوَانِيُّونَ أَصْحَابُ الْيَدِ الْيَسْرَى .

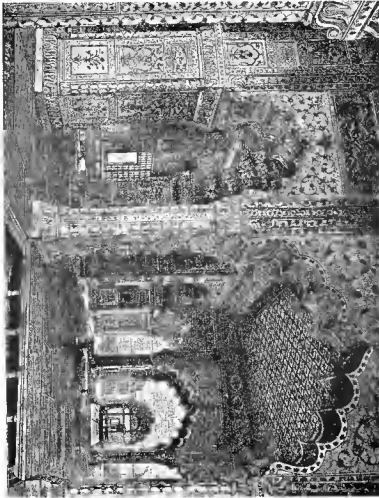
### ٣ - الْوِشْنَوِيَّةُ

لَيْسَ الْإِلَهِ الْأَعْلَى وَشْنُو ، إِلَهُ الْهِنْدُوسِ الْبَرَاهِمَةِ الَّذِينَ لَيْسُوا مِنْ أَتْبَاعِ شِيوَا ،  
قَدِيمًا قَدِيمَ هَذَا الْإِلَهِ الْمُنَافِسِ الْمَرْهُوبِ ، وَلَوْشْنُو ذِكْرٌ غَالِبٌ فِي كُتُبِ الْوَيْدَا مَعَ ذَلِكَ ،  
وَعَنْهُ حَدَّثَ مِيغَاسْتِينُ فَشَبَّهَ بِهِرْقْلِسَ الْإِغْرِيْقِي .

وَيُجِيبُ وَشْنُو عَنْ احْتِيَاجَاتِ الْقَلْبِ الْأَبَدِيَّةِ عَلَى حِينٍ يَخْاطَبُ شِيوَا الذِّكَاةَ  
فِيَعْتَدِ شِيوَا هَذَا عُنْوَانَ عِبْقَرِيَّةِ الْهِنْدُوسِيِّ فِي تَهَهُمِ الْكَوْنِ ، وَوِشْنُو ذَلِكَ هُوَ إِلَهُ  
الْحُبِّ وَالْإِيمَانِ ، وَيَتَطَلَّبُ اتِّبَاعَ شِيوَا عَمَلًا لِنَيْلِ النِّجَاحِ وَقَهْرِ الشَّهَوَاتِ وَالتَّجَنُّبِ إِلَى  
شَدِيدِ الْعِبَادَاتِ ، وَمِنْ أَتْبَاعِ شِيوَا ، أَوْ كَالِي ، تَجِدُ الزُّهَّادَ الْحَقِيقِيِّينَ مَعَ مَا تَرَاهُ مِنَ  
السَّفَهَةِ فِي أَعْيَادِهِ .

وِدْيَانَةُ وَشْنُو ، كِدْيَانَةُ شِيوَا ، لَمْ تَبْقَ رُوحِيَّةٌ رَمْزِيَّةٌ ، وَالْهِنْدُوسُ يُرْغَبُونَ فِي  
الصُّورِ الْمُظَاهِرَةِ لِعِبَادَتِهَا أَكْثَرَ مِنْ أَىِّ شَعْبٍ آخَرَ ، فَلَمْ تَجِدْ نَفْعًا لِهَيْوَاتِ الْمَصْلُحِينَ  
فِي تَفْسِيرِ أَدْيَانِ الْهِنْدُوسِ بِمَا يَلَاثِمُ التَّوْحِيدَ ، فَلَا يَزَالُ الْهِنْدُوسُ كَمَا فِي الْعَصْرِ  
الْوَيْدِيِّ يَتَحَدَّثُونَ فِي كُلِّ شَيْءٍ مَا يَعْبُدُونَ فَيَكُونُ مَوْضِعَ عِبَادَةٍ فِيهَا لَا يَدْرِكُونَ  
فَيَرْهَبُونَ .

ولم تَحْبَطْ بمجهودات براهمة الهندوس ومفكريهم في ابتداع مذهب توحيدى  
فقط ، بل حَبِطَتْ ، أيضاً ، في جمع هذا الاحتياج الدائم إلى العبادة في إلهين كبيرين  
أو ثلاثة آلهة كبيرة ، أَجَلٌ ، إن الشعب الهندوسى استمع لوعظ هؤلاء المفكرين ،  
ورضى بمذاهبهم طائفاً ، واسكن هذه المذاهب لم تلبث ، بعد أن نَفَذَتْ فيه ،



١٤٧ - دهل . روضة الاستقبال في قصر ملوك القل .

أن تحولت وكثُرَت وانقسمت واكتسبت مظاهرَ واكتسبت بألوان وحياة أى تَحَدَّثت .

وِشْنُو هو إله واحد لدى الهندوس لا ريب ، بيد أن هذا الإله اكتسب صوراً مختلفة يَتَمَثَّلُ تعريفها وعَدُّها ، فترى بين هذه الصُّورَ صُوراً للغيلان والأبطال والإنسان والحيوان فضلاً عن كوكب الشمس الكريم القادر الذى اختلط به وِشْنُو منذ أقدم العصور .

وَمَثَلُ تلك التَقَمُّصَاتُ ، المعروفةُ بأوتار وِشْنُو ، آلهةٌ كثيرة خاصة يُعْبَدُ كل واحد منها ، على الخصوص ، بحسب المكان والجيل والمقام الاجتماعى ، وتَرَجِّع التَقَمُّصَاتُ الأساسية التى ذُكِرَت فى الكتب المقدسة المعروفة فيَقْدَسُ لها الوِشْنُوون إلى عشرة فقط ، وأما التَقَمُّصَاتُ الأخرى فلا تَعْرِفُ قاعدة ولا حَدّاً لما بُدِّلَ منها فى كلِّ يوم .

من أجل ذلك مُمَكِّنَ دعوة الهندوس إلى عبادة أى إله من غير خوف مهما كان هذا الإله رفيعاً أو غليظاً ، فالهندوس لا يقاومون الداعى إما ظهر من أنهم أكثر شعوب الأرض تسامحاً ، ومن المحتمل أن يَرْتَضَوْا عنه من غير صموبة فيجعلوا منه فى الحال واحداً من تَقَمُّصَات وِشْنُو .

ومن ذلك أنكَ ترى جهود مبشرى النصرارى غير مُجْدِيَةٍ فى الهند ، فلم يلبث المسيح ، الذى لا يَبْعُدُ قصته عن قصة كِرشنا ، أن صار واحداً من تَقَمُّصَات وِشْنُو ، فيُجِيبُ الهندوس عن أدلة المبشرين بأنه ليس لدى المبشرين ما يتعلمونه ما دام الهندوس نصارى أكثر من النصرارى ، ومن ذلك أن عَدَّ بعض الهندوس

ولى عهد إنسكارة من تَمَّ صاب وشنو حينما زار بلاد الهند وأُحيط بضروب العظمة والجلال .

واثنان من تَمَّ صات وشنو شعبيان فى الهند ، وهما يُعرفان راما وكرشنا .  
ولا نستطيع أن نَمَّين تاريخاً صحيحاً لوضع ديوان الراماينا وديوان المهابهارتا اللذين جُذِّتَ فيهما أعمال ذينك البطلين راما وكرشنا ، وأمرُ هذين الديوانين عند الهندوس مشابهٌ لأمر دواوين هوميروس عند الإغريق ، فهما مدار فخر الهندوس الأدبى ، وهما مصدر إلهام لا يَنْضُب لدى شعرائهم ، وهما منبع أساطير لدى جماهيرهم المولعة بالخرافات .

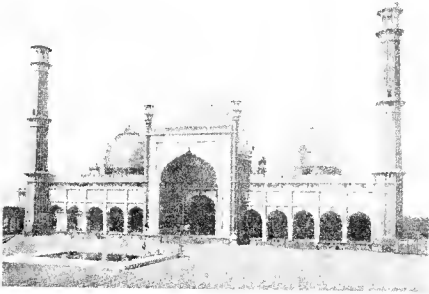
ووضِعَ ذانك الديوانان المشهوران وعدلاً وزيداً فى قرون ، فكانا موجودين حينما تَجَدَّدَ الشعب بطليَّة المنصورين العظيمين راما وكرشنا فجَعَلَ منهما تَمَّ صين لوشنو .

وليس مجد انتصارات ذينك البطلين (راما وكرشنا) ، وحده ، هو ما أُعْجِبَ به الهندوس بل أُعْجِبُوا ، أيضاً ، بما اتصفوا به من الحلم وال عاطفة والحب ، ولم يَنْشَبَ الخنان الخافل بالأسرار الذى كانت الأفئدة تَهْمُو به نحوَ وشنو أنقلب إلى حبٍ بشرى حَسْبَى حارٍّ قائم على الشهوة فى الغالب ، وذلك حينما أصبح موضوعه صورثا ذينك البطلين (راما وكرشنا) اللتان أَسْمَآن حياة .

وفى شخص راما يُمَبَّد فاتح الهند وسيلان والغالب الذى تَمَّ بفضلُه انتصار العرق الآرى ، ولكنه زوجٌ سيتا قبل كل شىء ، وهذان الزوجان الخلفان العاشقان هما ، فى الوقت نفسه ، شيوا وزوجته إلهة الجمال لَكْشْمى ، وما كانت عليه سيتا

من النّفس والوفاء وما أوحى به إلى راما من الحب الشديد مشاعرٌ قويةٌ خصّبةٌ  
أورثت الهند إيماناً ورقّةً منذ قرون .

وإليك ما قاله في هذا الموضوع الكاتب الهندوسى والمفكر الحرّ السيد  
ملبارى فى كتاب نشره حديثاً بعنوان « كجرات وأهلها » فاستشهدنا به فى  
فصل آخر :



١٤٨ - دلهى . العصر المذولى ، سجن المسجد الكبير ( عرض : نحو ٦٢ متراً ، ارتفاع  
المنذنة : ٤٠ متراً ) ( أنهى سنة ١٦٥٨ )

« طوبى لذلك الشعب الذى اتّخذ راما وسيتاً مثلاً عالياً له ، طوبى لذلك البلد  
الذى يدفع ضريبة الإخلاص والتّقديس لذيّنك الزوجين المنقطعى النّفيل ، ترى الصانع  
( ٣٩ )

الهِرَمِ الْقَطْرَ وَزَوْجَتَهُ السَّاذِجَةَ الْجَاهِلَةَ وابْنَتَهُ الْغَنَاءَ الْعَذْبَةَ لِلسَّالِيَةِ يَسْكُبُونَ دُمُوعَ  
الْوَفَاءِ حِينَمَا يَتَلَوُ السَّكَّاهُنَ مَا تَتَمَثَّرُ مِنَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ ، فَطَوُّوْنِي ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ،  
لِمَنْ قَدَّرَ ، وَهُوَ رَجُلٌ ، عَلَى الْارْتِقَاءِ إِلَى مَرْتَبَةِ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ فَأَبْدِعْ مَوْجُودِيْنَ مِنْ  
الْظَّرْفِ الرَّفِيعِ . »

وَتَمَثَّرُ الرَّاِمَانِيَا تَعْبِيرًا عَالِيًّا عَنْ مَسَارِّ الْأُسْرَةِ الَّتِي أَتَتْ فِي الْمَرْتَبَةِ الْأُولَى لَدَى  
الْأَرَبِيِّينَ عَلَى الدَّوَامِ ، فَتَجِدُ فِي كِرْشِنَا الْعَاشِقِ الْكَامِلِ الْغَاوِيِ الْمَلْتَهَبِ مِنْذُ صَبَاهِ  
غَرَامًا يَبْنِتُ الْهَوَى الْكَثِيرَاتِ فَتَنْ جَمِيعَ النِّسَاءِ فَكَانَ ، مَعَ رَامَا الْجَمِيلِ ، أَكْثَرَ  
أَبْطَالِ الْهِنْدِ حُظْوَةً لَدَى الشَّعْبِ .

وَلَيْسَتْ أُسْطُورَةُ كِرْشِنَا الصَّبِيِّ بَعِيدَةً مِنْ أُسْطُورَةِ يَسُوعَ ، فَكِرْشِنَا هَذَا عَزِيزٌ  
عَلَى جَمِيعِ الْأُمَمَاتِ الْهِنْدُوسِيَّاتِ عِزَّةَ يَسُوعَ الطِّفْلِ عَلَى أُمَمَاتِ النَّصَارَى ، وَمَا يَأْتِيهِ  
النِّسْوَةُ النَّوَاسِكُ وَالْبَنَاتُ وَالْأَرَامِلُ مِنْ عِبَادَةِ ذَلِكَ الْإِلَهِ الْعَاشِقِ عِبَادَةً حَارَّةً  
حَافِلَةً بِالْأَسْرَارِ هُوَ كَعِبَادَةِ نِسْوَةِ الْغَرْبِ ، فِي الْغَالِبِ ، لَزَوْجِهِنَ السَّهَوِيِّ يَسُوعَ  
الْمُصْلُوبِ .

وَمَا فِي دِيَارَةِ وَشْنُو مِنْ الْغَرَامِ يَأْتِي فِي الْهِنْدِ ذَاتِ الْجَوْءِ الْحَرَقِ وَذَاتِ السَّكَّانِ  
الْمَلْتَهَبِي الْمَزَاجِ بِنَتَائِجٍ مُخَالَفَةٍ لِلْأَدَابِ الْأَوْرَبِيَّةِ .

وَتَجِدُ فِي كَجَرَاتِ ، عَلَى الْخُصُوصِ ، بَعْضَ الْمَذَاهِبِ الْقَائِلَةِ بِعِبَادَةِ كِرْشِنَا  
فَيَدْعِي كَهْمَانُهَا بِالْمَهَارِاجَوَاتِ ، فَمِنْ أَقْصَى أَمَالِ النِّسَاءِ هُنَاكَ أَنْ يُصْبِحْنَ عَاشِقَاتٍ  
لِكِرْشِنَا أَوْ لِمِثْلِيهِ أُولَئِكَ الْكَهْمَانُ الَّذِينَ يَبِيعُونَ قَضَاءَ الْأَوْطَارِ بِأَعْلَى الْأَسْوَارِ ،  
فَاسْمِعْ مَا قَالَهُ فِي ذَلِكَ الْكَاتِبِ الْهِنْدُوسِي السَّيِّدِ مَلْبَارِي الَّذِي ذَكَرْتَهُ غَيْرَ مَرَّةٍ :

« قد يرى الأوربيون أن المهاراجوية خرافةٌ شائنةٌ أو طريقةٌ شهوانيةٌ ساقطةٌ ،  
بيد أن ألوف الأسر الهندوسية ستظلُّ رازحةً تحت زيرها البهيمى ما بقى هذا النير  
مستترًا تحت رائحة الطُّهر » .

#### ٤ - تنوع ديانات الهند وتحولاتها المستمرة



١٤٩ - دهلي . العصر المغول ، مزار  
صفدرجنك بالغرب من دهلي (هذا الأمر الذى  
أنشئ سنة ١٧٥٤ هو آخر المباني المهمة  
التي أنشئت في العصر المغولي ، وهو مبنى  
من حجارة حجر مرصعة بالرخام الأبيض )  
( يبلغ عرض هذا المزار ثلاثين متراً )

رسمنا خطوط ديانة وشنو وديانة  
شيفا ، وأشرنا إلى العقيدة القائلة بالثالوث  
المؤلف من هذين الإلهين ومن برهما فبدت  
أساساً لجميع المعتقدات .

ومن المتعذر أن نصِّف للقارى جميع  
ديانات الهند التي لا تسكاد تحصى وأن  
نصِّف ما يعنونه هذه الديانات من التحول  
الدائم ، فليس بين هذه الديانات ما هو  
ثابت ، وكلُّ واحدة منها ترجع إلى  
أقدم القرون فتجدُ مصدرها في كتب

الويدا ، نعم ، يجمعها اسم البرهمية الجديدة أو الهندوسية المشترك ، ولكنها بلغت  
من كثرة العدد والتنوع ما تُشبه بورق الشجر في غابة كبيرة ، وتميل كلها إلى التوحيد ،  
ولا سيما أنها تشتمل على ألوف الآلهة وعلى أصنام حجرية وخشبية ، في الغالب ،  
ممثلة لأغلظ الأدوات ، ويُسْتَقَّ من كل واحدة منها أفكارٌ فلسفية تورث العجب

بِعَوْرِهَا البعيد ، كما أنك ترى في كلِّ واحدة منها أسخفَ الخرافات .  
 وإذا أردنا أن نلخصها في مجموعها بيضع كلات قلنا إنها تقوم على الآلهة  
 البرهمية القديمة المؤلفة من قُوسَى الطبيعة التى أَلَهَتْهَا كتب الويدا وشَخَّصَهَا البراهمة ،  
 ثم جاءت البُدْهِيَّةُ فالأنت هذه الآلهة المزججة الحاقدة القاسية وجعلتها رحيمة ، وتَجِدُ  
 تأثير البُدْهِيَّةِ ظاهراً في جميع فروع البرهمية الجديدة لما يَبْدُو من تَسَرُّبِ روحها  
 ذاتِ المحبة والرأفة في كلِّ مكان ، وضاعت البُدْهِيَّةُ ، التى هى بشريةٌ بما تأمر به  
 من المحبة التى هى فوق البشرية بفلسفتها المجردة ، بأحد الأمرين وانتصرت بالأمر  
 الآخر ، فحافظ بُدْهَةٌ على ألوهيته بين الآلهة الكثيرة التى تملأُ المعابد مع تحوله إلى  
 واحد من تَقَمُّصَاتِ وِشْنُو .



١٥٠ - دهلى (العصر الفول) . ضريح من الرخام  
 الأبيض فى داخل المزار السابق

ويمكننا أن نستخلص من  
 اختلاط المذاهب والآلهة ذلك ثلاثة  
 خطوط أو أربعة خطوط أساسية عن  
 عبقرية الهند الدينية ، وهذه الخطوط  
 تدور حول كيفية تصور العالم وميل  
 الروح إلى التوحيد وميل الخيال إلى  
 الإِشْرَاق والتسامح المطلق والإِخْواء بين العقائد المتناقضة ، ألم يكن هذا التنوع الذى  
 لاحدَ له تَرَاثٌ قديماء الآريين ونتيجةً ذهنيةً هذا العرق الذى يُوَثَّرُ فيه منظر الطبيعة  
 الدائمُ التحولِ والمملوء عظمةً وتبايناً ؟ .

ولا تَجِدُ في لغات الغرب الباردة المُتَبَرِّزة التى تُوصَفُ بها الآفاق الرائعة القائمة  
 المُبِلَّةُ ، فى الغسالب ، غيرَ ثلاثة نعوت أو أربعة نعوت صالحة لتعريف لون السماء



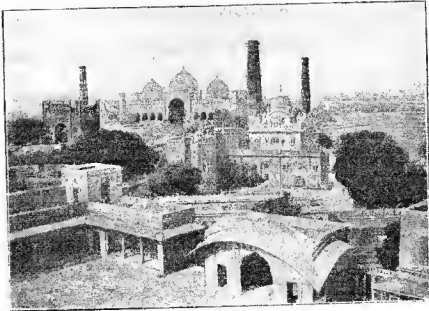
وشكل السحاب وحركة عين الماء ، حتى إن هوميروس نفسه دَلَّ بكلمة واحدة على شاطئ أشيل أو جلالة جوبيتر (المشتري) فلم يتحول عن هذه الكلمة بجانب اسم كلِّ إله أو بطلٍ مصوراً له بمنظر واحد على الدوام .

وغير ذلك أمر الويدا ، فلا ترى في كتب الويدا سحاباً واحداً ، بل ترى فيها ألوف السُّحُب من كلِّ الألوان والأشكال المتحركة أو الثابتة بحسب ما تبدو للشاعر في السماء بالحقيقة ، وفي الويدا ، كما في الطبيعة ، تَقَلَّبُ في لَهَبٍ أُغْنِي وأمواج سوما وجَرَى الرياح وألوان الشَّمَقِ والنَّجْمِ والآلهة الكثيرة مادام كلُّ شيء إلهاً ، وتبصر مثل هذه الكثرة في البرهمية الجديدة ما انقلبت مظاهر قُوَى السكون إلى آلهة هيولية . وحيثما يَمَثُلُ الهندوسى المؤمنُ إلههُ على وجه من وجوهه وصفة من صفاته يكون قد أُنْفِذَ بذلك مذهباً ، ولا يحتاج تأسيس مذهب إلى مؤسس برهمنى ، ما أصبح أناس من الطبقات الدنيا من المصلحين في بعض الأحيان ، فلا يكاد الخُبر يجمع حوله بعض المُريدِين حتى يصيرَ زعيماً مرشداً ، وإذا لم يُقَيِّضْ لهذا الخُبر أن يُفسَّرَ مذهبه الخالص قام خلفاؤه المرشدون مقامه في ذلك ، وقد يصير المرء مرشداً بالوراثة أو بالاستعداد ، ويكون المرشد في الغالب من غير طائفة الكُهان ، ويبدو المرشد مُلْهِماً من الله فيتنفق له نفوذٌ عظيم .

ونَعُدُّ مؤسسَ مذهب السَّك نَانَك من أشهر زعماء الهند المرشدين وأجدرهم بالذكر في تاريخها ، فَنَانَكُ هذا وُلِدَ بالقرب من لاهور في أواخر القرن الخامس عشر ، فَخْطِلَ إليه أن يقيم دِيَانَةً قائِمة على التوحيد جامعة للسائدين والهندوس ، فكان له الأتباع من الجات التورانيين المقيمين بوادى السُّند .

داوم ذلك المذهب على الازدهار خلافاً لما يحدث عادةً ، فلم يَمُتْ قرنان على

وفاة مؤسسه حتى نَظَّمه المرشد غووند سنغ تنظيمًا عسكريًا فانقلب المذهب إلى شعب  
جسور غدا نذير سوء على الغول وبدا مقاتلاً قوياً تجاه الإنكليز زمناً طويلاً ، ومما  
قلناه في فصل سابق أن السَّك أصبحوا عرقاً حقيقياً من أجل عروق الهند بفضل  
ما قاموا به منذ البداءة من الرياضات البدنية وبفضل تزاوجهم فيما بينهم .



١٥١ - لاهور . منظر مسجد أورنغ زب ( أُقيم في القرن السابع عشر ) ومنظر مزار رنجبت  
سنغها ( أُقيم في القرن التاسع عشر ) ( التفتت هذه الصورة من أعلى القلعة )

أوردنا مثال السَّك لإثبات ما قد يُسفر عنه تأسيس المذاهب الدينية في الهند من  
النتائج ، أجل ، إن قليلاً من المذاهب يَصِل إلى ما انتهى إليه مذهب السَّك من  
الأهمية ، غير أنه عَمَب جميع هذه المذاهب قيام طوائف جديدة لا يتراوح أفرادها  
إلا فيما بينهم عَادَّين جميع سكان الهند أجانِب عنهم كالأوربيين ، والحقُّ أن هنالك  
أسباباً كثيرة تحول دون انصهار شعوب الهند في أمة واحدة ذات يوم ، وانقسام أهل  
الهند إلى طوائف يكفي وحده ليمنع حدوث هذا الانصهار .

ونذكر ديانات سكان الهند الأصليين بجانب الديانات الكثيرة التي بُعِثَتْ تحت اسم البرهمية الجديدة ، وقد قلنا بضع كلمات عن تلك الديانات في الفصل الذي خصصناه للبحث في العروق ، ومن أظهر ما في تلك الديانات عبادةُ جِنِّ الهواء وعبادةُ الحيوانات للمؤذية كالأفاعى والأثمار ، ومما رأيناه في نلغيرى وجودُ أقوام من الرعاة ، نذكر منهم البداغا والتودا على الخصوص ، يتخذون من أبقارهم وثيرانهم آلهةً ومن رُعاتهم كُهمانًا .

وقد أثرت تلك الديانات الوثنية في البراهمة أنفسهم ، ومن ذلك الشأن الكبير الذى تراه لعبادة الحيوانات في جميع ديانات الهند على الإطلاق ، والأفنى والبقرة أكثر هذه الحيوانات محلاً للاحترام ، فلا تجِد في الهند قومًا لا يُقدِّسون لها .



١٥٢ - لاهور. مزار رنجهت سنغها ومثدنة  
لسجد أورنغ زيب

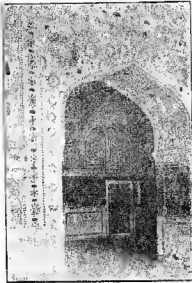
وذبح البقرة أو قتلُ الحية من أفعط الجرائم عند بُدهي نيبال وبراومة وادى الغنَج ووحوش غوندوانا ، فترى صورة الأفنى بجانب تماثيل الآلهة في جميع المعابد ، وترى الثعبان والقرد خاصَّين بوشنو ، كما أن البقرة والثور خاصان بشيوا .

ويُعبد الإله الشمس في الهند منذ القديم ، وتُمزج عبادته بجميع دياناتها ، وكان الآريون يتقربون إليه بالأدعية والصلوات ، فشادوا بذكره في أروع الأقوال ، وشخصه

حَقَّقْتَهُمْ فِي وَشْنُو كَا رَأَيْنَا ، وَتَجِدُ مِنَ الْآرِيِّينَ وَالْدِرَاوِيدِ وَالسَّكَّانِ الْأَصْلِيِّينَ مِنْ  
يَدْعُونَ الْإِلَهَ الشَّمْسَ رَأْسًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُشَخَّصُوهُ .

## ٥ - أشكالُ دِيَانَاتِ الْهِنْدُوسِ الْخَارِجِيَّةِ

يُحِبُّ الْهِنْدُوسُ الصُّورَ وَالْعَلَامَتِمْ الْخَارِجِيَّةِ ، فَهَمُ شَكْلِيُّونَ فِي مُمَارَسَةِ أَدْيَانِهِمْ  
مَهْمَا كَانَ نَوْعُهَا ، وَتَجِدُ مَعَابِدَهُمْ مَمْلُوءَةً بِالرَّمُوزِ الَّتِي تُشِيرُ إِلَى عَضْوِ التَّوَلِيدِ وَعَضْوِ  
الْإِسْتِيلَادِ ، وَبَلَّغُوا مِنَ الْعُلُوءِ فِي ذَلِكَ مَا تَرَى أَعْمَدَةً أَشْوَكََا حَافِلَةً بِمَعَهُ بِرَمُوزِ عَضْوِ  
التَّوَلِيدِ ، وَهَمُ يَجِدُونَ فِي كُلِّ أَسْطُوَانَةٍ أَوْ سَارِيَّةِ أَدَاةَ لِلْإِحْقَامِ وَالْتَقْدِيسِ .

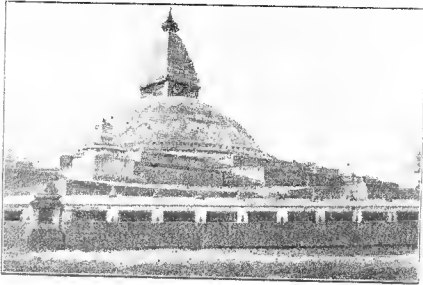


وَمَا يَجِبُ الْتَوَابُ عِنْدَ الْهِنْدُوسِ  
النَّذُورُ وَالتَّوْبَةُ وَالتَّقَشُّفُ وَتِلَاوَةُ الْكِتَابِ  
الْمَقْدَسَةِ وَالْأُورَادُ وَالصَّلَوَاتُ وَالْحُجَّ ، فَيَقُومُونَ  
بِهَذِهِ الْوَاجِبَاتِ خَيْرَ قِيَامٍ ، وَلَا تَرَى قَوْمًا ،  
كَالْهِنْدُوسِ ، يَتَشَدَّدُونَ فِي مُمَارَسَةِ الْفُرُوضِ  
الِدِينِيَّةِ .

وَالرَّغْوِيدُ أَكْثَرَ الْكِتَابِ دِرَاسَةً مِنْ قَبْلِ  
الْبَرَاهْمَةِ وَالْمُؤْمِنِينَ ، وَيُنَالُ مَنْ يَتْلُوهُ ثَوَابًا  
عَظِيمًا ، وَلِللُّغَةِ السَّنَسْكَرِيَّةِ الَّتِي كُتِبَ بِهَا  
شَأْنُ كَبِيرٍ لَدَى الْهِنْدُوسِ كَشَّانُ اللَّاتِينِيَّةِ  
لَدَى الْكَاثُولِيكِ وَشَأْنُ الْعِبْرِيَّةِ لَدَى بَنِي  
إِسْرَائِيلَ ، وَلَا بُدَّ لِلْأُدْعِيَةِ عِنْدَ الْهِنْدُوسِ

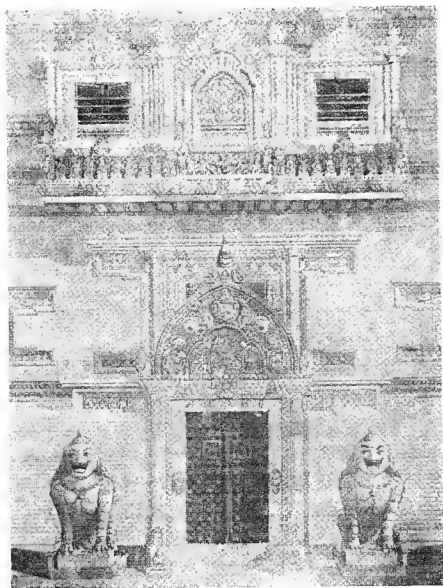
١٥٣ - لَاهُور . مَدْخَلُ رَوَاقٍ فِي فَصْرِ  
الْمَرَايَا ( يَرْجَمُ أَفْنَمُ أَجْزَاءُ فَصْرِ لَاهُورِ إِلَى  
عَهْدِ الْمَلِكِ الْكَبِيرِ وَهُوَ الْآنَ سَائِرَةٌ إِلَى الْخِرَابِ ،  
وَقَدْ بَنَى مَدْخَلَ الرِّوَااقِ الظَّاهِرَ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ  
حِينَئِذٍ كَانَ رَغِيثُ سَنَفْهَا مَلِكُ لَاهُورِ )

من أن تُحفظ وتُكرَّر عن ظهر القلب عدَّةَ مرات ، فتراهم يستمعون على ذلك بالأسبُحات ، واستعملت النواقيسُ في المعابد البُدْهيَّة على الخصوص ، ثم استُبدلت الأفراس النحاسية بها في المعابد البرهمية على العموم ، وكانت القرايين كثيرة فيما مضى فتألف منها أهمُّ الشعائر الدينية ، ثم فُقدت اليوم شيئاً كبيراً من سابق شأنها ، وما كان ليُوضَّع على مذبحٍ وشنو غيرُ الأزهار والأثمار ، مع أن القرايين الدامية ، ومنها القرايين البشرية في بعض الأحيان ، كانت تُقرَّب إلى شيوخها .



١٥٤ - بدعة ناتھ ( نيال ) . منظر المعبد الكبير ( يبلغ ارتفاعه نحو ٤٢ متراً و يبلغ نظره نحو ٩٠ متراً ) ( انظر إلى المطالب الحاس بفن البناء الهندي النيق من فصل فن البناء للوقوف على تاريخ إقامة مباني نيال )

وكان للسكينة أهمية كبيرة ، وكانوا أعظمَ ثقَافةٍ مما هم عليه في أيامنا ، وكانوا يفسرون للوُهميين نصوصَ الكتب المقدسة الغامضة مجاناً ، وكانوا يمارسون في معابدهم الرائعة الطقوسَ ويُقرَّبون القرايين باحتفال عظيم .



١٥٥ - بَابُ ( بَيْيَال ) . بَابُ قِصْرِ الْمَلِكِ ( مَصْنُوعٌ مِنَ الْبُرُونِزِ )

وكانت مظاهرُ الأبهة في بعض المعابد المشهورة بالهند باديةً ، وكانت أيام الأعياد الدينية تنمّ رائحةً ، ولا يزال الحجيج الذين يزورون بنارس وجسكن ناتيه ومعابد جنوب الهند الكبيرة يُمدّون بثلاث الألوف في كل سنة ، ودخلُ هذه المعابد ، ولا سيما داخل ما هو غائم منها في جنوب الهند ، رائعٌ إلى الغاية ، وهو يُحرّك نفوس المؤمنين الذين يأتون من أقاصى البلاد تحريكَ احترامٍ ووجلٍ ليضربوا إلى الآلهة الملهوبة .

وأما كن الحجّ الشهيرة مشتركةٌ ، في الغالب ، بين الديانتين الكبيرتين : الوشوية والشّيوائية ، فيختلط أتباع تينك الديانتين بعضهم ببعض في المواسم ، وغير قليل أن يحضر المسامون هذه المواسم عن تقوى ، لا للاستطلاع فقط ، فيعظم الجمهور بهم .

ولا مكان للحجّ في الهند أشهرٌ من جسكن ناتيه أو پورى الواقعة على شاطئ أوريسه ، ولا مكان في الهند يتجلى فيه الإخاء بين أديان الهند واختلافها كذلك المكان الذى يُمثّل جميعها فيه ، فالهندوسى ، مهما كان دينه ، ومهما كان بُعد البلد الذى يسكنه ، ومهما كانت مصاعب الرحلة ، لا يألو جهداً في زيارة جسكن ناتيه مرةً واحدة في عمره .

ويقاسمُ وشنو الكتيّب المشؤومَ شيوا عبادة الجمهور الذى يبلغ بتقواه الهائجة درجة الهذيان ويسير الجمهور مركبة أى معبده الدوّار ، وبلغ بعض متعصبى الجموع من الحماسة في غابر الأزمنة الابتدائية ما كانوا يلقون به أنفسهم تحت عجله فرحين . وفى الهند أما كنُ حجّ كثيرة أقل أهمية من بنارس وجسكن ناتيه على العموم ، وتعدّ ضفاف نهر الغنّج مقدسة من منبعه إلى مصبه فيأتى المؤمنون إلى زيارتها من



١٥٦ - يتن ( نيبال ) . المعبد الحجري الكبير القائم أمام قصر الملك ( هنا المعبد هو الذي ترى  
تسميته في الصورة التي رقمها ٧ ، فهذا المعبد هو ، بالحقيقة ، من أكثر مباني الهند بداعة ، وفداً لنفطنا  
جميع صور هذا الجزء من كتابنا بأنفسنا الزين ما نشرناه في مجلة « حول العالم » من أنباء . رحلتنا في نيبال )



أقصى البلاد ، وأعدّ مياه الفَنج مقدسة أيضاً فتنقل بين مكان وآخر في الهند بأجر عالية ، ولا تخلو قصور بعض الراجوات من مقادير منها للغسل .

ذكرنا في وصفنا لطبيعة بلاد الهند ، وذلك حين البحث في أنهارها ، أن الهندوس يعدّون جميع مجارى المياه مقدسة ، ولا نهر في الهند ، مع ذلك ، يقرب من نهر الفَنج تقديساً ، وترجع عبادة النياييع والسُحب والرياح الموسمية في الهند إلى أقدم العصور ، ومن الطبيعى أن يقوم الهندوس بهذه العبادة في بلد الجفاف حيث يجلب الماء معه الحياة وحيث يموت سكان كثيرون حين يقل الماء .

## ٦ - الجينية

خصّصنا في هذا الفصل مطلباً للجينية التى تزعم أنها ديانة مستقلة عن البُدْهية والبرهية وإن كان هذا الزعم لا يقوم على أساس صحيح .

فالحق أن الجينية مشتقة من تينك الديانتين معاً ، فلها فلسفة البُدْهية وطقوسها وأساطيرها وإن فصلت عنها منذ القديم فعاشت بعدها بسبب ما تنزّلت عنه للبرهية من الامتيازات .

ونجمل تاريخ الجينية ونشوءها تماماً ، ونرى ، مع ذلك ، أنها مثّلت دوراً مهماً في أحد العصور ، ودليلنا على ذلك أن المعابد الجينية التى شيدت في القرن العاشر من الميلاد تُعدّ من أجدر مباني الهند بالذكر ، وتجد قبل إقامة هذه المعابد المعجبية آثاراً للديانة الجينية في كتابات ميسور التى خُطّت في القرن الخامس من الميلاد وفي مراسيم أشوكا التى ورد فيها ذكر لواحد من مذهبها الكبيرين ، والجينية هذه كانت ديانة الدّكن في زمن الحاجّ الصينى هيون سانغ .

وَالْجَيْنِيَّةَ قَدِيمَةً قَدَمَ الْبُدْهِيَّةِ تَقْرِيبًا ، وَيَجِبُ عَدُّهَا فِرْعَاً مِنَ الْبُدْهِيَّةِ إِلَى أَنْ يَقُومَ دَلِيلٌ عَلَى خِلَافِ هَذَا ، وَلَا شَيْءَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا أَقْدَمُ مِنَ الْبُدْهِيَّةِ كَمَا يَزْعُمُ أَتْبَاعُهَا .

وَيَعْتَقِدُ الْجَيْنِيُّونَ ، كَالْبُدْهِيِّينَ ، أَزَلِيَّةَ الْعَالَمِ ، وَيُنْفَكِرُونَ ، مِثْلَهُمْ ، كُلَّ خَالِقٍ ، وَيَخْتَلِفُونَ عَنْهُمْ فِي كَيْفِيَةِ النَّظَرِ إِلَى التَّرَوَانَا الَّتِي هِيَ عِنْدَهُمْ جَنَّةٌ حَقِيقِيَّةٌ أَوْ سَعَادَةٌ تَحْظِي بِهَا رُوحُ الْإِنْسَانِ ، لَا فَنَاءَ .

وَيَرَى الْجَيْنِيُّونَ ، كَالْبُدْهِيِّينَ ، أَنَّ التَّرَوَانَا تُبْلَغُ بَعْدَ مَجَاوِزَةِ سُلْسُلَةٍ مِنَ الْكَيْنُونَاتِ تَتَدَرَجُ حُلُقَاتُهَا إِلَى السَّكَالِ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى جَيْنَا الَّذِي هُوَ آخِرُهَا فَيُفِيدُو لَنَا أَنَّهُ مُتَّحِدٌ بِبُدْهَةٍ ذَاتًا .

وَالْجَيْنِيُّونَ ، كَالْبُدْهِيِّينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِعِدَّةِ بُدْهَاتٍ بِجَانِبِ شَاكِيهِ مَوْنِي ، يَرَوْنَ جَيْنَانَاوَاتٍ بِجَانِبِ جَيْنَا عَلَى أَنَّ عَدَدَهُمْ بَلَغَ أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ جَيْنَا ، فَهَؤُلَاءِ ( ٢٤ جَيْنَا ) هُمُ آلَهُةُ الْجَيْنِيَّةِ الْعَالِيَا .

وَيَرَى الْجَيْنِيُّونَ آلَهُةَ وَإِلَاهَاتٍ ثَانَوِيَّةً بِجَانِبِ أُولَئِكَ الْجَيْنَانَاوَاتِ الَّذِينَ بَلَغُوا تِلْكَ الْمَرْتَبَةَ بِتَكَامُلِ مِتْلَاحِقِ نَابِذِينَ أَثْقَالِ الْحَيَاةِ ، وَنَقُولُ الْجَيْنِيَّةُ ، مِنْ حِجَةِ الْعَمَلِ ، بِتَعَدُّدِ الْآلَهَةِ كَالْبَرَهْمِيَّةِ ، فَكَانَ لِلْجَيْنِيَّةِ مِثْلُ نَصِيبِ الْبُدْهِيَّةِ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ ، فَهِيَ مَعَ قِيَامِهَا نَظَرِيًّا عَلَى الْإِلْهَادِ كَالْبُدْهِيَّةِ ، وَذَلِكَ مِنْ نَاحِيَةِ التَّأَمُّلَاتِ الْفَلَسَفِيَّةِ ، لَمْ تَلْبَثْ أَنْ اسْتَحْزَنْتْ عَلَيْهَا آلَهُةُ مَا ابْتَلَعَتْهُ مِنَ الْأَدْيَانِ إِلَى حِينٍ .

وَلَمْ تَسْتَطِعِ الْجَيْنِيَّةُ أَنْ تَعِيشَ عَلَى وِثَامٍ مَعَ الْبَرَهْمِيَّةِ الَّتِي هِيَ دِيَانَةُ الْهِنْدِ الْقَدِيمَةِ بِسَبَبِ اعْتِرَافِهَا بِالْآلَهَةِ الْبَرَهْمِيَّةِ فَقَطْ ، بَلْ لِإِعْلَانِهَا أَيْضًا نِظَامِ الطَّوَانِفِ الَّذِي دَحَضَتْهُ

البُدْهِيَّةَ روحياً إن لم يكن زمنياً ، فلم يكن البراهمة ليقاقلوا ويانة تعترف بمقامهم القديم وتقول بأن من أهم الواجبات احترامهم المطلق .

وطقوس الجَيْنِيَّةِ وأساطيرها نسخة من طقوس البُدْهِيَّةِ وأساطيرها ، فجئنا الأعلى مطابقاً لآدى بُدْهَةَ الذى تقول به بُدْهِيَّةُ نِيپال ، وهنالك موافقة بينه وبين شاكيه موفى ولادة وحياة وظهوراً وأمراً ونهياً ، فهما متحدان ذاتاً ومعنى وإن اختلفا اسماً .

والاعتراف والنواقيس والحج مما تجده فى كلتا الديانتين ، وللهبانية شأن واحد فى هاتين الديانتين .

وللجَيْنِيَّةِ ، كما للبُدْهِيَّةِ ، كتبها الدينية ، وهى ، مثل البُدْهِيَّةِ ، ترفض عدَّ الويدا حُجَّةً .

ولا تجد ديانة أعتقد بالمعابد اعتداد الجَيْنِيَّةِ ، ولا تجد ديانة شادت من المعابد الكبيرة الغالية أعظم مما شادته الجَيْنِيَّةِ ، فالحق أن معابد كهجورا وجبل أبو الجَيْنِيَّةِ هى عجائب فن البناء فى الهند ، والحق أنه يُخَيَّلُ إلى الناظر فى أروقها شبه المظلمة اهتزاز قوم من الخلائق الغريبة المنقوشة على الحجر يُشْعُونَ حياةً ويكتشفون أحد الجَيْنَاوَاتِ البادى هادئاً رزيناً متربهاً فى جلوسه على العموم ، والحق أنك إذا عدّدت الرموز التى تُمَيِّزُ الجَيْنَاوَاتِ الأربعة والعشرين بعضهم من بعض اعتقدت وجود جَيْنَا واحدٍ ما مُثِّلَ أولئك الجَيْنَاوَاتِ عُرَّةً ذوى ملامح واحدة .

ورُسمت على صدور الجَيْنَاوَاتِ وحول أعناقهم خطوطٌ مختلفة ، ونُقِشت فى أكنفهم وتحت أخامصهم<sup>(١)</sup> إشاراتٌ خاصة على شكل السُّدُرِ أو الدُّوَلَابِ اللذين

(١) الأغصان : جمع الأخص ، وهو مالا يصيب الأرض من باطن القدم ، وربما يراد به القدم كلها .

هما رمز دهرما البدهى ، أى الشريعة والحياة .  
وترى للجينية أتباعاً كثيرين فى الهند ، وتبدو الجينية مزدهرة فى الكجرات  
وفى جميع شبه جزيرة كاتهاوار تقريباً .

## ٧ - مبادئ جميع أديان الهند العامة

يُطبَّق وصفنا الوجيز لدرّيات الهند على جميع الدور الذى دام من زمن بعث  
البرهمية الجديدة إلى أيامنا ، ولم تتغير طقوس هذا الدور منذ ألف سنة .  
وينبج أن تطبق روح الوحدة ، التى لاحت لنا من خلال تلك التمرجات  
والاختلافات ، على جميع أدوار الدّيات فى الهند إذا ما وقّقنا لجعل القارىء يتأمّنها ،  
فليست الوبدية والبرهمية والبرهمية الجديدة ، بالحققة ، لإلادانة واحدة تُعد البدهية  
والجينية فرعين لها .

ترى جميع أديان الهند أن الحياة شرّ ، وأن للمادة مظهر حطيط لمبدأ الحياة ،  
وأن الطبيعة سلسلة تطورات دائمة ، وأن الآلهة والناس ظواهر باطلة ومظاهر وهمية  
للأصل الأعلى ، أى لبرها العظيم ، وأن هذا الأصل الأعلى هو الله الواحد الذى يهب  
الحياة لجميع الموجودات وإليه يعبد جميع الأديان ، سواء عليك أدعوتّه بأغنى أم  
دعوتّه ببرها أم ببدهة ، وأن الأجساد والحيوانات وقوى الطبيعة والجنّ والنيلان  
والأبطال الذين يتّمّهم لا يلبشون أن يصبحوا موضوعات عبادة ثم أصناماً للجماهير ،  
وأن الروح الخالدة تنتقل من موجود إلى موجود حتى تنفّى فى الأصل الأعلى ، وأن  
أفعال الإنسان فى هذه الدنيا تُقرّر أحوال كيانه القادم .

ويشعر القارىء بالثروق التى يُعَيّرُ بها بين فروع الدّيانة الهندوسية الثلاثة  
الكبرى القديمة والحديثة حينما يتّمثّل الوبدية وقربها من دين الطبيعة الفطرى ،

والبرهمية ومجراتها وحقدتها وشؤونها ، والبرهمية الجديدة وتسرّبها روح الحبة التي أسفر عنها الإصلاح البدهي ، وأما الشكليات فقد تغيّرت ولا تزال تتغير ، فلم ينفك خيال الهندوس النحسب ، الذي زادها كثيراً ، عن نشاطه فيعدّها بلا انقطاع .

## ٨ - الإسلام في الهند

لدين محمد أتباعٌ كثيرون في الهند ، فقد بلغ عددهم فيها خمسين مليوناً ، أي خمس سكانها ، ولا يزال هذا العدد يزيد بمن يعتنقون الإسلام في كل يوم .

ولا شيء أسهل على الهندوسى من انتحال دين جديد مع محافظته على دينه القديم في الغالب ، فالهندوسى مستعدٌ بطبيعته لا اعتقاد كل شيء ، والهندوسى إذا ما رضى بألهة جديدة لا يتضمن ذلك ، على العموم ، أنه ترك الآلهة القديمة ، وإنما يؤدى ذلك إلى زيادة عدد آلهته ، ويعمل الهندوسى تارةً بأوامر آلهته وتارةً بأوامر آلهة أخرى ، وذلك على حسب ما تليق عليه حرّفته أو طرات عيشه أو إحدى المصادفات .



١٥٧ - بقى (نيبال) . عمود من الخشب المحفور في أحد البيوت

وكما صَعِدَتْ في سُلَّم الطبقات الاجتماعية وجدت الفروق واضحة ، فترى بين من هم على شيء من التَّعَافَةِ مسلمين حقيقيين وبراهمة حقيقيين ، ولكنك إذا ما هَبَطْتَ إلى الشعب وجدت اختلاط تينك الديانتين في بعض المرات اختلاطاً تاماً ، فتُبَصِّرُ محمداً والأولياء المسلمين آلهةً لها ما لآلهة الهندوس من الصفات ، وما أكثر ما تتبادل تانك الديانتان الطقوسَ جامعةً لأنباع مختلف المعتقدات أحياناً .

فانظُرْ إلى بُوْهرا الكجرات الذين هم من الشَّيْعة المسلمين والذين هم من سلالة قديماء الهندوس ، لا من سلالة قديماء المسلمين ، تَجِدْهُمْ لا يعملون بتعاليم محمد إلا قليلاً ، وتشابه طقوسُهُمْ بعض الطقوس الهندوسية مشابهةً تامة .

وأهلُ السنة ، الذين تتألف منهم أكثرية المسلمين في الهند قِيَعُدُونُ أنفسهم على الإيمان الصحيح ، يزدرون الشَّيْعة ، وما بين هاتين الفرقتين الإسلاميتين من الاختلاف فأكثر مما بينهما وبين الهندوس ، وهذا إلى أنك تشاهد انقسامهما إلى فرق صغيرة كثيرة .

وقولُ الإسلام بالمساواة من أهمِّ الأسباب في تقدمه السريع ، فالحرص والرغبة في رفع النِّير الثقيل عن السكواهل مما يَدْعُ ملايين الناس إلى اعتناق دين النبيِّ طامعين مسرورين .

يَبْدُو أن الدين الذي جاء به محمد بسيطٌ عند قوم تَمَوَّدوا عبادة آلهة كثيرة جداً ، فبالذَّكَ لم تنجح جميع الجهود التي بُذِلَتْ لِحُلِّ الهندوس على التوحيد ، بل أدَّتْ إلى إضافة إِلَهٍ جديد إلى الآلهة التي كانوا يَعْبُدُونَهَا ، فالْحَقُّ أن كثيراً من الهندوس المسلمين يُؤَلِّهون محمداً ، ثم أخذوا يُؤَلِّهون صِهْرَهُ عَلِيّاً ، وأن أبناء طبقات المسلمين الدنيا يُؤَلِّهون كثيراً من الأولياء ، فيَخْلِطُونَهُم بِالآلهة البرهمية القديمة .

وَحَظُّ بَيْنَ الْمُعْتَدَاتِ كَهَذَا انْخِلَاطُ الْمُؤَدَّى إِلَى أَسْفَافِ الْخِرَافَاتِ وَإِلَى الْوُثْنِيَّةِ ،  
أَحْيَانًا ، مِمَّا أَوْجَبَ ظُهُورَ مُصْلِحِينَ لِتَطْهِيرِ الْعَقَائِدِ الْعَامَةِ وَتَحْوِيلِهَا إِلَى تَوْحِيدِ رَاقٍ .  
ذَلِكَ أَمْرٌ كَبِيرٌ الَّذِي ظَهَرَ فِي الْقَرْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ فَتَارَ عَلَى الْقِرَآنِ وَالْوَيْدَا فَجَدَّ  
فِي إِفَامَةِ دِيَانَةِ رُوحِيَّةٍ وَاحِدَةٍ مَقَامَهُمَا ، وَذَلِكَ أَمْرٌ نَأْنَكُ مُؤَسَّسَ مَذْهَبِ السَّكِّ ، وَذَلِكَ  
أَمْرٌ رَامُ مُوَهَّنِ الرَّأْيِ الَّذِي مَارَسَ دِيَانَةَ مُقْتَبَسَةٍ مِنَ النَّصْرَانِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ وَالْبَرْهَمِيَّةِ ،  
وَذَلِكَ أَمْرُ الْمَلِكِ أَكْبَرِ الْمَرْتَبَةِ الَّذِي خُيِّلَ إِلَيْهِ صَهْرُ دِيَانَاتِ الشُّعُوبِ الَّتِي كَانَ  
يَمْلِكُهَا .



١٥٨ - بهات عاؤن ( نيبال ) . ميدان قصر الملك

نَعَمْ ، جَمَعَ أَوْلَئِكَ الْمُصْلِحُونَ بَعْضَ الْأَنْصَارِ حَوْلَهُمْ ، غَيْرَ أَنَّ نَجَاحَهُمْ كَانَ مَحْدُودًا  
عَلَى الدَّوَامِ ، وَهُمْ لَمْ يُوقَفُوا ، فِي الْحَقِيقَةِ ، إِلَّا لِزِيَادَةِ أَهْدِيَانِ الْهِنْدِ عَمَّا كَانَتْ عَلَيْهِ  
مِنْ قَبْلِ .

وبدا الإسلام كما يزاوله القوم في الهند ، متموجاً متحولاً على حسب الطابع الذى يتجلى في جميع معتقدات الهندوسى الدينية ، ولم يُوفَّق الإسلام لنشر المساواة بين جميع الناس في البقاع الهندية التى يهيمن عليها فكانت سبب دخول الناس فيه أفواجا ، فالمسلمون في الهند يعرفون نظام الطوائف عملياً إن لم يعرفوه نظرياً .

واقْتَبَسَ الإسلام في الهند من البُدْهِيَّةِ ومن البرهمية ، فمن ذلك أن جميع المسلمين يمارسون عبادة الذخائر العزيزة على البُدْهِيِّين ، فترى عندهم شَعَرَاتٍ من لِحْيَةِ النَّبِيِّ كما ترى عند البُدْهِيِّين شَعَرَاتٍ من شَاكِيهِ مَوْنِي ، ومن ذلك أن أتباع الديانات الثلاث يُقَدِّسون لبعض آثار الأقدام بحسب ما يَرَوْنَهَا لِقَدَمِ برهما أو بُدْهَةِ أو محمد .

والخلاصة أن الإسلام عانى نفوذ أديان الهند القديمة أكثر من أن يُعَدِّلَهَا ، وأنه ظلَّ مَنْشَرًا في وادى الفَنْجِ وفي كجرات على الخصوص ، وأن له أتباعاً كثيرين في الدَّكَّانِ ، وأنه لا يكاد يُفَرِّقُ عن البرهمية عند الدراويد في الدَّكَّانِ .  
ولكن المسجد الصامت العارى يُفْتَحُ في جميع مدن الهند بجانب المعبد الملوئ بالأصنام ، وكلما تَقَدَّمت الحضارة وتَنَوَّرَ الناس زاد عدد المسلمين فيسفر عن لِينِ تعصب الطوائف وانتشار المبدأ القائل بإلَه واحد في ذلك القطر الملوئ بالخرافات انحناه النفوس بالتدريج أمام جلال الله وعظمته .

حقاً أن فَتَحَ الإسلام للهند لَمَّا يَتِمُّ ، وهو سائرٌ ، صامتاً بطيئاً ، على طريقه فلم يَقِفْ تَقَدُّمُهُ سلطانُ إنكلترة النصرانية .



## ٩ - تأثيرُ الدين في الأخلاق عند الهندوس

أشرنا في الفصل الذي درسنا فيه مزاج الهندوس النفسى إلى الهوية بين الديانة والآداب عندهم ، وترانا نؤكد هذا الأمر الذى يعمُر على الأوربيين إدراكه ، فالآداب ، أى قواعد السلوك عند الأوربيين اشتُقَّت من الديانة رأساً منذ قرون ، وبلغت الآداب من الارتباط فى المبادئ الدينية مبلغاً لا نكاد نُبَصِّر معه انفصالها عنها .

واستقلال الديانة عن الآداب عند الهندوسى تامٌ تقريباً ، وقيل عن الهندوسى ، بحَقٍّ ، إنه كان أشدَّ الأمم تديناً ، وإذا ما نُظِر إليه من الناحية الأوربية وُجِد ، محقٌّ ، أقلُّ الأمم آداباً على ما يحتمل .

أجل ، إن نيل الخطوة لدى الآلهة والتَّوَدُّد إليهما هما الغاية التى يسعى إليها الهندوسى فى أدقِّ أعماله ، فلا تَغِيب هذه الغاية عن عَيْنَيْهِ ثانيةً ، ولكن العَجَب يمتري الباحث إذا عِلِم أن مما قيل له هو: أن الآلهة أقلُّ المآلَم اكتراثاً لصدق علاقته بالناس ولتَمَاء حياته وإخلاصه فى القول والعمل ، وأن تلك الآلهة القادرة على كلِّ شئٍ أقلُّ الموجودات غَضَباً من أجل سرَّقة مال جاره أو قتله لولده .

ويصبح الهندوسى غُرَضاً للانتقام الآلهة الشديد إذا تَرَكَ الصلاة أو الدعاء أو تلاوة الكتب المقدسة أو لم يحضُر الاحتفالات الدينية أو ذبح بقرة أو لم يَتِم بواجب الطهارة أو لم يَفْسِل يديه قبل الطعام أو لم يَفْسِل فَمَهُ بعده .

تلك هى الذنوب التى تُثِيرُ سَخَطَ الآلهة ، وإذا نظرت إلى الشعائر الدقيقة الكثيرة التى يقوم بها الهندوسى فى أدقِّ شُؤُن حياته وجدتها قد وُضِعَت لتجديد

القوى السماوية ودفع غضبها ونيل بركاتها وأن الهندوسى يرى صدورها عن الآلهة وأنها تشابه وصايا موسى عند النصارى وإن كان ست من هذه الوصايا من الآداب .

وقد كررت الوصية : « أكرم أباك وأمك ، لا تقتل ، لا تزني ، لا تسرق » تذكراً متصلاً باسم الله فيعد بعض الأوربيين عزوها إلى الإنسان كفراً ، ولا تطالب الآلهة الهندوس بشئ من ذلك ، وهى تطالبهم بالقرابين والحج والتوبة والصلاة والقيام بمئات الشعائر فى كل حين ، وأما غير هذا فن الأمور المادية النفعية العملية التى هى من شأن الإنسان وحده ، فلا تبالى الآلهة بها أبداً .

وكيف يروق أدب الحياة الآلهة التى هى عنوان قلة الأدب ؟ لقد استهزئ بجويستر (المشتري) الإغريق الفاجر ، وبيركور (عطارد) اللص وبشيموس (الزهرة) البغي فلم تطالب هذه الآلهة الإغريقية عبادها بالأدب أيضاً ، فالحق أن الأدب عند الإغريق ظل منفصلاً عن الدين أيضاً ، والحق أن الآلهة عند الهندوس لم تبال بالطهر والعفاف كما أن سكان الألبانيا الإغريقية (الآلهة اليونانية) لم يبالوا بهما .

وهناك صنفان من الواجبات يسيطران على حياة الهندوسى وهما : الأوامر الدينية ، أى أمور العبادة ، والطهارات التى هى من الواجبات الدينية مع أن لها مصدراً آخر ، فأما الصنف الأول فقد نشأ عن ضرورة التودد إلى الآلهة المهيمنة القادرة على إثارة الأعاصير وإصابة الناس بضروب الجذب والأوبئة ، وأما الصنف الثانى فمصدره ضرورة التطهر من أناس من الطوائف الدنيا وقع عرصاً .

فمن مراعاة ذينك الصنفين الأساسيين ( وهما استعطاف الآلهة بالعبادة وتوكيد

نقاوة الطائفة ) تتألف قواعد الآداب لدى الهندوس تقريباً وما في شرائع منقو من القواعد فيردُّ إلى ذينك الصنفين ، وما تراه في الغرب من الواجبات الأدبية فصادر عن الدين مع أنه لا علاقة له بالدين في الهند .

واذ جع البصر إلى شرائع منو نجد أن مخالفة أئنه الشعائر يعدُّ لدى الهندوسى جرماً عظيماً لا يكفر عنه إلا بضروب التعذيب وبالقتل في الغالب ، وأنه يمكن السارق والقاتل أن يكفرا عما اقترفا بالتوبة والاستغفار .

وإذا عدوت زناء الأزواج الذى يهدد كيان الأسر والعرق تهديداً عظيماً رأيت جميع الذنوب الحسية قليلة الخطر لدى الهندوس ، فما يمارسه الهندوس من العبادات الشهوانية يدعهم إلى التحلل دغاً ، ولا ينقلب الغرام إلى جرم إلا إذا كانت الطائفة الدنيا محله .

ويتوقَّف جرم القتل على صنف المَجْنِي عليه ، فإذا كان المَجْنِي عليه بقرة أو برهما كان الجرم عظيماً ، ويكون الجرم من الصغائر فى أية حالة أخرى ، وترى أنواعاً للقتل لا تعدُّ من الآثام كقتل البنات .

وليست آداب الهندوسى ضعيفة فقط ، بل إن مآلديه منها خاص بالذين يؤلّدون مرتين ، فما على الشوَدْرِى سوى الخضوع المطلق .

قال الأسقف إبير : « يجب على الشوَدْرِى أن يجتنب الذنوب الآتية : ذبح بقرة وإساءة برهمى وترك إحدى الشعائر التافهة التى تستطف بها الآلهة كما يُفترض » .

وتختلف تلك الآداب الهزيلة بحسب الطوائف ، وهى تعدُّ الذنوب من الكبائر

أو الصغائر على حسب طبقة الجاني أو المجي عليه ، وهي لا تُقاس بأهمية الدين الذي يستوعب الروح ويستغرق أدق أعمال الحياة .

« فالهندوسى يسير ويجلس ويشرب ويأكل ويعمل وينام دينياً » .

هذا ما قاله هندوسى ، وهو قول واقعى ، فالهندوسى لا يسمح ولا يبدأ بالطعام ولا يتلقى صديقاً ولا ينাম من غير أن يعوذ بالآلهة ، والهندوسى لا يحيط ثوباً ولا يلبس خلياً إلا بوحى دينى ، والهندوسى يسكن ، لذلك ، قطراً يعد أكثر أقطار العالم شعائر وعبادات .



١٥٩ - كهات مندو ( نيپال ) معبد من آجر وخشب منقور

والعنصر الأدبى الوحيد الذى نفذ طبيعة الهندوسى هو روح المحبة البُدْهيّة ، وتسربت هذه الروح فى صميم الشريعة الشديدة التى وضعت لإرضاء للآلهة الوهمية

القاسية ، لا من أجل صلاح الناس ، فألانتها وأضافت إلى تعاليمها الجافية الثقيلة مبادئ محبة وكرم ، فالحق أن العصر البُدهي هو أكثر أعصر الهند أخلاقاً ، ولا يزال تأثيره الطيب بادياً حتى اليوم .

وما تحلّى به الهندوسى من الصفات ، كالحلم والوفاء للسادة وحب الأسرة وروح التسامح المجيبة ، فن مقتضيات سحيته ، لا من مقتضيات آدابه ، وأكثر صفاته تلك هي ، مع ذلك ، منفعة غير فاعلة ، فالهندوسى يعرف كيف يُطيع ، ولا يبدو حسناً إلا حين خضوعه لسيده ، وهو إذا ما ساس ظهر ظالماً مستبدّاً جباراً ، ولا تجد في الهندوسى صفة يمكن أن يقال إنها ثمرة أدب دينى أُنعت مع القرون ، ولم ينشأ الأدب في الهند مع أن للدين سلطاناً عظيماً فيها على الدوام .

فالهندوسى ، إذن ، رجل دين ، لا رجل أدب ، وقد تَوَدَّ الخضوع والانقياد إما فطر عليه من الأخلاق الهيئية التي اقتضاها الاستعباد الطويل وجو بلاده المُبطل للنشاط ، ولو كان شعور الهندوسى الأدبى رادعه لكان من أقصى شعوب الأرض طراً وأشدّها خطراً ، ولكنك تجد سرّاً عدم أدبيته في سحيته .

## الفصل الثالث

### النظم والطوائف والعادات

(١) القرية والملك - القرية في الهند وحدة سياسية لا يعلوها سوى الدولة - القرية وحدها هي وطن الهندوسى - نظام القرية - الشركة في الأموال - اختلاف نظام الأملاك في مختلف أجزاء الهند - (٢) الأسرة - حال المرأة في الهند - القرية عشيرة أو أسرة مشتركة - سلطان رب العائلة المطلق - امتياد المرأة - الزواج - عادة انتعار الأباى - الأولاد - احترام الأم - (٣) نظام الطوائف - نظام الطوائف هو حجر الزاوية لجميع نظم الهند السياسية منذ أثنى سنة - نشأ هذا النظام عن ضرورات عرقية - أسباب دوام هذا النظام - كيف يخسر الإنسان مبادئه - في دستور الهند الطائفي سر خضوع الهندوسى لسيادة من الأوربيين - سلطان نظام الطوائف في الهند - نظام الطوائف مما قال به جميع الفاتحين ومنهم الإنكليز - الطائفة الإنكليزية - هذه الطائفة محكمة لإحكام الطوائف الأخرى - (٤) الحقوق والعادات - أطوار الخفسوف الفطرية في الهند - العادات المحلية والنعاليم الدينية هي أساس هذه الحفوف - لا بتصور الهندوسى وجود شريعة واحدة للجميع - مابلاتيه أولياء الأمور الإنكليز من المصاعب عادات الهندوس في الموارث - (٥) الزراعة - الهند قطر زراعى على الخصوص - مصادر الزراع - الفقر وزيادة السكان - (٦) العامل الهندوسى - حال هذا العامل الاجتماعى أمضل من حال العامل الأوروبى - حذقه الفنى ومهارته اليدوية - (٧) حياة الهندوس العامة والخاصة - أبهة الطبقات الغنية - بساطة الحياة الخاصة لدى جميع الطبقات - المساكن - اللانم - الاستقبالات - الأزياء - المدن والفري - الأعياد والحج - تربية الأولاد - النكاح - المآتم - الرافصات - استقبال ملوك الهند للأجانب .

## ١ - القرية والتملك

بدأت القرية ، منذ أقدم عصور الهند ، جماعة سياسية منظمة تامة الوحدة لا يعولها سوى الدولة .

فالحق أن القرية هي وطن الهندوسى ، ففي القرية تتجلى مقتضيات الاجتماع ، ففيها يجد الهندوسى الحكومة الأبوية الحامية له ، والقاضى الذى يؤد عليه حقه ، والكاهن الذى يؤجّه روحه ، والطبيب الذى يداوى جسمه ، والشاعر الذى يسحر فؤاده ، والراقصة التى تفتن عينيه ، وأبناء عشيرته الذين يلتفون حوله كأسرة هو أبها .

وما يبغي الهندوسى من الوطن الكبير للمصنوع الذى أريد إنشاؤه له ؟ لا ينتظر الهندوسى شيئاً من هذا الوطن الكبير فلا يعترف به ، وكل ما يعلمه عنه هو أنه يُثقل كاهله بالضرائب ، ومهما كان أصل القامح الذى أسس هذا الوطن الكبير بقوة السلاح ، فإن هذا القامح ، مسلماً كان أو نصرانياً أو أهلياً ، لم يظهر إلاّ متشدداً فى جمع الضرائب ، فلا يبالى الفلاح بجنس هذا القامح ما ألزم بالانقياد له ودفع الأتاوى<sup>(١)</sup> إليه على الدوام .

حقاً أن ثورات تشبّت وحروباً اشتعلت ودولاً شيدت وممالك انهارت من غير أن يكثر الفلاح الهندوسى لذلك كله ، وما كان سادته الذين تولّوا أمره بالتتابع ليطالبوه بسوى المال غير متعرضين لمعاداته المتأصلة ، فظل كما كان منذ ثلاثة آلاف سنة ، ولا تزال القرية الهندوسية صورة إما كان عليه المجتمع الآرى الفطرى ، ويمكننا أن نتّمسّل بها حال جميع المجتمعات فى أدوارها الأولى .

---

(١) الأتاوى : جمع الإتاوة وهى المراج .

ولا يَذْهَبُ القارىءُ إلى أن القرية في الهند هي مجموعة منازل فقط ، بل تشمل ، أيضاً ، على الأراضى التى تحيط بها فيملكها سكانها .

وتلك الأراضى مُشاعة ، ويسبق الشيوعُ التملكُ الشخصىِّ فى جميع العالم كما هو معلوم ، ولكن جميع المجتمعات بينما تتدرج إلى مبدأ التملك الشخصىِّ ترى المجتمع الهندوسى لا يزال وَفِيّاً للطَّرَازِ الآخر ، ومن الغريب أن تُبَصِّرَ المجتمع الهندوسى ، فى كل زمن ، يسمى فى ردِّ كلِّ مُلكٍ شخصىِّ إلى المُشاعِ خلافاً لما تسير إليه بقية الأمم .

وإذا حدث أن شخصاً استطاع أن ينال الغنى بمواهبه وَجَدَتِ الجماعة التى ظهر منها أن من الطبيعىُّ أن تطالب بمقاسمته ما اكتسب ، فَرُفِقَتِ فى الهند قضايا شاملةً للنظر حول ذلك ، فَوَجَدَ قُضَاةُ الإنكليزِ عناءَ كبيراً فى الحكم المدعى عليه الغنىِّ بشمرة عمله أحياناً ، وما كانوا ليَصِلُوا إلى نتيجة كهذه إلا حين ثبوت عدم مساعدة الجماعة على نيله الثراء بما حَبَّتْ به من التريبة ، وإلا لم يُوجَدَ ما يمنع من ردِّ أمواله إلى الجماعة .

وإذا وُلِدَ ولدٌ فى الهند كان له حقٌّ فى مال أبويه منذ ولادته ، وقد ظُنَّ أن هذا يُوَدِّى إلى نظام التملك الفردىِّ ، مع أن الأمر غيرُ ذلك ، فالقسمة لا تحدث فعلاً ، فالولد لا يفكر فى هذا حين يبلغ سنَّ الرشد فيصبح قادراً على المطالبة بماله ، بل يكتفى بنصيبه فى الدخل ، فمن هنا ترى أن المُشاعِ هو مَرَدُّ التملك الفردىِّ على الدوام .

وشيوع الأموال مزدوجٌ فيُنظر إليه من ناحية الأمرة أو ناحية القرية .



نشأ مُشَاع القرية عن الأسرة ، وما كانت القرية غير أسرة كبيرة ، وهذا التعريف صحيح في غير حال ، فأهل القرية إذ كانوا أبناء جلد واحد فإنه يتألف من مجموعهم عشيرة حقيقية ، وما يقع أحياناً أن تُؤلف العشيرة من ثلاث أسر أو أكثر وأن يكون بابها مفتوحاً للغرباء ، وما يحدث في الغالب أن تكون العائلة العائلية وحمية مع الاعتراف بها والاستناد إليها .



١٦٠ - كهات مندو ( نيبال ) . معبد من حجر ( هذا المعبد من مباني نيبال النادرة التي ترى فيها مسحة من المؤثرات الإسلامية كالفاب )

والأمر مهم ما يكن فإن الزمرة تنقسم إلى أسر مختلفة ويكون لكل واحدة منها منزل وأرض لزرعها ، وما عند الأسرة من منقولات ، كالمواشي وآلات الزراعة الخ ، وما يعود على الأسرة من دخل المُشَاع فمشترك بين أفراد الأسرة : الأب والأم والأولاد ، فهذا هو الشيوع المنزلي .

ومن ناحية أخرى تُبصر أراضي القرية خاصةً بأهلها فيزرعونها بالاشتراك  
ويقسمون ما تنتجه فيما بينهم ، فهذا هو الشيوع الاجتماعي .

وإذا تمَّ الحصاد جُمِع الزرع المحصول أكداساً أكداساً فحُصَّت الدولة  
بالكدُّس الكبير ، فهذا ينتهي واجب الهندوسى نحو ما مُنى على غير حقِّ وطنه ،  
فيمود غير مدين له بشيء وغير منتظر منه شيئاً .

وبعد أن تظفر الدولة بحصة الأسد يكافأ موظفو القرية فيُخصَّ عيدُها بكدُّس  
كبير ويُخصَّ البرهمى بكدُّس آخر ويُخصَّ كلٌّ من الخفير والسَّقاء والحلَّاق  
والخزَّاف والنَّجار والحدَّاد والغسال والسَّكَّاف والفلسكى والطبيب والشاعر والراقصة  
بكدُّس أصغر .

تقوم القرية بمعايش أولئك الموظفين وغيرهم ، ويزيد عدد هؤلاء بنسبة اتساع  
القرية وغناها ، وينتسب كلُّ واحد منهم ، على حسب وظيفته ، إلى طائفة خاصَّة  
ويجتنب الزواج بغير بنات طائفته والأكل مع آخر من طائفة أخرى ، بيد أن  
حواجز قاسية كهذه لا تؤدى إلى تنافس أو خصام بين أهل القرية ، فهؤلاء إذ  
يعتقدون أنهم من أصل واحد يشمرون بأنهم إخوة ، فترى روح المساواة سائدة لهم ،  
ولا يجد من يقومون بالوظائف الخسيسية غصاصةً فيما يقومون به ما حظوا برعاية  
أبناء عشيرتهم .

وبعد أن ينال الموظفون حصصهم من الغلَّة يُقسَّم ما بقى منها بين جميع  
الأسر ، وليس كبيراً نصيب كلِّ أسرة ، فالفلاح الهندوسى مُثقل بالضرائب ، فهو  
يكون سعيداً إذا ما نال ، بعد الذى يؤدَّى ، ما يكفى أسرته ، وما يشتري به بذاراً

للزراع في العام القادم ، وفي البنغال تُعدُّ الأسرة سعيدة إذا نالت ما يَمدِّل خمسة دوانق أو ستة دوانق مَيَاوَمَةً .

وحيثما يَسْكُنُ أمرُ المُشاع منتظماً يَنَلُ القلاح القَوْن من بنى قومه وقت الضَّيق ، فلا يقاسى أَلَمُ المجاعة إلا إذا كانت عامة .

ويسوس كلُّ قريةٍ عُميدٌ منتخبٌ يساعده مجلس كان يُؤَلَّف من خمسة أعضاء فأضحى يُؤَلَّف من أعضاء أكثر عدداً ، ويدير شؤون كل قرية الموظفون الأولون المذكورون .

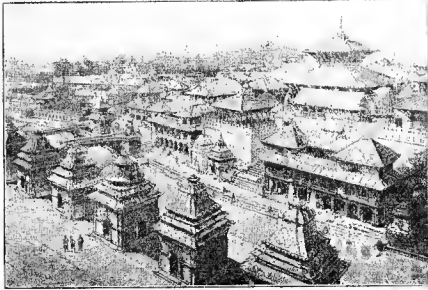
وبلغ نظام القرية التقليديُّ من النفوذ في النفوس ما لم يَقْدِر معه مَلِكٌ على تبديله ، واحترم جميع الفاتحين الذين دَوَّخوا الهندَ نظامَ القرية فلم يَتَمَرَّضُوا لاستقلالها ، وللفاتحين فوائد في ذلك ، فوَلَّى الأمر لم يكن لبيالى بغير جِبَايَةِ انخِراج المُجْدِي بانتظام ، وما كان لِيَجِدَ خيراً من محالس القرى المسؤولة عن سكانها في مساعدته على هذه الجِبَايَةِ .

وهيَّاتٌ أن تكون جميع قُرَى الهند على ذلك النظام ، ففي الهند المترامية الأطراف عروقٌ كثيرةٌ مختلفة لا يَثْبُتُ معها أيُّ نظام ، فالواقع أنك تَجِدُ في الهند جميع أطوار التملك المعروفة التي تَتَرَجَّح بين شُيُوع الأموال المطلق وحقِّ الفرد المطلق في التملك .

وإذا كانت طُرُزُ جِبَايَةِ الضرائب عنوانَ أنواع التملك في الهند فإننا نذكر باختصارٍ الطُرُزَ الخمسة التي تَجِبُهَا الحكومة الإنكليزية بها في مختلف أقسام الهند .  
اتتمحل الانكليز المبدأ الإسلاميَّ القائل إن رَقَبَةَ الأراضى لِيُؤَلَّى الأمر وإن ما يدفعه الرعايا إليه ليس ضريبة عنها ، بل دخلاً كالذي يؤديه المزارعون إلى مالكيها .

تَقَسَّم جميع الأراضي في البنغال بين عدد كبير من المُلَّاك ( زميندار ) الذين هم نوعٌ من الرُّعاع العامون فيؤَجِّرونها من الفلاحين على أن يَطلُّوا مسؤولين عن الضريبة تجاه الدولة .

والنظام في أودهة مثله في البنغال تقريباً ، وذلك مع ملاحظة أن الحكومة في البنغال تتوسط بين المُلَّاك ( زميندار ) والفلاحين حفظاً للفلاحين من كلِّ جَوْر واستبداد ، وأن الفلاحين في أودهة يَبْقَوْنَ تحت رحمة كبار المالكين .



١٦١ - بيشي ( نيال ) . منظر المدينة العام

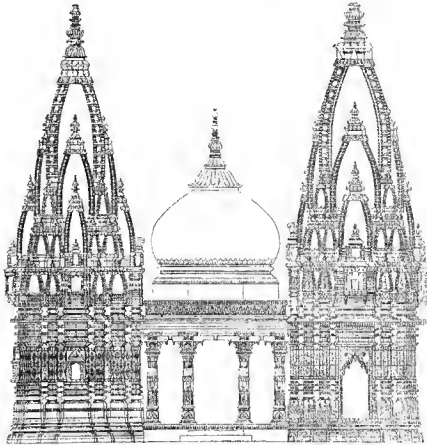
ونَجَّمَ دوام هذا الفرق مع الفروق التي نراها في الولايات الأخرى عن سير الحكومة البريطانية على مبدأ « بقاء ما كان على ما كان » فترك الأمور على ما كانت عليه بعد الانقلابات التي عَقَبَتْ سقوط الدولة المغولية ، أى إنها لم تَتَصَدَّقْ لِلْمُلَّاك ( زميندار ) الذين كانوا من سَعْدَاءِ الْأَفَّااقِينَ فَأَقْطَعُوا الإِقْطَاعَاتِ بسبب الفتن والحروب .

وإنكثرة حين أقرت مبدأ التملك الوراثي فاعترفت لأولئك الملاك بما يتصرفون فيه من الأراضي ظننت أنها تقيم أريستوقراطية زراعية مخلصه لسلطانها حريصة على تحسين ما هو قبضتها ، ولكنها رأت ما خيب ظننها ، فلم يكن الفلاح عُرْضةً للظلم والبؤس زاهداً عن فلاح الزراعة في مكان مثله في البنغال وأودّهة ، وفي هاتين المنطقتين يعمل الفلاح من أجل سادة قُساة غلاظ صُلفاء أخياء ، لا من أجل نفسه .  
والحال في البنجاب غير ذلك ، ففيها تزدهر مُشاعات القرى ، وفيها تتجنى الحكومة الانكليزية أنخراج من عُدائها رأساً ، وفيها يكون الفلاحون طُلُقاء سُداء أرباباً لأراضيهم غيورين عاملين في إنبات حقوقهم أقصى ما ينالونه منها .  
وفي الولايات الغربية والمتوسطة تجدد تارة ، مالكيين وارثين يَقْبِضُونَ أَجْراً من الفلاحين ويدفعون الضريبة إلى الدولة آخذين الفرق لأنفسهم ، وتجد تارة ، مُلّاكاً كِباراً ومُلّاكاً صِغاراً تُفَرِّضُ الضرائب عليهم رأساً .  
ويؤدى كلّ واحد في الدّكن خراجاً إلى الدولة بنفسه قابلاً للتعديل زيادةً وتقصّاناً بعد انقضاء سنوات في كلّ مرة .

والدّكن ، على ما هو عليه من قلة الغنى وَضَعْفِ الخُصْبِ إذا ما قيست بالهندوستان ، ذاتُ سكان سُداء أكثر من سواهم على ما يَحْتَمِلُ ، أَجَلٌ ، إن الدّكن تُعْرِفُ نظام القرية المستقلة ذات الأراضي المُشاعّة ، ولكن أمرها غيره في البنجاب ، فحقولها تُقسّم بين سكانها في أدوار معينة .

ولكل أسرة مَقَسَمٌها التام في الأراضي ، ويزيد هذا المَقَسَمُ وَيَنْقُصُ تبعاً لنشاط العمال وإهمالهم ، ويستطيع رب الأسرة أن يبيع أرضه من غير أن يظفّر

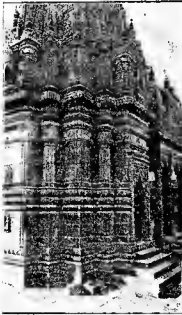
بموافقة الجماعة ، فلا ترى مثل هذا في المُشَاع الحقيقي ، ومن شأن التقسيم بين حين  
وحين أن يُساوَى بين التَّروَات وأن يُدَكَّر الفلاحين بأنهم أبناء أسرة واحدة مبدأً  
على الأقل وأنهم متضامنون بعضهم مع بعض .



١٦٢ - بنارس . معبد ويشو بشور القائم على طراز البناء الحديث بالهند ، كما جاء في رسم  
لبرتيس . ( أُقيمت جميع المباني الظاهرة في هذه الصورة والصور الآتية في القرن الماضي  
وفي النصف الأول من القرن الحاضر )

وغاية القول أن الوُسَطَاء بين الفَّلَّاح والحكومة هم سبب بؤسه في الغالب ،  
لا العُلُو في فَرَض الضرائب وحده ، فحينما يتَّصِل الفَّلَّاح بالحكومة رأساً إما بصفته

الفردية أم بصفته الشُّعُوبِيَّةَ تَحِدُهُ نَشِيطًا نَاجِحًا رَاضِيًا ، مَعَ قَرَرِهِ ، بِمَا قُسِمَ لَهُ تَقْرِيبًا .  
وإنه لمنظر يُعْجِبُ السَّائِحَ ، حَقًّا ، ذَلِكَ الَّذِي يَبْدُو لَهُ حِينًا يَجُوبُ قُرَى الْبَنَجَابِ  
أَوْ هِضَابِ الدَّكَّنِ الْجَافِيَةِ ، فَهِيَ تَحْدُ الْمَعَابِدَ الْكَثِيرَةَ وَالْأَشْجَارَ الْمُقَدَّسَةَ وَالْهَيَاكِلَ



القَائِمَةَ عَلَى جَوَانِبِ الطَّرِيقِ شَاهِدَةً عَلَى  
تَقْوَى ذَلِكَ الشَّعْبِ الْخُرَافِيِّ السَّاذِجِ ، وَفِيهَا  
يُبَصِّرُ دَوَائِرَ الْبَلَدِيَّةِ الْبَسِيطَةِ ، الْمُؤَلَّفَةِ مِنْ سَقُوفِ  
تُشْكِكُهَا أَعْمَدَةٌ ، تَنْطَلِقُ بِالْحَرِيَّةِ فِي صُورَةٍ  
خُضُوعٍ مِنْذُ ثَلَاثَةِ آلَافِ سَنَةٍ ، وَفِيهَا  
يَشَاهِدُ سَكَانًا نَافِعِينَ هَادِثِينَ فَرِحِينَ لَا بَسِينَ  
ثِيَابًا زَاهِيَةً مَعَ اخْتِصَارِهَا يَمِيدُونَ فِي  
الْأَزَقَةِ الصَّيْقَةِ ذَوَاتِ الْحَيَاسِطِ الْخَشْيَةِ  
مُخَدِّقِينَ بِالْغَرِيبِ ، مَعَ قَلِيلِ إِزْعَاجٍ وَعَدَمِ  
اعْتِدَاءٍ .

١٦٣ - بنارس . معبد دورغا القائم على  
طرز البناء الحديث في الهند

وَالْأَمْرُ غَيْرُ ذَلِكَ فِي وَلايَةِ أَوْرِيسَةِ  
لِلْمُضْطَهَدَةِ الْقَفِيرَةِ ، حَتَّى فِي وَادِي الْفَنَاجِ الْقَتِيِّ حَيْثُ يَنَالُ الْقَوْمُ مِنَ الْحَقُولِ كُنُوزًا  
لَا تَكُونُ لَهُمْ .

## ٢ - الأسرة ، حال المرأة في الهند

نظام الأسرة هو أول ما يَجِبُ الْبَحْثُ فِيهِ إِذَا أُريدَ الْاطْلَاعُ عَلَى الْمَجْمَعِ  
الْهِنْدُوسِيِّ .

فالأسرة هي مثال القرية والأساس الذى تقوم عليه ، وتؤلف الدولة رأساً من تَجْمَعُ القرى كما رأينا .

والقرية الكاملة هي عشيرة أو أسرة مشتركة .

وفي الأسرة المشتركة لا يملك أحد لنفسه شيئاً خاصاً ، فالمنفولات وغير المنفولات فيها ملك شائع ، فلا يستطيع أى فريق منها أن يبيعه من غير موافقة الجميع ، ورب الأسرة هو الذى يدير شؤون الثروة ويتمتع فيها بسلطان أدبى مطلق ، فإذا مات خلفه ابنه البكر من غير اقتسام للأموال فيعطيه الجميع كسابق إقطاعهم لأبيه ، فإذا انقضت بضعة أجيال تحوّلت الأسرة إلى عشيرة على أن يكون زعيمها أسنّ واحد فى أسنّ فروعها .

ومن النادر أن يظهر عامل انقسام أو انحلال فى الأسرة بعد أن تتسع ، هذا ما فصلناه حينما درسنا العشيرة الراجبوتية وذكرنا ، عند الكلام فى التملك ، الحال التى تُقسَم فيها أموال الأب بين أولاده بعد موته .

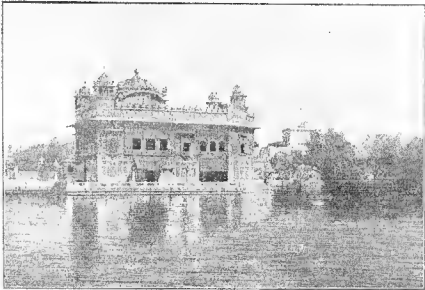
وهذا ما هو شائع فى الوقت الحاضر تقريباً ، فى المجتمع الهندوسى مئيل إلى زيادة شأن الفرد وتقليل شأن الأسرة .

وإننى ، بعد تلك السكّليات ، أدرس فى هذا المطلب أمر الأسرة أى الأب والأم والأولاد فأقول :

إن سلطان رب الأسرة فى الهند مطلق كما كان فى رومة ، وإذا كان الأب لا يصل بسلطانه إلى ما يمارس به حتى الحياة والموت فلما فُطِر عليه الهندوسى من الحليم ، وفى الهند تعدُّ المرأة بعلها قوَّاماً ممثلاً للآلهة فى الأرض ، وفى الهند تبُلُغ



للرأة من احترام زوجها مالا تَذْكُرُ معه اسمه ، والمرأة ، إذا كانت حديثة عهد  
بالزواج استبدلت باسم زوجها لفظاً عَرَضِيّاً ، وإذا أصبحت أُمّاً كُنَتْ زوجها باسم  
ابنها البكر مُضافاً إلى كلمة « أبى » فتقول : « أبأ فلان » مثلاً .



١٦٤ - أمريت سر . معبد الذهب القائم على طراز البناء الحديث في الهند ببحيرة الحلود

والزوج سلطان مطلق ، ومع أن المرأة لا تختاره ، ما عُدَّت خطيبته منذ طفولتها ،  
لا تكون الرابطة الزوجية بينهما ثقيلة ، فالزوجان الهندوسيان مُتَعَبَّان ، وإذا ظهر  
من الزوج عدم اكتراث لزوجته أمام الجمهور تبعاً للتقاليد فإنه يبدو في البيت حليماً  
نحوها على العموم ، فيسهل عليها أن تُؤثِّرَ فيه ، وقلما يَقْصِرُ بها أو يُؤْذِيها  
بالقول السيئ .

والمرأة الهندوسية جاهلة جداً ، ويرى الهندوس بقاءها جاهلةً فراراً من العار

والفضيحة إما يجدون في تَمَهُها من معاني تقليد الرجال سفاهةً وظهورها كبنات  
الهُوى أوضاعاً ، وفي هذا سرٍّ ما يلاقيه سادة الهند في الوقت الحاضر من المصائب  
في اجتذاب المرأة إلى المدارس .

ويُعَدُّ الأولاد خاطبين منذ طفولتهم ، وتزوج القَتَّيات في السنة الثانية عشرة  
أو الثالثة عشرة من أعمارهن على العموم ، ولا كيان للمرأة الهندوسية بلا زواج ، فلا  
تسكاد تُولَد حتى يختار أبواها لها من يكون وليُّ أمرها ، فهي إذا ما ترعرعت فَمِنْ  
أجله ، وهو إذا ما كان فظيماً شنيعاً فظاً غليظاً فَضَّلَت البقاء مُلَكَّة على أن تظلَّ  
عزباء أو أن تَخْضِرَه .

وتُعَدُّ المرأة العزباء ، والمرأة الأَيِّم على الخصوص ، منبوذتين من المجتمع  
الهندوسى ، ومن الأَيَّامى القَتاة التى تَفْقِد عروسها في أوائل عمرها ، وفَتَق مثل هذا  
لا يمكن رتقَه ، فتهبط المرأة المنبوذة إلى ما دون سِفلة القوم .

قال السيد ملبارى : « موت الزوج الهندوسى قاصمٌ لظهور زوجته ، فلا قيام  
لها بعده ، فالمرأة الهندوسية إذا آمَت <sup>(١)</sup> ظَلَّت حَكاداً ما دامت حَيَّة ، وعادت  
لا تُعَامَل كإنسان ، وعُدَّ نظرها مصدراً لكلِّ شؤم ، وعُدَّت مُدَنِّسَةً لكلِّ ما تَمَسُّه ،  
فهي إذ تغدو بوفاه بعلمها محترمة منبوذة تبدو الحياة لها عَيْناً ثَقِيلاً ، فلا يبقى أمامها  
سوى سبيل الفسق أو العيش بانسةً منزوية ، والقَتاة الأَيِّم هي التى قَصَدَتْها بقولى ،  
وغيرُ حالها حالُ المرأة التى لها قُرَّةُ عَيْنٍ بأولادها ، فهي لا تكون عُرْضَةً لسخافات  
طائفتها » .

(١) آمَت : ففدت زوجها .

والآن نذكر سرَّ إخلاص المرأة الهندوسية لزوجها بما يُورث العجب ، فتأصَّل هذا الإخلاص بتعاقب القرون حتى أصبح غريزة ثابتة فيها ، وبهذا نفسر دوام عادة حرق المرأة نفسها فوق جُثَّة زوجها ، إن لم يكن سببها ، فكان على المرأة الأيَّم البؤس والشقاء ببقائها حيَّة فوق أديم الأرض ، فلم تتردد في سلوك أشرف النجديين ، فكانت ، وهى الساذجة الهائجة ، تقضى نحبها بين الدموع والحماصة والهتاف والأدعية والتحية والشائد الداوية .

ولما حظرت الحكومة الإنكليزية تلك العادة قاومت النساء هذا الخطر فداوَّمن على القيام بها طويلاً زمنٍ مُحِيطاتٍ كلِّ مراقبة ، والنسوة هنَّ اللاتي مَنَعن إلقاء تلك العادة في نيپال على الرغم من الوزير الحازم جنك بهادُر .

وعما يوضح هذا التعصب ما رَسَخَ في النفوس الجاهلة الساذجة من المعتقدات منذ قرون وما يُنتظر من الحياة البائسة الشائنة ، فالإيمان الدينيُّ وحده هو الذى يأتى تلك المعجزات ، وهو فى المرأة الهندوسية ليس بأقلَّ مما فى الشهداء الذين اعتقدوا لقاء الله وراء لهب النار .

ومن للتعذر بيان الزمن الذى ظَهَرَت فيه عادة الحرق تلك ، ولا نصَّ عليها فى شريعة مَنُو وكتب الريدَا وإن أخطأ الكهَّان فرأوا بعد زمن طويل أن لها أثراً فى أنشودة مقدسة أساءوا تفسيرها ، فتلك العادة أقدم من الميلاد ، فقد روى وجودها اليونان ، لأول مرة ، قبل ظهور المسيح بثلاثمئة سنة .

أجل ، إن تلك العادة زالت فى أيامنا عن الهند ، خلا نيپال ، بيد أن من الصعب أن يقال إن النساء مَنَعْنَ من وراء ذلك ، فحال الأرامن ، كما قلنا ، يُرَتَّى

لها ، فمن أُنِيجَ لهنّ الزواج مرةً ثانية قليلاتٌ ، ويُنظَرُ إليهنّ شَرّاً في كلِّ مكان ، ولا سيما أن المبدأ القائل بأن المرأة قد تكون مُلكَ رجال كثيرين مما تَبْذِه الهندوس منذ قرون .

وتَمَّا مبدأُ تعدد الزوجات الذي قالت به الشرائع الهندوسية بعد المغازى الإسلامية ، وَحُجِّبَت المرأة منذ هذه المغازى في دوائر حريم الأغنياء على الأقل ، وتَعَوَّدَن الخروجَ مُبَرَّعات .



١٦٥ - أحمد آباد . معبد منهي سنغها القائم على طراز البناء الحديث في الهند

وإن مبدأ تعدد الزوجات ، الذي يَرْجِعُ إليه الأغنياء كامل بهجة وسرور ، لا يمارسه الفقراء إلا كسلًا وبخلًا ، فابن الطبقة الدنيا يقتصر ، في الغالب ، على

زوجة واحدة ، فإذا حدث أن كانت له غيرُ زوجة فليسكى يَحْمِلُن على العمل وكَسْب عيش الأسرة ، فاللأى يرَضُّين بذلك لا يكنّ إلا من الطوائف الدنيا على العموم ، فَيَرَيْن من القَدَر النَّسَبِيَّ أن يسترن حالهنَّ بالزواج .

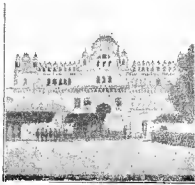
وَمِنْ نتائج تعدد الزوجات أن يُسَمَّى الأولاد بأسماء أمهاتهم تمييزاً لبعضهم من بعض ، وكانت هذه العادة ، الشائعةُ بين الشعوب القائلة بتعدد الأزواج من الذكور أيضاً ، عامةٌ في الهند القديمة .

ولا تُمَثِّل المرأةُ أَى دَوْر ، وهى لا تصبح ذات شأن إلا بعد أن تصير أمّاً ، فحينئذ تُحْتَرَم ولو تَرَمَّمت ، فإِ تَنَاله من احترام أولادها وعظمتهم فلا حَدَّ له ، فإذا ماشأت وهَرَمَت رأت نفسها محاطةً بحِجَل من الأبناء والخفدة لها عليه سلطانٌ لا جدال فيه .

وايذكر ، من بَرَغَب في استجلاء الأسرة في الهند ، أنها غيرُ مقصورة على أُمها الحقيقيين ، فهى تَجْمَع في عُرْوَةٍ لا انفصام لها ، جَمْع الأجداد وحَفَدَتهم فيُقَرَض بالذهن على الأقل وجودهم في كلِّ عيد ويُسَرَّب نَحْبُهُمْ عند كلِّ وليمة ، وبينما يكون المدعورون غارقين في الفرح ينهضون ليشْعُرُوا بتموج روح قداماء الآريين حولهم راجين حياةً طيبة لهؤلاء المجهولين الذين يَرَوْنَ فضلهم عليهم في ولادتهم فسكانوا الحلقةَ الراهنة لسلسلة أفكارهم ومشاعرهم التى نُسِجَت في غضون القرون .

### ٣ - نظام الطوائف

نظام الطوائف هو حَجَر الزاوية لجميع نُظُم الهند الاجتماعية منذ ألفى سنة ، ولهذا النظام من الأهمية العظيمة التي أُنْكِرتْ ، على العموم ، في أوربة وفي مستعمرات الهند التي يَمْلِكُها أوروبيون ، ما أرى معه من المفيد دراسة أصوله ونشونه ونتائج باختصار ، وهذا النظام هو الذى استطاعت بفضلهِ شِرْذِمَةٌ من الأوربيين أن تُخضع ٢٥٠ مليوناً من البشر لحكمها الشديد إخضاعاً يَشْمَلُ نظر كلِّ باحث ومؤرخ .



١٦٦ - جهنربور . مقدم قصر الراجه الفام  
على طراز البناء الحديث في الهند

يَرْجِعُ نظام الطوائف في الهند إلى ما قبل أَلْفَى سَنَةٍ ، ومما لا ريب فيه أنه نشأ عن مراعاة سُنَنِ الْوَرَاثَةِ الْمُقَدَّرَةِ ، فلما أُوْغِلَ الْفَاتَحُونَ الْبَيْضُ ، الذين نُسِمَ بِهِمْ بِأَرِيَّيْنِ الْهِنْدِ ، وجدوا أنفسهم بجانب من قهروهم من التورانيين والسُّود المتوحشين ، وهؤلاء الْفَاتَحُونَ كانوا من شِبَاهِ الرُّعَاةِ وَشِبَاهِ الْخَصَرِ تَيْنِ انْخاضَعِينَ

لِزَعْمَاءٍ لَمْ يَعْدِلْ سُلْطَانَتَهُمْ سِوَى نَفْوَذِ الْكَهَّانِ الذين قُوِّضَ إِلَيْهِمْ اجْتِلَابُ حِمَايَةِ الْآلِهَةِ ، وقد أسفرت أعمالهم عن انقسامهم إلى ثلاث طوائف بحكم الطبيعة ، أى إلى طائفة الْبَرَاهْمَةِ أو الْكَهَّانِ وطائفة الْأَكْشَرِيَّةِ أو الْحَارَبِينَ ، وطائفة الْوَيْشِيَّةِ أو الْزَّرَاعِ وَالصَّنَاعِ ، وهذه الطبقة الأخيرة هى من ذُرِّيَّةِ الْغُرَاةِ الذين فتحوا الهند قبل الأَرَبِينَ على ما يحتمل فتكلمنا عنهم في فصل سابق .



١٦٧ - كاشكة : الزون القائم على طراز  
البناء الحديث في الهند . ( نتم بهذه الصورة  
الصور التي خصصناها لبلاني الهند ، وأما الصور  
الآنية فهي خاصة بأدوات فنية )

ومن ثم ترى مشابهة ذلك التقسيم  
لطوائف الثلاث القديمة : الإكليروس  
والأشراف والطبقة الثالثة ، وترى دون  
تلك الطبقات الثلاث المختارة أهل الهند  
الأصليين الذين عرفوا بالشودرا فكان  
يتألف منهم ثلاثة أرباع السكان .

لم تلبث التجربة أن أثبتت ما قد  
يسفر عن امتزاج عرق راق بالعروق الدنيا  
فنهت التعاليم الدينية عنه ، فقال مشترع  
المهندس القديم الحكيم منو : « لا تلبث  
كل بقعة ينشأ فيها أناس من عروق

متوالدة أن يعمها الخراب وأن يضمحل سكانها . » ، فهذا نص شديد لاريب ،  
ولكن من المكابرة إنكار صحته ، فلم نعلم الأمم العليا ، التي اختلطت بمرق منحط ،  
أن هانت وذلت أو فنت فيه ، فما عليك إلا أن تنظر إلى حال الإنسان في أمريكا  
والبرتغاليين في الهند ، مثلاً ، لتعلم النتائج السيئة التي نجمت عن تلك الامتزاجات ،  
فترى حدة أفاق البرتغال الفخري الذين دواخوا قسماً من الهند فيما مضى لا يقومون  
اليوم بنير أعمال الخدم والأجراء فيها ، وترى اسم عرقهم لا يدل اليوم فيها على غير  
معنى الصغار والذلة .

أدركت شريعة منو التي هي دستور الهند منذ قرون كثيرة ، كجميع الشرائع ،  
تلك الحقيقة العرقية التي هي وليدة تجارب طويلة سابقة فلم تفعل عن ضمان نقاء  
الدم فقرضت عقوبات شديدة لمنع كل توالد بين الطبقات العليا ، وبين هذه الطبقات

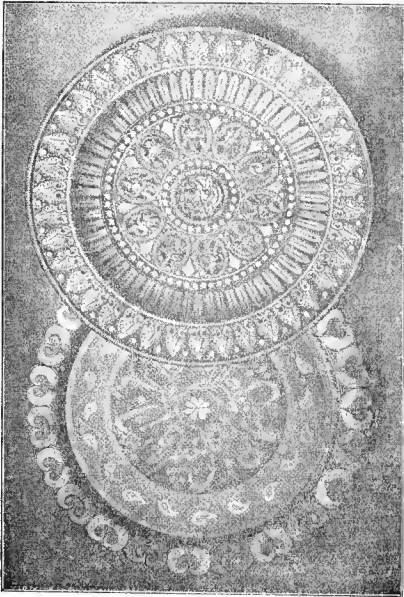
وطبقة الشودرا على الخصوص ، ولم تَرَ تلك الشريعة وسيلةً من وسائل التهديد الشديد إلا اتخذتها لبلوغ ذلك .

غير أن الضرورات الطبيعية لم تَنَسَّبْ أن تَمَّ لها ، بتعاقب القرون ، الفوزُ على تلك المحظورات المرهوبة ، فللمرأة فِتْنَتُها على الدوام ، مهما كانت الطائفة التي تنسب إليها منحلةً ، فسكان ما نَقَطَعَ به من التوالد على الرغم من شريعة مَنُو ، فلا يحتاج الباحث إلى اجتياح الهند في زمن طويل للاطلاع على توالد جميع عروقها فيما بينهم ، فعدد بيض الهند الذين يمكنهم أن يدْعُوا قِوَاةَ دمهم قليلٌ إلى الغاية ، فمادت كلمة « الطائفة » غير مرادفة لكلمة « اللون » كما كانت في لغة السنسكريت ، فسكان ما يرى من عدم وجود سبب لبقاء كلمة « الطائفة » إذا أريدت الدلالة بها على المعنى العرقى .

حقاً أن مدلول تسميات الطوائف القديمة زال منذ زمن طويل ، فحلت محلها تسميات جديدة غير قائمة على اختلاف العروق ، وهذا مع استثناء البراهمة الذين لا يزالون هم وغيرهم أقل السكان توالداً .

وبين الأسباب الحديثة التي أدت إلى تمسك القوم بنظام الطوائف لا يزال ناموس الوراثة نافذ الحكم ممثلاً لدور أساسى ، فالأهليات ، عند الهندوسى ، وراثية حتماً ، فعلى الابن أن يتخذ مهنة أبيه حتماً ، والهندوس إذ رأوا أن المهن أمورٌ وراثية أسفر ذلك عن ظهور طوائفٍ عندهم بعدد المهن نفسها ، فكل مهنة جديدة فى الهند تقتضى ، بالحقيقة ، نشوء طائفة لها ، فكان ما ترى من ألوف الطوائف فى الهند ، وكان ما تعابه من أن الأوربي الذى يسكن الهند لا يلبث أن يرى كثرة هذه الطوائف عند نظره إلى تنوع الأشخاص الكثيرين الذين يضطرون إلى استخدامهم فيها .





١٦٨ - (١) طبق معدني مكشوف بالنيّاء على الطراز الهندوسي الإسلامي  
(٢) تانجور . طبق هندوسي من النحاس الأحمر مكشوف بالبرونز والفضة ( من مجموعة المؤلف )

وتضاف المناصب السياسية والمعتقدات الدينية المختلفة إلى السبب العرقى الضعيف والسبب المذهبي القوي ، المذكورين ، في تكوين الطوائف .

وقد نُعِدَّ الطوائف التي نشأت عن الوظائف السياسية من فصيلة الطوائف المذهبية ، ولكن الطوائف التي نشأت عن اختلاف المعتقدات الدينية لا ترتبط في واحد من تلك الأسباب بصفة ، وقد تؤدي مطالعة الكتب إلى تقسيم الهند ، نظرياً ، إلى دِيانتين كبيرتين أو ثلاث دِيانات كبيرة فقط ، ولكن عدد دِياناتها يبلغ الألوف عملياً ، ففي الهند آلهة جديدة تُحَسَّبُ تَقَمَّصَاتٍ لِآلهة قديمة فتحيا وتموت كل يوم ، فيؤَلَّفُ عِبَادُهَا ، من قَوَرِمِهَا ، طائفةً جديدةً متشددة في أحكامها كبقية الطوائف .

وهناك سِمَتان أساسيتان تميز بهما كل واحدة من الطوائف ، ويختلف بهما أفراد كل طائفة عن أفراد الطوائف الأخرى ، فالأولى هي أن أبناء الطائفة الواحدة لا يُطَاعَمُونَ غَيْرَهُمْ ، والثانية أن بعضهم لا يتزوج إلا ببعض .

تَأْنِكُ السِّمَتَانِ متساويتان أهميةً ، وقد تَجِدُونَ مَثَلٍ من براهما الهند الموظفين في دوائر البريد وفي إدارة الخطوط الحديدية لا يزيد راتب الواحد منهم على خمسة وعشرين فرنكاً في كل شهر ، وقد تَجِدُونَ بين البراهمة من هم من الأساتين ، بَيِّنُ أن ذلك الموظف أو ذلك السائل يُفَضَّلُ الموت على الجلوس حول مائدة نائب الملك في الهند ، وإذا حدث أن كان أقوى راجوات الهند من الطوائف الدنيا (ومن الممكن أن يصبح أحد أبناء الطوائف الدنيا ملكاً كراجيه غواليار مثلاً) فَتَقْبِي ذلك البرهميَّ فَإِنَّهُ يَنْزِلُ عَنْ قِبَلِهِ ، فِي الْغَالِبِ ، لِيُسَلِّمَ عَلَيْهِ .

وصفة البرهمي\* وراثية في الهند كصفة الشريف في أوربة ، وهذه الصفة غير مرادفة لصفة السكاهن كما يُظَنُّ في الغالب ، لأن السكَّهَّان من البراهمة ، فالبرهمي\* يولد كما يولد الدوك ، وكان للقب البرهمي\* ، الذي أضاع كثيراً من قيمته في أيامنا ، كبير أهمية فيما مضى ، فلم تكن صفة الملأك كافية ليأُمَل بها صاحبها أن يتزوج بفتاة برهمية ، ففي رواية سَكُن تَلَّا التي وضعها كالي داسا حوالى القرن الخامس من الميلاد تَجِد أن دُشَن يَنْتَه مَلِكَ هَسْتِي نابور لَقِيَ سَكُن تَلَّا فسأل مدعوراً هل هى من طائفة البراهمة أولاً، لما فى انتسابها إلى هذه الطائفة من حَظَر زواجه بها .

وليس انظام الطوائف مُؤَيَّد قانوني في العهد الإنكليزي ، ولكن التقاليد التي رَسَخَتْ في النفوس لا تحتاج إلى المؤيَّدات الرسمية ، فتقاليد كنائك غَدَّت من الوَعْي الباطن فُغِدَّت جزءاً من التُّراث الذي يولد مع الإنسان فلا يَقدِر الإنسان على مقاتلته ، فالهندوسى\* يُفَضِّل الموت على انتهاك حُرْمَةِ مبادئ طائفته .

وكان من عوامل ارتباك حكومة الهند ، حينما فسكُرت في إرسال كتائب هندية إلى السودان ، أن جَهِّزَتْ كل فرقة بمِيرة وأَجْهَزة خاصة لِيَتَسَيَّ لأفراد كل طائفة إعدادُ طعامهم على انفراد ولكيلاً يأكل بعضهم مع بعض ، وقد كنتُ آنسذ في الهند فدَلَّتْنِي مطالعة الصحف على درجة ذلك الارتباك لما يُودى إليه أَقْلُ غَفَلَةٌ في ذلك الأمر الأساسى من أسوأ العواقب ، فغفلةٌ مثل هذه كانت عاملاً في ثورة السِپاهى التي كادت تُدَكُّ الإمبراطورية البريطانية الواسعة .

وقد يَخْصُر الهندوسى\* طائفته لأسباب كثيرة لا فائدة من ذكرها هنا ، ومن أشدّها أن يَقْبَل طعاماً أو ماء من ابن طائفة أخرى .



١٦٩ - إناء ذخائر بدهى مصنوع من الذهب في القرن الثاني قبل الميلاد ( صور الأدوات الفنية المنشورة في هذا القسم من الكتاب مأخوذة من مجموعة المتحف الهندي باندن ومساعدة من مستر بيرد وود )

ولاشئ أعظم إيلاماً على الهندوسى من فقده لطائفه ، فليس حرم البابا للإنسان في القرون الوسطى وحكم القضاء بعقوبة شائنة على أوربي في الوقت الحاضر أشد وطأ من ذلك ، فقد الهندوسى لطائفه بمعنى فقد لأبويه وأصدقائه ووثوقه ، فكل واحد يعرض عنه نائياً رافضاً كل صلة به ، فيدخل إذ ذاك في زمرة المتبوذين الذين يقومون بأحسن الأعمال .

ونبحث الآن في نتائج ذلك النظام المتين الاجتماعي والسياسية فنقول : إن الطائفة هي وحدة الهندوسى الاجتماعية ، فلا عالم خارجها في نظره ، ويفصل الهندوسى عن غير طائفته هوة أعظم من التي تفصل بين الأوربيين المختلفين الجنسيات ، فهؤلاء الأوربيون يستطيعون أن يتناكحوا مع أن أبناء مختلف الطوائف لا يتقدرون على ذلك ، فينتج عن هذا وجود زمر في القرية الواحدة بعدد طوائفها .

ونظام كذلك مما يتعذر معه اجتماع الكلمة ضد الأجنبي ، وقد أدرك الإنكليز هذا جيداً فاتخذوا من التدابير ما يحول دون نشوب أية ثورة عسكرية ، وذلك بأن ألغوا كتابتهم من أناس منتسبين إلى طوائف مختلفة مما لم يفعلوه قبل ذلك ، فما بين أبناء هذه الطوائف من التنافس يكفى وحده لجعل كل فتنة عامة أمراً مستحيلاً .

ونظام الهند الطائفي يفسر لنا ما يستعجب به الأوربي من خضوع مئتي مليون من

الآدميين لستين ألفاً من الأجانب المكروهين غير محتجين ، فالحق أن نظام الطوائف هو الذى منع الهندوس من أن تكون لهم منافع مشتركة ومن أن يتحدوا سعيًا وراء هدف واحد ومن أن يؤلفوا أمة واحدة ، فإذا أضفت إلى اختلاف الطوائف اختلاف العروق القاطنة فى تلك الإمبراطورية الواسعة علمت أن ما يجب على كل فاتح أن يصنعه هو أن يتمهد ما بين هذه العروق من المنااسات وأن يمزج قوًى بعضها عن بعض ، وما هى المصلحة المشتركة التى تكون بين أناس ذلك مدى اختلافهم ؟ وماذا يروون من حرص فى سيد يحترم نظمهم الأساسية ؟ ألا إن وطن الهندوسى الوحيد هو طاقته ، ولاشئ غيرُها ، فبلده ليس له وحده ، فلم يفكر ، لذلك ، فى وحدته ، والإنكليز ، حين يراعون نظام الطوائف فى الهند بدقة ، يعلمون أن فيه سر سلطانهم المكين ، فلا يصنعون ما يضعضه كما نصنع فى بقايا ممتلكاتنا كيونديجيرى مثلاً ، وترانى فى بدء سياحتى فى الهند ، وذلك حينما كنت غير قادر على النظر إلى الأمور من خلال أفكار الهندوسى ، قد قسرت لهندى ذكى من الطبقة الدنيا معنى الجمهورية وأوضحت له الفوائد التى يجتنيها من العيش فى بلد يتساوى فيه جميع الناس ويأمل فيه ابنُ العامل أن يصل إلى أعلى المناصب ، بيد أن هذا الهندى ، الذى هو من أتباع شيوا ، فكر ثانية فهز رأسه مستخفاً مستتجاً من كلامى أن من البؤس والشقاء أن يعيش الإنسان فى بلد عاطل من نظام الطوائف ومن النبلاء ، فالحق أن ما يصعب على الفرنسى أن يدرك أن نظمًا يراها طيبة ، لملاءمتها احتياجاته ، لا تصلح لأهم ذوات احتياجات مخالفة لها . ، والحق أنه يصعب اقتناع السمك بأن التنفس فى الهواء أمر طيب لصلاحه للإنسان .

وفى الهند بلغ سلطان نظام الطوائف الراسخ فى النفوس بفعل التقاليد والمادة من القوة ما أذعن معه القاتمون لحكمه ، فقال به المسلمون عملاً بمض القول مع مخالفته للشريعة الإسلامية ، وانتحل الإنكليز انتحالاً لا يتمثله سوى الذين طائفوا فى الهند ، أجل ، إنه غير مدون فى قوانين الإنكليز ، غير أنه يتألف من مجتمهم فى الهند طائفة أشد إحكاماً من جميع الطوائف الأخرى ، فالإنكليز ، كأبناء الطوائف الأخرى ، لا يأكلون مع غيرهم ولا يتزوج بعضهم إلا ببعض ، ولا يزال الزمان الذى يتزوج فيه الإنكليز بينات الهند بعيداً ، فإذا حدث أن تزوج إنكليزى بهندوسية ، وهذا لا يقع إلا نادراً جداً ، أخرج من حظيرة طائفته وأغلقت أمانته جميع الأبواب ، ويرى الهندى الإنكليزى البسيط أن من الصغار أن يتزوج هندوسية ، فما حدث أن تفدأت ، ذات يوم ، مع ضابط بريطانى يينارس فأسأله : « أتأذنون لأحد جنودكم فى الزواج بهندوسية ؟ » فأجابنى قائلاً : « لا أقدر على منعه ، لاريب ، ما دام القانون لم يحرم ذلك ، ولكننى أشك فى وجود واحد من جنودى يُفسكر فى مثل ذلك » .

ولا يرجع انفصال القاتمين الجلد انفصالاً تاماً عن أولئك المغاوين إلى أمد طويل ، فما كان تناكح الشيعين أمراً نادراً إلى وقت قريب جداً ، وقد أسفر هذا التزاوج عن ولادة أناس جامعين لمحبوب الهندوس خالين من صفات الإنكليز ، فتراهم قوموا عاطلين من التقاليد والتاريخ والآداب فبدوا محلاً لازدراء كلا الشيعين اللذين خرجوا منهما وسبباً لقلق أولياء الأمور فى الهند .

وأدرك قدماء الآريين مخاطر مثل ذلك التناكح ، فكان ما تعلم من وضعهم لنظام الطوائف ، ثم أدرك الإنكليز ذلك ، فكان ما تعلم من فصلهم ما بين القوم

الغالبين والقوم المغلوبين تبعاً لضرورات عِرقية وإدراكاً لِمَا بين العرقين المتصافين من الاختلاف مع عدم تدوين ذلك في قوانينهم ، وكان ما نعلم من إقامتهم بين



١٧٠ - إناء من البرونز مكتم بالفضة  
( حيدر آباد )

القومين من الهوى العميقة ما يتعذر مجاوزته،

فالإنكليز يُنشِئون في كل مدينة بالهند حياً ثانياً لأنفسهم فلا يغادرونه إلى المدينة

الأصلية إلا في أحوال شاذة ، وتشاهد مثل

هذا الفصل بين الأوربيين وأبناء الهند في

الخطوط الحديدية أيضاً ، فتُبصر للإنكليز

مركبات خاصة ، وتُبصر لهم في المحطات

مطاعم ومقاعد خاصة ، نعم ، لم يوضع نظام

يُحرّم على الغنى من أبناء الهند السفر في

مركبة الدرجة الأولى الخاصة بالأوربيين ،

غير أنه لا يجازف بذلك إلا قليلاً ، فإذا

ما جازف أُسبى قبوله فيضطر إلى النزول

في أقرب محطة ، والضباط هم أشد الإنكليز شراسة من هذه الناحية ، فهو لا

الضباط ، وإن كانوا من أعظم من رأيت أنساً وأدباً إذا ما خاطبوا أوربياً ،

لا يلتفتون أن ينقلبوا إلى قُساء غلاظ إذا ما كَلَّمُوا شخصاً من أبناء الهند مهما كان

مقامه ، وعلى ما تراه من حق أبناء الهند ، كالإنكليز ، في تَسَمُّ أعلى المناصب

القضائية على الخصوص وعلى ما تراه من وصول بعضهم إلى ذلك لا تحيد صلاتهم

بالإنكليزية في غير الأمور الرسمية ، وأما أبواب المجتمع الإنكليزي في الهند فمؤسسة دونهم تماماً .

ومؤلفو الأوربيين والهندوس هم أكثر من تدور الخرافة الطائفية حولهم ، فمع أنك تجد تجاراً أو أغنياء من مؤلدى البرتغاليين والهندوس يقبلون في رداءه باريس بقبول حسن لا يأذن الإنكليزي لأمشاهم في الهند في الجلوس أمامه أو في الأكل على مائدة معه ، وذلك خارج كبريات المدن التي هي على شىء من التفرنج .

ولست بالذى يَبْحَثُ هنا في عدل مثل ذلك النظام أو جوره ، فمن الخذر أن يقتصر على عرض الأمور كما نرى ، ومن الخطأ أن يؤتى بأحكام سطحية مختلفة نظرية في نظم ثبت أمرها مع القرون ، فقد كُتِبَ لهذه النظم البقاء مع ما اشتعل من الفتن والثورات ، وهي من القوة العظيمة ما انتحلها معه شعب من أرقى شعوب العالم تمدناً مع مفتحته لها في كُتُبِهِ ، ومن أجزل الفوائد التي انتفعت لنا من رحلاتنا أن علمنا أن الأمم لا تختار نظمها ، بل تعاني النظم التي فرضتها عليها عوامل العروق والبيئات ، فالإنسان إذ ليس له أن يختار نظامه كانت هذه النظم أقوى من عزائمه .

#### ٤ — الحقوق والعادات

ظَلَّتْ الهند مظهر الحضارة القطري من الناحية الحقوقية ومن نواحي أخرى كثيرة فلا تزال تعاليم كتبها الدينية التي يُفسَّرُها كهناتها ويُعدَّلونها بالتدريج وعاداتها المحلية وحدها مصدر قوانينها ، ولم يحاول أحد من قاهريها أن يستبدل بهذه المقومات دستوراً جديداً ، فلم يتصدَّ أشد هؤلاء ظالماً وأكثرهم رافة للبادئ التي كان يخضع



لها رعاياهم من الهندوس ، ولم يفكروا في غير أمر واحد وهو : حياة الضرائب .  
وإن أقصى ما يؤدي إلى المركزية فتسير إليه مجتمعات الغرب في الوقت الحاضر  
هو أن يضع مشرع قانوناً واحداً يخضع لأحكامه أبناء بلد واحد فلا تُراعَى فيه  
أُمُور الطبقات ولا الثروات ولا الجهات .



وَضَعُ الدولة قوانينَ واحدةً للجميع  
هو مبدأ حديث جداً ، فهو ، إذا ما أمكن  
إرجاعه إلى الدولة الرومانية نظرياً ، لم  
يَبْدُ في حقل العمل إلا حديثاً ، وقد اشتعلت  
الثورة الفرنسية من أجل ذلك المبدأ من  
بعض الوجوه ، ونحن إذا كنا نرى ازدهاره  
في فرنسا ، معتمدين أن أمر الاشتراع من ١٧٩١ - إيريقي مخرم مموه بالذهب (كشمير)  
شأن الدولة ، يجب أن نَقِفَ عند هذا الحدِّ ما أبصرنا عدمَ انتحال ذلك المبدأ في  
كلِّ مكان .

فلا تزال العادات المحلية مُحكَّمة في إنكلترة وألمانية وروسية ، ونحن نشاهد  
زيادة قوة العادات كلما ابتعدنا عن مراكز الحضارة الأساسية .  
والعادات ، إذ كانت تستند إلى طُرُزِ المعاش الخاصة والمعتقدات القديمة المُتأصِّلة  
واختلاف الجماعات البشرية الكثيرة فننشأ ببطء ، لا يمكن تقويضها في يوم واحد  
بمرسوم أو بأمر يصدر عن مجلس نواب ، وَصَلَ من فال غير هذا من الناجحين والمصلحين ،  
فلم تَلَبَّثْ نظمتهم التي وضعوها أن امهارت عند أول صدمة .

بيد أن هذا العمى مرضٌ نفسىٌ حديثٌ فى الحقيقة ، فلم يكن أقوى المتغلبين فى غابر القرون ليصابوا به ، فإذا كانت المركزية المطلقة وهما حِطراً على الدول الضيقة التى لا تجد فيها سوى طُرُز معاشٍ واحدة ولا تُبصر فيها سوى عِرْقٍ متجانس تقريباً فكيف يكون أمرها فى الدول الواسعة كدولة الرومان أو دولة المغول ؟ وكيف يكون أمرها فى بلد كالهند حيث ترى كثيرَ العروق والأديان والأجواء وما إلى ذلك من المؤثرات المختلفة المتجاورة ؟

والإنكليز الفاتحون ، وهم أشبه أم الوقت الحاضر بالرومان ، قد انتحلوا فى الشرق سياسة قائمة على احترام العادات المحلية القديمة فسيُضطرون إلى الرجوع إليها فى قسم مهم من إمبراطوريتهم فى الغرب على ما يحتمل ، والإنكليز هؤلاء قد أدركوا أن ما وطّده القرون لا يتحول إلّا مع القرون وأن الفوضى والخراب ممّا يعمُّ بلاداً تكون محل نزوات الخياليين والمشرعين فكان أمر الإنكليز فى ذلك ، من حيث النتيجة ، كأمر قدماء الملوك الذين كانوا يدركون بغريزتهم ذلك من غير دليل لا ريب .

وسار الإنكليز على نهج ملوك المغول المستبدين فلا يبالون بسوى دفع الضرائب بانتظام ، فإذا عدّوت النظام المالى وجسدت الإنكليز قد تركوا لاهند شرائعها ، وإن شئت فقلّ عاداتها الدينية على حسب تفسير البراهمة ، فلا ترى للمحاكم الأوربية فيها عملاً غير تنفيذ هذه الشرائع .

ولامعْدِلَ عن الاعتراف بأن ذلك التنفيذ غير سهل على قضاة الإنكليز ، فالشرائع الهندوسية مُعَدَّة تعقيد المذاهب الدينية التى تُشتق منها ، فهى تختلف بين

ولاية وولاية ، وبين قرية و قرية ، فالحق أن الهند ظلت مواظبة على النظام الرعائى فتجد مجلساً منتخبا يمارس السلطة التشريعية فى كل بلدية صغيرة فتبصر من خلال هذا مهدّ التدوات المترجمة بين مجلس الشيوخ الرومانى وبرلماننا مما تراه فى جميع المجتمعات ذات الأصل الآرى .

ولكن برلماننا تسنّ القوانين ، ولا يصنع ذلك المجلس المنتخب غير احترام النظم التى نصّجت نصّجاً بطيئاً بفعل الدين والعادة ، ونرى نظام الهند فى دوره الأول ، أى كما وضعه آباء الأسرة الوبدية حينما كانوا يجتمعون لحفظ الأمن ونفع القرية ، وسار ذلك النظام منذ ذلك الزمن ، ومن السهل تعيين مراحلها فى غضون التاريخ ، مادام ذلك المجلس الآرى المنتخب لا يضع قانوناً فى القرن الواحد مع أن مجلس النواب يسنّ عدّة قوانين فى يوم واحد فى الغالب .

ولا نفضل العقوبات التى تفرض على مقترفى الجنايات والجنح ، وإنما نقول إن الحكومة الإنكليزية تجازى القاتل بالقتل والسارق بالسجن مع صرامة ، وعندما يكون الجرم عظيماً يضطر القضاء إلى مجاوزة رأى العام الذى هو أقل منهم شدة فى الغالب ، وما رأيناه حينما بحثنا فى آداب الهندوسى أن بعض الصغار عندنا تكون ، أحياناً ، أجدر باللوم من الاحتيال أو الغصب ، ومن العقوبات التى نعدّها شائنة ما لا يشين فى الهند ، فإذا خرّج الرجل من السجن لم ينظر إليه شراً ، بل يعدّه أبناء وطنه ضحية إذا كان الأجنبيّ الغالب هو الذى حكم بسجنه رأساً .

وإذا استثنينا العقوبات الشديدة التى يقتضى الأمن العام فرضها وجدنا للعادات فى الهند شأنًا كالذى كان لها منذ عدّة قرون ، وأهمّ هذه العادات ما هو خاصّ

بالمواريث و بالتملك ، والمواريثُ والتملكُ أشد الأمور تعقيداً واختلافاً بين ولاية وولاية،  
وسنذكر من العادات الشاملة ما يتعلق بالمواريث .

لا يُعرَفُ الهندوسى "الإيصاء" ، فليس للهندوسى بعد موته أى سلطان على الأحياء،  
فما ذكرناه أن التملك فى الهند لا يكون قَرْدِيّاً إلا نادراً وأن الأملاك تكون للقرية  
فيها إن لم تسكن للأسرة ، فإذا كان الهندوسى عاجزاً عن التصرف فى أثناء حياته  
بما يَمْلِكُ كما يريد فكيف يتصرف فيه بعد وفاته ؟

ليس الأب إلا مديراً لأموال أولاده فى الحقيقة ، فإذا مات بَقِيَ ما كان  
على ما كان ، فإذا أراد الأولاد القِسْمَةَ أخذ كل واحد منهم حصته لِيُوَسَّسَ أسرة،  
وإلا ظل الابن الأكبر مديراً للأموال قائماً مقام أبيه المتوفى .

والأولاد الذكور هم الذين يقسمون تلك الأموال ، وأما المرأة فى الهند فلا تَمْلِكُ  
غير هبات الأبوين والأصدقاء حين الزواج ، وليس للزوج حق فيما مَلَكَته الزوجة ،  
ولا يستطيع أن يَبِيعَهُ من أحدٍ إلا برضاها .



وإذا مات الرجل غير ذى أولاد  
من الذكور وَرَثَتَهُ زوجته ما دامت فى  
قَيِّد الحياة فقط .

ولاطائل فى تفصيل شبكة الاشتراع ١٧٢ - صندوق مزين بالبناء ( راجيونانا )

الهندوسى المَعْتَدَةُ الْمُتَحَوِّلَةُ ، والاشتراعُ الهندوسى إذ قام على العادة وحدها كانت  
الشريعة الهندوسية سبب ارتباك للقضاة الذين يقومون بتنفيذها ، ويزيد هذا الارتباك  
عند ما يكون الخصوم من ولايات ذات عادات مختلفة ، وقد نشأ عن وسائل النقل

السريعة زوال الحواجز بين هذه الولايات ، فيَجْمَل بؤلاة الأمور أن يفكروا في وَضْع قانون واحد شامل لجميع المسائل التي تقتضيها المصلحة العامة ، وهذا ما يَشْتَل بالِ الإدارة الإنكليزية في الهند في الوقت الحاضر كما علمنا .

## ٥ — الزراعة

أثبتنا في فصل « الميثاث » أن الهند بلد زراعيّ قبل كل شيء ، وأن عَطَاها من الوَقود ، على الخصوص ، يحول دون تَحَوُّلها إلى بلد صناعي .  
إذَنْ ، تتألف أكثرية الهندوس من الزُّراع ، أى من الفقراء الذين يعيش الواحد منهم مُيَاوَمَةً ببضعة دنانق يختطفها من بيت المال أو المرابين الذين هم أشدّ ظلماً من بيت المال فلا يَجِدُون وسيلةً للاغتناء أفضل من أكل الرِّبا .

ومما زاد الفقرَ في الهند زيادةً سكانها بسبب عدم وقوع الهندوسىّ في بُؤس مُطْبِقٍ ، فأضحى أهالى الهند في أَقَلّ من قرن ضِعْفِي ما كانوا عليه ، وشعبٌ يَزِيد أفرادُه كهؤلاء من غير أن يكون مالكاً لأراض واسعة يَزْرَعها ، كما يَمْلِك أهلُ الولايات المتحدة الأمريكية ، لا يفتنى أبداً ، فإذا ما نال ثَرَاء في أحوال شاذةً فَلِأَجَل محدود ، فلذلك نقول إن سكان الهند ، على الخصوص ، يزدون بسرعة على وسائل معاشهم .

ومن حسن حظّ الهندوسىّ أن كان من رِقَلَة الاحتياجات ما يبدو به أَقَلّ بُؤْساً من ابن الطبقة الأوربية المماثلة لطبقته ، فلم أسمع أن هندوسياً أُمِّيّاً يَتَوَجَّع من سوء طالعهِ ، فلو كان عنده ربع ما عند الأوربيّ من الاحتياجات لتعذر عيشه ، فإذا ما قُبِضَ للإنكليز أن يجعلوا فيه مثل هذه الاحتياجات بفعل ما يَتَلَقَّنُه من أصول

ترينتهم رأى الحياة أمراً لا يطاق كما يراها الأوروبي الذى يُعَدُّ دَخْلُهُ اليوميُّ بثلاثين دانقاً أو أربعين دانقاً مثلاً .

حقاً أن الهندوسى ، الذى هو أخلى الناس همّاً ، إذا ما كان له كوخٌ من مَوْص<sup>(١)</sup> يأوى إليه ونال قطعتى نسيجٍ لِيَلْبَسَ إحداها حول رأسه وَيَلْبَسَ الأخرى حول كُليتيه ونال حُفنة أرزٍ فى كلِّ يوم غدا مطمئناً غيرَ حاسدٍ أحداً .

ولا يألم الهندوسى إلا عند المجاعة ، ولا يلبث أن يموت جوعاً عند ارتفاع أثمان الحبوب ، وتسيطر غفلته الطبيعية على حاله ، فهو يَصْرِفُ ما يَكْسِبُه يوماً فيوماً فلا يقتصد ما يمكنه وقت اليسر ، فينفق ما يزيد على احتياجه فى ابتياع الأسورة والفلاند وفى إقامة الولائم .



١٧٣ - إناء من البرونز مكثت بالنحاس  
( تانجور )

ذلك حال الهندوسى فى كلِّ زمن وفى عهد جميع الفاتحين ، ومن عدم الإنصاف عدلُ سادة الهند على حال الهندوسى مهملًا كان العرق الذى ينتسبون إليه ، فالشُّنن الطبيعية ، التى قَضَتْ على الهندوس بأن يزيدوا نفوساً بسرعة لا مثيل لها فى العالم وبأن يزرعوا فى سبيل الآخرين أرضاً لا نظير لخصبها فيموتوا فوقها جوعاً فى الغالب ، مما لا رادَّ لحُكْمه ، فعلى أقوى من سلطان المتغلبين أنفسهم ولا ينفع لومها .

(١) اللوس : اللبن .

ويقتصر شأن الغالبين على تخفيف شِدَّة تلك الشُّنن المُقدَّرة على المغلوبين إذا كانوا من السُّكَّراء المُنَوَّرين ، والحكومة البريطانية بدَّت خيراً من غيرها في هذا الأمر ، فالحقُّ أن الهندوس أنعم حالاً وأهدأ بالاً في العهد الإنكليزي مما كانوا عليه في أيِّ زمن .

#### ٦ — العامل الهندوسي

يُمَثِّل العامل الهندوسي ، بفضل نظام القرى القديم والطوائف المِهْنِيَّة ، دوراً غير الذي يمثله العامل الأوربي في الغرب ، فللعامل الهندوسي ، سواء أكان في قريته أم في طائفته المِهْنِيَّة ، مكانه الذي وَرِثَهُ أباً عن جدٍّ منذ قرون ، ويجهل العامل الهندوسي ما عَرَفَتْهُ شعوب الغرب من تنازع البقاء ومن العمل القاسي في المصانع ومن البطالة وما إلى ذلك من ضروب البؤس التي تجدها في حضارتنا ، وليس العامل الهندوسي بدَوِيّاً كالعامل الأوربي الذي لا تُبْصِرُ له وطناً ولا أسرة فيبدو عسكراً هائلاً للمجتمع الذي يَمُكِّل فيه ، فالحقُّ أن العامل الهندوسي لا يَكْسِبُ مُيَاوَمَةً أكثر من اثني عشر دانقاً إلا نادراً ، ولكنه إذ كان عاطلاً من احتياجات الأُمِّ المتعدنة المصنوعة فإنه يكتفي بهذا المبلغ الزهيد ، والحقُّ أن أجرة العامل الأوربي تُزِيدُ على أجرة العامل الهندوسي عشر مرات ، ولكن احتياجات ذلك إذ كانت أكثر من احتياجات هذا بدرجات فإنه يبدو بائساً في الغالب .

ولا يتمُّ تخرُّج العامل الهندوسي في المصنع أو المدرسة أو الكتب ، فالمهَن في الهند أمر وراثي ، فهي تنتقل من الأب إلى الابن منذ أقدم الأزمنة ، وفي القرية

التي هي عنصر المجتمع الهندوسى الأساسى يُصَنِّعُ كلَّ ما هو ضرورى وكالى ، ولا تَجِدُ قرية عاطلة من خَزَّاف أو نَحَّاس أو صائغ انتقلت إليه مِهْنَتُهُ من أجداده منذ زمن مَنُو .

وتتألف طائفة من عُمَالٍ كلِّ مِهْنَةٍ فى المدن الكبيرة ويتألف من كل مهنة عالمٌ صغير له عريف وِرَائى ، كِهِنَّةٌ ناقِشَى العاج وصانئى الأسلحة والعَطَّارِين والدَّهَّانِين والرَّجَّاجِين والخَزَّافِين الخ .

ويَقْنِى السَّائِحُ ، الذى يحب مدن الهند وقراها فيزُورُ أكواخ العمال ، العجبَ من حِدْقِ هؤلاء العمال ومن قِلَّةِ عدد الآلات التى يستعملونها فى إنجاز أىِّ عملٍ ، فيَقْطَعُ السَّائِحُ بأن عمال الأوربيين الذين يفوقون عمال الهندوس قليلون إلى الغاية وبأنهم يَعْجِزُونَ ، مع ذلك ، عن إنتاج مصنوعات مُتَقَنَةٍ بمثل تلك الآلات ، فحِذْقُ كَذَلِكَ هو نتيجة استعداد وِرَائى لا يُغْنِى عنه أىُّ تَخَرُّجٍ ، نَعَمْ ، قد يصنع العامل الأوربى أدواتٍ أفضل مما يصنعه الهندوسى مستعيناً بآلات ميكانيكية ، ولكنَّ من فَرَطَ التساهل أن تساوى العامل الأوربى بالعامل الهندوسى ، والعامل الأوربى هو مَنْ حَطَّ الاختصاص قيمته الذهنية على عكس العامل الهندوسى .

## ٧ — حياة الهندوس العامة والخاصة

تكلمنا فى الفصل الذى خصصناه للبحث فى العروق عن طبائع سكان الهند وعاداتهم المختلفة ، فنقتصر فى هذا المطلب على قول بضع كلمات عما يشترك فيه أكثر الهندوس من الطبائع والعادات .





تَجِدُ كَبِيرَ أَهْمَةٍ وَرَوْعَةٍ وَعَظْمَةٍ فِي مَظَاهِرِ  
حَيَاةِ الْهِنْدُوسِ الْعَامَةِ كَأَسْتِقْبَالِهِمْ وَأَعْيَادِهِمْ  
الدِّينِيَّةِ وَعَرْضِ جَنُودِهِمْ وَمَوَاجِدِهِمْ فَتَأَلَّفَ  
مِنْهَا مَوْضُوعُ أَلْفِ قِصَّةٍ عَجِيبَةٍ خَلِيَالَتُنَا  
الْغَرِيبَةِ ، وَأَمَّا حَيَاتُهُمْ الْخَاصَّةُ فَبَسِيطَةٌ إِلَى  
الْعَاقِبَةِ .

وما لدى النَّفِيِّ مِنَ الطَّعَامِ وَالْمَأْوَى ١٧٤ - لِمِيقِ شَأْيِ بَظَنِّ أَنَّهُ صَنَعَ فِي نِيَالٍ  
وَالْمَادَاتِ لَا يَخْتَلِفُ كَثِيرًا عَمَّا لَدَى الْفَقِيرِ ، فَيَتَأَلَّفُ طَعَامُ كُلِّهِمَا مِنَ الْخُضَرِ وَالزَّيْتِ  
أَوِ السَّمَنِ وَمِنِ التَّوَابِلِ وَالْمَاءِ الْخَالِصِ ، وَكُلَاهُمَا يَأْكُلُ بِأَصَابِهِ جَالِسًا الْقَرْفُصَاءَ عَلَى  
الْأَرْضِ ، وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْفَرْقِ فَيَتَجَلَّى فَقَطْ فِي نَوْعِ الْبُسْطِ وَالْفِرَاشِ وَالنُّشُجِ ، وَتَتَأَلَّفُ  
أَوَانِيَهُمَا مِنْ أَطْبَاقٍ مَصْنُوعَةٍ مِنْ رَقٍّ لِلْأَوْزِ ، وَتَجِدُ عِنْدَ الطَّبَقَاتِ الدُّنْيَا مِنَ الْأَوَانِيِ  
الْخَزَفِيَّةِ أَوِ الْمَعْدِنِيَّةِ مَا لَا تَجِدُهُ عِنْدَ الطَّبَقَاتِ الْعَالِيَا ، وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ ابْنَ الطَّبَقَةِ الْعَالِيَا  
يَخْشَى أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْأَوَانِيِ مِمَّا اسْتَعْمَلَهُ شُؤْذَرِيٌّ أَوْ مُنْبُوذٌ فَلَا يَرَى ، لِلْخُرُوجِ مِنْ  
هَذَا الْإِحْتِمَالِ ، غَيْرَ اسْتِعْمَالِ الْأَوَانِيِ الْمَصْنُوعَةِ مِنْ رَقٍّ الْأَشْجَارِ فَتَتَأَلَّفُ بَعْدَ اسْتِعْمَالِهَا  
حَالًا ، وَهَذَا مَا لَا يَخْشَاهُ ابْنُ الطَّبَقَةِ الدُّنْيَا فَيَسْكُتُ بِغَسْلِ أَوْعِيَتِهِ ذَلِكَ غَسْلًا حَسَنًا .  
وَلَيْسَ فِي بَيْتِ التَّاجِرِ النَّفِيِّ مَا يُمَيِّزُهُ مِنْ كُوخِ الْفَقِيرِ مِنَ الْأَثَاثِ ، فَكُلًّا  
الْمُتَزَلِّينَ عَاطِلٍ مِنْهُ ، وَمَا فِيهِمَا مِنْ ظَرْفٍ مَقْصُورٍ عَلَى زِينَةِ الْجُدُرِ الْمُنْقُوشَةِ الْمُرَصَّعَةِ  
أَحْيَانًا وَغَنَى السِّتَائِرِ الْحَرِيرِيَّةِ وَالزَّرَّائِيِّ الْمَبْسُوطَةِ عَلَى الْأَرْضِ وَالْوَسَائِدِ الَّتِي يُجْلَسُ  
عَلَيْهَا أَوْ يُسْتَنَدُ إِلَيْهَا .

وأظهر ما تبدو نعمة النفي من أهل الهند في المنازل الواسعة العالية وما يحيط بها  
من الحدائق ، وفي خريير المياه الجارية إلى الحياض ، وفي الثياب الفاخرة والعُلَى

الثقيلة الثمينة ، والزهدُ في الطعام أمرٌ شامل لأهل الهند ، وما يمارسه أهل الهند كل يوم من الطقوس الدينية يجعل حياتهم واحدة مهما كانت الطبقات الاجتماعية التي ينتسبون إليها ، وتقوم هذه الطقوس ، على الخصوص ، على الغسل والصلوات صباحاً وظهراً ومساءً ، ولا سيما قُبَيْل الأكل أو بعده حالاً .



والهندوسى لا يبدأ بعمل ولا يدنو من صديق ولا يُفَكِّر في نوم من غير أن يعوذ بالآلهة ، وهو ، لكيلا يُعْثَلَ عن واحد من أدعيته الكثيرة ، يستعين بسُبْحَةِ كالمسلمين والكانوليك ، وهو يكتفى ، في الغالب ، بذكر أسماء آلهته المختلفة .

ووصفُ حياة الهندوسى العامة أسهل من وصف دقائق حياته الخاصة ، وعِلَّة هذا ما فُطِر عليه من الفَيَرَةِ المانعة من اِطَّلَاع الأجنبي على سرائر بيته ، والهندوسى ، مع ذلك ، مِضيفٌ ذو أدب جَمِّم .

ونساء الهندوسى نفل بعيدات من أنظار الزائرين ، ومن الإهانة لرب المنزل أن يُسأل عنهن .

١٧٠ - إناء من فضة موه بالبناء  
( المصر المقول )

وإذا ما تزاور الهندوس بدّوا أبسط ألفة

مع مراعاة أشد قواعد الحشمة ، وتُعَدّ مقامات الناس ، ولا سيما مكان كل واحد

منهم في رَدَّه الاستقبال ، من أعظم ما يلاحظه الهندوس ، فإذا ما حضر راجه أو أمير من البيت المالك جلس تحت مظلة منصوبة في صدر الرَدَّه المقابل للباب ، ويصطف الآخرون على طول الرَدَّه على أن يكون أقلهم منزلة بالقرب من الباب ، ويحس الجميع على بسط أو على سائد .



١٧٦ - شمعان من البروت (مدورا)

ومن يستقبل الزائرين هو الذي يشير عليهم بالانصراف ، وذلك بإتيانه قولاً أو عملاً مصطلحاً عليه كأن يسأل مثلاً : هل يحظى بزيارتهم مرة أخرى ؟ أو كأن يعرض عليهم تنبلاً<sup>(١)</sup> أو جلاباً<sup>(٢)</sup> .

وتلبس هندوس الشمال ثياباً بحسب الزى الإسلامي على العموم ، ويحافظ هندوس الوسط والجنوب على الزى التقليدي المؤلف من قطعة نسيج تُلف حول الكليتين وقطعة نسيج أخرى تُلف حول الرأس ، وتلبس المرأة نسيجاً فضفاضاً (ساري) يحيط بساقها

ويرد أحياناً إلى ما فوق رأسها فيستر وجهها ، وتلبس المرأة أيضاً صدرية قصيرة لا تستر خصرها ، ولا تلبس الهندوس أحذية ، بل تلبسون بوابيج معلقة الطرف حينما يكونون خارج بيوتهم فيخلعونها في العتبات ، فالهندوس حفاة في منازلهم .

(١) التنبل : نبات من الهند يضغط ورقه - (٢) الجلاب : ماء الورد (مرب)

ومنظر قَرْىِ الهندوس حسن رائع ، ويُؤلف أكثر بيوتهم من طبقة واحدة ، وتُصنَّع جُدُر هذه المنازل من سِيَّقان الخيزُرَان كما في البنغال ، ومن الطين مع سقوف من القِرْمِيد كما في الهندوستان أو سقوف من الصَّلصال المرصوف كما في الدَّكَن ، وتكاد تَجِد مَعْبَداً صغيراً في كلِّ خطوة ، وتقوم في وسط القرية دائرة البلدية المصنوعة في الغالب من سَقَف قائم على أعمدة ومن ميدان ذى شجر ظليل ، ويُرَى في القرية حتى منفصل خاصٌ بالنبوذيين ، ويحتنب الهندوس لَمْسهم بدقة من غير إيذاء ، ويقرَّب حال النبوذيين هؤلاء من حال السائلين في أوربة .

والطرق في كَبَرِيَّات مُدُن الهند ضيقة ومزدحمة ويسير فيها جمهور أنثَر<sup>(١)</sup> على الدوام ، ويحبها الأغنياء في هِوَادِجٍ يتبعها حَمَلَةٌ متناسلون وتُوضَع السِّلَع على مصاطب الحوانيت فيدفع المشترون الثمن من غير أن يدخلوا هذه الحوانيت المُفَتَّحة الأبواب ، وتبدو سوق التجار أكثرَ أما كن المدينة حركةً وتَقْصُ للمعابد بالجمهور أيضاً ، مثلما تَقْصُ أطراف حِيَاض الغسل .

ولسكلَّ معبد حَوْض مقدس يَغْتَسِل الرجال والنساء والأولاد في مائه القسذر في الغالب .

وماء نهر الغَنُج نفسه هو الماء المُقَدَّس في المدن القائمة على ضِفَافه ، ويُنَزَل إلى هذا النهر من دَرَج عالية على الدوام ، لِمَا يطرأ على مستواه من التحول ، وتَقْصُ تلك الضَّفاف بالحجيج في الأعياد الدينية ، وتبدو رائعة في الليل بساخر الأنوار ، ولا شئ

(١) الأتمر : ما فيه بقعة بيضاء وأخرى سوداء .

أَجَلٌ مِنْ نَهْرِ الْفَنَاجِ الْجَلِيلِ حِينَ تَتَعَكَّسُ عَلَيْهِ أَنْوَارُ النِّيرَانِ الَّتِي تُوقَدُ عَلَى أَرْضِ صَفَةِ الْقَصُورِ وَالْمَرَاقِ الْقَسَائِمَةِ عَلَى ضِفَافِهِ ، وَيَسْطَعُ بَعْضُ هَذِهِ الْأَنْوَارِ فَوْقَ الصَّوَارِي (١)

فِيُخَيَّلُ إِلَى النَّازِلِ أَنَّهَا تَنَاطَحُ الْكُوكَبُ .

وَزِينَةُ كَتَلِكْ مِمَّا يَرُوقُ الْهِنْدُوسُ ، وَمِمَّا يَزِيدُ أَعْيَادَ الْهِنْدُوسِ رَوْعَةً اَزْدِحَامُ الْجَاهِلِ الَّتِي تَجْتَمِعُ فِيهَا وَضُرُوبُ الْأَبْهَةِ الَّتِي تَتَجَلَّى فِيهَا ، أَجَلٌ ، إِنَّكَ تَشَاهِدُ أَعْيَاداً لِكُلِّ مَدِينَةٍ وَلِكُلِّ طَائِفَةٍ وَلِكُلِّ مَذْهَبٍ ، يَبْدُو أَنَّ هَذَلِكَ أَعْيَاداً كَبِيرَةً عَامَةً نَلْتَقِي فِيهَا جَمِيعَ الْأَدْيَانِ .

وَالْحَاجُّ وَالْأَسَاقِ فَضْلٌ جَمْعُ مُخْتَلَفِ الشُّعُوبِ فِي صَيْدٍ وَاحِدٍ ، وَالتَّجَارِ يَتَبِعُونَ الْحَاجَّ فَيَزِيدُونَهُمْ عِدْداً ، وَلَا تَقْتَتِحُ سَوْقٌ قَبْلَ الْبَدءِ بِتَمْجِيدِ الْآلِهَةِ .

وَأَوَّلُ الْهِنْدُوسِ ، وَهُمْ مِنَ الْأَذْكِيَاءِ الْحَسَانِ عَلَى الْعُمُومِ ، يَتَرَعَّرُونَ طُلُقَاءً ، فَيَلْعَبُ أَبْنَاءُ الْفُقَرَاءِ وَيَتَرَعَّرُونَ فِي الطَّرِيقِ وَالْحَقُولِ عُرَاةً ، وَيَتَخَرَّجُ أَبْنَاءُ الْأَغْنِيَاءِ عَلَى الْبَرَاهِمَةِ الْمُرْتَبِطِينَ فِي بِيُوتٍ وَالدِّيْهِمْ كَمُودَّيْنِ ، وَقَلِيلٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَبْنَاءِ مِنْ يَذْهَبُونَ إِلَى الْمَدَارِسِ مَعَ مَا تَبْذُلُهُ الْحُكُومَةُ الْإِنْكَلِيزِيَّةُ مِنَ الْجُهْدِ ، فَإِذَا مَا بَلَغَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ السَّنَةَ الْعَاشِرَةَ أَوْ السَّنَةَ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ مِنْ عَمَرِهِ تَزَوَّجَ .

وَالنِّسَاءُ يَمْسُحْنَ مُقَيَّدَاتٍ كَمَا ذَكَرْنَا ، فَإِذَا خَرَجْنَ مَعَ زَوْجِهِنَّ ابْتَعَدْنَ عَنْهُ بِضْعَ خُطَوَاتٍ ، وَإِذَا سَافَرْنَ مَعَهُ فِي الْقَطَارِ تَبَوَّأْنَ مَقَاعِدَ فِي مَرْكَبَةِ الدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ مَعَ أَنَّهُ يَتَبَوَّأُ مَقْعِداً فِي مَرْكَبَةِ الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ فِي الْغَالِبِ ، وَهِنَّ لَا يَأْكُلْنَ إِلَّا بِعَدِهِ ، وَيَتَخَدَّمُنَّ فِي أَثْنَاءِ طَعَامِهِ .

(١) الصَّوَارِي : جَمْعُ الصَّارِي وَهُوَ عَمُودٌ يَرَكُزُ فِي وَسْطِ الْبَيْتِ يُعَلَّقُ بِهِ الْفُرَاعُ .

ويُحرقُ براهمة الهندوس موتاهم إذا زادت أعمارهم على سبع سنوات ، وإلا دفنهم على العموم .

ويكون الموقد حفرة قليلة العمق ، فإذا كان الميت غنياً ملئت هذه الحفرة بحطيات من خشب الصندل وزيل البقر المجفف الذي يمد وقوداً مقدساً في الهند ، ثم تُسترُ الجثة وجميع الموقد بطبقة رقيقة من الطين الرطب ويُحرق الويد قبل إغلاق جميع الموقد ، فإذا ما تم الحرق في خمس ساعات أو ست ساعات وحلَّ الغد جَسَّ الأقارب عظام الميت المحروقة ورَمَوْها في بحر أو نهر .

والهندوس مفرطون في إظهار سرّاتهم وفي إظهار صرّاتهم ، وهم ذوو جدل بطبيعتهم ، وهم محبوبون للاحتفالات والألعاب ولللاذ العامة ، وهم مع زهدم عادةً ، يقيمون أفخر الولائم في بعض الأحوال ، والزواج أهم عيد عند الأسرة الهندوسية ، ففي سبيل الزواج لا يُعرف الهندوس للإنفاق حدوداً ، فيُخرَّب قراؤهم بيوتهم بأيديهم في حفلات الزواج فيُتَمَلَّون كواهلهم بالديون من أجل دعوة جيرانهم إلى الولائم التقليدية .

وإذا سألت عن أمر الأغنياء في الهند علمت أن أفراحهم تُقرَن برقص الراقصات وبالصيد على ظهور الفيول ، ومن أروع المناظر لدى الهواة والمتنزهين مواكب أسراء الهند للصيد حيث يَرَوْنَ فيولهم ذات الرُخُوت<sup>(١)</sup> الزاهية وجيادهم ذات الشروج الرائعة وكتائب حُدَمهم ذوي الثياب الساطعة .

وتمدُّ الراقصات ركناً في جميع احتفالات الهندوس الدينية والمدنية ، وليست القتيات الفقيرات ، المتوسطات الظرف الرديئات الثياب الراقصات في بيوت الأغنياء

(١) الرخت : السرج .

أوفى رِده الفنادق أمام الأجانب طمعاً في أجر زهيد ، باللائى يتمثل الأوربى بهنَّ  
تلك الفائناتِ المُدَثَّرَات بالشُفوف الرقيقة واللابساتِ حُلِيَّتا ساطعة واللائى يَتَمُنُّ  
بالتمثيل الصامت المتموج الحافل بالأسرار فى العبد بجنوب الهند واللائى يكون رقصهن  
أمام الآلهة أهمَّ عمل يَتَمُنُّ به .



١٧٧ - إناء ممدنى موه بالبناء (البنجاب)

وأمرء الهندوس مُسَكَّرِ مون للضيوف ،  
ولاسياً إذا كان الضيف مُوصى به ، ولا أراى  
خاتماً لهذا البحث الخاطف قبل أن أورد  
مالاقيته فى بلاط بهوبال مثلاً على ذلك :  
تَمَلِّك مملكة بهوبال الصغيرة فى الوقت  
الحاضر مِلِكَةٌ ، فلما عَلِمَتْ هذه المِلِكَةُ  
بقدومى أرسلت إلى عربة من بلاطها فبلغتُ  
بها أحد قصورها حيث استقبلنى خَدَمٌ  
كثيرون حاملون سِلَالاً مملوءة فواكه وأزهاراً ،  
وكان على رأس الجميع وزير ليُبَكِّفنى أطيب  
تَمَنِّيَّاتِ المِلِكَةِ .

فما كِدْتُ أدخل القصر حتى دَنَا منى ضابط القصر قائلاً :

« تَرْحَبُ المِلِكَةُ بك أيها السَّرِى الأجنبي راجيةً أن تُعَرِّبَ عما تَرْغَبُ فيه » .

فأبديت رغبتي فى تناول العشاء ، فَبَدَتْ إشارةً فَرُفِعَ حِجابُ فرأيت فى  
الرَّذْمَةِ المجاورة مائدةً مُنَظَّفةً على الطريقة الأوربية مشتملةً على شَمَاعِدَ وآنيةٍ من

بَلَّورَ وَفِضَةً يَحِيطُ بِهَا خَدَمٌ لَا بَسُونَ ثِيَابًا مُخْتَلِفَةً الْأَلْوَانِ وَاقِفُونَ صَامِتُونَ كَتِمَائِيلَ مِنْ بَرُونَزٍ مَزْمَلَةٍ بِحَرِيرٍ .

وَلَمْ أَكُذِّ أَجْلِسُ حَتَّى سَمِعْتُ صَوْتَ جَرَسٍ فِي الْخَارِجِ فَقِيلَ لِي إِنَّ هَذَا كَانَ لِأَنَّ الْمَلِكَةَ لَمْ تَرَ أَنَّ تَنَامَ قَبْلَ أَنْ أُسْأَلَ عَمَّا أُرْغَبُ فِيهِ مَرَّةً أُخْرَى .

فَسَأَلْتُ أَنْ يَرِاقِفَنِي حَرَسٌ إِلَى سَانِجِي فِي الْغَدِ ، فَلَمَّا حَلَّ الصَّبَاحُ وَجَدْتُ الْقِيُولَ وَالْفَرَسَانَ يَنْتَظِرُونَنِي أَمَامَ الْبَابِ ، وَلَمَّا وَصَلْتُ إِلَى سَانِجِي وَجَدْتُ حَيَمَةً مُعَدَّةً لِي مُشْتَمِلَةً عَلَى سُرُرٍ مُعْطَاةٍ بِسُجٍّ مِنْ حَرِيرٍ وَعَلَى دَقَائِقِ الْقِرَى الشَّرْقِيِّ .



١٧٨ - إناء خزف مطلى (سندھا)

وَتَمَّ لِي مِثْلُ ذَلِكَ الْاِسْتِقْبَالُ الرَّائِعُ مِنْ قَبْلِ الْوَصِيِّ عَلَى عَرْشِ جَهَنَّمِ الَّذِي أَمَرَ بَأَنْ يُنْصَبَ لِي فِي الْبَرِّيَّةِ بِكَهْجُورٍ خِيَمَةٌ حَاطِيَةٌ جَمِيعَ وَسَائِلِ الرَّاحَةِ الْأُورُيَّةِ ، فَلَمَّا رَجَعْتُ مِنْ ذَلِكَ الْبَلَدِ الْقَدِيمِ الْمُهْجُورِ فِي الْوَقْتُ الْحَاضِرِ حَضَرَ لَتَحِيَّتِي ذَلِكَ الْوَصِيُّ عَلَى الْعَرْشِ مُحَاطًا بِوُزَرَاءِ الْبَيْتِ وَأَمْرَانِهِ بَعِيدًا بِضَمَّةِ أُمِّيَالٍ مِنْ عَاصِمَتِهِ .

حَقًّا أَنَّ ذَلِكَ الْقِرَى يَنْقَلِبُ إِلَى زَعْجِ الْأَجْنَبِيِّ إِذَا أَمَرَ الرَّاجِعَاتُ بِضَرْبِ الْمَدَافِعِ إِبْدَانًا بِوَصُولِ أَجْنَبِيٍّ إِلَى عَوَاصِمِهِمْ ، وَلَكِنْ ائْتَلَطْتُ بِهَوْنٍ عَلَى السَّائِحِ إِذَا أَرَادَ الْوُقُوفَ عَلَى الْأَبْهَةِ الْأَسْيُورِيَّةِ وَعَلَى الْمَوَاكِبِ السَّائِرَةِ وَالْجَلَاعَاتِ ذَوَاتِ الثِّيَابِ الزَّاهِرَةِ ، فَالَسَّائِحُ الَّذِي يُكْرَمُ بِمِثْلِ ذَلِكَ يَظُنُّ شَاكِرًا لِمَنْ ائْتَفَى بِهِ فَيَذْكُرُ لَهُ ذَلِكَ .



وليس تلك المناظر الزاهية مُتَمَّةٌ للعيون والخيالات فقط ، فالناقدُ والمؤرخُ  
يَجِدَانِ فيها ، أيضاً ، مثل ما يجده المتفنن .

والسائح إذا دخل حيدرآباد على ظهر فيل فشاهد حَوْلَهُ حَرَسَ نظامِ ذِي الأوضاع  
الرائعة أبصر صورة صادقة عن عاصمة كبيرة في أيام سلطان الإسلام .

وحيدرآباد ، عاصمةُ ممالك نظام ، هي المدينة الهندية التي حافظت على مظهر  
القرون الخالية وعظمة بلاطات الشرق القديمة ، وقد تُقَاسُ بمدن العهد الإقطاعي في  
أوربة وإن لم يكن للشرق عهدٌ بالإقطاع الحقيقي ، فالباحث حينما يرى أمراء نظام  
أصحاب جيوش يدخلون بها عاصمة المَلِك في بعض الأحيان يَتَمَثَّلُ له ما كان يقوم به  
الأرمنياك والبورغون من القتال في شوارع باريس .

---

## الفصل الرابع الإدارة الإنجليزية مستقبل الهند

(١) الإدارة الإنكليزية - مبادئ إدارة الإنكليز في مستعمراتهم - حكومة الهند قبل نورة السيامي - إدارة الهند الحاضرة - تقسيمات إدارية - سلطة الحكم ونائبهم - موظفو الإنكليز ورواتبهم - استعدادهم الكبير - مدير الهندوس أمور بلادهم النانوية - بساطة الإدارة الإنكليزية - الجيش - المالية - التجارة - وسائل النقل - دول الهند المستقلة - (٢) التربية الإنكليزية في الهند - أهمية التربية - تأثير التربية الأوربية السي في الهندوس - الثقافة الهندوسية - عقله وأدبه - عدم انزائه - (٣) مستقبل الهند - مسألة مستقبل الهند تتضمن نتائج اصطراع الشرق والغرب - يمكن الهند أن تغير سادتها ، غير أنه محكوم عليها بالخضوع للقائعين من الأجانب - الأخطار التي تهدد سلطان الإنكليز في الهند - أهمية ما تتمخض عنه المنازعات الصناعية في الهند وفي بقية الشرق - نتائج هذه المنازعات الخطرة على أوربة - ما قد تسفر عنه من خفض أجور العمال في أوربة - لماذا لا يؤدي الأدب الأوربي الراهن إلى تبين مخرج سلام لأوربة في التنازع الصناعي القادم بين الشرق والغرب

### ١ - الإدارة الإنكليزية

أقامت أمم كثيرة مستعمرات ، وحافظت أمم قليلة على ما أسست ، وعرفت إنكسكارة كيف تحافظ على مستعمراتها على العموم ، فكان هذا سبب نيلها مغائم عظيمة ، فلذلك نرى من المفيد جداً أن نعلم كيف تمليكها .

ودرس الموضوع في مجموعه واسع ماختلف نظام الإنكليز الاستعماري باختلاف المستعمرات ، فمن المستعمرات الإنكليزية ما هو مستقل استقلالاً تاماً تقريباً كأستراليا التي لم يكن سلطان الإنكليز فيها إلا اسمياً ، ومنها ما الإنكليز فيه حكام ذوو سلطان مطلق كإلند ، فترى بين هذين الصنفين من المستعمرات مجالاً لتطبيق مختلف النظم .

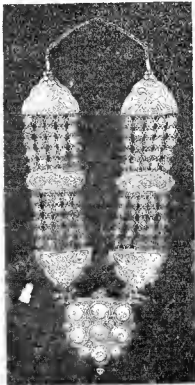
والنظام الذي ندرسه في هذا الفصل خاصٌ بإلند ، فنذكر فيه خطوط ذلك النظام الذي استطاع به ألف من الموظفين وجيش صغير من الأوربيين ( لا يكاد يزيد على الجيش الفرنسي المراتب في الجزائر لحكم ثلاثة ملايين من المسلمين ) أن يخضعوا به أكثر من مئتي مليون من الآدميين ، أي أكبر إمبراطورية في العالم بعد الصين .

ليس من السهل استخلاص المبادئ العامة التي سار عليها الإنكليز في تأسيس إمبراطورية الهند الاستعمارية وما إليها من المستعمرات ، وهذه المبادئ العامة هي من قواعد السلوك التي ترغب الأمم ، كالأفراد ، في العمل بها عملاً لاشعورياً في بعض الأحيان من غير أن يوصى بها في الكتب ، ونحن ، إذ بحثنا في الإدارة الإنكليزية بإلند وفي تاريخها بحثاً دقيقاً أمكننا أن نستخرج تلك المبادئ كما يأتي :

١ — يجب أن يكون فتح إحدى المستعمرات تجارياً قبل فتحها حربياً ، فالتجار ، وحدهم ، يستطيعون أن يثبتوا ، برواج أسواقهم ، وجود نفع بالغ في الاستيلاء على بلد ، فإذا ما فعلوا ذلك دُوح ذلك البلد عند القدرة على قهره عسكرياً ، وإلا فيسح بالحيل والدسائس .

٢ — يجب أن يتم قهر البلد الذي يراد فتحه بمال هذا البلد وبمجنوده ، فلي الأوربي الغازي أن يقتصر على إدارة شؤون هذا الفتح ، وقد رأينا كيف أن هذا

للبدء الأساسى قد طُبِّقَ في فتح الهند فاستطاع الإنكليز، بتدخلهم في منازعات أمراء الهند، أن يستولوا به على جميع الهند من غير أن يتكبدوا نفقة أو ضياعاً في الرجال إلا قليلاً جداً.



١٧٩ — عقد من فضة ( سندھا )

٣ — يجب أن تُستغل المستعمرة استغلالاً تاماً في سبيل الأمة الفائزة الفاتحة وحدها مادامت عاجزة عن رفع رُفْرِ هذه الأمة الأجنبية عنها كما رُفِعَ عن أمريكة وأستراليا.

٤ — يجب ألا تُمنَح نُظُمُ المستعمرة وعاداتها ومعتقداتها إذا ما أُريدَ استغلالها اقتصادياً من غير أن يرفع سكانها راية العصيان، وذلك بأن تُترك لهم إدارتهم وقضائهم مع إشراف شِرْزِمْة من الأوربيين لا يألون جُهداً في الوصول إلى المقصدين : حفظ الأمن وجباية أقصى ما يمكن من

الضرائب، وتُصير من لقب « الجباة » الذى يطلق في الهند على أكبر موظفى الإدارة الإنكليزية هدف الإنكليز من استعمارهم للهند.

٥ — يجب ألا يتوالد الغالبون والمغلوبون أبداً، ما دامت التجارب المكررة منذ القديم قد دلت على أن توالد الشعوب العليا والشعوب الدنيا في المستعمرات يؤدى إلى انحطاط الشعب المهيمن أخلاقاً وعقلاً ثم إلى خروج مستعمرته من يده في أقرب

وقت كما أصاب البرتغاليين في الهند والإسبان في أمريكا ، وقد رأينا في المطالب الذي درسنا فيه أمر الطوائف كيف أن الإنكليز عَضُّوا على هذا المبدأ بالتواجد .

ولا مراء في أن المبدأ القائل باستغلال المستعمرة في سبيل الأمة الغالبة وحدها صَعَبُ التطبيق ، فإذا ما تجاوزت هذه الأمة الحدود فأساءت التصرف أصبح سلطانها لا يُطابق ثنار عليها الشعب المقهور ، فتَبَيَّنُ هذه الحدود ليس من السهولة بالذي يُظَنُّ ، فقد التبس الأمر على الإنكليز مع روحهم العملية الممتازة ، فكادوا يخسرون الهند لجاوزتهم تلك الحدود .



١٨٠ - حلية من فضة على شكل شبكة ( أوربة )

ظلت حكومة الهند الإنكليزية قبل ثورة السَّيَّاهي منذ ثلاثين سنة تستغلّ مئتي مليون من الآدميين بواسطة شركة تجارية اتخذت عِصَابَاتٍ من الإنكليز المرتزقين حامية لها فلم يستغِدْ من هذا الاستغلال سوى هؤلاء الإنكليز الذين فُوِّض إليهم

أمرُ إدارة الهند ، فلم يَنَلْ مساهمة تلك الشركة ربحاً ذا بال ما كان همُّ كل موظف إنكليزي من هؤلاء ، صغيراً كان أو كبيراً ، أن يغتنى بسرعة ، فبحث البرلمان الإنكليزي في فضاء هؤلاء الموظفين الإنكليز المالية في الهند ، فلما عَمَّ الجور والظُلُمُتُانِ وَقَفَّتْ الأعمال العامة فَأُفْهِمَتِ الطرق والحِياض والقَنَوَات الخ . إهالاً تاماً .

دَلَّت ثورة السَّيَاحِ الدَّامِيَةِ ، الَّتِي كَادَتْ تَوْدِي إِلَى خُرُوجِ الْهِنْدِ مِنْ أَيْدِي  
الْإِنْكَلِيزِ ، عَلَى مَا فِي تِلْكَ الْحُكُومَةِ مِنَ الْأَخْطَارِ ، فَلَمْ تَكُنْ تِلْكَ الثَّوْرَةُ تُطْفَأُ  
حَتَّى غُيِّرَتْ تِلْكَ الْحُكُومَةُ تَغْيِيرًا أَسَاسِيًّا ، فَقَدْ نُشِرَ فِي سَنَةِ ١٨٥٨ الْمَرْسُومُ الْمَعْرُوفُ  
بِـ « مَرْسُومِ الْحُكُومَةِ الرَّشِيدَةِ فِي الْهِنْدِ » فَتُرِيعَتْ بِهِ حُكُومَةُ الْهِنْدِ مِنْ تِلْكَ الشَّرَكَةِ  
التَّجَارِيَةِ وَأُسْنِدَتْ إِلَى الْمَلِكَةِ ، وَغُيِّنَ وَزِيرُ الْهِنْدِ وَأُضِفَ إِلَيْهِ مَجْلِسُ مُؤَلَّفٍ مِنْ  
أَعْضَاءٍ أَقَامُوا بِالْهِنْدِ عَشْرَ سَنَاتٍ عَلَى الْأَقْلِ ، وَقُسِّمَتْ الْهِنْدُ إِلَى وَلايَاتٍ يَرْئِيسُهَا  
نَائِبُ مَلِكٍ عَلَى أَنْ يُسَاعِدَهُ مَجْلِسُ تَنْفِيزٍ يُعَيِّنُهُ صَاحِبُ التَّاجِ وَمَجْلِسُ اشْتِرَاعٍ  
يُعَيِّنُهُ نَائِبُ الْمَلِكِ هَذَا ، فَالْيَوْمَ تَرَى الْهِنْدَ مَقْسُومَةً إِلَى الْوَلَايَاتِ الثَّمَانِيَةِ : ( الْبَنْغَالِ ،  
وَالْمَنَاطِقُ الشَّمَالِيَّةُ الْغَرْبِيَّةُ ، وَالْبَنْجَابُ ، وَالْمَنَاطِقُ الْوَسْطَى ، وَمَدْرَاسُ ، وَبَمْبَيُّ ، وَأَسَامُ ،  
وَبِرْمَانِيَّةُ ) ، لِأَيِّ ثَلَاثِ رِيَاسَاتٍ كَمَا قَبِلَ عَلَى الْعُمُومِ ، وَتَرَى عَلَى رَأْسِ أَمْرِ هَذِهِ الْوَلَايَاتِ  
مُوظَّفِينَ مُسْتَقَالِينَ لَا يُتَلَقَّوْنَ مِنْ نَائِبِ الْمَلِكِ أَوْ أَمْرِ فِي غَيْرِ أُمُورِ الْجَيْشِ وَالْمَالِيَةِ ، حَتَّى  
إِنْ حَاكَمَتِ بَمْبَيُّ وَمَدْرَاسُ يُتَصَلَّانِ بِالتَّاجِ رَأْسًا ، أَمَّا مِنْ غَيْرِ طَرِيقٍ نَائِبُ الْمَلِكِ ،  
فَتَجِدُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَجْلِسًا اشْتِرَاعِيًّا وَمُديرِينَ .

وَتَقْسَمُ كُلُّ وَلايَةٍ إِلَى مَدِيرِيَّاتٍ يَدِيرُ شُؤْنَهَا مُوظَّفٌ تَنْفِيزِيٌّ يَدْعَى بِـ « الْحَاكِمِ  
الْجَانِي » أَوْ « النَّائِبِ الْمُؤَوَّضِ » ، وَتَكُونُ السُّلْطَاتُ الْإِدَارِيَّةُ وَالْقَضَائِيَّةُ فِي يَدِ  
وَاحِدَةٍ أَوْ مَنفَصَلًا بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ بِحَسَبِ حَضَارَةِ كُلِّ مَنَاطِقَةٍ ، وَالْيَوْمَ يَكَادُ بَعْضُ  
هَذِهِ السُّلْطَاتِ يَكُونُ مَفْصُولًا عَنْ بَعْضٍ فِي كُلِّ مَكَانٍ .

وَيَبْلُغُ أَهْلُ كُلِّ مَدِيرِيَّةٍ ، وَهِيَ مَا تَقْدِرُ الْمَدِيرِيَّةُ الْفَرَنْسِيَّةُ ، مِليُونًا فِي الْغَالِبِ ،  
وَلَا يَزِيدُ عَدَدُ مُوظَّفِي الْإِنْكَلِيزِ الْمَدِينِيِّينَ فِي الْهِنْدِ بِأَسْرَها عَلَى أَلْفٍ ، وَيرْتَبِطُ هَؤُلَاءِ  
فِي إِدَارَةِ « الْخِدْمَةِ الْمَدِينِيَّةِ » ، فَهَؤُلَاءِ يَحْكُمُ الْإِنْكَلِيزِ مِثْقَى مِليونٍ مِنْ بَنِي الْإِنْسَانِ .

وَبُعْتَنِي باختيار هؤلاء الموظفين ، فيتألف من مجموعهم طبقة راقية لا تملك أمة مثلها ، وقد اتصلتُ بغير واحد من هؤلاء فقضيت العجب من أخلاقهم وقوة تمييزهم فضلاً عن ذكائهم وقوة معارفهم ، فهم يديرون شؤون الهند بحكمة وإخلاص .  
وتُجْزَلُ الحكومة الإنكليزية رواتب موظفيها في الهند مع تدقيق في أمر تعيينهم ، وقد كان هذا التعيين يَتِمُّ بالإنجيار فيقوم الابن مقام أبيه في إدارة الهند كما كان يُرَى ، وأما اليوم فيَتِمُّ التعيين للوظائف بالمسابقات فيُجْتَنَبُ ، بذلك ، بعض المساوئ ، غير أن الخلق والنشاط الضروريين في مواصلة تلك الوظائف ليسا مما يُقَدَّرُ بالامتحانات كما أصاب السر ريشاد تمبل في قوله .

وليس قبول المرشحين في تلك الوظائف بالأمر السهل ، فبعد أن يُمْتَحَنَ المرشح فيما يُثَبَّتُ به تعليمه ومعرفته التامة للهندوسثانية ( لأن الإدارة الإنكليزية لا تَرْضَى بأن يُحْكَمَ قوم من غير أن تُعْرَفَ لغتهم ) لا بدَّ من مجاوزته بعض المراحل التي تنكشف بها أهلياته ، فيدخل إذ ذاك دائرة « الخدمة المدنية » براتب يترجح بين ٩٠٠٠ فرنك و ١٧٠٠٠ فرنك على حسب القرع الذي رُئِيَ استعداد له ، فإذا مرَّت عليه أربع سنوات تَرَجَّحَ راتبه بين ٢٣٠٠٠ فرنك و ٣٠٠٠٠ فرنك ، وإذا مرَّت عليه ثمانى سنوات ، أى حينما يكون حوالى الثلاثين سنة من عمره ، كان له أن يأمل نَيْلَ ٥٠٠٠٠ فرنك راتباً ، فيسير من هذه الدرجة إلى أن ينال ١٠٠٠٠٠ فرنك ، أو أكثر ، راتباً ، وهذا مع نَيْلِهِ تمويضاً إذا ما تعلم لغة جديدة ، ولا سيما العربية أو الفارسية أو السنسكريتية في غضون ذلك .

وبعد أن يَمُضَى على الموظف البريطاني المرتبط في إدارة « الخدمة المدنية » ٢٢ سنة ، أى إذا ما كان في الأربعين من عمره ، حُقَّ له أن يعود إلى إنكلترة براتب

تقاعد سنوي يترجح بين ١٥٠٠٠ فرنك و ٢٥٠٠٠ فرنك<sup>(١)</sup>.

وتجدر تحت موظفي الإنكليز أولئك مئات الألوف من موظفي الهندوس الثانويين الذين يتدرون أن يزيد الراتب الشهري لكل واحد منهم على خمسين فرنكا، أى على هذا المبلغ الكثير على الهندوسى، فبهؤلاء وحدهم يتصل الجمهور الهندوسى، فهؤلاء إذ كانوا مطلعين على احتياجات ذلك الجمهور وأفكاره ونظمه المختلفة باختلاف الولايات بدؤوا قادرين على القيام بما فوض إليهم، فتدار كل ولاية وكل مديرية بحسب عاداتها القديمة.



١٨١ - سارية سرير  
مدعون باللك (سندها)

ترى، من ذلك، درجة كمال تلك الإدارة وبساطتها، وبينما تشاهد الأمم الأخرى تُرسِل إلى مستعمراتها الواقعة فيها وراء البحار جحافل من الموظفين المتفاوتى الدرجات الجاهلين للغة وطنهم الموقت ومبادئه وطبائمه وعاداته فلا يصدر عنهم غير مسّ مشاعر من يحيطون بهم تستخدم الحكومة الإنكليزية في إدارة مستعمراتها موظفين أهلين وقضاة محليين تحترم بهم شرائع هذه المستعمرات وعاداتها، وما يناله أكابر الموظفين من رواتب ضخمة مما يحول دون ارتشائهم فيبيذلون ذكاءهم

(١) رواتب الضباط أقل من رواتب موظفي « الخدمة المدنية »، فالترقى في الجيش إذ كان يتم بسرعة فإن الجيش يكون لديه من يحتاج إليهم من المرشحين بدرجة الكفاية، ورواتب موظفي الجيش أعلى مما في أوربة مع ذلك، فراتب العريف في الجيش ١٥٠٠ فرنك، وراتب الملازم ٦٠٠٠ فرنك، وراتب قائد المئة ٢٠٠٠ فرنك، وراتب القائد ٣٠٠٠ فرنك، ويكون راتب أمير اللواء مترجعا، فقد يزيد عن ١٠٠٠٠ فرنك إذا كان أمير اللواء مندوبا أو مقما، ومن ذلك حال أمير اللواء الذى هو مندوب في راجيوناتا في الوقت الحاضر.



في سبيل الأعمال التي وُكِّلَتْ إليهم ، ومن هؤلاء الموظفين المرتبطين في « الإدارة المدنية » من أقاموا بالولاية الواحدة عشرين سنة فعَرَفوها معرفة تامة .



( ١٨٢ - حبة من ذهب ( بـ ) )

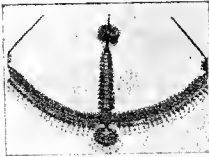
ويمكننا انتقاد نظام يترك الأمم المقهورة حرة في نُظُمها وعاداتها إذا ما نظرنا إلى الأمر من حيث المبدأ القائل إن شأن الأمم العليا هو في فَرَض ما نسميه نِعَم الحضارة على الأمم الدنيا ، وترانى ، مع ذلك ، غير معتمد صواب هذا المبدأ النظرى غير الصالح لبقاء المستعمرة قبضة الأمة التي أقامتها ، أجل ،

إننا نظن أننا نصنع خيراً إذا منحنا ما بَقِيَ لنا من المستعمرات في الهند نُظُمنا الجمهورية كالمساواة والانتخاب العام الخ ، بيد أنه يجب على من يُعْجَبون بهذا النظام الاستعماري ألا يأسفوا على أننا أضعنا الهند في عهد لويس الخامس عشر ، وذلك لأن تطبيق مبادئنا العظيمة على الهند كان يؤدى إلى خُسْرنا لها بسرعة لا تحَالَة ، فضلاً عن وقوعها في فوضى دامية كبيرة .

ولاشئ أفضى لعجب السائح الذى يَصِل إلى بونديجيرى بعد أن يزور الهند من المقابلة بين قلة احترام الهندوس للأوروبيين في هذه المستعمرة الفرنسية واحترامهم العميق للأوروبيين في الهند الخاضعة لسلطان إنكلترة ، فنحن نرى من المعروف الطيب أن نُنْعِم بِنُظُمنا الراقية الحديثة على المشابهين لأبناء القرون الوسطى ، والهندوس يَرَوْنَ أننا لم نصنع ذلك إلا لأننا نخشاهم ، فنَفْقِد ، بذلك ، تفوذنا لديهم ، فلنحتفظ

مبادئنا في المساواة إذا لم نستطع العيش بدونها ، ولكن لنكفَّ عن تأسيس المستعمرات ما تمسكنا بتلك المبادئ .

وتتمثَّل النتائج التي أسفرت عنها الإدارة الانكليزية الجديدة فتوقفت عليها مغادر الهند منذ ثلاثين سنة مستعينين بالإحصاءات الرسمية ، فبفضل تلك الإدارة سُرِّت الهند بالخطوط الحديدية والفنَّوات وأسلاك البرق والأشغال العامة فأضحت أنجح مستعمرة ملكتها أمة ، ومن النظر في بعض الأرقام تتمثَّل حال هذه الإمبراطورية العظيمة بسهولة .



١٨٣ - حلي ( نرى جنابلي )

يخضع للإنكليز مئتا مليون من الأهالي ، فإذا أضفت إلى هذا العدد سكان ممالك الهند الأهلية البالغ عددهم ستين مليوناً كان المجموع ٣٦٠ مليوناً ، ولا تكاد نجد نصف مليون من هؤلاء نتيجة لنوال الهندوس والأوربيين ،

وبرجع هذا النوال ، على الأكثر ، إلى زمن كان الإنكليز والهندوس فيه على اتفاق أكثر مما هم عليه الآن .

والجيش الإنكليزي في الهند مؤلف من ٦٥٠٠٠ جندي فقط ، وتجد بجانبه جيشاً من الهندوس مؤلفاً من ١٢٧٠٠٠ جندي ، ويفوق هذا الجيش ضباط من الإنكليز .

وبلغ دخل بيت المال في الهند ملياراً و ٧٠٠ مليون ، ويُجَبَّى ٥٦٥ مليوناً من

هذا المبلغ من الخراج و ١٣٠ مليوناً من الأفيون و ١٥٥ مليوناً من الملح .  
وترجع نفقات الجيش ، بحسب السنين ، بين ٤٠٠ مليون و ٥٠٠ مليون ،  
وتبلغ نفقات الإدارة المدنية ٢٧٥ مليوناً ، وتبلغ نفقات الأشغال العامة ٣٧٥ مليوناً ،  
وتبلغ الديون العامة أربعة مليارات ، ومن هذه المليارات الأربعة مليار واحد أنفق  
لقمع ثورة السباهي ، ومنها ٥٤٠ مليوناً أنفق في محاربة الأفغان الأخيرة .  
وتتألف الأشغال العامة الكبرى من الخطوط الحديدية والقنوات على الخصوص ،  
وفي الهند أكثر من ٢٠٠٠٠ كيلومتر من الخطوط الحديدية ، ونحو هذا المقدار  
من القنوات .

وتقدر موازنة الهند التجارية في الوقت الحاضر بثلاثة مليارات ، فتبلغ الصادرات  
١٧٠٠ مليون ، وتبلغ الواردات ١٣٠٠ مليون ، وأخذت صادرات الهند تزيد على  
وارداتها منذ سنين ، فانهت هذه الزيادة إلى ٤٠٠ مليون في الوقت الحاضر ، ومعظم  
هذه الزيادة هو ما يحب على الهند أن تدفعه من النقود إلى إنكلترة في مقابل إدارتها ،  
ويمكن عدّ هذا المبلغ ضرباً من الجزية الخطيرة على كيان الهند الاقتصادي .

والقطان والأفيون ( ٣٧٥ مليوناً ) والأرز والبُرُّ أهمُّ صادرات الهند ، والنسائج  
القطنية أهم ما تستورده الهند .

والهند تستورد النسائج القطنية ( ٦٥٠ مليوناً ) من إنكلترة مادامت مصانع  
الهند الابتدائية لا تقدّر على مزاحمة المصانع الإنكليزية ، وأخذت مصانع الهند  
تصنع ، مع ذلك ، مقادير كبيرة من النسج القطنية فبيعه من الصين وشواطئ  
إفريقية الشرقية وجزيرة العرب .

والصين وإنكلترا أهم البلدان استيراداً من الهند ، ومرفأ هونغ كونغ أهم مكان لهذا الاستيراد .



١٨٤ - سوار من فضة ( البنغال )

وتُنقَل صادرات الهند بحراً في ١٢٠٠٠ سفينة أو ١٣٠٠٠ سفينة تقصد موانئ الهند ، ويرفع ٨٣ في المئة من هذه السفن المترددة إلى مرفأ الهند أعلاماً إنكليزية . وإذا كان رخاء الأمة بحسب سرعة مواليدها ، وهذا ما أجادل فيه ، كانت الهند أرغد عيشاً من أي بلد في العالم إما

انفق لها ما لم يتفق لغيرها من زيادة المواليد ، فالهند التي قُدِّر سكانها بمئة مليون في سنة ١٨٠٠ صارت تشتمل على مئتي مليون من الأهالي في سنة ١٨٧١ ، ومما حدث أن بلغت الزيادة في عشر سنين ، أي بين السنتين ١٨٧١ و ١٨٨١ ، اثني عشر مليوناً مع ما انتاب الهند من المجاعات والأوبئة التي تهلك ملايين الناس فيها بأوقات معينة ، وفي هذه الزيادة ما يُسرِّمُه بعض الاقتصاديين لو لم يزعم اقتصاديون آخرون أن الأمم الفقيرة وحدها هي التي تتكاثر كاللارانب إذا عدّدت البلدان التي تحتوى على أرض واسعة غير عامرة كأمريكا .

ويقطن أولئك الأهالي ، البائسون القانون على العموم بما قُسم لهم ، في الأرياف على الخصوص ، وليس في كل قرية من نصف قرى الهند أكثر من مئتي نفس ، ومن النادر أن ترى تجمعات كبيرة في الهند ، فلا تجد فيها أكثر من خمسين مدينة تحتوى الواحدة منها ما يزيد على خمسين ألف نفس .

وإذا عَدَوَتِ مَتَى المليون الذين يحكمهم الإنكليز رأيتَ في الهند ستين مليوناً من الأهالي يقيمون بممالك يرئسها ملوك مستقلون يراقبهم الإنكليز في صِلالهم السياسية ، وأراضى هذه الممالك أهم من سكانها لبلوغها حُمُسَى أراضى الهند ، ويُقدَّر دَخْل هذه للمالك بأربعمئة مليون ، وتشتمل جيوشها على ٣٥٠٠٠٠ جندي و ٤٠٠٠ مدْفَع ، وتتفاوت هذه الممالك اتساعاً ، فبينما ترى منها ممالك كمملكة نظام التي تُعَدِّل إيطالية مِسَاحَةً مع تسعة ملايين من السكان وثلاثين مليوناً من الدخل ، تُجِد منها ممالك كمملكة كاتيباوار الموقوفة من قرية واحدة يَمْلِكها أحد الراجوات ، وترى في بعض الولايات ، ككيرار ، أناساً يلقبون براجيه تلقبياً شَرَفِيّاً كما يُلقَّب بعض الناس في أوربة بدوك أو بيارون .

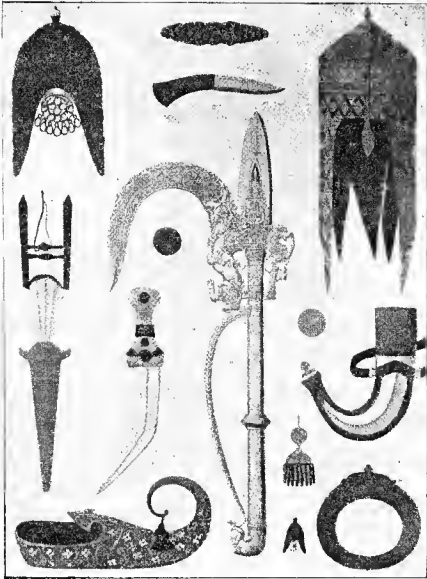
يَمْتَنِعُ ملوك تلك الممالك بسلطة مطلقة في تدير شؤون رعاياهم ، ولم تنقيد سلطة أولئك الملوك إلَّا بمعاهدتهم لإنسكاثرة على ألا يَشْهَر بعضهم حرباً على بعضٍ وألا يتبادلوا السفراء وألا يَقْبَلُوا أوروبياً في بلادهم من غير أن تأذن الحكومة البريطانية في ذلك ، ويقيم بعاصمة كلِّ مملكة مهمة من تلك الممالك سفير إنكليزي لا تَعْدُو وظائفه دائرة الشؤون الدبلوماسية ولا يتدخَّل في الأمور الإدارية إلَّا في أحوال شاذة ، وبعضُ تلك الممالك يُعطى إنكلترة جزية وبعضها لا يُعطى شيئاً ، وإذا عَدَوَتِ بضعُ ممالك منها وَجَدَتْها حديثة وتقوم بأمورها أسر مالكة بدأ سلطانها بعد سقوط دولة المغول .

## ٢ - التربية الإنكليزية في الهند

إن من أكثر المواضيع ، التي توحى بها الهند الحاضرة إلى الباحث ، طرافةً وأقلها وقفاً للنظر حتى الآن هو ما يؤدّى إليه تطبيق تربية ملائمة لشعب راقٍ على شعب متأخر كالهندوس ، وليس في التاريخ ، على ما أعتقد ، تجربةٌ تمت على مقياس واسع في ذلك كالتي تتم في أيامنا ، ومما يفيد الأمم الراغبة في إنشاء مستعمرات وفي المحافظة على ما في يدها ، على الخصوص ، أن تطالع على نتائج هذه التجربة .

تعدّ الهند الحاضرة عنوان ما كانت عليه الحال في القرون الوسطى ، فتطبيق أصول التربية الحديثة عليها هو كتطبيق هذه الأصول على أمم القرون الوسطى أن لو كانت موجودة في الوقت الحاضر ، أى كوصل ما بين هذين العالمين اللذين تفصل بينهما هوى عميقة إما بينهما من اختلاف في المشاعر والأفكار والاحتياجات والمعتقدات ، والحق أن هنالك وجه شبه بين علم الاجتماع والتاريخ الطبيعي في أن الروح ، كالجسم ، لا تستطيع أن ترتقى من طور ابتدائي إلى طور راقٍ من غير أن تتجاوز ما بين هذين الطورين من الأطوار الوسطى ، والحق أن شأن التربية كشأن النظم ، فإلام منها احتياجات أمة لا يلائم احتياجات أمة أخرى .

أثر صُراخ مبشرى البروتستان ومحيي الإنسانية في الإنكليز المحتاجين إلى موظفين من الدرجة الثانية فما دونها لإدارة الشؤون العامة في الهند ، فعقد الإنكليز النية على فتح مدارس لإعداد مثل هؤلاء الموظفين ، ومن الطبيعي أن كان التعليم الذى يناله هؤلاء ملائماً لما في برامج المدارس الابتدائية بأوربة وأن كان الإنكليز يقومون به .



١٨٥ - أسلحة وأدوات هندوسية مختلفة ، حل ، خوذة مغولية ، كلاب حديدى مكنت ، يستعمل لسوق القبيلة ، حذاء مزين باللاآل' لأمبر مسلم هندى

والهندوس هم الذين يَقَلِّقُونَ ذلك التعليم بمقدار كبير منذ ثلاثين سنة ، فأسفر ذلك عن ظهور طبقة خاصة شاملة لمئات الألوف من المُثَقِّفِينَ في الوقت الحاضر .

والمُثَقَّفُ الهندوسى الذى هو من تلك الطبقة طابع عقلى خلقى خاص ، ويمكن درس أمره كمرقى ذى وصف معين ، ولا شىء كهذا الدرس يثبت خطر التريبة الحديثة عندما يُنْعَمَ بها على أدمغة غير مستعدة لتلقيها ، وهذه التريبة هى التى تُعَدُّ فى الوقت الحاضر تربيةً عاملاً .

ولا نرى ما هو أفضل من وصف المُثَقَّفِ الهندوسى بالذى فَقَدَ انْتِزاعاً عقلاً وخلُقاً ، فما خُسِرَ فى دماغه من الكلمات يُبْذِرُ عنده من الأفكار الغربية ما يَعْجِزُ عن إدراكه ، وإذا ما نُظِرَ إلى التعريف الذى لا قيمة له لدى العاجز عن إدراك ما يشره من الأفكار أو ما يمثّلها عُذَّ ذلك المُثَقَّفُ المسكين بالنسبة إلى العالم الجديد الذى نقلته تربيته المصنوعة إليه كالأعمى الذى يُحْمَلُ على معرفة الألوان بوصفه له بالفاظ ، ولا شىء يَعْدِلُ عدم ارتباط أفكاره غير هَوَسه المستمصى فى الكلام بلا هدوء وبلا تعقل ، فإذا وُجِدَ فى إحدى المحطات وأَقْبَى أوروبياً سألَه بوقار ، ومن غير أن ينتظر جواباً ، عن ترجمته شكسبير على بونس التيرانى وعن اصطیاد ملكة إنكلترة للنمر وعن الروبيات التى يكسبها العالم الأوروبى فى كل سنة وعن المهنة التى يرغب فى تدريب أولاده عليها .

ولا أمرٌ يُبْذِرُ الدَّهْشَ أكثرُ من عدم ارتباط أفكار المُثَقَّفِ الهندوسى ، فليس وشنو وشيوا وجوبيتر والتوراة وولّى عهد إنكلترة وأبطال الإغريق والرومان والجمهوريات القديمة والممالك الحديثة إلا أشياء ترقص فى رأسه رقص السارابندى سواء الجحيم ، وهو يعتقد أن ملكة إنكلترة ووزيرها الأول وولّى عهدها ثالث



مشابه لثالث برهما ووشنو وشيوا ، وهو يُفسَّر ما علمه من المبادئ الحديثة على حسب مبادئ عرقه الموروثة التي لا ينتهى إلا إليها ، والتي لا يستخفُّ إلا بها ، مع ذلك ، وفَّقَ المُوَيَّ التي أغرقته فيها تربيته الإنكليزية ، قال العالم الإنكليزي المعتدل الأستاذ مونييه وليامز :

« لم يَرُقْنى ما أسفرت عنه تربيتنا التي نُطَبِّقُها على الهندوس من النتائج ، فقد وجدتُ بين هؤلاء متعلمين قليلين جداً ، ووجدت بينهم كثيرين من شباه المتعلمين ، ووجدت معظمهم ناقصى التعليم فاقدى الاتزان ، أَجَلْ ، قد يَقْدِرُ مثقفو الهندوس على القراءة الكثيرة ، ولكنه لا حاصلَ لِمَا يُفَكِّرُونَ فيه .

« هم ثَرَنَارُونَ ، وَيُحْتَلِ إلى الناظر أنهم يَقْدِرُونَ من أفواههم كلاماً لم يَهْضُمُوا معانيه ، ويدلُّ كلامهم وحركاتهم على أنهم من القاصرين ، وَيُهِمُّونَ لغتهم ويزدرون آدابهم وفلسفتهم ودينهم من غير أن يكتسبوا شيئاً من صفات الأوربيين ، وَيُصَوِّبونَ إلينا ما يقتبسونه منا غير شاكرين ، وهكذا ينتقمون منا لِمَا أصابهم من الانحطاط بسبب تربيتنا » .

وليس ما أصابت به التربية الأوربية الهندوسى المتثقف من انحطاط أُخْلِقَ بأقل مما أصابته به من انحطاط الذكاء ، وإننى قبل أن أبحث فى هذه الناحية أذكر ما قاله عن أحوال الهندوسى المتثقف السيد ملبارى الذى ظهر فوق مستوى بنى قومه الهندوس فكان كتابه الصغير النفيس عن كجرات نافعاً لى فى غير موضع ، فإليك قول السيد ملبارى عن نفسه وعن صديقه الذى اشترك معه فى إصدار جريدة ، وإصدار الجرائد مما يَصُوبُ إليه مُتَقَفُّو الهندوس ، وفيما تتمتع به الصحافة من الحرية ما يشبع هومهم :

« لم يَقِفْ جهلنا وصَلَفنا عند حدٍّ ولكن ، ألم يكن من المفاخر أن يُنْقَدَ أكرم رجال الإمبراطورية وأن يُسَخَّرَ منهم ؟ كتب صديقي (ب) كلمة عن معركة بلاونة ذات يوم فسألني عن الباب العالي ، فأجبتُه بأن الباب العالي هو زوجة سلطان الترك المُفضَّلة ، فأنبأني صديقي (ب) بأنه كان يُظَنُّ أن الباب العالي هو خديو مصر عند الأوربيين ، فمثَّلُ هذا كان يَتَّفِقُ لنا في الغالب فنَحْمَلُ جريدَتنا أوزاراً مضاعفة ، فلما عَلِمْنَا في الغد وجهَ الخطأ لَعَنَ كُلُّ منا صاحبه . »

يُضَافُ إلى ذلك الارتباك الفكري الهائل لدى الهندي المثقف تجريدُ التريبة الأوربية إياه من أى خُلُقٍ ، فما كان يستند إليه في سَيْرِه من الأسس الدينية المتينة قد زال إلى غير رجعة ، فهو قد خَسِرَ إيمانَ آبائِه من غير أن يستبدل به مبادئ سَيْرِ الأوربي ، فأنحصر صدقه في مراعاة قواعد الأخلاق العامة التي يَحْمِلُه الشرطي عليها .

واضطُرَّ الإنكليز إلى اتخاذ أدقِّ ضروب الحذر ومالا حدَّ له من الرقابة ليحولوا دون اختلاس مُتَقَيِّ الهندوس ، ولا شئ أدعى للخوف من دوائر البريد والنقل في الهند ، فلا نصيبَ لكتاب يُظَنُّ أنه مشتمل على أوراق ذات قيمة لِيَقَلَّ وزنه بأن يَصِلَ إلى المرسل إليه ما لم تكن قيمته مضمونة ، وقد عانيت الشئ الكثير حين سياحتي في بلاد الهند من أجل صناديق المحتوية على أدوات العلمية ، فقد كان مُتَقَوِّ الهندوس الموظفون في الخطوط الحديدية يفلتونها مملوءة بالروبيات لِنَقْلِها فيكسرون أقفالها ، فاضطُررتُ إلى حفظ أدواتي تلك في ظروف معدنية مُحْكَمة اللَّحْمِ ووضع هذه الظروف ، المكتوب عليها أنها شاملة لمتفجرات ، في صناديق خشبية ، فأدى ذلك إلى زُهْد أولئك الموظفين عنها حَذَرَ الخطر .

وذلك الموظف الهندوسى المتقف النَّذل أمام سادته الإنكليز ذو عُنُو تِجاه  
بنى قومه من أصحاب المصالح ، وأولئك الموظفون هم المديرون الحقيقيون للهند ماداموا  
مُعَمَّلًا فى الإدارة الإنكليزية ، وما كانوا ليرْضَوْا بذلك ، فتراهم يَحْمِلُونَ بحكم  
الهند فى سبيل مآربهم الشخصية .

ذلك هو هدفهم الدائم ، وإذا خَلَّ ثلاثة أو أربعة بعضهم إلى بعض لم  
يبحثوا فى غيره ، ثم يحتدم الجدل بينهم فلا يتناوبون القول بل يتكلمون معاً ،  
وهم إذا ما سكنوا فلا ينهم يشعرون بخطأ أوربى ، وهذا الأوربى إذا ما دنا تفرقوا  
هنا وهناك مُتَنَهِّدِينَ ، وما أشدَّ اشمئزى حين مقابلتى بين نذالة الموظف الهندوسى  
المتقف تِجاه الأوربى وتَصْويرِ<sup>(١)</sup> خَسَدِه لأبناء أمته ، فالجهلُ أحبُّ إلى من تلك  
الدناءة والوقاحة .

والإنكليز يَعْرِفُونَ أولئك المتقفين جيداً ، فيعاملونهم بِجَفَاءٍ وَغِلْظَةٍ لا يُقَرِّمُ  
السائح الأجنبيّ عليهما أولَ وَهْلَةٍ ، واللغة التى يكلمهم الإنكليز بها هى لغة السَّباط  
التي يلجأون إليها حين لا ينفع الوعيد والتهديد ، والسائح إذا ما أقام بالهند بضعة أيام  
لم يلبث أن يعترف بأن تلك وسيلة لا بد منها لحل أولئك المنحطين على التزام جانب  
الحِشْمَةِ والابتعاد عن ضروب الوقاحة ، ومن النادر أن يسمح إنكليزىً هندوسىً  
من ذلك الطراز بأن يرَ كَب معه فى حُجْبَرَةٍ واحدة من حُجَبَرَات مركبات القطار مع  
أن هذا من أقصى آمال الهندوسى ، وقد اعترانى الدهش من هذه الشدة فى البداية ،  
فما حدث أن رَكِب هندوسىً من أولئك فى المركبة التى كنت فيها فأُرس إلى قبولى

(١) صرّخه : أماله عن النظر إلى الناس نهائياً وكبراً .

إياه بلطفٍ فعنَّ له أن يدُلِّي على مركزه الاجتماعي فأسند رجله إلى ظهر الصُّمَّة بما يحاذي مستوى رأسه ثم أشعل سيجاراً كبيراً وبَصَق على سقف المركبة وزجاجها ، ولم يكن ليَقْطَع ما يفعل إلا ليسألني بأسخف الأسئلة عن مقامى الاجتماعى ووسائل عيشى ونفقاتى وما إلى ذلك من الأمور التى جعلت البقاء فى حُجْبَرَتى أمراً لا يُطَاق ، فلما بلغنا أقرب محطة رَكِب إنكليزى فى حُجْبَرَتى تلك فصمت ذلك الهندوسى وتَسَكَّمَشَ عالمًا ما ينتظره ، فأمسكه الإنكليزى من أذنه وطرده من مركبتنا قائلاً له : اخرج !

وليس من الصعب إخضاع تلك الزمرة من متقى الهندوس المتورى الأعصاب الجُنْبَناء كالهَرَر ، والذين عدل الإنكليز عن استخدامهم كوقَّادين أو ميكانيكيين أو سائقين لِمَا رَأَوْه من ونوبهم من القاطرات عند الخطر وفِرَاحهم فى الحقول طلباً للنجاة ، والخطر إذا ما بدا فى خطِّ حديدى وُجِدَ موظفو المحطات المجاورة بعد زمن ، لا ريب ، متساقين للأشجار أو مختبئين فى الغاور أو متكديسين فى الفُرَف متحسرين قانطين .

ذلك هو أثر التربية الأوربية فى شعب غير ناضج ، ويمكن تقدير ذلك بأحسن مما تقدم عند المقابلة بين أولئك المثقفين ومن تَخَرَّج فى المدارس المحلية الخالصة ، فهؤلاء يظهرون مُتَزِنين مُهَذَّبين محترمين جديرين بأن يَتَّبَعُوا ومساعد فى أرقى مجالس أوربة العالمية على خلاف أولئك المثقفين الوَقَّح الأُنْدَال .

وترى الإدارة الإنكليزية مضطرة إلى استخدام أولئك المثقفين مع احتقارها لهم لِمَا يتعذر عليها من أن تجد أوربياً يرضى براتب مثل رواتبهم ، والإدارة

الإنكليزية إذا ما احتملتهم فلأنهم شرٌّ لا بُدَّ منه ، وهذا مع علمها التام درجة عداوتهم الكبيرة لها .

ولا أجد ما يَسْمَلُ النظر أكثر من تحويل التربة الأوربية الهندوس الموصوفين بالدعة فيما مضى إلى أعداء أشداء للبريطان ، ويمكن تَمَثُّل ما وَصَلَ إليه حقدهم على البريطان من الحملات التي تُوَجَّه إليها الجرائد المحلية إليهم كل يوم ، وإذ إن رأى الأجنبي في هذه المسألة يكون موطن شبهة بحكم الطبيعة ، وإذ إن الشواهد التي يمكنني الاستناد إليها تأييداً لدعواي هذه لا تكون مقبولة إلا بكثرتها فإنني استشهد ، مُرَجِّحاً ، بالأستاذ مونييه وليامز الذي يعدُّ أبناء وطنه الإنكليز أحكامه صائبة جداً في أمر الهند ، فاسمع ما قاله في الطبعة الثالثة من كتابه : « الهند الحديثة » :

« يؤسفني أن أقول إن رحلاتي في الهند أثبتت لي وجود هوة بين الإنكليز والهندوس تُصْبِحُ مجاوزتها بعد ثورة السباهي متعذرة شيئاً فشيئاً ، وأعمقُ من تلك الهوة الموجودة بين الشعبين في جنوب الهند . »

وقد لاحظ ذلك الأستاذ أن الهندوس المتقنين يُوجَّهون إلى الأوربيين تعبيراً مشابهاً لتعبير البرابرة ، وأن هذا التعبير لا يكفي للإعراب عن حقدهم الهائل على سادة الهند فقال :

« رأيت أن استخفاف أولئك بمحاضرتنا وبنا كاستخفاف أجدادهم بالوحوش الفطريين ، مع ما لدينا من أسلاك البرق والخطوط الحديدية ، فهم يعتقدون تفوقهم علينا خلقاً وديناً وعقلاً » .

واليوم أخذ ذوو البصائر من الإنكليز يدركون مخاطر التربة الأوربية ، فإليك

مقاله أحد حكام الهند سير الفرد ليل في كتابه : «مباحثُ في طبائع الشرق الأقصى الدينية والاجتماعية» :

« ظاهرةُ الوضع الحاضر في الهند هو أننا نَنشُرُ نظريات الحقوق السياسية وبذورَ النظم التمثيلية بين شعب كان يملكه سادة غيرُ مسؤولين في غضون القرون ، والهندُ ، كما تعلم ، بلدٌ لم يكن له عهد بالحرية المحلية وبعادات الاستقلال منذ زمن طويل أو بلدٌ لم يعرفها قط ، وفي الهند ، حيث لم يتقدم العلم في وقت إلى أبعد مما كان عليه في أوربة في القرون الوسطى ، تُطبَّقُ أصول التربية الحديثة .

« ومن البديهي أن يؤمن بالتربية فلاسفة السياسة ، كعلماء الاقتصاد في فرنسا وميل وسقيوارت ميل في إنكلترة ، وأن يقولوا إنها تقوم بدور المُسَكِّن المُلطَّف عند القَوَران الاجتماعي والانتقال الثوري ، أو إنها تمنع الشعب من التطاول إلى الوظائف السياسية التي لم يعود ممارستها ، ونحن نقول إن التربية العامة إذا وُضِعَتْ في غير محلها كانت سبب اضطراب في بعض الطبقات وعامل انحلال في النظام الاجتماعي القديم ، وذلك كما يَرى في الهند التي تقوم الحكومة فيها بنشر التعليم العام مستعينة بمعلمين من الأجانب الذين يوجِّهون همَّهم إلى بذر أحدث النظريات العلمية والسياسية بين شعب لم تُؤَهِّلْه عاداته وثقافته السابقة لتلقَّى هذه النظريات وإلى إدخال تربية عصرية خالصة إلى شعب قام كلُّ تعليم فيه على الدين منذ أقدم الأزمنة .

اتَّسع نطاق متقفي الهندوس أولئك ، على الخصوص ، في زمن نائب الملك الذي حَكَم الهند قبل حاكمها العام الحاضر ، فنائب الملك ذلك إذ كان مسيحياً مؤمناً قائلاً إن الناس يُولَدون إخوة متساوين حقوقاً وذكاء وإن من الممكن تحويل متقفي

الهندوس إلى أوربيين بين عَشِيَّة وضُحاها نال أولئك المثقفون حُظُوَّةً لديه ، فما كان أسوأَ عَدُوٍّ يَحِلُّس على عرش الهند لُيْسَىء إلى إنكَلترة بهذا المقدار ، فأولئك المثقفون الذين أصبح لهم بعض الحقوق النظرية بذلك أخذوا يملأون الصحف المحلية بأعنف الحَمَلات وأشدَّ الشَّكايات ، فالحقُّ أن روسية لو بلغت حدود الهند وفازت بشيء لو جَدت المثقف الهندوسى حاضراً لرفع راية العصيان فى سبيلها ، والحقُّ أن ذلك المثقف المُسْتَحَرَّ ضدَّ السلطة الإنكليزية هو كالأرَضَةِ الخَلْفِيَّةِ التى تَقْرُضُ أسفلَ التمثال الهائل .

أسهبتُ قليلاً فى بيان نتائج التربية الإنكليزية فى الهند ، وعلةُ ذلك أنك لا تجد فى التاريخ مثلاً أوضح من مثال الهند فى إثبات الخطر الذى يَنْجُمُ عن مُنَحْ أمة تربيةً غيرَ ملائمة لمزاجها النفسى ، فقد أدَّى تطبيق التربية الأوربية على الهندوسى إلى تقويض ثقافته السابقة التى تَمَّتْ له مع الزمن وإلى إحداث ما لم يَعرِفْه من الاحتياجات من غير أن تَعُنَّ عليه بوسائلِ قضاائه ، وإلى جعله بأنساً عدواً لمن طَبَّقوها عليه ، حقّاً أن الهندوسى للثقف يَأْلَمُ بمرارة من سوء حاله ، وحقّاً أن له فى الحوادث القادمة ما يَقدِّرْ به على الانتقام فعلاً لا قولاً ، فَيَتِمُّ على يده زوال السلطة التى رَبَّته .

### ٣ — مستقبلُ الهند

ليست مسألة مستقبل الهند هى مسألة مستقبل السلطة الإنكليزية فيها فقط ، بل نُبْهِرُ لهذه المسألة ، أيضاً ، أفقاً أبعد مدى من ذلك ، فعلى الأمر تتوقف نتائج الصِّراع بين الشرق والغرب اللذين يَفْصِلُ أحدهما عن الآخر هُوَّةٌ عميقة ، وإننى

قبل أن أتكلّم في هذه المسألة في مجموعها أقول بضع كلمات حول مستقبل سلطان الإنكليز الممكن في الهند .

يرى القارىء المطلع على أحوال الهند الحاضرة ، كما بيّناها في هذا الكتاب ، أن أمل الهندوسى<sup>(١)</sup> في حكم نفسه بنفسه ضعيف جداً وأنه قدّر عليه أن يكون قبضة الفاتحين من الأجانب .

يمتجّز الهندوس عن تأليف أمة واحدة عَجَزَ الأوربيين عن ذلك ، وتنسب شعوب الهند إلى عروق مختلفة ذات مصالح متباينة فلا يستطيع الهندوس أن يكونوا إلباً<sup>(٢)</sup> واحداً على الأجنبي المسيطر ، ولنفترض إمكان اتحاد شعوب الهند في الوقت المناسب لطرد عدوّها المشترك ، فإذا تمّ لها ذلك لم تلبث أن تتقاتل بعد انتصارها مثل ما وقع عند انهيار دولة المغول حين تجمّعت القوضى بلاد الهند ، فيهتبل غزاة من الأجانب فرصة ذلك ، فيفتحون الهند بتسليط بعض أهاليها على بعض كما فعل فاتحوها في كلّ زمن مضى ، ولذلك أرى أن كلّ ما يمكن الهند أن تطمع فيه هو أن تسنبدل بساتنها سادة آخرين ، فلملها تصبح أحسن حالاً ، وهذا ما أشكّ فيه .

وشبه سلطان الروس هو الذى يبدو في الوقت الحاضر على الأقل ، فلم تتوان روسيا في التقدم إلى الهند ، وقد لا يمضى زمن قصير حتى تكون على أبوابها ، فيعود إلى ممرّ كابُل ، الذى عبّره الفاتحون في كلّ حين ، سابق شأنه .

يجب أن يخطر ببالنا خطر بادية الهند الحاليين ، ولن يستطيعوا تداركه إلا بصالح الإدارة ،

---

(١) الإلب : القوم تجمعهم عداوة واحد فيقال : « هم على إلب واحد »



ومن حسن السياسة أن يستميلوا آئمة الهند بأن يدافعوا عن منافع الهند الدينية إما لهذه المنافع من الشأن الأول فيها وأن يناضلوا عن التقاليد والعادات القديمة لِوُجُوع الهندوس بِمَقَوِّمَات ماضيهم ، ومن حسن السياسة ألا يضعضوا الإيمان القديم وألا يَبْذُرُوا روح الجدَل والشكّ بنشرهم أصول التربية الغربية بدون تبصّر ، فلو كان للهندوس فوائدٌ حقيقية من هذه التربية لقلنا إن حبّ الإنسانية لدى الإنكليز تغلب على مصالحهم الخاصة ، ولكن الواقع غير ذلك ، فلم تُؤدّ التربية الغربية إلا إلى سُخْط الهندوسى على سوء حفظه وارتباك في أخلاقه وما إلى هذا مما يجعله نصيراً لكلّ فاتح مهما كان أمره .

ولم يَبْدَ من ذلك الشرُّ غيرُ أوّله ، ولم يُصَبْ به سوى بضعة آلاف ، وأما الملايين من إخوان هؤلاء فلا يزالون واهمين في أنه لم يَبْدَلْ من الأمور سوى اسم الساطة العليا ، والسلطة العليا هي التي عَانَوْا حكمها في غضون القرون فأيقنوا أنها أمر لا رادّ له فَتَدَوَّا غير مكترئين له .

وما هو الداء الشديد المفقود الذى تبحث عنه عروق الهندسنة حينما تَبْلُغ الأزمة التى تتدرج إليها دُرُورَة حِدَّتْهَا فتصبح أسراً لا يطاق ؟ أفسر عن بعث إسلامي كما يَتَنَبَّأُ به بعضهم ، والإسلام يسير قدماً في الهند ؟ أم إن دولة أوربية أخرى تغتنم فرصة ما يُقْتَرَف من الأغاليط ، فتبدو ، كما يدلّ عليه كلُّ شيء ، المتقدّم الذى تنتظره النفوس المضطّرمّة الضالّة التى لا دليل لها ؟ لا يستطيع أحد أن يُنبئ ، لا ريب ، بما قد يحدث في القريب العاجل ، وإنما الذى لا شكّ فيه هو أن معنى الاستقلال الحقيقى سيفلّح خافياً على الهند عدّة قرون أخرى ، فالهند إذ تَمَوَّدت الخضوع

لسادة من الأجانب منذ زمن طويل كُتِبَ عليها أن تسكابد نير الأوربيين مرةً أخرى إلى أن تصبح آلة بيد عرق آسيوى مرهوب ، فحينئذ يصبح هؤلاء المغلوبون منذ القديم غالبين لنا ، على ما يحتمل ، مستعينين بإخوانهم من أبناء الشرق الذين يقومون مقامنا في قيادة البشر تبعاً للسنة الحديدية القائلة بسلطان الأقوى قهيم على مقادير الأمم .

ومقام كذلك ستناله أم الشرق بغير قوة المدافع مع ذلك ، فلا بد من تغيير نوع الأسلحة بسبب تطور الصناعة الحديثة ، فلا تلبث ميادين القتال أن تنقلب إلى أسواق للسلع ، فهذه الأسواق ، وإن كانت في الظاهر أقلّ سفكاً للدماء من ميادين القتال ، أشدّ منها هولاً ، وبيان الأمر أن البشرية التي اتخذت الكهرباء والبخار دليلين لها استدخل دوراً حديدياً يكون الصراع فيه من أجل الحياة قاسياً جداً فلا يتوطد للرحمة مجالاً ، وقد يما قال العرب : « لا يَنْبُتُ الشُّبُّ على أرض بَطَّأَهَا التُّرْكُ » ، والشُّبُّ قد يَنْبُتُ في الأماكن التي ستشهد ذلك الصراع ولكنه سيكون من النادر أن تكون تلك الأماكن هي التي سَيَرَعَى الغالبون مواشيهم فيها .

هنا نصل إلى تسميم المسألة التي أشرنا إليها آنفاً فندلّ على أن مسألة مستقبل الهند أبعد مدى مما تصوّره أول وهلة ، فعلى هذه المسألة يتوقف مستقبل أوربة في الحقيقة ، فلندرس هذه المسألة الهائلة .

فلّت الهند ، منذ أكثر من ألفى سنة ، موضع طمع كبير لجميع الأمم التي علّمت أخبار مجائبها ، وانتقلت الهند من سيد إلى سيد على الرغم من الحواجز التي تحميها ، ولم يحلّ ما مُنيت به الهند من ضروب اللغازي والفتوح دون بقائها على ما

هى عليه فى كل حين ، وتشابه الهند أرض القراعة الحافظة بالأسرار فى ازدرادها لقاهرها .

بيد أن الهند لم تُعرَف لها سادة من غير الشرقيين إلى أواخر القرن الماضى ، فلما فزحها الأوروبيون وَجَدَتْ نَفْسَهَا ، لأول مرة ، أمام شعوب تختلف عن شعوبها أشدَّ الاختلاف ، فيَتَعَذَّرُ عليها أن تبتلها ، ولم يُعرَف التاريخ منذ أقدم الأزمان تواجه عنصرين ذلك مدى اختلافهما فى أرض واحدة مع كثافة جموع .



١٨٦ - قطعة من تصور هندوسى فى القرن الخامس على جدار بأجننا ، وتمثل هذه الصورة محاولة الغفارت أن بنوا بدعة ( يمكن التماس أن يمثل حال التصوير الهندوسى منذ ١٣٠٠ سنة من هذه الصورة مع ما أصاب تصاوير الجدر بأجننا من التلف )

إنسكلترة هى عنوان العالم الغربى بحضارته المُعَقَّدَة ونقدمه على نسبة هندسية وسَيرِهِ سريعاً إلى مستقبل مجهول متذرعاً بما لديه من القوى الجديدة ، والهند هى عنوان العالم الشرقى الثابت الخيال والناظر إلى الماضى ، لا إلى المستقبل ، مستوحياً أفكار الأجداد والآلهة بلا انقطاع .

ويتوقف مصير الهند على نتيجة الصِّراع الراهن بين الشرق والغرب ، ولا يزال القتال فى مرحلته الأولى مع تواجه

ذئبك المسلمين غير مرة فى الميدان ، وليس دَخَرُ العرب من فرنسة ومن إسبانية ومهاجمة العرب فى عُمْر دارهم أيام الحروب الصليبية الهائلة وتدوُّجُ إنسكلترة للهند وسدُّ الصين المنيع الذى صَدَّعَتْهُ المدافع إلا أنباء حرب بدأت منذ قرون ، غير أن هذه الأنباء لم تسكن ، بالحقيقة ، سوى أخبار مناوشات بسيطة إذا ما قيسَت بالصِّراع

للرهوب الذى تسفر عنه طرُق المعاش الحديثة الناشئة عن مبتكرات العلوم فى الوقت الحاضر بحكم الضرورة .

أدت سرعة وسائل النقل التى نَجَّت عن البخار والكهرباء إلى تقريب المسافات فأوجبت اتصال بعض أمم الأرض ببعض اتصالاً وثيقاً ، فعاد النهران اللذان اقتسما مجرى الروح البشرية ( أى النهر الشرقى الكبير الهادى العميق الجليل البطىء والسيلى الغربى الصائل السريع ) لا يَجْريان فى أودية مختلفة ، أَجَل ، إن التوازن بين المَجْرَيْن ، اللذين اختلطت مياههما ، سيقع ذات يوم فى ذينك العالمين ، ولكنك إذا بحثت فى كيفية حدوث هذه التسوية المحتملة لم تَنْسَب أن تعترف بأنهما لن تكون على ما فيه خير الغرب .

وإذا جاز لنا أن نذكر النتائج من العلامات الراهنة التى تزيد كل يوم قلنا إن النتيجة الأولى لاقتراب ذينك العالمتين بفعل البخار والكهرباء هى تَسَاوى قِيَم السلع الصناعية والزراعية ، ومن ثَمَّ تَسَاوى أجور العمال فى الدنيا قاطبةً ، ومن الطبيعى أن يُحدَّد مُعدَّل هذه الأجور بحسب ما يناله عمال الأمم الأقل احتياجاً والأرخص إنتاجاً ، والشرقيون الذين يتألف منهم مُعظَم البشر إذ إنهم أكثر الناس زهداً وقناعةً يكونون بحكم الضرورة الناطمين للأجور فى مزاحمة كتلك ، ومن ثَمَّ يكونون أكثر القريقتين استفادة من ذلك الاقتراب ، نَعَمْ ، قد ترتفع أجورهم عن المستوى الأدنى بنسبة نفقات النقل الضئيلة ، ولكن ما يطرأ على أجور عمال الأوربيين من المهبوط سيكون عظيماً جداً لا محالة .

ولا يحتاج الباحث إلى نظر ثاقب لَيَتَبَيَّن فى الأفق علامُ الصِّراع بين عالمين ، لا أمتين ، فيؤدى هذا الصِّراع إلى أشدَّ النتائج هَوَلاً ، فها هو ذا قبحُ المهند يباع

فى أوربة بأرخص من حيوبنا فيورث زراع فرسة بؤساً وقنوطاً<sup>(١)</sup>، وقد أخذ زُرَّاع أوربة يُفَكِّرون فى ترك الصُّراع مع ما يحدونه من نُظُم الحماية العاجزة، وما أكثرَ الحقول التى لم يُجِدْ لها مزارعين يقومون بزراعتها فى مقابل تأديتهم الضرائب المفروضة عليها، وماذا يحدث حينئذٍ تنوارى صِناعة الغرب أمام أُم تستعين فى صِناعتها بما لدينا من الآلات فتفتتج سلماً أرخص مما تنتجه عشرين مرة؟ سيرى المُعَدَّن، الذى تَعَوَّد إغناق خمسة فرنكات أو ستة فرنكات مُبَاوَمَةً فِيمُحَدِّد البنيان الاجتماعى بالهدم لأن أجرته اليومية لا تزيد على ثلاثة فرنكات أو أربعة فرنكات، استيراد أرباب الصِّناعة من الصين القمح الحجرى الذى يستخرجه عمال يَمْدُون أنفسهم من السُّعْدَاء إذا ما نال الواحد منهم أجرة يومية تَتَرَجَّح بين خمسة دوانق وستة دوانق، وقد باتَ زمن على العامل، الذى يُضْرَب من أجل رفع أجرته، لا يُجِدْ فيه مصنفاً يعمل فيه لِمَا تحتاج إليه مصانع الشرق الأقصى المُجَهَّزة بمثل آلاتنا من ذلك القمح الحجرى التى يقوم بشؤونها عمال يَقِلُّ أجرة الواحد منهم عن أجرة العامل الأوروبى عشرين مرة فَتَقَعُمُ العالم بما تنتجه غَمراً لا يَقِفُ أمامه أى حاجز، فمن أجل هذا ومن أجل زوال المسافات ستساوى قِيمُ الموادِّ الأولية والموادِّ المصنوعة فى جميع الأسواق كما أن أجور العمال ستساوى بحكم الضرورة، فالحقُّ أن المزاخمة تَعْزُرُ بين فريقين من البشر بقضى أحدهما كالشرقيين احتياجاَتِه بأجرة تَتَرَجَّح بين أربعة دوانق وخمسة دوانق وبقضى الآخر، كالغربيين، احتياجاَتِه بأجرة تزيد على تلك

(١) تنقدم زراعة القمح فى الهند تقدماً عجيباً بفضل ما أنشئ فيها من الخطوط الحديدية الكثيرة فلا تتمثله بغير الأرقام، فبعد أن كانت الهند تنتج منذ عشرين مئة سنين مئة ألف ونصف مئة ألف من القمح سارت تنتج اثني عشر مليوناً فى الوقت الحاضر، وأجرة الزارع فى الهند إذ كانت منخفضة فلا تزيد على أربعة دوانق فى كل يوم فإن تَطَارَ القمح يصل إلى لندن فباع فيها بسبعة عشر فرنكاً.

عشرين مرة ، فلا يكون المَخْرَج من هذا المآزق ، إذ ذاك ، إلا بتزليل أجور الفريق الثانى إلى مُعدّل أجور الفريق الأول .

ولا ريب فى أن تلك التسوية العامة التى سنرى فَبْجَرها عمّا قليل ( وهى التسوية التى سهّل أمرها ، على الخصوص ، بما ذكرته غير مرة مؤكّداً فى كُتُبى ، وهو أن القيمة العقلية المتوسطة لدى أمم الشرق ليست دون ما يقابلها من طبقات أهل الغرب ) لا تتمتع أوروپة من أن يكون لديها ما ليس فى الشرق من صَفْوَة رجال ، ولكن ماذا تصنع هذه الصَّفْوَة الكثيرة الذكاء والقليلة العدد تجاه تلك الجموع الزاخرة التى يتوقف عليها المصير ؟ وهل أُنْقِذَت صَفْوَة المفكرين والمُتَبَنِّين والعلماء من الإغريق بلاد اليونان من الفتح الرومانى ؟

ولا يَتِمّ النصر لأوروپة فى ذلك الصِّراع الذى يتوقف عليه مصيرها بسبب حالتها الأدبية ، ومشاعُر مجتمعات الغرب المُحَرَّم ، كما كانت عليه رومة فى دور انحطاطها ، تدور حول الظهور والتمتع بأطايب النِّعم ، ونرى ثقافتنا العقلية نفسها تؤدى إلى ابتعادنا عن العمل المنسجم وإلى انتخابنا وتقلُّبنا وعدم ثباتنا وإلى تشكُّكنا العام وإلى اندثار عوامل السير والعزم فينا ، وفى صفات غير هذه تجد سيرّ قيام الدول العظيمة وسرّ بقاء هذه الدُّول ، والغربُ يَفْقِدُ بالتدريج ما لا يزال متيناً لدى الشرقيين من حُبِّ الأسرة واحترام الأجداد ومتانة المعتقدات ، وهذه المشاعر هى أساس الثَّام الأُم مهمما كانت قيمتها الفلسفية ، وهى عواملُ القوة التى استعان بها أولو النفوس العالية فى قيادة العروق إلى النصر ، فإذا ما توارت هذه المشاعر لم تلبث المجتمعات المستندة إليها أن تَنَقِّصَ عُرُها فتتقلب إلى زُمُر مختلفة المصالح عاطلة من المشاعر المشتركة ، واليوم تبصّر الأديانُ المُسِنَّة المحافظة على سلطانها فى الشرق ، مع وصفنا إياها بالأوهام ،

والتي شيدت باسمها أكبر الدول فتمَّ حكمها بها ، تَخَسَّر نفوذها في الغرب مقداراً  
فقداراً، ولم يكتشف العلم بُعد ما يقوم مقام الآلهة الميتة ، واليوم نعيش بفضل ماضٍ  
لا نؤمن به مُوجَّهين وجوهنا إلى مستقبل لا يزال خافياً علينا .

وماذا يكون المثل الأعلى الجديد الذي يَصْلُح أساساً لمجتمعات الغرب القادمة ؟  
لا يَقْدِر أحد على بيان أمره في الوقت الحاضر ، ولا تَجِد مُعْضَلَةً أَشَدَّ خطراً وأبعدَ  
غَوَراً من تلك التي تشَعَل بالملء كرين ، ولا غَرْو ، فعلينا يتوقف كياننا في المستقبل ،  
ولن نُعَدَّ شعوب الشرق التي أُمُتْنَا في ازدهائها من البرابرة بعد اليوم ، ولا يزال منبع  
النشاط والقُوَّة الذي استنفده الغرب في القيام بحملات المشاريع وفي حقل الفكر  
والعمل راقداً في أمم الشرق الكبرى ، ولن تطول غَفَوَة هذه الأمم الشرقية ، فقد  
دنا وقت يقظتها ، وحان الوقت الذي تُسْفِر فيه مغازينا وفتوحنا واكتشافاتنا وأفكارنا  
عن إخراج الشرقيين من طور القرون الوسطى الطويل الذي هم عليه ، وحينئذٍ  
ينتصبون أمامنا ( كما انتصب البرابرة أمام الرومان ، والغربُ أمام العالم الإغريقي  
اللاتيني المَهرِم ) بمثل ما خسرناه من الحماسة والنشاط والآمال والخيالات ، هنالك  
تَمَلِّك العالم ، كما تَمَلَّكته في الماضي ، أممٌ ذات مُثُل عالية قوية واحتياجات ضعيفة ،  
أقول ذلك وأنا أرى أن على أبنائنا أن يقوموا بعمل جِدِّي إذا أرادوا البقاء قادة للعالم  
زمناً آخر وعدم الوقوع بسرعة في الهوَّة الأريسية التي يَجْرُ تطور الأمور الناسِ  
والدول إليها .





## فهرس الصور

### والخرائط

نقسم صور هذا الكتاب إلى خمسة أنواع وهى : ١ : المناظر ، ٢ : أمثلة العروق ، ٣ : فن البناء ، ٤ : الفنون الجميلة ( الرسم والحفر ) ، ٥ : الفنون الصناعية .  
وأكمل هذه الأنواع هو ما اشتمل على صور التماثيل والمباني ، وهو يكفى لتأمل فن العمارة والحفر في الهند منذ البداءة إلى الوقت الحاضر .  
ولا نجد في أى كتاب سابق صوراً لأكثر التماثيل والمباني التى عرضنا رسومها في هذا السفر ، وقد التقطناها من نحو ٦٠ بقعة ونشرناها على حسب الترتيب المدون في الفصل « فن البناء » ، وترى هذا الترتيب في الجدول الخاص بالمباني .

| الصفحة | المناظر   | الصفحة  |
|--------|---|---|
| ١١٣    | ٢٧ قرية دنكور في جبال همالية الغربية                  | أمثلة العروق  |
| ١١٩    | ٢٩ منظر في وادى السند ( مملكة كشمير )                 | زعم ناغى ( من جبل آسام )  |
| ١٢٢    | ٣١ منظر في جبل آبو ( راجبوتانا )                      | جماعة من الكول ( همالية ) ( وادى بيباس الأعلى )                 |
| ١٢٣    | ٤٠ ضفاف الفنج بينارس                                  | ١٢٢ تيمورلنك ( كما جاء في مخطوط هندی قديم )                     |
| ١٢٥    | ٤٨ مضيق صخور الرخام على ضفاف نر بدا بالقرب من جبل بور | ١٢٣ الملك المغولى أكبر ( كما جاء في مخطوط هندی قديم )           |
| ١٣٨    | ٦٠ منظر في بتن ( نيبال )                              | ١٢٥ الملك المغولى شاهجهان يستقبل ( كما جاء في مخطوط هندی قديم ) |
| ١٤٢    | ٦٨ نهرجهيلم بقطعه قارب مهاراجة كشمير                  | ١٣٨ مسلم من دهلى يصنع وشاحاً                                    |
| ١٤٣    | ٨٢ فيلان يستخدمان في حمل الأثقال                      | ١٤٢ جنود من الراجبوت  |
|        | ٨٧ منظر في ناسك على ضفاف البحيرة المقدسة              | ١٤٣ بندت هندوسى من أودى بور                                     |

| الصفحة   | الصفحة   |
|--|--|
| ٢٢١  | ١٤٤ أناس من الميثاء (قبيلة شبه متوحشة في راجبوتانا)  |
| المتحمل أن يكون قد أنشئ بين القرن الثالث قبل الميلاد والقرن الأول بعد الميلاد) | ١٥١ حاجان هندوسيان في جوار مدراس   |
| ٢٢٥  | ١٥٨ تودى (نل غبرى)   |
| سانجى . منظر باب بعيد قليلا من   | ١٦١ كوناوى (نل غبرى)   |
| العبد للقيب  | ١٦٢ اثنان من الإبرولا (نل غبرى <sup>(١)</sup> )  |
| ٢٣١  | ١٦٥ أمثلة من أهل السكجرات  |
| سانجى . منظر الباب الكبير الشمالى  | ١٧٦ راقصة من جنوب الهند  |
| ٢٤٦  | ١٧٧ ثلاثة وحوش من جهوتاناغبور  |
| بدهه غيا . للعبد الكبير بعد ترميمة   | ١٨٥ امرأة هندوسية من جنوب الهند  |
| ٣ - آنا راغريقية هندوسية   | تهرس الأرز   |
| في شمال الهند القربى   | فن البناء  |
| ٢٥٧  | فن البناء البدهى   |
| مارتند . أطلال معبد أقيم في  | مباني الهند الأولى (معابد مصنوعة تحت الأرض)  |
| كشمير في القرن السادس من   |  |
| الميلاد  |  |
| ٢٦١  | ١٩٢ كارلى . مدخل معبد مصنوع تحت الأرض في القرن الثاني قبل الميلاد)   |
| يشاور . نقش إغريقى بدهى بالقرب من يتاور (القرن الخامس من الميلاد)              | ١٩٨ أجنثا . منظر عام لمدخل قديم من الأديار والمعابد التى نحتت تحت الأرض (بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن السابع بعد الميلاد) |
| ٢ - فن البناء البرهمنى الجديد  | ٢٠٧ أجنثا . محراب معبد منحوت تحت الأرض   |
| في شمال الهند ووسطها   | ٢ - آثار بدهية أقيمت فوق الأرض   |
| ١ - فن البناء في شمال الهند الشرقى   | ٢١٩ بھارت . نقوش بناء هندوسى أقيم في القرن الثاني قبل الميلاد  |
| ٢٦٧  |  |
| أودى غبرى (أوريسه) مقدم  |  |
| ديبرانى نور (القرن الثاني قبل الميلاد)   |  |
| ٢٦٨  |  |
| أودى غبرى . دقائى نقوش في الدير السابق   |  |
| ٢٧٠  |  |
| بهوونيشور (أوريسه) . نقوش  |  |
| معبد براشورا ميشوار (القرن السادس من الميلاد)                                  |  |

(١) ذكر " رعمط من الإبرولا " سهواً في الصفحة ١٦٢ مع أن الصحيح هو " اثنان من الإبرولا " فوجب التنبيه على ذلك .

| الصفحة | المصنعة  |
|--------|--|
| ٢٧٢    | يهوونيشور . المعبد الكبير (القرن السابع من الميلاد)                              |
| ٢٧٤    | يهوونيشور . معبد راجاراني (القرن العاشر من الميلاد)                              |
| ٢٧٨    | يهوونيشو . مشكاة منقورة في معبد بهكواني  |
| ٢٨٣    | جكن ناتيه . ( ساحل أوريسه ) . مدخل المعبد الكبير ( القرن الثاني عشر من الميلاد ) |
| ٢٨٨    | جكن ناتيه . داخل معبد غورشاباري ( القرن الثاني عشر من الميلاد )                  |
| ٢      | فن البناء في راجبونانا وبتديل كهند   |
| ٢٩٦    | كهجورا . معبد شيوا ( القرن العاشر من الميلاد )                                   |
| ٣٠١    | كهجورا . رسم معبد كهنداريا . ( القرن العاشر من الميلاد )                         |
| ٣٠٣    | كهجورا . باب المعبد السابق   |
| ٣٠٧    | كهجورا . دقائق نقوش المعبد السابق  |
| ٣١٤    | كهجورا . دقائق معبد لكشمجن جي ( القرن العاشر )                                   |
| ٣١٧    | كهجورا . معبد موزردهارا  |
| ٣١٩    | كهجورا . تمثيل في أساس محراب معبد الآلهة باراوتي ( القرن العاشر من الميلاد )     |
| ٣٢٣    | كهجورا . عمود في معبد شيوا القائم في معقل كالنجر                                 |
| ٣٢٧    | جبل آبو . معبد وعلاشاه   |
| ٣٢٩    | جبل آبو . قبة المحراب في معبد وعلاشاه  |
| ٣٣٠    | جبل آبو . معبد ورج بال تيج بال الجيني ( القرن الثاني عشر من الميلاد )            |
| ٣٣٢    | غواليار . معبد نيلي مندر ( القرن العاشر من الميلاد )                             |
| ٣٣٤    | غواليار . معبد ساس هو الكبير ( القرن الحادي عشر من الميلاد )                     |
| ٣٤٣    | غواليار . داخل معبد ساس هو الكبير  |
| ٣٤٥    | غواليار . معبد ساس هو الصغير ( القرن الحادي عشر من الميلاد )                     |
| ٣٤٦    | منظر قصر ماث مندر العام ( القرن الخامس عشر )                                     |
| ٣٤٨    | غواليار . مدخل قصر غواليار   |
| ٣٥١    | جسور . برج النصر ( القرن الخامس عشر )  |
| ٣٥٤    | ناغدها . بالقرب من أوديبور   |
|        | أطلال معابد قديمة في الآجام  |
| ٣٥٧    | ناغدها . معبد بانكا ( القرن العاشر من الميلاد )                                  |
| ٣٦٠    | أومكارجي . أعمدة معبد سدسوها ( القرن الثاني عشر )                                |
| ٣٦٥    | بندراين . معبد غوبندو ( القرن السادس عشر من الميلاد )                            |
| ٣٦٨    | بندراين . معبد مدن موهن ( القرن السابع عشر )                                     |

- الصفحة ٣٧٠ منرا . برج ساني بوري ( القرن  
السادس عشر )  
٣٧١ أوديبور . قصر مهارانا ( القرن  
السابع عشر )  
٣٧٦ أوديبور . المقبرة الملكية  
٣ - فن البناء في كجرات  
٣٧٨ أحمد آباد . مقدم المسجد الكبير  
( القرن الخامس عشر من الميلاد )  
٣٨١ أحمد آباد . مسجد الملصكة في  
ميزابور ( القرن الخامس عشر  
من الميلاد ) ( دقائق الزخرف )  
٣٨٢ أحمد آباد . مسجد الملكة في سارنغ بور  
( القرن الخامس عشر من الميلاد )  
٣٨٥ أحمد آباد . مسجد محافظ خان  
( القرن الخامس عشر من الميلاد )  
٣٨٦ أحمد آباد . المحراب الرخامي المنقوش  
في المسجد السابق  
٣٩١ أحمد آباد . مسجد راني سبيري  
( دقائق زخرفية ) ( القرن الخامس  
عشر من الميلاد )  
٣ - فن البناء في الهند الوسطى  
٣٩٨ إيلورا . قسم من مقدم معبد إندرا  
المصنوع تحت الأرض ( القرن  
السادس من الميلاد )  
٣٩٩ إيلورا . داخل المعبد السابق المصنوع  
تحت الأرض  
٤٠١ إيلورا . معبد كيلاسا المصنوع من  
حجر واحد ( القرن الثامن من الميلاد )
- الصفحة ٤٠٥ إيلورا . دقائق قسم من نقوش معبد  
كيلاسا  
٤٠٨ إيلورا . تماثيل في معبد دومارلينا  
المصنوع تحت الأرض ( القرن  
الثامن من الميلاد )  
٤١٢ إلفنتا . أعمدة المعبد الكبير المصنوع  
تحت الأرض ( القرن الثامن من  
اليلاد )  
٤١٩ إلفنتا . أعمدة في المعبد السابق  
٤٢٥ أمبرناته . نقوش طرف جانبي من  
للمعبد ( القرن التاسع )  
٤ - فن البناء في جنوب الهند  
١ - معابد في جنوب الهند  
مصنوعة تحت الأرض  
٤٣٧ بادامى . أعمدة وتماثيل في معبد  
مصنوع تحت الأرض ( القرن  
السادس من الميلاد )  
٤٣٢ مهابلي بور . معبد مصنوع من  
جلعود ( القرن السادس من الميلاد )  
٤٣٣ مهابلي بور . نقوش بارزة على  
صخرة تمثل مقاتلة دورغا للنول  
مهاسورا ( القرن الثامن من الميلاد )  
٢ - فن عمارة المعابد في جنوب الهند  
٤٤٣ تانجور . منظر الزون الهرمى ومداخله  
( القرن الحادى عشر من الميلاد )  
٤٤٥ تانجور . دقائق نقوش في الزون  
السابق

| الصفحة   | الصفحة  |
|--|---|
| ٤٩٠ مدورا . دقائق عمود في ردهة الزون<br>الكبير المعروف بـ بوتوموتابام                | ٤٥٠ تانجور . دقائق نقوش في معبد<br>سرامانية ( ضمن نطاق الزون )<br>( القرن الخامس عشر من الميلاد ) |
| ٤٩٧ مدورا . داخل قصر تيرومل نايك<br>( القرن السابع عشر من الميلاد )                  | ٤٥٢ شاليرم . مدخل معبد ذي عمد<br>( القرن الخامس عشر من الميلاد )                                  |
| ٥٠٠ ترى جنابلى . منظر المدينة وقلعتها  | ٤٥٨ تريتي . أعمدة في مدخل الجبل<br>القدس  |
| ٥٠٢ شرى رنغم . دقائق نقوش معبد في<br>الزون الكبير ( القرن السابع عشر<br>من الميلاد ) | ٤٦٠ تريتي . حوض مقدس في سفح<br>الجبل  |
| ٥٠٦ شرى رنغم . ( الزون الكبير )<br>أعمدة في داخل المعبد                              | ٤٦٣ ويلور . دقائق عمود في الزون<br>الكبير ( القرن الرابع عشر من الميلاد )                         |
| ٥٠٨ كنبه كونم . الحوض المقدس في<br>داخل الزون ( القرن السابع عشر<br>من الميلاد )     | ٤٦٤ كانجى ورم . معبد في زون ( القرن<br>الخامس عشر من الميلاد )                                    |
| ٥١٠ كنبه كونم . داخل معبد راما في<br>الزون الكبير ( القرن السابع عشر<br>من الميلاد ) | ٤٦٧ بيجانفر . داخل الباحة الثانية لزون<br>شيبوا الكبير ( القرن الخامس<br>عشر من الميلاد )         |
| ٥١٢ راميشورن . معبر الأعمدة في داخل<br>الزون ( القرن السابع عشر من<br>الميلاد )      | ٤٦٩ بيجانفر . مدخل معبد وتوبا ( القرن<br>السادس عشر من الميلاد )                                  |
| ٥١٤ هيلابيد . ( ميسور ) مدخل المعبد<br>الكبير ( القرن الثالث عشر من<br>الميلاد )     | ٤٧٥ تاد بترى . نقوش تستر حواجز معبد<br>( القرن السادس عشر من الميلاد )                            |
| ٥ — فن البناء الهندى الإسلامى  | ٤٧٨ مدورا ( الزون الكبير ) . باب معبد<br>الإلهة ميناكشى ( القرن السابع<br>عشر من الميلاد )        |
| ١ — فن البناء الإسلامى قبل<br>العصر المغولى  | ٤٨٥ مدورا . منظر معابد أخذ من حوض<br>السر الهوى   |
| ٥١٨ دهل القعدة . منظر عام لأطلال<br>مسجد قطب الدين ( القرن الثانى<br>عشر )           | ٤٨٦ مدورا . دقائق نقوش في معبد من<br>معابد الزون الكبير   |
|  | ٤٨٩ مدورا . دقائق أعمدة رواق في الزون<br>الكبير   |

| الصفحة  | الصفحة  |
|---|---|
| ٥٥٨ أغرا . دقائق محمود حجرى منفوش<br>في القصر السابق  | ٥٢٠ دهلى القديمة . قسم من برج قطب   |
| ٥٦٠ أغرا . منظر القلعة المغولية الخارجى<br>( القرن السادس عشر من الميلاد )                                | ٥٢٤ دهلى القديمة . أفواس مسجد قطب<br>ومحمود الملك دهاقا الصنوع من حديد        |
| ٥٦٢ أغرا . قبة القصر المغولى الرخامية<br>في داخل القلعة ( القرن السادس<br>عشر من الميلاد )                | ٥٢٦ دهلى القديمة . ضريح الملك ألتش<br>( أنشئ سنة ١٢٣٥ فى مسجد قطب )           |
| ٥٦٣ أغرا . داخل مسجد الأولو ( القرن<br>السابع عشر من الميلاد )  | ٢٥٩ دهلى القديمة . مدخل طاق علاء<br>الدين ( أنشئ سنة ١٣١٠ )                   |
| ٥٦٩ أغرا . مزار اعتاد الدولة ( القرن<br>السابع عشر من الميلاد )   | ٥٣١ أجمر . إحدى أفواس المسجد الكبير<br>( القرن الثالث عشر من الميلاد )        |
| ٥٧٢ أغرا . دقائق زخرف إحدى مناور<br>البناء السابق   | ٥٣٢ بيجابور . داخل المسجد الكبير<br>( القرن السادس عشر من الميلاد )           |
| ٥٧٤ أغرا . تاج محل ( القرن السابع<br>عشر من الميلاد )   | ٥٣٤ بيجابور . ضريح إبراهيم رضا<br>( القرن السادس عشر من الميلاد )             |
| ٥٨٠ أغرا . ضريح الملكة فى داخل<br>تاج محل   | ٥٣٨ بيجابور . مهترى محل ( القرن<br>السادس عشر من الميلاد )                    |
| ٥٨٢ سكندرا . دقائق زخرف مدخل<br>الحدائق القائم فى . مزار الملك<br>أكبر ( القرن السابع عشر من<br>الميلاد ) | ٥٤٠ بيجابور . مزار السلطان محمود<br>( القرن السابع عشر من الميلاد )           |
| ٥٨٤ سكندرا . مزار الملك أكبر  | ٥٤٣ غور . محراب مسجد أدبته ( القرن<br>الرابع عشر من الميلاد )                 |
| ٥٨٧ فتح بور . مدخل المسجد الكبير<br>( القرن السادس عشر من الميلاد )                                       | ٥٤٩ غولكوندا . دقائق زخرف فى مقدم<br>مزار ملكى                                |
| ٥٨٨ فتح بور . محراب المسجد السابق   | ٥٥١ غولكوندا . داخل ضريح ملكى   |
| ٥٩٠ فتح بور . منظر بنج محل ( القرن<br>السادس عشر من الميلاد )   | ٥٥٤ حيدر آباد . شهر منار والشارع<br>الكبير ( القرن السابع عشر من<br>الميلاد ) |
| ٥٩٤ فتح بور . خاص محل ( القرن<br>السادس عشر من الميلاد )  | ٢ — فن البناء فى العصر المغولى  |
|   | ٥٥٥ أغرا . مقدم القصر الأحمر ( القرن<br>السادس عشر من الميلاد )               |

- ٥٩٥ فتح پور . دقائق القسم الأعلى من عمود في قصر الملكة بيربل
- ٥٩٧ فتح پور . عمود مصنوع من الصوان المنقوش ، ويعرف بعرش الملك أكبر
- ٦٠١ دهلي . ( العصر المغولي ) مزار الملك همايون ( القرن السادس عشر من الميلاد )
- ٦٠٤ دهلي . ( العصر المغولي ) مدخل قصر ملوك المغول ( القرن السابع عشر من الميلاد )
- ٦٠٦ دهلي . ردهة الاستقبال في القصر السابق ( وهي من الرخام الأبيض للرصع بالحجارة الثمينة )
- ٦٠٩ دهلي ( العصر المغولي ) . صحن المسجد الكبير ( القرن السابع عشر من الميلاد )
- ٦١١ دهلي . ( العصر المغولي ) ، مزار صندرنك بالقرب من دهلي ( القرن الثامن عشر من الميلاد )
- ٦١٢ دهلي . ( العصر المغولي ) ، ضريح من الرخام الأبيض في داخل للزار السابق
- ٦١٤ لاهور . منظر مسجد أورنگ زيب ( القرن السابع عشر من الميلاد ) ومنظر مزار رنجيت سنغها ( القرن التاسع عشر من الميلاد )
- ٦١٥ لاهور . مزار رنجيت سنغها ومثذنة لمسجد أورنگ زيب
- ٦١٦ لاهور . مدخل رواق في قصر المرايا
- ٦ — فن البناء الهندي التبتى
- ٦١٧ بدهه ناتاه ( نيبال ) منظر للمعبد الكبير
- ٦١٨ بتن ( نيبال ) . باب قصر الملك مصنوع من البرونز
- ٦٢٠ بتن ( نيبال ) . المعبد الحجري الكبير القائم أمام قصر الملك
- ٦٢٥ بتن ( نيبال ) . عمود من الخشب المحفور في أحد البيوت
- ٦٢٧ بهات غاؤن ( نيبال ) . ميدان قصر الملك
- ٦٣٢ كهات مندو ( نيبال ) معبد من آجر وخشب منقور
- ٦٣٧ كهات مندو ( نيبال ) معبد من حجر
- ٦٤٠ بشيتي ( نيبال ) منظر المدينة العام
- ٧ — فن البناء الهندي الحديث
- ٦٤٢ بنارس معبد ويشوشر
- ٦٤٣ بنارس . معبد دورغا
- ٦٤٥ أمريت سر . معبد الذهب ببحيرة الخلود
- ٦٤٨ أحمد آباد . معبد هتي سنغها
- ٦٥٠ جهتر پور . مقدم قصر الراجة
- ٦٥١ كلكته . الزون
- الفنون الجيلة
- الحفر
- ٢٦٨ نقوش بارزة في أودى غيري ( ساحل أوريسه ) ( القرن الثاني قبل الميلاد على ما يحتمل )

| الصفحة   | الصفحة  |
|--|---|
| ٥١٠ نقوش في كنيسته كونه (القرن السابع عشر من الميلاد)                        | ٢٠٧ تماثيل معبد أجنثا المصنوع تحت الأرض (القرن السادس من الميلاد) |
| ٦١٨ نقوش في نيبال  | ٤٢٧ تماثيل في بادامى ( القرن السادس من الميلاد )                  |
| التصوير والرسم   | ٢٧٨ تماثيل معبد في هونديشور ( القرن التاسع من الميلاد )           |
| ٧٠٣ تصوير جدارى بأجنثا   | ٣٩٩ تماثيل في إيلورا (بين القرن السادس والقرن الثامن من الميلاد)  |
| ١٢٢ صور في مخطوطات هندية (بين القرن السادس عشر والقرن الثامن عشر من الميلاد) | ٤٠٠ و ٤٠٨   |
| ١٢٣  | ٤٢٥ تماثيل في أمبرناته ( القرن التاسع من الميلاد )                |
| ١٢٥  | ٤٣٣ نقوش بارزة في مها بلى پور (القرن الثامن من الميلاد)           |
| الفنون الصناعية  | ٣١٩ تماثيل في كهجورا ( القرن العاشر من الميلاد )                  |
| ٦٥٣ طبق معدنى مكفت بالميناء وطبق من النحاس الأحمر مكفت بالبرونز والفضة       | ٤٤٥ نقوش في تانجور (القرن الحادى عشر من الميلاد)                  |
| ٦٥٦ إناء ذخائر بدهى مصنوع من الذهب   | ٥١٤ نقوش في هيلابيد (القرن الثالث عشر من الميلاد)                 |
| ٦٥٩ إناء من البرونز مكفت بالفضة ( حيدر آباد )                                | ٤٦٣ نقوش في ويلور (القرن الرابع عشر من الميلاد)                   |
| ٦٦١ إبريق مخرم بموه بالذهب ( كشمير )   | ٤٧٥ نقوش في نادبترى (القرن السادس عشر من الميلاد)                 |
| ٦٦٤ صندوق مزين بالميناء (راجبوتانا)  | ٤٨٦ نقوش في مدورا (القرن السابع عشر من الميلاد)                   |
| ٦٦٦ إناء من البرونز مكفت بالنحاس ( تانجور )                                  | ٥٠٢ نقوش في شرى رنغم ( القرن السابع عشر من الميلاد )              |
| ٦٦٩ إبريق شامى يظن أنه صنع في نيبال  | ٥٠٦   |
| ٦٧٠ إناء من فضة بموه بالميناء ( العصر المولى )                               |   |
| ٦٧١ شمعدان من البرونز ( مدورا )  |   |
| ٦٧٥ إناء معدنى بموه بالميناء ( البنجاب )                                     |   |
| ٦٧٦ إناء خزفى مطلى ( سندها )   |   |



| الصفحة   | الصفحة                                   |
|--|--|
| ٦٩١ أسلحة وأدوات هندوسية مختلفة                                | ٦٨٠ عقد من فضة (سندها)                   |
| الخرائط  | ٦٨١ حلقة من فضة على شكل شبكة<br>(أوريسة) |
| ٢٤ خريطة الهند . وفيها ذكر للأمكنة<br>المشتملة على أهم المباني | ٦٨٤ سارية سرير مدهونة باللك (سندها)      |
| ٢٣٤ خريطة الهند الإسلامية في عهد<br>الملك أكبر                 | ٦٨٥ حلقة من ذهب (بجي)                    |
|  | ٦٨٦ حلقة (تري جنابلي)                    |
|  | ٦٨٨ سوار من فضة (البنغال)                |

## فهرس الموضوعات

|                         |            |
|-------------------------|------------|
| مقدمة المترجم . . . . . | ( ٨ - ٥ )  |
| مقدمة المؤلف . . . . .  | ( ١٧ - ٩ ) |

## الباب الأول

### اليثات

#### الفصل الأول

#### الأرض والأجواء

(١) وصف بلاد الهند العام - طبيعتها الخاصة - يتألف منها عالم مسنقل - عزلتها - أسباب اختلاف أجوائها وإنتاجها - (٢) بلاد الهند - حدودها وجبالها وأنهارها - بقاء الغزو - (٣) الدكن - المنطقة الوسطى والمنطقة الساحلية - (٤) وصف أنهار الهند الكبيرة - عدم انتظام مجاريها - منحدراتها - أنهارها العظيمة : الغنغ والسند ونر بدا - أنهار الدكن - السواحل - فقدان اللوانى الطبيعية - (٥) أجواء بلاد الهند - اختلاف هذه الأجواء - يجتمع في بلاد الهند مختلف أجواء العالم - فصولها - رياحها الموسمية - تقلب الأمطار - المجاعات - الأعاصير - الأوبئة - أثر جوها في سكانها . . . . . ( ٥٨ - ٢١ )

### الفصل الثانى

#### وصف مناطق الهند العام

الحدود الطبيعية لمناطق الهند - الحظ الفاصل بين الهندوستان والدكن - (٢) همالية الشرقية ( نيبال وسكم وهورتان ) - عزلة نيبال - وصفها الخاص - اختلاط المؤثرات الهندية والتبتية - الممالك الصغيرة في منطقة جبال همالية الشرقية - (٢) البنغال - خصبه - طبيعة سكانه - (٣) أوديه - اختلاف سكانه عن البنغال (٤) همالية الغربية - جوكشمير -

وادی کشمیر - (۵) الهند الإسلامية ( البنجاب وراجوٹانا والسندھ الخ . ) - أوصافها - البنجاب وکانتھیاوار والكجرات الخ . - (٦) ولايات الهند الوسطى وساحل أوريسه - المنطقة الوسطى المعروفة ببنودانا - منطقة أوريسه - (٧) الدکن - الظاهرة البركانية قسم من الدکن - مملكة حيدر آباد ومملكة ميسور الخ . . . . . ( ٥٩ - ٧٥ )

### الفصل الثالث

النباتات والحيوانات والمعادن

(١) النباتات - تنوعها في الهند - نروة الهند الزراعية - حاصلاتها : الحبوب والقطن والشاي الخ. (٢) الحيوانات - تنوعها في الهند - قلة المواشي - (٣) المعادن - ضعف الإنتاج المعدني - مناجم الفحم الحجري - الافتقار إلى الفحم الحجري - الخلاصة ( ٧٦ - ٨٨ )

## الباب الثاني

### العروق

### الفصل الأول

منشأ عروق الهند وتقسيمها

(١) كيف تنشأ العروق وكيف تتحول - الفرق بين العروق والأمم - صفات العروق الفارقة - الصفات الموروثة والصفات المكتسبة - كيف يمكن أمة ان تؤلف عرفاً - تأثير التوالد والوراثة - تأثير نسبة اختلاط الأمم - تأثير البيئات البطيء - نبات الصفات الموروثة - ما أدى إليه توالد الهندوس والأور بين من النتائج السيئة - (٢) مبادئ تقسيم العروق - قيمة المقابلة بين الصفات التشريحية والخلفية والعقلية في ذلك التقسيم - عدم كفاية الصفات التشريحية في تقسيم العروق البشرية - أهمية الصفات الخلفية والعقلية - هذه الصفات هي تراث العروق وهي تعين تطور الأمم والدور الذي تملئه في التاريخ - كيف يرجع الأشخاص الذين أسفر عنهم الانتخاب إلى المثال المتوسط - الصفات الخلفية والعقلية المشتركة في المثال المتوسط (٣) تكوين عروق الهند - تقسيماتها الأساسية - الفروق العظيمة بين أهالي الهند - تقسيمهم إلى أربعة عروق كبيرة : الأبيض والأصفر والتوراني والآري - لا قيمة لكلمة هندوس من الناحية الإثنولوجية - لون أهالي الهند الأقدمين الأسود - الشعوب التي استولت على الهند - الغزو التوراني والغزو الآري - نتائج اختلاط مختلف الشعوب . . . . . ( ٩١ - ١٠٩ )

## الفصل الثاني

### عروق الهند الشمالية أو الهندوستان

- (١) سكان همالية - أصل سكان أودية همالية ودرديستان وكشمير ونيبال الخ -  
(٢) سكان آسام - قبائلها للتوحشة : الناغاوالسكهاسيا الخ . - (٣) سكان وادي الغنيج -  
تدرجهم إلى التجانس - تفوق العنصر الأصفر في البنغال وتفوق العنصر الآري في وادي الغنيج -  
قبائل وادي الغنيج الأدنى للتوحشة : الساتمال والمليخ الخ . - (٤) سكان البنجاب - تغريق  
العناصر الآرية والتورانية والإسلامية - وصف العناصر الأجنبية - الأصل التوراني -  
أهمية الجات - (٥) سكان السند وراجبوتانا - قدم الراجبوت - الراجبوت أقل العناصر  
الهندية تأثراً بالمغازي الأجنبية - شباه الوحوش من سكان راجبوتانا : البهيل، الخ . -  
(٦) سكان السكجرات وشبه جزيرة كاتميياوار - اختلاط العروق في هذه المنطقة (١١٠ - ١٤٥)

## الفصل الثالث

### عروق الهند الوسطى والهند الجنوبية

- (١) المراتها - أهمية المراتها في الهند - نظام بدايات المراتها السيامي - (٢) صفات  
العروق الدراويدية العامة - انفصالهم عن عروق الهند الأخرى - أهمية جماعة التمول -  
(٣) سكان كوكن - (٤) سكان شواطئ ملبار : الناير الخ . - أهمية البحث في الناير  
لتمثل بعض تطورات الأمر الأولى - تعدد الأزواج وتعدد الزوجات - الأمومة عند الناير -  
شأن رب الأسرة الضعيف - قدم تعدد الأزواج من الذكور في الهند - (٥) سكان  
نل غيري - هؤلاء عنوان مراحل البشر الأولى - التودا والبداغا الخ . - (٦) سكان جنوب  
الهند الوحوش - (٧) سكان الولايات الوسطى أو غوندوانا - عزلة غوندوانا منذ القديم -  
غوندوانا منطقة ظلت منيعة في وجه الغاتحين على الدوام - الغوند - طبائعهم وعاداتهم  
ومعتقداتهم وقرائنتهم البشرية - التنبؤ باليلايا والآفات - عبادة الغر والأفعى - نظام  
الأسرة والنظام السيامي عند الغوند - (٨) سكان أكرن تك وجهوتاناغبور  
وأوريصة الخ . - السكوند والسكول الخ . - عادات السكول - الخلاصة - تنوع عروق  
الهند وما بين هذه العروق من عظيم الفروق . . . . . (١٤٦ - ١٨٥)

## الفصل الرابع

### الصفات الخلقية والعقلية المشتركة

#### بين عروق الهند المختلفة

(١) مانسأ عن أحوال البيئة والحياة في الهند من تماثل بين شعوب الهندوس - مابين فريق كبير من شعوب الهندوس من الصفات المشتركة - المؤثرات الجنازية والعقلية التي أدت إلى هذه الأخلاق المشتركة - نظام الطوائف والنظام السيامي والمعتقدات الدينية الخ - (٢) الصفات الخلقية والعقلية المشتركة بين أكثر الهندوس - الدماثة والصبر والتسليم والمداواة وعدم النشاط وعدم التبصر وفقدان المبدأ الوطني - نتائج عدم النشاط في مصير الهندوس - الصفات الخلقية أفضل من الصفات العقلية في تقرير مصير الأمم - مستوى الهندوس العقلي - مقابلة بين الهندوس والأور بين - طبقات الهندوس الوسطى مساوية لطبقات الأور بين الوسطى - طبقات الهندوس العليا هي دون طبقات الأور بين العليا - قدرة الهندوس على الإدغام - ضعف رأيهم وبرهانهم - عدم الدقة في تفكيرهم - الفروق بين العروق العليا وغيرها - تطبيق هذه الفروق على الهندوس - نتائج مزاج الهندوس النفسي - تقصيرهم في العلوم وفي التاريخ - الخلاصة (١٨٦ - ٢٠١)

## الباب الثالث

### تاريخ الهند

## الفصل الأول

### تاريخ الهند قبل المعازي الأوربية

(١) مصادر تاريخ الهند - نقص المصادر التاريخية - ليس لاهند تاريخ - اقتصار تلك المصادر على المباني والكتب الدينية والأساطير وأقاصيص قدماء السباح - أهمية المباني والتماثيل والنصب - لا يزيد تاريخ أقدمها على ثلاثة آلاف سنة - الأسس لتقسيم تاريخي - (٢) العصر الويدي - العصر الويدي هو عصر الهند الأساطيري - المعازي الآرية - كتب الويدا - (٣) العصر البدهي - فقدان الوثائق التاريخية -

الغزو الإسكندري - علاقات الإغريق بالهندوس - أشوكا ووكراماديتيه - عواصم الهند القديمة - (٤) العصر البرهمي الجديد - وثائق هذا العصر - دوامه - (٥) العصر الإسلامي - أهمية الغزوات الإسلامية - لم يبدأ تاريخ الهند الصحيح إلا في هذا العصر - تعاقب الدول الإسلامية في الهند - المغول - سقوط دولتهم - (٦) تاريخ جنوب الهند - تاريخ جنوب الهند مستقل عن تاريخ شمالها - ممالك الدكن الهندوسية القديمة - ممالك بنديا وجيرا وجولا وجالوكية - فتح المسلمين لجنوب الهند - سقوط دولة بيجانغر . . . (٢٠٥ - ٢٣٥)

## الفصل الثاني

### صلات الهند القديمة بالغرب تاريخ الغزوات الأوروبية كيف فتحت الهند

(١) صلات الهند بأوربة في القرون القديمة والقرون الوسطى - كيف كانت الهند تتصل بأوربة في القرون القديمة - العرب وحدهم كانوا واسطة ذلك - صلات الهندوس بالفرس - صلات الهندوس بالإغريق بعد غزو الإسكندر - صلات الهند بممالك بقطريان الإغريقية - اكتشاف طريق إلى الهند أيام قيصرية الرومان - طريق بحر أريرة - معارف بطليموس عن الهند - انقطاع صلات أوربة بالهند مدة ألف سنة بعد الفتوح الإسلامية - رحلات علماء من العرب إلى الهند - بعثة ماركوبولو - اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح في القرن الخامس عشر - نتائج هذا الاكتشاف العظيمة - (٢) مؤسسات الأوربيين الأولى بالهند - محاولات البرتغاليين والهولنديين - إقامة أول شركة إنكليزية في أوائل القرن السابع عشر - كره وكلاء الإنكليز في البلاط المغولي - حاول الإنكليز محل البرتغاليين والهولنديين بالتدرج - تأسيس شركة فرنسية - لاجارة في الهند - (٣) الصراع الفرنسي الإنكليزي في الهند - قوة الإنكليز والفرنسيين في أوائل ذلك الصراع - محاولة دوبيكس طرد الإنكليز من الهند - استدعاؤه - حبوط عمل خلفه - اتساع الفتح الإنكليزي بسرعة بعد طرد الفرنسيين - (٤) كيف فتحت الهند - انتحال الإنكليز لأساليب دوبيكس - كيف فتح الإنكليز الهند بجنود هندوس ومال هندوس - الصفات الخلقية التي أدت إلى استيلاء الإنكليز على الهند - نتائج فقدان الشعور القومي في الهند . . . . . (٢٣٦ - ٢٤٩)

## الباب الرابع تطور حضارات الهند

### الفصل الأول

#### حضارة العصر الويدي

وصف للمجتمع الهندوسى قبل الميلاد بألف سنة

(١) عناصر بحث حضارات الهند - التقسيم إلى أعصر - الكتب الدينية - الخاسيات - الأساطير - أحاديث قدماء السباح - المباني - بطوء التطور فى الهند - لماذا لم تجاوز شعوب الشرق أطوار القرون الوسطى بعد - تأثير التقاليد والمعتقدات - من أسباب جمود الشرق اختلاط شرائعه الدينية والاجتماعية على الدوام بدلا من فصل بعضها عن بعض كما فى الغرب - للمعتقدات الدينية فى الشرق هى أساس جميع نظمها الاجتماعية - عناصر التقسيم لمختلف أطوار الحضارة فى الهند - التقسيم إلى ستة أعصر - (٢) مصادر بحث الحضارة الآرية - غموض أصول العصر الآرى - لم تصل إلينا منه آثار حجرية، وإنما انتهت إلينا منه كتب دينية - قيمة كتب الويدا - لم تكن هذه الكتب من عمل شعوب فطرية، بل من وضع فريق من الأدباء وعلماء اللاهوت - (٣) أصل الآريين - مقابلة بين الآريين وقدماء الفرس - غموض أصل الآريين - الفرضيات الحديثة - أدخل الآريون إلى الأمم المتهورة حضارتهم ولغتهم، لادمهم - توارى الآريين عن الهند - (٤) الأسرة عند الآريين - كانت الأسرة والعرق أساسى المجتمع الآرى - ارتباط الفرد الوثيق فى أجداده وحفدته - كانت الأسرة، لا الفرد، أساس الوحدة - لم تكن البداية غير عبادة العرق والأسرة - خلط الآلهة بالأجداد - أهمية ما يقرب إلى أرواح الأجداد من القرابين - حال المرأة عند الآريين - سلطان رب الأسرة المطلق - (٥) نظم الآريين السياسية والاجتماعية - القرية ولبدة الأسرة الكبيرة - لا يزال نظام القرية، كوحدة سياسية، باقياً إلى أيامنا فى الهند - (٦) الحياة عند الآريين - فنونهم - طرق معاشهم - للسر والملاهى والمآتم الخ - (٧) مبادئ الآريين اللاهوتية الدينية - لا آلهة معينة عند الآريين - تشتمل كتب الويدا على أكثر المبادئ الدينية

تناقضاً واختلافاً - تذبذب مبادئ الآريين - آلهة الآريين الأصلية - ما يعزوه الآريون إليها من القدرة المحدودة - ما يمكن استنتاجه من كتب الويدا من المبادئ اللاهوتية والمبادئ الدينية - الأخلاق عند الآريين - تقدير الحضارة الآرية في مجموعها ..... ( ٢٥٣ - ٢٨٩ )

## الفصل الثاني

### حضارة العصر البرهمي

وصف للمجتمع الهندوسي قبل الميلاد

بثلاثة قرون أو أربعة قرون

(١) الوثائق التي يستعان بها في بحث المجتمع الهندوسي قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون - شرائع منو - العلائق بالإغريق - رحلة ميغاستين - (٢) تقسيم المجتمع الهندوسي إلى طوائف - حقوق كل واحدة من هذه الطوائف وواجباتها - الضرورات التكنولوجية التي أدت إلى نظام الطوائف - فساد المثال الآري كما ظهر من دراسة النقوش القديمة - شدة نظام الطوائف - وظائف أفراد كل طائفة - (٣) للمدن والمباني - ما انتهى إلينا من مبادئ ذلك العصر - وصف مدينة هندوسية قديمة على حسب رواية ميغاستين ورواية رامايانا - (٤) الحكومة والإدارة - سلطة الملك المطلقة - إدارة الدولة - الضرائب - (٥) إقامة العدل - الشرائع والعادات - إذا عدت الشريعة الدينية لم تجد شريعة سوى العادة - كيف كان العدل يقوم - البحث عن الجرائم والاشتراك الجزائي - حكم الله - لا تفرض العقوبة بحسب الضرر الواقع - دماء الطبايع - (٦) الجيش وفن التعبئة - أهمية الجيوش الهندوسية - على حسب رواية ميغاستين - الأسلحة - فن التعبئة - (٧) الزراعة والتجارة - التعليمات الزراعية - مبادئ المفاضة - الربا الفاحش - الطبقة الصناعية والتجارية - (٨) أحوال النساء - الوصاية على المرأة في العصر البرهمي - عقوبة الزنا الشديدة - واجبات الأزواج المتبادلة - (٩) معتقدات الهندوس الدينية قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون - تطورات النظام الويدي القديم - جفاء الطقوس - أسس وحدة الوجود - مذهب التناسخ - مستقبل الإنسان على حسب أعماله في حياته - شدة النير الديني المفروض على الهندوس في العصر البرهمي ..... ( ٢٩٠ - ٣٣٩ )



## الفصل الثالث

### حضارة العصر البدهى

(١) الوثائق التى يستعان بها فى تمثل المجتمع الهندوسى حول القرن الرابع أو القرن الخامس قبل الميلاد - دام العصر البدهى فى الهند نحو ألف سنة - قلة الوثائق التاريخية وكثرة المباني الحجرية فى العصر البدهى - مخطوطات نيبال - رحلات حجاج من الصين - (٢) الفضة البدهية - تحول العالم البرهمى القديم فى أوائل العصر البدهى - حياة بدهة كما جاءت فى للميتا وشتار - ولادة بدهة - يأسه - تأملاته فى أسباب الألم - نظرياته فى هدف الحياة وبؤسها - (٣) الديانة البدهية - الأدب الذى نجم عن البدهية - لآتمس البدهية الآلهة القديمة - مذهب الكرما - الأسباب الأدبية والمادية التى انشترت بها البدهية - تأثير البدهية الواسع فى آسية - بماذا تختالف البدهية عن البرهمية - (٤) البدهية كما جاءت فى المباني - رأى علماء أوربة فى إلحاد البدهية - فساد هذا الرأى - البدهية أكثر الأديان إثراكا - مطابقة ما جاء فى الأقاصيص لما فى المباني - ما فى البدهية من التأملات اللاهوتية يرى فى جميع ديانات الهند - نشوء النظريات الفلسفية حول البدهية نشوؤاً متوازياً لها مستقلاً عنها - مصدر ما فى أوربة من الأغاليط حول البدهية - يجب عد البدهية متطورة عن البرهمية - (٥) توارى البدهية عن الهند - تؤدى دراسة مباني نيبال وسائر بلاد الهند إلى تفسير ذلك الغياب - البدهية فى نيبال - النالوت البدهى - امتزاج البرهمية والبدهية فى نيبال - (٦) المذاهب الفلسفية فى البدهية - بطلان الأشياء - مختارات من كتاب بدهى حديث - (٧) المجتمع البدهى - روح الاتحاد والاحسان والرحمة - رحلات الحاجين الصينيين قاهيان وهويون سائع فى الهند - ما انتهى إلينا منهما عن المجتمع البدهى - الخلاصة . (٣٤٠ - ٣٩٥)

## الفصل الرابع

### حضارة العصر البرهمى الجديد

وصفُ المجتمع الهندوسى حَوَالَى القرن العاشر من الميلاد

(١) العناصر التى يستعان بها فى بعث العصر البرهمى الجديد - غموض تاريخ الهند فيها بين القرنين الثامن والثانى عشر - مباني ذلك العصر وكتاباته وأساطيره -

الوسائل التي يستعان بها في بحث حال المجتمع السياسية والاجتماعية في ذلك العصر -  
(٢) المجتمع الهندوسي حوالى القرن العاشر من الميلاد - بلوغ الفن الهندوسي غايته -  
وصف مدن الهندوس الكبيرة في القرن العاشر - حياة سكانها - شأن الخليلات - أعمال  
الملوك والأسياد - دين الأهالي - (٣) نظام ممالك الهند الآرية السياسية والاجتماعي  
حوالى القرن العاشر من الميلاد - راجبوتانا هي البلد الهندى الوحيد الذى حافظ على  
نظامه السياسى والاجتماعى القديم - أوجه شبه ظاهرة بين هذا النظام والنظام الإقطاعى -  
الفروق الأساسية الحقيقية بينهما - الزمر الراجبوتية - ظهورها - الأسرة الراجبوتية -  
الطبايع والعادات ..... (٣٩٦ - ٤١٥)

## الفصل الخامس

### حضارة العصر الهندى الإسلامى

وصف المجتمع الإسلامى في الهند حوالى القرن الخامس عشر

(١) تأثير المسلمين في الهند - العروق الإسلامية في الهند - دام العصر الإسلامى  
في الهند من القرن الحادى عشر إلى القرن الثامن عشر - الشعوب الإسلامية التى  
استولت على الهند في سبعة قرون - تأثير المسلمين العميق في ديانة الهند واعتقادها وفنونها -  
تأثير المسلمين في الهند أقل منه في مصر - أدخل المسلمون حضارة العرب إلى الهند بعد  
أن عدلت في بلاد فارس - اختلطت حضارة المسلمين بحضارة الهند من غير أن تقوم  
مقامها كما تدل عليه دراسة المباني - المغول - ضعف تأثير المسلمين العربى في الهند -  
(٢) الحضارة الإسلامية في الهند - نظام الممالك الإسلامية السياسى في الهند - وصف  
الحضارة المغولية في الهند في عصر الملك أكبر - عدم الأريستوقراطية الوراثية -  
سلطة ولى الأمر المطلقة - حياة الملك المغولى اليومية - إدارة المملكة - المصالح العامة -  
الطرق - البريد - الضرائب - العدل - نظام الجيش - شأن النساء في بلاط ملوك  
المغول - ميل المغول إلى العلوم والآداب والفنون - آثار ملوك المغول العلمية والأدبية -  
مذكرات الملك بابر - أهميتها في معرفة مزاج الأمير المغولى - مقابلة بين أمير مغولى -  
وأمير فرنسى في عصر النهضة ..... (٤١٦ - ٤٣٧)

## الياب الخامس آثار حضارات الهند

### الفصل الأول

#### آداب الهند ولغاتها

(١) قيمة آثار الهند الأدبية القديمة .. قيمة آثار الهند الأدبية ضعيفة من الوجهة الأوربية .. نقائص آداب الهند .. (٢) النشائد والأشعار الدينية .. الآداب الويدية .. مختارات مختلفة .. أنشودة إندرا الويدية .. أنشودة الفجر الويدية .. أنشودة الشمس الويدية .. أنشودة الروح العليا الويدية .. أنشودة برهما .. أنشودة أدى بدهة البدهية .. (٣) القصائد الهندوسية الحماسية الكبرى .. المهابهارتا .. أهميتها في الهند .. خلاصة ومقتطفات .. دخول الجحيم .. دخول جنة إندرا .. الرامايانا .. خلاصة ومقتطفات .. هبوط الغنغا .. طلوع القمر .. اصطيد الغزال السحري .. إعلان حب سيتا .. جيش شيوا .. (٤) الأمثال والأساطير .. يمكن الأمثال أن تكون أهم ما أنتجته الهند .. أهمية البنسج نننرا .. ترجمتها إلى أكثر لغات العالم .. الهنوديشا .. الأساطير .. (٥) التمثيل الهندوسى .. شأن الحب فيه .. الحوادث الخارقة التى فيه .. ضعف التمثيل الهندوسى .. شكسبير .. (٦) آثار أدبية مختلفة .. تنوع الموضوعات .. البورانانا .. الأوبانشد الخ .. (٧) لغات الهند .. تشتمل الهند على أكثر من ٥٤٠ لغة ولهجة .. تقسيمها إلى خمس فئات .. أهم تلك اللغات .. صعوبة تبين الأمكنة فى الهند .. (٤٤١ — ٤٨١)

### الفصل الثانى

#### مباني الهند

صعوبة درس فن البناء فى الهند .. تعذر وصل بعض أدوار مبانيها .. ظهور طرز بناء بغتة وتوارىها فجأة .. (١) تقسيم مباني الهند .. أصول فن البناء الهندوسى .. ظهوره .. قواعد تقسيم له .. جدول عام لتقسيم مباني الهند .. (٢) فن بناء الهند فى العصر البدهى ( بين القرن الخامس قبل الميلاد والقرن الثامن بعد الميلاد ) .. المعابد

والآديار المنحوتة في الصخور - أجنثا - وكارلي، الخ . - القباب - سانجي وسارناتيه - المعابد البدهية الكبرى القائمة فوق الأرض - بدهه غيا - المباني الإغريقية الهندوسية في شمال الهند الغربي - ضعف المؤثرات الأجنبية في الهند - أمثلة مختلفة - (٣) فن البناء في العصر البرهمي الجديد (بين القرن الخامس والقرن الثامن عشر من الميلاد) - فن البناء في ولاية أوريسا - معابد بهوونيشور - فن البناء في راجبوتانا - معابد بنديل كهند وجبل آبو - قصور غواليار وأوديبور، الخ . - فن البناء في كجرات - مباني أحمد آباد - مباني الهند الوسطى - معابد أمبرناتيه وإيلورا، الخ . - (٤) فن البناء في الهند الجنوبية - المعابد المصنوعة تحت الأرض في جنوب الهند - بادامى ومهابلى بور الخ . - وضع معابد جنوب الهند العام - معابد بيجانتر ومدورا وشرى رنتم الخ . - (٥) فن البناء الهندوسى الإسلامى - تنوع الطرز الإسلامية في الهند - عناصر فن البناء الإسلامى الأساسية - أصول الطراز المغولى - عناصره الأساسية - تصنيف المباني الإسلامية في الهند - (٦) فن البناء الهندى التبتى - مباني نيبال - اختلاط العناصر الهندوسية والصينية - تقسيم معابد نيبال ومبانيها العام - (٧) فن البناء الهندوسى الحديث - نهقر فن البناء في الهند حديثاً - أسبابه - المباني الهندوسية التى أقيمت في الهند منذ قرن ..... (٤٨٢—٥٤٤)

### الفصل الثالث

#### العلوم والفنون

(١) العلم الهندوسى - مصادر العلوم الهندوسية - اقتبس الهندوس علومهم من اليونان والعرب - كيف وقع ذلك - عطل الهندوس من الابتداع العلمى - معارفهم العلمية - لا يجوز أن يعد تفوق أمة في فرع من المعارف دليلاً على مستواها العلمى - (٢) الفنون الهندوسية - أهمية آثار الفن في بحث حضارة أحد الأزمنة - يفتح رجل الفن عن احتياجات الزمن الذى يعيش فيه ومشاعره ومعتقداته - أهمية آثار الهندوس الفنية - أثر الهندوس البالغ في تحويل الفنون التى اقتبسوها من الأمم الأخرى - نشوء الفنون في الهند - النحت والتصوير - الفنون الصناعية - صناعة الخشب والمعادن والحجارة القيمة الخ ..... (٥٤٥—٥٦٤)

## الباب السادس

### الهند الحديثة

المتعقدات والنظم والطبائع والعادات

### الفصل الأول

#### مراج الهندوس النفسى

كيف يمكننا أن نتفقد فى مزاج الهندوس النفسى - فائدة البحث فى الأمثال والقصص الشعبية - هذه الآثار هى صدى تجربة الشعب - (١) القدر - مذهب الهندوس فى القدر - (٢) الخلق - ثباته عند الهندوس - (٣) الحياة والحرم والموت - (٤) عوامل سهر الإنسان - ترجع هذه العوامل إلى الخوف والطمع والجوع والحب - (٥) النساء - قسوة كتب الهندوس على النساء - خيهن وعدم تباهن - (٦) العلم والجهل - الهندوس يضعون العلم فوق كل شىء - احتقارهم للجهل - (٧) الفنى والفقر - أهمية الفنى - الموت عند الهندوسى خير من الفقر - (٨) السلوك الواجب فى مختلف أحوال الحياة - مبادئ الأخلاق العامة - نتائج الفضائل والردائل - سلوك الإنسان نحو الناس - كيف يتودد إليهم - فائدة المداهنة والاحتراس - الصلات ونتائجها - (٩) السياسة - سلوك الملوك نحو رعاياهم - وزراءهم وعمالهم - وسائل انتصارهم على أعدائهم - (١٠) مصدر الاختلاف بين تعاليم الكتب الهندوسية وتعاليم الكتب الأوربية - الأدب عند الهندوس مستقل عن الديانة - العلائق بين الديانة والأدب فى أوربة . . . (٥٦٧ - ٥٩٨)

### الفصل الثانى

#### ديانات الهند الحاضرة

آراء الأوربيين الحاضرة فى ديانات الهند - وجه الخطأ فيها - الفروق العظيمة بين مبادئ الهندوس ومبادئ الأوربيين الدينية - (١) الثالوث الهندوسى : برهما وشنو وشيوا - لاهوتية هذا الثالوث - (٢) الشيوائية - قدم شيوا - رموزه - عبادته - (٣) الوشنوية - قدم وشنو - رموزه - تقمصاته - (٤) تنوع ديانات الهند -

تحولاتها المستمرة — ينطوى اسم البرهمية الجديدة على مختلف المعتقدات — وصف هذه المعتقدات للشرىك — كيف تؤسس المذاهب — (٥) أشكال ديانات الهندوس الخارجية — تفيد الهندوس بالشكليات فى أمورهم الدينية — التوبة والتقىف وتلاوة الكتب المقدسة والصلوات والحج والقرايين — (٦) الجينية — أصولها ونشوءها — مشابها للبدئية — (٧) مبادئ جميع أديان الهند العامة — الوبدية والبرهمية والبرهمية الجديدة هى ديانة واحدة تنفرع منها البدئية والجينية — المبادئ المشتركة بين جميع ديانات الهند — (٨) الإسلام فى الهند — أهمية الإسلام فى الهند — فى الهند خمسة مليون مسلم — كيف تحول الإسلام فى الهند — اقتباساته من أديان الهند الأخرى — نحو الإسلام المستمر فى الهند — (٩) تأثير الدين فى الأخلاق عند الهندوس — فصل الدين عن الآداب عند الهندوس — إذا نظرنا إلى الهندوس من الناحية الأوروبية وجدناهم أكثر الأمم تديناً وأفكاراً آداباً — لا تبالى آلهة الهند بغير واجبات الناس نحوها ، لا بواجب بعضهم نحو بعض — تقوم التعاليم الدينية الأساسية لدى الهندوس على استمالة الآلهة بالعبادة ونقاء الطائفة — الأهمية القليلة لبعض الجرائم فى الهند — روح المحبة هى العنصر الأدبى الذى نفذ فى الهندوسى بفضل البدئية — صفات الهندوسى بسجيته لا بأدابه ( ٥٩٩ — ٦٣٣ )

### الفصل الثالث

#### النظم والطوائف والعادات

(١) القرية والتملك — القرية فى الهند وحدة سياسية لا يعاوها سوى الدولة — القرية وحدها هى وطن الهندوسى — نظام القرية — المشتركة فى الأموال — اختلاف نظام الأملاك فى مختلف أجزاء الهند — (٢) الأسرة — حال المرأة فى الهند — القرية عشيرة أو أسرة مشتركة — سلطان رب العائلة المطلق — انقياد المرأة — الزواج — عادة انتحار الأيامى — الأولاد — احترام الأم — (٣) نظام الطوائف — نظام الطوائف هو حجر الزاوية لجميع نظم الهند السياسية منذ ألفى سنة — نشأ هذا النظام عن ضرورات عرقية — أسباب دوام هذا النظام — كيف يتحسر الإنسان طائفته — فى دستور الهند الطائفى سرخضوع الهندوسى لسادة من الأوربيين — سلطان نظام الطوائف فى الهند — نظام الطوائف ما قال به جميع الفاتحين ومنهم الإنكليز — الطائفة الإنكليزية — هذه الطائفة محكمة بإحكام الطوائف الأخرى — (٤) الحقوق والعادات — أطوار الحقوق الفطرية فى الهند — العادات المحلية والتعاليم الدينية هى أساس هذه الحقوق — لا يتصور الهندوسى وجود شريعة واحدة

للجميع - ما يلافيه أولياء الأمور الإنكليز من المصاعب - عادات الهندوس في الوارث -  
(٥) الزراعة - الهند قطر زراعى على الخصوص - مصادر الزراع - الفقرو زيادة السكان -  
(٦) العامل الهندوسى - حال هذا العامل الاجتماعية أفضل من حال العامل الأوربى -  
حقه الفنى ومهارته اليدوية - (٧) حياة الهندوس العامة والخاصة - أبهة الطبقات  
الغنية - بساطة الحياة الخاصة لدى جميع الطبقات - المساكن - الولائم - الاستقبالات -  
الأزياء - المدن والقرى - الأعياد والحج - تربية الأولاد - النكاح - المآتم - الرافعات -  
استقبال ملوك الهند للأجانب . . . . . ( ٦٣٤ - ٦٧٧ )

## الفصل الرابع

### الإدارة الإنكليزية

#### مستقبل الهند

(١) الإدارة الإنكليزية - مبادئ إدارة الإنكليز في مستعمراتهم - حكومة الهند  
قبل ثورة السباهى - إدارة الهند الحاضرة - تقسيمات إدارية - سلطة الحكام ونائبيهم -  
موظفو الإنكليز ورواتبهم - استعدادهم الكبير - يدير الهندوس أمور بلادهم الثانوية -  
بساطة الإدارة الإنكليزية - الجيش - المالية - التجارة - وسائل النقل - دول الهند  
المستقلة - (٢) التربية الإنكليزية في الهند - أهمية التربية - تأثير التربية الأوربية  
السيء في الهندوس - المنفغ الهندوسى - عقله وأدبه - عدم انزانه - (٣) مستقبل  
الهند - مسألة مستقبل الهند تتضمن نتائج اصطراع الشرق والغرب - يمكن الهند أن  
تغير سادتها ، غير أنه محكوم عليها بالخضوع للغانحين من الأجانب - الأخطار التى تهدد  
سلطان الإنكليز في الهند - أهمية ما تتمخض عنه المنازعات الصناعية في الهند وفي  
بقية الشرق - نتائج هذه المنازعات الخطرة على أوربة - ما قد تسفر عنه من خفض  
أجور العمال في أوربة - لماذا لا يؤدى الأدب الأوربى الراهن إلى تبين مخرج ملائم  
لأوربة في المنازع الصناعى القادم بين الشرق والغرب . . . . . ( ٦٧٨ - ٧٠٧ )

فهرس الصور والخرائط . . . . . ( ٧٠٩ - ٧١٧ )

